اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة

المؤرخ العربى

تصدر عن

اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

العدد السادس | المجلد الأول | مارس ١٩٩٨

اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة المؤرخ العربى

العدد السادس – المجلد الأول

مارس ١٩٩٨

رقم الإيداع ١٩٩٤/٦٥٤٩

المطبعة الإسلامية الحديثة

٤٢ ش دار السعادة - حلمية الزيتون

القاهرة - ت ٢٤٠٨٥٥٨

هذه المجلة

- علمية تاريخية بحته ، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة .
- تستهدف الحقيقة التاريخية صافية نقية ، بعيدة عن أى تيارات سياسية أو عقائدية .
- البحوث التى تنشر فيها محكمة ، تعبر عن وجهة نظر أصحابها ، وهيئة التحرير غير مسئولية عما يرد فيها من آراء علمية .
- تصدر مؤقتًا سنويًا فى مارس من كل عام ؛ على أن تصلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق .
- لا يزيد حجم البحث المقدم للنشر عن أربعين صفحة ، منسوخ على الآلة الكاتبة أو بالكمبيوتر ؛ ويكون البحث من نسختين أصل وصورة .
- تخصص أقسام فى المجلة - حسب الإمكانات لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات .
- البحوث والأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها فى حالة عدم إجازتها للنشر بالمجلة .
- يأتى ترتيب البحوث المنشورة وفق أسبقية ورودها وإجازتها للنشر مع مراعاة الترتيب الزمنى بقدر الإمكان ، مراعاة للحاسة التاريخية . ولا علاقة إطلاقًا بين هذا الترتيب ومكانة الباحث أو درجته العلمية .
- جميع المراسلات تكون باسم الأستاذ الدكتور رئيس هيئة التحرير .

المــؤرخ العــربى

مجلة تاريخية علمية محكمة تصدر عن

اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد السادس – المجلد الأول – مارس ١٩٩٨

فى هذا العدد

كلمة الافتتاح

التاريخ علم له أصوله وقواعده وأهدافه ، وصفه ابن خلدون فى مقدمته بأنه « فن عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية ، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم فى أخلاقهم ، والأنبياء فى سيرهم ، والملوك فى دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدين والدنيا ».

ربما يؤخذ على التاريخ أنه فى بعض حلقات مسيرته يتطلب من المشتغل به أن يكشف عن خبايا الناس ويتعرض لسرد أخطاء الغير ، ولكن المؤرخ الحق لا يقدم على ذلك تنفيسا عن رغبة تختلج فى صدره أو بدافع حب النميمة ، وإنما يفعل ذلك للوقوف على الخطأ ، والبحث عن أسبابه ودوافعه ، وما ترتب عليه من مضار ومساوئ ، وذلك للإفادة وليس للإساءة .

وهنا يبرز دور علم التاريخ كمدرسة كبرى يتعلم فيها الإنسان على مر العصور التالية ، ليستفيد من أخطاء السابقين ويخرج منها بعظات وعبرات ، وبذلك يمكنه الإسهام فى بناء حاضر أفضل ومستقبل أعظم .

إن التاريخ علم له منهجه الثابت وقواعده الراسخة . والمورخ الحق يبحث فى سير السابقين لا لمجرد النبش للكشف عن مساوئهم وحسناتهم ، وإثارة الشماته بهم أو الفخر بالانتساب إليهم ... وإنما تبدو رسالة المؤرخ أسمى من هذا بكثير ...

وحفاظًا على مكانة التاريخ وأهله ، وجب علينا ألا نتركه بلا حراسة ليخوض فيه الأدعياء ممن لا يمتلكون أدوات وإمكانات هذا العلم ، وأهمها – كما قال ابن خلدون – شرف الغاية ، وأمانة الحكم ، وبعد الرؤية ، وسعة الأفق ، والقدرة على الربط بين الحوادث ، والتعليل لها ، والوقوف على الصلات بين الأسباب والنتائج ، والنظر إلى الأمور بعينين لا بعين واحدة .

وهذا ما يسعى المؤرخ العربى لتحقيقه تحت مظلة اتحادنا ، اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة . ولنتجه إلى الله بقلوبنا مرددين قوله تعالى : ﴿ إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا با لله عليه توكلت وإليه أنيب﴾ وإلى لقاء...

سعيد عبد الفتاح عاشور

المسلات فى مصـــر الفرعونية

بحث فى نشأة فكرة المسلة وفى طرق

قطع ونقل وإقامة المسلات

أ.د. عبد المنعم عبد الحليم سيد(*)

ملخص البحث

(أ) العقائد القديمة بشأن المسلة : أصل فكرة المسلة ومنشؤها - حجر البنين - طائرة الفنكس - الصلة بين المسلة والشمس - مغزى فكرة المسلة - أسماء المسلة قديمًا وحديثًا .

(ب) قطع المسلة من المحجر : خطوات قطع المسلة - اختيار الصخر - نزع طبقات الجرانيت السطحية - تحديد الكتلة - فصل جوانبها - تهذيب سطحها العلوى - اختبار استواء سطحها - تحديد المسلة - فصل جوانبها من الصخر - فصل المسلة عن الصخر نهائيًا - الآلات التى استخدمها المصريون فى عمل الفجوات .

(جـ) نقل المسلة من المحجر إلى النيل : إخراج المسلة من نطاق المحجر - رفعها إلى أعلى - طريقة استخدام الروافع - رأى المهندس الفرنسى شوازى - إرساء المسلة على زحافتها - تمهيد الطريق أمامها ورصفه

(*) أستاذ بقسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية .

- جرها إلى شاطئ النيل - الروافع والزحافات والإسطوانات الخشبية
- وضع المسلة فى السفينة - الآراء المختلفة بخصوص ذلك .

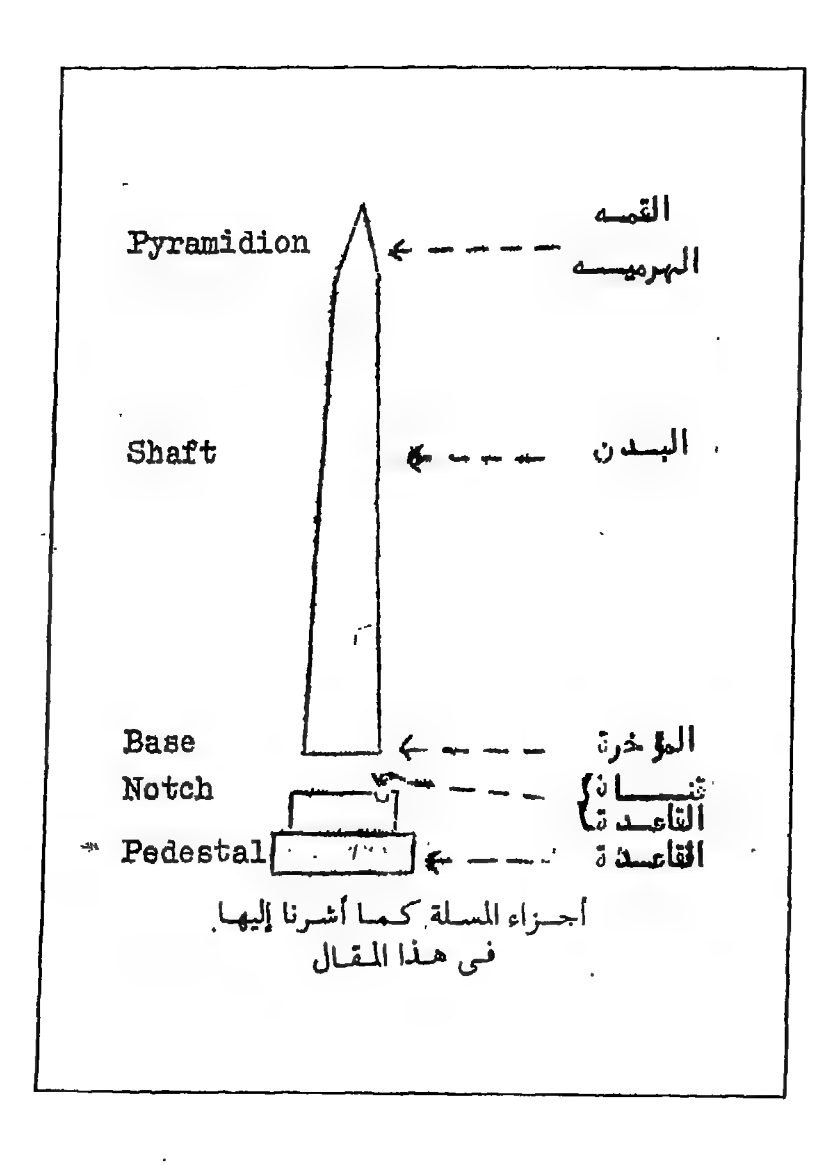
(د) المسلة فى عرض النيل : صناعة السفن فى مصر القديمة - نصوص الوزير أوفى بخصوص ذلك - سفن المسلات - سفن الملكة حتشبسوت - نصوص أنينى المهندس المصرى - رأى سومرز كلارك - نقل المسلة من السفينة إلى المعبد .

(هـ) نصب المسلة أمام المعبد : عدم عثورنا على نصوص قديمة كافية - بردية أنستاسى - إشارتها إلى عملية نصب التماثيل - إشارتها لوجود منحدر - رواية المؤرخ بلينى - آراء العلماء والمهندسين المحدثين - رأى شارب - الاعتراضات عليه - رأى فلندرز بترى - الاعتراضات عليه - نظرية شوازى - نقدها - نظرية الجلباك أو نظرية القمع - الأدلة على صحتها - نظرية شفربيه أو نظرية صندوق الرمل - موازنة بين نظريتى الجلباك وشفربيه - سبب تفضيل نظرية الجلباك .

(و) ما بعد نصب المسلة : عملية الصقل والتلميع - رسم الصور والعلامات الهيروغليفية - كسوة قمة المسلة بالصفائح المعدنية - نوع المعدن - هل كانت المسلات تغطى بأكملها بالمعدن ؟ أنواع أخرى من المسلات - مسلات المقاصير .

ملاحظـــة :

فى عرضنا لموضوع المسلات سنشير إلى مسلة أسوان ومحجرها اللذين رسما فى هذا المقال (شكل ٢ ، ٣) .



أجزاء المسلة كما أشرنا إليها فى هذا المقال

(أ) العقائد القديمة بشأن المسلة

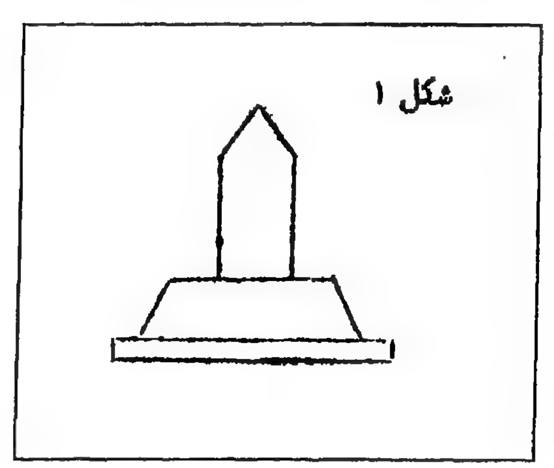
١ - أصل فكرة المسلة ومنشؤها:

فى عصر سحيق جدًا من التاريخ المصرى القديم أو قبل معرفة المصريين للكتابة بالآف السنين كان الأيونتيو(١) سكان مصر الأصليين يقدسون رمزًا حجريًا ممتدق من أعلاه وكان يسمى بِنْ Ben وقد ظهر مخصصه على آثار الأسرة الخامسة قريب الشبه بمسلة صغيرة (٢) .

أما سبب إقامة هذا الحجر وكيف اكتسب قدسيته فغير معروف على وجه التحديد . ومن المحتمل أن قدماء المصريين أنفسهم لم تكن لديهم فكرة محددة عن هذا الموضوع. ففى عصر الأسرات الأولى اعتقد المصريون أن هذا الحجر مقر روح الشمس التى خرجت من طرفه على شكل طائر وقد رسم فى العصور المتأخرة هكذا وكتب اسمه " بنُو " وكان الاعتقاد السائد أن روح الآله رع تتجسد فى هذا الطائر . وتقول النصوص أن هذا الطائر يظهر كل صباح فى الفجر على شجرة البرساء المقدسة الموجودة فى مدينة أون (هليوبوليس أو عين شمس الحالية) حيث شيد له فى العصور المبكرة معبد سمى "حِتُ بِنُو " " أى معبد الطائر بنو " وقد وحَّد الإغريق بين طائر البنو وبين طائر الفونكس Phoenix الذى ذكره المؤرخ هيرودوت فى كتابه عن مصر فقال(٣) :

" وهناك طائر مقدس يسمى الفونكس وأننى لم أره إلا مصورًا فإن زيارته للبلاد نادرة - كل خمسمائة عام فيما يقول أهل هليوبوليس ، وهو يزورهم فيما يقولون - عندما يموت والده ، فإذا كان يشبه الرسم فوصفه كما يأتى : ريش جناحيه بعضه ذهبى وبعضه أحمر وهو شديد الشبه بالنسر فى منظره وحجمه ... وقد أثبت البحث الحديث أن لون هذا الطائر أبيض لا كما وصفه هيرودوت .

وفى المعابد الجنازية المتصلة بأهرام الأسرة الخامسة كان حجر بِـنْ أو حجـر الشمس هو رمز الإله رع وهذا الحجر أصبح عبارة عن مسلة قصيرة وسميكة وضعت فوق قاعدة تشبه الهرم الناقص (انظر شكل رقم ١) وفى الجانب الشرقى من هذا الحجر المقدس مذبح لتقديم القرابين . وفى الجانب الشمالى عدة قنوات تنصرف منها دماء الضحايا إلى أوانى مذقونة . وكان المصريون يعتقدون أن روح إلة الشمس ترقب عملية نحر الضحايا من فوق قمة المسلة لتتمتع بالفائدة الروحية للقرابين(٤) وكانت هذه القمة الهرمية تسمى [هيروغليفية] " بنْ بِنْ " أى بِنْ البنْ " the Ben of Ben " وكانت المقصورة التى يحفظ فيها حجر الشمس تسمى [هيروغليفية] " بنْ بنِتْ " . وقد فسر الدكتور أحمد بدوى العلاقة بين طائر البِنُو والمسلة فقال(٥) : " كان معبد الشمس القديم فى مدينة هليوبوليس عبارة عن فناء مكشوف لا يحجبه عن السماء سقف وكانت فى هذا الفناء شجرة يتفيأ العابدون من ظلالها إذا ما هجر النهار . وقد شاهد كهان الشمس طائرًا من الطيور النادرة أبيض اللون - قد يكون الطير المعروف باسم مالك الحزين - يحج إلى المعبد فيحط على تلك الشجرة فى حين ويقيم فيها إلى حين ثم يرتحل عنها ليعود إليها بعد حين".



اعتقد المصريون أن هناك صلة بين الطائر وبين الشمس فاتخذوا منه رمزًا للشمس . وعندما تقدم المصريون وارتقوا عرفوا أنه طائر كغيره من الطيور التى تنتقل فى مواسم خاصة من كل عام . ولكنهم ادخروا هذه الصور واحتفظوا بذكراها رغم مر السنين وتعاقب الأجيال حتى جاء الوقت الذى مثلوا فيه صورة المعبد والشجرة والطائر . فأما الفناء المكشوف فقد بنوه وأما الشجرة فاستعاضوا عنها بالمسلة وظهرت الصورة كاملة فى معبد الشمس فى أبى غراب .

٢ - مغزى فكرة المسلة ومعناها :

تتكون المسلة من جزئين البدن Shaft وكان يعتبر نصبًا لإله الشمس والقمة الهرمية وهى رمز أشعة الشمس التى تنتشر لتحتضن الأرض . وكان المصريون مغرمين بالتورية والتلاعب بالألفاظ ففسروا كلمة " بِنْ " على أنها مشتقة من كلمة " وبِنْ " ومعناها يشرق(٦) .

ولما كان البقاء والخلود من صفات الإله رع آله الشمس كانت المسلة و(هى رمزه) تمثل البقاء والاستمرار والتجديد والخصوبة . وقد أصبحت كلمة أو تستعمل بمعنى التجديد والقوة . وليس هناك شك فى أن حجر البِنْ والقمة الهرمية للمسلة يمثلان القوة الخالقة أو القوة الإبداعية لإله الشمس(٧) .

وبما أن المسلة كانت تمثل التجديد ، كان المصريون يعتقدون أنها تجلب للمقبرة أشعة الشمس المجددة للحياة التى تحقق البعث والتمتع بالحياة الأخرى للمتوفى .

وفى عصر الدولة القديمة كانت المقابر " الأهرامات " تبنى على شكل هذا الرمز الحجرى . وفى عهد الدولة الوسطى كانت القمة الهرمية للهرم تنقش بالأدعية والصلوات لإله الشمس .

أما فى عصر الدولة الحديثة فقد أصبحت اللوحات الجنازية تصنع على هيئة أهرامات صغيرة أو على شكل حجر البِنْ وترسم عليها عين الشمس وعين القمر وصور المتوفى يتعبد لها(٨) .

وأقدم المسلات الكبرى القائمة حاليًا هى مسلة المطرية ويقول الملك سنوسرت الأول الذى أقامها أنه فعل ذلك بمناسبة الاحتفال الأول بعهده الثلاثينى. وقد ذكر ملوك الأسرة الثامنة عشرة على مسلاتهم أنهم أقاموها للإله رع أو آمون رع أو آتوم لكى تنعم هذه الآلهة عليهم بالحياة الأبدية .

ويذكر المؤرخ عبد اللطيف البغدادى أنه رأى عددًا من المسلات الصغيرة فى هليوبوليس ويحتمل أنها أقيمت لأغراض جنائزية فهى - كما سبق القول - ترمز إلى التجديد والقوة والبعث . وقد عثر فى مقابر الدولة الحديثة على مسلات كثيرة غير منقوشة يتراوح طولها بين ٩٠ - ١٥٠سم . وربما كانت تؤدى للمصريين نفس الغرض الذى كانت تؤديه الأعمدة الحجرية للساميين أى أنها تحدد المكان الذى تقدم فيه القرابين للمتوفى(٩) .

ومن الأدلة على أن المسلات استعملت لأغراض جنائزية أن مسلة الملك " نب - خبر رع - أنتف " كتب عليها أنه محبوب الآلهين (أوزيريس وآنوبيس) وهى آلهة للموتى .

٣ - أسماء المسلة :

كان قدماء المصريين يطلقون على المسلة كلمة" تِخِنْ " فقد قال الملك تحتمس" أنه أقام مسلات عظيمة ضخمة "

وذكرت حتشبسوت أنها شيدت مسلتين عظيمتين " "

ومن هذا نرى أن المسلة لم تكن تسمى Ben رغم أن تخصص هذه الكلمة الأخيرة كان مسلة فى المعتاد . وكلمة تِخِنْ قديمة جدًا وقد عثرنا عليها فى نصوص الأهرام فقد ورد فى السطر ٣٩١ فى هرم الملك تيتى [hieroglyphs] مسلتين (للإله رع) .

أما كلمة Obelisk الإنجليزية وObelisque الفرنسية فأصلهما من اللغة اليونانية Ὀβελὸδ أو Ὀβελισκδ " أوبلسكوس " أو " أوبلسوس " ومعناها " سفود " أو " مسلة " وقد أطلق اليونان عليها هذا الاسم للشبه الشديد بين المسلة والسفود .

وعندما دخل العرب مصر ترجموا الكلمة اليونانية - كعادتهم - إلى مسلة (أى المسلة المستعملة فى حياكة القماش) .

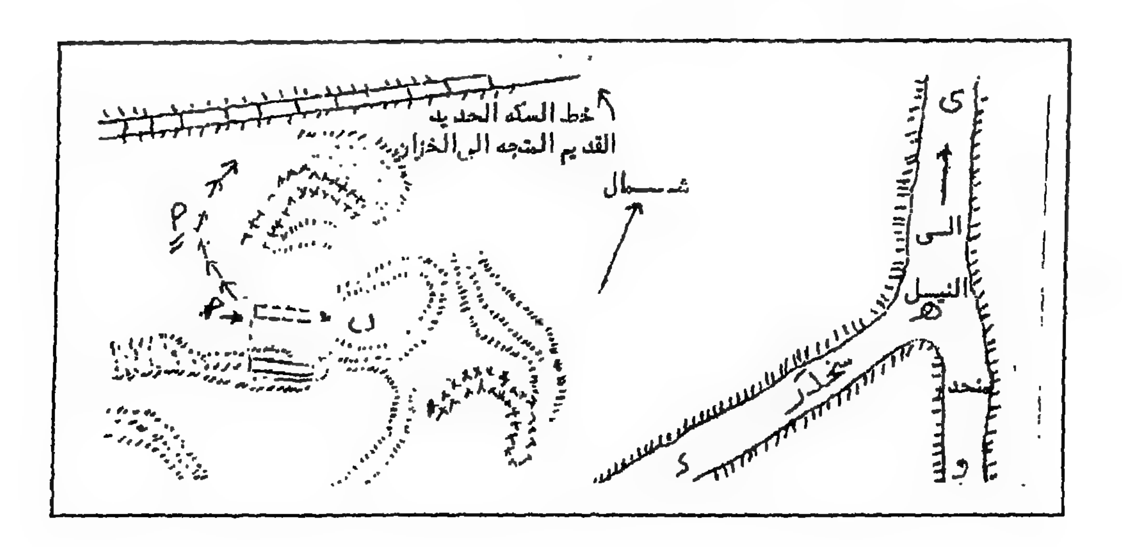
وكانت المسلات عامة تسمى " مسلات فرعون " وهى تسمية حقيقة إلا أن أحداها سميت مسلة كليوباترة (وهى قائمة فى لندن الآن) ويرجح أن المصريين فى العصر الإسلامى أطلقوا عليها هذه التسمية لأنها كانت قائمة فى الإسكندرية وهى المدينة التى اقترن اسم الملكة كليوباترة بها ولأن المسلة (الإبرة الكبيرة) تختص بالنساء أكثر من الرجال لأنها تستعمل فى حياكة الملابس(١٠) .

(ب) قطع المسلة من الحجر

كانت المسلات الكبيرة ومعظم الصغيرة تقطع من محاجر أسوان الجرانيتية . وكانت المحاجر تعرف عند قدماء المصريين باسم [hieroglyph] " عافِرس " وكان الجرانيت يعرف عند المصريين القدماء باسم [hieroglyphs] "مَات " والنوع الجيد منه كان يسمى [hieroglyphs] " مَات رُودِت " أى " جرانيت صلب " .

وتوجد الآن فى محجر أسوان كتل جرانيتية ضخمة ملقاة على الأرض يكفى بعضها لعمل مصراع باب أو مقصورة ، ولكن لا تكفى أحداها بالطبع لعمل مسلة ذات حجم متوسط . لذلك كان لابد من قطع كتلة كبيرة لهذا الغرض وكان ذلك يتم على الخطوات الآتية :

١ - اختيار الصخر للتأكد من خلوه من الشروخ والعيوب : وكان ذلك يحتاج إلى خبره واسعة ، ويحتمل أن الطريقة التى أتبعها المصريون فى ذلك هى حفر آبار صغيرة فى الصخر كمجسات test-shafts وقد عثر على اثنين من هذه الآبار فى هذا المحجر (شكل / ٢ جـ ، د)(١١) .

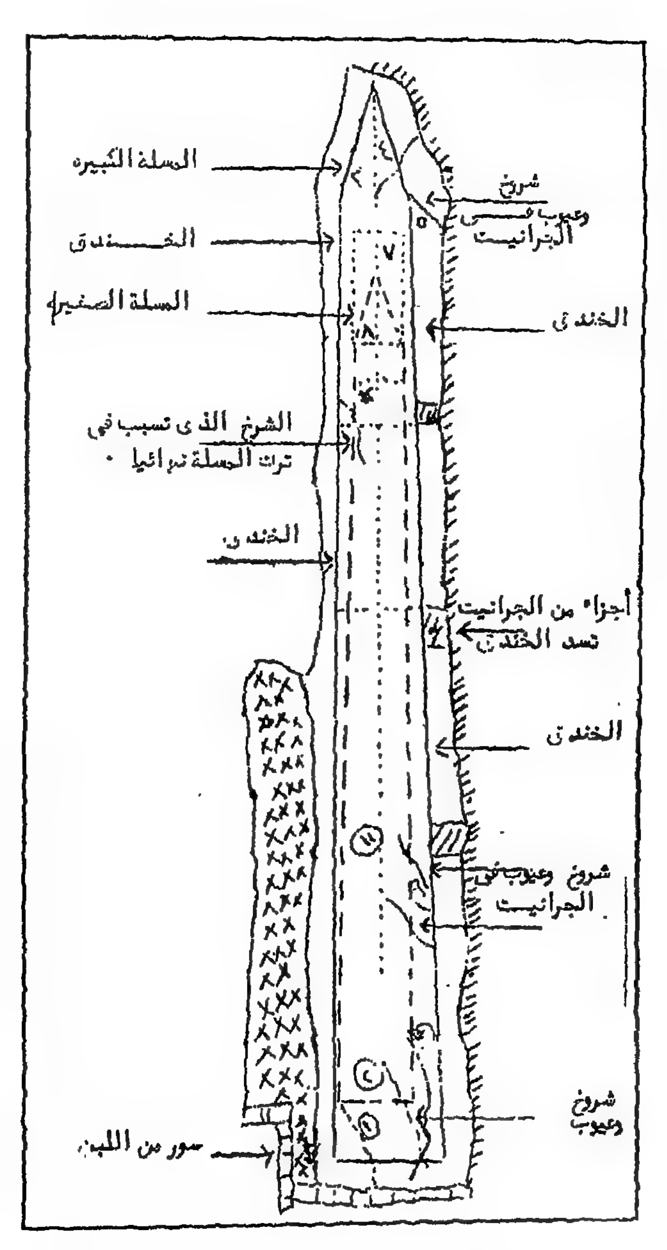


شكل (٢) مسلة أسوان فى محجرها الجراتينى

(أ) طريق المسلة من المحجر إلى المنحدر ←←—أ

(ب) الصخر الذى كان يجب تكسيره لإخراج المسلة

(جـ) المسلة بعد خروجها من نطاق محجرها



شكل (٣) مسلة أسوان وحولها الخندق

——— حدود المسلة الأصلية ----------- حدود المسلة الصغيرة

.... خطوط تحديد أخرى من عصر المسلة ~~~ شروخ وعيوب فى الصخر

حدود الخندق xxxxxxxx مناطق صلبة

عن كتاب : Engelbach, The problem of the obelisks. pp. 38 - 60

٢ - نزع طبقات الجرانيت السطحية :

من المعلوم أن طبقات الجرانيت الموجودة فوق سطح الأرض تكون متآكلة بفعل التعرية ، لذلك كان لابد من التخلص منها . والطريقة التى اتبعها المصريون تتلخص فى إشعال النار لتسخين الصخر مما يؤدى إلى سهولة كسر هذه الطبقات وخصوصًا إذا صبت عليها المياه ، وكانت هذه الطريقة مستعملة فى الهند حتى عهد قريب . وقد استعمل المصريون نبات البردى فى إشعال النار وكانوا يحيطون منطقة الحرق بسور من اللبن لتحديد مساحتها . ويمكن مشاهدة بقايا هذا الحرق على يسار مسلة أسوان . كما يمكن رؤية الجرانيت المحروق فى أماكن كثيرة من المحجر(١٢) .

٣ - تحديد الكتلة المراد قطعها لعمل المسلة منها :

وكان هذا يتم باستخدام الحبال .

٤ - فصل جوانب الكتلة من الصخر :

والطريقة التى استخدمت فى ذلك هى استعمال الخوابير Wedges ويوجد بمحجر أسوان نوعان من علامات الخوابير Wedge-works أحدهما عبارة عن سلسلة من الفجوات slots المتجاورة وهو معاصر لزمن المسلة والآخر سلسلة فجوات تمتد فى قناة وهو من عصر متأخر .

وكانت فجوات الخوابير تحفر من أعلى ومن الجوانب ومن أسفل . ويقال أن الخوابير نفسها كانت من الخشب وكانت توضع فى الفجوات ثم يصب عليها الماء فيتشرب الخشب به ويتمدد ويضغط على الصخر فيكسره(١٣) . ويقول أنجلياك أنه لا ينكر أتباع المصريين لهذه الطريقة ولكنه لاحظ فى مسلة أسوان أن هذه الفجوات ضحلة وجوانبها ناعمة تؤدى إلى انزلاق الخشب بعد تشربه بالماء

وإندفاعه نحو الخارج بدلاً من ضغطه على الصخر ضغطًا جانبيًا . هـذا فضـلاً عـن أنـه يتعذر وضع الماء فى الفجوات الجانبية والسفلية(١٤) لذلك فهو يعتقد أن الطريقـة التى اتبعت فى قطع مسلة أسوان هى استعمال خوابير من المعدن Metal wedges (ربما يكون الحديد) ووضع صفائح معدنية رقيقة (feathers) فى الفجوات بين الخوابير وبين الصخر ثم الدق عليها بمدقات من الحجر وقد عثر فى الجيزة على نموذج من هذه المدقات مصنوعة من حجر الجرانيت الأسود ويرجع إلى عصر الدولة القديمة(١٥)، كما عثر بترى على خوابير من الحديد ترجع إلى حوالى عام ٨٠٠ ق. م.(١٦) .

٥ – تهذيب السطح العلوى لكتلة الصخر :

والآن وقد تم فصل الكتلة الجرانيتية عن باقى الصخر تبدأ عملية تسوية سطحها العلوى وتستعمل لهذا الغرض مدقات هى عبارة عن كرات من حجر الدلريت Dolerite تعمل بها فجوات لإدخال عصا أو قضيب وتستعمل للدق على الحجر من أعلى إلى أسفل(١٧) .

ويتراوح نصف قطر هذه الكرات من ٥ – ١٢ بوصة وتزن حوالى ١٢ رطلاً وقد سبق القول أنها توجد فى وديان الصحراء الشرقية بحالة طبيعية . ورغم شدة صلابة هذه الكرات فقد وجد بعضها مكسورًا نتيجة لشدة الضرب بها مما يرجح اشتراك عدة رجال فى الدق بالكرة الواحدة (إذا كانت كبيرة) .

وما زالت أمثال هذه المدقات الضخمة تستعمل إلى اليوم فى مصر وتعرف باسم " المندلة " وينشد العمال الأناشيد التوقيعية أثناء الدق بها تسهيلاً للعمل ولا شك أنهم توارثوا ذلك عن أجدادهم .

ونتيجة للدق بهذه الكرات يتفتت الجرانيت ويتحول إلى مسحوق ويصبح عائقًا لقوة الدق حتى تصبح صفرًا ، لذلك يلزم إزالته كل عدة دقائق .

ويمكن رؤية آثار تهذيب الصخر بالدق عند القمة الهرمية وبالقرب من مؤخرة مسلة أسوان .

٦ – اختبار استواء سطح الكتلة :

وكانت الأدوات المستعملة فى ذلك هى ما يعرف باسم Boning Rod(١٨) وهى عبارة عن مجموعة من القضبان الخشبية المتساوية الطول . وتتلخص طريقة استعمالها فى وضع بعضها قائمة على جانبى الكتلة المراد اختيارها ثم يوضع قضيب ثالث بينهما ويقف رجل فى ناحية وينظر من طرف القضيب فى اتجاه القضبان الأخرى ليتأكد من أن القضيب الثالث على استقامة الاثنين الأخرين . وقد عثر بترى على أنواع صغيرة الحجم من هذه القضبان يبلغ طولها حوالى ٣ بوصات وتتدلى من أطرافها خيوط(١٩) . ومن الواضح أن هذا النوع الأخير لا يصلح لتسوية سطح المسلات بسبب احتمال ارتخاء الخيط مما يسبب حدوث تقعر فى سطح المسلة .

وقد لوحظ أن سطح مسلة باريس محدب قليلاً والظاهر أنه قصد عمدًا لتظهر المسلة فى استقامتها الطبيعية إذا نظر إليها من بعيد وهى فكرة بارعة وكانت سائدة فيما بعد فى الأعمدة الإغريقية .

وإذا ظهر أقل شرخ أو تغيير فى لون الصخر فى أى جزء من الكتلة أثناء العمل فسرعان ما يختبر بعناية فائقة لمعرفة مدى امتداده وهناك ثلاث طرق لهذا الاختبار :

الأولى : عمل حفرة متسعة فى الصخر بواسطة كـرات الدلريـت مـع تـرك بروز فى وسطها لمقارنة الجرانيت على السطح بالجرانيت فى قـاع الحفرة ويمكن مشاهدة هذه الحفرة على مسلة أسوان عنـد الشـرخ ٩ (شكل ٣) .

والثانية : عمل حفرة مربعة فوق الشرخ مباشرة بحيـث تضيـق تدريجيًـا إلى أسفل وهـذه الطريقـة تسـتخدم فـى بعـض الأحيـان اقتصـادًا فـى الوقت ويمكن مشاهدة آثارها فى مسلة أسوان عند الشـرخ ٣ ، ٤ (شكل ٣) .

والثالثة : حفر قناة ضيقة بطول الفلق أو الشرخ ، وترى هـذه القنـاة عنـد الشـرخ ١٢ (شكل ٣)(٢٠) .

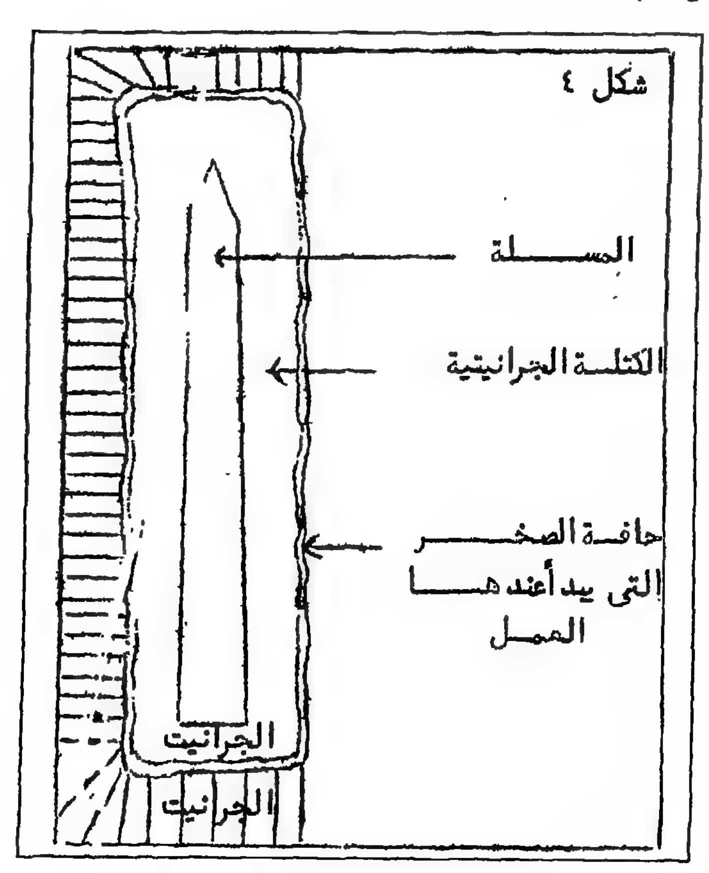
٧ – وضع العلامات فوق الكتلة لتحديد مساحة المسلة المنتظرة:

والطريقـة التى اتبعت فى ذلك هى وضـع حبـل فـى مسـحوق المغـرة الحمـراء أو السناج المخلوط بالصمغ ثم مده فى خط مستقيم لرسـم محور المسـلة المنتظرة (أو الخط المنصف لها طوليًا) ثم لمس سطح الصخر بالحبل حتى يترك أثرًا عليـه . وبعـد ذلك يحفر هذا الخط على الصخر بواسطة آلات معدنيـة . وقـد عـثر بجـوار المسـلة على إناء به مادة ملونة .

ومن هـذا المحور أو الخـط المركـزى تقـاس الأبعـاد لرسـم الخطـوط المحـددة للمسـلة .

٨ – فصل جوانب المسلة ذاتها عن الصخر :

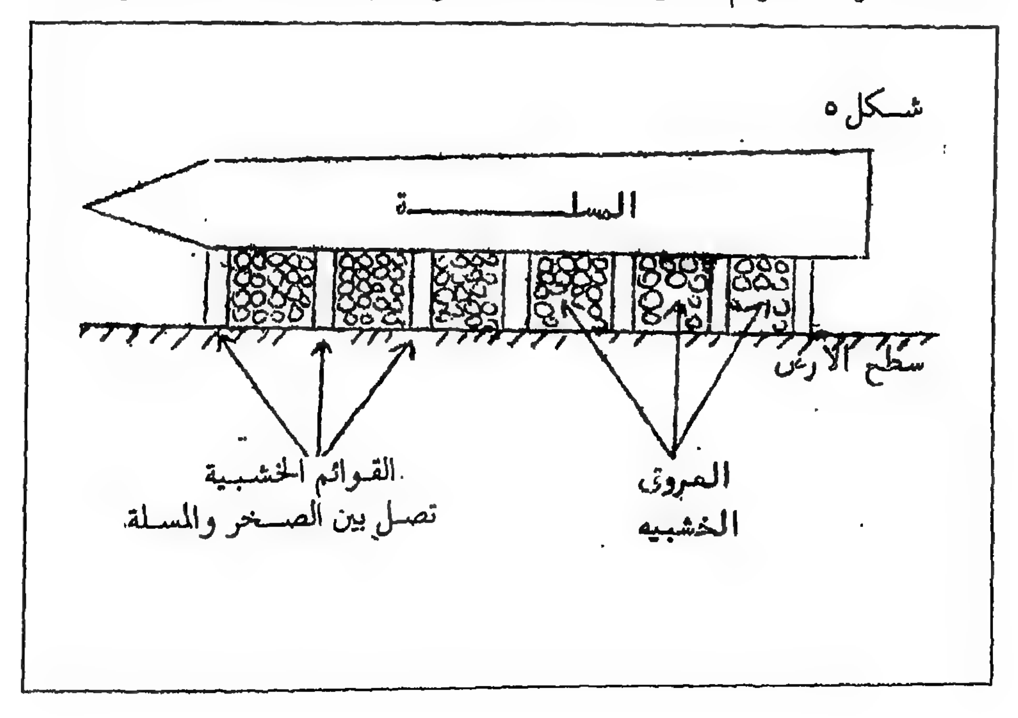
بعد فصل الكتلة كلها وبعد تحديد مساحة المسلة عليها تبدأ أهم عملية ، وهى فصل جوانب المسلة ذاتها من الصخر وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه العملية كانت لا تتعطل لحين الانتهاء من تسوية السطح العلوى للكتلة ثم رسم حدود المسلة عليها ولكنها كانت تبدأ بمجرد فصل الكتلة الجرانيتية عن الصخر وكان العمل يبدأ من عند حافة الكتلة الجرانيتية فى اتجاه المسلة (انظر شكل ٤) .



وطريقة فصل المسلة عن الكتلة الجرانيتية هى حفر خندق لتوسيع الكسر الطولى الذى يفصل الكتلة الجرانيتية عن صخر المحجر وقد تبين من اختبار هذا الخندق من الداخل عدم وجود آثار للأزاميل أو الخوابير كما لوحظ استدارة أركانه(٢١) مما يرجح استعمال كرات الدلريت فى حفره وذلك بالدق Bashing على الصخر لتفتيته ويبلغ متوسط عمق هذا الخندق ٢ قدم ٦ بوصة وقد تبين من فحصه أن حفره استغرق ٧ شهور إذا كان معدل ساعات العمل اليومية ١٢ ساعة فإذا اتخذنا هذا أساسًا للتقدير يبدو أن عمل خندق مسلة حتشبسوت القائمة الآن فى الكرنك استغرق ٤,٤ شهور وتكون عملية قطع المسلة كلها من الصخر استغرقت ٨,٨ شهرًا(٢٢) .

٩ - قطع المسلة من أسفل وفصلها عن الصخر نهائيًا :

كان المصريون يستخدمون طريقة الدق فى تفتيت الصخر أسفل المسلة وكانوا يتركون بعض الأجزاء فلا يكسرونها حتى تقوم بدور القوائم التى تحمل المسلة . ثم يملأ الفراغ بين المسلة وسطح الأرض بعروق ضخمة من الخشب وبعد ذلك تكسر هذه القوائم الحجرية فتستقر المسلة على العروق الخشبية(٢٣) (شكل٥).



وقبل الانتهاء من هذا الجزء علينا أن نتساءل ما هى الآلات التى استخدمها قدماء المصريين فى عمل فجوات الخوابير ؟

إن هذه المسألة ما زالت موضع دراسة وجدل بين العلماء فإن المصريين لم يستعملوا هذه الآلات فى قطع الجرانيت فحسب بل استخدموها فى قطع الأحجار الأشد صلابة كالديوريت والكوارتزيت . ومن البديهى أن المعدن الذى يصلح لصناعة هذه الآلات هو الصلب ولكن ليس هناك دليل على معرفة قدماء المصريين للصلب رغم وجود براهين على معرفتهم الحديد منذ بداية تاريخهم (رغم أن استعمالهم له كان نادرًا).

ويقول انجلباك(٢٤) أن الدليل القوى الذى يبرهن على عدم معرفة المصريين للصلب هو صناعتهم للأسلحة الدقيقة (الأمواس) من النحاس مثل أمواس الأظافر التى وجدت فى مقبرة الملكة حتب حرس والدة الملك خوفو .

والمرجح - إلى الآن - أن المصريين صنعوا آلاتهم من النحاس بعد أن أضافوا إليه معادن أخرى لتقويته ، ويمكن تقوية النحاس بإضافة ٢٪ من معادن أخرى إليه ثم طرقه فيكتسب النحاس صلابة تعادل الصلب المتوسط المتانة . ولكن يبدو أن المصريين القدماء - بطريقة ما زالت مجهولة لنا - قد صنعوا آلات أشد متانة من ذلك .

(جـ) نقل المسلة من المحجر إلى النيل

إن هذه العملية تتم على مرحلتين هما إخراج المسلة من نطاق المحجر ثم سحب المسلة على منحدرات حتى شاطئ النيل .

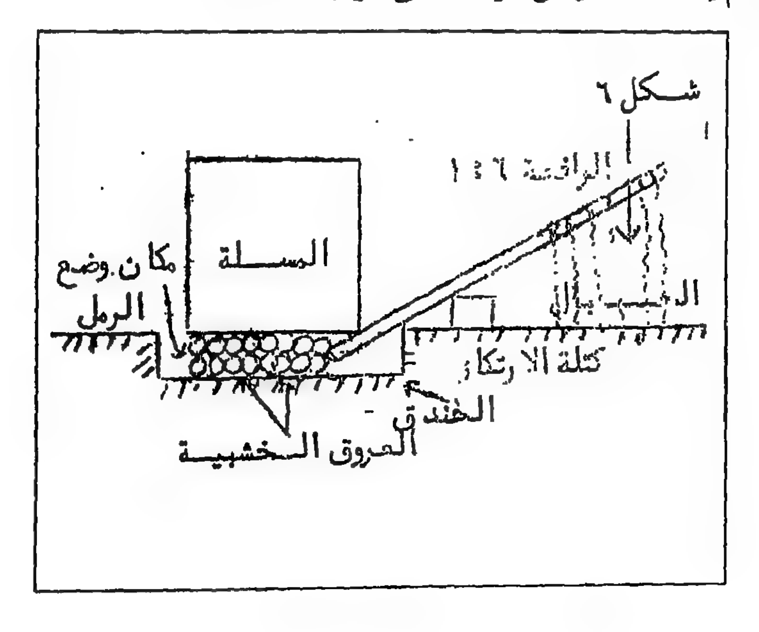
١ - إخراج المسلة من نطاق المحجر :

وهناك طريقتان لذلك الأولى رفع المسلة إلى أعلى والثانية بإزالة الصخر من أمامها ثم سحبها. ولسحب المسلة لابد من عمل منحدرات هابطة لأن سحبها على مستوى أفقى يتطلب ١٣٠٠٠ رجل وهو عدد ضخم لا يتسع له محجر المسلة الضيق .

ويرى انجلباك(٢٥) أن المصريين اتبعوا الطريقتين معا فكانوا يرفعون المسلة إلى أعلى لتوفير جزء كبير من العمل اللازم لإزالة الصخر من طريقها .

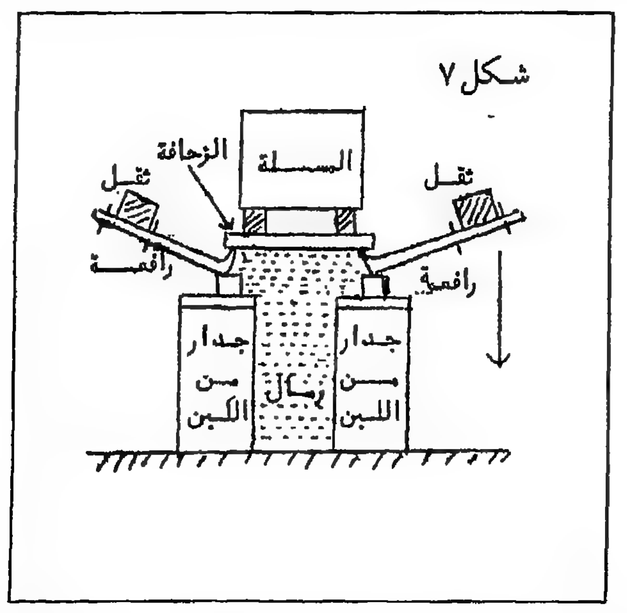
٢ - طريقة رفع المسلة إلى أعلى :

استخدم المصريون في ذلك الروافع Levers وكانت عبارة عن عروق ضخمة من جذوع الشجر يبلغ طول الواحدة ٦ أمتار أو أكثر ونصف قطرها ٦٠سم وطريقة استعمالها هى أن توضع تحتها كتل ترتكز عليها Packing بحيث يكون نسبة الجزء الخالى منها إلى الجزء الواقع تحت المسلة ٦ : ١ ثم تثبت فى أعلى كل رافعة حبال يستعملها العمال في شد الرافعة إلى أسفل . وباستعمال هذه الروافع من الجانبين يمكن رفع المسلة إلى مستوى مناسب وذلك بتعلية كتل الارتكاز تحت الروافع كلما رفعت المسلة حتى تصل المسلة أخيرًا إلى ارتفاع ٢,٥ متر فوق سطح الأرض (شكل ٦) وعندئذ يبدأ العمل فى إزالة الصخر من طريقها ثم إنشاء منحدر من الرمال لكى تنزلق المسلة عليه .



أما عن عدد الروافع اللازمة لذلك فيمكن القول أنه لو استعمل ٣٠ رافعة واستخدم ٥٠ رجلاً للرافعة الواحدة فإنه يمكن رفع المسلة دون خطر على الروافع (سواء كانت من خشب الجميز أو الشربين أو السرو) من الكسر أو العطب . ورغم ذلك يعتقد انجلباك أن المصريين استعملوا روافع أطول من ذلك كثيرًا بحيث لا يقل عدد الرجال اللازمين لشد الرافعة الواحدة عن ١٠٠ رجل(٢٦) .

وللمهندس الفرنسي شوازى Choisy(٢٧) نظرية فى طريقة رفع المسلة ونقلها كانت تعد من النظريات التي وجدت كثيرًا من الأنصار . فهو يقول أنه لرفع المسلة إلى أعلى كانت تستخدم الروافع المحملة بالأثقال لتخفف كثيرًا من العبء عن العمال (انظر شكل ٧) .

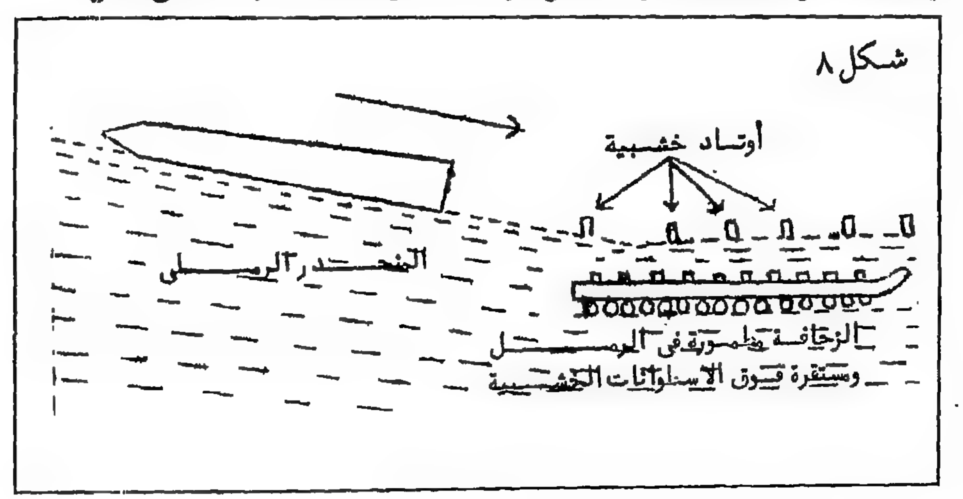


وكانت نقط ارتكاز المسلات تستقر على جدارين من اللبن توضع بينها الرمال وكلما رفعت المسلة يرفع مستوى الرمل أسفلها حتى يصير مستواه أعلى من جدران اللبن . ثم يقوم العمال بتعلية جدران اللبن حتى يصير فى مستوى

الرمل وترفع المسلة إلى أعلى وتضاف طبقة أخرى من الرمل وهكذا حتى تصبح المسلة فى مستوى مناسب وعندئذ يعمل منحدر من الرمال لتنزلق المسلة عليه .

٣ - إرساء المسلة على زحافتها(٢٨) :

بعد أن ينتهى عمل المنحدر تبدأ عملية إرساء المسلة فوق زحافتها الخشبية التى ترتكز على أسطوانات خشبية Rollers وطريقة ذلك هى أن توضع الزحافة والأسطوانات الخشبية أسفل المنحدر مدفونة فى الرمال (شكل ٨) وتوضع على طول محورها أوتاد لتعين مكانها ثم تسحب المسلة بالحبال إلى أسفل المنحدر حتى تستقر أعلى الزحافة تمامًا . وبعد ذلك يبدأ العمل فى إزالة الرمال من حولها وكلما أزيل جزء من الرمال كلما هبطت المسلة وهكذا تهبط المسلة تدريجيًا حتى تستقر فوق الزحافة تمامًا وبعد تنظيف الزحافة من الرمال تبدأ رحلة المسلة إلى شاطئ النيل .



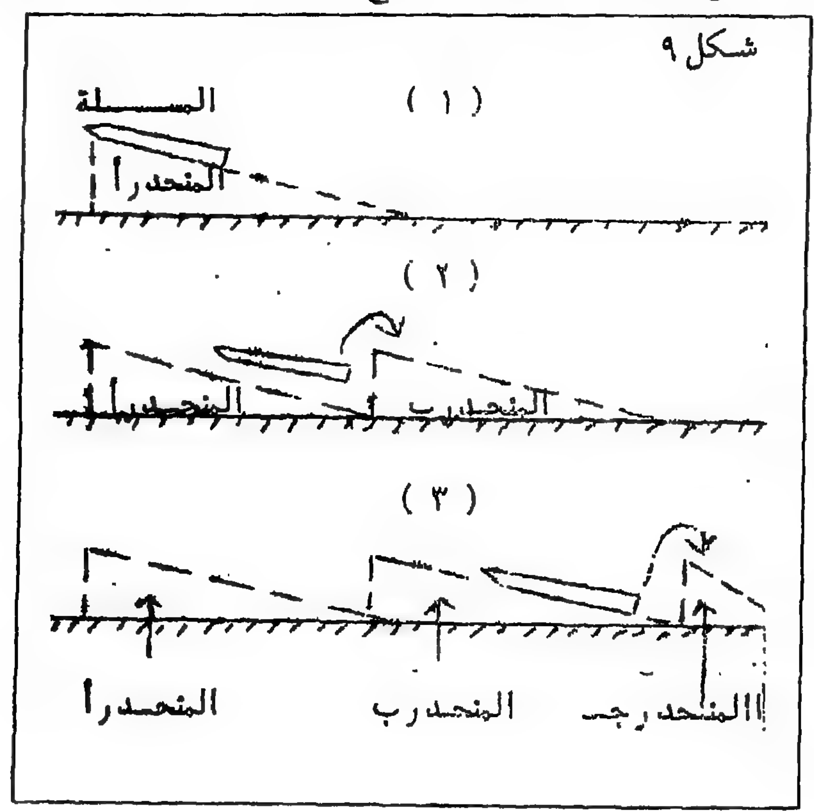
٤ - تمهيد الطريق للمسلة :

كان الطريق الممتد من مكان المسلة إلى شاطئ النيل يمهد بواسطة رصفه بعروق ضخمة من الخشب ترص بالطول لتسهيل مرور الأسطوانات الخشبية عليها(٢٩) وكان هذا الطريق يقع شمال مسلة أسوان ويسير مع امتداد خط السكة الحديد القديم الذى كان يؤدى إلى الخزان (شكل ٢) حتى نقطة اتصاله بالمنحدر وهو

الذى يؤدى إلى النهر ومكان التقاء هذا المنحدر بالنهر يشغله الآن جزء من مدينة أسوان.

٥ - جر المسلة فوق المنحدر إلى شاطئ النيل :

وضّح شوازى(٢٩) هذه الطريقة بعدة رسوم (هى الموضحة فى شكل ٩) وتتلخص فى عمل المنحدر (أ) وترفع إليه المسلة بالطريقة الموضحة فيما سبق (انظر ص٢٨ شكل ٨) ثم تسحب المسلة عليه حتى تصل إلى أسفله حيث يعمل منحدر آخر (ب) ترفع إليه المسلة بنفس الطريقة وتسحب إلى أسفله حيث يعمل منحدر ثالث وهكذا تستمر العملية حتى تصل المسلة إلى شاطئ النيل وقبل الانتقال من هذه النقطة علينا الآن ذكر كلمة عن الأدوات الرئيسية الثلاثة المستعملة فى الخطوات السابقة وهى الروافع والزحافات والأسطوانات الخشبية .



أما عن الروافع Levers فلم يعثر العلماء إلى الآن إلا على أمثلة ضئيلة جدًا من الروافع ولكن لا شك أن المصريين عرفوها واستخدموها والدليل على ذلك وجود قنوات صغيرة أسفل الكتل الضخمة التي بنى بها معبد الهرم الثالث فى الجيزة . ولا شك أن هذه القنوات كانت معدة لتثبيت الروافع فيها لسهولة رفع الكتلة الحجرية.

وأما الزحافات Sledges فمن المسلم به أن المصريين صنعوا أنواعًا ضخمة منها وقد ورد رسم زحافة ضخمة على معبد الملكة حتشبسوت فى الدير البحرى وكانت الحبال المستخدمة فى الشد تربط إلى هذه الزحافات لا إلى المسلة نفسها .

وأما الأسطوانات الخشبية Rollers(٣١) التى كانت الزحافات تجر عليها فينكر بعض العلماء استخدام المصريين لها وقد اعتمدوا فى ذلك على منظر جر تمثال فى إحدى مقابر البرشة (شرقى النيل بالقرب من المنيا) ظهرت فيه الزحافة يجرها الرجال بالحبال (الفلنكات Sleepers) .

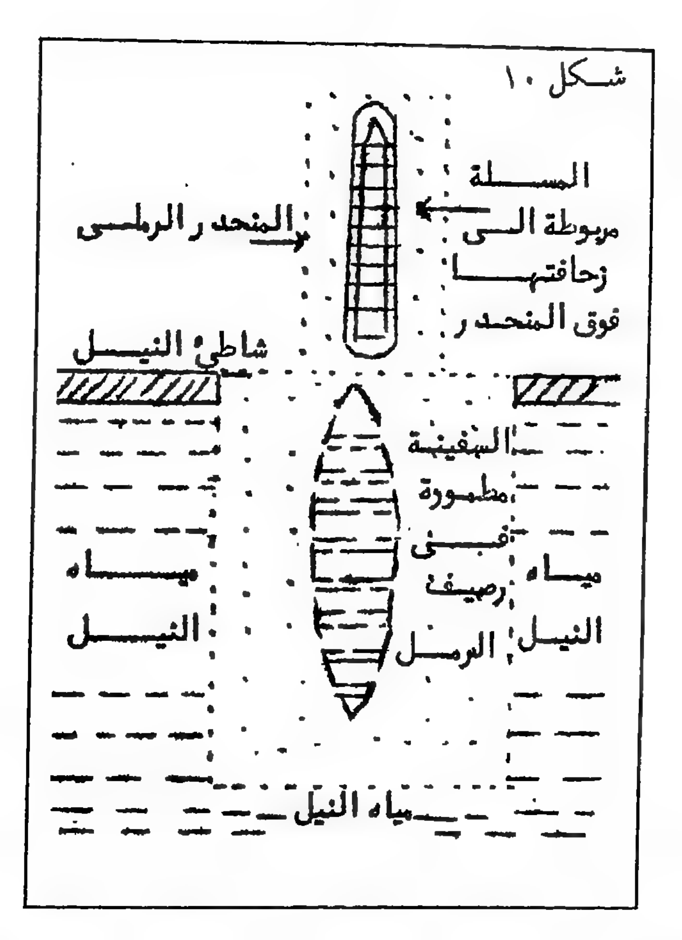
ولكن عندما تعلم أن ١٧٢ رجلاً قد استخدموا فى جر هذا التمثال الذى لا يزيد وزنه على ٨ طن ، فكم من الرجال يلزم لجر ١١٧٠طن ؟ (وهو وزن مسلة أسوان) إن عدد العمال اللازمين لذلك لا يقل عن ١١٠٠٠ رجل . وهذا عدد ضخم جدًا لايتسع له الممر الضيق حول المسلة . لذلك ، لابد أن المصريين استعملوا الأسطوانات الخشبية على الأقل لجر الآثار الضخمة كالمسلات(٣٢)، ويرجع السبب فى عدم العثور على أمثلة من الروافع والأسطوانات الخشبية إلى تكرار استعمالها حتى يدركها البلى ثم تكسيرها إلى قطع صغيرة واستعمالها فى أغراض أخرى .

٦ - وضع المسلة فى السفينة :

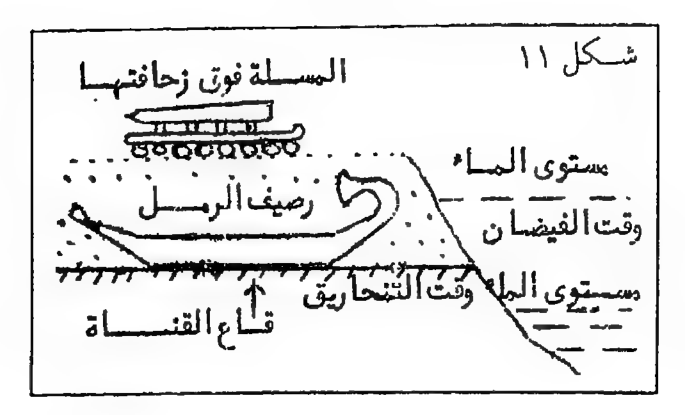
إن السؤال الذى يتردد الآن فى الأذهان هو كيف يمكن وضع المسلة فى السفينة بدون حدوث أى عطب فيها ؟يقول المؤرخ بلينى(٣٣) يصف الطريقة التى اتبعت فى وضع إحدى المسلات فى الأقصر فى السفينة فى عهد الملك بطليموس فيلادلفوس (٢٨٥ - ٢٤٧ ق. م.) " حفرت قناة من النيل إلى مكان المسلة وجئ بسفينتين محملتين بكتل من الحجر يبلغ حجم الكتلة الواحدة قدم مكعب . وكانت حمولة كل سفينة تعادل ضعف وزن المسلة ثم وضعت المسلة فوق القناة بحيث يرتكز طرفاها على جوانب القناة (وتشبه الكوبرى) ثم سيرت السفن أسفل المسلة وبدئ فى تفريغ الشحنات الحجرية منها . وكلما أفرغت حمولة السفن كلما ارتفعت فوق سطح الماء حتى حملت المسلة أخيرًا .

والمؤكد أن طريقة بلينى هذه لم تتبع فى نقل المسلات من محاجر أسوان لأنه لم يعثر على آثار لقنوات فى هذه المحاجر فضلاً عن صعوبة حفر قنوات فى حجر الجرانيت الصلد . ويبدو أن الطريقة التى اتبعت فى ذلك تتلخص فى سحب السفينة حتى تلامس الشاطئ (انظر شكل ١٠) ثم بناء رصيف من التراب أو الرمل بحيث يغطيها ويحيط بها وعمل منحدر يمتد من هذا الرصيف إلى مكان المسلة وبعد ذلك تسحب على هذا المنحدر حتى تستقر فوق السفينة تمامًا وعندئذ يبدأ العمال فى رفع الرمال أو التراب من حول المسلة التى تأخذ فى الهبوط تدريجيًا حتى تستقر فى السفينة .

وبعد إتمام هذه العملية يهدم الرصيف المحيط بالسفينة التى تبدأ رحلتها فى النهر ، ولتفادى (غرز) السفينة فى قاع النهر فى الأماكن الضحلة يحتمل جدًا أن هذه العملية كانت تتم أثناء فصل الفيضان(٣٤) .



وهناك رأى آخر(٣٥) يقول أن نقل المسلة من المحجر إلى شاطئ النيل كان يتم وقت التحاريق وكانت المسلة تجر على منحدر إلى شاطئ النيل حتى تصير على بعد ٦٠ مترًا منه – ثم تحفر قناة جافة من شاطئ النيل إلى مكان المسلة وتوضع السفينة فى قاعها ثم تهال عليها الرمال حتى تغطيها وتملأ القناة وعندما يصير مستو ى الرمل فى القناة فى مستوى سطح الأرض تسحب المسلة حتى تستقر فوق السفينة تمامًا ثم يبدأ العمل فى رفع الرمال وكلما أزيل جزء من الرمل كلما هبطت المسلة تدريجيًا حتى تستقر أخيرًا فى السفينة (ويلاحظ أن هذه الطريقة تشبه طريقة إرساء المسلة على قاعدتها المشروحة فى (شكل ١١) .



وأخيرًا تنظف القناة من الرمال ويتم توصيلها بالنيل وعندما يحل وقت الفيضان تدخل المياه فى القناة فتطفو السفينة فوق سطحها ، عندئذ يسحب العمال المسلة إلى النهر لتبدأ رحلتها النيلية ، ويلاحظ أن هذا يتفق مع رأى بلينى فى حفر القناة ولكنه يختلف عنه فى مدى امتداد القناة كما يختلف الاثنان فى طريقة وضع المسلة فى السفينة .

(د) المسلة فى عرض النيل

فى منظر نقل مسلتى الملكة حتشبسوت المرسوم على جدران معبد هذه الملكة فى الدير البحرى رسمت السفينة التى تحمل المسلتين وقد قام بجرها ٢٧ قاربًا من ذات المجاديف مرتبة فى ثلاثة صفوف كل صف به ٩ قوارب وفى مقدمة كل صف يسير قارب القيادة . ويرافق سفينة المسلات ثلاثة قوارب أخرى لحراستها . وفى بعض القوارب يقوم الكهنة بترتيل الصلوات وحرق البخور . وعلى الشاطئ رسمت فرق الجنود والعمال فى انتظار وصول السفينة للقيام بعملية انزال المسلات منها كما مثلت الكهنة تقوم بذبح الضحايا وقد ورد فى نص مجاور لهذا المنظر أن سفينة المسلات مصنوعة من خشب الجميز(٣٦) .

السفن التى استخدمت فى نقل المسلات :

ما زلنا نجهل الشئ الكثير عن تفاصيل صناعة السفن . وأقدم نص يشير إلى صناعة السفن الكبيرة يرجع إلى عهد الدولة القديمة فقد جاء على حجر بـلرمو أنه فى عهد الملك سنفرو تمكن المصريون من صناعة سفن ذات حمولة كبيرة . كما ورد فى نصوص " أونى " الذى عاش فى عهد الأسرة السادسة أنه أشرف على صنع سفينة يبلغ طولها ٣٠مترًا استغرق صنعها ١٧ يومًا(٣٧) . أما السفن حاملة المسلات فلم ترسم غير مرة واحدة فى معبد الملكة حتشبسوت المشار إليه آنفا حيث رسمت سفينة بداخلها مسلتان (يحتمل أنهما مسلتا هذه الملكة فى الكرنك) متلاصقان من مؤخرتيهما. ولابد أن يكون طول هذه السفينة ٦٠ مترًا على الأقل.

وفى نص للوزير والمهندس أنينى Iineni (الذى عاش فى منتصف الأسرة الثامنة عشرة) يذكر أنه أشرف على إقامة مسلتين للملك تحتمس الأول ثم يصف السفينة التى أشرف على صنعها لنقل المسلتين فيقول :

// لقد أشرفت على إقامة مسلتين عظيمتين

عند البوابة المزدوجة للمعبد من حجر الجرانيت

كما أشرفت على بناء قارب بديع (يبلغ)

١٢٠ ذراعًا فى طوله و٤٠ ذراعًا فى العرض

لنقل هذه المسلات

وقد وصل (القارب) فى سلام وفى حالة جيدة إلى

الأرض المجاورة لمعبد الكرنك

ويقول سومرز كلارك(٣٨) أنه لنقل مسلتى الملكة حتشبسوت الذى يبلغ طول الواحدة منهما ٣٠ مترًا يلزم سفينة لا يقل طولها عن ٦٧ مترًا وعرضها عن ٢٠ مترًا كما يجب ألا تقل سرعة التيار المائى اللازم لسهولة تسييرها عن ١,٣ مترًا.

وليس من المستبعد أن المصريين تمكنوا من بناء سفن ضخمة تستطيع حمل كتل هائلة من الحجر تزن ٩٠٠ أو ١٠٠٠ طن (مثل تمثال رمسيس الثانى فى الرمسيوم الذى يبلغ وزنه ٩٠٠ طن) .

نقل المسلة من السفينة إلى المعبد :

بعد رسو السفينة على شاطئ النيل المواجه للمعبد تبدأ عملية إخراجها من السفينة ونقلها إلى المعبد . وهذه العملية تشبه كثيرًا عملية وضع المسلة فى السفينة السابق شرحها (انظر ص٣١) ، فيبنى منحدر يمتد من مقدمة المركب بحيث لا يرتفع إلى أعلى من مستوى الأسطوانات الخشبية الحاملة للزحافة ثم تستخدم الروافع فى نقل المسلة من السفينة إلى هذا المنحدر المتجه نحو المعبد والراجح أن مقدمة السفينة كانت تكسر حتى يمكن إخراج المسلة منها .

(هـ) نصب المسلة أمام المعبد

١ – السجلات القديمة :

إن الآثار المصرية – كشأنها فى هذا الموضوع – لم تذكر شيئًا عن طريقة إقامة المسلات فى المعابد وغاية ما ذكر فى هذه الناحية ما ورد على بردية أنسطاسى(٣٩) Anastasi – عند الإشارة إلى نقل إحدى التماثيل الضخمة إذ يقول النص " لقد قيل لك افرغ المخزن المملوء بالرمل والموجود تحت أثر

سيدك (التمثال) الذى أحضر من الجبل الأحمر . أن طوله ٣٠ ذراعًا وعرضه ٢٠ ذراعًا .

وفى نفس البردية إشارة إلى منحدر من المرجح أنه استخدم فى إقامة إحدى الآثار ربما كانت مسلة لأن النص بعد ذلك يشير إلى مشكلة نقل مسلة من المحجر فيشير الكاتب هِرى Heri إلى هذه المشكلة قائلاً " لقد عمل منحدر طوله ٧٣٠ ذراعًا وعرضه ٥٥ ذراعًا ويحتوى على ١٢٠ قسما (؟) ملئت بالبوص وعروق الخشب ويبلغ ارتفاعه إلى قمته ٦٠ ذراعًا وارتفاع الأوسط ٣٠ ذراعًا ونهايته ١٥ ذراعًا وقاعدته(؟) ٥ أذرع . أما مقدار اللبن اللازم له فيطلب من رئيس الجيش..... تأمل مقاساته !! إنها أمام عينيك . إن كل قسم (؟) من أقسامه طوله ٣٠ ذراعًا وعرضه ٧ أذرع " .

وقد وردت فى هذا النص كلمة " قسم " ونظرًا لأن ترجمتها من الهيروغليفية غير مؤكدة فمن الصعب تكوين فكرة عن البناء الداخلى للمنحدر . ويرجح بوخارت Borchardt أن كلمة " الجزء الأوسط " تدل على الفراغ داخل بناء المنحدر الذى كان يملأ بالتراب كوسيلة من وسائل الاقتصاد فى اللبن .

والإشارة إلى المسلة فى هذه البردية جاءت فى رسالة الكاتب حورى إلى كاتب آخر يدعى آمون أم أوبت يقول له فيها أن هذا العمل ليس من اختصاصه ثم يقول " لقد تم أخيرًا عمل مسلة ..... ١٠ أذرع ، ومساحة قاعدتها ١٠ أذرع وطول ضلع مؤخرتها من أسفل ٧ أذرع وقد رفعت فوق منحدر (؟) نحو القمة (؟) .... يجب عليك استخدام كل رجل لجرها " وهذه المقاسات تدل على مسلة غير متناسبة .

وقد أشار المؤرخ الكلاسيكى بلينى إلى إقامة إحدى المسلات فى عهد الملك رمسيس - فقال أن المسلة كان طولها ١٢٠ ذراعًا وقد استخدمت الآلات فى نصبها ولكنه لم يذكر تفاصيل عن هذه الالات فضلاً عن أنه قال أن الملك رمسيس ربط ابنه فى قمة المسلة حتى يحترس العمال كثيرًا فلا تصاب المسلة بخدش أو كسر وهذا القول يدل على أن بلينى كان يستقى أخباره من التراجمة والأدلاء .

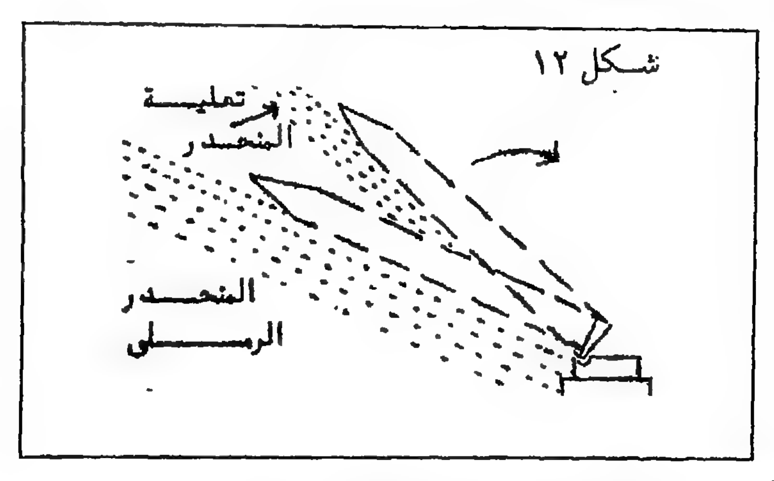
٢ - آراء العلماء والمهندسين :

وقد كتب كثير من العلماء والمهندسين فى هذا الموضوع وأدلى كل منهم برأى وأعلن كل عالم أو مهندس نظرية تخالف النظريات الأخرى ومن هؤلاء العلماء دكلنسون وبنيامين بيكروجورنج وانجلباك وشوازى وفلندرز بترى وشارب وشفرييه .

وسنعرض أكثر هذه النظريات شهرة وأقربها إلى التصديق ثم نناقشها .

يقول شارب Sharpe(٤٠) أن قاعدة المسلة المربعة الشكل كانت تثبت فى الأرض وتحفر فى سطحها العلوى قناة جانبية موازية لأحد أضلاعها . ثم ترفع المسلة فوق منحدر بحيث ترتكز حافة مؤخرتها على قناة القاعدة وبذلك تحتفظ المسلة بمكانها أثناء رفعها ثم تستخدم الروافع فى رفعها وكلما رفعت المسلة كلما أضيفت طبقات جديدة إلى كوم الرمل والتراب أسفلها حتى يتكون فى النهاية تل شديد الإنحدار تظهر المسلة فوقه مائلة على جانبها وأخيرًا تشد المسلة بالحبال من أعلاها حتى تستقر نهائيًا على قاعدتها (شكل ١٢)

وقد استعملت هذه الطريقة حديثًا فى إقامة مسلة Seringapatam التذكارية التى لا يزيد وزنها على ٣٥ طن .



وتتلخص الاعتراضات على هذه النظرية فيما يلى :

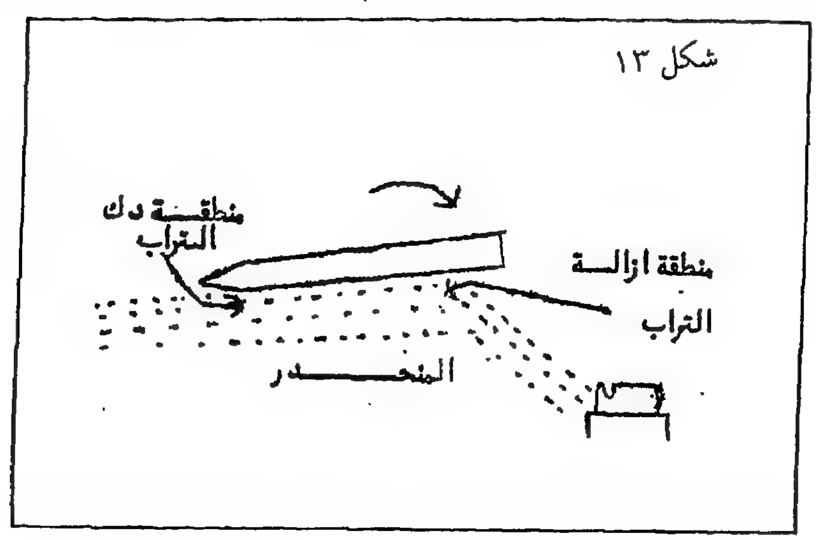
١ - أقام المصريون المسلات داخل الأفنية وجدران المعابد التى هى أقل فى ارتفاعها من المسلات . فالملكة حتشبسوت أقامت مسلتها فى الكرنك بين صرحى والدها تحتمس الأول حيث يوجد فناء به تماثيل أوزيريسيه وليس هناك دليل على هدم هذه الجدران لإقامة المسلة .

٢ - بعض المسلات قريبة جدًا من أبراج المعابد بحيث لا يتسع المكان لوضع الروافع الضخمة .

٣ - ليس هناك ما يمنع المسلة من الانحراف أو السقوط أثناء رفعها بالحبال .

أما فلندرزبترى Flinders Petrie(٤١) فقد أعلن نظرية مؤداها أن المسلات كانت تجر على منحدر من التراب طوله حوالى ١٣٠ مترًا وعرضه ٢٨ مترًا وأقصى ارتفاع له ٣١ مترًا وكانت المسلة تسحب عليه حتى نهايته العليا ثم تمال فوق حافته وكانت إمالتها تتم نتيجة لإزالة التراب تدريجيًا من تحت مؤخرتها

ثم يدك التراب بالتدريج بينها وبين المنحدر حتى تأخذ وضعًا رأسيًا (شكل ١٣) ويتفق رأى السير بنيامين بيكر Benjamin Baker(٤٢) مع رأى بترى ولكنه يضيف إليه فى قوله بأن الحبال كانت تستخدم لشد المسلة لتأخذ وضعًا عموديًا .



والاعتراضات على هذه النظرية هى :

١ - ليس من السهل هدم كوم من التراب أسفل مسلة معلقة تزن ٣٠٠ طن أو يزيد لأن التراب يندفع جانبًا فى جميع الاتجاهات وقد يسقط فوق رؤوس العمال .

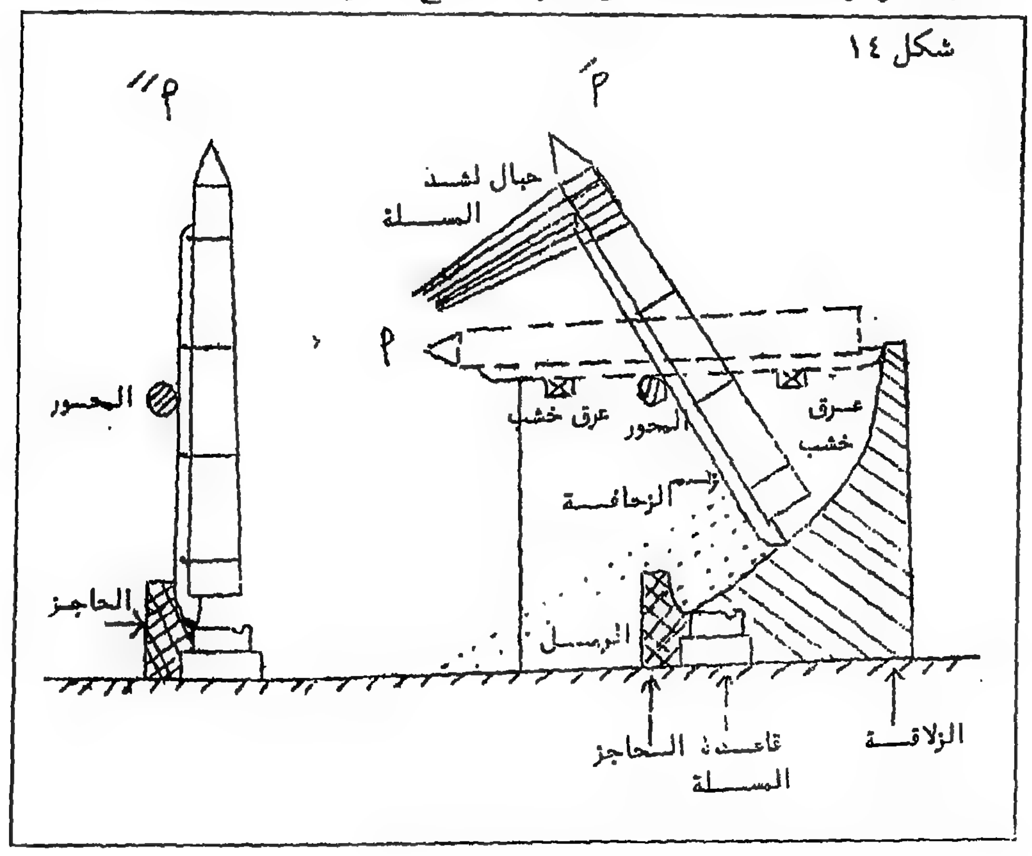
٢ - من البديهى أن عملية إقامة المسلات ليست من البساطة لدرجة أنها تتوقف على مجرد مهارة العمال فى تعبئة التراب .

٣ - إن إنزال مسلة ضخمة من ارتفاع كبير لكى تستقر فوق قاعدة صغيرة بواسطة سحب التراب من أسفل يعد من المستحيلات .

نظرية المهندس الفرنسى شوازى(٤٣): وهى من النظريات التى لاقت رواجًا كبيرًا . ويتم رفع المسلة طبقًا لهذه النظرية على مرحلتين . المرحلة الأولى رفع المسلة عن الأرض بالروافع إلى ارتفاع مناسب . وقد سبق شرحها أثناء الكلام على نقل المسلة إلى شاطئ النيل (انظر ص٢٩) ولأهميتها هنا سنلخصها فيما يلى:

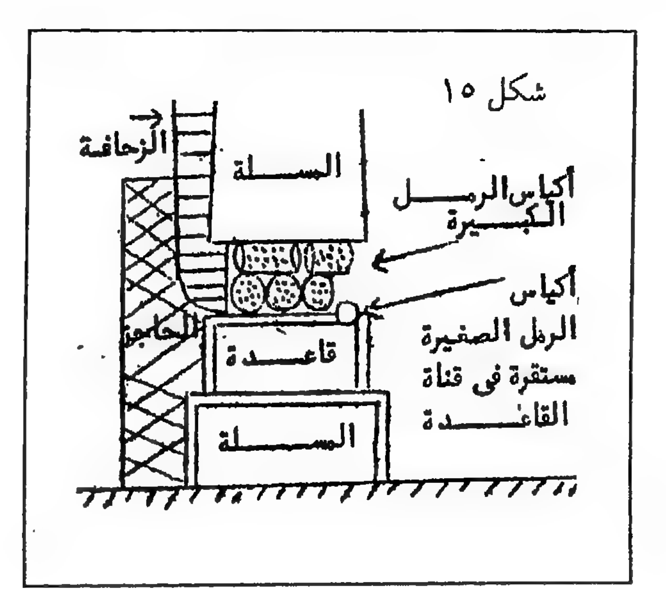
كانت المسلة وزحافتها ترفع بواسطة مجموعة من الروافع المحملة بالأثقال ثم يوضع الرمل أسفل الزحافة بعد كل رفعة وتُبنى جدران من اللبن على جانبي المسلة لاستخدامها لارتكاز الروافع وتتم تعلية هذه الجدران كلما رفعت المسلة .

أما المرحلة الثانية فكانت تبدأ عندما تصل المسلة إلى ارتفاع مناسب وتصبح فى الوضع (أ) (انظر شكل ١٤) عندئذ توضع تحت الزحافة عروق من الخشب ومحور Tourillon ثم يفرغ الرمل من بين الجدارين وتبنى بينهما زلاقة Glissiers مقعرة من جانبها وتثبت قاعدة المسلة مكانها ويبنى فى جانبها البعيد عن المسلة حاجز سنشرح الغرض منه فيما بعد . ثم يملأ الفراغ الواقع بين الجداريين والزلاقة بالرمل وتسحب العروق الخشبية وبذلك تظل المسلة وزحافتها معلقتين فوق المحور من الوسط ومستقرتين على الرمل من الأطراف . بعد ذلك يبدأ العمل فى سحب الرمل تدريجيًا فتهبط مؤخرة المسلة تبعًا لذلك حتى تصل إلى الوضع الرأسى (أ) فوق قاعدتها مباشرة.

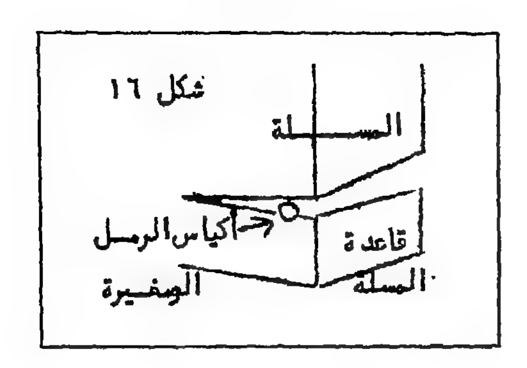


وفائدة الحاجز هنا هو منع المسلة من الجنوح وتجاوز قاعدتها ويساعد الجزء البارز من الزحافة Crosse على ذلك . وقد تربط الحبال فى أعلى المسلة لنفس الغرض.

أما استقرار المسلة فوق قاعدتها بعد اتخاذها الوضع (أ) فكان يتم بواسطة ملء الفراغ بين مؤخرة المسلة والقاعدة بأكياس كبيرة مملوءة بالرمل ووضع أكياس صغيرة إسطوانية Sachets فى قناة القاعدة Rainure ثم نشر الجزء البارز من الزحافة Crosse والمرتكز على القاعدة فتستقر المسلة فوق الأكياس الرملية الكبيرة (شكل ١٥).



وبعد ذلك يبدأ العمل فى وخز الأكياس الكبيرة فيتدفق منها الرمل ويقل حجمها فتأخذ المسلة فى الهبوط التدريجى حتى يتم تفريغ جميع الأكياس الكبيرة ولا يبقى غير الأكياس الصغيرة الإسطوانية فى القناة . وفائدتها هى منع المسلة من الإنطباق على قاعدتها قبل إخراج الأكياس الكبيرة الفارغة (شكل ١٦) وفى النهاية توخز هذه الأكياس الصغيرة الإسطوانية فيقل حجمها وتهبط المسلة وتنطبق على القاعدة تمامًا وتغوص الأكياس الفارغة الصغيرة فى القناة(٤٤) .



هذه هى نظرية شوازى وهناك اعتراضات كثيرة عليها نلخصها فيما يلى :

١ - لم يذكر شوازى نوع المادة التى يصنع منها المحور الذى ترتكز عليه المسلة ومن البديهى أن هذه المادة لا يمكن أن تكون من الخشب الذى لا يمكنه تحمل ثقل المسلة الهائل .

٢ - لم يذكر أى تفاصيل عن مادة الزلاقة التى تنظم حركة هبوط المسلة .

٣ - من المستحيل ارتكاز المسلة فى الوضع أ على طرف الزحافة الخشبية فلا الزحافة تتحمل ذلك ولا الحبال التى تربطها بالمسلة تتحمل وزن المسلة .

٤ - قال شوازى عن قناة القاعدة أنها أعدت لوضع أكياس الرمل الصغيرة لملء الفراغ الذى يمكن العمال من سحب الأكياس الكبيرة الفارغة والواقع أن الغرض من هذه القناة هو ارتكاز حافة مؤخرة المسلة عليها والظاهر أن شوازى لم يجد دوراً لهذه القناة فى نظريته ففسر الغرض منها هذا التفسير الخاطئ .

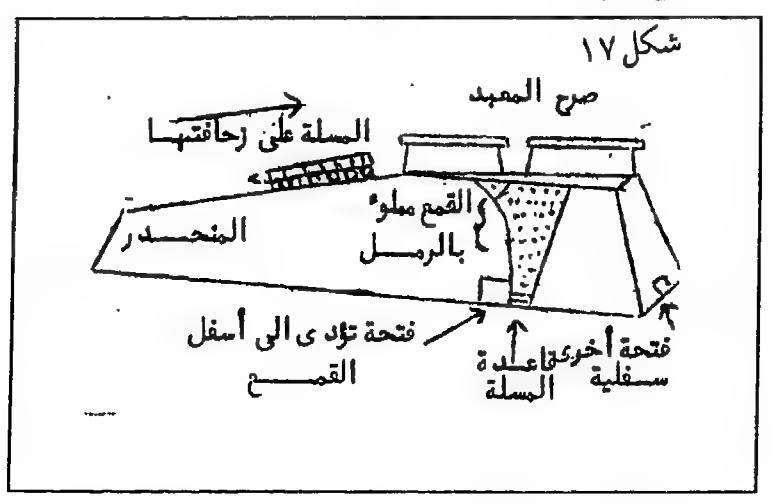
٥ - لا تفسر هذه النظرية سبب انحراف بعض المسلات عن قواعدها مثل مسلة حتشبسوت (انظر ص٣٧) ، وقد قام العالم الأثرى والمهندس انجلباك بعمل عدة تجارب فى معمله عن إقامة المسلات وصنع عدة نماذج مصغرة للمسلة

وصرح المعبد والمنحدر وخرج بنظرية جديدة تسمى نظرية القمع Funnel Theory تتلخص هذه النظرية فيما يلى(٤٥) :

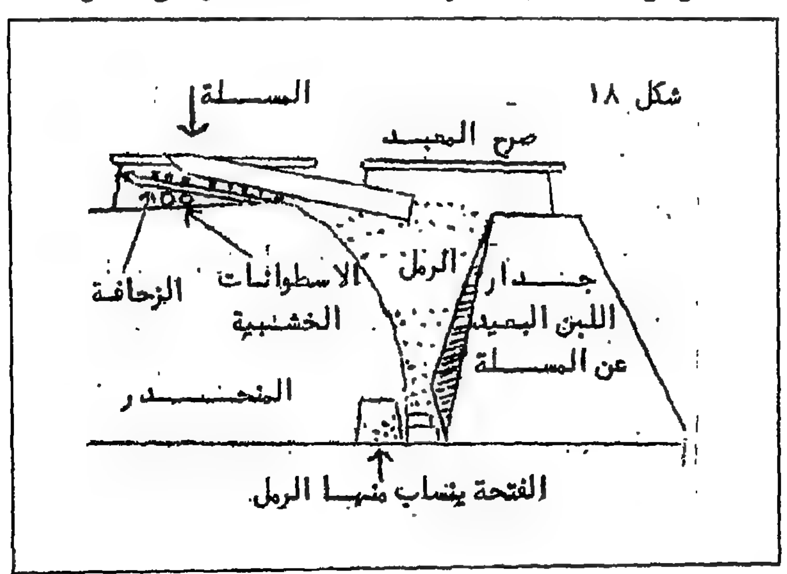
أن المسلة لا تقام بامالتها على منحدر أو على محور ولكن نتيجة لهبوطها التدريجى داخل حفرة على شكل قمع Funnel - shaped pit جدرانها من اللبن وتوجد فى نهاية المنحدر ويحدث الهبوط نتيجة لسحب الرمال من تحتها تدريجيًا وذلك من ممرات تؤدى إلى قاع الحفرة .

وهذه الحفرة التى تشبه كثيرًا قمع البترول Funnel متسعة من أعلاها وضيقة من أسفلها ولكنها أكثر اتساعًا من قاعدة المسلة وتسحب المسلة على المنحدر حتى تصل إلى أعلاه وتستقر مؤخرتها على الرمال التى تملاء الحفرة (انظر الشكل ١٧) ثم يبدأ العمل فى سحب هذه الرمال من خلال الممرات السفلية والفتحة السفلى تقع على سطح الأرض فى واجهة المنحدر وتؤدى إلى داخل القمع فوق قاعدة المسلة مباشرة والشكل الموضح مع هذا الكلام والأشكال التالية هى قطاعات طولية للمنحدر توضح هذه الطريقة خطوات إقامة المسلة طبقا لنظرية القمع :

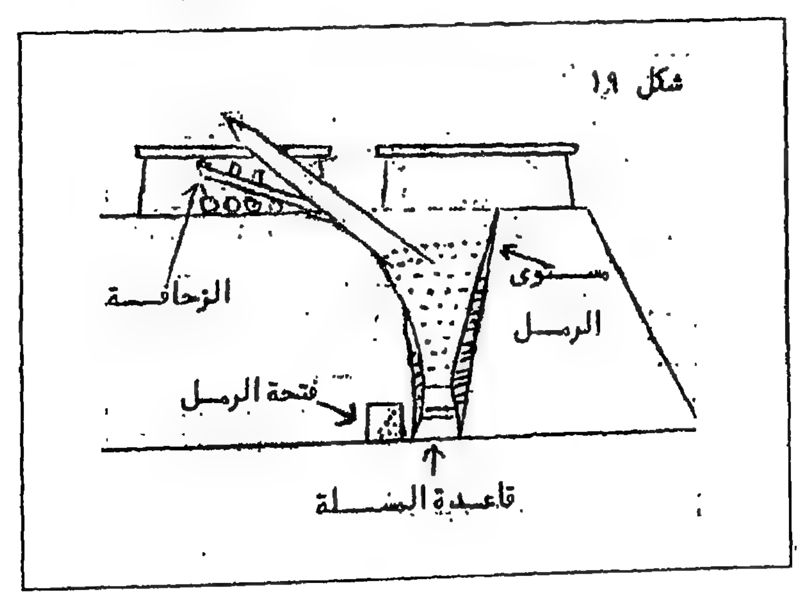
١ - يبدأ العمل فى جر المسلة على زحافتها على المنحدر حتى تصل إلى أعلاه (انظر شكل ١٧) .



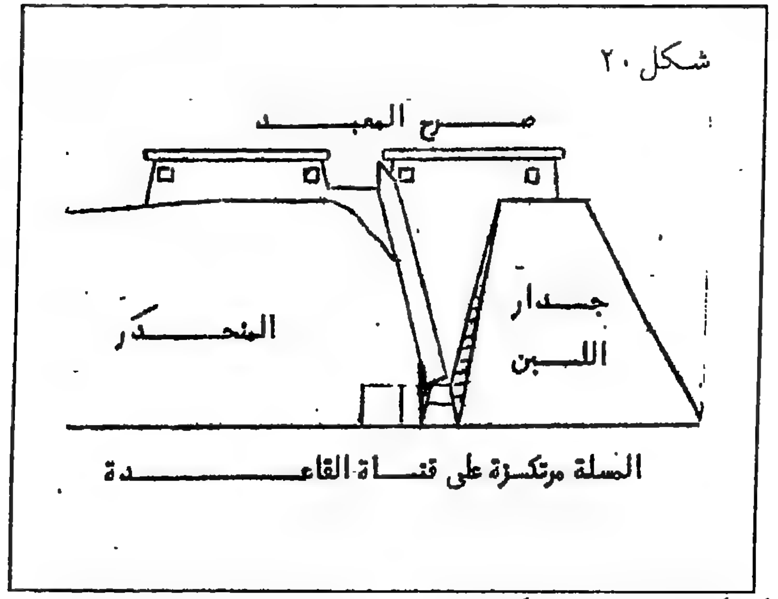
٢ - يفصل الجزء الخلفى من الزحافة وتمال المسلة حتى تستقر مؤخرتها على الرمل ثم يبدأ العمل فى سحب الرمال من الفتحة الأمامية الظاهرة فى شكل ١٨.



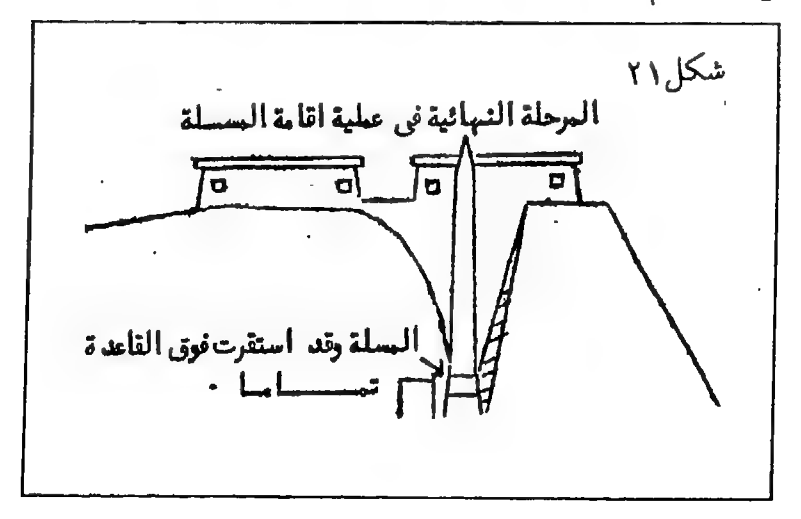
٣ - تبدأ المسلة فى الهبوط ببطء شديد نتيجة لهبوط مستوى الرمل (شكل ١٩) ويرجح أن بعض العمال كانوا يهبطون إلى مؤخرة المسلة من آن لآخر ليحفروا هنا وهناك لتصحيح أى خطأ فى اتجاه المسلة . ولزيادة التأكد من صحة اتجاه المسلة كانوا يضعون عروقا من الخشب بين مؤخرة المسلة وبين جدار الحفرة البعيد عن المسلة حتى لا تنحشر المسلة داخلها .



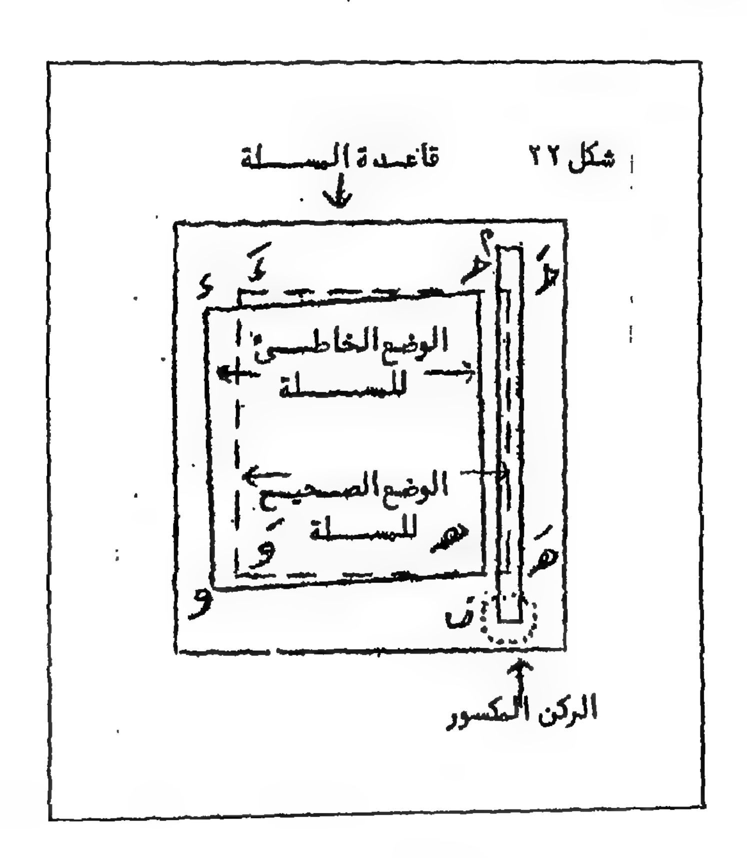
٤ - وعندما ترتكز حافة المسلة على قناة القاعدة (شكل ٢٠) يدخل العمال إلى قاع الحفرة لتنظيف قاعدة المسلة من بقايا الرمال والزلط ثم ترفع الدعامات (العروق الخشبية) ويوضع بدلها بعض نبات الحلفاء ليكون بمثابة وسادة أو متكأ يحمى المسلة من الانحراف والتصادم مع الجدران المحيطة بها .



٥ - وأخيرًا تربط المسلة من أعلاها بالحبال ويقف العمال فوق جدار الحفرة البعيد عن المسلة ثم تشد المسلة فتأخذ وضعها رأسيًا (شكل ٢١) .



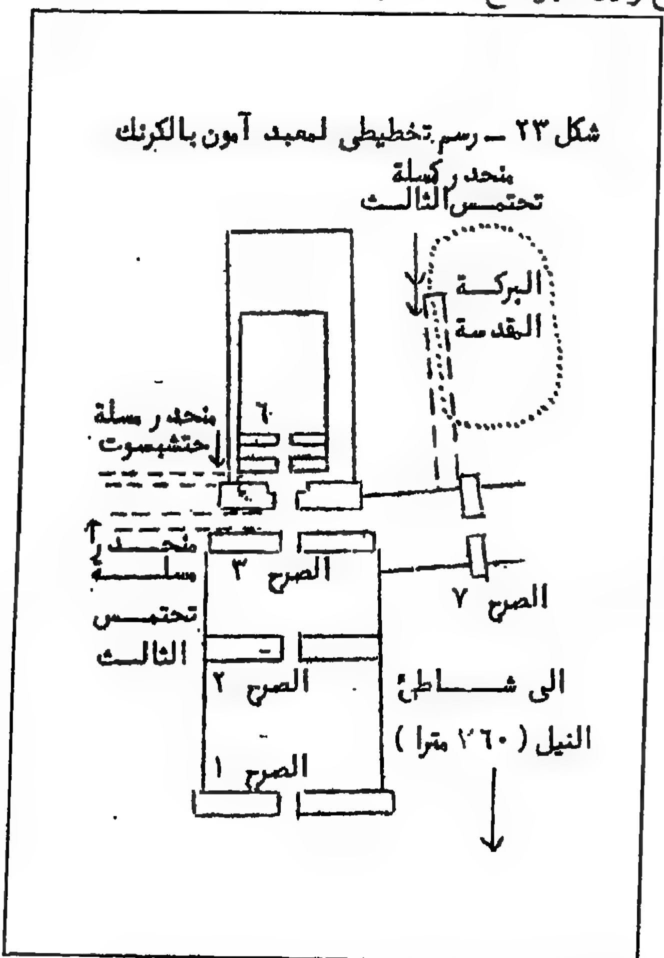
يتضح مما سبق أن قناة القاعدة لها أهمية كبيرة من حيث ضمان إرساء المسلة على قاعدتها إرساء صحيحا وحماية طرف المسلة من الكسر . ويبدو أن إهمال بعض الاحتياطات المبينة فى الخطوتين ٣ و ٤ (وضع العروق الخشبية ونبات الحلفا) أدى إلى انحراف مسلة حتشبسوت القائمة فى الكرنك عن قاعدتها (انظر شكل ٢٢) فأخطأت القناة أ ب واتخذت الوضع الخاطئ وهو جـ و د هـ وبدلا من الوضع جـَ دَ هـَ وَ وهو الصحيح وقد أدى جنوحها إلى كسر ركن القناة عند (ب) فاضطر المصريون لتهذيبه لإخفاء معالم الكسر(٤٧) .



وباختبار مسلة تحتمس الثالث الساقطة أمام صرح تحتمس الأول بالكرنك لوحظ وجود فجوتين مستديرتين فوق قاعدتها بالقرب من المركز . وقد يكون

الغرض منهما وضع كتل من الخشب فيهما ليكونا بمثابة طاسات تصادم Shock absorbers تمنع المسلة من التمايل عند نصبها .

ويقول انجلباك تعزيزًا لنظريته - أن القنوات فى جميع قواعد المسلات لا تتجه ناحية النيل مهما بعدت المسافة بين مكان المسلة وبين شاطئ النهر وحتى قناة قاعدة مسلة تحتمس الثالث التى توجد بقاياها أمام الصرح السابع فى الكرنك (وهو صرح عمودى على الصروح الأخرى الموازية للنهر كما يتبين من الشكل ٢٣) وجدت فى الجهة البعيدة عن النهر وهذا دليل على أن المنحدر قد شيد من الناحية الأخرى البعيدة عن النهر مكان البركة المقدسة رغم أن المسافة بين الصرح السابع وبين النهر تبلغ ٣٦٠ مترًا .



شكل ٢٣ — رسم تخطيطى لمعبد آمون بالكرنك

والسبب فى ذلك وجود مبانى معبد آمون . وهذا دليل على أن المنحدر كان يبنى موازيا لصرح المعبد كما يقول انجلباك لا عموديًا عليه(٤٨) .

ولإثبات نظريته أيضًا لجأ انجلباك إلى النصوص المصرية القديمة حيث فسر كلمة " المخزن " التى وردت فى نص بردية انستاسى(٤٩) الذى يقرأ " لقد قيل لك أفرغ المخزن المملوء بالرمل ... إلخ " على أنها تعنى الحفرة التى على شكل القمع وهى حجر الزاوية فى نظريته .

هذه هى نظرية القمع التى نادى بها انجلباك وقام بعدة تجارب لإثباتها ورغم ذلك يميل بعض العلماء إلى عدم الأخذ بها واعتراضهم الوحيد عليها أنها تبدو معقدة وفوق مستوى تفكير المصريين القدماء(٥٠) .

نظرية شفرييه Chevrier :

وهى أحدث نظريات إقامة المسلات جميعًا وقد نشرها الأثرى المهندس شفرييه سنة ١٩٥٤ فى مجلة مصلحة الآثار المصرية(٥١) .

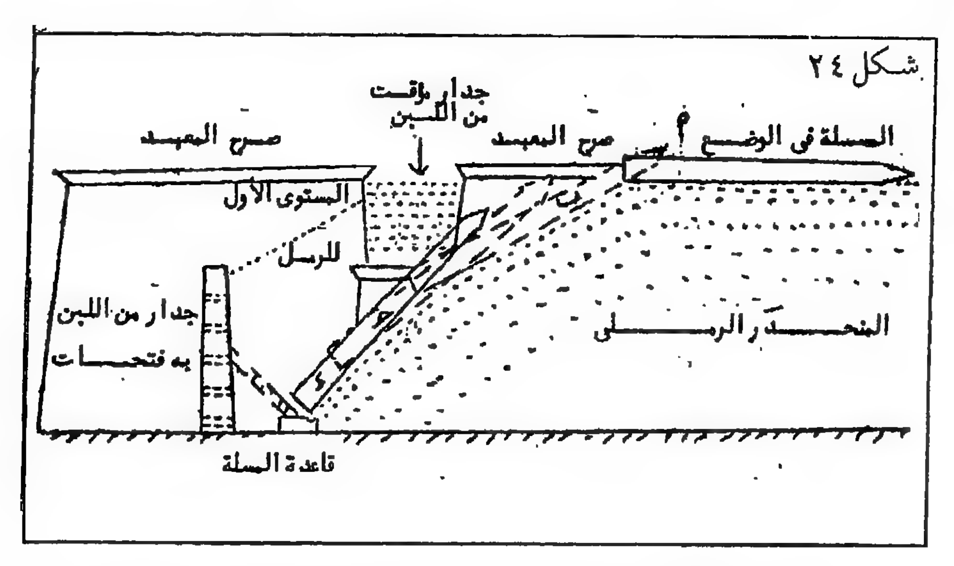
وقد وجد شفرييه أن نقطة الضعف فى النظريات التى سبقته هى أنها لم تدخل فى حسابها خطورة ارتكاز المسلة على مركز ثقلها عند أمالتها على جانب المنحدر وقال أن هذا الوضع يعد خطرًا على المسلة نظرًا لاحتمال انكسارها إلى نصفين .

وعلى هذا فقد وضع شفرييه نظريته على أساس أن المسلة كانت ترتكز على الجزء الأكبر من طولها ليس أثناء عملية نصبها فقط بل من لحظة نقلها من السفينة. كما فسر وجود الفجوات المستديرة فى قواعد المسلات والتى لم تفسر النظريات الأخرى العلة فى وجودها فيما عدا انجلباك الذى قال أنها كانت تقوم بدور طاسات التصادم(٥٢) Shock absorbers .

ويشرح شفرييه نظريته قائلاً أنه لإقامة المسلة كان المصريون يستخدمون بناء ضخمًا سماه صندوق الرمل Caisse à Sable لأنه يشبه الصندوق فى شكله ويتكون من أربعة جدران أحدها هو صرح المعبد الذى ستقام أمامه المسلة والثانى

هو المنحدر الذى تسحب عليه المسلة إلى أعلى أما الجداران الآخران فكانا يشيدان من اللبن (شكل ٢٤ و٢٧) .

وفى حالة مسلتى حتشبسوت اللتين أمام الصرح الخاص فى الكرنك استخدم الصرحان الرابع والخامس كجدارين لهذا الصندوق و لم تحتاج الملكة إلا لبناء جدار واحد هو الواقع نحو الشمال (انظر الشكل ٢٧) .

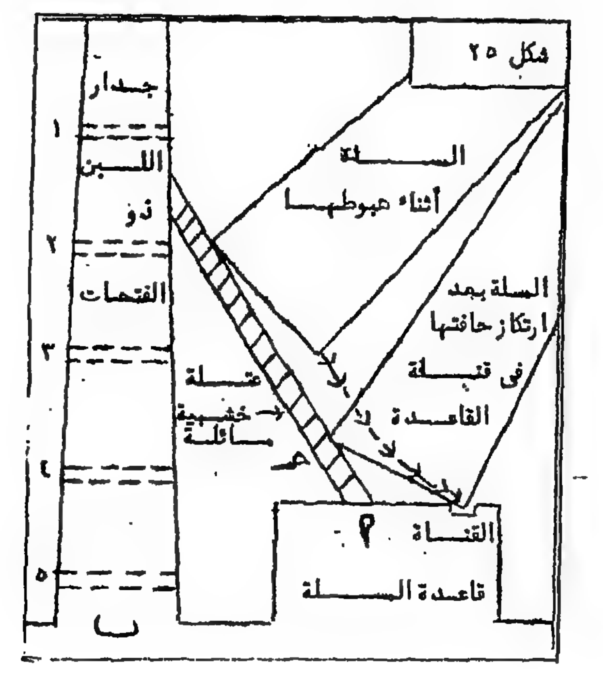


وكان هذا الصندوق يملأ بالرمل إلى ارتفاع يتراوح بين ١٥ و ٢٠ مترًا وعلاوة على قناة القاعدة كان يوجد فى قواعد بعض المسلات (خصوصًا مسلات تحتمس الثالث التى كانت قائمة أمام الصرح الثالث فى معبد الكرنك) فجوتين مربعتين تقريبًا ذات جوانب ملساء مائلة ميلا خفيفًا (شكل ٢٥ أ) الغرض منهما تركيز عرقين خشبيين مائلين Poutres obliques (شكل ٢٥ ج) كانا يستندان على الجدار المواجه للمنحدر . (شكل ٢٥ ب) وكانت هذه العروق تدهن بالطين لتسهيل انزلاق المسلة عليها وتوجهها نحو قناة القاعدة إذا كان هناك قناة أو نحو مكانها من القاعدة إذا لم توجد القناة ويبدو أنه لم يكن من الضرورى عمل هاتين الفجوتين بدليل خلو قاعدة مسلة حتشبسوت الجنوبية منهما والظاهر أن

فائدتهما كانت تنحصر فى وقاية العروق الخشبية من التآكل نتيجة احتكاكهما بسطح القاعدة الخشن وعلى ذلك فالفجوات الملساء لم تكن إلا إجراء من إجراءات الأمان .

ولكى تحتفظ المسلة بتوازنها ولضمان عدم انكسارها أثناء ميلها كانت تتبع الطريقة الآتية :

كان الجدار المواجه للمنحدر (شكل ٢٥ - ب) يحوى عدة فتحات متتالية (من ١ - ٥) وبعد أن تسحب المسلة فوق المنحدر الرملى بحيث تستقر أعلى قاعدتها تقريبًا يبدأ العمل فى سحب الرمل من الفتحة رقم /١ فيهبط مستواه وتهبط معه المسلة ويتم سحب الرمل بهذه الطريقة من الفتحات الأخرى وهذه العملية تؤدى إلى ارتكاز المسلة على الجزء الأكبر من طولها وبذلك تحتفظ بتوازنها فتأمن الكسر وتهبط نحو قاعدتها فى نفس الوقت .

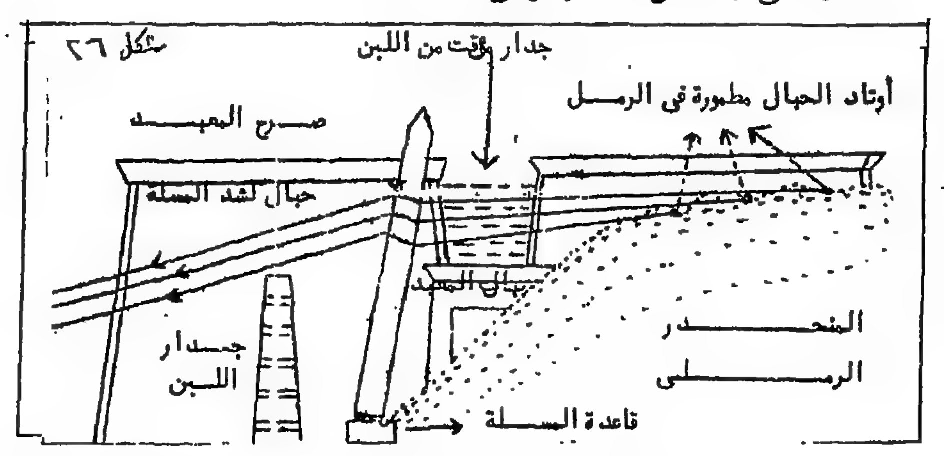


وهذه الطريقة لا تؤدى بطبيعة الحال إلى اتخاذ المسلة للوضع الرأسى التام بل إلى ارتكازها على قاعدتها فى وضع مائل بمقدار ٤٥ درجة .

وفى هذه المرحلة يلعب الرمل المتراكم فى قناة القاعدة دورًا هامًا فى حماية حافة المسلة من الكسر عند ارتكازها فى القناة . إذ أنه يكون بمثابة الوسادة التى تحول دون اصطدام الصخر بالصخر .

وبعد ذلك يجرى العمل فى تنظيف قاعدة المسلة من الرمال المتراكمة فوقها وحولها ثم تبدأ أخطر مرحلة فى عملية إقامة المسلة وهى اتخاذ المسلة للوضع الرأسى دون أن تتأرجح أو تتمايل . ويتم ذلك على عدة خطوات :

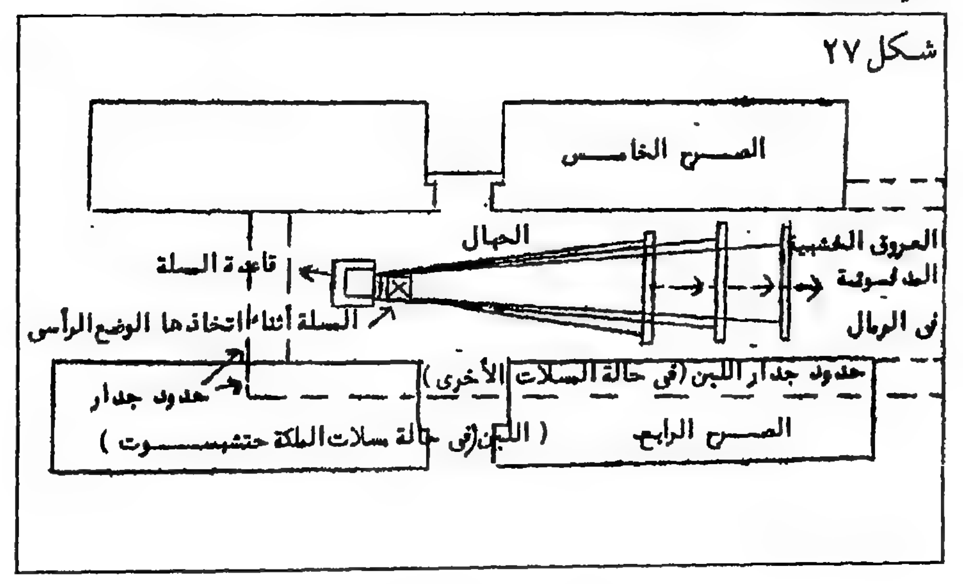
١ - تربط الحبال من منتصفها حول الجزء العلوى للمسلة (قد يبلغ $\frac{١}{٣}$ طول المسلة) (شكل ٢٦) ثم يشد العمال المسلة بهذه الحبال من ناحية جدار اللبن حتى تبتعد عن المنحدر الرملى .



٢ - تربط الأطراف الأخرى للحبال إلى عروق من الخشب Poutres en bois ثم تدفن هذه العروق فى رمال المنحدر على عمق معين بحيث تكون متعامدة على مستوى الاتجاه الأفقى للمسلة (وتشبه فى هذا فلنكات السكة الحديد) (شكل ٢٦و٢٧).

٣ - يشد العمال المسلة بالحبال فتندفع نحوهم ولكن العروق المدفونة فى الرمل تقاوم حركة اندفاعها .

ونتيجة لحركتى الشد والمقاومة تتجه المسلة ببطء نحو الوضع العمودى حتى تستقر أخيرًا فوق قاعدتها . وقد يبدو لأول وهلة أن نقطة الضعف فى نظرية شفرييه هى استحالة عمل فتحات فى جدار اللبن لسحب الرمال منها . نظرًا لأنها ستضعف الجدار مما يؤدى إلى انهياره نتيجة لضغط الرمل المتراكم داخله مضافًا إليه ضغط المسلة على هذا الرمل . ولكن شفرييه يبرر ذلك بقوله أن الرمل يختلف فى خصائصه عن السوائل ، لأن السوائل تضغط على جوانب الإناء الذى يحتويها ، أى أن ضغطها يكون فى جميع الاتجاهات بنسب متساوية أما الرمل فيضغط من أعلى إلى أسفل فى اتجاه رأسى وبذلك لا تتحمل الجدران المحيطة به إلا ضغطًا خفيفًا جدًا(٥٣) .



* * *

هذه هي النظريات المختلفة بخصوص إقامة المسلات وأننى لا استطيع أن أقطع برأى لتفضيل إحداها عن الأخرى إذ أن هذا متروك للمهندسين فهم أقدر من الأثريين على تميز ذلك ومعرفة نواحي الضعف في كل نظرية . وأننى إذ أنقد بعض هذه النظريات فإنما انقدها من ناحية الفهم العام لها وليس على أساس هندسي أو معمارى . ولكن رغم ذلك فإننى أرى أن مجال الاختيار ينحصر بين نظريتى أنجلباك وشفرييه ، لهذا فاننى سأورد فيما يلى مقارنة بين النظريتين :

نظرية انجلباك	نظرية شفرييه
١ - المنحدر الذى تسحب عليه المسلة إلى أعلى كان يعمل من اللبن	١ - من الرمل
٢ - الحفرة المعدة لهبوط المسلة على شكل قمع .	٢ - على شكل صندوق مستطيل
٣ - الفتحات التى تسحب منها الرمال تقع فى أسفل البناء وكلها على سطح الأرض .	٣ - كلها فى الجدار المواجه للمنحدر وهى مرتبة من أعلى إلى أسفل .
٤ - لتوجيه المسلة نحو قاعدتها كان العمال ينزلون إليها من آن لآخر ويضعون عروقاً خشبية بينهما وبين جدران الحفرة .	٤ - كان يستعمل عرقان من الخشب يميلان على جدار اللبن ويرتكزان فى الفجوتين .
٥ - الغرض من الفجوات التى حفرت فى قواعد بعض المسلات هو وضع قطع من الخشب لتكون بمثابة طاسات التصادم التى تمنع المسلة من التمايل أثناء اتخاذها الوضع الرأسي .	٥ - الغرض من هذه الفجوات هو تركيز العروق الخشبية حتى لا تحتك بجرانيت القاعدة الخشن فتتآكل.

٦ - لضمان عدم اندفاع المسلة وتمايلها كانت توضع الحلفاء والقش بين المسلة وجدار الحفرة لتقوم بدور الوسائد .	٦ - كانت تستخدم فى ذلك عروق من الخشب تدفن فى الرمال وتربط إلى حبال تلف حول المسلة .

يتبين من المقارنة السابقة التشابه الشديد بين فكرة النظريتين إذ يمكن اعتبار نظرية شفرييه امتدادا لنظرية انجلباك رغم اختلافهما فى بعض التفاصيل .

وأننى أميل إلى الأخذ بنظرية انجلباك لأنه اعتمد فى توجيه المسلة نحو قاعدتها على شكل الحفرة نفسها فإن اتخاذها شكل القمع وضيقها التدريجى إلى أسفل يحصر المسلة فى نطاق ضيق ويجعلها تتخذ الوضع الرأسى الصحيح . أما شفرييه فقد جعل اتساع الحفرة (الصندوق) واحدا مما يؤدى إلى صعوبة التحكم فى المسلة . وقد استند فى توجيه المسلة نحو القاعدة على وضع عروق خشبية وبديهى أن الخشب من الوسائل التى لا يمكن الركون إليها لحمل ثقل هائل يزيد على ٥٠٠ طن .

وإذا كان بعض العلماء قد اعترضوا على نظرية انجلباك بقولهم أنها معقدة وتبدو فوق مستوى تفكير قدماء المصريين فإن هذا الاعتراض لا أساس له لأن المصريين الذين برعوا فى فن الهندسة والمعمار لا تعلو على تفكيرهم أمثال هذه الوسائل والطرق .

وقبل الانتقال من هذا الموضوع لدينا كلمة أخيرة وهى أن جميع المسلات القائمة فى أمكانها ليست عمودية تمامًا رغم أن المستوى العلوى لقواعدها أفقى تمامًا والسبب فى ذلك هو صعوبة نحت السطح السفلى للمسلة ذاتها بحيث يكون تام الاستواء وذو اتجاه عمودى على محور المسلة . وقد تمكن المصريون من الوصول إلى حل لهذه المشكلة . فقد تبين من دراسة قواعد مسلات معبد الإله خنسو منقسو

وجود فجوات مقعرة ذت شكل نصف كروى Calotte Sphérique Concave مع عدم وجود قنوات بها ويرجح أن السطح السفلى لمؤخرة مسلات هذه القواعد كانت تعمل بـه بروزات محدبـة نصف كرويـة Calotte Sphérique Convexe وعندما ينطبق البروز داخل الفجوة كانت تشبه المفصلة Rotule التى كانت تدهن بالطين لسهولة تحريك المسلة وبذلك يصبح فى الامكان تصحيح وضع المسلة حتى تتخذ الاتجاه الرأسى التام(٥٤) .

(و) ما بعد نصب المسلة

بعد إقامة المسلة فى وضعها الرأسى تبـدأ عمليـة الصقـل والتلميـع (كـانت المسلة تصقل صقلاً خشنًا وهى فى المحجر للتخفيف من ثقلها) . ومعلوماتنـا عـن طريق الصقل والتلميع محدودة جدًا ومن المحتمل أن كرات الدلريت استـعملت فـى صقل أوجه المسلة(٥٥). ولقياس استواء سطح المسلة كان المصريون يضعون عليهـا لوحًا مستويا مغطى بالمغرة الحمراء المخلوطة مع الزيت) وكلمـا كـانت الفواصـل بين علامات المغرة ضيقة كلما دل ذلك على استواء سطح المسلة(٥٦) .

وبعد ذلك كان يستعمل مسحوق الصنفرة لجعل سطح المسلة ناعم الملمـس . وبعد انتهاء العملية ترسم الصور والعلامات الهيروغليفية بالمغرة الحرمـاء وكـانت طريقة حفر هذه العلامات والحروف تتلخص فـى حفـر حدودهـا علـى الجرانيـت بواسطة سكاكين من النحاس وبالصنفرة ثم نشرها بمناشير يدوية وكسرها وأخـيرًا يصقل مكانها بالمدقات وتستعمل الصنفرة لجعلها ملساء(٥٧) .

ولا ينتهى العمل فى المسلة عند هذا الحد ، بـل تبقـى عمليـة كسـوة القمـة بالصفائح المعدنيـة ويقـول المـؤرخ عبـد اللطيـف البغـدادى يصـف المسـلات التـى

شاهدها فى هليوبوليس (ويرجع أغلبها إلى عهد الأسرة ١٢) (٢٠٠٠ - ١٧٨٨ ق . م) أنها كانت مغطاة بالصفائح النحاسية وأن مياه الأمطار قد شوهتها بصدأ النحاس الذى سال على جوانب المسلة . وبطبيعة الحال لم يكن ذلك ليرضى المصريين القدماء لأن المسلة كانت رمز الآله رع فلابد من احتفاظها بمظهر لامع براق . لذلك استعمل المصريون منذ عهد الدولة الحديثة وفى عهد الأسرة الثامنة عشرة بوجه خاص (١٥٤٠ - ١٣١٥ ق . م) نوعًا آخر من المعدن يمتاز بشدة لمعانه وقوته على عكس الأضواء فضلا عن عدم قابليته للصدأ وكانوا يسمونه " جَعَمْ " ويرجح أنه مخلوط الذهب والفضة أو الذهب الأبيض Electrum . ويقول المؤرخ أن نسبة الفضة إلى الذهب فى هذا المعدن كانت تبلغ ١ : ٥(٥٨) .

ومازلنا نجهل طريقة كسوة المسلة بهذا المعدن كما نجهل مقدار سمك الصفائح المستعملة لهذا الغرض . ولكن لابد أن العملية كانت تحتاج إلى مقدار كبير من المعدن . فقد قالت الملكة حتشبسوت فى معرض الحديث عن مسلاتها :

لقد خصصت لهم معدن " جَعَمْ " البديع الذى استعملت فى وزنه ال " حِكَت " مثلما توزن أكياس الحنطة(٥٩) .

وهذا معناه أنها لم تستعمل معيارًا بسيطًا فى وزنه بل استعملت الحكت (ويعادل ٤,٧٨٥ لترا) وهذا يدل على أن كسوة مسلاتها كانت سميكة جدًا . وللأسف لم يبق من هذه الكسوة شئ والظاهر أنها سرقت أثناء ثورة اختاتون الدينية (١٣٧٥ - ١٣٥٨ ق . م)(٦٠) .

ويقول بعض المؤرخين أن المسلات كات تغطى بأكملها بالمعدن . ولكن هذا بعيد الاحتمال فى حالة المسلات الكبيرة كمسلة حتشبسوت ولكنه جائز بالنسبة للمسلات الصغيرة التى كانت تقام على جانبى المقاصير فى المعابد . ومثال ذلك مسلات أمنوفيس الثانى التى وجدت فى معبده فى المدامود (شمال الأقصر بقليل) ومما يؤيد هذا الرأى ما جاء فى حوليات الملك أشور بانيبال(٦١) الذى غزا مصر سنة ٦٦٣ ق .م أثناء صراعه مع الملك النوبى تانوت آمون . فهو يذكر فى معرض حديثه عن الغنائم التى أخذها من مدينة طيبة أنه استولى على عمودين مصنوعين من معدن " زحالو " يزن الواحد منهما ٢٥٠٠ تالنت . ويبدو أنه يشير إلى مسلتين صغيرتين لأن الساميين كانوا يصفون المسلات بأنها أعمدة ولا ريب أن سبب الاستيلاء عليها هو قيمة المعدن الذى يغطيها .

الهوامش

(١) وقد أسس هذا الشعب عدة مدن فى مصر أشهرها مدينة هليوبوليس (عين شمس الحالية) التى كانت تسمى " أون "بمعنى البرج والتى أصبحت أكبر مركز لعبادة الشمس فى مصر . ويلاحظ وجود شبه بين الرمز المذكور وبين المسلة . ويقول بعض العلماء أن الشكل يمثل برجًا كان كهنة هذه المدينة يرصدون منه الشمس ويقول البعض الآخر أنه يمثل عمودًا من الحجر .

(٢) نصوص الأهرام أو ناس سطر ٦٦٣ .

(٣) وهيب كامل : هيرودوت فى مصر ٧٢ .

(4) Budge, Cleopatra, pp. 10-11.

(٥) فى موكب الشمس ، جزء أول ، ص١٤٠ .

(6) Budge, Cleopatra, p. 10.

(7) Ibid. p. 20.

(8) Ibid. p. 12.

(9) Ibid. p. 14.

(10) Budge; Cleopatra, p. 17.

(11) Engelbach; Problem, p. 33.

(12) Engelbach; Problem, p. 33.

(13) Budge; Cleopatra, p.25.

(14) Ibis. p. 34.

(15) Engelbach; op. cit. p. 42 fig. 10.

(16) Petrie; Tools and Weapons, pl. XIII, B16, 17.

(17)Engelbach; op. cit. p. 42.

(18)Engelbach; problem, p. 36.

(19)Petrie : Tools and Weapons,p. XLIX p.p. 44 - 46.

(20) Engelbach, Problem, p. 38

(21) Ibid.p. 42.

(22) Ibd, pp. 48 - 49 .

(23) Budge; Cleopatra, p. 27.

(24) Engelbach; Problem, p. 39.

(25) Engelbach; Problem, p.54.
(26) Ibid, p. 54.
(27) Choisy, L'Art de Batir, p. 122.
(28) Engelbach; Problem, p .60.
(29) Ibid.
(30) Choisy, L'Art de Bater, p. 123.
(31) Engelbach, The Aswan Obelisk, p. 31.
(32) Engelbach, Problem, p. 58.
(33) Pling, Natural History, Book XXXVI, chap. 4.
(34) Engelbach, Problem, pp. 64 - 65.
(35) Budge, Cleopatra, pp. 29 - 31.
(36) Engelbach : problem, p. 63 - 64.
(37) Breasted, Anciant Records, Vol I & 322 Vol II & 105.
(38) Somers Clarke, Ancient Egypt. (1920) Part I & II...
(39) Gardiner, Hieratic Texts XIII.
(40) Budge, Cleopatra, p. 33.
(41) Petrie, Arts and Crafts, p. 76.
(42) Budge, Cleopatra, p. 34.
(43) Choisy, L'Art de Batir p. 124.
(44) Choisy, :'Art de Batir, p. 124.
(45) Engelbach, Problem, pp. 66 - 76.
(46) Engelbach, The Aswan Obelisk, p 51..
(47) Engelbach, Problem, pp. 74 - 75.

(٤٩) انظر ص ٢٧ من هذا البحث .

(50) Budge, Cleopatra, p.55.
(51) Ann. Serv. T. L II, P. 309 - 312.
(52) Engelbach, Problem, p. 74.
(53) Ann. Serv. T. LII p. 309.
(54) Ann. Serv, LII, p.33.
(55) Engelbach, Problem, p. 80 & Budge, Cleopatra, p. 56.
(56) Engelbach, Problem, pp. 80 - 81.
(57) Engelbach, Problem, pp. 81 - 82.
(58) Budge, Cleopatra, p. 37.
(59) Sethe, Urkunden, IV 366.
(60) Budge, op. cit. p. 38.
(61) Ibid, pp. 38 - 39.

المراجع

1. Budge, A. W, Cleopatra's Needle and other obelisks, 1926.
2. Breasted, J. H; Ancient Records of Egypt. (1906) 5 vols.
3. Chevrier, H; " Note sur Lérection des Obelisques " Annales du Service, T. LII (1954) pp. 309 - 313.
4. Choisy, L'Art de Bâtir Chez les Egyptiens (1905).
5. Engelbach, R; The Aswan Obelisk (1922) .
6. Engelbach, R; The Problem of the obelisks (1923).
7. Gardiner, A; Egyptian Hieratic Texts, Part I (Papyrus Anastasi).
8. Gorringe, Egyptian Obelisks (1885).
9. Petrie, M. F.; The Arts and Crafts of Ancient Egypt. (1909). .
10. Petrie; Tools and Weapons.
11. Pliny, Natural History.
12. Somers Clarke, Ancient Egypt (Period), (1920) Part I & II.

الفن الصخرى فى بلاد المغرب القديم

د. حسن الشريف(*)

لا تزال الصحراء الكبرى تضن بالكثير من أسرارها ويظل موضوع الفن الصخرى من نقوش ورسوم من أصعب هذه الأسرار وأكثرها غموضاً ، وفى إمكان كل من عالم الأنثروبولوجيا والبليونتولوجيا (علم الاحاثة)، وكذلك عالم اللغات القديمة والمؤرخ والجغرافى ، فى إمكان كل واحد من هؤلاء أن يجد من المستحدثات فى هذه الصحراء ما يفيد فرع تخصصه .

وتشغل هذه الصحراء حزاماً عريضًا ، يمتد من الشرق إلى الغرب آلاف الأميال ، وأما العرض فيقع بالتقريب فيما بين دائرتى عرض ١٨°و٢٨° شمالى خط الاستواء ، أما عن عدد مابها من نقوش ورسوم فحسب إحصائية سابقة ، قدرت بـ ٢٠٠٠٠ مابين نقش ورسم . وقد حاول أحد الباحثين ، أن يسيطر على هذا الكم الضخم من اللوحات ، وما تحتويه من موضوعات ، فاستعان بالحاسب الآلى، من أجل وضع كشاف للسمات الفائقة العدد ، مثل الأشكال المختلفة لقرون البقر، أو الأدوات أو أنواع الحيوانات أو الألوان المستخدمة ، للوقوف على ما يوجد من ظواهر ومخلفات ، وأماكن انتشارها ، ليسهل تتبع حركات الشعوب التى سكنت الصحراء وعلاقاتها المتبادلة مع بعضها البعض ومع جيرانها .

وقد لوحظ بالنسبة للنقوش الصخرية أنها جاءت فى أماكن مكشوفة فى الصحراء ، على مساحات كبيرة من صخور عمودية ملساء ، وعلى جوانب الأودية الكبيرة ، كما لوحظ كذلك أن أماكنها اختيرت عن قصد ، اختارها القدماء ربما للاحتفال بطقوس دينية أو سحرية .

(*) كلية الآداب – جامعة الأسكندرية – فرع دمنهور .

أما الرسوم ، فتختلف بعض الشىء حيث نراها فى ألوان حقيقية مناسبة ، استخدم فيها طلاء جيد وبألوان عديدة . وهى أيضاً فى العراء ، ولكنها فى حمى من أشعة الشمس و المطر . ومن السهل أن ندرك أنه كان لهؤلاء الفنانين القدماء أسرارهم الخاصة ، الأمر الذى لم يتأت لمن جاء بعدهم . وهكذا قاومت أقدم الرسوم فعل الزمن ، بينما لوحظ أن أكثرها حداثة سهلة الإزالة . ويمكن الحكم بشكل عام أنه أعقب الرسوم الأقدم ، اضمحلال تدريجى من حيث التقنية ، وكذا من حيث المهارة الفنية .

وقد بذلت محاولات جاهدة ، لبناء تتابع نسبى لترتيب المجموعات المختلفة من اللوحات ، ترتيباً زمنياً ، معتمدة على دراسة أسلوب التنفيذ ، وتقسيمها إلى فترات وأطوار فى مجموعات رئيسية ، وجاءت كل مرحلة باسم أظهر حيوان اتخذ قرينة نوعية للمرحلة .

وكانت النقوش التى تمثل الحيوانات الوحشية الضخمة أول أطوار هذه الظاهرة ، تليها فترة سميت بمرحلة أصحاب الرؤوس المستديرة ، ثم مرحلة الرعى أو مرحلة الثيران ، حيث ظهرت قطعان عديدة من الماشية المستأنسة ، ثم تلتها مرحلة الحصان أو العربة ، وجاءت مرحلة الجمل فى ختام هذه النقوش .

ولا يزال من الصعب الاعتقاد بأن هذه الأطوار جاءت متفقه وتواريخ محددة، ولكن الأمر لا يعدو أن يكون جملة افتراضات قائمة على الاستنتاج ليس غير . فهى تختلف مع النتائج التى جاءت حسب إجراءات معملية ، معتمدة على حقائق، من فحص مواد استخرجت من بعض مواقع النقوش ، وأجريت عليها اختبارات الراديو كربون .

وقد أمكن لفبريزيو مورى (Fabrizio Mori) أن يستخلص بعض دلالات زمنية ، من أعماله فى منطقة جبل الأكاكوس من نواحى غات - جنوبى ليبيا .

وحسب ترجيح مورى تعود أقدم تواريخ مرحلة الثيران إلى ما قبل الألف السادسة ق . م . ويمكن أن تعد الألف السادسة هذه خطاً فاصلاً بين مرحلتين : مرحلة الرؤوس المستديرة ومرحلة الثيران .

وهو لذلك يختلف مع الباحثين الذين يعتقدون أن تاريخ تلك النقوش والرسوم لا ينبغى أن يذهب إلى أبعد من مرحلة العصر الحجرى الحديث . واعتماداً على قياس سمك طبقة الزنجار أو ما يطلق عليه أحياناً غبار الزمن : Patine يرجع تاريخ نقوش الحيوانات البرية أو مرحلة التيتل إلى العصر الجليدى المتأخر ، تليها فى حوالى الآلف السابعة مرحلة أصحاب الرؤوس المستديرة ، أما عن مرحلة الحصان ، فهى حسب جدول مورى ، تقع فى منتصف الآلف الثانية ق .م . وهو بذلك يتفق مع أغلب الباحثين . وتستمر مرحلة الحصان حتى قبيل التاريخ الميلادى ، حيث يكون الجفاف قد أحكم حلقاته ، وكشفت الصحراء عن أطرافها ويصبح الجمل هو الحيوان السائد .

وقد جاء الطور الأول من هذه النقوش بحيوانات ثديية ضخمة من الأنواع البرية كالفيل والكركدن وفرس النهر والتيتل . ومن المعتقد أن هذه المجموعة كانت أول من غادر الإقليم عندما بدأت ملامح عصر الجفاف فى الظهور . وهذه النقوش تجدها دائماً منعزلة ، ونادراً ما تصاحبها أشكال بشرية . وفسرتها بعض الآراء بأنها من أجل أغراض سحرية ، وهذه هى مرحلة الصيد فى الشمال الأفريقى .

يلى ذلك فى الزمن مرحلة الرؤوس المستديرة حيث يظهر فيها الشكل الإنسانى برأس مستدير بلا تقاطيع . وبينما كانت أشكال المرحلة الأولى تمثل فرادى ، جاءت رسوم هذه المرحلة فى مشاهد جماعية تمثل مناظر من الحياة القبلية أو مناظر للعبادة ، ويغلب على هذه المرحلة أعمال الرسم ، ويندر فيها النقش .

ثم يلى ذلك طور تتعدد فيه المناظر ، منها مناظر للرقص ، حيث يبدو الراقصون غالباً بأقنعة وذيول ، وبالقرب منهم حيوانات كبيرة تشير إلى حاجتهم إلى الصيد ، الذى ربما كان عماد حياتهم . وأهمية هذا الطور أنه يوضح عموماً الطقوس والمعتقدات الراسخة ، وهى دينية أكثر منها سحرية ، إذ نرى فيها إيماءات بعالم روحانى ملىء بأشكال بشرية ممسوخة ، سواء كانت تعنى شياطين أو آلهة أو حتى أبطالاً أرادوا تخليد ذكراهم ، وكل هذا يرتبط بجنس سكان أقرب إلى العنصر الزنجى على الأرجح .

وعلى ما يبدو أنه فى الوقت الذى شهدت بعض أقاليم الشرق الأدنى القديم ، نقطة التحول الكبير ، من مرحلة الجمع والالتقاط ، إلى مرحلة إنتاج الطعام والزراعة والاستقرار وإنشاء القرى الأولى ، تشهد ربوع المغرب القديم ، ذلك التحول الكبير ، ولكن فى ظروف خاصة وسمات محلية ، وذلك باتجاه مجتمعاته إلى استئناس الحيوان . ومن ثم تغير النظام الاجتماعى لسكان هذه الأقاليم تغييراً جوهرياً ، كما عدل فى الوقت نفسه فى أسلوب واتجاهات الرسوم ، فلم تعد تظهر الأشكال البشرية الممسوخة ، وظهرت اتجاهات جديدة مثل تربية الماشية ، وحلب الأبقار ، إلى غير ذلك من نواحى الحياة القبلية . أما رسوم الأشخاص فقد صغرت أحجامها وصورت على الصخور بواقعية أكثر . وتبدو ملامح السكان أنها من جنس البحر المتوسط ، وهنا يغلب الغرض القصصى فى الرسم على الغرض السحرى .

والواقع أن أعمال مورى فى جبال الأكاكوس بنواحى غات فى ليبيا ، جعلته يلمس بوضوح تلك التغيرات الاجتماعية والاقتصادية ، التى صاحبت فترة التحول إلى العصر الحجرى الحديث . فقدكان من الواضح أن الثور لعب دوراً هاماً فى حياة السكان الجدد ، لذلك مثلوه بكثرة فى رسومهم على الصخر ، فظهرت رسوم القطعان الكبيرة مما بعث على الاعتقاد ، بأن هذه الرسوم من أجل أغراض سحرية كأبقائها وإنمائها فى المستقبل .

وقد عبرت رسوم هذه المرحلة عن مقدرة فنانيها وأمانتهم فى تمثيل القطعان، ودرايتهم بتفاصيلها التشريحية ، مما كان له أكبر الأثر فى معرفة خصائص كل نوع : فأمكن بذلك التعرف على أنواع السلالات .

ويبدو أن مرحلة الثيران أو الرعى فى موضوع الفن الجدارى للمغرب القديم كانت بمثابة آخر المراحل الزاهرة ، من حيث التنوع والاتقان ، وجاء فنها وسيطاً بين عالمين ، ففى الفترة التى تلت طور الرعى ، تتغير الرسوم كثيراً وتفقد غموض وإيحاءات الأطوار السابقة ، ويغلب عليها الطابع البشرى ورسوم العجلات بخيول تركض ومناظر صيد الودان والزراف ، وإن استمر الطابع الطقسى ، ومناظر تمثل الموت وغيره من أحداث القبيلة . فإذا ما ظهر الجمل فى المناظر ، فنحن أمام مرحلة طابعها ركاكة الأسلوب وسذاجة التعبير ، مما ينبىء باضمحلال هذا الفن العظيم ، وزوال عصره، وانطواء صفحته .

إن هذا الإرث العظيم من الفن الجدارى ، بلغ فى ماضى المغرب القديم ، ما بلغته الأهرامات فى تاريخ مصر القديمة ، والكاتدرائيات فى تاريخ أوربا فى عصورها الوسطى ، إنه فى حقيقته كتاب تاريخ أفريقيا شمالى الصحراء .

وكان لظاهرة بمثل هذا الحجم أن تستثير من اهتمام الدارسين وهممهم ما يملأ الآن مجلدات ضخمة ، فى محاولة لتأويل بعض مشاهدها ، أو تفسير بعض موضوعاتها ، ومحاولة الخروج ما أمكن بمعلومات عن أصل الحضارات أو اتجاه الهجرات والتأثيرات المختلفة ، وعن أصل الأجناس التى سكنت الشمال الأفريقى ولكن من الأهمية بمكان أن نكون على حذر من أى دراسات شكلية تعتمد على لوحة أو عدة لوحات ، لأن لوحة واحدة من عصر ما قبل التاريخ ليست فى حقيقة الأمر إلا نذراً يسيراً من ثقافة كبيرة تحتوى على آلاف العناصر الأخرى .

وبعبارة أخرى فإنه من الضرورى أن نحتاط فى قبول تلك التسميات ، التى يطلقها بين حين وآخر ، بعض الباحثين من ذوى الثقافات الأجنبية ، على بعض

مشـــاهد من تلك النقوش أو الرســـوم ، مثل مصطلحات أو أسمـــاء : القضـاة ... أو السيدة البيضاء ... أو قالع الإنسان ... أو سكان المريـخ ... إلى أخـره . ونحـن نتفق مع خبير الرسوم الصخرية الأفريقى" زيربو" حين يطلق صيحة يحذر منبهـاً إلى أنه من اللازم أن نعتمد مبدءاً عاماً يتلخـص فـى أن فـن مـا قبـل التـاريخ الأفريقـى يستوجب أن يـؤول أولاً انطلاقـاً مـن مستندات أفريقيـة أصليـة وأنـه لا يمكـن أن نبحث عـن أسباب خارجـة عنهـا إلا إذا لم نحصـل علـى إجابـات للمشـاكل فـى إطارها الزمنى والمكانى والثقافى المحلى .

ولأهمية توضيح ذلك يتعين أن نضرب مثالاً على ذلك :

ففى دراسة سابقة ، وأثناء فحصى لبعض اللوحات من نشـر هـنرى لـوط ، مستقاه من منطقة غات ، توقفت عند إحدى هذه اللوحات . وكانت عبـارة عـن رسم يمثل دائرة غير منتظمة الشكل يجلـس خارجهـا شخصان ، أمـا فـى داخلهـا فيرقد شخص على ظهره - كما يبدو - وقد صفت من حولـه عـدد مـن الأوانـى والأطباق.

فماذا كـان تعليق هــ . لـوط علـى هـذا المشـهد ؟ لقـد ذكـر أنـه مسـكن قمـىء تجلـس فيـه امـرأة وطفـل علـى جلـد حيـوان أمـام الخطـوط العامـة للمسكن ، وقد استلقى رجـل على ظهـره ، ومـن حولـه أشـياء متنوعـة .

فالرسم إذاً حسب اعتقاد لـوط مسكن ، والأشـخاص هـم الأحيـاء الذيـن يسكنونه . ولكن الواقع يخالف ذلك لأن إنسان مـا قبـل التـاريخ ، لم يكـن ليهتـم بتصوير مسكنه الذى كان فى الغالب ، إما مغارة فى الجبـل أو مـأوى بسـيط مـن أغصان الشجر وجلود الحيوان . وحتى إذا قبلنا بتفسير لوط إنه مسكن ، فـأين أمـاكن بقية أفراد الأسرة ؟ وإنه لمن الأقرب أن نقول بـأن الرسـم لمقـبرة وأن الشـخص الراقـد

داخلها يمثل المتوفى مستلقيا فيها ، وأن الحاجيات التى وضعت بجواره ، هى ما عرف فيما بعد فى العصور التاريخية التالية بالأثاث والمنقولات الجنائزية ، وأن الشخصين الخارجين ما هما إلا أسرة المتوفى ربما كانا يؤديان بعض الشعائر الطقسية أو أحضرا قرابين من نوع ما . واعتقد أن لوط فاته أن يمسك بطرف الخيط الأخر ، وبسبب بعده عن نظام المقابر المصرية - وخصوصاً فى عصور ما قبل الأسرات - لم يدرك ما بين ذلك المشهد وما كانت عليه تقاليد الدفن الشائعة فى الشمال الأفريقى ، وهى عادات تأكدت فى أكثر من مكان ، فقد وجدت مثل هذه العادات فى بلاد النوبة ، وكذلك فى نماذج لمقابر حقيقية عثر عليها فى وادى الأجال من نواحى فزان فى ليبيا . بل لعل هذه العادات ظلت لدى السكان المحليين حتى عصر الطوارق ، فهى نفس طريقة الدفن التى وجدت عليها مقبرة ملكتهم " تين حنان " فى واحة أباليسا بالجزائر .

وتبقى ملاحظة أخيرة حول الرسم المذكور ، تتعلق بالوضع الذى كان عليه الشخص داخل القبر ، إذ ربما جاء مخالفاً للوضع الذى ألفناه فى قبور عصور ماقبل التاريخ ، تلك الوضعية التى توصف بالقرفصاء أو فيها يرقد المتوفى على جانبه وقد ثنيت أطرافه أمام وجهه .

الواقع أنه يمكن الافتراض أن الفنان أراد ذلك ، ولكن فى حالات كثيرة كان حرص الفنان أن يؤكد فكرة ما ، جعله يخالف قواعد الرسم المنظور حسب فهمنا له . ومع ذلك نقول أنه عثر على حالات أخرى ضمن " قبور جبل زنككرا" بوادى الأجال ، الذى سبقت الإشارة إليه ، وجد فيها المتوفى راقداً على ظهره ، وأطرافه مثناه إلى أعلى ، الأمر الذى جعلنا نعتقد أن مثل هذه الوضعية كانت مألوفة لدى مجتمعات الصحراء (انظر لوحة " أ " و" ب " للمقارنة) .

لقد كان لوجودى بجامعة سبها فترة من الوقت ، ما أتاح لى أن أطلع بنفسى على مواقع النقوش فى الجنوب الليبى ، وأن أشهد العديدمن لوحاتها ، وأن استشعر حجم وضخامة هذه الظاهرة ، ومدى كثافة لوحاتها فى بعض المواقع ، إلى الحد الذى يتجاوز كل ما قيل عنها من تفسيرات أو شروح ، وأن من يتأمل وضعية بعض النقوش على الجدران الصخرية ، فى بعض أماكن منطقة غات أو وادى " برجوج" أو وادى " متخندوش" ، وما تحتويه لوحات هذه المواضع من مجموعات حيوانية مختلفة فى تكويناتها ومجموعاتها - ليدرك أن الأمر يتعدى ما قيل فى السابق من أنها لأغراض دينية أو سحرية . فالأمر عندنا أجل من ذلك ... ربما نحن بصدد مفردات للغة أم للصحراء ، فإذا ما تذكرنا كيف كتب كل من المصريين القدماء والسومريين لغتهم بادىء الأمر فى شكل مقاطع ومفرودات لحيوانات وطيور بيئاتهم ، أيقنا أن مجتمعات الشمال الأفريقى والصحراء بعامة ، كانوا على وشك أن يبتدعوا مثلهم نظماً للكتابة .

أما لماذا لم يتم لهم ذلك ؟ فالسبب فى ظنى يرجع إلى أمرين :

السبب الأول : أن مجتمعات الشمال الأفريقى ، حينما أمسكوا بأرهاصاتهم الأولى لما يمكن أن يمثل لغة مكتوبة تخصهم لم تسعفهم البيئة بمادة خام رخيصة ومتوفرة ليصنعوا منها أدوات كتابتهم ، كما توفر للمصريين القدماء حينما وفرت لهم بيئتهم أحجاراً طيعة للنحت كحجر الشت أو عندما أتاح لهم نبات البردى ، الذى كان ينمو بوفرة فى مناقع الدلتا ، والسناج الذى حصلوا عليه من جدران أوانى الطهى ، أن يمتلكوا أدوات كتابة رخيصة .

وقد توفرت نفس الظروف للسومريين فى جنوب العراق ، مع الفارق هنا ، حيث أمكن لهم هم الأخرون امتلاك أدوات كتابة رخيصة ومتوفرة من مادتى الطين والقصب اللتين وفرهما لهم نهرا دجلة والفرات . والأمر حسبما اعتقد أنه

لا يكفى لمجتمع ما - حتى تكون له لغة مكتوبة ، أن يبتدع أشكالها ورسومها ، ولكن من الضرورى أن يمتلك وسائل تسجيل متاحة لهذه اللغة ، وبشرط أن تكون هذه الوسائل متوفرة فى البيئة المحلية أو يسهل الحصول عليها .

أما السبب الثانى : فقد كان عاملاً بيئياً خارج قدرة إنسان الشمال الأفريقى ، وكان بمثابة كارثة بيئية ، لا يملك إزاءها إلا الرحيل . ونقصد عصر الجفاف ، الذى بدأ فى ضرب مناطق المغرب القديم والشمال الأفريقى بعامة ، فى الوقت الذى كانت هذه الإرهاصات الأولى لتكوين لغة مكتوبة فى حاجة إلى مجتمع آمن ومستقر .

وختاماً لهذا العرض الموجز لموضوع النقوش والرسوم الصخرية ، للمغرب القديم ، أود أن أقدم بعض عينات منه صادفنى الحظ ،أنها تقع فى مناطق قريبة من مقر جامعة سبها ، وأنها لم تجد حظها من اهتمام الباحثين ، ربما لضآلة عددها مما لم يلفت نظر من تناولوا موضوع النقوش .

فى الموقع الأول : " براك " :

تميزت نقوش هذا الموقع بالتنوع واشتمالها على نقوش لأكثر من مرحلة ، وإن كان من الصعب فى مثل حالتنا هذه التيقن من شىء حيث اقتصر عملنا على مجرد التسجيل وإبداء بعض الملاحظات الأولية ، تشمل النقوش على مشهدين لصيد النعام (لوحات ١ ، ٢) ، وعلى الرغم من أن حالة النقشين باهته، توحى أنهما يمثلان أقدم مراحل النقش الصخرى التى يطلق عليها " مرحلة الصيد " ، إلا أننا نعتقد أنهما ربما يعودان إلى " مرحلة الرعاة " أو " الثيران " المتأخرة ، ذلك اعتماداً على أسلوب النقش المتردى ، والذى لا يهتم بإبراز التفاصيل أو إتقان الشكل ، ولأنه لا يجب أن نعتقد أن حرفة الصيد قد أبطلت فيما أعقب مراحل

النقش الصخرى ، يضاف إلى ذلك أداة الصيد هنا كانت القوس والسهم ، وهذا يعنى أن المشهد يعود لما بعد العصر النيوليتى للصحراء .

وقد مثلت الأبقار بكثرة فى هذا الموقع ، (لوحات ٣-٥ على سبيل الانتقاء) ويعود السبب فى رأينا إلى طبيعة المكان ، ووفرة الماء ، والظروف المناسبة لحياة رعوية ميسرة . ولا تزال حتى يومنا هذا تتدفق المياه الباطنية بسهولة من العيون فى كثير من بقاع وادى الشاطىء .

وقد مثلت الأبقار فى جماعات (لوحة ٣) ربما صاحبها حيوانات أخرى (ماعز ؟) ربما أضيفت إلى النقش فيما بعد ، كما نقشت فى حالات أخرى فرادى (لوحة ٥) . ويلاحظ أنه فى الحالات الفردية ، بذل الفنان قدراً أكبر فى العناية بالرسم . ومما يسترعى الانتباه هنا فى موضوع (لوحة ٥) حالة قرنى البقرة أنهما يشبهان القيثارة أى هلالية الشكل ، مما يذكرنا بقرنى البقرة "حتحور" فى مصر الفرعونية . وعلى الرغم من أن هذا النوع من الأبقار صُور كذلك فى رسومات جبل "الأكاكوس " من أعمال"مورى" لكنه لوحظ أنه كان ضمن قطعان أخرى كثيرة من النوع الذى لا تبرز له قرون . وجاءت القرون الهلالية فى رسومات " الأكاكوس " كعناصر ثانوية فى المشهد ولكننا فى حالتنا هنا نحس بقدر من (الإجلال ؟) إزاء مشهد البقرة التى تقف فى وقار وسكون .

وتثير مشاهد الأبقار فى النقوش والرسومات عدد من الفرضيات ، حول وقت ظهورها فى الشمال الأفريقى ، ومصدر قدومها . وحسب جدول " مورى " فى جبل " الأكاكوس " يقترح لها الألف السادس ق. م. أو ماقبله وأنه يفصلها عن المرحلة التى تسبقها (مرحلة الرؤوس المستديرة) فاصل زمنى ليس قصيرا ، له أهمية حضارية خاصة فى مسألة تقويم النقوش زمنيا(١) . الواقع أن مثل هذه المعطيات عن زمن تدجين البقر فى الصحراء ، تجعلنا نعتقد أن الآراء

القائلة بأن البقر المدجن قد أتى إلى الصحراء قادما من الشرق آراء تفتقر إلى الأدلـة المقنعة. وعلى العكس من ذلك فإن كثرة مشاهد الرسـوم الصخريـة فـى الصحـراء للحيوانات المستأنسة ، تجعل من الأصوب الاعتقـاد أن فكـرة استئناس الحيـوان لم تكن غريبة عن حضارات الصحراء . وأننا يجب أن نناقش جديا كون تربية الأبقـار يعود فى نشأتها إلى الصحراء(٢).

وقد صُور " الحصان " فى أكثر من نقـش (لوحـات ٦ - ٩) على سـبيل الانتقاء وقد لوحظ فى منـاظر " وادى الشـاطىء " نهجـين : الأول منهمـا حينمـا يتناول الفنان تصوير الحصان لذاته فقط ، فيصـوره فـى أحجـام كبـيرة مـع العنايـة بإظهار تقاطيع جسده . أما المنهج الثـانى فحينمـا يكـون الحصـان ممتطيـا بواسـطة فارس أو مشدودا إلى عربة فهنا تقل أهمية الحصان فى الرسم ويتضاءل حجمه .

ولا يمكننا أن نجزم هنا بشيء ، إلا أن النهجين متفاوتـان تفاوتـا فـى درجـة الاتقان .

يبقى موضوع (لوحة ٩) وهـو مـن المنـاظر الهامـة فـى موضـوع النقـوش الصخرية ، إذ يصور لنا العربات التى كانت تجرها أربعة من الخيـول والتـى جـرت العادة بنسـبتها لعنـاصر " الجرامنـت " ، وهـم الذيـن اسـتوطنوا وادى " الشـاتى " و"الأجال" ، وكانت عناصر هامة فـى التـاريخ الليبـى. وممـا يسـترعى الانتبـاه فـى الشكل المذكور غياب قواعد فن المنظور لـدى الجرمنتـى (لاحـظ الخيـول الأربعـة وحالـة سـائق العربـة !) . وربمـا كـان مـن الأجـدر مقارنـة رسـم العربـات لـدى الجرامنت بما جاء من مناظر لعربات ينطلق بها زوج من الخيـول مـن نشـر أعمـال "مورى" فى جبل " الأكاكوس" (تادرارات أكاكوس . لوحتى ١٣٨ ، ١٣٩) . ففى حالة عربات جبل " الأكاكوس " وخيولها يتضح مراعاة الفنان لقواعد المنظور ودرايته بها . هذا من جهة ومن جهة أخرى يلاحظ فى مشاهد " الأكاكوس " أن

الخيول صورت راكضة وكأنها تسبح فى الفضاء وهو ما يصفه " لوط " بأنها نفس الطريقة التى صورت بها مشاهد من الفن " الإيجى "(٣) . وتبعد جبال " الأكاكوس " عن مواطن الجرامنت بحوالى ٦٠٠ ميل ، مما يسمح بالاعتقاد أن عالم الصحراء الكبرى كان زاخرا بثقافات متنوعة .

ولا يسعنا هنا إلا أن نشير إلى نموذج هام وخصب من مصادر البحث العلمى تفتحه أمامنا موضوعات النقش الصخرى ، إذ تمدنا بموضوعات عن حضارات الصحراء ، ما كان لنا أن نلم بها من أى مصدر غيرها .

ونشير إلى (لوحة رقم ٨) فقد أقترن النقش ببعض حروف لغة "التفيناغ"، وهى لغة بعض قبائل المغرب وقد كتبت من حروف بونيقية .

ويمثل موضوع (لوحة ١٠) لوحة " الجمل " ، وهو آخر مراحل الفن الصخرى للصحراء ، والذى يواكب عصر الجفاف ، ويؤرخ ببداية التاريخ الميلادى . ويتضح فى هذه المرحلة من تاريخ الفن الصخرى مدى التدهور الفنى الذى أصابه ، وهو يطوى آخر صفحاته .

يبقى من المشاهد المنتقاة من الموقع الأول ، صورة لِوَدَّان (لوحة ١١) وهو حيوان مألوف فى هذه المناطق ، لدرجة أن إحدى المدن الليبية تحمل اسمه . وقد اقترن ظهور هذا النوع بمرحلة الرعاة ، وتم تنفيذ النقش بنفس تقنية موضوعات الأبقار . وتصور (لوحة ١٢) لوحةرجلين أحدهما أكبر من الآخر ، ولا ندرى إذا كان لذلك أى معنى وقد حمل الشخص الآخر ما يشبه " الدرع " وربما كانا يتأهبان لقتال . وقد تم تنفيذ النقش بتقنية " التطريق ".

الموقع الثانى : " برقن "

ربما كانت رسوم " برقن " (لوحات ١٣ - ١٧) امتدادا لرسوم الموقع الأول . وهى فى الغالب لا تذهب أبعد من مرحلة الرعاة ، وهو ما سبقت

الإشارة إليه من ملائمة الوادى لحياة الرعاة وتربية قطعان الماشية . وقد وجدت النقوش فى معظمها قريبة من سطح الأرض ، الأمر الذى قد يوحى بأن هذه القطع الصخرية كانت أجزاء من صخور أكبر وقد تفتت وتناثرت على أرض الوادى بفعل عوامل المناخ (لوحة ١٣) وربما هذا مما سهل عملية النقش ، التى اشتملت على ثلاثة مراحل : الرعاة والحصان والجمل .وقد غطت حروف " التفيناغ " الكثيرمن النقوش .

وفى (لوحة ١٥) لوحة يتضح فى النقش صورة زرافة ،وقد مثلت الزرافة فى أغلب مراحل الفن الصخرى للصحراء بدءا من مرحلة الرؤوس المستديرة وحتى مرحلة الحصان(٤). وينتمى النقش الذى نحن بصدده فى أغلب الظن إلى عصر الرعاة المتأخر ، لأن النقش يماثل فى تقنية تنفيذه نفس نقش البقرة التى تجاوره .

الخلاصة

يتضح من نقوش هذين الموقعين خلوهما من مرحلة الحيوانات البرية ، وهى المرحلة التى جاءت نقوشها على سفوح الجبال على ارتفاعات قد تصل إلى عدة أمتار ، أو على جدران المآوى الصخرية وهو مالا يتوافر فى طبيعة الوديان(٥) كما يلاحظ أن الأعمال الفنية فيهما تمت بطريقة النقش وليس الرسم . ولم تستخدم أى ألوان فى تلوين النقوش . ولقد أمكن عن طريق المقارنة استيضاح بعض الفروق فى المنهج والأسلوب اللذين اتبعهما فنان وادى " الشاتى " عن مواقع للنقش الصخرى فى جبل "الأكاكوس" التى تعد أخصب مناطق الفن الصخرى فى ليبيا وربما فى الشمال الأفريقى .

وتجدر الإشارة فى نهاية هذا البحث الوجيز التنويه إلى إغفال مواقع وادى " الشاتى " من خريطة الفن الصخرى لجنوب ليبيا أو الشمال الأفريقى بعامة . وقد يرجع الظن فى رأيى إلى ثراء جنوب ليبيا بمواقع أخرى تزخر بألوان من هذا الفن وثراء فى موضوعات مثل جبل " الأكاكوس " فى منطقة " غات " ونقوش وادى "متخندوش" وكلها مواقع تجذب حتى فى أيامنا هذه الزوار والباحثين ، الأمر الذى يجعل نقوش وادى " الشاتى " متواضعة غير ملفتة للنظر .

الهــوامش

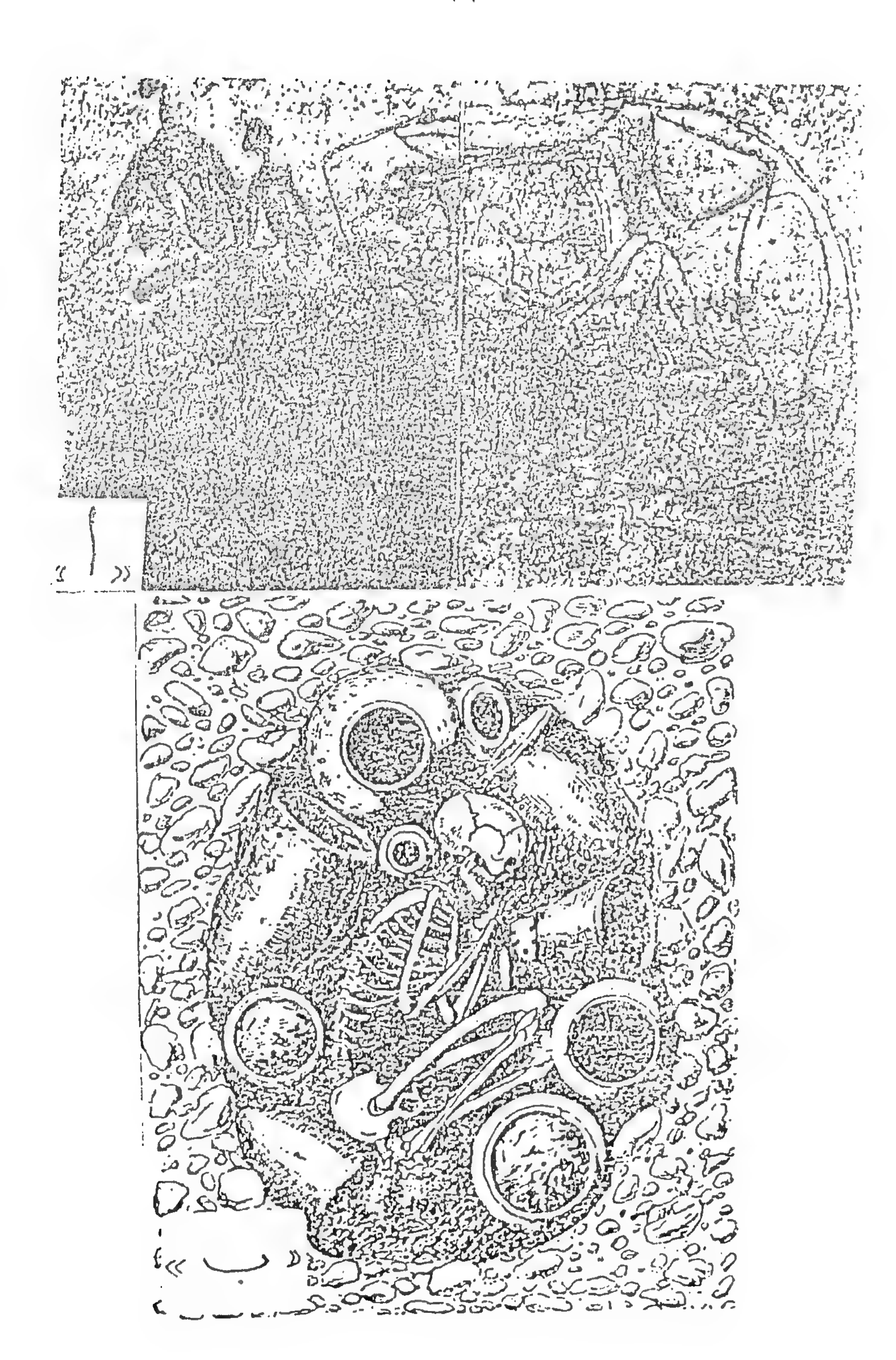
(١) " مورى " ، ف. ب ، " تادرارات أكاكوس " ، الفن الصخرى وثقافات الصحراء قبل التاريخ ، تعريب عمـر البارونى وفؤاد الكعبازى ، منشورات مركز الجهاد الليبى - سلسلة الدراسات المترجمة -١٣ ، طرابلس ١٩٨٨ ، ص ٢٤٧ . وكان قد سبق له ذكر نفس التقدير الزمنى . انظر : الصحراء الكبرى ، نفس الناشر السابق ، رقم ٢ من نفس السلسلة ، طرابلس ١٩٧٩، ص١٦٠ .

(٢) " شتريتر " ، ك .هـ. الرسوم الصخرية كمصدر تاريخى ، الصحراء الكبرى ، مرجع سابق، ص ١٥٥ .

(٣) " لوط " ، هـ. لوحات تاسيلى ، تعريب أنيس ذكى حسن ، طرابلس ١٩٦٨.

(٤) " أورد مورى " ، نماذج عدة لهذا الحيوان فى مواقع جبل " الأكاكوس " مثلت نقوش من دور الرؤوس المستديرة لوحة (٢٠) ودور الرعاة رقم (١٩) ثم دور الحصان رقم (٢١) .

(٥) يكاد يكون من المألوف فى أرجاء الصحراء الكبرى ، أن إنسان العصر الحجرى القديم كان يفضل العيش إما على الهضاب أو يحتمى بالكهوف ، وهو ما يؤكده الواقع الأثرى ، حيث لا نكاد نعثر على أدوات حجرية من العصر الحجرى القديم إلا فى هذه الأماكن . أما الوديان فلم يهبط إليها الإنسان إلا مع انحسار العصر المطير للصحراء ، واتجاه الإنسان إلى مصادر المياه الدائمة فى الوديان ، وبجوار عيون الماء .


« أ »
« ب »



لوحة رقم (١)



لوحة رقم (٢)



لوحة رقم (٣)



لوحة رقم (٤)



لوحة رقم (٥)



لوحة رقم (٦)



لوحة رقم (٧)



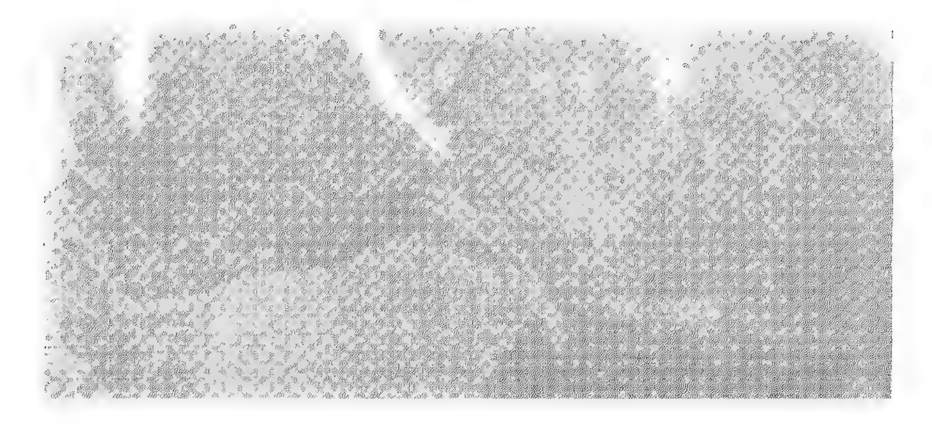
لوحة رقم (٨)



لوحة رقم (٩)

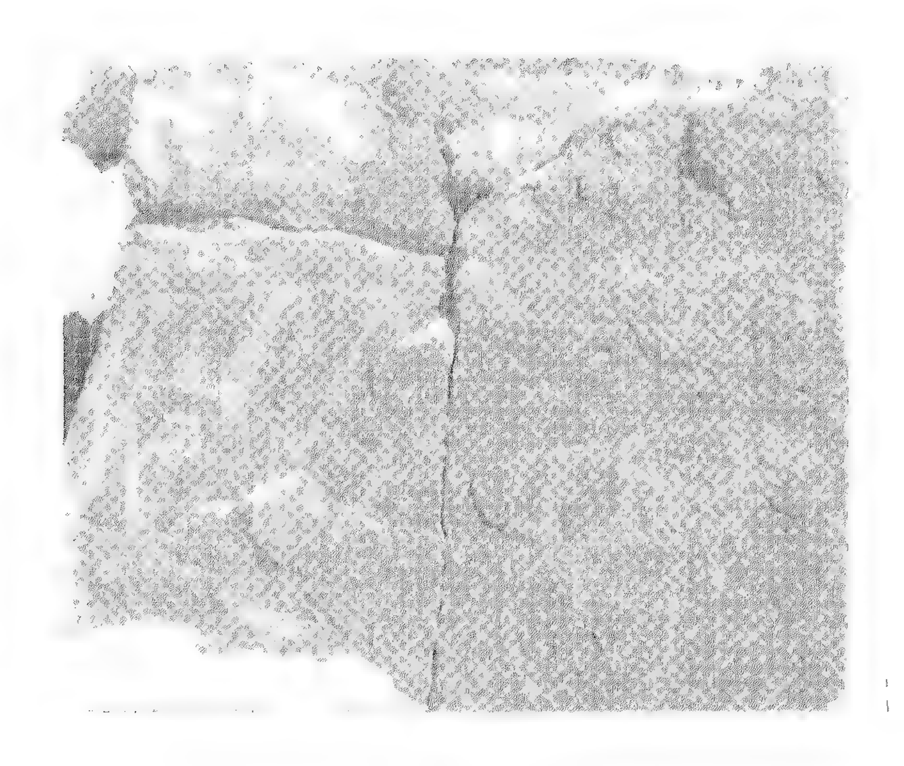


لوحة رقم (١٠)

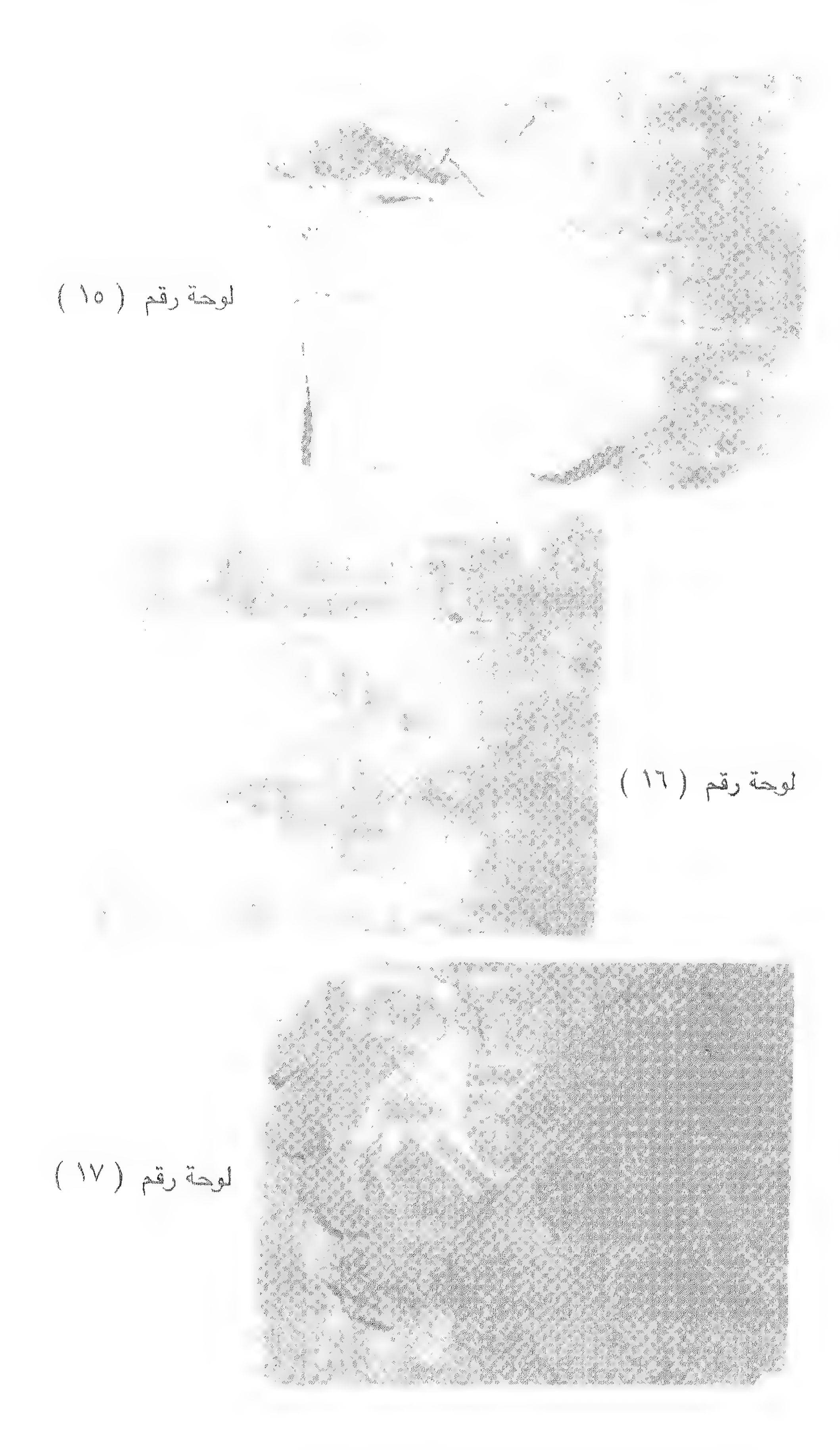




لوحة رقم (١٣)



لوحة رقم (١٤)



لوحة رقم (١٥)

لوحة رقم (١٦)

لوحة رقم (١٧)

يوجورثا - ثائر جزائرى ضد الهيمنة الرومانية

أ. د. محمد السيد محمد عبد الغنى (*)

إن أى دارس لتاريخ الجمهورية الرومانية يعرف شخصية يوجورثا ملك نوميديا (الجزائر حاليًا) فى الجزء الأخير من القرن الثانى ق. م. وسبب تميز هذه الشخصية وبروزها - على هامش أحداث التاريخ الرومانى فى تلك الفترة - أنها ارتبطت فى أذهاننا بظاهرة الفساد والرشوة التى انتشرت حينذاك على أعلى مستوى بين شاغلى المناصب العليا والدنيا من الرومان بعد توسع الدولة الرومانية فى أرجاء البحر المتوسط . لقد صُوِّر لنا يوجورثا فى كتب ومراجع التاريخ الرومانى على أنه شيطان رجيم انتزع عرشًا لم يكن من حقه بطرق غادرة وغير مشروعة وقتل أبناء عمومته تحقيقًا لذلك وأغرق الموظفين الرومان فى مستنقع الفساد لكى يغضوا الطرف عن أعماله المشينة هكذا تكون الصورة عندما يكتب الطرف المنتصر التاريخ (الرواية الرومانية) ولا يصلنا صوت الطرف الآخر المنهزم، فتنطبع فى أذهاننا صورة أحادية الجوانب ؛ وتصبح بفعل التكرار والإلحاح عليها أقرب إلى البديهيات . لكن إلى أى مدى كانت هذه الرواية الرومانية عن يوجورثا صحيحة ؟ هل صحيح أنه لم يقهر عدة جيوش رومانية و لم يحبط كثيرا من مخططات الرومان فى هذه المنطقة إلا بالغدر والرشوة دون سواهما ، هل صحيح أن ماريوس - الذى كان انتصاره على يوجورثا هو نقطة انطلاقة لزعامة الدولة الرومانية - قد هزم يوجورثا وأسره لأن الأول تمتع بالنزاهة والتجرد والكفاءة العسكرية العالية فقط ؟

هذه هى مجمل القضايا التى يناقشها هذا البحث . إن الهدف من هذا البحث - بعد قراءة متأنية للمصدر الرومانى الذى تناول هذه الواقعة بالتفصيل وهو المؤرخ الرومانى ساللوستيوس من القرن الأول ق. م. - هو إعادة فتح هذا

(*) أستاذ التاريخ اليونانى والرومانى - كلية الآداب بجامعة الإسكندرية والمعار حاليًا لجامعة الكويت .

الملف ومراجعة هذه المقولات الرومانية التى تتسم - فى تقديرى المتواضع - بقدر كبير من التحيز والمبالغة . إن البحث محاولة لإعادة الاعتبار إلى شخصية يوجورثا من خلال المصدر الرومانى ذاته(!) الذى استقى منه الباحثون فى التاريخ الرومانى معلوماتهم وصاغوها بصورة انتقائية مُهمَّشة ليورجورثا ومنحازة للطرف الرومانى المنتصر .

ولنتناول الآن نقاط هذا البحث بصورة أكثر عمقًا وتفصيلاً حتى نصل إلى مفهوم أكثر واقعية عن هذا الصراع بين الدولة الرومانية ويوجورثا ملك نوميديا .

ماذا عن شخصية يوجورثا وظروف نشأته ؟

من المعلوم أنه مع نهاية القرن الثالث ق. م. حوالى عام ٢٠٢ تمكنت روما من أن تكسب الحرب البونية الثانية بينها وبين قرطاجة وأن تحطم فى موقعة زاما أسطورة البطل والقائد القرطاجى الفذ هانيبعل الذى أذاق روما الأمرين وهزمها هزائم مدوية خلال خمسة عشر عامًا (٢١٨ - ٢٠٣ ق. م.) . كان من بين حلفاء روما فى هذا الموقف العصيب قائد نوميدى هو ماسينيسا جد يجورثا الذى كان فى صف سكيبيو الإفريقي (القائد الرومانى الكبير وبطل موقعة زاما) . وقد كافأه الرومان على وقفته تلك بمساعدته فى اعتلاء عرش نوميديا بعد هزيمة هانيبعل والإطاحة بالملك النوميدى الذى كان يؤازره وهو سيفاكس . وهكذا ظل ماسنيسا ملكًا على نوميديا من نهاية الحرب البونية الثانية عام ٢٠٢ ق. م. وحتى وفاته عام ١٤٩ ق. م. (أى قبل تدمير قرطاجة نهائيًا على يد الرومان وتحويلها إلى ولاية أفريقيا الرومانية عام ١٤٦ ق. م. بثلاث سنوات) . وطيلة حكم ما سينيسا فى نوميديا كان حليفًا وصديقًا للشعب الرومانى ، وكان يشن الهجمات على قرطاجة المنهزمة من روما والمكبلة بشروط معاهدة مهينة ، ويعتدى عليها بين حين وآخر - وبإيعاز من روما - حتى لا تقوى شوكتها فتعود لتشكل خطرًا على روما من جديد . وبعد وفاة ماسينيسا تولى العرش من بعده ابنه الوحيد المتبقى على قيد الحياة ميكبسا (إذ كان له ولدان آخران هما ماستنبال " أبو

يوجورثا " وجولوسا توفيا فى سن مبكرة) . وظل ميكبسا يحكم نوميديا فى الفترة من ١٤٩ إلى ١١٨ ق. م. حين توفى ، وكان يسير على نهج أبيه ماسينيسا في علاقته بالرومان إذ استمر (حليفًا وصديقًا) لهم ، وهى عبارة توحى بقدر كبير من التبعية للدولة الرومانية لأن التحالف والصداقة الحقيقية تكون فى أغلب الأحوال بين أنداد .

فى خلال فترة حكم ميكبسا فى نوميديا كان يوجورثا (ابن أخيه ماستنبال من إحدى المحظيات) قد شب عن الطوق وبلغ سن الشباب ، فرباه ونشأه فى القصر الملكى مع ولديه الأصغر سنا ادهربال وهيميسال ، وتبناه قبل وفاته وأوصى به شريكًا فى الحكم مع ولديه ليحكم المملكة من بعده ثلاثة هم ولداه وابن أخيه(١) .

ويتحدث المؤرخ ساللوستيوس عن هذا الأمير الشاب يوجورثا فيذكر أنه كان يتمتع ببنيان قوى ووسامة فى الخلقة " لكنه تمتع فوق كل ذلك بعقلية فذة ، ولم يستسلم لإفساد الترف أو الاسترخاء بل أنه - جريا على عادة قومه - كان يركب الخيل ويرمى الرمح ويتنافس مع أقرانه فى سباقات الجرى . ورغم أنه كان يتفوق عليهم جميعًا فقد كان محبوبًا من الجميع . كما كرس جل وقته للصيد والقنص وكان أول أو من أوائل من صرع ليثا أو غيره من الضوارى . لقد أنجز الكثير والكثير لكنه نادرًا ما كان يتحدث عن نفسه " . ويذكر المؤرخ أن الملك ميكبسا قد انزعج من بطولات ابن أخيه وخشى من طموح ابن أخيه نحو الانفراد بالعرش على حساب ولديه الصغيرين " كما لاحظ الحب والإخلاص الذى غرسه يوجورثا فى نفوس النوميديين ، لذا كان يخشى من اندلاع شغب أو حرب من جانبهم إذا ما أقدم على اغتياله بالحيلة والغدر "(٢) .

وحين بلغ الانزعاج من قوة يوجورثا مبلغه فى نفس الملك ، ورغب فى التخلص منه بطريقة ذكية كان ذلك التصرف فى مصلحة يوجورثا ، وأكسبه خبرة قتالية كبيرة ، كما كان مجالاً لإظهار قدراته العالية المذكورة أعلاه أمام

الرومان مما جعله يحظى بصداقتهم وتقديرهم ورفع أسهمه وزاد من شعبيته - المرتفعة أصلاً - فى نوميديا . ذلك أن عمه ميكبسا - فى محاولته للتخلص من يوجورثا - بعث به على رأس قوة نوميديا لمعاونة حلفائه الرومان فى قمع ثورة مدينة " نومانتيا " الأسبانية عام ١٣٤ ق. م. وكان يأمل فى أن يسقط يوجورثا ضحية سهلة لرغبته فى استعراض قوته أو لعدو شديد البطش " .

Sperans vel ostentando virtutem vel hostium saevitia facile eum occasurum

لكن الأمور جرت على عكس توقعات ميكبسا تمامًا ، ونال يوجورثا سمعة ممتازة من خلال بطولاته والتزامه بالواجب فأصبح صديقا حميمًا ومصدر رعب للنومانتيين . لقد حقق فى الحقيقة معادلة صعبة المنال إلى أبعد حد إذ كان باسلاً فى المعارك وحكيمًا فى إسداء النصح فى آن واحد ، رغم أن إحدى الصفتين وهى الحكمة تؤدى إلى التخوف والأخرى وهى الشجاعة تقود فى أغلب الأحيان إلى التهور "(٣) .

هكذا كانت شخصية يوجورثا الحقيقة - باعتراف أعدائه - تجمع بين الشجاعة غير المتهورة والحكمة غير الهيابة والكياسة التى يأسر بها قلوب من يتعامل معه من رومان أو غيرهم ، كما تمتع رغم كل ذلك بالتواضع الجم الذى اجتذب إليه قلوب مواطنيه من النوميديين مما جعل عمه ميكبسا يخشى من أن يغدر به مخافة تمرد وثورة شعبه كما أسلفنا .

أمام أمير يتمتع بكل هذه الصفات التى قلما تجتمع فى شخص واحد صار لزاما على عمه الملك ميكبسا أن يتبناه ويجعله ضمن ورثته على العرش - رغم كرهه لذلك - لاسيما بعد أن أوصى القائد الروماني الشهير سكيبيو أيميليانوس - قائد حملة " نومانتيا " الذى دمر المدينة المتمردة - الملك ميكبسا خيرًا بيوجورثا وأشاد به إشادة حارة وهنأ الملك ميكبسا على إنجازات هذا الشاب الرائع الذى تعتز به روما(٤) .

والآن كيف صورت روما يوجورثا بعد أن انقلبت عليه وتصادمت مصالح الطرفين ؟

حين وصل يوجورثا إلى عرش مملكة نوميديا بعد وفاة عمه الملك ميكبسا عام ١١٨ ق. م. - بالمشاركة مع ولدى عمه أدهربال وهيمبسال - ثم تخلصه تدريجيًا من شريكيه فى الحكم - لاعتبارات سنفصلها فيما بعد - شكل ذلك تعارضا مع مصالح روما فى نوميديا وزعمها الحفاظ على الشرعية فى تلك المملكة. وهنا بدأ تصوير يوجورثا يتخذ شكلا مغايرًا للصورة التى رسمها له الرومان أعلاه ، وانعكس ذلك فى سياسات وتصرفات الرومان تجاهه وفى كتاباتهم عنه بعد انتهاء الأمر برمته .

لقد صوروه على أنه ذلك الطامع فى الاستئثار بعرش المملكة وحده الذى سعى بكل السبل - لا سيما الغدر والخديعة - إلى التخلص من أبناء عمه شركائه فى الحكم وأنه بذلك كشف عن جحوده ونكرانه لجميل عمه الذى تبناه وأشركه فى الحكم(٥) . كما صوروا أن روما حاولت أن تحمى شرعية الحكم فى المملكة وترد يوجورثا عن مخططاته للاستئثار بحكم نوميديا - خصوصًا بعد أن اغتال ابن عمه الأصغر هيمبسال - إلا أنه استطاع بمراوغته ودبلوماسيته وسلاح الرشوة الفتاك - قبل هذا وذلك - التأثير فى نفوس فئة غير قليلة من كبار شاغلى المناصب فى روما لمساعدته على المضى فى تنفيذ مخططه فى أن يصبح السيد الأوحد لنوميديا كلها بالصمت عن أفعاله حينا ومؤازرة مواقفه وتبريرها فى السناتو حينا آخر .

لقد بالغ ساللوستيوس فى التركيز على سلاح الرشوة الذى أشهره يوجورثا فى وجه روما وصوره كما لو كان سلاحه الوحيد فى كسب معاركه الدبلوماسية والعسكرية ، ولكن ساللوستيوس لا يُنحى باللائمة فى هذا الموقف على يوجورثا بمفرده بل على ظروف المجتمع الرومانى فى أواخر القرن الثانى ق. م. - بعد تدمير قرطاجة ومصرع الأخوين جراكوس المدافعين عن حقوق العامة فى روما - الذى انتشرت فيه وجوه فساد عديدة من طمع وجشع وصلف ورشوة وظلم وسوء

استغلال للسلطات كنتيجة لحالة السلم التى سادت المجتمع الرومانى بعد إخضاع معظم أعداء روما فى حوض البحر المتوسط وما ترتب على ذلك من وفرة ورخاء لبعض فئات المجتمع الرومانى من النبلاء واحتدام الصراع الحزبى بين النبلاء والعامة(٦) .

يذكر ساللوستيوس أنه فى أثناء هذه الظروف ، وبينما كان يوجورثا يحارب بقواته النوميدية إلى جانب الرومان فى نومانتيا كان هناك من بين النبلاء الرومان من يهتمون بالثروة أكثر من الفضيلة واحترام الذات وبالشهرة الزائفة أكثر من الأمانة . إن هذه الفئة هى التى أشعلت فى نفس يوجورثا - حسب قول المؤرخ - نوازع الطموح والطمع فى عرش نوميديا وألقت فى روعه أن " كل شىء فى روما قابل للبيع " . ويذكر أن قائد الحملة سكيبيو أيميليانوس - بعد أن أثنى على شجاعة يوجورثا - نصحه بأن يحرص على كسب ود الشعب الرومانى كله بدلاً من كسب ود بعض الأشخاص و " ألا يعتاد على تقديم الرشوة لأنه من الخطر أن تشترى من فئة قليلة ما هو حق للغالبية "(٧) . هذه النصيحة الأخيرة التى يذكر ساللوستيوس أن سكبيو أسداها إلى يوجورثا فى شبابه ربما كانت مفبركة ومقحمة لتخدم سياق الموضوع وتعطى الانطباع بأن هذه النزعة كانت كامنة فى نفس يوجورثا منذ فترة طويلة ومنذ تعاملاته الأولى مع الرومان ، وأن القائد الرومانى ربما فطن إلى هذه النزعة فى يوجورثا أو استشعرها وحذره من مغبتها بالقول " إذا ما استمر يوجورثا على نفس الدرب كما بدأ فإن الشهرة والعرش سوف يأتيانه سعيًا ، أما إن تعجل فسوف يلقى بنفسه فى الهاوية بماله " . يريد المؤرخ أن يُثبتّ فى يقيننا أن هذه النبؤة لسكبيو قد صدقت وتحققت من جراء جشع يوجورثا وتهوره وعدم أخذه بنصيحة القائد الرومانى المخلص له ! قمة فى الدعاية الرومانية بغير شك تصور الرومان وهم يسدون الحكمة للآخرين فإن لم تُجدِ لقنوا هؤلاء المتهورين درسًا قاسيًا بالقوة والبأس .

وبعد هذه المقدمة الموحية عن بدايات نزعة الرشوة والإفساد عند يوجورثا يعدد المؤرخ المناسبات العديدة التى تجلت فيها هيمنة هذه النزعة عليه خصوصًا

بعد وصوله إلى العرش ثم تخلصه من شركائه فى الحكم وهما ابنا عمه ميكبسا . فحين تخلص يوجورثا من ابن عمه الأصغر هيمبسال باغتياله من خلال مؤامرة سيطر الرعب على الأخ الأكبر أدهربال الذى هزم فى معركة أمام يوجورثا وفر إلى ولاية أفريقيا ومنها إلى روما واستعطف السناتو التدخل لنجدته . وفى هذا الظرف أرسل يوجورثا مبعوثيه إلى روما لتفادى غضبها وقام هؤلاء برشوة كل من استطاعوا رشوته " فأرسل مبعوثيه إلى روما بمقدار كبير من الذهب والفضة وأصدر إليهم توجيهاته بأن يُحمِّلوا أصدقاءه القدامى أولاً بالهدايا ثم يكتسبون أصدقاء جدد - أى باختصار ألا يتباطؤوا فى كسب ما استطاعوا بالسخاء والهبات"(٨) . ويذكر أن هؤلاء المبعوثين دافعوا أمام السناتو عن وجهة نظر يوجورثا وردوا الاتهامات الموجهة إليه لكن دفاعهم - حسب تدخل المؤرخ - " كان يعتمد ويستند إلى الرشوة أكثر مما يستند إلى عدالة قضيتهم " Iargitione magis quam causa freti (XV. 1) وكانت نتيجة مداولات السناتو بعد مرافعات أدهربال من ناحية ومبعوثى يوجورثا من ناحية أخرى أن اتخذ قرار من السناتو بتقسيم مملكة ميكبسا (نوميديا) بين يوجورثا وأدهربال . هذا القرار فى تقدير ساللوستيوس هو انتصار لرأى الأغلبية المؤيدة ليوجورثا فى السناتو والذين وصفهم بأنهم يعلون من قيمة المال والحظوة على حساب الحق(٩) . ثم يذكر كيف استقبل يوجورثا أعضاء بعثة السناتو المكلفة بتنفيذ تقسيم المملكة استقبالاً حافلاً واستقطب معظمهم بالرشاوى والهدايا والوعود ، وكانت النتيجة مجاملته وإعطاءه الجزء الغربى من المملكة الأكثر خصوبة وسكانًا(١٠) .

وفى الفترة التالية لتقسيم المملكة بين الرجلين خطط يوجورثا للاستيلاء على المملكة بأكملها لكى يصبح هو السيد الأوحد ، ونفذ ذلك عن طريق التحرشات والإغارات الاستفزازية على أملاك أدهربال فى شرق المملكة لكى يخلق لنفسه ذريعة لشن الحرب عليه ، ثم انتقل إلى المواجهة والهجمات الصريحة وحصار مدينة " كيرتا " التى اعتصم بها خصمه وحاصرها وأسقطها وقتل أدهربال رغم احتجاجات وإنذارات روما على مدى عامى ١١٣ / ١١٢ ق. م.(١١) . هذا

الموقف أثار ثائرة الغضب الشعبي الروماني لاسيما بعد مقتل عدد كبير من " الإيطاليين " من تجار مدينة " كيرتا " بعد سقطوها ، ويقول المؤرخ ساللوستيوس أن أعوان يوجورثا وأذنابه في السناتو حاولوا امتصاص هذا الغضب الشعبي من خلال قوة نفوذ وأموال الملك لكن دون جدوى . لقد صدر قرار من السناتو بمحاربة يوجورثا عسكريا وغزو مملكة نوميديا وأسندت هذه المهمة إلى القنصل لوكيوس كالبورسوس بستيا الذي أختار أن يكون مساعده في هذه الحملة أحد النبلاء الأقوياء وهو القنصل الأسبق أيميليوس سكاوروس(١٢) . ورغم ثناء المؤرخ على الصفات الممتازة التي يتمتع بها القائدان من طاقة وحيوية وروح عالية وقدرة على التحمل وذهن حاد وبصيرة ورؤية بعيدة النظر وخبرة عسكرية عالية ورباطة جأش فإنه يعيب على كليهما جشعهما وحبهما الفائق للمال والثروات(١٣) . ويخلص المؤرخ من ذلك الموقف إلى أن يوجورثا لعب على وتر الفساد لدى الرجلين وتوصل معهما إلى تمثيلية محكمة يتظاهر هو فيها بالاستسلام للجيش الروماني ويقدم رموزًا شكلية على هذا الاستسلام المزعوم مثل بعض الفيلة وقطعان من الماشية والخيل تسلم للكويستور الروماني(١٤) ، في حين التقى الملك (يوجورثا) سرا بالقائدين ورتب معهما تفاصيل الصفقة بعد أن قدم رشوة ضخمة من قبل لمهندس هذه الصفقة سكاوروس مساعد بستيا(١٥) .

وحين تسربت هذه الأنباء إلى روما إثر عودة القنصل بستيا إليها للإشراف على الانتخابات اشتعل النقاش حول فساد القنصل في كل مكان في روما لا سيما بين العامة الذين كانوا حانقين جدًا على فساد النبلاء الذين لاذوا بالصمت والتردد . وفي هذا الجو أشعل أحد ترابنة العامة هذا الحنق والغيظ الشعبي المكبوت بخطبه النارية عن مدى الفساد والجشع والأنانية وخيانة المسئولية والأمانة وبيع الوطن للأعداء وهي الجرائم التي تفشت بين صفوف النبلاء . وعلى أثر ذلك ، وبعد خطب التريبون جايوس ميميوس الحماسية ومطالبته بمعاقبة هؤلاء الخونة وإحضار يوجورثا إلى روما - بعد منحه الأمان - ليكون شاهدًا حيا على خيانة وفساد هؤلاء القادة وغيرهم من النبلاء(١٦) . وحين اطمأن يوجورثا على سلامته

من خلال تعهدات البرايتور لوكيوس كاسيوس الذى أنيطت بـه مهمـة اصطحـاب يوجورثا إلى روما ، توجه إلى هناك لكى يدلى بشهادته حول مخالفـات ورشـاوى تلقاها كبار القادة والنبلاء وذلك أمام الجمعية القبلية فى رومـا . وفـى رومـا لقـى تشجيعًا من أعوانه الرومان واستمال إليه المزيد منهـم وأبرزهـم أحـد ترابنـة العامـة ويدعى جايوس بايبيوس بتقديم رشـوة ضخمـة إليـه(١٧) . وفـى المقـابل قـام هـذا الأخير بدور هام فى إنقاذ يوجورثا من براثن العامة المهتـاجين فـى الجمعيـة القبليـة ومن ضغوط التريبون الآخر الثائر جايوس ميميوس الذى أعد قائمـة اتهـام مفصلـة لأعوان يوجورثا فى روما وألح فى طلب شهادته . عندئـذ تدخـل التريبون الآخـر جايوس بايبيوس وطلب من يوجورثا ألا ينبس بكلمة رغم هيـاج العامـة ، وانتهـى الأمر بـأن انفضـت الجمعيـة القبليـة وسـط غضـب شـديد ومكتـوم مـن جمـوع العامة(١٨) . وبعد أن اطمأن على مصـيره بعـد هـذا الموقـف شـرع يوجورثـا فـى استغلال نفوذه وأمواله وهو فى روما للتخلص من أحد اللاجئين من العائلة الملكيـة النوميدية فى روما وهو ماسيفا بن جولوسا بن ماسينيسا أحد ورثة عـرش نوميديـا من بعده ، والذى فر من نوميديا بعد سـقوط كيرتـا ومقتـل أدهربـال . وقـد نفـذ يوجورثا هذه الخطة بالفعل حين كلف بها ساعده الأيمـن وموضـع ثقتـه بوميلكـار الذى كان معه فى روما والذى استأجر بعض المحترفين الرومان الذيـن نفـذوا هـذه الجريمـة ، بـل واسـتطاع أن يُهـرِّب بوميلكـار سـرا إلى نوميديـا رغـم الاسـتياء والاستهجان الشديد للجريمة من الرومان . ورغم ذلك كله لم يملك الرومان إيـذاء يوجورثا لما كان يتمتع به من حماية وحصانة وإنما طالبه السناتو بمغـادرة إيطاليـا ، وبعد أن خرج يوجورثا من بوابات روما آمنا بعد كل ما فعله قال عبارته الشهيرة: " مدينة (روما) للبيع ومقدر لها الدمار السريع لو وجد المشترى "(١٩) .

" Urbem venalem et mature perituram, si emptorem invenerit "

عند هذا الحد قررت روما العودة إلى ميدان القتال ضد يوجورثا مرة أخـرى وعينت هذه المرة القنصـل سـبوريوس ألبينـوس لخوض المعركـة عـام ١١٠ ق. م. وبعد أن وصل هذا القنصل إلى أفريقيا وأعد العدة للمعركة ضـد يوجورثـا راوغـه

يوجورثا وماطله وتظاهر بالاستسلام حينا وشن الهجمات على الرومان حينا آخر لكسب الوقت ، وهو ما نجح فيه يوجورثا وعاد ألبينوس إلى روما بسبب اقتراب موعد الانتخابات فى روما تاركًا أخاه أولوس ألبينوس للاضطلاع بالقيادة . ومن المعروف أن يوجورثا أحرز انتصارًا ساحقًا على هذا القائد بالإنابة وجيشه وأجبرهم على المرور من تحت النير رمزا للإذلال(٢٠) (وهو انتصار سنتناوله فيما بعد) . ويذكر سالوستيوس أن من بين عوامل انتصار يوجورثا فى هذه المعركة هو أن عملاءه قد جعلوا شغلهم الشاغل ليل نهار إغواء الجيش الرومانى من خلال رشوة قادة المئات وقادة سرايا الفرسان لكى يفروا من مواقعهم أو ليتركوها عندما يتلقون إشارة ما(٢١) .

هذه هى حالات الرشوة والإفساد بالمال للقادة والنبلاء وأصحاب المناصب الرومان من قبل يوجورثا كما رصدها المؤرخ سالوستيوس ، أما فيما تلى ذلك من أحداث فلم يتسن ليوجورثا إغواء القادة الرومان ذوى السلوك المستقيم والسيرة المنزهة عن الفساد مثل متيللوس وماريوس . لكن إلى أى مدى كانت هذه الصورة القائمة عن يوجورثا - بصفته ذلك الشخص النهم إلى السلطة الماكر المراوغ المتعطش للدماء المفسد للقادة الرومان - صحيحة ؟ وهل كانت مهمة القادة الرومان الأقوياء ممن يتمتعون بالنزاهة الأخلاقية مثل ميتيللوس وماريوس سهلة هينة إذا كان أقوى أسلحته يوجورثا ضد الرومان وهو الرشوة - كما يزعم سالوستيوس مرارًا وتكرارًا(٢٢) قد سقط ؟ هل حارب هؤلاء ممن يوصفون بالنزاهة الأخلاقية معاركهم ضد يوجورثا بأخلاقيات الفارس النبيل الذى يواجه خصمه فى ميدان المعركة العسكرية فقط كما زعم الرومان لأنفسهم فى معاركهم المبكرة ضد المدن الأترورية وضد الملك بيروس ملك ايبيروس الذى حارب مع تارنتوم ضد روما(٢٣) ؟

هذه الأسئلة سوف نحاول الإجابة الموضوعية عنها من خلال المصدر الرومانى نفسه وهو المؤرخ سالوستيوس الذى تبنى وجهة النظر الرومانية ولكنه قدم - رغم ذلك - تفاصيل جيدة يمكن أن نستشف منها حقيقة الموقف .

والآن نتساءل هل كان يوجورثا فعلاً ذلك الشخص النهم للسلطة والعرش فى حد ذاتهما ، وهل قام فى سبيل ذلك بالغدر وسفك دم ذوى قرباه وشركائه فى العرش ؟ أم أن هناك دوافع أخرى مختلفة لما فعل ؟

لقد رأينا فى بداية هذا البحث كيف صور الرومان يوجورثا فى شبابه المبكر بأنه ذلك الشاب الجسور القوى الرياضى المتواضع الذى غرس محبته غرسًا فى قلوب مواطنيه ، وكيف نال بعد ذلك حب واحترام الرومان له بعد أن أبلى معهم بلاء حسنا فى نومانتيا ، وكيف أوصوا به خيرًا ليصبح أحد الشركاء فى عرش نوميديا بعد وفاة عمه ميكبسا عام ١١٨ق. م. كل ذلك يؤكد أنه كانت تتوافر به كافة المؤهلات ليصبح ملكًا قويًا مهابا لم يسع نحو العرش بل إن جدارته هى التى أوجدت وخلقت له الفرصة ليصبح شريكا فى العرش ، بل والشريك الأقوى والأكثر جدارة .

لكن تبقى النقطة الأكثر جدارة بالمناقشة هنا وهى : هل عمد إلى الاستئثار بالعرش والتخلص من شريكيه بالغدر وسفك الدماء من أجل الانفراد بعرش المملكة فقط ؟

الإجابة ببساطة من واقع الأحداث المذكورة عند ساللوستيوس تخالف هذا التصور - رغم إلحاح هذا المؤرخ على ترسيخه . إن دوافع التخلص من الملكين الشريكين له كانت تكمن فى نوعين من الدوافع : ذاتية وموضوعية . تتمثل الدوافع الذاتية فى احتقار هيمبسال (الابن الأصغر من أبناء عمه ميكبسا) ليوجورثا وحقده عليه وعدم رغبته فى أن يشاركهما يوجورثا فى حكم المملكة وأعرب عن ذلك صراحة فى بداية تولى الثلاثة عرش المملكة(٢٤) . هذه المعاملة من هيمبسال تجاه يوجورثا أثارت استياء وقلق يوجورثا نحوه وصعدت من شكوكه بأن هيمبسال قد يدبر مؤامرة للخلاص منه ، لذلك أخذ يوجورثا زمام المبادرة ورسم مع أعوانه خطة لاغتيال هيمبسال فى داره(٢٥) . ومن الطبيعى فى هذا الصدد كذلك ألا يأمن الأخ الأكبر أدهربال الذى لابد - إن ترك وشأنه - أن يثأر لأخيه ذات يوم .

أما الدوافع الموضوعية ليوجورثا فى التخلص من شريكيه فى الحكم وابنى عمه فيأتى على رأسها اختلاف شخصيته عنهما وبالتالى اختلاف نظرته عنهما فى أمور السياسة والحكم ولا سيما موقفه من روما ونظرته إليها . إن علاقة روما بمملكة نوميديا - منذ حكمها ماسينيسا جد يوجورثا بعد موقعة زاما سنة ٢٠٢ وحتى حكم الشركاء الثلاثة عام ١١٨ق. م. - كانت فى ظاهرها علاقة صداقة وتحالف ، لكنها كانت فى حقيقتها علاقة تبعية من نوميديا لروما . ولعل كلمات أدهربال وهو يناشد شيوخ السناتو ويستجديهم الوقوف إلى جواره ضد يوجورثا الذى هزمه وأجبره على الفرار خير شاهد على ذلك . ونورد فيما يلى مقتطفات من خطبة أدهربال هذه تؤكد هذا النهج من قبل ملوك نوميديا السابقين واقتناع أدهربال بصحة وسلامة هذا النهج ، إنه يقول مثلا :

" إن ماسينيسا قد علمنا - أيها الآباء الموقرون - ألا نرتبط بغير الشعب الرومانى وألا نقيم أى تحالفات أو نبرم أى معاهدات جديدة . لقد قال بأن فى صداقتكم الحماية الكافية لنا وأنه إذا تبدلت أقدار امبراطوريتكم فسيكون فى ذلك سقوطنا "(٢٦) .

" أيها الآباء المبجلون ، لقد نصحنى أبى ميكبسا وهو يحتضر أن أضع فى اعتبارى أننى مجرد حاكم على مملكة نوميديا ، أما بقية الأمور من تشريع وسلطة فى المملكة فإنها من شأنكم وبأيديكم . كما نصحنى أن أبذل قصارى جهدى فى تقديم أقصى عون ممكن للشعب الرومانى فى السلم والحرب وأن اعتبركم أهلا لى وقربى وجيران . وقد صرح لى بأننى إن فعلت ذلك فإننى سأجد فى صداقتكم الجيش والثروة والمتاريس التى تصون مملكتى "(٢٧) .

ويختتم أدهربال توسلاته الحارة لرجال السناتو بقوله :

" لا تسمحوا بسقوط مملكة نوميديا التابعة لكم ولا تسمحوا بدمارها من خلال الشر والغدر وسفك دماء أسرتى "(٢٨) .

أما يوجورثا فكانت له وجهة نظر مغايرة تمامًا فى الرومان أفصح عنها حينما وصلت العلاقة بينه وبين روما إلى طريق مسدود وإلى الحرب الفعلية ضد روما فى ميدان القتال ، لا سيما بعد أن أرسلت روما إليه بعضًا من أشجع قادتها مثل ميتيللوس ثم ماريوس . لقد كان يوجورثا يرى فى الرومان طامعين فى بلاده وأن على شعب مملكته أن يدافعوا عن أنفسهم وعن مملكتهم أمام جشع الرومان(٢٩) . كما كان يرى فيهم أمة ظالمة وأطماعها لا تقف عند حد وتناصب الجميع العداء ولديها شهوة السيطرة والتسلط وتقطر كراهية لكافة الممالك لا سيما القوية منها، وضرب أمثلة على ذلك بعدائهم للقرطاجيين والملك بيرسيوس (ملك مقدونيا) من قبل(٣٠) .

لكن إذا كان الأمر كذلك فلماذا حارب إلى جانب الرومان فى قمعهم لتمرد مدينة نومانتيا فى أسبانيا سنة ١٣٤ ق. م. ولماذا اكتسب صداقة وود العديد من رجالهم البارزين بالهدايا وغيرها ؟ لقد فعل ذلك فى شبابه وتنفيذا لأوامر عمه الملك ميكبسا الذى كان حليفًا للرومان يقف معهم حربًا وسلمًا وأراد - من طرف خفى كما رأينا من قبل - أن يتخلص من هذا الشاب القوى الذى تخوف منه على مستقبل ولديه . ولكن من جانب آخر سواء كانت كراهية يوجورثا للرومان قد تولدت قبل مشاركته لهم فى هذه الحملة أو بعدها - وهو الأرجح - فإن مشاركته لهم فى هذه الحملة عادت عليه بفوائد شتى . إذ ربما أدرك خلال هذه الحملة عن كثب مدى ظلم وقسوة الرومان حيث دمروا تلك المدينة التى ثارت عليهم - كما دمروا من قبل مدينتى كورنثه وقرطاجة عام ١٤٦ ق. م. - وكان نفس القائد الذى دمر قرطاجة وهو سكبيو إيميليانوس هو من دمر نومانتيا . كما تعلم من هذه الحملة أساليب القتال الرومانية ووعاها واستفاد منها فى المستقبل حين اضطر لقتالهم . وربما كان من أكبر مكاسبه فى هذه الحملة أنه استطاع أن يعد جيدًا لهدف مرحلى وهو تدعيم فرصته للوصول إلى عرش نوميديا من خلال كسب ثقة الرومان أصحاب الكلمة العليا فى تزكية هذا الأمير كما رأينا . كما أدرك عن قرب نقطة ضعف معظم الساسة الرومان وهو جشعهم

وحبهم للثروات وهو سلاح سيحاول استغلاله ما أمكن فى حربه ضدهـم وكثيرًا ما أثبت فعاليته كما رأينا فعلاً . باختصار لقد درس يوجورثـا فـى نومانتيا عـدوه وعرف عن قرب أنجع الطرق للتعامل معه .

من هنا كان من الطبيعى أن يتخلص يوجورثا - بعد تحقيـق هدفـه المرحلى بالوصول إلى العرش بالمشاركة مع ولدى عمه - من شريكيه فى العـرش لاختلافـه معها جذريًا فى نظرته إلى روما التى يتطلع إلى الخلاص من وصايتها على مملكتـه وتدخلها الدائم فى شئونها . إن تطلع يوجورثـا لتحقيـق سيادة واستقلال مملكتـه كان يقتضى أولاً التخلص من أذناب روما وأتباعها فـى نوميديـا حتـى لا يعرقلـوا هدفه فى السيادة على نوميديا . لقـد كـان هـدف يوجورثـا إذن أن يحكـم مملكـة نوميديا المستقلة القوية التـى لا تديـن بالتبعيـة ولا تتلقـى الأوامـر والتعليمـات مـن السناتو . لكن يوجورثا لم يكن ذلك الرجل المندفع المتهور بل كان ذلك السياسـى الحصيف الداهية الواقعى الذى يدرك أن لا قبل له بالصدام المباشر والتمرد الصريـح على روما منذ البداية ، إن ذلك كان بمثابة نـوع مـن الانتحـار السياسـى . لذلـك وظف يوجورثا كل أسلحته ورتبها لمواجهة الرومان على مراحل ، وتمثلت أسلحته فى المال والدبلوماسية الماهرة التى تعرف كيفية احتواء الخصم ، وبعد هـذا وذاك- وفى نهاية الأمر حين وصلت الأمور بينـه وبـين الرومـان إلى طريـق مسـدود - لم يكن هناك مناص من اللجوء إلى القوة العسـكرية واستخدامها بدرجـة عاليـة مـن الذكاء الذى أربك وأزعج خصومه كثيرًا.

أما عن أسلحة يوجورثا ضد الرومان :

فلقد كان استخدامه لسلاح المـال والهدايا فـى استقطاب عـدد كبـير مـن الساسة والقادة الرومان إلى صفه - كما رأينا من قبل - أمرًا مشروعًا فـى حـرب بين طرفين غير متكافئين يتفوق أحدهما (الرومـان) علـى الآخر عـددًا وعتـادًا . فحين أدرك يوجورثا مدى ما وصل إليه المجتمع الرومانى مـن انغمـاس فـى الفسـاد وحب جامح للثروات كان لابد له أن يتسلل إلى مواقعهم الحساسة بهـذا السـلاح الذى أثبت فعالية غير عادية . إن أى جهاز استخبارات فى عالمنا الحديث والمعاصر

يفاخر كثيرًا إذا نجح فى تجنيد عملاء له فى دولة الخصم خاصة إذا كانوا يشغلون مواقع حساسة ، فلماذا ينكر الرومان على يوجورثا ممارسة هذا الأسلوب ؟ الإجابة الطبيعية : لأن ذلك كان ضد مصالحهم كما أن يوجورثا قد مارس هذه السياسة بدهاء شديد و لم يدخلها فى منعطف حاد بمعنى أنه لم يقم بهذا الأمر بصورة سرية – دائمًا –حتى لا توجه لـ " عملائه " من الرومان تهمة " الخيانة " الصريحة ، بل جعل هذا الأمر يبدو فى صورة " هدايا " يقدمها لـ " أصدقاء " .

أما سلاحه الثانى الذى حاول توظيفه بمهارة ضد الرومان فهو سلاح الدبلوماسية الذى حاول من خلاله إقناع الرومان بأنه يكن لهم كل احترام ويرتبط معهم بصداقة وطيدة فى نفس الوقت الذى ينفذ فيه مخططاته كما دبرها . وسنورد هنا بعض الأمثلة الواردة عند ساللوستيوس للتدليل على دبلوماسية يوجورثا مع الرومان إلى أن بدأت نواياه فى الاستقلال بنوميديا تتكشف للرومان ، هنا برح الخفاء وزادت حدة الخصومة وأصبح ميدان المعارك العسكرية لا غير هو الفيصل بين الطرفين . فبعد أن اغتال شريكه الأصغر فى الحكم ابن عمه هيمبسال وأرغم أخاه أدهربال على الفرار إلى روما واللجوء للسناتو لإعادته لعرشه بعد توسل واستعطاف شديدين كان يوجورثا قد أرسل مبعوثيه كذلك إلى السناتو لتبرير التصرفات التى أقدم عليها ومحاولة إقناع الرومان بسلامة موقفه . وفى هذه المناسبة حاول هؤلاء المبعوثون – الذين يتحدثون بلسان يوجورثا – تفنيد مزاعم أدهربال وتصوير الموقف بصورة مغايرة : ففيما يتصل باغتيال هيمبسال ذكروا أن النوميديين قتلوه لقسوته ووحشيته ، وعن فرار أدهربال ذكروا أنه شن حربًا دون مبرر ضد يوجورثا ولما هزم و لم يتمكن من إلحاق الأذى بيوجورثا فر واشتكى ، أما عن مخاوف الرومان من انقلاب يوجورثا عليهم وعدم تنفيذه لتعليماتهم فقد أكد المبعوثون من قبله أن يوجورثا صديق الرومان وحليفهم الذى عرفوه فى نومانتيا لم يتغير(٣١) . وكان من نتيجة هذا الدفاع الدبلوماسى الماهر أنه حين طرح الأمر للمداولة بين أعضاء السناتو بعد سماع دفاع الطرفين أن مجموعة كبيرة من أعضاء السناتو – الذين يذكر ساللوستيوس أنهم ممن طالهم إفساد يوجورثا – استهزأوا بدفاع أدهربال وامتدحوا فضائل يوجورثا وسخروا كل نفوذهم

وفصاحتهم وكل شيء ممكن للدفاع عن وجهة نظر يوجورثا(٣٢) . وترتب على ذلك صدور قرار من السناتو بتقسيم المملكة بين الطرفين المتحاربين يوجورثا وأدهربال كما أسلفنا .

وفى مناسبة تالية بعد التقسيم وبعد تحرشات واستفزازات وهجمات من يوجورثا حسب رواية ساللوستيوس - لأملاك أدهربال والتحام الطرفين فى قتال انتصر فيه يوجورثا واضطر أدهربال إلى أن يلوذ بمدينة كيرتا (قسنطينة) التى كان بها عدد كبير من التجار الإيطاليين . هنا حاصر يوجورثا المدينة حصارًا شديدًا قبل أن يسقطها ، وفى أثناء الحصار وصلت بعثة السناتو مسرعة لكى تعوقه عن إسقاط المدينة وطلبوا منه باسم السناتو والشعب الرومانى أن يلقى الطرفان المتحاربان السلاح ويتوصلا لتسوية قانونية لخلافاتهما . ولما كان هذا المطلب يتعارض مع رغبات ومصالح يوجورثا فقد كان رده على مطالب المبعوثين الرومان فيه رفض لهذه المطالب ولكن بدبلوماسية بالغة حيث طمأن الوفد الرومانى بأنه يحترم إرادة السناتو ورجاله وأنه يحرص على ذلك منذ شبابه المبكر وتربطه صداقة وطيدة بزعماء الرومان ، ولكنه - هكذا يقول - كلما ازدادت فضائله كلما عافت نفسه أن تطيق الجور والبغى . وذلك أن أدهربال تآمر لاغتياله فى خسة وأنه اكتشف وقاوم المحاولة الإجرامية ، وأن تصرف الشعب الرومانى لن يكون عادلاً ولا صائبًا إذا ما أبى عليه حقًا من حقوقه حسب القانون الدولى . وقال أنه سيرسل مبعوثين إلى روما على وجه السرعة ليشرح الأمر برمته . وعلى هذا افترق الطرفان دون أن تتاح الفرصة أمام الوفد الرومانى للحديث إلى أدهربال(٣٣) ، واستمر يوجورثا فى تنفيذ مخططه رغم تلقيه تهديدات عنيفة - لاحقًا - من مبعوثين رومان آخرين وفعل كل ما فى وسعه حتى أسقط المدينة وقتل أدهربال بعد تعذيبه(٣٤) .

وبعد سقوط كيرتا بهذه الطريقة اشتعل غضب عامة الرومان بتحريض من التريبون جايوس ميميوس وأرسلت حملة القنصل بستيا التى أخفقت بسبب الرشوة

، وفى النهاية طالب العامة باستدعاء يوجورثا للشهادة حول فساد نبلاء الرومان كما أسلفنا . ما يعنينا فى هذا المقام هو دبلوماسية يوجورثا عندما لم يشأ أن يستفز مشاعر الرومان وذهب إلى روما برفقة المبعوث المرسل لاصطحابه من قبل السناتو الرومانى ، والأهم من ذلك أنه – حرصا على مشاعر الرومان المستنفرة أصلاً – لم يأت إلى روما فى ثياب الملوك وفخامتهم بل ارتدى ملابس تثير الشفقة والتعاطف(٣٥) .

أما السلاح أو الأسلحة الأخرى التى استخدمها فى حربه ضد الرومان فقد كان قدراته العسكرية الفذة من شجاعة فائقة وذكاء خططى وتنظيمى شديد لقواته وقدرة بارعة على المناورة وإذكاء الحماس بين قواته والسرعة والسرية فى تحركاته التى ساعده عليها معرفته الوثيقة بجغرافية مملكته ودروبها التى أحسن استغلالها . إن يوجورثا المقاتل فى ساحات المعارك العسكرية ضد الرومان أثبت أنه لم يكن لقمة سائغة أمام القادة الرومان – حتى من تمتع منهم بسمعة عسكرية متميزة مثل متيلليوس وماريوس – بل كان ندا عنيدًا لهم وكال لهم ضربات موجعة وفاجأهم بمواقف وتكتيكات لم تكن فى حسبانهم .

ولنحاول أن نرصد بعضًا من أبرز المواقف العسكرية والقتالية ليوجورثا ضد الرومان والتى تجلت فيها شجاعته الفائقة وحسن تصرفه ومناوراته الذكية البارعة وبعضا من الضربات والهزائم الموجعة التى ألحقها بالرومان ، إن المواجهة العسكرية الحقيقية بين روما ويوجورثا بدأت عقب عودة الأخير من روما فى زيارته المشهورة التى لم تحقق أهداف الشعب الرومانى بل على العكس استغلها يوجورثا فى تصفية أحد منافسيه على العرش . وبعد عودة يوجورثا إلى بلاده أرسلت روما جيشًا لمحاربته بقيادة القنصل سبوريوس البينوس سنة ١١٠ ق. م. الذى أحسن الاستعداد للحرب ونقل القوات والمؤن والعتاد إلى إفريقيا محاولاً أن يضع نهاية للحرب مع يوجورثا قبل حلول الانتخابات فى روما بأية وسيلة . وفوجىء هذا القنصل المتحمس بخصم مراوغ ذكى أربك خططه إذ عمد يوجورثا إلى التلكؤ

والمناورات لاستهلاك الوقت وتثبيط همة القنصل إذ كان يتظاهر بالخوف والفرار ويقدم وعودا بالاستسلام حينا ويهاجم القنصل وقواته فى ضربات خاطفة من حين لآخر . وبهذه المماطلة المحسوبة أربك القنصل سبوريوس ألبينوس وجعله ألعوبة وهزوا حتى اقترب موعد الانتخابات فى روما فأبحر القنصل إلى هناك للإشراف عليها وترك أخاه أولوس ألبينوس على قيادة الجيش فى نوميديا(٣٦) .
وقد حاول هذا الأخ أن ينجز ما أخفق فيه أخوه القنصل وهو إنهاء وحسم الحرب لصالح الرومان فقام باستدعاء الجند من معسكراتهم الشتوية فى يناير وقصد بقواته إلى مدينة " سوثول " فى قلب صحراء نوميديا حيث توجد الخزانة الملكية .
ورغم الحصانة الطبيعية للبلدة وسوء الأحوال الجوية أصر أولوس على مهاجمة البلدة وأعد العدة لشن الهجوم . وهنا تعامل يوجورثا مع الموقف بدهاء واقتدار إذ أدرك غرور وقلة كفاءة هذا القائد الرومانى ومع ذلك مد له حبل الغرور طويلاً حين أرسل الملك إليه مبعوثين يطلبون منه الصفح والعفو فى نفس الوقت الذى ابتعد فيه بجيشه إلى الأحراش والطرق الجانبية كما لو كان يريد تجنب المواجهة .
هذا الموقف أغرى أولوس ألبينوس بالابتعاد عن سوثول وتعقب يوجورثا وجنده وأمعن يوجورثا فى التظاهر بالتقهقر إلى مناطق قصية وأوعز إلى ألبينوس أنه إنما يفعل ذلك حتى يمكن أن يتوصل معه إلى صفقة أو اتفاق لا يثير الانتباه . وبعد كل هذه الترتيبات والمناورات قام (بمداهمة معسكر أولوس ألبينوس فى جنح الليل بحشد كبير من النوميديين فسادت حالة من الذعر والارتباك بين الجنود الرومان بسبب ضخامة القوة النوميدية وظلام الليل الحالك مما أدى إلى فرار الجند الرومان تاركين أسلحتهم ولاذوا بتل مجاور ، ولولا انهماك النوميديين فى جمع الغنائم ونهب المعسكر لأحرزوا نصرًا ساحقًا) . ورغم ذلك فإن يوجورثا اجتمع فى اليوم التالى بالقائد الرومانى وأخبره أنه (هو وجيشه تحت رحمة النوميديين وأن أمامهم أن يموتوا جوعًا أو قتلاً ، ولكنه - مراعاة لظروف واعتبارات إنسانية - يمكن أن يعفو عنهم إذا مروا من تحت النير (رمز الإذلال) وأبرموا معاهدة مع يوجورثا وأن

يتركوا نوميديا فى غضون عشرة أيـام . وقـد نفـذ الرومـان هـذه الشـروط المهينـة ليفلتوا من القتل)(٣٧) .

بعد هذه الهزيمة المهينة التى لاقت ردود أفعال عنيفة فـى رومـا وبعـد رفـض السناتو التصديق على المعاهدة التى أبرمها القائد المهزوم مع يوجورثا أرسلت روما لمحاربة يوجورثا واحد من خير قادتها سنة ١٠٩ هو القنصل متيللـوس . لقـد كـان هذا القنصل يتمتـع بسـمعة لا تشـوبها شـائبة وأعـد جيشًـا قويًـا ومجهـزًا وأحسـن الاستعداد تمامًا للحرب بكل ما يلزم لها ، وحظى بمساندة قوية مـن السـناتو الـذى حشـد لـه كذلـك إمـدادات مـن الحلفـاء والمـدن اللاتينيـة والملـوك مـن أصدقـاء رومـا(٣٨). لقـد تهيـأت كـل الظـروف العسـكرية أمـام الرومـان لخـوض منازلـة عسكرية صرفة ضد يوجورثا وليس فيها مجال للخديعـة أو الرشـوة أو أيـة أسـلحة أخرى مما كان يستخدمه يوجورثا حسب إدعاء الرومان . ومع ذلـك فقـد كـانت هذه فرصة سانحة ليوجورثا لإثبات جدارته العسكرية كقائد ومقاتل ومنـاور ممتـاز وها هى الأمثلة التى تبرهن على ذلك .

وبعد أن اجتاح ميتيللوس ريف نوميديا بقواته و لم يجـد فيهـا مـا يـدل علـى حالة حـرب إذ تظـاهر يوجورثـا بـالهدوء ويقـول عنـه ساللوسـتيوس " لقـد كـان يوجورثا فى غاية الدهاء على دراية كبيرة بالمنطقة وخبيرًا بالأمور العسكرية ، حتى أننا لا ندرى إن كانت خطورته أكثر فى غيابه أم فى حضوره ، فى السـلم أم فـى الحرب"(٣٩) . كان يوجورثا يتابع تحركـات ميتيللـوس وجيوشـه ويترصدهـا عـن طريق قوات الاستطلاع التابعـة لـه وجمـع قواتـه واسـتطاع - مـن خـلال خبرتـه بجغرافية بلاده - أن يسبق جيش ميتيللوس ويرابط بقواتـه علـى المرتفعـات المحاذيـة لأحد الأنهار المحلية (نهر موثول) وهى مرتفعات مغطاة بالأشجار والنباتات التـى تخفى تحركات جيشه . وأعد يوجورثا قواته إعداد جيدًا لمواجهة خصمـه بخطـوات مدروسة هـى الشـحن المعنـوى الهـائل لقواتـه ضـد أطمـاع الرومـان فـى وطنهـم وتذكيرهم بأنهم سبق لهم النصر على الرومان وإخضاعهم تحت النير ، ثم أعطـاهم

تعليمات بشن الهجوم على مؤخرة الجيش الرومانى من كل جانب بغير التحام مباشر وبقوة وحيوية هائلة ، كما أصدر أوامره لفرسانه بالتراجع متفرقين وبأقصى سرعة إن هاجمهم الرومان لتشتيت انتباه الرومان(٤٠) . هذه الخطة التى نفذها جيش يوجورثا أربكت صفوف الجيش الرومانى وأوقعته فى فوضى عارمة ولم تعطه فرصة القيادة المنظمة وأوقعت فى صفوفه خسائر كبيرة بفضل ديناميكية يوجورثا وحركته الدائبة بين قواته يشجعهم على مواصلة القتال بكل حيلة ووسيلة(٤١) . وبصعوبة شديدة تمكن ميتيللوس من جمع شتات قواته وشن هجومًا مضادًا ناجحًا ضد قوات يوجورثا التى ولى معظمها بسرعة كبيرة ، وهو الأسلوب الذى نصح به يوجورثا فرسانه ، وهنا اعتقد ميتيللوس أنه حقق النصر على قوات يوجورثا(٤٢) .

وحين أدرك ميتيللوس - من خلال قوات استطلاعه - أن انسحاب يوجورثا لم يكن سوى انسحاب تكتيكى الغرض منه تعبئة جيش أكبر فى منطقة غابات ذات مناعة طبيعية قرر ألا يخوض معارك نظامية ضد يوجورثا بل يقوم بتخريب الأراضى الخصبة وحرق المدن لإلقاء الرعب فى النفوس واحتجاز رهائن كثيرين(٤٣) . وفى مواجهة هذا الموقف قرر يوجورثا أن يرد على هذه الأعمال بالطريقة الملائمة فشن حرب عصابات على القوات الرومانية وكان يباغت الجند الرومان فى أوقات راحتهم ويتسلل إليهم هو وفرسانه من طرق جانبية غير مألوفة ويقتل الكثيرين منهم وأسر الكثيرين وبعدها يتفرق النوميديون من حيث أتوا(٤٤). ونتيجة لذلك بدأ ميتيللوس يلزم الحذر الشديد ولا يندفع دون روية فى تدمير المدن والقرى(٤٥) . ومع ذلك لم يكف يوجورثا عن أعمال المقاومة عن طريق حرب العصابات وكان يقوم بتسميم آبار المياه التى يلجأ إليها الرومان ويفسد أعلاف ماشيتهم ، وتباغت قواته قوات ميتيللوس حينا وقوات مساعده ماريوس حينا آخر مهددًا هؤلاء وهؤلاء دون أن يترك لهم أى فرصة لالتقاط الأنفاس أو تنفيذ خططهم(٤٦) .

وهكذا نرى أن يوجورثا رجل لا يعرف الخوف أو اليأس بـل يعـاود الكـرة بأقوى مما كان ، ومناور بارع يعرف كيفية مواجهة كـل موقـف بمـا يلائمـه مـن تكتيكات(٤٧) وخطـط ناجحة تجعـل العـدو يرتبـك ويـتراجع عـن تنفيـذ خططـه الفاشلة ، كما نراه يستفيد كثيرًا من معرفته بجغرافية بلاده فى شن الهجمات المؤثرة على العدو من خلال طرق ودروب غير مألوفة .

وبعد فشل هذه الخطة من ميتيللـوس وثبـوت عـدم جدواهـا لجـأ إلى خطـة يستهدف من ورائها إجبار يوجورثا على مواجهة عسكرية يفرض هو (ميتيللـوس ظروفها . هذه الخطة الجديدة تتمثل فى فرض الحصار علـى مدينـة " زامـا " وهـى قلعة وحصن الجزء الشرقى من نوميديـا ظنـا منـه أن ذلـك سيجبر يوجورثـا علـى المجيء بقواته لنجدة المدينة المحاصرة . لكن يوجورثا فوت هذه الفرصة كذلك على خصمه حين أبدى تشجيعه ومؤازرته المعنوية الهائلة للمدينـة وحـث سـكانها علـى التصدى للمعتدين الرومان بكل قوة وأنـه سيكون إلى جـانبهم عنـد الضـرورة ثـم غادر المدينة إلى الصحراء (٤٨) . وأبدت مدينة زاما مقاومـة صارمـة وباسـلة ضـد الجيـش الرومـانى الـذى كـان يحاصرهـا وضـرب أهلهـا مثـلاً رائعًـا فـى البطولـة وساعدهم على ذلك - إضافة إلى عتادها القـوى مـن السـلاح والرجـال - منعتهـا الطبيعيـة وتحصيناتهـا القويـة(٤٩) . وقـد أرهـق الحصـار الطويـل للمدينـة - دون جدوى - المقـاتلين الرومـان الذيـن تكبـدوا خسـائر فادحـة فـى الأرواح ، وأدرك ميتيللوس أن الحصار لم يحقق أيا من أهدافه فلا هـو أسـقط المدينـة القويـة ولا هـو استدرج يوجورثا إلى معركة لا يريدها ولذلك رفع الحصار عن زاما وغادرها(٥٠) دون تحقيق أى إنجاز يذكر بل على العكس بعد أن منى بخسائر فادحة .

وفى نفس الوقت الذى ترك فيه يوجورثا لأهل مدينة (زاما) مهمة الدفـاع عن مدينتهم وهو ما أنجزوه بكل همة ونجاح كما رأينا ، كان هـو يتحـين الفـرص ويكيل الضربات الموجعة للقوات الرومانية فى أماكن أخرى مـن نوميديـا . فبينمـا كانت القوات الرومانية تحاصر مدينـة زامـا انقـض يوجورثـا فجـأة علـى المعسـكر

الرومانى بقوة كبيرة واقتحم إحدى بوابات المعسكر . وفى هذا الموقـف المفـاجىء حل الذعر والاضطراب بجند المعسـكر الرومـانى فحـاول بعضهـم الفـرار وحـاول آخرون تسليح أنفسهم ولكن سقط معظمهم تقريبًا بين قتيل وجريح ، ولم يصمـد من بينهم سوى أقل من أربعين(٥١) وهناك قلة تمكنوا من الفرار صوب ميتيللـوس ورجاله ولما أدرك الأخير حقيقة الموقف أرسل كل قوات الفرسان علـى عجـل إلى المعسكر وأمر ماريوس أن يلحق به فورا بسرايا الحلفاء وتوسل إليه بالدموع باسـم صداقتهما وبلدهما ألا يسمح بأى وصمـة خزى أن تلطـخ جيشـهم المنتصـر وألا يدع الأعداء يفلتون بغير عقاب(٥٢) . لكن يوجورثا كان قد أنسحب هو ورجاله إلى مكان آمن ولكن بعد أن فقـد عـددًا مـن رجاله الذيـن انحشروا فـى طرقـات وتحصينات المعسكر الضيقة أثناء محاولتهم الانسحاب السـريع بعـد إنجـاز مهمتهـم بنجاح . ورغم أن ميتيللوس أخذ حذره من هذا الموقف وقام فى اليوم التالى بتأمين المعسكر بحراسة مشددة من الفرسان الذين قاموا بالمرابطة أمام الجهات التـى يتوقـع أن يأتى منها النوميديون فإن هؤلاء الأخرين باغتوا المعسكر الرومـانى بكمين مـن نقطة أخرى غير متوقعـة أربكـت وأفزعـت الجنـد الرومـان حتـى أتـى إليهـم مـدد لنجدتهم من بقية رفاقهم . وكانت محصلة هـذا الكمـين أيضًـا انتصـارًا ليوجورثـا وهزيمة للمعسكر الرومانى(٥٣) .

وفى مناسبة لاحقة استعد يوجورثـا لتوجيه ضربـات أخرى للرومـان مـن خلال تعبئة وإعداد المزيد من الجند ومحاولة استعادة بعض المدن التى اسـتولى عليهـا الرومان وتحصين المواقع ذات الأهمية . وكان من بين المـدن التـى احتلهـا الرومـان ووضعوا فيها حاميات مدينـة تدعـى " فاجـا " ، ومـع ذلـك كـان أهلهـا - كمـا سيتضح - يدينون بالولاء لملكهم يوجورثا . لقد دبر يوجورثـا مـع وجهـاء المدينـة خدعة ومؤامرة للقضاء على الحامية الرومانية فى المدينة ، فحددوا موعدًا لاحتفـال كبير يقام فى المدينة ودعـوا إليه كبـار رجـال الحاميـة مـن قـائد الحاميـة والترابنـة العسكريين وقادة المئات ليشاركوهم الاحتفال فى منـازلهم . وفـى أثنـاء الاحتفـال ذبـح النوميديـون ضبـاط الحاميـة ولم ينـج مـن المذبحـة إلا قـائد الحاميــة اللاتينـى

توربيليوس الذى أعدمه الرومان لاحقًا لأنه لم يقدم تبريرًا مقنعًا لكيفية نجاته وحده. وبعد هذه المذبحة بين قادة وضباط الحامية داهم النوميديون جند الحامية الذين كانوا يتجولون بلا أسلحة وانقضوا عليهم وشارك وجهاء المدينة وعامتها بل وحتى أطفالها ونساؤها فى القضاء على الجند الرومان قضاء مبرما بأن أغلقوا عليهم بوابات المدينة وحالوا بينهم وبين قلعتهم وأسلحتهم وانقضوا عليهم ذبحًا ، بل أن النساء والأطفال كانوا يرشقونهم بالحجارة وكل ما تقع عليه أيديهم من فوق أسطح المنازل(٥٤) . وبعد الحزن والغضب الذى سيطر على ميتيللوس إثر سماعه بهذه المجزرة بين قوات حاميته انتقم لهم بعد يومين بالحيلة والخديعة أيضًا إذ سار بقواته نحو المدينة وسير فى مقدمة قواته فرسان نوميديين تابعين له ، وحين اقترب من المدينة ظن أهلها أن يوجورثا قادم إليهم فهبوا لاستقباله بفرحة غامرة وفتحوا بوابات المدينة وهنا أسرع الرومان باقتحام المدينة وتدميرها عن آخرها(٥٥) .

وحتى عندما ساءت حظوظ يوجورثا فى ميدان المعركة أمام ميتيللوس حين سقطت واحدة من أهم وأكبر وأغنى مدنه فى صحراء نوميديا وهى مدينة " ثالا " فى أيدى قوات ميتيللوس(٥٦) تمكن يوجورثا من الفرار مع أسرته ومعظم ثروته إلى الجزء الغربى من نوميديا قرب حدود موريتانيا (المغرب الحالية) وكان يقطن ذلك الجزء شعب بدائى يسمى " الجايتوليين " . إن يوجورثا لم يصب باليأس والقنوط بعد هزيمته فى " ثالا " بل استمال إلى صفه هؤلاء الجايتوليين ودربهم ونظمهم وعلمهم أصول الجندية وكون منهم جيشًا جديدًا ، كما اكتسب صداقة الملك بوخوس ملك موريتانيا وأقنعه بالتحالف معه لشن حرب مشتركة ضد الرومان الغاصبين(٥٧) .

وبعد إقصاء ميتيللوس من قيادة الجيش الرومانى فى نوميديا وإسنادها إلى القنصل الجديد ماريوس سنة ١٠٧ ق. م. شن الأخير معارك ناجحة ضد يوجورثا واستطاع - بالغدر والحيلة تارة وبالمصادفة تارة أخرى - إسقاط بعض المدن

والقلاع فى نوميديا كما سنرى لاحقًا . وفى ظل هذه الظروف العصيبة حث يوجورثا حليفة الملك بوخوس على سرعة شن الحرب على الرومان فى نوميديا وطردهم من أفريقيا . وقام الملكان بشن هجوم كبير مفاجىء على قوات ماريوس وهى فى طريقها إلى معسكراتها الشتوية وكان وقت الهجوم قرب غروب الشمس. وتحت وقع المفاجأة حدث ارتباك شديد فى صفوف القوات الرومانية وحاولوا الدفاع عن أنفسهم دون جدوى بسبب الفوضى فى صفوفهم والتفوق العددى للنوميديين والموريتانيين وهجومهم المكثف من كل جانب(٥٨) . وفى هذا الموقف العصيب أوشك الملكان على إحراز نصر ساحق على الرومان لولا أن ماريوس استطاع أن يسحب قواته بصعوبة شديدة إلى تلين مجاورين يتمتعان بحصانة طبيعية وأحاطت بهما جحافل قوات الملكين فى العراء طوال الليل . لكن الملكين أضاعا نصرًا سهلاً كان فى متناول أيديهما حينما سهرت قواتهما التى تحاصر التلين طيلة الليل وهى تتصرف كالمنتصرة فعلاً وتحتفل فى غبطة وسرور وضوضاء حتى حل بهم الإنهاك وخلدوا للراحة(٥٩) . وفى هذه اللحظة هبط الرومان من على التلال وباغتوا القوات المشتركة وهى نائمة مما أصابها بالفزع والذعر الشديدين وأسفر عن هزيمة لقوات الملكين التى أضاعت نصرًا سهلاً كان فى متناول أيديهم فى الليلة السابقة . لقد كانت هزيمة القوات النوميدية والموريتانية فى المرحلة الثانية من هذه المعركة نتيجة خطأ فى التقدير واستهانة بالخصم أكثر من كونها نتيجة لقوة الرومان ، إذ أفلت هؤلاء من هزيمة محققة قبل ساعات قليلة .

وبعد هذه الهزيمة لقوات الملكين يوجورثا وبوخوس أعادا ترتيب قواتهما من جديد وأعدا العدة لمهاجمة قوات ماريوس وهى فى طريقها إلى معسكرها الشتوى فى مدينة " كيرتا " شرق نوميديا . ودارت معركة شرسة بين الطرفين على مقربة من " كيرتا " ، وفى هذه المعركة لجأ يوجورثا إلى الحيلة والخدعة مع الرومان إذ ترك مكانه فى قيادة المعركة فى المقدمة ضد ماريوس سرا وانضم لقوات الملك بوخوس من المشاه الذين يهاجمون مؤخرة الجيش الرومانى . وهناك أشاع بين قوات الجيش الرومانى فى المؤخرة أنهم يحاربون بلا جدوى إذ زعم لهم أنه

(يوجورثا) قد قتل ماريوس بيديه ، وكان لهذه الإشاعة وقع الصدمة بين القوات الرومانية وأشعلت حماس القوات الموريتانية فقاتلت بشجاعة فائقة وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من إحراز النصر على الرومان(٦٠) . ولكن ظهور ماريوس المفاجىء ومعه قوات فرسانه وإحاطتهم بقوات بوخوس ويوجورثا أحبط الضربة المعنوية التى كالها يوجورثا لهم ومكن القوات الرومانية من استرداد زمام المبادرة وهزيمة خصومهم .

من كل هذه المواقف السابقة فى المعارك بين يوجورثا وخصومه من كبار القادة الرومان نرى أن يوجورثا لم يكن صيدًا سهلاً للرومان كما لم تكن حملات الرومان عليه فى نوميديا نزهة عسكرية . لقد أثبت الرجل نديته - وفى كثير من الأحيان تفوقه - للرومان وأفصح عن ملكات عسكرية قديرة وثبات وصلابة لا تلين وذكاء فى مجابهة أعقد المواقف وحسن استغلال لنقاط ضعف وأخطاء عدوه .

إن انتصار الرومان فى نهاية المطاف على يوجورثا لم يكن مرده القوة العسكرية الرومانية وحدها - رغم كفاءة وخبرة وصرامة هذه القوة التى من الخطأ التهوين من شأنها - بل أن هناك عنصرا آخر هامًا استغله الرومان بصورة مكثفة ضد يوجورثا وهو الغدر به وتجنيد أقرب مساعديه وحلفائه لمصلحتهم وتحريضهم على يوجورثا حتى أوقعوا به غدرًا وغيلة .

بعض مواقف الغدر والخديعة من الرومان ضد يجورثا :

بعد أن أدرك الرومان أن يوجورثا مقاتل ومناور غير عادى - لا سيما بعد هزيمة الجيش الرومانى بقيادة أولوس ألبينوس المهينة وإجبار الجيش الرومانى على المرور " تحت النير " رمز الإذلال - عمدت روما إلى إرسال قادة أقوياء ومشهود لهم بالكفاءة والنزاهة لمجابهة هذا الخطر الجاثم على أنفاسهم . ولنتحدث عن مدى كفاءة هؤلاء القادة الرومان مثل ميتيللوس وماريوس ومدى نزاهتهم . أما كفاءتهم فقد وضعها يوجورثا على المحك - كما رأينا - وألحق بهم ضربات عديدة مؤلمة ومؤثرة وبذلك أثبت أنه كان أكثر من ند لهم . وأما الحديث عن نزاهتهم فقد

كان يقصد به فى العرف الرومانى بعد واحد فقط هو عدم قبولهم للرشوة من عدوهم وعدم إمكان إفسادهم بهذا السلاح كبقية رجال عصرهم فى روما . لكن هؤلاء لم يكونوا منزهين عن الغدر ومحاولة الإيقاع بعدوهم القوى بعيدًا عن ميدان المعركة بأساليب غادرة وبعيدة عن سلوكيات المقاتل النبيل ، بل لقد أزمعوا منذ البداية اللجوء إلى الغدر كخيار أساسى أزمعوا - منذ بداية غزوهم لنوميديا - استخدامه .

حين وصل ميتيللوس إلى نوميديا لأول مرة وكان يوجورثا يدرك مدى استقامته واستحالة رشوته لجأ إلى المناورة معه وأرسل إليه مبعوثين من جانبه للتفاوض معه وأوهمه - عدة مرات - أنه ينوى الاستسلام . وهنا يقول ساللوستيوس أنه " لما كان ميتيللوس على علم مسبق - من خلال تجاربه - أن النوميديين شعب غادر وذو مزاج متقلب ومغرم بالتجديد فإنه كان يلتقى المبعوثين (من يوجورثا) فرادى واحد بعد الآخر ، وظل يسبر أغوارهم تدريجيًا وبعد أن أدرك أنهم ملائمون لغرضه أغراهم بكثير من الوعود لكى يسلموه يوجورثا حيا إن أمكن ، إلا إذا تعذر ذلك فيسلمونه مقتولاً "(٦١) . وبعد ذلك حين أخفقت خطة ميتيللوس فى إسقاط مدينة " زاما " بعد حصارها لمدة طويلة دون جدوى وبعد الخسائر الفادحة التى منى بها الرومان هناك جرب أن يستخدم سلاح الغدر ضد خصمه يوجورثا . لذلك أراد ميتيللوس أن يجند لمصلحته أبرز رجال يوجورثا وساعده الأيمن المدعو " بوميلكار " الذى أشرف وخطط لمؤامرة اغتيال ماسيفا أحد أصحاب الحق فى العرش النوميدى فى روما حين كان هناك (بوميلكار) بصحبة سيده يوجورثا وأفلح يوجورثا فى تهريبه إلى نوميديا سرًا بعد تنفيذ عملية الاغتيال . " ونظرًا للصداقة الوطيدة التى تربط هذا الرجل بيوجورثا فقد كان لديه فرصة عظيمة لخداعه، لذلك حاول ميتيللوس اكتسابه إلى صفه بوعوده الكثيرة له. لذا فقد دبر أولاً أن يأتى الرجل للقاء به سرا ثم تعهد بشرفه أنه إن سلمه يوجورثا حيا أو ميتا فإن السناتو سوف يسقط العقوبة عنه (المتعلقة بجريمة اغتيال ماسيفا) وسوف يسترد (بوميلكار) كافة أملاكه . وكان من السهل إغراؤه وإقناعه لأنه كان غادرًا بطبيعته ولأنه كان يخشى - إن تم التوصل إلى سلام مع روما - أن يكون تسليمه لروما وإعدامه هو شرط إحلال ذلك السلام(٦٢) .

ويبدو أن هذا الاتصال السرى بين ميتيللوس وبوميلكار قد أثمر إذ بدأ الأخير يخطط للخلاص من يوجورثا واجتذب نحوه أحد علية القوم كذلك من النوميديين ويدعى " نابدالسا " الذى كان يحظى بشعبية طاغية بين قومه وكان مقربا جدا من الملك يوجورثا وينوب عنه فى بعض الأمور إذا كان الملك مرهقًا أو مشغولاً بأمور أهم . وقد اتفق بوميلكار و " نابدالسا " على التآمر على ملكيهما يوجورثا واختارا توقيتًا لتنفيذ المؤامرة وإغتيال الملك على أن يتم حسم وترتيب التفاصيل فى وقت التنفيذ طبقًا لظروف الموقف نفسه . ولكن هذه المحاولة أخفقت عندما جبن " نابدالسا " عن الحضور فى التوقيت المحدد بسبب خوفه من هول الجريمة مما أحبط المحاولة . وهنا أرسل بوميلكار رسالة توبيخ وتعنيف لشريكه بسبب تراجعه عن خطتهم المشتركة وحثه على ألا يتراجع عن الأمر وأخبره أن نهاية يوجورثا قد أوشكت . ولسوء حظ طرفى المؤامرة فإن هذه الرسالة قد وقعت فى يد الملك إذ قام خادم " نابدالسا " بالتقاطها من على سرير سيده وهو نائم . وقد دافع " نابدالسا " عن نفسه وأقسم ليوجورثا أنه كان يزمع إبلاغه بالخطة قبل أن يقوم خادمه بذلك(٦٣) . وهنا قام الملك بإعدام بوميلكار وعدد كبير من المتورطين بهذه المؤامرة . ولكن هذا الموقف أثر بشدة على نفسية يوجورثا وهو يرى الغدر من أقرب المحيطين به فلم يطب له من حينها المقام فى ليل أو نهار وأصبح قلما يثق بشخص أو مكان أو زمان وأصبح يخشى مواطنيه وأعداءه على حد سواء ، وكان فى حالة من الترقب الدائم ويقضى لياليه فى أماكن مختلفة ويصحو على كل صوت ويمسك بأسلحته ، وتملكه خوف مرضى(٦٤) .

فى هذه الظروف النفسية السيئة ليوجورثا ازدادت العزلة الخانقة حوله إذ فقد أصدقاءه حيث قتل هو الكثير منهم وفر بعضهم إلى الرومان والبعض الآخر لجأ إلى الملك بوخوس فى موريتانيا . وهنا تقلبت أحواله وازدادت شكوكه ومخاوفه من الغدر والخديعة وأصبح يغير خططه وطرقه وقادة جيشه . وأخيرًا اعتصم يوجورثا ورجاله بمدينة " ثالا " الصحراوية الكبيرة والغنية التى احتفظ فيها بأسرته ومعظم ثرواته . وربما كانت هذه الظروف النفسية الكئيبة التى مر بها

الملك النوميدى أحد أسباب سقوط هذه المدينة فى يد ميتيللوس بعد حصار طويل وبعد هروب يوجورثا وأسرته ومعه معظم ثروته(٦٥) . هكذا ترك الغدر أثره الواضح على يوجورثا ومعنوياته وحالته القتالية لأنه غدر غير متوقع ومن جانب واحد من أخلص أصدقائه .

ورغم أن يوجورثا تماسك من جديد بعد هذا الموقف وكون جيشًا جديدًا من الجايتوليين وتحالف مع بوخوس ملك موريتانيا ضد الرومان وأحرزوا ضدهم بعض الانتصارات الجيدة التى لم يحافظوا عليها للنهاية فإن الغدر والخديعة عادا للظهور مرة أخرى فى وجه يوجورثا وأوديا به هذه المرة . فبعد معارك عديدة للملكين ضد الرومان - رأينا بعضا منها - كان النصر فيها حليف الرومان فى اللحظة الأخيرة بعد أن كان فى متناول أيدى الملكين وضاع لسوء تقديرهما نجد الرومان يعودون مرة أخرى لاستخدام سلاح الغدر ضد يوجورثا وفى هذه المرة عن طريق حليفه الملك بوخوس . فبعد انتصار الرومان على الملكين فى المعركتين اللتين سبقت الإشارة إليهما بدأ بوخوس يرسل رسله إلى الرومان سرا ويطلب من ماريوس أن يرسل إليه اثنين من كبار ضباطه للتفاوض معهما حول مصالحه ومصالح الرومان . وهنا لعب الكويستور سوللا دورا دبلوماسيا فى غاية الأهمية حين بدأ يستميل بوخوس لصفوف الرومان ويثنى على ميله للسلم مع الرومان ويحاول أن يباعد بينه وبين يوجورثا(٦٦) .

وتكررت البعثات والوفود بين بوخوس والرومان وبدأ يوجورثا يخشى من تأثير الرومان على حليفه ولذلك جعل أحد أعوانه ويدعى " أسبار " يحاول التجسس على مهمة سوللا فى بلاط بوخوس . لكن الأخير استطاع أن يغافل رسول يوجورثا بتمويه متعمد وحديث مقتضب مع سوللا فى حضوره إذ تظاهر سوللا بأن مهمته أن يوصل رسالة من ماريوس إلى بوخوس يسأل فيها القائد الرومانى ملك موريتانيا إن كان يرغب فى السلم أم فى الحرب ويرد الملك بأنه سيرد على هذا السؤال بعد عشرة أيام . وبعد انصراف مبعوث يوجورثا مطمئنا لهذا يعقد سوللا والملك بوخوس اجتماعا سريًا(٦٧) بينهما فى الليل يعبر فيه الملك

عن سروره البالغ بصداقة الرومان ويلتمس الأعذار لعدائه السابق لهم ويبدى استعداده لتلبية مطالبهم ويطمئنهم إلى تخليه عن حليفه يوجورثا وأنه لن يتدخل إلى جانبه فى أى حرب مقبلة مع الرومان ولن يسمح له بعبور نهر مولوخا الفاصل بين المملكتين(٦٨) . ولكن سوللا يفاجئ الملك بأن الخدمة الحقيقية التى يستطيع أن يسديها لروما هى أن يقوم الملك بوخوس بتسليم يوجورثا لها بالحيلة ومناه فى المقابل بالصداقة والتحالف مع روما وبجزء من مملكة نوميديا . وبعد رفض وتردد من بوخوس فى البداية لتلبية هذا المطلب الصعب إلا أنه بدأ يقتنع وأذعن فى نهاية الأمر(٦٩) . ووضع بوخوس خطة غادرة لتحقيق ذلك إذ اتصل بحليفه وصديقه يوجورثا وأفهمه أن الرومان يسعون إلى سلام وأنه يتطلع لمعرفة رأيه ، ووافق يوجورثا على رغبة بوخوس ولكن حذره ألا يأمن غدر الرومان الذين كثيرًا ما ينقضون عهودهم ووافق على حضور اجتماع عام مع بوخوس والمبعوث الرومانى سوللا وطلب من بوخوس أن يسلمه سوللا لضمان جدية الاتفاق وتظاهر بوخوس بالموافقة لكى ينفذ خطته العكسية وهى تسليم يوجورثا إلى سوللا . وأعد الكمين بإحكام بين بوخوس وسوللا ومن معه من أفراد الكمين الرومانى المتأهب فى موقع قريب ، ووصل يوجورثا ومعه بعض رفاقه وهو أعزل من السلاح - مطمئنا إلى وعود حليفه - إلى مكان الاجتماع فانقض أفراد الكمين الرومانى على رفاق يوجورثا وقتلوهم واقتادوا معهم الملك الأسير(٧٠) الذى سقط ضحية الغدر والخديعة و لم يسقط فى ميادين المعارك التى أبلى فيها بلاء حسنا . وهكذا انتهت قصة كفاح ملك عظيم ومناضل ثائر ضد هيمنة الرومان على مقدرات تلك المنطقة نهاية مأساوية غادرة سنة ١٠٥ ق. م.

إن يوجورثا حتى فى حالة سقوطه فى ميدان المعركة العسكرية ضد الرومان كان سيبقى ظاهرة بطولية غير عادية إذ تصدى لقوة عسكرية عاتية ومنظمة وذات خبرة قتالية طويلة ، فما بالنا بأن قوة الرومان الهائلة لم تتمكن من القضاء عليه فى ميادين المعارك العسكرية و لم تحطم إرادته الفولاذية وإنما هزمه الغدر والخذلان دون سواهما . ولا شك أننا أمام بطل ومناضل رائع !

* * *

فى الختام يجدر بنا أن نذكر أننا إذا كنا قد توصلنا إلى هذه الصورة الرائعة عن هذا البطل من خلال مصدر كتبه أعداؤه الذين حاولوا جهدهم تشويه صورته فما بالنا لو كانت هناك معلومات عنه من الطرف النوميدى أو من طرف محايد . إن استخلاص هذه الصورة من المصدر الرومانى لم يكن أمرا يسيرا أو هينا ، إذ أن المؤرخ ساللوستيوس منحاز بصورة واضحة - فى أحكامه وعرضه للأحداث - للجانب الذى يمثله وهو الجانب الرومانى . ولكنه رغم ذلك صور الوقائع بقدر لا بأس به من الموضوعية وهى التى مكنتنا إلى حد كبير من محاولة رسم صورة موضوعية نسبيا عن شخصية يوجورثا ودوره الوطنى لخدمة بلاده ، بعد أن نحينا جانبا عواطف المؤرخ وأحكامه وطريقة عرضه المنحازة للموضوع وركزنا على الوقائع المجردة فى إطارها التاريخى . ولبيان هذه النظرة المنحازة من قبل المؤرخ سنورد بعض الأمثلة التى تناقض فيها مع نفسه أو جانبه فيها الصواب . ففى أحد المواقف التى حدثت بين يوجورثا وميتيللوس فى أثناء حصار الأخير لمدينة (زاما) يبدو تناقض المؤرخ وعدم دقة أحكامه . هذا الموقف يتمثل فى أن ميتيللوس كان قد أصدر أوامره لمساعده " ماريوس" بأن يذهب إلى بلدة تدعى "سيكا " لكى ينهب بعض المؤن والأعلاف منها ، وكان يوجورثا يقتفى أثر هذه القوة وهى تخرج من بوابة البلدة وكان مع يوجورثا مجموعة من أفضل فرسانه طوقوا الرومان عند البوابة وهم خارجين بعد تنفيذ مهمتهم . وصاح يوجورثا بأعلى صوته يحرض أهل " سيكا " لكى يحيطوا بمؤخرة الجيش الرومانى ويطوقوها من كل جانب وحثهم بأن هذه هى فرصتهم لإنجاز رائع ومجد كبير . ورغم أن ساللوستيوس سبق أن قرر فى سياق هذه الفقرة أن هذه البلدة أول من تمرد على يوجورثا بعد هزيمته إلا أنه يقول فى هذا الموقف أنه لولا أن ماريوس أسرع بالتقدم ومغادرة المدينة لانقلب عليه معظم أهلها - إن لم يكن كلهم - لأن التقلب من شيم النوميديين(٧١) . التناقض فى أحكام المؤرخ هنا واضح إذ يبدو من الموقف أن أهل هذه البلدة لم يتمردوا على مليكهم يوجورثا كما يقرر المؤرخ ، فلو كانوا قد انقلبوا عليه فعلاً لما ذكر المؤرخ أنهم كانوا على وشك الإطباق على ماريوس

وجنده الرومان لولا إسراع الأخير بمغادرة المدينة . إن الموقف يوحى بأن أهل البلدة قد خضعوا للرومان على كره منهم ولكنهم لم يفقدوا ولاءهم لملكهم وإخلاصهم له وكانوا يتحينون الفرص للثأر من الرومان ، ولذا يحكم عليهم المؤرخ بالتقلب وهو ليس بتقلب وإنما موقف أصيل كامن فى نفوسهم وهو كره الرومان والرغبة فى هزيمتهم حين تحين الفرصة . إن هذا الاتهام الزائف من المؤرخ ساللوستيوس للنوميدين بالتقلب والغدر يتكرر فى عدة مواضع فى مؤلفه(٧٢) ، وهو يقصد بذلك تحينهم الفرص للانتقام من الرومان المحتلين لبلادهم وكأنما المطلوب منهم استمراء الاحتلال والإذعان له حتى لا يوصموا بالغدر والتقلب . نفس الموقف ونفس الاتهام من المؤرخ للنوميديين بالغدر والتقلب حدث مع أهل (فاجا) الذين دبروا المذبحة للحامية الرومانية فى المدينة(٧٣) . إنه يتهم أى مقاومة نوميدية للاحتلال الرومانى بأنها غدر وتقلب .

موقف آخر متناقض وغير منطقى يورده المؤرخ ساللوستيوس عن يوجورثا وهو أن الأخير - بعد إلحاح وتوسلات وإقناع من مساعده بوميلكار الذى استغل ضعفا فى سيده وهو منهك يندب حظه - قد اقتنع بالاستسلام للقائد الرومانى ميتيللوس وأرسل له رسلاً يعرضون عليه استسلام يوجورثا . وهنا جمع ميتيللوس أركان حربه من رجال السناتو إلى مقر القيادة واتفقوا على شروط استسلام يوجورثا وهى أن يقدم للرومان مئتى ألف رطل من الفضة وكل ما لديه من أفيال وقدر كبير من خيوله وأسلحته وأنه وافق على هذه الشروط على الفور مقابل تسليم الفارين من جنده لدى الرومان . وأنه بعد تنفيذ كل هذه الشروط تردد مرة أخرى - خوفًا من أن يعاقب على جرائمه السابقة - ورفض الاستسلام(٧٤) ! رواية فى غاية العجب وغير قابلة للتصديق ، ومما يزيد من عجبها واستحالتها هو توقيت حدوثها : يذكر المؤرخ أن ذلك قد تم بعد فشل ميتيللوس فى إسقاط مدينة (زاما) بعد حصارها الطويل الفاشل والخسائر التى منى بها الرومان أثناء الحصار من المدافعين عن " زاما " من ناحية ومن ضربات يوجورثا الموجعة للمعسكر الرومانى مما أجبر الرومان على فك الحصار عن زاما . هذا هو ترتيب الأحداث

كما ورد عند المؤرخ وهو ترتيب يجعل الحديث عن استسلام يوجورثا أو بمجرد التفكير فى ذلك - فضلاً عن الإقدام عليه - أمرًا غير منطقى وغير وارد ، إذ كيف يفكر قائد منتصر أحبط خطط عدوه ومنعه من تحقيق أى من مآربه وكال له ضربات موجعة فى الاستسلام ؟! صحيح أن المؤرخ ذكر مرارًا فى سياق الموضوع أن يوجورثا عرض أمر استسلامه على كافة القادة الرومان الذين حضروا إلى نوميديا لقتاله من القنصل بستيا إلى سبوريوس ألبينوس وميتيللوس (الذى عرض أمر استسلام يوجورثا أكثر من مرة) من خلال مبعوثى يوجورثا لهؤلاء القادة(٧٥). ولكن اتضح أن هذه العروض للاستسلام من قبل يوجورثا لم تكن سوى مناورات ذكية تكتيكية لكسب الوقت أو التدبير لخطط مناسبة أو لمد حبل الغرور أمام هؤلاء القادة والتظاهر أمامهم بضعفه حتى لا يكشف أوراقه أمامهم ثم يباغتهم بضربات غير متوقعة كما رأينا .

النقطة الأخيرة فى سلسلة هذه الأحكام والروايات الرومانية المتحيزة والمتناقضة التى يطلقها المؤرخ ساللوستيوس هى تهوينه من شأن جند يوجورثا فى بعض المواقف وتبريره لسبل الغدر والخداع الرومانى ضد المدنيين . ففى أحد المواضع يقارن بين الجند الرومان والنوميديين فيصف الرومان بالشجاعة والإقدام أما عن النوميديين فيذكر أن يوجورثا كان يتمتع بكل ما هو ملائم (لشن الحرب) باستثناء جنده ، وهو يلمح بهذا إلى فرارهم السريع عندما يهجم عليهم الرومان(٧٦) . ولكنه هو نفسه (المؤرخ) يشير إلى أن فرارهم السريع - فى الموقف الذى يذكر فيه هذا الحكم - قد ساعد على تقليل خسائرهم إلى أبعد حد بحيث لقى قلة منهم مصرعهم ونجت غالبيتهم ، من خلال فرارهم السريع وقلة دراية الرومان بجغرافية البلاد . وفوق ذلك فإن الفرار المنظم السريع كان تنفيذا لتكتيكات وخطط قائدهم يوجورثا فى مجابهته للرومان(٧٧) . أما عن تبريره لفظائع الرومان ضد المدنيين فلدينا مثال عليه حين أسقط الرومان - بالغدر والخديعة وليس بالقتال - إحدى المدن النوميدية الحصينة فى قلب الصحراء وهى مدينة "كابسا" ، وبعد استسلام المدينة قام الرومان بحرقها وإعدام شبابها وبيع

الآخرين عبيدا وتقسيم غنائم المدينة بين الجند الرومان . هنـا يحـاول ساللوستيوس أن يتلمس الأعذار الواهية للقائد المنتصر ماريوس فى انتهاكه لقوانين الحرب بالقول بأن ماريوس لم يفعل ذلك بدافع القسوة أو حب المال بل لأن الموقع المذكور كـان مفيدًا جدًا ليوجورثا وكان منيعًا وصعـب الاقتحـام وأن أهـل المدينـة متقلبـون ولا يوثق بهم(٧٨) .

إن الطبيعة البشرية - كما نرى من رواية الرومان لقصة يوجورثا - لم تتغير ولن تتغير : فالمنتصر المحتل دائمًا ما يحاول أن يبرز من الضحية مثالبها - من وجهـة نظره - ويحاول إغفال حقوقها وإيجابياتها وجوانبها المشرقة . كما يحـاول أن يـبرر لنفسه أشد الجرائم هولا وفظاعة وانتهاكًا لأبسط حقوق الإنسان ويقلـب الصـورة ليتهم الضحية بهذه الجرائم النكراء .

ولكن مهما تفنن المحتل فى تشويه الصورة وقلب الحقـائق فـلا يصـح - فـى النهاية - إلا الصحيح .

هوامش البحث

(1) Sallustius , Bellum Iugurthinum , V , IX : 3 .
(2) Ibid. , VI : 1 - 3 .
VI . 1 :
Sed multo maxume ingenio validus , non se luxu neque inertiae corrumpendum dedit , sed , ut mos gentis illius est , equitare, iaculari , cursu cum aequalibus certare , et cum omnis gloria anteiret , omnibus tamen carus esse ; ad hoc pleraque tempora in venando agere , leonem atque alias feras primus aut in primis ferire , plurumum facere et minumum ipse de se loqui .
VI . 3 :
ad hoc studia Numidarum in Iugurtham accensa , ex quibus si talem virum dolis interfecisset , ne qua seditio aut bellum oriretur anxius erat .
(3) Ibid . , VII. 4 - 7 :
ut nostris vehementer carus , Numantinis maxumo terrori esset . Ac sane , quod diffillumum in primis est , et proelio sternuus erat et bonus consilio , quorum alterum ex providentia timorem , alterum ex audacia temeritatem afferre plerumque solet .
(4) Ibid . , IX . 1 - 2 .
مما يدل على أن يوجورثا كان يدرك أن عمه ميكبسا لم يكن مخلصا نحـوه ولم يكن – في قرارة نفسه – يتمنى أن يشركه في وراثة العرش أنظر : XI . 1
(5) Ibid . , XII - XIII , XX - XXVI .
(6) Ibid . , XLI - XLII .
ومن العبارات ذات الدلالة في هذا السياق قول المؤرخ :
" إن السلام الذي كانت تتوق إليه النفوس في زمن الشدة والعسر أثبت – بعد الحصول عليه – أنه أكثر قسوةً ومرارةً من الشدة نفسها . فلقد بدأ النبلاء يسـيئون استغـلال مناصبهم الشرفية وبدأ العامة يسيئون استغلال حريتهم وأصبح كل شخص يسرق ويدمر وينهـب من أجـل مصالحه الشـخصية . وهكذا انقسـم المجتمع إلى حزبين تمزقت الجمهورية بينهما إرباً "

Ita quod in advorsis rebus optaverant otium postquam adepti sunt , asperius acerbiusque fuit . Namque coepere nobilitas dignitatem , populus liberatem in lubidinem vortere , ibi quisque

ducere , trahere , rapere . Ita omina in duas partis abstracta sunt , res publica , quae media fuerat , dilacerata . (XLI - 4 - 5 .)

(7) VIII . 1 : " Romae omnia venalia esse " .

" كل شيء في روما قابل للبيع " ، وهي عبارة تكررت بعد ذلك أكثر من مرة في هذا المصدر : مرة حين استقبل يوجورثا لجنة المبعوثين العشرة من السناتو التي قامت بتقسيم المملكة بينه وبين أدهربال بعد مقتل هيمبسال واستقطب معظمهم لصفه بالرشاوى والهدايا والوعود فجاملوه وأعطوه الجزء الغربي من المملكة وهو الجزء الأكثر خصوبة والمأهول بالسكان ثم غادروا المملكة وحينها اقتنع يوجورثا بصدق هذه المقولة (XXI . 1) ، وفي المرة الثانية قال يوجورثا عبارته الشهيرة " هناك مدينة معروضة للبيع ومقدر لها الدمار السريع لو أن هناك مشتري " والتي قالها وهو يغادر مدينة روما حين استدعي إليها ومنح الأمان سنة ١١١ ق.م. وهناك تآمر وقتل أحد من لهم الحق في تولي العرش في روما (XXXV . 10) .

VIII . 2 " ut potius publice quam privatim amicitiam populi Romani coleret neu quibus largiri insuesceret ; periculose a paucis emi , quod multorum esse " .

(8) XIII . 6 :

Itaque paucis diebus cum auro et argento multo Romam legatos mittit , quis praecipit , primum uti veteres amicos muneribus expleant , deinde novos adquirant , postremo quae cumque possint largiundo parare ne cunctentur .

(9) XVI . 1 - 2 :

Vicit tamen in senatu pars illa , quae vero pretium aut gratiam anteferebat . Decretum fit uti decem legati regnum , quod Micipsa optinuerat , inter Iugurtham et Adherbalem dividerent .

(10) Ibid . 3 - 5 .

(11) XX - XXVI .

(12) XXVII .

(13) XV . 4 :

Aemilius Scaurus , homo nobilis , impiger , factiosus , avidus potentiae , honoris , divitarum , ceterum vitia sua callide occultans .

" أيميليوس سكاوروس ، أحد النبلاء وهو يتسم بالحيوية والروح الحزبية والتطلع النهم إلى السلطة والجاه والثروة ، ولديه مقدرة مؤكدة على إخفاء عيوبه ومثالبه بمهارة ودهاء "

XXVII . 5 :

Nam in consule nostro multae bonaeqaue artes animi et corporis erant , quas omnis avaritia praepediebat ; patiens laborum , acri ingenio , satis providens , belli haud ignarus , firmissumus contra pericula et insidias .

" ورغم أن قنصلنا (بستيا) كان يتمتع بخصال كثيرة ممتازة عقليا وجسديا إلا أن جشعه وحبه للثروات طمسـها جميعاً . لقد كان ذا قـدرة فائقة على الاحتمال وذهن حاد وبصيرة كافيـة وخبـرة ودرايـة بالحرب ورباطة جأش فائقة ضد المخاطر والمؤامرات " .

(14) XXIX .

(15) Ibid . (XXIX) . 1 :

Sed ubi Iugurtha per legatos pecunia temptare bellique quod administrabat asperitatem ostendere coepit , animus aeger avaritia facile convorsus est .

ولكن عندما حاول يوجورثا أن يجرب – من خلال مبعوثيه – تأثير المال (على القنصل بستيا) وأوضح له مشقة وصعوبة الحرب التي يزمع خوضها انصرف تفكير القنصل – الذي أفسده حب الثروة – عن هدفه بسهولة .

- 29 . 2 - 3 :

Scaurus , qui tametsi a principio , plerisque ex factione eius corruptis , acerrume regem impugnaverat , tamen magnitudine pecuniae a bono honestoque in pravom abstractus est .

أما سكاوروس فعلى الرغم من معارضته العنيفة للملك من قبل حتى بعد أن طال الفساد والإغواء أغلبية رجال حزبه فقد تحوّل من الفضيلة والشرف إلى شخص منحرف بمبلغ ضخم من المال .

- 29 . 5 :

reliqua cum Bestia et Scauro secreta transigit .

" أما بقية الأمور فقد دبرها (يوجورثا) سراً مع بستيا وسكاوروس .

(16) XXX - XXXII . 1 .

(17) XXXIII ; 2 :

.... , C. Baebium tribunum plebis magna mercede parat , cuius impudentia contra ius et iniurias omnis munitus foret .

واستمال جايوس بايبيوس تريبون العامة برشـوة ضخمة حتى يحتمي من خلال وقاحته ضد القانون وضد أي إهانات أو عنف شخصي .

(18) XXXIII - XXXIV .

(19) XXXV .

(20) XXXVI - XXXIX .
(21) XXXVIII . 3 :

Interea per homines callidos diu noctuque exercitum temptabat , centuriones ducesque turmarum partim uti transfugerent corrumpere , alii signo dato locum uti desererent .

(22) XXXI . 12 - 13 ; XXXII . 4 ; XLIII . 5 .

At qui sunt ei , qui rem publicam occupavere ? Homines sceleratissumi , cruentis manibus , immani avaritia , nocentissumi et eidem superbissumi , quibus fides , decus , pietas , postremo honesta atque inhonesta omnia quaestui sunt . (XXXI . 12 - 13) .

من خطبة للتريبون جايوس ميميوس في أعقاب عودة القنصل بستيا من نوميديا :

" ولكن من هم أولئك الذين يمسكون بزمام الحكم في بلدنا ؟ إنهم أناس عتاة في الشر وأيديهم مخضبة بالدماء وذوو جشع هائل وعتاة في الإجرام ، ورغم ذلك فهم في غاية الصلف والغرور ، وبالنسبة لهم فإن الشرف (الأمانة) والفضيلة والولاء وكل شيء شريف وغير شريف هو مصدر للكسب " .

- tanta vis avaritiae in animos eorum veluti tabes invaserat

لقد كان حب المال الذي اجتاح نفوسهم جارفا كالوباء

- et avaritia magistratuum ante id tempus in Nomidia nostrae opes contusae hostiumque auctae erant .

إن حظوظنا في نوميديا قد تحطمت قبل هذا التاريخ (قبل إرسال ميتيللوس) زادت حظوظ عدونا من جراء جشع أصحاب المناصب (الرومان) وحبهم للثروات .

(23) من قصص التراث الروماني الشهيرة في هذا الخصوص القصة الخاصة بمعلم الأطفال في إحدى المدن الإترورية أثناء قتال روما ضد هذه المدينة في القرن الرابع ق.م. (بعد غزو الغالة لروما ٣٩٠ ق.م.) ، إذ جاء هذا المعلم من هذه المدينة بالأطفال الذين يدرس لهم من أبناء كبار المدينة ليكونوا رهائن في أيدي الرومان حتى تستسلم المدينة ، وكان يطمع في مكافأة سخية من الرومان . لكن الرومان بدلاً من ذلك أعادوا الأطفال إلى ذويهم وعاقبوا المعلم الخائن . ومن القصص الأخرى قصة طبيب الملك بيروس ملك ابيروس الذي عرض على القنصل الروماني فابريكيوس لوسكينوس سنة ٢٧٨ أن يدس السم للملك بيروس ويخلص روما منه ، لكن القنصل رفض العرض وأعاد الطبيب الخائن وسلمه لبيروس .

(24) XI . 3 :

Sed Hiempsal , qui minumus ex illis erat , natura ferox et iam antea igonbilitatem Iugurthae , quia materno genere impar erat , despiciens .

لقد كان هيمبسال – أصغر هؤلاء الشركاء – متغطرسا بطبيعته ، وكان قد أبـــدى من قبل احتقاره ليوجورثا بسبب نسبه الوضيع من جهة الأم ، حيث لم يكن ندا له .

(أنظر كذلك 9 - 5 . XI)

(25) XII .

(26) XIV . 18 :

Postremo Masinissa nos ita instituit patres conscripti , nequem coleremus nisi populum Romanum , ne societates , ne foedera nova acciperemus : abunde magna praesidia nobis in vostra amicitia fore ; si huic imperio fortuna mutaretur , una occidundum nobis esse .

(27) Ibid . 1 :

" Patres conscripti , Micipsa pater meus moriens mihi praecepit , ut regni Numidiae tantum modo procurationem existumarem meam , ceterum ius et imperium eius penes vos esse ; simul eniterer domi militiaeque quam maxumo usui esse populo Romano , vos mihi cognatorum , vos adfinium loco ducerem : si ea fecissem , in vostra amicitia exercitum , divitias , munimenta regni me habiturum .

(28) Ibid ., 25 :

nolite pati regnum Numidiae , quod vostrum est , per scelus et sanguinem familiae nostrae tabescere .

(29) XLIX . 2 :

monet atque obtestatur uti memores pristinae virtutis et victoriae sese regnumque suum ab Romanorum avaritia defendant .

(30) LXXXI . 1 :

يقول يوجورثا وهو يحرّض حليفه الملك بوخوس ملك موريتانيا على الرومان :

Romanos iniutos , profunda avaritia communis omnium hostis esse ; eandem illos causam belli cum Boccho habere , quam secum et cum aliis gentibus , lubidinem imperitandi , quis omnia regna advorsa sint . Tum sese , paulo ante Carthaginiensis , item regem Persen , post uti quisque opulentissumus videatur , ita Romanis hostem fore .

" إن الرومان ظالمــون وأطماعــهم لا تقف عند حد وهم يناصــبون كل الناس العداء ودافعهم لشن الحرب على بوخوس هــو نفس دافــعهم لشن الحرب على أنفسهم وعلى الأمم الأخرى ألا وهو شهوة السيطرة والكراهيــة والخصومة لكافة الممالك . فعدوهم

الحالي هو يوجورثا وقبل قليل كان القرطاجيون والملك بيرسيوس ، وبعد ذلك يتخذون عدواً لهم من يعتقدون بأنه أقوى الأقوياء "

(31) XV . 1 :

Iegati Iugurthae ...... paucis respondent . Hiempsalem ob saevitiam suam ab Numidis interfectum , Adherbalem ultro bellum inferentem , postquam superatus sit , queri quod iniuriam facere nequivisset ; Iugurtham ab senatu petere ne se alium putarent ac Numantiae cognitus esset , neu verba inimici anta sua poneret .

(32) Ibid . 2 - 3 :

Fautores legatorum , praeterea senatus magna pars gratia depravata Adherbalis dicta contamnere , Iugurthae virtutem extollere laudibus ; gratia , voce , denique omnibus modis alieno scelere et flagitio sua quasi pro gloria nitebantur .

(33) XXII . 2 - 5 :

Quorum Iugurtha accepta oratione respondit sibi neque maius quicquam neque carius auctoritate senatus esse ; ab adulescentia ita se enisum ut ab optumo quoque probaretur ; virtute , non malitia P. Scipioni summo viro placuisse ; ob easdem artis a Micipsa , non penuria liberorum in regnum adoptatum esse . Ceterum quo plura bene atque strenue fecisset , eo animum suum iniuriam minus tolerare . Adherbalem dolis vitae suae insidiatum ; quod ubi comperisset , sceleri eius obviam isse . Populum Romanum neque recte neque pro bono facturum , si ab iure gentium sese prohibuerit . Postremo de omnibus rebus legatos Romam brevi missurum . Ita utrique digrediuntur . Adherbalis appellandi copia non fuit .

(34) XXIII - XXVI .

(35) XXXIII . 1 :

Igitur Iugurtha contra decus regium cultu quam maxume miserabili cum Cassio Romam venit .

(36) XXXVI . 2 :

At contra Iugurtha trahere omnia et alias deinde alias morae causas facere , polliceri deditionem ac deinde metum simulare , cedere instanti et paulo post , ne sui diffiderent , instare ; ita belli modo , modo pacis mora consulem ludificare .

(37) XXXVII - XXXVIII :

- At Iugurtha , cognita vanitate atque imperitia legati , subdole eius augere amentiam , missitare supplicantis legatos , ipse quasi vitabundus per saltuosa loca et tramites exercitum ductare .

Denique Aulum spe pactionis perpulit, uti relicto Suthule in abditas regiones sese veluti cedentem insequeretur. (38. 1 - 2)

- Intempesta nocte de improviso multitudine Numidarum Auli castra circumvenit ....

Vis magna hostium, caelum nocte atque nubibus obscuratum, periculum anceps, postremo fugere an manere tutius foret, in incerto erat.

Nostri foeda fuga, plerique abiectis armis, proxomum collem occupaverunt. Nox atque praeda castrorum hostis quo minus victoria uterentur remorata sunt. (38 . 4 - 8)

Tametsi ipsum cum exercitu fame et ferro clausum teneret, tamen se memorem humanarum rerum, si secum foedus faceret, incolumis omnis sub iugum missurum. Praeterea uti diebus decem Numidia decederet. Quae quamquam gravia et flagiti plena erant, tamen quia mortis metu mutabantur, sicuti regi lubuerat pax convenit. (38 . 9 - 10)

(38) XLIII . 1 , 3 - 4 :

Metelloque Numidia evenerat, acri viro et quamquam advorso populi partium, fama tamen aequabili et inviolata.

وقد آلت نوميديا إلى ميتيللوس وهو رجل ذو همة ورغم أنه كان مناوئاً للحزب الشعبي فإن سمعته كانت دوما فوق الشبهات .

denique omnia, quae in bello vario et multarum rerum egenti usui esse solent. Ceterum ad ea patranda senatus auctoritate, socii nomenque Latinum et reges ultro auxilia mittundo, postremo omnis civitas summo studio adnitebatur.

وباختصار فقد أعد كل ما رآه ذا جدوى بالنسبة لحرب ذات طابع متغير وتحتاج لإمدادات كبيرة . وبالإضافة إلى هذه فإن السناتو آزره بسلطته كما سانده المدن اللاتينية والملوك بإرسال مدد إضافي ، لقد أبدت الدولة بأسرها أقصى درجات الحماس .

(39) XLVI . 8 :

Nam in Iugurtha tantus dolus tantaque peritia locorum et et militiae erat, ut absens an praesens, pacem an bellum gerens perniciosior esset, in incerto haberetur.

(40) XLVIII - L .

- عن الشحن المعنوي من يوجورثا لجنوده وقواته أنظر : XLIX . 2 - 4 .

- عن النصائح والخطط القتالية من يوجورثا لقواته وتنفيذ هذه الأوامر أنظر : L . 3 - 5 .

Dein repente signo dato hostis invadit . Numidae alii postremos caedere , pars a sinistra ac dextra temptare , infensi adesse atque instare , omnibus locis Romanorum ordines conturbare .

وفجأة أعطى الإشارة لقواته بشن الهجوم ، وقام بعض النوميديين بمهاجمة خلفية الجيش الروماني وهاجم جــزء منهم الميسرة والميمنة وضغطــوا عليهم بضراوة وثبات فأثاروا الارتباك في كافة الصفوف والمواقع الرومانية .

ante iam docti ab Iugurtha equites , ubi Romanorum turma insequi coeperat , non confertim neque in unum sese recipiebant , sed alius alio quam maxume divorsi .

وحسب تعليمات يوجورثا لهم من قبـل فإن الفرسان النوميديين حين كانت ســرية من الرومان تبدأ في الهجوم عليهم كانوا يرتــدّون فرادى وفي اتجاهات متفرقة وينتشرون في أوسع مسافة ممكنة .

(41) LI . 1 :

Ceterum facies totius negoti varia , incerta , foeda atque miserabilis . Dispersi a suis pars cedere , alii insequi , neque signa neque ordines observare , ubi quemque periculum ceperat ibi resistere ac propulsare , arma tela , equi viri , hostes atque cives permixti , nihil consilio neque imperio agi , fors omnia regere .

وهكذا فإن الأمر برمته أصبح مرتبكا يغلب عليه الشك وشائنا وبائساً . إذ تفرق البعض عن رفاقهم وولى بعضهم الأدبــار وهاجــم البعض الآخــر ولم يكن باستطاعتهم متابعة راياتهم أو صفوفهم ، وإنما حين كان الخطر يحدق بأحدهــم كان يثبت مكانه ويدافع عن نفسه . وهكذا اختلطت الأسلحة كما اختلطت الخيــول بالناس والأعــداء بالمواطــنين ، ولم تعد هناك فرصة لنصيحة أو قيادة وإنما تحكم الحظ في كل شيء .

(42) LIV . 1 :

hortatur ad cetera , quae levia sunt , parem animum gerant ; pro victoria satis iam pugnatum , reliquos labores pro praeda fore .

وحثهم (حث ميتيللوس جنده) على الاستمساك بشجاعتهم لإنجاز المهام اليسيرة الأخرى المتبقية وأن قتالهم من أجل النصــر قد وصل إلى نهايتــه ، أما بقية جهودهم فسوف تتركز على الغنائم والأسلاب .

(43) Ibid . 5 - 6 .

(44) Ibid . 9 - 10 :

ipse cum delectis equitibus Metellum sequitur , nocturnis et aviis itineribus ignoratus Romanos palantis repente aggreditur . Eorum plerique inermes cadunt , multi capiuntur , nemo omnium intactum

profugit , et Numidae , prius quam ex castris subveniretur , sicuti iussi erant , in proxumos collis discedunt .

وقد قام هو بنفسه (يوجورثا) مع صفوة منتقاة من فرسانه بتعقب ميتيللوس وهاجم الجند الرومان المتسكعين بغتة أثناء الليل عبر دروب غير معروفة فسقط كثير منهم وهم غير مسلحين وأسر كثيرين ولم يفلت منهم واحد من غير أذى . أما النوميديون فقد تفرقوا في التلال القريبة – كما أمروا – من قبل أن يأتي مدد من المعسكر الروماني .

(45) LV . 4 :

neque post insidias Iugurthae effuso exercitu praedari ; ubi frumento aut pabulo opus erat , cohortes cum omni equitatu praesidium agitabant ; exercitus partem ipse , reliquos Marius ducebat .

وبعد كمين يوجورثا لم يعد (ميتيللوس) ينهب البلاد بجيشه بغير نظام ، وفي وقت الحاجة إلى الحبوب أو الأعلاف كانت السرايا تقوم بمهمة الحراسة ومعها كافة الفرسان ، وكان هو يقود جزءا من الجيش ويتولى ماريوس قيادة الباقين .

(46) Ibid ., 8 :

Eo tempore Iugurtha per collis sequi , tempus aut locum pugnae quaerere , qua venturum hostem audierat , pabulum et aquarum fontis , quorum penuria erat , corrumpere , modo se Metello , interdum Mario ostendere , postremos in agmine temptare ac statim in collis regredi , rursus aliis , post aliis minitari , neque proelium facere neque otium pati , tantum modo hostem ab incepto retinere .

وفي ذلك الوقت كان يوجورثا يشق طريقه عبر التلال يرقب الموقف لتحديد زمان ومكان القتال ويقوم بتسميم الأعلاف وعيون الماء القليلة التي كان يسمع أن الأعداء سيأتون إليها . ثم يظهر لميتيللوس تارة ولماريوس تارة أخرى ويقوم بمحاولة هجومية على مؤخرة الجيش ثم يتقهقر إلى الجبال فورا ويشكل تهديدا لهؤلاء مرة أخرى وبعدها يهدد الآخرين . فلا هو اشتبك في معركة ولا هو خلد إلى الراحة وإنما أعاق أعداءه عن محاولتهم .

(47) LIV . 9 :

Tamen ex copia quod optumum videbatur consilium capit ,

ومع ذلك فقد كان يتبنى أفضل خطة يراها الأنسب حسب الفرصة المتاحة .

(48) LVI . 1 - 3 :

Iugurtham laborantibus suis auxilio venturum ibique proelium fore .

...... "وأن يوجورثا سوف يأتي لمساعدة رعاياه في محنتهم . وهناك تقع المعركة "

Oppidanos hortatur moenia defendant .... Praeterea pollicetur in tempore semet cum exercitu adfore . Ita compositis rebus , in loca quam maxume occulta discedit ,

وحث (يوجورثا) أهل المدينة على الدفاع عن أسوارهم .... ثم وعدهم أن يأتي بنفسه ومعه جيشه إليـــهم في الوقت المناسب . وبعد أن أجرى هذه الترتيبات انسحب إلـــى أماكن قصية وسرية للغاية .

(49) LVII - LX .

(50) LXI . 1 :

Metellus postquam videt frustra inceptum , neque oppidum capi neque Iugurtham nisi ex insidiis aut suo loco pugnam facere et iam aestatem exactam esse , ab Zama discedit ....

وبعد أن رأي ميتيللوس عبث محاولـــته حيث لم يتم الاســتيلاء على المدينة كما أن يوجورثا لم يلتحم في قتال معهم إلا من خلال الكمائن أو من على أرضه هو (من الموقع الذي يحدده هو) كما أن الصيف كان على الأبواب ، انسحب من زاما .

(51) LVIII . 1 - 3 :

Dum apud Zamam sic certatur , Iugurtha ex improviso castra hostium cum magna manu invadit , ... portam irrumpit . At nostri repentino metu perculsi sibi quisque pro moribus consulunt ; alii fugere , alii arma capere , magna pars volnerati aut occisi . Ceterum ex omni multitudine non amplius quadraginta memores nominis Romani ,

(52) Ibid ., 5 :

Igitur equitatum omnem ad castra propere misit ac statim C. Marium cum cohortibus sociorum , eumque lacrumans per amicitiam perque rem publicam obsecrat nequam contumeliam remanere in exercitu victore neve hostis inultos abire sinat .

(53) LIX :

2 - Interim Iugurtha ex occulto repente nostros invadit . Qui in proxumo locati fuerant , paulisper territi perturbantur , reliqui cito subveniunt .

3 - sed advorsis equis concurrere , implicare ac perturbare aciem ; ita expeditis peditibus suis hostis paene victos dare .

(54) LXVI - LXVII .

(55) LXVIII - LXIX .

(56) LXXV - LXXVI .

(57) LXXX . 1 - 3 :

Iugurtha postquam amisse Thala nihil satis firmum contra Metellum putat , per magnas solitudines cum paucis profectus , pervenit ad Gaetulos , genus hominum ferum incultumque et eo tempore ignarum nominis Romani . Eorum multitudinem in unum cogit ac paulatim consuefacit ordines habere , signa sequi , imperium observare , item alia militaria facere . Praeterea regis Bocchi proxumos magnis muneribus et maioribus promissis ad studium sui perducit , quis adiutoribus regem aggressus , impellit uti advorsus Romanos bellum incipiat .

وبعد أن فقد يوجورثا مدينة ثالا اعتقد بأنه ليس هناك من شيء يقف في وجه ميتيللوس فسار مع قلة من أتباعه في الصحاري الشاسعة حتى وصل إلى الجايتوليين وهم شعب بدائي غير متحضر لم يكن قد سمع حتى ذلك الحين باسم روما . وقام يوجورثا بجمع شتاتهم في مكان واحد وعودهم تدريجيا على الانتظام في صفوف والانضواء تحت رايات وطاعة الأوامر وتأدية المهام العسكرية الأخرى . ثم اكتسب واستمال إليه أقرب معاوني الملك بوخوس بالهدايا الفخمة والوعود الكبيرة ، ومن خلال مساعدتهم استطاع التقرب من الملك وأغراه بأن يشن الحرب ضد الرومان .

(58) XCVII .

4 - 5 : et priusquam exercitus aut instrui aut sarcinas colligere , denique antequam signum aut imperium ullum accipere quivit , equites Mauri atque Gaetuli , non acie neque ullo more proeli sed catervatim , uti quosque fors conglobaverat , in nostros , incurrunt .

Qui omnes trepidi improviso metu ac tamen virtutis memores aut arma capiebant .

وقبل أن ينتظم الجيش أو تعبأ الإمدادات وقبل أن تصدر أية إشارة أو أمر باغت الفرسان الموريتانيون والجايتوليون رجالنا ليس في هيئة صفوف أو أي خطة لمعركة بل في جماعات وأسراب حسبما اتفق .

وقد حلّ الارتباك بكافة رجالنا وتملكهم الذعر من هول المفاجأة ومع ذلك تذكروا شجاعتهم وتناولوا أسلحتهم .

(59) XCVIII - XCIX .

98 . 6 : Dein , crebris ignibus factis , plerumque noctis barbari more suo laetari , exultare , strepere vocibus et ipsi ducos feroces , quia non fugerant , pro victoribus agere .

وبعد أن أشعل البرابرة حرائق عديدة قضوا معظم الليل – كما هي عادتهم – في

الابتهاج والجذل الصاخب ، بل وحتى قادتهم الذين تملكهم الفخر والثقة لأنهم لم يجبروا على الفرار تصرفوا تصرف المنتصرين .

- Deinde , ubi lux adventabat , defessis iam hostibus ac paulo ante somno captis , de improviso vigiles , item cohortium , turmarum , legionum tubicines simul omnis signa canere , milites clamorem tollere atque portis erumpere iubet . (XCIX . 1)

ثم حين اقترب النهار وحل الإرهاق بالأعداء أخيرا وخلدوا لتوهم للنوم أمر (ماريوس) بصورة مفاجئة أن يقوم الحراس ونافخوا الأبواق في الكتائب وسـرايا الفرسان والفرق بإصدار الإشارة بصوت عال وأن يرفع الجند صيحاتهم ويندفعوا نحو بوابات المعسكر.

- Denique omnes fusi fugatique arma et signa militaria pleraque capta , (99 - 3)

وأخيرا فإن الأعداء هزموا هزيمة نكراء وأجـبروا على الفرار وتم الاستيلاء على قدر كبير من أسحلتهم وراياتهم الحربية .

(60) CI . 6 - 7 :

Dein Numida cognito Bocchi adventu clam cum paucis ad pedites convortit . Ibi Latine - nam apud Numantiam loqui didicerat - exclamat nostros frustra pugnare , paulo ante Marium sua manu interfectum . Simul gladium sanguine oblitum ostendere ,

...... Quod ubi milites accepere , magis atrocitate rei quam fide nuntii terrentur , simulque barbari animos tollere et in perculsos Romanos acrius incedere .

ثم حين علم النوميدي (يقصد الملك يوجورثا) بوصول بوخوس اتخذ طريقه سرا مع قلة من أتباعه باتجاه مشاة الملك (بوخوس) . وهناك صـاح باللاتينية – التي تعلم الحديث بها وهو في نومانتيا – أن رجالنا يحاربون بلا جـدوى إذ سـبق له قبـل قليل أن قتل ماريوس بيده . وأبرز سيفا مخضبا بالدماء ...... وحين سمع جنودنا ذلك تملكهم الرعب ليس لأنهم صـدقوا هـذا القول بل بالأحرى لبشاعة الأمر ، وفي الوقت ذاتـه ارتفعت معنويات البرابرة وشنوا هجوما أكثر ضراوة على الرومان المحبطين .

(61) XLVI . 3 - 4 :

Sed Metello iam antea experimentis cognitum erat genus Numidarum infidum , ingenio mobili , novarum rerum avidum esse . Itaque legatos alium ab alio divorsos aggreditur ac paulatim temptando , postquam opportunos sibi cognovit , multa pollicendo persuadet , uti Iugurtham maxume vivom , sin id parum procedat , necatum sibi traderent .

(62) LXI . 4 - 5 :

quod ei per maxumam amicitiam maxuma copia fallundi erat , multis pollicitationibus aggreditur . Ac primo efficit uti ad se colloquendi , gratia occultus veniat , deinde fide data , si Iugurtham vivom aut necatum sibi tradidisset , fere ut illi senatus impunitatem et sua omnia concederet , facile Numidae persuadet cum ingenio infido tum metuenti ne , si pax cum Romanis fieret , ipse per condiciones ad supplicium traderetur .

(63) LXX - LXXI .

(64) LXXII .

1 - Bomilcare aliisque multis , quos socios insidiarum cognoverat , interfectis iram oppresserat , nequa ex eo negotio seditio oreretur .

وبعد إعدام بوميلكار وآخرين كثيرين ممن أثبت تورطهم في المؤامرة كظم غضبه حتى لا يثور تمرد من جراء هذا الأمر .

2 - Neque post id locorum Iugurthae dies aut nox ulla quieta fuit ; neque loco neque mortali cuiquam aut tempori satis credere , civis hostisque iuxta metuere , circumspectare omnia et omni strepitu pavescere , alio atque alio loco saepe contra decus regium nocta requiescere , interdum somno excitus arreptis armis tumultum facere , ita formidine quasi vecordia exagitari .

(65) LXXIV - LXXVI .

(66) CII .

(67) CVIII - CIX .

- Postquam sicuti voluerat congressi , dicit se missum a consule venisse qauaesitum ab eo pacem an bellum agitaturus foret . Tum rex , uti praeceptum fuerat , post diem decumum redire iubet : ac nihil etiam nunc decrevisse , sed illo die responsurum . Deinde ambo in sua castra digressi . Sed ubi plerumque noctis processit , Sulla a Boccho occulte accersitur ; ab utroque tantum modo fidi interpretes adhibentur .

(68) CX .

من أقوال بوخوس لسوللا في هذه المناسبة :

- denique nihil me sciente frustra voles

باختصار فسوف لن أرد لك رغبة طالما كنت على علم بها .

- gerite quod voltis cum Iugurtha bellum . Ego flumen Muluccham , quod inter me et Micipsam fuit , non egrediar neque id intrare Iugurtham sinam .

- شنوا ما تشاءون من حــرب على يوجورثا . ولن أسمح لنفسي ولا ليوجورثا بعبور نهر مولوخا الذي كان يفصل بين حدودي وحدود مكيبسا .

(69) CXI :

1 - Faciundum aliquid , quod illorum magis quam sua retulisse videretur ; id adeo in promptu esse , quoniam copiam Iugurthae haberet . Quem si Romanis tradidisset , fore ut illi plurumum deberetur ; amicitiam , foedus , Numidiae partem quam nunc peteret , tum ultro adventuram .

2 - Rex primo negitare ; cognationem , affinitatem , praeterea foedus intervenisse .

3 - Denique saepius fatigatus lenitur et ex voluntate Sullae omnia se facturum promittit .

١ - إذ لا بد أن يفعل شيئا مختلفا يكون في مصلحتهم (الرومان) أكثر مما يصيب في مصلحته هو (بوخوس) وذلك أمـــر في متناوله لأنه يستطيع السيطرة على يوجورثا . فإذا ما سـلم يوجورثا للرومـان فسـيكونون مدينين له بشدة وسوف يحظى بالصداقة والمعاهدة وجزءا من نوميديا وهو ما يصبو إليه الآن .

٢ - وقد رفـض الملك في أول الأمر قائـلا بأن علاقته وقرابته وكذلك معاهدته (مع يوجورثا) تحول دون ذلك .

٣ - وأخيرا وبعد قدر كبير من الجهد أذعن لمشيئة سوللا ووعد بتنفيذ كل ما يرغبه .

(70) CXII - CXIII .

Deinde ubi dies advenit et ei nuntiatum est Iugurtham haud procul abesse , cum paucis amicis et quaestore nostro quasi obvius honoris causa procedit in tumulum facillumum visu insidiantibus . Eodem Numida cum plerisque necessariis suis inermis , uti dictum erat , accedit ac statim signo dato undi que simul ex insidiis invaditur . Ceteri obtruncati , Iugurtha Sullae vinctus traditur et ab eo ad Marium deductus est .

وحين أشرق النهار ونما إلى علمه (الملك بوخــوس) أن يوجورثا كان على مقربة تقدم ومعه قلة من الأصدقاء والكويستور سـوللا إلى تلة عالية واضحــة وعلــى مرأى من المختبئين في الكمين ، وكما (لو كان ذهابهم إليه) بمثابــة تكريم له (ليوجورثا) . وقد أتي النوميدي (يوجورثا) إلى نفس المكان مع جماعة من رفاقه وهم عزل من السلاح - حسب الاتفاق ، وفي الحال أُعطيت إشارة للمختبئين فاندفعوا من كل اتجاه على الفور . وقتل بقيــة رفاقــه أما يوجورثا فتمت السيطرة عليه وتسليمه إلى سوللا الذي أخذه إلى

ماريوس .

(71) LVI .

3 - quod oppidum primum omnium post malam pugnam ab rege defecerat .

5 - Ac ni Marius signa inferre atque evadere oppido properavisset , profecto cuncti aut magna pars Siccensium fidem mutavissent ; tanta mobilitate sese Numidae gerunt .

(72) أنظر على سبيل المثال :

XLVI . 3 , 6 ; LXVI . 2 ; XC 1 - 7 .

Nam volgus , uti plerumque solet et maxume Numidarum , ingenio mobili seditiosum atque discordiosum erat , cupidum novarum rerum , quieti et odio advorsum . (LXVI . 2)

يتحدث المؤرخ هنا عن أهل مدينة (ثاجا) الذي دبروا مؤامرة ومذبحة لرجال الحامية الرومانية في المدينة فيقول " أما العوام فقد جرت العادة بينهم مثل معظم النوميديين على تقلب المزاج والتمرد والفوضى والرغبة في التغيير وكانوا يكرهون الهدوء والسكينة " .

(73) LXVI . 2 - 4 .

(74) LXII .

(75) XXIX . 4 - 6 ; XXXVI . 2 ; XLVI . 2 ; XLVII . 3 .

(76) LII . 2 , 4 :

2 - Nam Metello virtus militum erat , locus advorsus , Iugurthae alia omnia praeter milites opportuna .

4 - Amisso loco Numidae fusi fugatique . Pauci interiere , plerosque velocitas et regio hostibus ignara tutata sunt .

(77) أنظر هامش رقم (40)

(78) XCI . 7 :

Id facinus contra ius belli non avaritia neque scelere consulis admissum , sed quia locus Iugurthae opportunus , nobis aditu difficilis , genus hominum mobile , infidum , ante ....

الراهب الفرنسيسكانى ريموند لول

ومحاولاته نشر النصرانية فى شمال إفريقية

د. علي بن محمد عوده الغامدي(*)

قبل الحديث عن ريموند لول Raymund Lull يجدر أن نشير باختصار إلى أن حركة التنصير الأوربية التى هدفت إلى تحويل المسلمين إلى النصرانية نشأت فى أحضان الحروب الصليبية وانبثقت عنها . فعندما نتتبع تاريخ الحركة الصليبية منذ الحملة الأولى وحتى أواخر القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى ، لا نجد محاولات واضحة لتنصير المسلمين ، فقد كان الجهد موجهًا لمحاربة المسلمين .

وفى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجرى/أواخر القرن الثانى عشر وأوائل القرن الثالث عشر الميلادى قامت فى أوربا حركة إصلاح دينى تسمى حركة الإحياء الإنجيلى ، بدأها فرنسيس الأسيسى ودومنيك القشتالى وذلك زمن البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦ م) وكان البابا أنوسنت الثالث Innocent فى ٨ يونية ١١٩٨م قد اختير ليتولى عرش البابوية وهو فى السابعة والثلاثين من عمره(١) وكان صاحب خبرة واسعة فى القوانين الكنسية ، شديد الاعتزاز بكنيسة روما الكاثوليكية ، وقد داعب خياله حلم السيادة على العالم ، وتحقق فى عهده حلم البابوية بإخضاع كنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية عن طريق الحملة الصليبية الرابعة ، كما نجح فى إثارة أوربا النصرانية للقيام بحرب صليبية شاملة ضد دولة الموحدين فى الأندلس ، فهبت الجيوش من سائر أرجاء أوربا لمساعدة ملك قشتالة الفونس الثامن، وأنزل الصليبيون الهزيمة الساحقة بالموحدين فى معركة العقاب سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م وهى المعركة التى قررت مصير الوجود الإسلامى فى الأندلس(٢) .

(*) أستاذ مشارك بجامعة أم القرى - مكة المكرمة .

كذلك استطاع البابا أنوسنت الثالث أن يُخضع فرنسا وإنجلترا لنفوذه بعد أن أوقع قرار الحرمان بملكيهما ، وحصل على الاعتراف من ملوك إنجلترا واراجون والبرتغال بأنهم يتولون مناصبهم كمنحة إقطاعية من البابوية . وتمكن من طرد الألمان من وسط إيطاليا وصقلية ، وأصبح يعين الأباطرة ويعزلهم وفق شروط الكنيسة الكاثوليكية(٣) .

والبابا أنوسنت الثالث ، هو الذى تمكن من القضاء على الحركة الألبيجنسية أو الكاثرية ، التى عجز الأباطرة والبابوات عن إخمادها . والحركة الألبيجنسية حركة هرطقية قامت فى أوائل القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، وجاءت ردًا على إنغماس الكنيسة الكاثوليكية ، ورجال الدين فى المفاسد والانحراف الخلقى الذى لم تخرج منه إلا بعد نجاح حركة الإصلاح الكلونية . غير أن الحركة الألبيجنسية استمرت قائمة حتى تم القضاء عليها زمن البابا أنوسنت الثالث ، وقد نُسبت هذه الحركة إلى مدينة البى Albi فى جنوب فرنسا حيث انتشرت منها إلى سائر مدن الجنوب الفرنسى ، ويسمى أنصار وأتباع هذه الحركة باسم الكاثريين أى المتطهرين حيث نادى أتباعها بالتطهر والتخلص من الشر والخطايا بنبذ الحياة الدنيا ، فحرموا على أنفسهم الزواج والتملك وأكل لحوم الحيوان ، وحرموا سفك الدماء مهما كانت الأسباب . وأضحوا يعتقدون أن تهذيب النفس بالزهد والتقشف يرقى بها إلى أعلى عليين ، فإذا ما ماتت الأنفس استحالت - على حد قول الألبيجنسيين - إلى أجسام روحانية تصعد فى ملكوت السموات دون توقف أو حساب(٤) .

وقد هددت تلك الحركة الكنيسة الكاثوليكية تهديدًا خطيرًا نظرًا لأنه أصبح فى مقدور أتباعها بزهدهم وتقشفهم التغلب على رجال الكنيسة الذين أفسدتهم عندئذ نعومة الحياة . وأطلقت الكنيسة عليهم اسم الهراطقة وحاربتهم بكل الوسائل ، حتى أنها جردت ضدهم حملة صليبية تعرف فى كتب التاريخ الأوربى بالحملة الصليبية الألبيجنسية . وقد دعا إلى تلك الحرب الصليبية ضد الألبيجنسيين البابا أنوسنت الثالث فى مارس سنة ١٢٠٥م(٥) . واستمرت تلك الحرب ضد

الألبيجنسيين زهاء إحدى عشرة سنة حتى قضت عليهم سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م ولم يكن بالإمكان التغلب على أولئك الكاثريين المتقشفين بقوة السيف وحده ، وإنما بالقوة المعنوية التى تزودت بها الكنيسة بعد أن أنضوت تحت لوائها جماعات الرهبان الفرنسيسكان والدومينكان(٦) .

ومنذ أوائل القرن السابع الهجرى / أوائل القرن الثالث عشر الميلادى نشأت فى أوربا أربع جماعات رهبانية اعتمدت على الزهد والفقر والتسول :

(أ) الفرنسيسكان أو الإخوان الفرنسيسكان ويدعون فى إنجلترا بالإخوان الرماديين إشارة إلى لون أقبيتهم التى يرتدونها ، ويسمون فى فرنسا الإخوان الفقراء ، ويدعون فى ألمانيا الإخوان الحفاة .

(ب) الدومنيكان ، أو الإخوان المبشرون ، ويسمون فى إنجلترا الإخوان السود إشارة إلى لون أرديتهم التى يلبسونها . وفى فرنسا يسمون اليعاقبة .

(جـ) الرهبان الكرمليون ، أو جماعة مريم العذراء ، ويسمون بالكرمليين نسبة إلى جبل الكرمل فى فلسطين ،كما يعرفون بالإخوان البيض إشارة إلى لون ملابسهم .

(د) الإخوان الأغسطينيون أو جماعة الإخوان الزهاد المتنسبين للقديس أوغطسين.

وقد نشأت فى القرن الثالث عشر الميلادى الكثير من الجماعات الرهبانية المتسولة ولكنها انحلت بعد أن منعها مجمع ليون الثانى Council of Lyons فى سنة ١٢٧٤م(٧) . وكان لكل من المنظمات الأربع السالفة الذكر أصول مختلفة ، وخصائص متميزة ، وقوانين خاصة صارمة(٨) . ولا يهمنا من هذه المنظمات الأربع سوى منظمتى الرهبان الفرنسيسكان والرهبان الدومنيكان ، حيث انبثقت منهما حركة التنصير الأوربية التى هدفت إلى تحويل العالم الإسلامى إلى المسيحية ومنهما ظهر ريموند لول أشهر المنصرين فى تاريخ الكنيسة الكاثوليكية .

أما منظمة الرهبان الفرنسيسكان فمؤسسها هو فرنسيس الأسيسى Francis of Assisi الذى وُلد فى بلدة أسيس فى مقاطعة أمبريا بوسط إيطاليا سنة ١١٨١م أو سنة ١١٨٢م/٥٧٨هـ ، حيث كان أبوه تاجرًا غنيًا من تجار الأقمشة، وقد شب فرنسيس حتى صار شابًا نشطًا يتعشق الفروسية ويهوى حياة الجندية ، واشترك فى أحد الأيام فى معركة وقعت بين بلدته وبلدة بيروجيا المجاورة ، فوقع أسيرًا فى أيدى البروجيين ، وظل فى أسرهم مدة مرض خلالها مرضًا شديدًا كان له أثره فى ظهور نزعته الدينية . فلما أطلق سراحه تخلق بأخلاق جديدة جعلت منه سريع الاستجابة لآلام الغير ، له قدرة بالغة على الإقناع حتى أن بعض المؤرخين الأوربيين يصفه بأنه كان تميمة ساحرة تجمع بين المسيحيين(٩) . وفى أحد الأيام لقى رجلاً أبرصًا فنزل عن بغلته وقبَّله دون وجل أو حرج . وزعم أنه سمع هاتفًا يهتف به أن يصلح كنيسة خربة قرب بلدته أسيس ، فتنسك وانقطع عن أهله جميعًا ، وعاش على صدقات المتصدقين وشرع فى العمل بيديه فى ترميم الكنائس المهجورة ، واستمع ذات يوم إلى واعظ بإحدى الكنائس فى بلدته أسيس يقرأ الإصحاح العاشر من إنجيل متى الذى يقول نصه : « وفيما أنتم ذاهبون أكرزوا قائلين إنه قد اقترب ملكوت السموات ، اشفوا المرضى ، أبرئوا الأبرص ، وأقيموا الموتى ، وأخرجوا الشياطين ، مجانًا أخذتم ، مجانًا أعطوا ، لا تقتنوا فى بيوتكم ذهبًا ولا فضة ولا نحاسًا ، ولا تتخذوا مزودًا للطريق ، ولا ثوبين ، ولا خفين ، ولا عصًا لأن الأجير مستحق الأجرة "(١٠) فأصابت هذه الكلمات هوىً فى قلب فرنسيس فانطلق على وجهه فى غرب أوربا حافى القدمين يدعو إلى التوبة(١١) .

ومما ساعده على نشر دعوته أن الأحوال الدينية فى أوربا كانت فى غاية القلق والاضطراب . حتى انتشر الجدب الروحى فى كل مكان ، ذلك أن المؤسسات الديرية الضخمة التى لها نشاط فى معظم مقاطعات فرنسا أضحت مشغولة بإدراة ممتلكاتها وبيع أصواف أغنامها والاضطلاع بمختلف المسئوليات التى تنجم عادة عن امتلاك الأراضى الشاسعة .كما أن البابا أنوسنت الثالث كان

مشغولاً بالجرى وراء مشروعاته الطموحية الضخمة الهادية إلى الهيمنة على سائر ملوك أوربا ، وحارت عقول الناس فى أوربا بسبب ما وصلت إليه الكنيسة من غنىً وثروة وطموح جامح ، الأمر الذى أدى إلى انتشار الكثير من المذاهب والهرطقات . فعلى سبيل المثال يقال إنه كان فى مدينة ميلان وحدها سبعة عشر مذهبًا هرطقيًا ، وفى إيطاليا انتشرت الحروب والأحقاد ، وأخذ الناس يتلمسون من البابوية شيئًا يستطيعون الركون إليه فى حياتهم المضطربة القلقة دون أن تستطيع البابوية أن تمدهم بشىء لأنها كانت تعيش بعيدًا عن الفقير والبائس والمحروم(١٢) .

وأخيرًا أدرك البابا أنوسنت الثالث سوء تلك الأحوال التى أمست فيها الكنيسة ورعاياها، فأقرّ بعد شىء من التردد طريقة القديس فرنسيس وأجاز له أن يصبح قسيسًا داخل الهيئة الكنسية ، فاندمج فى سلك الكنيسة قوة دينية هائلة . وقد انخرط الكثير من الرهبان ورجال الدين تحت لواء القديس فرنسيس وانطلقوا فى أنحاء إيطاليا يعظون قومهم ، ويدعون إلى التقشف والتوبة بمختلف القرى والمدن والأرياف وكان لأولئك الرهبان الفرنسيسكان أبعد الأثر فى نفوس قومهم لما رأوه فيهم من بساطة وتقشف وتواضع . وبفضل هذه الصحوة الدينية التى بعثها الراهب فرنسيس تحوّل الكثير من النصارى الذين لم يكن لهم فيما مضى إلا الاسم فأصبحوا متمسكين بنصرانيتهم أشد التمسك بل أن الكثير من الألبيجنسيين وغيرهم من المعارضين اعتنقوا دعوة فرنسيس الأسيسى(١٣) .



أما الراهب دومنيك القشتالى مؤسس الطريقة الدومنيكانية فيختلف عن الراهب فرنسيس فى أنه تعلم بمدرسة من المدارس اللاهوتية التى تؤهل طلابها لتولى وظائف الكنيسة . وكان دومنيك من كبار رجال الكنيسة فى إحدى الكاتدرائيات الأسبانية . فقد طرأ عليه هو الآخر ما غير حياته رأسًا على عقب ، فبينما كان مشاركًا فى الحملة الصليبية ضد الألبيجنسيين فى جنوب فرنسا قابل أحد دعاة الحركة الألبيجنسية فى مدينة تولوز وناقشه مناقشة طويلة هدف منها

إلى إعادته إلى العقيدة الكاثوليكية . واقتنع دومنيك أنه لا سبيل إلى التغلب على الحركة الألبيجنسية إلا بقوة روحية تساوى تلك القوة الروحية التى عند الألبيجنسيين . ومن أجل ذلك اختار حياة التقشف والزهد ودعا إخوانه ومريديه إلى أن يحذوا حذوه لا حبًا فى التقشف والزهد ، بل كوسيلة من وسائل التأثير فى الناس . ثم التقى دومنيك بفرنسيس الأسيسى فى إيطاليا حيث تحقق أن الإعراض عن متاع الدنيا وسيلة للتغلب على الحركة الألبيجنسية . ولذا عقد دومنيك العزم على تأسيس هيئة للوعظ والإرشاد ، يكون الفقر شعارها ، وتكون طاعتها لرئيس هيئتها وللبابا مطلقة. وقد أجاز البابا أنوسنت الثالث مشروع دومنيك كما أجاز طريقة فرنسيس من قبل . وأصبح فى حوزة البابوية جيش كبير من المخلصين لدينهم(١٤) .

ومن الواضح أن هذا الجيش من الرهبان المنصرين الذى انضوى تحت لواء البابوية اختلف عن أى جيش سبق انضواؤه تحت لوائها ، لأن الرهبان الفرنسيسكان ، والدومنيكان كانوا على استعداد دائم للذهاب إلى أى مكان فى الدنيا ، والقيام بجميع ما يطلب إليهم أن يقوموا به من أعمال ، بعيدة الأسفار أو كثيرة الأخطار ، ذلك أن الأسفار والأخطار لم تكن تشكل عائقًا أمام أولئك الرهبان الذين وهبوا أنفسهم لخدمة دينهم ، وعاشوا خارجين عن سلطة الأسقفيات مستقلين عن كل أسقف ما عدا أسقف روما وهو البابا ، فانتشروا فى سائر أنحاء أوربا ، ولم يقم أحد من المبشرين فى كل العصور بمثل ما قام به الفرنسيسكان والدومنيكان فى البلاد الخارجة عن دائرة النصرانية ، فتنقلوا بين تونس ومراكش والجزائر ، وارتحلوا إلى مجاهل أفريقيا ، وإلى بلاد فارس والهند والصين ، وجنوب شرق آسيا ، يدعون إلى النصرانية(١٥) .

ويمكن أن نتصور حجم الأثر الذى أحدثه فرنسيس الأسيسى فيما يسمى بحركة الإحياء الإنجيلى إذا ما علمنا أنه فى عام ١٢٦٤ م - أى بعد نحو نصف قرن من قيامها - أصبح لدى طائفة الرهبان الفرنسيسكان مئتى ألف راهب وستة آلاف دير(١٦) .

وقد قام فرنسيس الأسيسى بنفسه بأول إرسالية تنصيرية إلى بلاد المسلمين ، إذ رافق الحملة الصليبية الخامسة التى دعا إليها البابا أنوسنت الثالث ، والتى وصلت طلائعها إلى عكا سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م وهاجم الصليبيون مناطق بيسان وقلعة الطور ، وامتدت غاراتهم إلى منطقة صيدا(١٧) ، وبعد إنسحاب الصليبيين عن قلعة الطور وعودتهم إلى عكا ، كان معهم بعض الأسرى المسلمين وضمنهم مجموعة من الأطفال الصغار فقام رادولف بطريق بيت المقدس وجاك دى فترى أسقف عكا بتعميد الأطفال المسلمين(١٨) ويبدو أن ذلك كان بتأثير الرهبان الفرنسيسكان الذين رافقوا الحملة ، ليكون هذا العمل هو البذرة الأولى فى جهود الغرب الأوربى لتنصير المسلمين وتحويلهم عن دينهم .

وكان أن أقلعت الحملة الصليبية من عكا ونزلت عند دمياط بغية الاستيلاء على مصر . وفرض الصليبيون حصارًا شديدًا على دمياط ، وخشى السلطان الأيوبى الكامل محمد سقوط مصر بأيدى الصليبيين ، فتقدم بعرضه لهم بأن يسلمهم كل ما فتحه عمه صلاح الدين من بلاد بما فيها بيت المقدس مقابل إنسحابهم من أرض مصر ، ولكن المندوب البابوى بلاجيوس وفرسان الداوية والاسبتارية رفضوا عرض السلطان الكامل(١٩) .

وقد استأذن فرنسيس الأسيسى المندوب البابوى بلاجيوس للسماح له بالذهاب إلى معسكر السلطان الكامل ليدعوه إلى اعتناق النصرانية على المذهب الكاثوليكى ، فأذن له بعد تردد خوفًا عليه إذ خشى بلاجيوس وسائر قادة الحملة أن يفتك به المسلمون . فأخذ فرنسيس معه أحد أتباعه وسار تحت علم الهدنة قاصدًا معسكر السلطان الكامل فى سنة ٦١٦هـ/١٢١٨م ، وقد ساورت الحرس السلطانى الشكوك فيه أول الأمر ، ولما رأوا هيئته وقذارته حيث كان يمشى حافى القدمين ، استمعوا إليه فلم يعرفوا من كلامه سوى ترديده كلمة « صلدان » فعرفوا أنه يريد مقابلة السلطان الكامل ، فأرسلوه إليه ، ولما دخل عليه ، وجده تحيط به حاشيته وخدمه وحرسه ومترجميه الذين يبدو أنهم كانوا من بقايا حملة الأطفال الذين اشتراهم الكامل ، واستأذن فرنسيس السلطان فى الحديث فأذن له ،

وبدأ يلُقى موعظته على السلطان الكامل ، والمترجم يترجم كلامه مباشرة فوصف له النصرانية الكاثوليكية ودعاه إلى الدخول فيها . وقد استمع إليه السلطان فى صبر وأناة وأدب جم ، ولم يسمح لأحد من علمائه بمناقشته . وطلب فرنسيس من السلطان أن يأذن له بإجراء اختبار النار للقفز فوقها كدليل على صدقه ، فأخبره السلطان أنه ليس بحاجة إلى ذلك البرهان ، ثم أكرمه وقدم له هدايا كثيرة . ولما فشل فرنسيس فى إقناع الكامل بعقيدته طلب من السلطان السماح له بالذهاب إلى بيت المقدس لإقامة دير له ولأتباعه فأذن له(٢٠) .

وكان أن وصل فرنسيس الأسيسى إلى بيت المقدس ، وسمح له المعظم عيسى بن العادل ملك دمشق بناءًا على أمر أخيه الكامل بالإقامة فى بيت المقدس، واختار فرنسيس مكانًا فوق جبل صهيون ليقيم عليه الدير يسمى عُلية صهيون . وتزعم الرواية النصرانية أن هذا المكان الذى اختاره هو بقايا بيت يوحنا أحد تلاميذ المسيح ، حيث كان يجتمع المسيح عليه السلام بحوارييه فيها وأن المسيح تناول مع تلاميذه العشاء الربانى الأخير بالجهة الغربية من العلية ، وقد تمكن الرهبان الفرنسيسكان بعد ذلك من الحصول من السلطات الأيوبية على إذن برعاية هذا المكان ثم توسعوا فيه وأنشأوا به كنيسة(٢١) .

ومنذ أن أقام الرهبان الفرنسيسكان فى هذا المكان قاموا بدور مزدوج هما الدعوة إلى النصرانية بين السكان ، والتنصير من ناحية ، والعمل كجواسيس وروابط اتصال مع الدول النصرانية فى أوربا والحبشة للاتفاق على المشروعات الصليبية(٢٢) من ناحية أخرى .

وهكذا توسع نشاط الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان التنصيرى فى سائر الإمارات الصليبية فى بلاد الشام سيما إمارة إنطاكية حيث حرصوا على أن يحلوا محل رجال الدين النصارى فى الكنائس والأبرشيات(٢٣) .

وأخذ دور الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان ينمو ويتعاظم سيما زمن ملك فرنسا لويس التاسع الذى عُرف فى المصادر الأوربية باسم القديس لويس

والذى اشتهر بتعصبه للنصرانية الكاثوليكية . وحين قام سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م بحملته الصليبية المعروفة فى كتب التاريخ بالحملة الصليبية السابعة ، انضم إليه عدد كبير من الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان ، ومنهم على سبيل المثال كاهنه الخاص الراهب الدومنيكانى وليم دى شارتر Guillaume de Chartres الذى ألّف كتابًا عن سيده لويس ، وساهم فى كثير من الحوادث زمن لويس ، ورافقه فى حملته الصليبية التنصيرية إلى تونس ، وأفاض كثيرًا فى الحديث عن صفات لويس التاسع ، وحضر وفاته وسجل أن آخر ما نطق به لويس وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة قوله : هيا إلى بيت المقدس(٢٤) . ومن الذين رافقوا لويس راهب دومنيكانى اسمه جوفروادى بلييه Geoffroi de Beaulieu كان أبا الاعتراف الشخصى للملك ورافقه أيضًا فى حملته على مصر والشام ، وقد ألّف هو الآخر تاريخًا عن لويس التاسع وأشاد بفضائله وتقواه(٢٥) .

* * *

وقد حاول لويس التاسع عن طريق أولئك الرهبان نشر النصرانية الكاثوليكية بين المغول حتى يسهل بعد ذلك الإطباق على العالم الإسلامى وتدمير الإسلام وتحويل المسلمين إلى النصرانية بالقوة . والراجح أن تلك السياسة الجديدة التى اتبعها لويس التاسع كانت بتأثير الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان أنفسهم وبتأثير البابا أنوسنت الرابع الذى بادر قبيل إبحار لويس بحملته إلى مصر ، فأرسل البابا إرساليتين تنصيريتين إلى منغوليا لدعوة الخان المغولى إلى اعتناق النصراينة ، وكانت الإرسالية الأولى برئاسة الراهب الفرنسيسكانى يوحنا بيان دل كاربينى Jon of pian del Garpine وقد غادرت فرنسا فى سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م ووصلت إلى بلاط خان المغول بعد سنة ونصف . وأكرم كيون خان المغول رسل البابا . وحينما قرأ رسالته التى يدعوه فيها إلى اعتناق النصراينة ، رد عليها بأن أمر البابا أن يعترف له بالسيادة العليا وأن يأتى إليه مع جميع أمراء الغرب ليقدموا له فروض التبعة والولاء. ثم عادت الإرسالية إلى البابا فى أواخر عام ١٢٤٧م . وقبل وصولها بعث البابا أنوسنت الرابع بإرساليته الثانية إلى المغول برئاسة الراهب

الدومنيكانى اسكلين اللومبارى Ascelin of Lambardy ، وسار اسكلين على رأس بعثته واجتاز بلاد الشام والجزيرة . وفى تبريز التقى بالقائد المغولى بايجونويان وبحث معه أمر التحالف بين العالم النصرانى والمغول ضد المسلمين ، واقترح بايجو أن يطبق هو بقوات المغول على بغداد من الشمال والشرق بينما تقوم حملة صليبيةبإشغال المسلمين فى الشام عنه . وأرفق بايجو من لدنه مبعوثين من النساطرة هما أيبك وسركيس ليصحبا اسكلين فى عودته إلى روما ، ومكثا فى بلاد البابا سنة ثم عادا إلى بايجو بعد أن أخبرهما البابا عن أسفه لأنه لم يطرأ جديد على مشروع التحالف(٢٦) .

وقد داعب الأمل خيال لويس التاسع بتنصير المغول والأطباق على العالم الإسلامى حينما كان فى قبرص وهو فى طريقه إلى مصر بحملته الصليبية حيث تلقى فى قبرص سفارة من جغطاى أحد حكام المغول فى فارس ، وكانت السفارة مكونة من داود ومرقس وهما من النصارى النساطرة ومضمون الرسالة أن يتحالف المغول مع الفرنسيين فى سبيل الاستيلاء على بيت المقدس من المسلمين. ولقد ابتهج لويس التاسع بهذه البعثة المغولية فأكرم رسولى جغطاى وأرسل معهما ثلاثة منصرين من الدومنيكان هم أندريه دى لونجحيموه وشقيقه وليم دى لونجحيموه وكانا يتحدثان العربية ، ويوحنا الكركسونى . وقد ظهر حرص لويس التاسع على تنصير المغول فى الهدية التى أرسلها مع هؤلاء الرهبان وهى عبارة عن كنيسة متنقلة مكونة من خيمة من قماش على شكل كنيسة ومعها كل ما يَلزم مذبحها من المخلفات الدينية والعشاء الربانى وكل ما يحتاجه الرهبان لإقامة القداس النصرانى فى حضرة خان المغول(٢٧) . غير أن البعثة لم تصل إلى بلاط المغول إلا بعد موت الخان كيوك ، وتولت العرش مؤقتًا أرملته قلقميش حتى تم انتخاب منكوخان خانًا أكبر على عرش المغول فاستقبل البعثة ولكنه اعتبر كل تلك الهدية بمثابة جزية بعثها الملك الفرنسى رمزًا لخضوعه وتبعيته للمغول(٢٨) .

وبينما كان لويس التاسع فى عكا وصلته أنباء تزعم أن أحد أمراء المغول ويدعى سارطاق بن باطو قد اعتنق النصرانية فسارع لويس إلى إرسال بعثة

جديدة مكونة من اثنين من الرهبان الفرنسيسكان هما وليم روبروك وبارثولوميو الكرمونى وتابع لهما ليحثا الأمير المغولى على النهوض لمساعدة إخوانه النصارى ضد المسلمين ولكى يقوما تحت حمايته بالتبشير بالنصرانية بين المغول . وقد وصل روبروك وصاحبه إلى معسكر سارطاق ، وحين دخلا عليه كان روبروك يحمل انجيلاً فأعطاه الملك لويس مسبحة نفيسة أهدتها له الملكة مرجريت بينما حمل بارثولوميو صليبًا وكتابًا دينيًا وأمسك التابع بمبخرة وتقدم روبروك بخطاب لويس إلى سارطاق وطلب منه السماح له بالدعوة إلى النصرانية بين المغول ، فأخبره سارطاق أنه لم يعتنق النصرانية ، وأكد له أنه إذا أراد البقاء فيجب أن يحصل على إذن من والده باطو وأرسل معهما من يدلهما على معسكر والده . ولما دخلا على باطو ، أُذِن لربروك بالحديث فجثا الراهب على ركبتيه وأخذ يحث إيلخان باطو على اعتناق النصرانية ويشرحها له ، وقال بأن سيده لويس أرسله إلى سارطاق عندما علم أنه اعتنق النصرانية ، وطلب منه السماح له بالتبشير بالكاثوليكية فى بلاده . ولما سأله باطو عن سبب قيام سيده لويس بحملته ، قال بأنه يهدف إلى انتزاع البلاد المقدسة من أيدى المسلمين ، وأنه يأمل فى توحيد جهوده مع المغول لتحقيق هذه الغاية . وعند ذلك أخبره باطو أنه يجب عليه السفر إلى بلاط الخان الأكبر منكوخان لإبلاغ رسالته . وكان أن سافر روبروك فى رحلة طويلة شاقة مسافة ثلاثة أشهر حتى وصل قراقورم عاصمة المغول وقابل منكوخان فى ٤ يناير ١٢٥٤ م الذى أبلغ روبروك أنه يجب على لويس التاسع وسائر الحكام فى الغرب الخضوع له باعتباره سيد العالم(٢٩) . ويستفاد من التقرير الذى كتبه روبروك فى مذكراته وجود عدد من الرهبان الدومنيكان والفرنسيسكان فى بلاد المغول بهدف التبشير بالنصرانية ، الأمر الذى يشير إلى أن حركة التنصير الغربية أخذت تتخذ شكلاً دوليًا واسعًا لنشر النصرانية بين المغول وغيرهم(٣٠) .

على أن أمل الغرب الأوربى فى التحالف مع المغول وتحويلهم إلى النصرانية لم يلبث أن تحطم عندما اعتنق إيلخانات المغول الإسلام فى القرن الثامن الهجرى/الرابع عشر الميلادى وأعلنوا الإسلام دينًا رسميًا لممالكهم(٣١) .

* * *

وبعد فشل جهود لويس التاسع فى اجتذاب المغول للنصرانية وإقناعهم بالتحالف مع الصليبيين ، عمل على تنصير المسلمين أنفسهم ، فبعث الراهب الدومنيكانى أندريه لونجيمو - الذى سبق وأن أرسله للمغول - إلى تونس ليدعو إلى النصرانية وذلك سنة ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م ودخل فى مناظرات مع المسلمين لمعرفته باللغة العربية ، ثم عاد إلى أوربا واشترك مع لويس التاسع فى حملته الصليبية على تونس ٦٦٨هـ / ١٢٧٠ م والتى كان يأمل من ورائها تحويل أمير تونس الحفصى إلى النصرانية ولكنه هلك دون تحقيق حلمه(٣٢) .

وقد جاء فى المعاهدة التى أبرمها المستنصر الحفصى سنة ٦٦٨/١٢٧٠ م مع ملك فرنسا الجديد فيليب الجرىء وشارل دوق انجو ، أن للرهبان والقساوسة حرية الإقامة بالمملكة الحفصية تحت رعايتها وحمايتها كما لو كانوا فى ديارهم ، ويحق لهم إقامة شعائرهم الدينية وطقوسهم فى الكنائس والأديرة كما لو كانوا فى ديارهم وبين شعوبهم ، وقرر الحفصيون إعطاء النصارى أراض لإقامة دور عبادتهم ، الأمر الذى زاد من عدد النصارى فى بجاية وغيرها من بلاد الحفصيين(٣٣) ومنح لهم الفرصة لمحاولة التنصير فى بلاد المسلمين مما يدل على الضعف الذى أصاب الدولة الحفصية فى هذه الفترة .

* * *

أما الراهب الفرنسيسكانى ريموند لول (١٢٣٥ - ١٣١٥م) فقد انبثق عن حركة الإحياء الأنجيلى التى استعرضنا ظهورها فى الصفحات السابقة وانخرط فى سلك الرهبان الفرنسيسكان . ويعتبر أخطر المنصرين وأشهرهم على الإطلاق على مر التاريخ ، حتى أن المنصر المشهور صمويل زويمر اعتبره أستاذه وقدوته فى كتابه الذى ألفه عنه بعنوان « ريموند لول المبشر الأول إلى المسلمين »(٣٤) أما روبرت سبير Robert E. Speer فقد وصفه بأنه أشهر مبشر ارتحل إلى العالم الإسلامى على الإطلاق ، وأنه أحد أبرز شخصيات الكنيسة الكاثوليكية خلال القرن الثالث عشر الميلادى . ذلك أنه اعتبر نفسه « مسيحيًا بروح عصرية » وأنه

سبق قرونًا كثيرة فى إرساء قواعد ومناهج وتصورات جديدة للتبشير(٣٥) . وقال عنه يوجين ستوك Eugene Stock سكرتير مجمع الكنيسة البروتستانتية بأنه " لا توجد شخصية بارزة أكثر بطولية فى التاريخ الكنسى من ريموند لول المبشر الأول وربما الأعظم إلى المسلمين "(٣٦) . وقد وصفه زويمر نفسه بأنه رائده الأول الذى مهد له الطريق ولذلك يجب إنقاذ الذاكرة من نسيان الرائد الأول على حد قوله ، وأنه يجب أن يكون قدوة لكل المنصرين ، وأنه لا يمكن له ولسائر المنصرين فى العصر الحديث أن يوفوه حقه من التقدير والشكر إلا بتحويل العالم الإسلامى برمته إلى النصرانية(٣٧) .

ويذكر بعض المؤرخين الذين درسوا حياة ريموند لول وكتبه أنه لم توجد برامج وخطط للتنصير فىتاريخ النصرانية لأكثر من ألف سنة قبله كتلك التى اقترحها ودعا إلى تطبيقها(٣٨) ، وضمنّها كتبه التى ألّفها والتى بلغت المئات ، بحيث لم يضارعه فى حجمها أحد من الكتاب النصارى لا قبله ولابعده وأصبحت تلك الخطط هى الدستور والمنهج التى سار عليه واتبعه المنصرون بعده لأكثر من خمسمائة عام(٣٩) .

وُلد ريموند لول فى بالما فى جزيرة ميورقة إحدى جزر البليار فى سنة ١٢٣٥م على الأرجح ، وهو ينتمى إلى أسرة قطالونية مشهورة ، وكان والده جنديًا فى جيش ملك أراجون جيمس الأول الذى انتزع جزيرة ميورقة من المسلمين . وقد كوفىء والد ريموند بقطعة من الأرض فى ميورقة ، حيث نشأ ريموند فى كنف أسرته ، وتزوج فى دور مبكر ثم غادر بالما مع زوجته إلى أسبانيا حيث عمل قهرمانًا فى قصر ملك أراجون جيمس الثانى ، وهى الوظيفة التى يتولى صاحبها الإشراف على المآدب والمراسم . وعاش ريموند لول حياة مليئة بالفسوق والفجور والتهتك فى قصر يعج بالفساد حيث الخمر والنساء والغناء ، شغف بالموسيقى والعزف على القيثار وأصبح مشهورًا بوصفه شاعر البلاط . وقد ساق هو اعترافاته فى أُحد كتبه التى كتبها حيث أشار إلى تلك الحياة الماجنة التى عاشها(٤٠) .

عاد ريموند إلى مسقط رأسه بالما حيث زعم أن المسيح عليه السلام ظهر له في إحدى حظائر الخنزير ومنه تسلم النداء الأخير ، وجعله يتخذ قراره بالتخلى عن الجميع وأن يصبح المبشر بالاستقامة حسب زعمه(٤١) .

قرر ريموند لول سنة ١٢٦٣ م أن يقضى بقية حياته فى خدمة دينه فانخرط فى سلك كنيسة للرهبان الفرنسيسكان فى بالما بجزيرة ميورقة ، وانكب خلال عشر سنوات تالية على دراسة الفلسفة وتعلم اللغة العربية من أسير مسلم . وخلال بقية حياته أظهر لول نشاطًا لا حدود له ، وقد عاصر تساقط المعاقل الصليبية فى بلاد الشام على يد الظاهر بيبرس ، وقلاوون ، وابنه الأشرف خليل ، وارتاع شأنه شأن سائر معاصريه من النصارى الغربيين لسقوط آخر المعاقل الصليبية وهى مدينة عكا سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م واعتبر تلك الحادثة كارثة مروعة حلت بالعالم النصرانى ، ولذلك قرر أن يقضى بقية حياته جاهدا على تنصير المسلمين واستعادة الأراضى المقدسة منهم(٤٢) .

وقد تنقل لول بين المراكز الفكرية فى أوربا ، ودرس ، وحاضر ، وناقش علماء اللاهوت النصارى ، وبحث معهم شئون الأمم الأخرى ، وقابل البابوات واتخذ وضعه فى جلسات كثير من المجامع الدينية . ثم رحل إلى الشرق وإلى شمال أفريقية داعيًا إلى النصرانية . ويعتبره الكثير من أساتذة التاريخ الأوربى أنه من الرواد فى دنيا المعرفة الأوربية فى العصور الوسطى وأنه مثل روجر بيكون - الذى ينتمى إلى الرهبان الفرنسيسكان - يعتقد أن جميع العلوم بمثابة فروع من شجرة واحدة(٤٣) . وقد جعل هدفه الأسمى الذى يسعى إلى تحقيقه هو اجتذاب جميع الأمم إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية ، سواء النصارى المنشقين عنها أو المسلمين أو التتار ، وكرس كل نشاطه وحياته لتحقيق هذا الهدف(٤٤) . وشرع يعمل على إرساء نظام تنصيرى منسق تحت رعاية الكنيسة ، يتكون رجاله من طبقة من المنصرين يجب - فى نظره - أن يتحلى جميع أفرادها بالسلوك الهادىء الودود ، وأن يحاولوا الإقناع بالحجة والمنطق(٤٥) . ويرى ديلا فيل لى رولكس Delavill

le Roulx أن ريموند لول أدرك عدم جدوى استخدام القوة فى حسم الخلاف بين الشرق والغرب ، وأنه تخلى عن فكرة الحملة الصليبية باعتبارها مستحيلة ، ولذلك حاول أن يستميل المسلمين إلى النصرانية عن طريق الاقناع والتعليم(٤٦) . أما المنصر صمويل زويمر فيزعم فى كتابه الذى ألّفه عن لول أنه سعى فعلاً إلى تكوين حملة صليبية ولكنها ليست للحرب بل للحب ، أى محبة المسلمين لاجتذابهم إلى الدخول فى النصرانية(٤٧) . ومن المبادىء التى نادى بها ريموند لول وجوب توحيد منظمات الفرسان الرهبان (الجماعات العسكرية ، كالاسبتارية ، والداوية، والتيوتون) حتى يصبح لدى الكنيسة جيش بالغ الضخامة من الفرسان الكنسيين(٤٨) .

وقد قام ريموند لول بدور خطير فى تنصير مسلمى لوجاره فى إيطاليا والتى تقع إلى الشمال الشرقى من نابلى وسكان لوجاره جميعهم مسلمون فقد ذكر المؤرخ جمال الدين بن واصل أنه ذهب فى سفارة من قبل السلطان الظاهر بيبرس إلى الملك مانفريد بن الإمبراطور فردريك الثانى إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة ٦٥٩هـ/١٢٦١م ، وحين اجتمع به وجده متميزًا محبًا للعلوم مثل أبيه ، وذكر أنه بالقرب من البلد الذى نزل فيه مدينة تسمى لوجاره أهلها كلهم مسلمون من أهل جزيرة صقلية وتقام فيها الجمعة وسائر الشعائر الإسلامية " وهى على هذه الصفة من عهد أبيه الامبراطور ، ووجدت أكثر أصحابه الذين يتولون أموره الخاصة به مسلمين ويُعلن فى معسكره بالأذان والصلاة "(٤٩) . وكان الامبراطور فردريك الثانى قد نقل هؤلاء المسلمين من صقلية إلى لوجاره ، فاشتغلوا فيها بالزراعة ، وأخذ فردريك فى تجنيدهم فى جيشه لبراعتهم فى صنع السهام ورميها، وأصبحت لوجاره بعد ذلك وكأنها جزيرة صغيرة وسط بحر من القوى الصليبية . وبعد سقوط أسرة الهوهنشتاوفن الألمانية وقيام أسرة انجو الفرنسية فى تلك البلاد اشتد الضغط على هؤلاء المسلمين بقصد تنصيرهم ، غير أنهم تمسكوا بعقيدتهم الإسلامية ولغتهم العربية . وقد أشار ريموند لول على شارل الثانى كونت انجو بأن يقوم بتنصير مسلمى لوجاره عن طريق الاقناع وشىء من

الضغط ، ثم إكراههم على اعتناق النصرانية إذا رفضوا ، وأن يعهد إلى المسلمين الذين يرتدون إلى النصرانية بمناصب ذات أهمية لإغراء الآخرين . زار لول بنفسه لوجاره سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤ م حاملاً رسالة من شارل الثانى كونت انجو إلى جيرار حاكم لوجاره يأمره بتسهيل مهمة لول ومناظرة مسلميها لتحويلهم إلى النصرانية ، وقد تم القضاء نهائيًا على أولئك المسلمين فتفرقوا أيدى سبأ فمنهم من فر إلى أفريقية ومنهم من سافر إلى المشرق أما الذين احتجزوا فقد جرى تنصيرهم كرهًا وأصبحت تلك المدينة مدينة نصرانية خالصة(٥٠) .

وقد ذهب ريموند لول لمقابلة البابا كلستين الخامس (١٢٩٤م) فى نابلى فى نوفمبر ١٢٩٤ م وعرض عليه برنامجه التنصيرى المفصل ، وطلب منه أن يتبنى ذلك البرنامج كسياسة تبشيرية جديدة تحت رعاية البابوية ، وأوضح لول للبابا أنه يجب التركيز أولاً على نشر النصرانية بين التتار ، لأنه يخشى أن يُستَمالوا من قبل أحد المسلمين ويصبحون بالتالى خطرًا على النصرانية(٥١) . وهذا يشير إلى أن لول أدرك قدرة دين الإسلام على الانتشار بين الأمم سيما الأمم الوثنية بحيث يصبح فى مقدور داعية واحد اجتذاب أمة بكاملها إلى الإسلام ، إذا تمكن من إيصال دعوة الإسلام بصورتها الصحيحة إلى تلك الأمة . كذلك ناشد لول البابا وحرضه على تجريد حملة صليبية جديدة ، ليس لاسترداد الأراضى المقدسة فحسب ، بل يجب غزو كل البلاد الإسلامية بقوات مسلحة . غير أن البابا كلستين الخامس سرعان ما تخلى عن الكرسى البابوى فى ١٣ ديسمبر ١٢٩٤م واعتزل فى أحد الأديرة(٥٢) .

وبعد اختيار البابا الجديد بونيفيس الثامن (١٢٩٤ - ١٣٠٣ م) سار ريموند لول إلى روما ليعرض على البابا الجديد خططه وبرامجه ، وحين تمت المقابلة عرض مطالبه السابقة ، ولكى يستثير همة البابا شرح له ما أسماه بالتفوق العددى للكفار - ويقصد المسلمين - بالمقارنة مع النصارى ، وأنه ينبغى على الكنيسة أن تظفر بهم جميعًا وببلادهم وأن تدخلهم فى الدين الصادق - حسب زعمه - وشرح للبابا أن ذلك لن يتحقق إلا بتوفر ثلاثة شروط أساسية هى :

(أ) دراسة لغات تلك الشعوب والتبشير بالإنجيل بينهم بلغاتهم ذاتها .

(ب) حملة صليبية مسلحة ضد المسلمين لتمكين المنصرين من التوغل فى بلادهم .

(جـ) تخصيص عشر موارد الكنيسة للانفاق على هذا المشروع . وهذا كفيل بانجاحه . أما البيزنطيون وغيرهم من الطوائف النصرانية المنشقة عن كنيسة روما فيمكن التفاهم معهم بطريقة عقلية محضة لإثبات خطئهم - حسب رأيه(٥٣) - ويبدو أن نزاع البابا بونيفيس مع ملك فرنسا فيليب الجميل عرقل تنفيذ مشروع ريموند لول .

وفى سنة ٦٩٢هـ / ١٢٩٢ م شرع ريموند لول فى الإعداد لرحلته التنصيرية الأولى إلى تونس حيث زعم أنه سيرد على سقوط عكا بيد المسلمين بالتبشير بالنصرانية بين مسلمى شمال أفريقية . ويزعم زويمر أن لول أراد أن يظفر بالمسلمين بالحب وليس بالحرب ، وقد غادر باريس ومنها إلى جنوه ثم أبحر إلى تونس ونزل بها ، وقابل قاضى قضاة تونس ويدعى ابن عمار ودخل معه فى مناظرات طويلة بهدف إقناعه بالنصرانية . وقد سجل لول أخبار تلك المناظرات فى مذكرات نُشرت بعد وفاته بعنوان « المساجلة الدينية بين ريموند وابن عمار » ولكن يبدو من مناقشات ريموند أنها كانت فلسفية تقوم على التهجم على عقيدة التوحيد وعلى شخص النبى محمد ﷺ ، وتسفيه آراء المسلمين والانتقاص من عقيدتهم وزعمه أن عقيدته الكاثوليكية هى الصحيحة ، فشاع خبر تلك التخرصات بين المسلمين فى تونس الأمر الذى أثار حفيظتهم وجرى القبض عليه ومحاكمته وصدر ضده حكم بالإعدام ولكن السلطان الحفصى أمر بطرده إلى بلاده، خوفًا من الأثر الذى سيحدثه قتله على علاقاته بالدول الأوربية . ولما أُخذ إلى السفينة التى كانت ترسو فى ميناء تونس للإبحار إلى جنوه تكاثر عليه الجمهور المسلم الغاضب وأخذ يرشقه بالحجارة وجرت اشتباكات بين الجمهور وبين الرجال الموكلين بحراسته ولم يصل إلى السفينة إلا بصعوبة . ولكنه كان مصممًا على العودة لينقذ أرواح المسلمين - بزعمه - وأنه سوف يجتذبهم إلى النصرانية ويدخلهم فى حظيرتها(٥٤) .

وفى سنة ٦٩٩هـ / ١٢٩٩ م قرر ريموند لول السفر إلى بلاد الشام حينما سمع بنبأ غزوها من جانب المغول ، وذلك لمقابلة خان غازان - الذى كان قد اعتنق الإسلام - ودعوته إلى الدخول فى النصرانية . ولكنه وصل متأخرًا فلم يستطع مقابلة غازان حيث انسحب المغول قبل وصوله . ثم توجه إلى قبرص وطلب من ملكها الصليبى هنرى الثانى دى لوزجنان أن يساعده فى مهمة تنصير المسلمين ، وزعم له أن خير وسيلة لتحويل المسلمين إلى النصرانية هى أن يكشف لهم - حسب تصوره - خطأ عقيدتهم(٥٥) . ولا تعطينا المصادر تفاصيل عن العمل الذى قام به لول مع ملك قبرص فى سبيل تحقيق هدفه بتنصير المسلمين . ولكننا نعلم أن ملك قبرص كان حينذاك على إلمام بأوضاع بلاد الشام فى تلك الحقبةوأنه كان قد تلقى رسالة من شيخ الإسلام ابن تيمية هى الرسالة المعروفة بالرسالة القبرصية وفيها شرح شيخ الإسلام عقيدة التوحيد التى هىعقيدة الإسلام، وأن الأنبياء جميعًا بُعثوا بدعوة واحدة هى التوحيد وأن لا معبود بحق إلا الله ، وأن النصارى انحرفوا عن عقيدة التوحيد واتبعوا القسيسين والرهبان وما أحدثوه من تحريف فى دين عيسى عليه السلام ، وأشار إلى التناقض الواقع فى عقائد النصارى - والعبادات التى ابتدعوها ثم قارن بين اليهود والنصارى ، وأشار إلى أن أمة محمد ﷺ هى الأمة الوسط . ودعا شيخ الإسلام ملك قبرص إلى أتباع الدين الحق وبحث الأمر بجد وسيجد أن ذلك سوف يفضى به إلى الإسلام ، كما أوصاه بإطلاق سراح الأسرى المسلمين الذين أسرهم القبارصة فى البحر غدرًا(٥٦) .

ويبدو أن ملك قبرص أطْلَعَ لول على رسالة شيخ الإسلام ، وكان ريموند لول - حينذاك - يجمع مادة كتبه ، فرد ريموند لول على رسالة شيخ الإسلام بأن بعث إليه بكتاب قديم ألّفه أحد علماء الكنيسة الشرقية ويدعى بولس الراهب أسقف صيدا الإنطاكى المتوفى سنة ١٥٤هـ / ٧٧٠م(٥٧) . وقد أشار شيخ الإسلام إلى هذا الكتاب الذى بعث به ريموند لول من قبرص إلا أنه لم يصرح باسم المرسل ، ورد شيخ الإسلام على ذلك الكتاب بكتابه الفريد « الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح » وقد صرح شيخ الإسلام بأن سبب تأليفه لكتابه

الجواب الصحيح أن كتابًا ورد من قبرص فيه الاحتجاج لدين النصارى ، بما يحتج به علماء دينهم وفضلاء ملتهم قديمًا وحديثًا ، من الحجج السمعية والعقلية ، فاقتضى ذلك أن نذكر من الجواب ما يحصل به فصل الخطاب ، وبيان الخطأ من الصواب لينتفع أولو الألباب ، ويظهر ما بعث الله به رسله من الميزان والكتاب . وأنا أذكر ما ذكروه بألفاظهم بأعيانها فصلاً فصلاً ، وأتبع كل فصل بما يناسبه من الجواب فرعًا وأصلاً ، وعقدًا وحلاً . وما ذكروه فى هذا الكتاب هو عمدتهم التى يعتمد عليها علماؤهم فى مثل هذا الزمان ، وقبل هذا الزمان ، وإن كان قد يزيد بعضهم على بعض بحسب الأحوال ، فإن هذه الرسالة وجدناهم يعتمدون عليها قبل ذلك ، ويتناقلها علماؤهم بينهم ، والنسخ بها موجودة قديمة وهى مضافة إلى بولص الراهب أسقف صيدا الأنطاكي ، كتبها إلى بعض أصدقائه وله مصنفات فى نصر النصرانية ... وقد عظّم هذه الرسالة وسماها : الكتاب المنطيقى الدولة خانى المبرهن عن الاعتقاد الصحيح والرأى المستقيم "(٥٨) . ويتضح من نصوص كتاب بولس الانطاكى التى أوردها شيخ الإسلام ابن تيمية أنها تحاول تشكيك المسلمين فى دينهم وإثبات صحة دين النصارى ، وهى الطريقة التى سار على منوالها ريموند لول . وقد فنّد ابن تيمية تلك الرسالة فصلاً فصلاً وأثبت أن جميع الأدلة التى يستدلون بها على صحة معتقدهم إنما هى أدلة تثبت فساد عقيدة النصارى وانحرافهم عن الدين الحق الذى بعث به سائر الأنبياء . وأثبت بالإدلة القاطعة صحة دين الإسلام وإنه الدين الحق الذى لا يقبل الله تعالى غيره(٥٩) .

ولم تتمخض جهود ريموند لول ورحلته إلى الشرق عن نتائج عملية لصالح النصارى ، فدولة المماليك حينذاك كانت فى أوج قوتها فى مصر والشام وفيها الكثير من العلماء الأفذاذ أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه . إضافة إلى أن الجيش المغولى تعرض للهزيمة مرة أخرى سنة ٧٠٣هـ / ١٣٠٣ م فى مرج الصفر خارج دمشق(٦٠) .

عاد ريموند لول إلى أوربا وشرع فى تأليف كتابه النهاية Liber de Fine ، وانتهى من كتابته فى إبريل ١٣٠٥ م . وقد أورد فيه آخر ما توصل إليه من آراء

بناءً على رحلاته ومقابلاته وما جمعه من معلومات . ويتكون الكتاب من فصل تمهيدى وثلاثة أبواب ، وفيها يصيغ لول خططه وبرامجه لتنصير المسلمين وتحويلهم عن دينهم وتدمير عقيدتهم . وقد بدأ كتابه بالتفجع والرثاء لحالة العالم الذى لا يشكل فيه النصارى سوى القليل بينما الكفار - بزعمه - هم الأكثر ، وأعدادهم تزداد وأقاليمهم تتوسع عن طريق ما أسماه اغتصاب الأقاليم المقدسة التى هى الحق الشرعى للنصارى - حسب زعمه - وكان فى كل كلامه يوجه النداء إلى البابوية والكرادلة ، والملوك ، والأمراء الأوربيين لتنفيذ مقترحاته ، حتى يتمكن من اجتذاب كل أمم الأرض إلى حظيرة المذهب الكاثوليكى(٦١) .

أما الفكرة العملية التى كانت قد سيطرت على ريموند لول منذ وقت مبكر فهى الدعوة لتعليم اللغة العربية للرهبان المنصرين . فقد تمكن هو من اتقان اللغة العربية فتحدث بها بطلاقة ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تمكن من الترجمة منها وترجم بعض مؤلفاته إليها . ولذلك نجح فى إقناع ملك أراجون جيمس الأول بمساعدته فى إنشاء مدرسة ميرامار لتعليم اللغة العربية وغيرها من اللغات الشرقية وذلك سنة ٦٧٥هـ / ١٢٧٦ م فى جزيرة ميورقة والتى يمكن اعتبارها أول مدرسة فى الغرب الأوربى لدراسة اللغة العربية . كذلك حصل من البابوية على الموافقة بإنشاء مدرسة أخرى فى روما(٦٢) . ولذلك نجد لول فى كتاب النهاية يفرد فصلاً سماه " محاجة الكفار " يعنى المسلمين واليهود والمنشقين عن الكنيسة ، والتتار أو الوثنيين ، ودعا إلى إنشاء أربعة أديرة لتعليم اللغات الشرقية يتعلم بها الرهبان الذين سيذهبون فى بعثات تنصيرية ، وهذا سيمكن المنصر من أن يتجادل مع الشعوب المختلفة بلغاتها الخاصة ويتفادى سوء فهم المترجم(٦٣) .

وحث ريموند لول النصارى للعمل بالسيفين ، سيف التنصير ، وسيف الحرب ، وأنه يجب العمل بهما معًا ضد المسلمين ، حيث زعم أن تجريد حملة حربية صليبية ضد المسلمين يوفر للسيد المسيح السعادة الجسدية بينما إرسال جيش المنصرين إليهم يوفر له السعادة الروحية(٦٤) .

وفى القسم الثانى من كتابه النهاية الذى جعل عنوانه « طريقة الحرب » عرض لول خططه الحربية لنجاح الحملة الصليبية المصحوبة بجيش المنصرين ، فدعا فى هذا الفصل إلى أن يكون قائد الحملة الصليبية ملكًا منتخبًا من قبل البابا والكرادلة وأن تتوحد تحت إمرته جميع منظمات الرهبان الدينية والحربية(٦٥) . كما ينبغى على البابا والكرادلة أن يتنازلوا عن عشر دخل الكنيسة ، فيستخدم ثلثا ذلك المبلغ لتجهيز الجيش . ويستخدم الثلث الباقى فى مساعدة الرهبان المنصرين الذين يصحبون الجيش إلى بلاد المسلمين . وضمَّن لول هذا القسم من كتابه آراءه عن تنظيم الجيش وكميات المؤن الغذائية والمواد الحربية ، والتعليمات التى ينبغى أن يلتزم بها المنصرون المرافقون للجيش(٦٦) .

وقد عرض ريموند لول خمسة طرق لمسير الجيش الصليبى يمكن من خلالها شن الحرب على العالم الإسلامى وانتزاع الأراضى المقدسة ، ومن ثمة تحويل المسلمين إلى النصرانية عن طريق المنصرين المرافقين للجيش وتلك الطرق هى :

الأول : عبر أراضى الامبراطورية اليونانية (البيزنطية) وتركيا وأرمينية الصغرى ومن ثم إلى بلاد الشام ، غير أن لول أوضح أن هذا الطريق طويل وباهظ التكاليف وتكتنفه الأخطار(٦٧) .

الثانى : عن طريق جزيرة رشيد الواقعة شرقى الإسكندرية وهى مرفأ أمين للسفن يمكن للفرسان انتزاعها بسهولة واتخاذها قاعدة للإنطلاق منها إلى البر وشن الهجوم ، وهذا الطريق كما يرى لول طويل ومكلف جدًا(٦٨) .

الثالث : طريق بحرى إلى قبرص ثم أرمينية الصغرى (قيليقية) وهذا الطريق أيضًا طويل ويتطلب مقاتلين فى البر والبحر ، إضافة إلى أن هذه البلاد لا تملك الوسائل الكافية لتزويد الجيش والأسطول بالمؤن(٦٩) .

الرابع : الطريق إلى تونس ، والتى كانت قد اُختبرت وأفضت إلى الفشل بواسطة تجربة لويس التاسع الأخيرة(٧٠) .

الخامس : وهو الطريق الذى يعتبره لول أكثر ميادين القتال ملائمة للصليبيين وهو الذى يمكن أن يحققوا عبرة أفضل النتائج فى حرب المسلمين . ويبدأ بطرد المسلمين من الأندلس ، ثم يعبر الصليبيون بحرًا ضيقًا هو جبل طارق إلى شمال أفريقية ، ويشرح ميزات هذا الطريق بأن المرّية ومالقة وغرناطة تقع كلها فى الأندلس ، وموقع غرناطة موقع فريد يسهل السيطرة عليه فهى مطوقة بمياه البحر وبمملكتى قشتالة وأراجون ، ومن الصعب على المسلمين أن يقدموا لها المساعدة . وفوق ذلك فإن الأندلس منطقة خصبة ولديها وفرة فى الخيول ، وكل ذلك فى متناول الصليبيين ، ويستطيع قائد الجيش أن ينتزع بقية بلدان الأندلس قلعة وراء قلعة، ومدينة تلو مدينة . وأن هذا أمر فى غاية السهولة ، وما أن تصبح الأندلس برمتها فى قبضة الصليبيين حتى يصبح فى مقدورهم عبور جبل طارق للانقضاض على البربر فى عقر دارهم ، وأن يبدأ الصليبيون بالاستيلاء على سبتة ثم التحرك تدريجيًا عبر الساحل باتجاه تونس ، وفى الوقت نفسه يستطيع الأسطول الصليبى أن يتخذ من جزيرتى مالطة ورودس الخاضعتين للصليبيين قاعدتين لمساعدة الحملة، ومن ثم استرداد الأراضى المقدسة والاستيلاء على مصر(٧١) .

وفى القسم الرابع من كتابه Liber de Fine يقدم لول اثنتى عشرة نقطة فى مخططه العسكرى لو طبقها النصارى لتفوقوا على المسلمين على حد تعبيره . وأبرز تلك النقاط :

(أ) ضرورة قيام الملوك بواجب إمداد الجيش بالقوة العسكرية اللازمة .

(ب) الاستعداد الدائم للقوات المتمركزة على حدود البلاد الإسلامية للتحرك السريع(٧٢) .

(جـ) أن تقوم القوادس(٧٣) بقطع كل أمَل فى أية نجدة قادمة للمسلمين من وراء البحر .

(د) وفيما يتعلق بآلات الحرب ومن أهمها السهام التى يستخدمها النصارى، فيجب أن تكون على درجة من الكفاية تفوق كفاءة آلات المسلمين الحربية .

وضرورة استخدام الأخشاب المتينة الصالحة لصناعة الحراب والرماح التى تشتهر بها قطالونيا وأراجون وقشتالة ، وتوفير المؤن والحديد وغير ذلك . ومن ناحية أخرى لم يغب عن لول فى تلك النقاط أن ينبه النصارى الغربيين إلى أن المسلمين يتميزون على خصومهم بنظامهم القتالى الذى ينفذونه بصرامة ، وامتلاكهم القوس التركى المعروف بجودته ، وتمرسهم فى نصب الكمائن وفن الالتفات فى حروبهم حول عدوهم(٧٤) . وهى الط[illegible]ت برع المسلمون فيها منذ فجر الحروب الصليبية فى قتالهم ضد الصليبيين . وكل هذه الإرشادات التى أوردها لول تدل على براعته ونضوج فكره العسكرى وكأنه أحد القادة العسكريين الذين خاضوا حروبًا طويلة .

وأوضح لول بعض الأعمال العسكرية التى ينبغى على الصليبيين أن يقوموا بها فعلى قائد الحملة أن يعين فارسًا موثوقًا فيه من جيشه فى منصب أمير البحر الذى يقع على عاتقه قيادة الأسطول والعمليات البحرية ضد المسلمين ، واعتراض طرق المواصلات البحرية التى تتيح اتصالهم بالنصارى المزيفين الذين يعارضون قرارات الكنيسة(٧٥) . ويقصد لول بأولئك النصارى المزيفين البنادقة والبيازنة والجنوية الذين كانت لهم علاقات ومصالح تجارية مع المسلمين ويحرصون على مصالحهم أكثر من حرصهم على تنفيذ أوامر الكنيسة . كما يجب أن تحمل السفن مائة فارس بخيولهم ، ومائة وخمسين رجلاً من رماة السهام وألفًا من المشاة، يجرى استخدامهم لتأمين نزول ناجح فى الأقاليم المعادية بحيث يمكن تجهيز مكان للمعركة يستوعب الفين من الخيالة أو أكثر . وفى هذه الحالة يمكن - حسب تصوره - تدمير جميع مدن المسلمين الساحلية ، ويستطيع القائد البحرى الحصول على المؤن والإمدادات من رودس ومالطة(٧٦) .

أما عن جيش المنصرين المرافق للحملة الصليبية فيجب أن يتوافر لديهم وعاظ لهم مهارة فائقة وقدرة على الإقناع ، ويجب أن يكون لدى المنصرين رجال يعرفون القانون والطب والجراحة بحيث يمكنهم القيام بمتطلبات الرهبان ، فيهتمون

بالمرضى والجرحى ، وينبغى على سائر المنصرين فى الجيش أن يتعلموا العربية حتى يتقنوها وأن يدرسوا بصفة خاصة المؤلفات التى صنفها فيلسوف العرب الكندى لكى يثبتوا - على حد تعبير لول - بطلان دين محمد ﷺ . وهذا سوف يتيح لهم أن يفهموا مراسلات الحرب السرية للكفار - ويقصد المسلمين - والقيام بمناظرات ناجحة مع الأسرى الذين يمكن إذا اعتنقوا النصرانية منحهم الحرية للعودة إلى بلادهم والعمل على تغيير عقيدة المسلمين(٧٧) .

وإذا كانت ظروف أوربا والبابوية حينذاك - مثل انتقال البابوية إلى افنيون وهو ما عرف باسم الأسر البابلونى ، وظهور النزاعات الكثيرة فى أوربا - لم تساعد على تحقيق خططه العسكرية لاجتياح بلاد المسلمين ، فإن الدول الأوربية نفذت العديد من تلك الخطط فى مهاجمتها لبلاد المسلمين إبان القرون التالية .

وفى سنة ٧٠٧هـ / ١٣٠٧م ، أى بعد رحلته الأولى بخمس عشرة سنة أبحر ريموند لول للمرة الثانية إلى شمال أفريقية لمواصلة عمله التنصيرى ، ولمحاولة إقناع المسلمين لا سيما البربر باعتناق النصرانية ، وحينما وصل إلى بجاية بالجزائر اتصل بالعلماء المسلمين فوافقوا على مناقشته للوصول إلى الحقيقة فيما يتصل بالدين الحق . وحدد قاضى المدينة موعدًا ومكانًا لمناقشته . وعقدت الجلسة ودار النقاش باللغة العربية ، التى كان لول يتحدث بها بطلاقة . وانتهت الجلسة بسخط أهالى بجاية الذين حضروا النقاش بسبب تعصب لول ، وتهجمه على عقيدة الإسلام ونبى الإسلام محمد ﷺ ، وإصراره على مواقفه ، وعدم اقتناعه بالحقائق الناصعة التى بسطها علماء المسلمين أمامه ، وزعمه الباطل أن الحق إلى جانبه ، وتسفيهه لحجج وآراء العلماء المسلمين . وتحفظت عليه السلطات الحفصية فى السجن لحمايته من سخط الجماهير الغاضبة إلى حين صدور الحكم عليه وقد صدر الحكم عليه بإدانته وسجنه ستة أشهر لإساءته إلى الإسلام والمسلمين . على أنه عومل فى السجن معاملة طيبة ، بل وتمكن أثناء سجنه من إجراء مناقشات كتابية مع أحد

فقهاء المسلمين يدعى عمر . وبعد انتهاء مدة العقوبة قرر حاكم بجاية أبو البقاء خالد الحفصى طرده من البلاد وفى طريق عودته إلى إيطاليا غرقت السفينة التى كان يستقلها على بعد عشرة أميال من بيزا ولكنه نجا بأعجوبة بعد أن فقد جميع كتبه وحاجياته التى كانت معه(٧٨) .

وبناء على مناظراته مع المسلمين فى بجاية قام ريموند لول مرة أخرى بتنقيح ومراجعة القسم الأول من كتابه النهاية وهو القسم الذى عنوانه « محاجة الكفار » وفى هذا القسم المنقح ذكر أن اليهودية ديانة طيبة بقدر ما هى الأساس للنصرانية ، وأن النصرانية - حسب زعمه - أفضل لأنها ديانة أكثر كمالاً . ثم بعد ذلك أبدى مزاعمه حول الإسلام وتهجمه على شريعة محمد ﷺ ، التى يعتبرها مزيفة وخاطئة ثم وضع بعد ذلك الحلول والوسائل التى رآها كفيلة بالتفوق على المسلمين ومن ثمة تنصيرهم وتدمير عقيدتهم ، وتتمثل هذه الوسائل فى ثلاثة أمور هى :

(أ) تأسيس أربعة أو خمسة أديرة لتعليم مختلف اللغات وبخاصة العربية ، والتخصص فى أعمال التنصير لجذب أكبر عدد ممكن من سكان العالم إلى النصرانية .

(ب) توحيد سائر المنظمات الدينية والحربية النصرانية للعمل وفق خطة مشتركة .

(جـ) تخصيص عشر دخل الكنيسة لهذا الغرض .

وأضاف أن ملك أراجون جيمس الثانى أرسل إلى البابا رسالة يعده فيها بأن يضع شخصه وأرضه وجيشه وثروته تحت إمرته لمحاربة المسلمين . وأرسل لول الرسائل مرة أخرى إلى سائر ملوك وأمراء أوربا يطلب منهم المساعدة وجمع الأموال لإخراج هذا المشروع إلى حيز الوجود(٧٩) .

وقدّم ريموند لول مشروعه مرة أخرى إلى مجمع فينا الذى انعقد فى سنة ٧١١ هـ/١٣١١ - ١٣١٢م حيث حضر لول جلسات المجمع وجدد دعوته إلى

القيام بحملة صليبية وإلى العمل على تنصير المسلمين . وقد شاهد مشروعه يتكلل بالنجاح جزئيا عندما قرر هذا المجمع الذى رأس البابا كلمنت الخامس جلساته إنشاء خمسة كراسى لتدريس العربية والعبرية واليونانية فى خمس جامعات كبرى من الجامعات الأوربية ، وهى جامعة البلاط البابوى فى روما . وجامعة باريس فى فرنسا ، وجامعة اكسفورد فى إنجلترا ، وجامعة بولونا فى إيطاليا ، وجامعة شلمنقة فى أسبانيا . وهذا القرار يدل على أن البذور الأولى للاستشراق بدأت بين أحضان الكنيسة الكاثوليكية ومؤسساتها فى غرب أوربا(٨٠) .

عاد ريموند لول مرة أخرى إلى شمال أفريقية ، رغم فشله فى المرتين السابقتين أمام تمسك المسلمين فى هذه البلاد بدينهم الحق وثباتهم عليه ، ورفض كل محاولة للنيل منه وكانت عودة لول للمرة الثالثة والأخيرة إلى شمال أفريقية سنة ٧١٥ هـ/ ١٣١٥م أى بعد ثمان سنوات من رحلته الثانية . وقد تزود فى هذه المرة بخطاب توصية من جيمس الثانى ملك أراجون لسلطان تونس الحفصى ابن اللحيانى (٧١١ -٧١٧هـ / ١٣١١ - ١٣١٧ م) فسمح له السلطان الحفصى بأن يعيش حياة هادئة فى تونس بشرط ألا يجاهر بعمله التنصيرى وألا يثير الشعب أو يمس مشاعر المسلمين . ولكن لول شرع يدعو إلى النصرانية ، ثم اتجه إلى بجاية بالجزائر ، حيث سبق له أن أثار شعور المسلمين سابقًا ، وما أن وصل إلى بجاية فى السنة نفسها حتى اكتشف المسلمون أمره ورجموه بالحجارة على الساحل فى السابع عشر من ربيع الأول ٧١٥هـ/٢١يونية ١٣١٥م ، وأدركه تاجران جنويان وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة فحملا جثته وأبحرا به إلى بالما فى جزيرة ميورقة حيث دُفِن فى كنيسة هناك وقد بلغ من العمر زهاء ثمانين سنة(٨١) وبذلك تحقق له من المبادىء التى وضعها لاتباعه قوله : « إن مهمة الرهبان الفرنسيسكان لا تقتصر على الدعوة السلمية فحسب بل المستبسلة إلى حد الاستشهاد ضد العقيدة الإسلامية وتعاليمها »(٨٢) .

على أن السؤال الذى يطرح نفسه هنا هو لماذا ركز ريموند لول جهوده التنصيرية على شمال أفريقية دون غيرها من بلدان العالم الإسلامى ؟ يبدو أن لول أدرك أهمية شمال أفريقية وقربها من الغرب الأوربى ، حيث تصور أنه إذا تم تنصير المسلمين فى شمال أفريقية فستصبح تلك البلاد بلدانًا مسيحية ، وبالتالى تصبح صديقة للغرب الأوربى الكاثوليكى بحيث يمكن للجيوش الصليبية الأوربية أن تزحف عبر شمال أفريقية للإطباق على دولة المماليك وكانت تشكل حينذاك قوة الإسلام الضاربة - للقضاء عليها ، ومن ثمة استرداد الأراضى المقدسة فى بلاد الشام بحيث يمكن بعد ذلك التحالف مع التتار وإزالة الإسلام من الوجود . لذلك لا نعجب إذا كانت بلدان الشمال الأفريقى هى أولى البلاد الإسلامية بعد الأندلس التى اتجهت إليها أنظار الغرب الأوربى بغية الاستيلاء عليها والقضاء على الإسلام فيها فتوجهت إليها الحملات الصليبية خلال القرن الثامن الهجرى/الرابع عشر الميلادى ، والقرون التالية .

* * *

وبعد ، فقد ألّف ريموند لول مؤلفات ورسائل كثيرة جدًا حتى أن أحد كتاب سيرته أحصاها فبلغت أربعة آلاف عمل(٨٣) . على أن معظمها قد ضاع ، وكانت كتاباته باللغات اللاتينية والقطالونية والعربية(٨٤) . ويقال أن ألفًا منها كان موجودًا فى القرن الخامس عشر الميلادى على أنه لم يكن معروفًا منها سنة ١٧٢١م سوى ٢٨٢ عملاً . وقد جُمع منها ٤٥ عملاً فى عشرة مجلدات ، وظهر منها المجلدان السابع والثامن ، ولا يزال الكثير منها موزعًا بين مكتبات عديدة(٨٥) . ومن كتبه كتاب بعنوان « الرد على اليهود » نشره مع مقدمة وتعليقات خوسيه ماريا مياس . ولكن الكتاب لا يقتصر - كما يظهر من عنوانه - على الرد على اليهود بل يشمل الرد على المسلمين ، ويتكون الكتاب من عدد

كبير من الفصول ، وفى الفصل السادس مناقشة لعقيدة التوحيد فى الإسلام وهى عبارة عن افتراءات وترهات فلسفية يبدو أنها مستمدة من آراء يوحنا الدمشقى وبولس الإنطاكى أسقف صيدا يحاول أن يثبت من خلالها أن العقيدة النصرانية هى الصحيحة(٨٦) . ولكن حسب ريموند لول أن كافة جهوده ومحاولاته التنصيرية باءت بالفشل الذريع .

وجميع كتب ريموند لول يظهر فيها الأثر العميق للمتصوفة المسلمين سيما محى الدين بن عربى وابن سبعين المرسى وغيرهما . وقد درس ذلك التأثير المستشرقان الأسبانيان خوليان ريبيرا وأسين بلاثيوس . كما ولع بالجدل فى كتبه واستخدم القصص فى عرض آرائه ويظهر فى ذلك متأثرًا بالمجموعات القصصية العربية مثل كليلة ودمنة . ومن كتبه « الكافر والعلماء الثلاثة » الذى ألّفه بالقطالونية وترجم إلى عدة لغات وفيه عرض وجهة نظره فى الديانات الثلاث المسيحية واليهودية والإسلام(٨٧) .

* * *

ومن ناحية أخرى فإن الخطط التى وضعها ريموند لول لتنصير المسلمين أصبحت هى المنهاج والدستور الذى سار عليه المنصرون بعده عن طريق التعليم والتدريس وعن طريق الأعمال الإنسانية كالمستشفيات والمؤسسات الخيرية ونحو ذلك مما نجد جذوره فيما وضعه ريموند لول من مناهج وأسس واقتراحات . هذا مع ملاحظة أن تلك الأعمال التى أرسى قواعدها ريموند لول لم تثمر إلا فى الشعوب الوثنية التى تمثل المادة الخام ، من السهل تشكيلها وإكسابها الطابع المطلوب .

الهوامش

(1) Painter, Sidney: A history of the Middle Ages 284 - 1500 . London, 1976, p.290.

(٢) فشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى جـ١ ص٢٣١ ؛ وانظر عن معركة العقاب : عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص٤٩٠ - ٤٩٧ .

(٣) فشر ، جـ١ ، ص٢٣١ - ٢٣٢ ؛ Painter: op. cit. pp. 290 - 294;

(٤) فشر : جـ١ ص٢٣٨ .

(5) Austin, P. Evans : The Albigensin Crusade in Setton, A History of the Crusades, Vol. 2, London, 1969 pp. 277 - 324.

(٦) فشر : جـ١ ص٢٣٧ - ٢٣٨ ؛

(7) The Cambridge Medieval History, Volume VI Victory of the Papacy, London, 1980. p. 727.

(8) Ibid. pp. 727 - 738.

(٩) فشر : جـ١ ص٢٣٤ - ٢٣٥ .

(١٠) المرجع السابق جـ١ ص٢٣٥ ، وانظر نص الإصحاح فى الكتاب المقدس أنجيل متى ، الإصحاح العاشر ٦ - ١٠ .

(١١) فشر : جـ١ ص٢٣٥ .

(١٢) فشر : جـ١ ص٢٣٥ - ٢٣٦ .

(١٣) فشر : جـ١ ص٢٣٦ - ٢٣٧ .

(١٤) فشر : جـ١ ص٢٣٧ - ٢٣٨ ؛

Zwemer, Samuel, M,D,D,F,R,G,S: Raymund Lull First Missionary to the Moslems, London, 1902. p.13.

(١٥) فشر : جـ١ ص٢٣٩ ؛

The Cambridge Medieval History, Vol. VI, pp. 736 - 762 .

(16) Zwemer:op. cit. p. 14.

(١٧) ابن الأثير : الكامل جـ١٢ ص ٣٢٠ - ٣٢٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٣ ص٢٥٤ - ٢٥٧ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ، ص٥٨٣ - ٥٨٦ ؛ تاريخ ابن الفرات ، جـ٥ قسم ١ ص٢١٩ - ٢٢٢ ؛ أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص١٠٢ - ١٠٣؛ ابن أيبك : كنز الدرر ، جـ٧ ص١٩١ - ١٩٢ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ١ ص١٨٦ - ١٨٧.

(١٨) محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية الخامسة ، ص١٨٨ .

(١٩) ابن الأثير : الكامل جـ١٢ ص٣٢٣ - ٣٢٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ، ص٢٥٢ ، جـ٤ ص٩٤ - ٩٦ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص٦٠٤- ٦٢٠ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص٩٢٤ - ٩٣٨ .

(20) Van Cleve, Thomas, C : the Fifth Crusade, in Setton, A History of the Crusades, Vol.2pp. 415 - 416; Runciman, Steven: A History of the Crusades, Cambride, 1966, pp. 159- 160;

محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة ص٥٠ - ٥١ ؛ محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية الخامسة ص٣٠٥ - ٣٠٧.

(٢١) أحمد دراج : وثائق دير صهيون بالقدس الشريف ، ص٢١ - ٢٥ .

(٢٢) أحمد دراج : المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى - الخامس عشر الميلادى ، ص١٢ .

(23) Cahen, Claud : La Syrie du Nord Al, Epoque des Croisades, Paris, 1940 , pp. 680 - 681 .

(٢٤) جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على بلاد الشام ، جـ٣ ، ص١٧ .

(٢٥) المرجع نفسه ، ص١٦ .

(26) Runciman ; op. cit. Vol. 3, pp. 258 - 259 .
(27) Conder, C.R the Latin Kingdom of Jerusalem, 1099 - 1291 A.D. London, 1897. p.360; Runciman: op. cit. Vol.3 ,pp. 259 - 260
(28) Conder: op. cit. p. 370; Runciman: op. cit. Vol. 3, p 260 .
(29) Lamb, Harold: the Crusades, The Flame of Islam, London, 1931, p. 393 Conder : op. cit. pp 371 - 375 .
(30) Conder: op. cit. p. 376.
(31) Atiya, Aziz, S: The Crusade in the Later Middle Ages, New York, 1970, p.250
(32) Ibid. P.89 .

(٣٣) عبد الرحمن الجيلالى : تاريخ الجزائر العام جـ٢ ص٣٣ .

(34) Zwemer : Raymund Lull First Missionary to the Moslems. P.XI .
(35) Zewemer : op. cit. pp. X - XII .
(36) Ibid . p. XXI.
(37) Ibid . p. XXII.
(38) Atiya : op. cit. p. 77.
(39) Ibid . p. 74.
(40) Zwemer ; op. cit. pp. 19 - 28.
(41) Ibid . p. 31 .
(42) Atiya: op. cit. p. 74
(43) Ibid . p.75.
(44) Fine, J : Who's Who in the Later middle Ages, London. 1970. p. 155; Atiya: op. cit. p. 75.
(45) Atiya: op. cit. p 75.
(46) Ibid .
(47) Zwemer: op. cit. pp. 52-53.

(48) Atiya: op. cit. p . 75.

(٤٩) ابن وصل : مفرج الكروب ، جـ٤ ص٢٤٨ .

(50) Egidi, p: Codice diplomatice dei Saraceni di Lucera 1235 - 1343, Naples, 1917. p33;

على العواجى : جهاد المسلمين ضد الصليبيين فى المغربين الأدنى والأوسط ص٩٠ - ٩١.

(51) Atiya : op. cit. p.76.
(52) Ibid .
(53) Atiya : op. cit. pp.76-77
(54) Zwemer : op. cit. pp. 80 - 96 .

برنشفيك : تاريخ أفريقية في العهد الحفصى ، جـ١ ، ص٤٩١ .

(55) Atiya : op. cit. pp. 90-91.

(٥٦) انظر : شيخ الإسلام ابن تيمية : الرسالة القبرصية ، تقديم وتحقيق على السيد صبح المدنى ، ط القاهرة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

(٥٧) عن بولس الأنطاكى انظر : يوسف الدبس : تاريخ سورية ، ط بيروت ١٩٠٠م المجلد الخامس ، جـ٣ ص٢٦٢ - ٢٦٣ ؛ منير الخورى : صيدا عبر حقب التاريخ من ٢٨٠٠ ق.م إلى ١٩٦٦م ، بيروت ١٣٥ - ١٣٦ .

(٥٨) ابن تيمية : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، تحقيق على بن حسن بن ناصر ، عبد العزيز إبراهيم العسكر، حمدان بن محمد الحمدان، الرياض ١٤١٤هـ ، جـ١ ، ص ٩٨ - ١٠١.

(٥٩) المصدر نفسه ، جـ١ ، ص١٠١ وما بعدها .

(60) Atiya : op. cit. p . 91.
(61) Fine : op. cit. p. 157; Atiya : op. Cit. p. 77.
(62)) Fine : op. cit. p. 156; Atiya : op. Cit. p. 89;

أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية ص١٠٤ .

(63) Atiya : op. cit. pp. 77-78.
(64) Gottron, A: Raman Lulls Kreuzzugsideen in Abhanslungen zur Mittleren und Neueren Geschichte, ed. G.V. Below, H. Fink U.F Meinecke, Heft 39. Berlin and Leipzig, 1912, pp. 70-73.

(٦٥) المقصود بالمنظمات الدينية الرهبان غير المحاربين مثل الفرنسيسكان والدومنيكان ، والمقصود بالمنظمات الحربية الرهبان المحاربين مثل الداوية والاسبتارية والفرسان التيوتون .

(66) Gottron : op. cit. p. 73-74; Atiya : op. Cit. p .78-79.
(67) Gottron : op. cit. p. 80; Atiya : op. Cit. p . 79.
(68) Gottron : op. cit. p. 80; Atiya : op. Cit. p .79-80.
(69) Gottron : op. cit. p. 80; Atiya : op. Cit. p .80.
(70) Gottron : op. cit. p. 81; Atiya : op. Cit. p .80.
(71) Gottron : op. cit. p. 80; Atiya : op Cit. p .80-81.

(72) Gottron : op. cit. p. 81; Atiya : op. Cit. p .81; Runcim:op. cit. vol 3. pp. 431 - 432.

(٧٣) القوادس ، مفردها قادس ، وهى سفينة بحرية كبيرة تشبه البارجة انظر ابن منظور ، لسان العرب ، مادة قلس ؛ سعاد ماهر : البحرية فى مصر الإسلامية ص٣٦٢ .

(74) Gottron : op. cit. p. 81-84; Atiya : op. Cit. p .81.

على العواجى : جهاد المسلمين ضد الصليبيين فى المغربين الأدنى والأوسط فى القرن الثامن الهجرى ص٧٨ .

(75) Gottron : op. cit. p. 84; Atiya : op. Cit. p .81.

(76) Gottron : op. cit. p. 85; Atiya : op. Cit. p .81-82.

على العواجى : جهاد المسلمين ضد الصليبيين فى المغربين الأدنى والأوسط ص٧٨.

(77) Gottron : op. cit. p. 88; Atiya : op. Cit. p. 83.

(78) Zwemwr : op. cit. pp. 104 - 112; Atiya : op. Cit. p .91-92;

على العواجى : جهاد المسلمين ضد الصليبيين فى المغربين الأدنى والأوسط ص٨١-٨٢ .

(٧٩) على العواجى : المرجع السابق ص٨٢ ؛ Atiya : op. cit. p .93 ;

(٨٠) سعيد عبد الفتاح عاشور : مراجعات لكتابات بعض المستشرقين المحدثين عن الإسلام وحضارته، فى كتاب بحوث فى تاريخ الإسلام وحضارته، القاهرة ١٩٨٧م ص١١- ١٢؛ Zwemer : op. cit. pp. 77-79.

(81) Zwemer : op. cit. pp. 132 - 146; Atiya : op. Cit. p .83-94;

على العواجى : المرجع السابق ص٨٤ – ٨٥ .

(82) Fine : op.cit. p. 156.

(83) Zwemer : op. cit. p. 157.

(84) Ibid.

(85) Ibid.

(86) Lull, Raymund: El Liber Pridicationis Contra Judaeos Primera Edicion Critica con Introduccion Yontas Por Jose Ma Millas Vallicrossa (Consejo Superior de Invesigacines Cientificas Instituto Arias Manano) Madrid - Barcelona 1957.

(٨٧) أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية ص١٠٥ .

مصادر ومراجع البحث

أولاً : المصادر والمراجع العربية والمترجمة :

- أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية : دراسة بإشراف مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (يونسكو) القاهرة ١٩٧٠ م .
- ابن الأثير (أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى الملقب بعز الدين ، ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) :
الكامل فى التاريخ ، طبعة بيروت ١٣٨٦هـ/١٩٦٦ م عن طبعة ليدن ١٨٥١ - ١٨٧٦م .
- أحمد دراج :
١ - المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى - الخامس عشر الميلادى القاهرة ١٩٦١ م .
٢ - وثائق دير صهيون بالقدس الشريف ، القاهرة ١٩٦٨م .
- ابن أيبك الدواداري (أبو بكر عبد الله بن أيبك ، ت ٧٣٢ هـ/١٣٣٢م) :
كنز الدرر وجامع الغرر . الجزء السابع وعنوانه ، الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب . تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٣٩١هـ/١٩٧١م .
- برنشفيك : تاريخ أفريقية فى العهد الحفصى من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥م. ترجمة حماد الساحلى ، بيروت ١٤٠٧هـ .
- ابن تيمية (أبو العباس تقى الدين أحمد بن عبد الحليم ، ت٧٢٨هـ/١٣٢٨م):
١ - الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح ، تحقيق على بن حسن بن ناصر ، عبد العزيز بن إبراهيم العسكر ، حمدان بن محمد الحمدان ، الرياض ١٤١٤هـ .
٢ - الرسالة القبرصية « رسالة من ابن تيمية إلى ملك قبرص » القاهرة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

٣ - الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، بيروت ١٤١٥هـ/١٩٩٥م .

- **جوزيف نسيم** : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، جـ٣ ، هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة ، بيروت١٩٨١م.

- **سبط ابن الجوزي** (شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلى التركي الشهير بسبط ابن الجوزي ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦) :

مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، جـ٨ حيدر أباد ١٣٧٠هـ/١٩٥١م

- **سعاد ماهر** : البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، القاهرة ١٩٦٧م .

- **سعيد عبد الفتاح عاشور** :

١ - الحركة الصليبية ، جزءان ، القاهرة ١٩٧٨م .

٢ - مراجعات لكتابات بعض المستشرقين المحدثين عن الإسلام وحضارته ، في كتاب بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته ، القاهرة ١٩٨٧م .

- **أبو شامة** (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي ، ت٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م) :

الذيل على الروضتين ، بيروت ١٩٧٤م .

- **عبد الرحمن الجيلالي** : تاريخ الجزائر العام ، الجزائر ١٩٦٥م .

- **عبد الرحمن علي الحجي** : التاريخ الأندلسي ، بيروت ١٤٠٢هـ/١٩٨١م .

- **عبد الله الترجمان الأندلسي** : (كان اسمه قبل إسلامه انسلم تورميدا ، ت٨٢١هـ/ ١٤٢٠م) : تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب ، تحقيق محمود علي حماية ، القاهرة ١٩٨٤م .

- **علي بن محمد العواجي** : جهاد المسلمين ضد الصليبيين في المغربين الأدنى والأوسط في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، رسالة ماجستير لم تطبع ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ١٤١١هـ/١٩٩٠م .

- **ابن الفرات**(ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن بن علي ، ت٨٠٧هـ/١٤٠٤) : تاريخ ابن الفرات ، جـ٥ قسم ١ تحقيق حسن محمد الشماع ، البصرة ١٣٨٩ - ١٣٩٠هـ/ ١٩٦٩م - ١٩٧٠ .

– فشر . هـ . أ . ل : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ، نقلـه إلى العربيـة محمـد مصطفى زيادة ، السيد الباز العرينى ، القاهرة ١٩٦٩ .

– **محمد مصطفى زيادة** : حملة لويس التاسع علـى مصـر وهزيمته فـى المنصـورة ، القاهرة ١٣٨١هـ/١٩٦١م .

– **محمود سعيد عمران** : الحملة الصليبية الخامسـة « حملـة جـان دى بريـين علـى مصر » ٦١٥ – ٦١٨ هـ /١٢١٨ – ١٢٢١م الإسكندرية ١٩٧٨م .

– **المقريزى** (تقى الدين أحمد بن على بن عبد القـادر ، ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) : السلوك لمعرفة دول الملوك . تحقيق محمد مصطفى زيادة جـ١ القاهرة ١٩٥٦م.

– **ابن منظور** (أبو الفضل جمال الديـن محمـد بـن مكـرم الأفريقـى المصـرى ، ت ٧١١ هـ) : لسان العرب ، بيروت ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .

– **منير الخورى** : صيدا عبر حقب التاريخ ، بيروت ، ١٩٣٠م .

– **ابن واصل** (جمال الدين محمد بن واصل ، ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م) :
مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، جـ٣ تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٠م ، جـ٤ تحقيق حسنين محمد ربيع القاهرة ١٩٧٢م .

– **يوسف إلياس الدبس** : تاريخ سورية ، بيروت ١٩٠٠م .

ثانيًا : المصادر والمراجع الأجنبية :

- **Atiya, Aziz, S :** The Crusade in the Later Middle Ages, New York, 1970.

- **Austin, P. Evans :** The Albigensin Crusade, in Setton, A History of the Crusades, Vol. 2, London, 1969

- **Cahen, Claud:**La Syrie du Nord Al, Epoque des Croisades, Paris, 1940 .

- The Cambridge Medieval History, Volume VI Victory of the Papacy , London, 1980.

- **Conder, C.R :** The Latin Kingdon of Jerusalem, 1099 - 1291 A.D London, 1897.

- **Egidi, P** : Codice Diplomatice dei Saraceni di Lucera 1343, Naples 1917.

- **Fine,J** : Who's who in the Later Middle Ages, London, 1970.

- **Gottron' A** : Ramon Lulls Kreuzzugsideen in Abhandlungen Zur Mittleren und Neveren Geschichte, ed. G.V. Below, H. FinkeU.F. Meirecke, Heft 39, Berlin and Leipzig, 1912.

- **Lamb, Harold** : The Crusades, The Falme of Islam, London, 1931

- **Lull, Raymund** : Eliber Predications Contro Hudaeos Premera Edicion Critica con Introduccion Ynotas Por Jose Ma Millas Vallicrossa (Consejo Superior de Investigaciones Cientificas, Instituts Arias Mantano) .Madrid - Bercelona, 1957.

- **Panter, Sidney** : A History of the Middle Ages 284 - 1500, London 1976.

- **Runciman, Steven** : A History of the Crusades, Cambridge, 1966.

- **Van Cleve, Thomas, C** : The Fifth Crusade in Setton, A History of the Crusades Vol. 2, London, 1969

- **Zwemer, Samuel, M.D.D.F.R.G.S** : Raymund Lull, First Missionary to the Moslems, London. 1902

شارل كونت أنجو
بين القسطنطينية وتونس والقدس
(١٢٦٦ - ١٢٨٥م)

أ. د. محمود سعيد عمران(*)

ينحدر شارل كونت أنجـو Charles Count of Anjou من أسرة كابيـه Capitian الفرنسية ، وهو ابن لويس الثامن Louis VIII ملك فرنسـا (١٢٢٣ - ١٢٢٦م) ، وبلانش القشتالية Blanche of Castile . وقد ولد شـارل فـى بدايـة عام ١٢٢٧م بعد أشهر قليلة من موت أبيه ، وكان له من الذكور ثلاثة أخوة هـم لويس التاسع Louis IX الذى خلف والده فى حكم فرنسا(١٢٢٦ - ١٢٧٠م) و روبرت الثانى كونت أراتو Robert II Count of Artois الذى قتل علـى أرض مصر فى معركة المنصورة خلال معارك الحملة الصليبية السـابعة عـام ١٢٥٠(١) ، والفونـس أف بواتيـه Alfonse of Poitiers الـذى تـزوج مـن جوانـا أف تولـوز Joanna of Toulouse(٢) .

لقد مرت طفولة شارل بحيـاة متوتـرة مـع والدتـه التـى كـانت تعمـل علـى استقرار الأحوال داخل فرنسا بعد موت زوجها أثنـاء وصياتهـا علـى ابنهـا لويـس التاسع وصراعها مع النبلاء(٣) ، فلقد انشغلت الأم بالسياسـة أكثر مـن اهتمامهـا بأولادها عدا لويس ، وكان أقل أولادها اهتمامًا هو شارل كونت أنجو(٤) .

ويوصف شارل بأنه كان متناسق الجسم مفتول العضلات حمرى البشرة وله أنف طويل شأن آل كابيه ، وكان يتمتـع بصحـة جيـدة ، كمـا وصفـه معاصروه بالحيوية والطموح ، وكثيرًا ما كان يتدرب على الصيد والرياضة العنيفة . وقد نال شارل قسطًا وافيا من التعليم فقد درس فى جامعة باريس وأحب العلـم والعلمـاء، وخاصة ما يتعلق بالشعر والفنون . كما أنه كان لا ينام كثيرًا لأنه اعتقـد أن النـوم إضاعـة للوقـت . وكـان يتكلـم قليـلاً ويعمـل كثيرًا ، ويبتسم قليلاً ويتصـرف

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطى - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية .

كراهب(٥) ، ولعل هذه الصفات والظروف التى عاش فيها قد دفعته إلى الاعتماد على نفسه ، حتى اعتقد أنه يمثل إرادة الله(٦) .

وإذا كانت عائلة شارل قد قصرت معه فى الجوانب الاجتماعية والعاطفية إلا أنها عوضته فى بعض الجوانب المادية ، فقد كان والده يتمنى أن يكون مولوده ذكرًا حتى يحصل على إقطاعية أنجو ومين Maine ، وقد استجاب الله لرغبته ووضعت زوجته بعد وفاته مولودًا ذكرًا هو شارل الذى حصل على هذه الإقطاعية فى عام ١٢٤٧م عندما بلغ العشرين من عمره(٧) .

يضاف إلى ذلك أن والدته وأخاه لويس خططا وهو فى التاسعة عشر من عمره ، أى فى يناير عام ١٢٤٦م لزواجه من بياترس Beatrice أخت مارجريت Margaret زوجه لويس التاسع فتزوجها فى عام ١٢٣٤م ، وكلا الاختين من أبناء ريموند برنجار الرابع Raymond Berengar IV كونت مقاطعة بروفانس Provence ، وكان له بنتان أخريتان هما اليانور Eleanor التى تزوجت فى عام ١٢٣٦م من هنرى الثالث Henry III ملك انجلترا (١٢١٦ - ١٢٧٢م) ، وسانسيا Sanchia وهى البنت المدللة التى تزوجت فى عام ١٢٣٤م من ريتشارد أف كورنول Richard of Cornwall أخو هنرى الثالث . وريتشارد هذا كان له دورًا كبيرًا فى الحروب الصليبية عندما قاد حملته على بلاد الشام ١٢٤٠ - ١٢٤١م(٨) ، كما رشحته البابوية لتولى عرش ألمانيا فى عام ١٢٥٧م عندما انقسم الشعب الألمانى على نفسه عام ١٢٥٦م ، وعندما ألقت البابوية بكل ثقلها فى صراعها ضد أسرة الهوهنشتاوفن Hohenstaufen(٩) .

وبالإضافة إلى إقطاعية أنجو ومين ، فقد حالف الحظ شارل بزواجه من بياترس أف بروفانس ، فقد كان القانون الاقطاعى يقضى فى حالة عدم وجود أخوة من الذكور ، أن تقسم الإقطاعية بين البنات ، ولكن ريموند برنجار شذ عن هذه القاعدة ، ووهب كل المقاطعة لابنته بياترس لأنه لم يكن راغبا فى تفتيت المقاطعة(١٠) ، خاصة أن بناته الأخريات قد حصلن على بائنات ممتازة . وقد أدى ذلك إلى وجود علاقات غير طيبة بين شارل وزوجة أخيه لويس وبينه وبين والدة

زوجته(١١) . والمهم هنا أن شارل حاز إقطاعية أنجو ومين عن طريق أسرته ، ومقاطعة بروفانس بزواجه من بياترس عام ١٢٤٦م .

و لم ينل شارل حقه فى مقاطعتى أنجو ومين حتى زواجه ، لذلك اتجه بعد زواجه فى بدايات عام ١٢٤٦م ، إلى مقاطعة بروفانس واصطحب معه عددا كبيرا من رجال البلاط الفرنسي ورجال القانون . أدى هذا إلى سخط أهالى بروفانس عليه ، ومن ذلك قيام بعض النبلاء ومنهم بارال أف ليبو Barral of Les Baux وبونيفاس أف كاستلان Boniface of Castellane بتكوين جبهه معارضة ضد حكم شارل . وعندما ذهب شارل إلى الشمال فى العام التالى (١٢٤٧م) ليتقلد منصب كونت أنجو ومين ، كونت ثلاث مدن من الشريط الحدودى مع إيطاليا حلفا ضد شارل ، وقد تولى بارال أمر هذه الحلف (١٢) .

وكان شارل كونت أنجو قد وعد بمشاركة أخيه لويس التاسع فى حملته على مصر ، ولذا لم يكن لديه الوقت الكافى لمواجهة هذه المعارضة . وكل ما فعله فى تلك المرحلة هو عقد تسوية مع والدة زوجته فتنازل عن أراضى إقليم فولكالكير Forcalquier ، وثلث دخل مقاطعة بروفانس ، وأطمأن شارل إلى هذه التسوية وأبحر مع أخيه من ميناء ايجوس - مورت - Aigues Mortes فى عام ١٢٤٨م(١٣) ، الواقع فى مقاطعة بروفانس التى يحكمها شارل .

وكان أن ثارت الفتنة فى المقاطعة بعد رحيله ، ولكن شارل اعتبر نفسه فى مهمة مقدسة وهى القتال فى صفوف الحملة الصليبية ، وبذلك تكون أراضيه تحت حماية البابوية . وقد سمح له أخوه لويس بالعودة من فلسطين التى أبحر إليها لويس بعد هزيمته وفشل الحملة فى مصر ، فعاد شارل ومعه أخوه الفونسو ليرعيا شئون الدولة فى غيابه بناء على طلب الملكة الأم . ولما عاد شارل إلى فرنسا بدأ فى منازلة معارضيه وانتصر عليهم الواحد بعد الآخر(١٤) .

وطبقًا للنظرية البابوية فقد كانت صقلية تعتبر إقطاعا بابويًا ، فالبابوية هى التى منحت النورمان جنوب إيطاليا وصقلية فى القرن الحادى عشر ، وقد ورث

عرش صقلية الإمبراطور الألمانى فريدريك الثانى Frederic II (١٢١٢ - ١٢٥٠م) عن طريق والدته كونستانس Constance ، وعندما أصدر البابا انوسنت الرابع Innocent IV (١٢٤٣ - ١٢٥٤م) قرار الحرمان الكنسى ضد الإمبراطور وشبهه بفرعون فى المؤتمر الكنسى الذى عقد فى مدينة ليون Lyons فى مايو ١٢٤٥م ، اعتبرت البابوية نفسها مسئولة عن عرش صقلية(١٥) .

واستمر العداء بين البابوية وأسرة الهوهنشتاوفن ، ولم تعترف بملوك الأسرة الذين حكموا صقلية وجنوب إيطاليا ، وفى عام ١٢٦١م أصبح الفرنسى جيمس بانتاليون James Pantaleo بطريق بيت المقدس الرسمى (١٢٥٥ - ١٢٦١م) ، البابا تحت اسم أوربان الرابع Urban IV (١٢٦١ - ١٢٦٤م)(١٦) . وقد نجح أوربان فى إقناع لويس التاسع بأن نجاح أى حملة صليبية يتوقف على القضاء على أسرة الهوهنشتاوفن . ورشح البابا شارل كونت أنجو ليتولى عرش صقلية وجنوب إيطاليا ، واعتبرت البابوية أن الحرب ضد أسرة الهوهنشتاوفن حربًا صليبية(١٧) .

وافق الملك لويس على فكرة البابا وترشيح شارل ، وتبنى البابا كلمنت الرابع Clement IV (١٢٥٦ - ١٢٦٨م) ، وهو فرنسى الأصل أيضًا فكرة سلفه ووافق على قيام شارل بغزو جنوب إيطاليا فى العام الأول من توليه عرش البابوية ، وقدم الملك لويس وكل بارونات فرنسا الدعم العسكرى والمالى لجيش شارل الذى أبحر من مدينة مرسليا Marseilles على متن ثلاثين سفينة كبيرة إلى مدينة روما فوصلها فى مايو ١٢٦٥م حيث قابل البابا الذى منحه لقب ملك صقلية وأبوليا ، وقدم له الدعم المادى والروحى(١٨) .

وكان أن تقدم شارل بقواته جنوبًا استعدادًا لدخول جنوب إيطاليا ، والتقى بقواته مع قوات الحاكم الألمانى مانفرد Manfred التى كانت تضم فى صفوفها بعض العناصر الإسلامية . وكان اللقاء فى معركة بنفنتو Benevento التى انتهت فى الثامن عشر من فبراير عام ١٢٦٦م ، بانتصار شارل على مانفرد . وبذلك أصبح شارل ملكًا واقعيًا على صقلية وأبوليا(١٩) .

ويبدو واضحًا أنه كان من أهداف ملوك صقلية أن يضموا أو يؤسسوا لهم إمارات فى الجانب الشرقى من حوض البحر المتوسط ، إذ حاول روبرت جويسكارد Robert Guiscard أن يغزو بعض الأراضى البيزنطية(٢٠) . كما ساندت أسرته الحملة الصليبية الأولى ، وتمكن بوهمند Bohemond من إقامة إمارة انطاكية وحكمها (١٠٩٨ - ١١١١م)(٢١) . أما روجر الثانى Roger II (١١٢٩ - ١١٥٤م) ، فقد كان يأمل فى السيطرة على جانب من أراضى الامبراطورية البيزنطية ، وقام فى خريف عام ١١٤٧م بغزو جزيرة كورفو Corfu(٢٢) . كما قام هنرى السادس Henry VI الإمبراطور الألمانى (١١٩٠ - ١١٩٧م) وحاكم صقلية أيضًا - عن طريق زوجته كونستانس Constance - بوضع الخطط ليمد سلطانه على الأمارات الصليبية فى بلاد الشام ، والإمبراطورية البيزنطية وغيرها من الأقاليم الشرقية وأرسل الحملة الصليبية الألمانية عام ١١٩٧م إلى بلاد الشام(٢٣) .

وفيما يتعلق بابنه الإمبراطور فريدريك الثانى : فإنه لم يحاول أن يتطلع إلى أراضى الإمبراطورية البيزنطية ، ولكنه كان ملكًا على صقلية ومملكة بيت المقدس الأسمية . أما ابنه مانفرد ملك صقلية (١٢٥٨ - ١٢٦٦م) فقد تزوج فى عام ١٢٥٠ م من هيلينا Helena ابنة ميخائيل الثانى حاكم إمارة إيبروس Epirus (١٢٢٧ - ١٢٧١م) بعد تمزق الامبراطورية البيزنطية فى عام ١٢٠٤م(٢٤) .

والحقيقة أن المسألة كلها كانت تسير فى فلك الحروب الصليبية ، فالحملة الصليبية الرابعة التى اجتاحت القسطنطينية واستولت عليها عام ١٢٠٤م أغضبت البابوية ، ولكن بقيام الامبراطورية اللاتينية (١٢٠٤ - ١٢٦١م) على أنقاض الامبراطورية البيزنطية ، فقد البيزنطيين تعاطف أوربا معهم بسبب رفض البيزنطيين الشديد لتقبلهم السيادة اللاتينية الجديدة والمذهب الكاثوليكى . وساد الاعتقاد فى أوربا فى تلك المرحلة وما بعدها أن أى حرب ضد الإمبراطورية البيزنطية تعتبر حربًا صليبية .

وكان للملك لويس التاسع عندئذ رؤية خاصة تتمثل فى أن أى حملة صليبية يجب أن يكون هدفها الأول السيطرة على الأراضى المقدسة فى بلاد الشام وانتزاعها من أيد المسلمين ، ورغم هذا فإنه كان يرى أن تقوية الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية وكبح جماح المنشقين البيزنطيين سوف يخدم القضية الصليبية ، واعتنق ذات الفكرة المفكرون الأوروبيون من بعده(٢٥) .

لقد كان فى عودة الإمبراطورية البيزنطية عام ١٢٦١م وإنهيار الإمبراطورية اللاتينية تقوية لهذا الشعور داخل أوربا ، والواقع أن الإمبراطور الألمانى مانفرد كان عدوا للإمبراطورية البيزنطية فى المنفى ، لذلك قدم الدعم للامبراطورية اللاتينية . وكان يأمل من وراء ذلك أن يظهر للعالم المسيحى الأوربى أنه صليبى متحمس ، ويكسب رضا البابوية كذلك فكر مانفرد لبعض الوقت أن يتقرب من البابوية . ولكن ذلك كان بعيدًا عن أفكار البابوية لأنه فى تلك المرحلة كانت قوات شارل كونت أنجو فى طريقها إلى جنوب إيطاليا بدعم من البابا ، وهنا أقلع مانفرد عن مصالحة البابا وعن مساندة الإمبراطورية اللاتينية فى المنفى واستدار لمواجهة مرشح البابا لعرش جنوب إيطاليا وصقلية . ولكن مانفرد هزم وقتل فى معركة بنفنتو وأصبحت هيلينا زوجته أسيرة لدى شارل كونت أنجو(٢٦) .

وبعد هذه الأحداث اعتبر شارل نفسه وريثًا للأمبراطور مانفرد وزوجته فى الأراضى البيزنطية . وبدأ فى إرسال حملة للاستيلاء على الأراضى التى قدمت كبائنة للملكة هيلينا وهى جزيرة كورفو والمدن الواقعة قبالها وهى بوترينتو Butrinto ، وأفلونا Avlona ، وسوبوتو Suboto ، وكان مانفرد قد عهد بحكم هذه الأراضى لأمير البحر فيليب شينياردو Philip Chinardo . وعندما علم فيليب بمصرع مانفرد فى بنفنتو حكم هذه الأراضى لصالحه . وقد حاول ميخائيل الثانى والد هيلينا وحاكم إيبروس استرداد هذه الأراضى ولكنه لم يوفق . ولكى ينقذ ماء وجهه أعلن أنه سوف يقدم هذه الأراضى كبائنه إلى فيليب إذا تزوج من أخت زوجته ، وتم الاتفاق على ذلك(٢٧) .

لم يمنع هذا الاتفاق ميخائيل الثانى من تدبير المكائد ضد فيليب وخطط لاغتياله ، وكان ذلك من حسن حظ شارل فعندما وصلت قوات شارل كونت أنجو إلى السواحل البيزنطية لم تجد مقاومة تذكر ، فاستولت على هذه الأراضى ، وأدعى شارل أن ملكيته لهذه الأراضى هى ملكية شرعية ، وأن هيلينا أرملة مانفرد هى أسيرته ، وأن بانتنها آلت إليه (٢٨) .

ثم قام شارل بتعيين أحد أعضاء فيليب ويدعى جازو Gazo حاكما على تلك الأراضى ، ولكن طموح شارل لم يتوقف عند هذه المرحلة ، بل تطلع إلى القسطنطينية نفسها ، أما الإمبراطور اللاتينىبلدوين الثانى Baldwin II (١٢٢٨ - ١٢٦١م) الذى كان يعيش فى المنفى داخل أوربا ، فإنه فقد أمله فى البلاط الفرنسى بعدما علم بخطط شارل والبابوية فى صقلية وجنوب إيطاليا ، ولم يعد لديه الوقت لمناصرته وإمداده بالرجال أو السلاح أو المال(٢٩) .

وكان أن إتجه بلدوين من فرنسا إلى إيطاليا ، وتقابل مع البابا كلمنت الرابع فى مدينة فيتربو Viterbo فى الرابع والعشرين من مايو عام ١٢٦٧م ، وقد خطط البابا للتوفيق بين بلدوين وشارل . وكان على بلدوين أن يدفع الكثير مقابل مساندة ومساعدة شارل عسكريا له . وكان من طلبات شارل أن يؤكد له بلدوين ملكية بائنه الملكة هيلينا ، وأن يتخلى بلدوين عن سيادة إمارة أخيا Achaea ، وأن يكون للملك شارل حق السيادة على جزء من بحر إيجه عدا الجزر التى تسيطر عليها البندقية ، وجزر لسبوس Lesbos ، وخيوس Chios ، وساموس Samos ، وأمورجوس Amorgos التى سمح لبلدوين الاحتفاظ بها إذا استعادها . وأن يقدم بلدوين ثلث دخل أى مقاطعة يتم استعادتها بما فيها القسطنطينية . وبالإضافة إلى ذلك فقد كان على فيليب بن بلدوين أن يتزوج من بياترس Beatrice ابنة شارل كونت انجو بشرط أنه فى حالة موت فيليب دون عقب له ، فإن حقوقه فى الإمبراطورية تؤول إلى شارل نفسه ، وتم الاتفاق على ذلك(٣٠) .

وكان شارل على اتصال بوليم الثانى فلهاردوين William II of Villehardouin (١٢٤٦ - ١٢٧٨م) وذهب السفراء من كل جانب إلى

الجانب الآخر فى فبراير ١٢٦٧م . وقد رحب وليم بهذه الصداقة الجديدة التى جعلته يستند إلى حاكم قوى نشيط مثل شارل لكى يقوى بهذه الرابطة موقفه فى إمارته بعد استعادة آل باليولوج Palaeologus عرش بيزنطة فى القسطنطينية عام ١٢٦١م .

ورغم أن وليم كان زوجا لاخت الملكة هيلينا أرملة مانفرد إلا أن ذلك لم يكن له أثر فى الوضع الجديد . ولعل ذلك مرجعه إلى أن وليم كانت له بنتان وليس له ولد ، أكبرهما هى إيزابيلا وريثته ، وقد رشحت للزواج من أندرونيق Andronicus ابن الامبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن . وقد طلب شارل زواج ابنه فيليب من إيزابيلا وغض النظر عن الترشيح الأول . واشترط شارل أنه فى حال وفاة وليم دون ولد تؤول أراضيه إليه كما فعل مع بلدوين ، وقد تم الزواج على هذا الأساس فى السابع عشر من يونيه عام ١٢٧٠م ، ولكن وليم وضع بعد ذلك وصية سرية تقتضى بأن تؤول أراضيه إلى ابنته الأخرى وهى الصغرى مارجريت(٣٢) .

وبعد أن اطمأن شارل إلى وليم بدأ شارل فى إرسال قواته إلى أخيا ليؤكد سيطرته عليها ، وقد رحب وليم بذلك لانزعاجه من استعادة بيزنطة لعرش الامبراطورية ، وذهب وليم إلى أبعد من ذلك ورحب بأى حملة عسكرية توجه إلى القسطنطينية نفسها(٣٣) .

وكان شارل كونت أنجو قد ذهب بدوره إلى أبعد من ذلك لتطويق الامبراطورية البيزنطية ، ويرى البعض أنه فى عام ١٢٦٧م أرسل سفارة إلى الخان المغولى فى فارس أبغا Abaga (١٢٦٥ - ١٢٨٢م)(٣٤) . ولعل هذه السفارة كانت ضمن وفد السفارة التى أرسلها البابا كلمنت الرابع إلى خان فارس . فقد كان شارل يخشى من قيام تحالف بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى ، ولكن هذه السفارة فشلت فى مهمتها لعدة أسباب ؛ منها أن أبغا لم يكن متعاطفاً مع الغرب الأوربى ، إلى جانب زواجه من أميرة بيزنطية هى ماريا باليولوج التى عرفت عند المغول باسم دسبينا خاتون Despina Khatun . يضاف إلى ذلك انصراف ابغا إلى القتال الذى دار بينه وبين القبيلة الذهبية فى روسيا(٣٥) .

وبعد فشل هذه المهمة بدأ شارل كونت أنجو فى البحث عن حليف آخر فى أوربا ، وقد وجد ضالته فى مملكة هنغاريا التى كانت حدودها تمتد من مدينة فيينا إلى شبه جزيرة البلقان . وكان ملكها العجوز بيلا الرابع Bella IV (١٢٣٥ - ١٢٧٠م) قد غزا بلاد الصرب وبلغاريا عدة مرات بمساعدة زوج ابنته ملك البوسنة . وكان بيلا قد وعد بقيادة حملة صليبية ضد الامبراطورية البيزنطية . وبدأ الاتصال بين شارل وبيلا عندما ماتت زوجة الأول بياترس عام ١٢٦٨م ، وقد طلب شارل من الملك بيلا أن يتزوج ابنته مارجريت ولكن مارجريت كانت قد وهبت نفسها للرهبنة . وقد احترمت الأطراف المعنية رغبتها ، وهناك من يقول أنها دخلت سلك الرهبانية للتهرب من هذا الزواج(٣٦) .

واقترح شارل اقتراحًا آخر وهو أن بيلا كان له ولد هوستيفن Stephen الذى خلف والده فى حكم هنغاريا (١٢٧٠ - ١٢٧٢م) تحت اسم ستيفن الخامس ، وكان للأخير ولد هو لاديسلاس Ladislas وابنة هى ماريا ، وطرح شارل زواج ابنه شارل الثانى أمير سالرنو Salerno من ماريا ، وأن تتزوج ايزابيلا ابنة شارل من لاديسلاس(٣٧) . وقد تم هذا الزواج الذى أدخل أسرة شارل كونت أنجو فى العرش المجرى(٣٨) . وعلى أثر ذلك استعد شارل لغزو القسطنطينية. ولكن تنفيذ خطط شارل توقف لبعض الوقت عندما تدخل كونرادين Conradin ابن كونراد فى إيطاليا بعد مصرع عمه مانفرد ، لمقاتلة شارل . وقد استعد شارل للمعركة القادمة وسانده صهره وليم حاكم أخيا وأرسل إليه حوالى أربعمائة فارس لمساندته ضد كونرادين . وانتهى الأمر بهزيمة كونرادين فى عام ١٢٦٨م ، وتم القبض على كونرادين وعدد من رجاله ، وتم إعدامه وكبار مرافقيه فى الميدان العام بمدينة نابلى . وكان كونرادين يبلغ من العمر سبعة عشر عامًا ، وبموت كونرادين انتهى فرع آل الهوهنشتاوفن فى حكم ألمانيا ، وحققت البابوية هدفها فى القضاء على عائلة فريدريك الثانى .

وكانت هذه الحرب كلها قد دارت على أساس أن كونرادين ورجاله من أعداء الكنيسة ، ولذلك دفن كونرادين ومن معه تحت رمال سوق المدينة دفنة غير

شرعية باعتبارهم خارجين عن رحمة الكنيسة . وقد غضبت البابوية من تنفيذ حكم الإعدام فى كونرادين ورفاقه ، وكان البابا يرى أن من الأفضل معاقبتهم بالسجن لا الإعدام(٣٩) .

وبعد هذه الأحداث بدأ شارل يستعد لغزو القسطنطينية وحدد صيف عام ١٢٧٠م موعدًا لذلك . وقد استعدت السفن فى البحر الادرياتيكى ، وتم الترتيب مع وليم أمير آخيا للتعاون والتنسيق فى العمليات العسكرية ، والواضح أن أخبار الحملة قد تسربت إلى مسامع الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن ، فاستعد بالأسطول البيزنطى رغم صغر عدده ، وحمله بالعتاد ، ولم يكن للإمبراطور حليف فى أوربا غير جنوة التى كانت واقعة تحت سيطرة الجولفيين أعداء آل الهوهنشتاوفن ، وحتى هؤلاء الحلفاء كانت تربطهم علاقات طيبة مع شارل كونت أنجو(٤٠) .

وفى هذه المرحلة ظهرت رغبة لويس التاسع ملك فرنسا فى القيام بحملة صليبية لمقاتلة المسلمين ، وكان يرى أن يتم ذلك بأسرع وقت ممكن لأن صحته فى تدهور مستمر ، فلقد كانت هزيمته فى حملته على مصر لا تبارح خياله ، واعتمد على مساندة أخيه شارل . وكان على شارل أن لا يتخلى عن مساندة أخيه ، ولكنه فى الوقت نفسه لا يريد أن يتخلى عن مشاريعه فى شرق البحر المتوسط(٤١) .

ويرى البعض أنه إذا كان على شارل اللحاق بحملة صليبية ، فيجب أن تكون ضد المسلمين الذين يهددون مملكته . فعلى الشاطىء المقابل لجزيرة صقلية توجد مدينة تونس حيث يحكم الأمير أبو عبد الله محمد المستنصر بالله الحفصى (٦٤٧ - ٦٧٥هـ / ١٢٤٩ - ١٢٧٧م)(٤٢) . وكانت العلاقات سيئة بين المستنصر وشارل ، ومرجع ذلك إلى أن تونس كان عليها أن تدفع جزية سنوية لحاكم صقلية منذ أيام روجر الثانى (١١١٣ - ١١٢٩م) ، ولكن المستنصر توقف عن دفع هذه الجزية ، وكان شارل يأمل فى أن يدفع المستنصر هذه الجزية

التى توقفت منذ سبعة عشر عامًا(٤٣) . يضاف إلى ذلك أنه كان للملك الفونسو العاشر Alfonso ملك قشتاله (١٢٥٢ - ١٢٨٤م) أخوان ، هما فريدريك وهنرى ، وكانا على خلاف مع الفونسو لعدم رغبته فى إشراك أحدهما فى عرش الدولة . لذلك غادرا قشتاله بحثًا عن حياة المغامرة ، ودخل فريدريك فى خدمة أمير تونس . ثم عبر إلى إيطاليا ليلحق بالملك مانفرد وكان معه فى معركة بنفنتو ، كذلك اشتركت فى هذه المعركة بعض القوات الإسلامية . وبعد هزيمة مانفرد هرب فريدريك وعاد إلى تونس ومعه رجاله حيث دخل تحت رعاية المستنصر . وفى العام التالى أى فى عام ١٢٦٧م كانت جزيرة صقلية فى حالة ثورة ضد حكم شارل وذلك بدعم من بعض العناصر التى وصلت إليها من تونس(٤٤) .

والواقع أن المستنصر كان مسلمًا متسامحًا ، عاش فى بلاطه وفى بلاده الكثير من المسيحيين ، كما تردد على بلاده الكثير من التجار الذين سمح لهم بمزاولة عملهم بكل حرية بل أنه سمح بإقامة أحد الأديرة فى العاصمة تونس . ولعل ذلك مما دفع البعض ومنهم شارل للتفكير فى أن المستنصر ينوى التحول إلى الديانة المسيحية ، إلا أنه يخشى معارضة رجال الدين والأئمة فى بلاده ، واعتقد شارل فى أن يصبح المستنصر حليفًا له وأن يتحكم فى المضيق البحرى الذى يقع بين صقلية وتونس ، وكان يأمل من وراء ذلك كله أن يجنى بعض الأموال التى تساعده فى حملته المقبلة على بيزنطة(٤٥) .

وعن الجانب الصليبى فقد اعتقد الصليبيون وعلى رأسهم لويس وشارل أن نجاح الحملة على تونس يؤدى إلى الاستيلاء على مصر بسهولة وأن بالإمكان فصل مملكة سبته - والمقصود بها المغرب - ، وكذلك مملكة غرناطة - والمقصود بها الأندلس - عن المشرق الإسلامى(٤٦) ، واعتنق لويس هذه الأفكار وتجدد عنده الأمل فى السيطرة على مصر والشام بعد تونس . ولكن بعض مستشارى الملك لم يوافقوا على القيام بأى حملة سواء إلى تونس أو إلى المشرق لاعتلال صحة الملك، وإن كان البعض منهم يرى أن تكون وجهة الحملة إلى الشام حيث الأمارات

الصليبية التى يمكنها تقديم المساعدات العسكرية للحملة . وعندما أصر لويس على توجيه الحملة إلى تونس رفض بعض المقربين إليه الذهاب معه ومن هؤلاء المؤرخ جوانفيل(٤٧) .

وفى نهاية الأمر غادرت القوات الفرنسية بقيادة الملك لويس ميناء إيجوس - مورت ومعه بعض أفراد عائلته ، منهم ابنه الأكبر فيليب ، وزوجته إيزابيلا أف أراجون ، وولديه يوحنا ولويس وملك نافارو تيبالد الثانى Tibald II زوج ابنته إيزابيلا وعدد كبير من النبلاء . وقد ساهم أسطول جنوه فى نقل معظم هذه القوات(٤٩) .

ونظرًا للمخاطر والصعاب التى أحاطت بهذه الحملة ، فقد كان شارل يخشى قيام الملك لويس بإلغاء الحملة من أساسها سواء إلى تونس أو إلى الشام ، لأن شارل كان يعلم أن الكثير من مستشارى الملك كانوا ضد فكرة الحملة على تونس، ولم يتخل شارل عن مشروع مهاجمة القسطنطينية إلا بعد ما تأكد أن الملك لويس قد أبحر إلى تونس فعلاً . وفى تلك المرحلة أمر شارل سفنه بالاتجاه إلى تونس بدلاً من القسطنطينية ، وتجمعت السفن عند صقلية بدلا من تجمعها فى البحر الادرياتيكى . وترك شارل مدينة نابلى فى الثامن من يوليو عام ١٢٧٠م ، واتجه إلى مدينة بالرمو Palermo فى صقلية فوصلها فى الثالث عشر من الشهر نفسه وظل فى انتظار الأسطول . وفى العشرين من أغسطس كان فى مدينة ترابانى Trapani التى تقع فى الطرف الغربى لجزيرة صقلية . وفى مساء يوم الرابع والعشرين من أغسطس أبحر على رأس أسطوله ورسا فى اليوم التالى فى تونس ليتلقى خبر وفاة الملك لويس فى صباح ذلك اليوم(٥٠) .

وكان الجيش الفرنسى قد وصل إلى تونس فى السابع عشر من يوليو عام ١٢٧٠م ورسا عند سواحل المدينة دون مقاومة تذكر . ويتضح من النصوص أن الأمير المستنصر لم يعلن عن تحوله إلى الديانة المسيحية ، بل على العكس من ذلك فكان قد أمر بتحصين المدينة وأعد قواته للدفاع عنها ، وكان لويس قد أقام

معسكره فى أطلال مدينة قرطاج . ويرى البعض أن المستنصر لم يبادر بشن الهجوم على القوات الفرنسية ، بل انتظر حتى وصول بقية القوات ومنها قوات شارل وقوات الأمير الأنجليزى إدوارد Edward(٥١) . ويستدل من ذلك أن المستنصر كان على علم بكافة التحركات العسكرية للحملة . ولعل مصدر هذه المعلومات العناصر الثائرة التى كانت تقيم فى تونس، أو من التجار الأجانب أيضًا.

وخلال فترة الانتظار هذه دارت بعض المناوشات بين الصليبيين والتونسيين فى جو شهر يوليو الحار فى أراضى تونس المتربة . ولعدم معرفة القوات الصليبية بالأراضى التونسية ومناخها فقد تأثرت بهذه الأوضاع وتفشى فيها مرض الطاعون، كما مرض الملك لويس وابنه فيليب . وتولى القيادة يوحنا بن لويس الذى ولد فى مدينة دمياط أثناء أحداث الحملة السابعة ، وكان يبلغ من العمر عشرين عامًا وظل يعمل تحت أمره المندوب البابوى منذ مرض والده لويس حتى وفاته فى الخامس والعشرين من يوليو عام ١٢٧٠م(٥٢) .

وهكذا كان فى وصول الملك شارل وقواته نجدة للجيش الفرنسى ، خاصة أن قواته كانت غير مرهقة وتمكنت من التعامل عسكريا مع القوات الإسلامية التى تزايدت أعدادها وتمركزت على التلال المحيطة بأرض المعارك . وفى الوقت المناسب قام شارل بالهجوم على مدينة تونس حيث دارت بعض الاشتباكات والمناوشات فى معركتين صغيرتين كما دارت بعض الاشتباكات فى البحر أيضًا . ثم وصلت قوات الأمير الإنجليزى إدوارد . ولكن المعارك العسكرية لم تستمر طويلا ، فقد وجدت الأطراف المتصارعة أن السلام أفضل من القتال(٥٣) .

وفى نهاية شهر أكتوبر بدأ وضع شروط السلام بين الطرفين وتم توقيعها فى مطلع شهر نوفمبر . وقد وقع المعاهدة الأمير المستنصر ، ومن الجانب الصليبى الملك شارل كونت أنجو وابن أخيه الأمير يوحنا . وبموجب هذه المعاهدة وافق المستنصر على دفع تكاليف الحملة ، وأن يتم إطلاق سراح الأسرى الصليبيين ، وأن يسمح ببناء الكنائس والأديرة فى تونس وأن يسمح بالتبشير بالديانة المسيحية

أيضًا ، وأن يدفع المستنصر جزية سنوية قدرها عشرين ألـف بسـتول Pistoles مـن الذهب سنويًا وبعض الشروط الأخرى(٥٤) . ويرى البعض أن مدة الهدنـة كـانت عشر سنوات ، وقد تم تجديدها بعد ذلك لمدة أخرى(٥٥) .

لقد فعل شارل كونت أنجو كل ما فى وسـعه لدعـم هـذه الحملـة وليكـون بعيدًا عن الشبهات ، لقد ظن الصليبيون أن بوسعهم الاستيلاء على تونس . ولكن شارل كان يرى أن نصيبه من الغنائم سوف يكـون قليـلاً لأن الأطـراف المشـاركة فـى الحملـة كثيرة ، فهنـاك أخوه لويـس التاسـع ، وتيبـالد ملـك نافـارو والأمـير الإنجليزى إدوارد ، والبابوية ، والجنويه ، وعـدد آخـر مـن النبـلاء . لذلـك فضـل شـارل التفـاوض مـن أجـل السـلام الـذى حصـل بموجبـه علـى العديـد مـن الامتيازات(٥٦) .

والواقع أن الأمـير إدوارد عندمـا وصـل بقواتـه إلى تونـس فـى مطلـع شـهر نوفمبر أصيب بخيبـة الأمـل عندمـا علـم أن الحـرب قـد انتهـت ، ولكنـه أبحر إلى الساحل الشامى حيث نزل فى ميناء عكا ليبدأ مغامرة جديدة مع المغول فى محاولة لاستعادة الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين(٥٧) .

ورغـم المزايا التى حصل عليها شـارل فـإن سـوء الحـظ لازم الحملـة ، فقـد ظلت بعض القوات طريحة المرض فى المعسكرات عنـد مدينـة تونـس ، وقـد مـات منها الكثير . كما مرض تيبالد ملك نافارو ثم ما لبـث أن مـات عندمـا وصـل إلى مدينة تراباتى فى صقلية . وعندما أبحر الأسطول الصليبى من تونس ضربته عاصفـة عند الساحل الغربى لجزيرة صقلية ، واصطدمت السفن ببعضهـا ، وتحطـم العديـد منها . كما هلك الكثير من الصليبيين من جراء ذلك(٥٨) . وكـان الأمـر يتطلـب عدة أشهر لترميم هذه السفن وإعدادها لحملة مقبلة ضد القسطنطينية .

لقد خسر شارل الكثير بفشل الحملة وأحداث العاصفة وبموت أخيه لويس، وعندما تولى ابنه فيليب عرش فرنسا وقع تحت تأثير والدته التى لم تتعاطف مع عمه شارل ، فعزف فيليب عن مساعدة عمه ، وبذلك فقـد شـارل كـل مسـاعدة مـن البلاط الفرنسى(٥٩) .

وفيما يتعلق بعلاقة شارل كونت أنجو ببيت المقدس ، فإن الأحداث ترجع إلى عام ١٢٦٠م قبل معركة عين جالوت ، وذلك عندما قدم القائد المغولى هولاكو إلى ضواحى أنطاكية ، ثم قدم هيثوم الأول Hethoum I ملك أرمينيا (١٢٢٦ - ١٢٦٩م) ، وصهره بوهمند السادس Bohemond VI أمير انطاكية (١٢٥١ - ١٢٦٨م) لزيارة هولاكو فى معسكره ، وقد كافأهم على ما قدموه من مساعدة للجيش المغولى(٦٠) .

ويهمنا فى هذا البحث الأمير بوهمند الذى قدم له هولاكو بعض المدن والحصون التى كانت فى حوزة المسلمين وذلك مقابل موافقة بوهمند على تعيين البطريك الارثوذكسى يوثيموس Euthymius بدلاً من البطريق الكاثوليكى أوبيزو Opizo (١٢٤٧ - ١٢٩٢م) (٦١) . ويرجع ذلك إلى العلاقات الودية التى ربطت هولاكو بالامبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن باليولوج فى منفاه فى مدينة نيقيه .

واعتبر الصليبيون أن فى ذلك إهانة للكنيسة الكاثوليكية بأسرها ، يضاف إلى ذلك ما كان من التوتر الزائد الذى ساد الأمارات الصليبية كلها نظرًا لزيادة نفوذ البنادقة فى مملكة بيت المقدس الإسمية ، ونمو تجارتهم مع المسلمين فى مصر والشام ، هذا فضلا عن الصراع الذى ساد منطقة شرق البحر المتوسط بين البندقية وجنوة التى ارتبطت بالإمبراطورية البيزنطية بعد عودتها فى عام ١٢٦١م ، وقيام الإمبراطور بمنح العديد من المزايا التجارية التى قدمتها لهم الإمبراطورية فى موانى البحر الأسود وبحر إيجه(٦٢) .

وفى تلك المرحلة كان يتولى أمر مملكة بيت المقدس الأسمية هيو الثانى Hugh II ملك قبرس (١٢٥٣ - ١٢٦٧م) ، باعتباره يلى فى الوارثة كونراديين المتغيب عن البلاد. وكان هيو هذا طفلاً صغيرًا يبلغ من العمر حوالى سبع سنوات. ولم يكن بوسعه أن يفعل شيئًا إزاء هذه الأحداث لذلك تطلع نبلاء مملكة بيت المقدس إلى شخصية قوية تتولى حماية المملكة والدفاع عنها وتسيير أمورها لمصلحة

القضية الصليبية . وتطلع النبلاء إلى فرنسا كعادتهم حيث وقع اختيارهم على شارل كونت أنجو ، وأرسلوا إليه في العاشر من مايو ١٢٦٠م ، أى بعد سقوط بغداد وقبل معركة عين جالوت يوضحون له ما دار في المنطقة من أحداث ، وسيطرة المغول على مدن شمال الشام ، وغير ذلك من الوقائع(٦٣) . وواقع الحال أن شارل كان يخطط للسيطرة على جانب من بعض الأراضى البيزنطية وصقلية وجنوب إيطاليا ، فلم يهتم بطلبات النبلاء الصليبيين .

وفي أواخر عام ١٢٦٧م مات هيو الثانى فخلفه على عرش قبرس هيو الثالث (١٢٦٨ - ١٢٨٤م) ، وأصبح ملكًا أيضًا على مملكة بيت المقدس الأسمية(٦٤) . وفى العام التالى (١٢٦٨م) هزم شارل كونرادين وأعدمه فى العام نفسه . وكونرادين هذا هو ابن كونراد بن فريدريك الثانى الذى كان قد تزوج من يولاند برين Yolande Brienne وريثة عرش مملكة بيت المقدس عن طريق أمها ماريا . وبذلك أصبح فريدريك الثانى ملكًا على مملكة بيت المقدس الأسمية (١٢٢٥ - ١٢٢٨م) ومن بعده ابنه كونراد كملك اسمى (١٢٢٨ - ١٢٥٤م)، ومن بعده ابنه كونرادين صاحب الحق الشرعى فى عرش المملكة . ومع إعدام كونرادين اختلف نبلاء المملكة حول الوريث الشرعى للمملكة . وانحصر الأمر فى أليس أف شامبانى Alice of Champagne ، وهيو الثالث ملك قبرس ، وهيو برين، ورابعة تدعى ماريا(٦٥) .

وتدخل البابا فى الأمر ، واعترض نبلاء مملكة بيت المقدس واعتبروا أن المحكمة العليا فى المملكة هى صاحبة الحق فى حل هذه القضية ، وظل الأمر حتى قيام البابا جريجورى العاشر Gregory X (١٢٧١ - ١٢٧٦م) قبل وفاته باقناع ماريا ببيع حقها فى وراثة العرش إلى شارل كونت أنجو ، وتم التنازل فى مارس

عام ١٢٧٧م فى عهد البابا يوحنا الحادى والعشرين John XXI (١٢٦٧ - ١٢٧٧م)(٦٦) .

ورغم أن هذا التنازل لا يعنى سوى أن شارل حل محل ماريا ، مع بقاء أصل النزاع على العرش كما هو بين الأطراف الأربعة المدعين بحق الوراثة ، إلا أن شارل قام بعد هذا التنازل بحمل لقب ملك مملكة بيت المقدس الأسمية ، وتضع المراجع المتخصصة إلى جوار اسمه وسنى حكمه (١٢٧٧ - ١٢٨٥م) كلمة مغتصب . والمهم هنا أن شارل بادر على الفور بأن أرسل ممثلاً له - هو روجر أف سان سفرينو Roger of San Severine - ومعه بعض القوات إلى مدينة عكا . وقد ساند روجر جماعة فرسان الداوية وعلى رأسهم مقدمهم وليم أف بوجيه William of Beaujeu (١٢٧٣ - ١٢٩١م) والبنادقة . وقد رسا روجر فى ميناء عكا وقدم الوثائق الخاصة بأحقية شارل فى المملكة موقعة من البابا . و لم يرد باليان ابلين حاكم مدينة أرسوف ونائب الملك القبرصى هيو الثالث حتى لا يدخل فى صدام عسكرى فسلم بالأمر الواقع(٦٧) .

وبعد أن استقر الحال إلى حد ما بقبول روجر ممثلاً للملك شارل كونت أنجو، طلب روجر من حكومة عكا ومن نبلاء مملكة بيت المقدس أن يقدموا يمين الولاء والطاعة للملك شارل . ولكنهم ترددوا فى بداية الأمر وطلبوا مهلة ليرسلوا إلى الملك هيو الثالث فى قبرص يطلبون منه أن يحلهم من يمين الولاء الذى سبق أن قدموه له عند تعيينه ملكًا على المملكة ، وقد وافق روجر على ذلك ولكن هيو الثالث رفض مقابلة السفارة ، وهنا هدد روجر بمعاقبتهم ومصادرة أراضيهم إذا لم ينفذوا طلبه ويقدموا الولاء للملك شارل . والواضح أن حكومة مملكة بيت المقدس الأسمية لم يكن لديها من القوات العسكرية ما يمكنها من مواجهة روجر والداوية والبنادقة فاستسلموا وسلموا بالأمر الواقع . وانتهى الحال بخضوع نبلاء حكومة عكا

للملك الجديد شـارل . كما اعترف بوهمنـد السابع أمير طرابلـس.(١٢٧٥ - ١٢٨٧م) أيضًا بشارل ملكًا علـى مملكة بيت المقـدس وأن روجـر نائبًا لـه فـى المملكة(٦٨). أما انطاكية فكانت قد سقطت فى أيدى المماليك منذ عام ١٢٦٨م.

وعلى هذه الصورة نجح روجر فى إقرار سلطة شـارل كونـت أنجـو وملـك أبوليا على مملكة بيت المقدس فى عكا ، ثم بدأ العمل على تنظيم الأحوال الإداريـة للمملكة ، وساعده فى ذلك بعض المستشارين الفرنسيين الذين حضـروا معـه مـن بلاط الملك شارل ، فعين جيمس فيدال James Vidal مارشالا للمـملكة ، وريتشارد أف نيوبلان Richard of Neublans كندسـطبلا ، وأودو بوالشيان Odo Poilechien صنجيلا(٦٩) .

أما عن موقف الدولة المملوكية من هذه الأحداث فيبدو أن السلطان بيـبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٩م) قد استراح كثيرًا بعد فشـل حملة لويـس التاسـع وحلفائـه على تونس عام ١٢٧٠م . ولم ينزعج كثـيرًا عندمـا قـدم الأمـير الإنجليزى إدوارد بحملته على بلاد الشـام ، رغـم أن بيـبرس كـان يـأمل فـى عـدم قـدوم نجـدات أو حملات صليبية إلى بلاد الشام . والمهم هنـا أن الأمـير إدوارد حـاول التحـالف مـع المغول والقيام بحملة مشتركة ضد المسلمين ، ولكن هذا التحالف فشل فـى إحـراز أى نصر على القوات الإسلامية لقلة إمكانيـات الأمير الإنجليـزى ، وعـدم تعـاون النبلاء الصليبيين معه بالإضافة إلى عدم التنسيق بين القـوات الإنجليزيـة ومـا والاهـا من القوات المغولية(٧٠) . وعندما أحس إدوارد بأن لا فائدة ترجى مـن بقائـه فـى بلاد الشام ، بادر قبل رحيله بعقد هدنة بين الصليبيـين وبـين السـلطان بيـبرس فـى مايو ١٢٧٢م مدتها عشر سنين وعشرة شهور وعشرة أيام وعشر ساعات ، وقـد توسط شارل كونـت أنجـو بسـفارة بـين السـلطان والأمـير الإنجليـزى لعقـد هـذه الهدنة(٧١) .

والواقع أن توسط شارل لم يأت من فراغ فقد كان مشغولاً بالتخطيط لمهاجمة القسطنطينية ، وفى الوقت نفسه كان يود الإبقاء على الأحوال الصليبية فى بلاد الشام بأمل أن تكون له فى يوم من الأيام ، كما أنه يود الإبقاء على صلات طيبة مع دولة المماليك فى مصر والشام . وفى الوقت نفسه كان السلطان بيبرس يشعر بأن شارل كونت أنجو هو الحاكم الأوربى الوحيد الذى بإمكانه أن يقدم الدعم العسكرى للامارات الصليبية فى بلاد الشام ، وأن تاريخه السياسى والعسكرى يشير إلى ذلك ، فقد ساهم شارل فى الأعمال العسكرية للحملة الصليبية السابعة ، وسافر مع أخيه الملك لويس إلى عكا ، ثم كانت مغامراته السياسية حتى استولى على عرش صقلية وجنوب إيطاليا ، وكان له دور بارز فى التدخل فى انتخابات البابا لعرش البابوية ، بالإضافة إلى سيطرته على جانب من أملاك الإمبراطورية البيزنطية(٧٢) . لذلك كله حرص السلطان بيبرس على بقاء العلاقات الودية مع شارل خاصة أن الأخير كان لا يحب المغول أعداء بيبرس باعتبارهم أصدقاء الجنويين والأباطرة البيزنطيين .

ولما كانت سياسة شارل قائمة على كراهية البيزنطيين وحلفائهم الجنويين ، لذلك أصدر شارل التعليمات إلى روجر نائبه فى مدينة عكا للإبقاء على التحالف مع البنادقة والداوية لأنهم كانوا سندا له منذ وصوله إلى عكا . هذا بالإضافة إلى إقامة العلاقات الودية مع الحكام المماليك . وبدأ شارل فى الالتفات إلى ملكه الجديد فى بلاد الشام ، خاصة عندما أحس أن البابا لا يشجعه على القيام بمحاولة مهاجمة القسطنطينية ، بعد ما وعد الامبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوج بأن تخضع الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية فى القسطنطينية للكنيسة الكاثوليكية فى روما تحت راية البابوية(٧٣) .

ورغم محاولات روجر نـائب الملك شارل فـى بسـط سيطرته على جميع أراضى مملكة بيت المقدس الأسمية فـى مقرهـا بمدينة عكـا ، فقـد كـان هنـاك مـن المشاكل ما أزعجت استقرار سلطته . ومحور هذه المتـاعب أن شـارل تـولى حكـم المملكة بالخداع والقوة ، وبدون موافقة المحكمـة الصليبيـة العليـا فـى عكـا . ومـن القلاقل التى واجهت روجر فى عكـا أن جماعـة فرسـان الاسبتارية وبطريـق بيـت المقدس تومـاس أنجـى Thomas Angi (١٢٧٢ - ١٢٧٧م) وآخريـن لم يسـاندوا شارل فى دعواه . وقد حاول مقدم الداوية وليم بوجيه أن يضـم إلى جانبـه يوحنـا أف مونتفورت John of Montfort حاكم صور وتبنين (١٢٧٠ - ١٢٨٣م) ، ثم قـام بالتوفيق بين يوحنا والبنادقة ، وسمح يوحنا للبنادقة بالعودة إلى ممتلكاتهم وأحيـائهم القديمة فى صور على ضـوء اتفـاق ينـاير ١٢٦١م ، الصـادر مـن المحكمـة العليـا ، ورغم هذا كله ظل يوحنا لا يعترف بشارل ملكًا على مملكة بيت المقدس(٧٤) .

وكان روجر يأمل فى المزيد من التأييد للملك شـارل ، ولكـن حـدث غـير ذلك ، فقـد وصـل إلى مدينـة صـور فـى عـام ١٢٧٩م هيـو الثـالث ملـك قـبرص والمطالب الرسمى بعرش مملكة بيت المقـدس (١٢٦٨ - ١٢٨٤م) ، وكـان يـأمل فى مساعدة النبلاء له وإقرار سلطته كملك على البلاد . والواقع أنه لم يلق التـأييد إلا من يوحنا أف مونتفـورت . لذلـك عـاد مـرة أخـرى إلى قـبرص بعـد أن أنحـى باللائمة على جماعة فرسان الداوية لمساندتهم شارل ونائبه ، ولم يعد بوسعه سـوى مصادرة ممتلكاتهم فى جزيرة قبرص . وقد اشتكى مقدم جماعة فرسان الداويـة إلى البابا نيقولا الثالث Nicholas III (١٢٧٧ - ١٢٨٠م) ، فطلـب البابـا مـن ملـك قبرص إعادة أملاك الداوية إليهم ولكن الملك القبرصى لم ينفذ تعليمات البابا(٧٥).

وقد أثمرت سياسة العلاقات الودية التى أقامتها حكومة شارل فى عكـا مـع الدولة المملوكية . من ذلك أنه فى سبتمبر عـام ١٢٨٠م ، نـزل فـى شمـال الشـام

فجأة جيش مغولى لمهاجمة القوات المملوكية قبل أن يتمكن السلطان قلاوون (١٢٨٠ - ١٢٩٠م) من تثبيت مركزه فى عرش الدولة ، فقد كان فى تلك المرحلة وصيا على الصبى سلامش ابن السلطان بيبرس . وقد توغل الجيش المغولى حتى وصل إلى حلب فى العشرين من أكتوبر من العام نفسه ، بعد أن سيطر على عين تاب وبغراس ودربساك وغير ذلك بمساعدة القوات الأرمينية ولكن القوات المملوكية نجحت فى التصدى للقوات المغولية فعادت أدراجها إلى ما وراء نهر الفرات(٧٦) .

ويهمنا فى هذا البحث قدوم سفارة مغولية إلى مدينة عكا تطلب من حكومتها التعاون العسكرى لحملة مقبلة للمغول تأتى من شمال الشام . وفى الوقت نفسه كان السلطان قلاوون قد اعتلى عرش الدولة المملوكية وأخذ يتحرى تحركات المغول ، فأرسل إلى حكومة شارل فى عكا يستطلع منهم موقفهم من تحركات المغول ويطلب عقد الهدنة مع مندوب الملك شارل ، ولكن أحد سفراء السلطان قلاوون نصح المسؤلين فى حكومة عكا بعدم عقد الهدنة مع قلاوون لأن بقاءه فى العرش غير مستقر . ونظرًا للعلاقات الودية التى تربط روجر نائب شارل فى عكا بالسلطان ، فقد أرسل روجر إلى قلاوون يبلغه بالأمر . واحتاط قلاوون لحماية عرشه ، وقبض على المتآمرين ووأد المؤامرة فى مهدها . ويبدو أيضًا أنه علم بالتخطيط المغولى المقبل لغزو بلاد الشام من حكومة عكا ، والدليل على ذلك أنه بعد انتصار قلاوون على المغول فى معركة حمص التى وقعت فى نهاية الثلاثين من أكتوبر عام ١٢٨١م ، أى بعد حوالى عام من الغزو المغولى السابق ، وهو أول غزو مغولى بعد التحذير ، قام روجر نائب الملك شارل بالتوجه إلى دمشق أو الروحاء لمقابلة قلاوون وتهنئته بانتصاره على المغول (٧٧) .

وتزعزع مركز حكومة شارل فى عكا فى العام التالى (١٢٨٢م) ، ففى وقت الغروب يوم الثلاثين من مارس حدثت فتنة فى مدينة بالرمو ثم انتشرت فى كل أنحاء صقلية وهلك فيها حوالى أربعة آلاف فرنسى تحت شعار (الموت للفرنسيين) ، وهو ما يعرف فى التاريخ باسم المذبحة الصقلية The Sicilian Vespers(٧٨) . واهتز على أثرها حكم شارل فى صقلية وجنوب إيطاليا ، ولذلك استدعى شارل نائبه روجر من عكا ، فغادر المدينة بحرًا فى نهاية العام بعد أن عين مكانه صنجيل المملكة أودو بوالشيان(٧٩) .

وقد تأثرت دولة المماليك باهتزاز سلطة نائب شارل فى عكا ، إذ خسرت شبه حليف لها ، لذلك بادر السلطان قلاوون بعرض تجديد الهدنة التى سبق أن عقدت بين السلطان بيبرس وحكومة عكا فى مايو ١٢٧٢م وتوسط فيها شارل كونت أنجو . وقد وافق أودو بوالشيان على ذلك ، ولكن وضعه القانونى لم يمكنه من التوقيع على وثائق الهدنة بمفرده ، لذلك وقع معه على الوثائق قومون عكا والداوية فى صيدا وعثليث(٨٠) . ويرى البعض أن الذى وقع على الوثائق مقدم الاسبتارية(٨١) .

وعلى أثر هذه الأحداث حاول هيو الثالث ملك قبرص استعادة حقه فى عرش مملكة بيت المقدس ، فاتجه من قبرص إلى مدينة بيروت ، فوصلها فى أول أغسطس ١٢٨٣م ، ثم أبحر إلى مدينة صور ، ولكنه لم يلق قبولاً من قومون عكا وجماعة فرسان الداوية ، وفضلوا البقاء على ولائهم ومساندة أودو بوالشيان نائب الملك شارل ، ولم يرحبوا بالملك هيو ، لذلك بقى الملك فى مدينة صور حتى ينجلى الموقف ، ولكنه مالبث أن مات بالمدينة فى الرابع من مارس فى العام التالى (١٢٨٤م)(٨٢) .

وخلف هيو ابنه يوحنا على عرش قبرص (١٢٨٤ - ١٢٨٥م) ، الذى حاول استرداد حقه فى مملكة بيت المقدس فأبحر إلى مدينة صور وتوج فى المدينة نفسها ملكًا على مملكة بيت المقدس ، وانتظر لبعض الوقت ، ولكنه لم يجد التأييد سوى من صور وبيروت فعاد إلى قبرص ، ولكنه لم يعش طويلاً فمات فى العشرين من مايو ١٢٨٥م ، بعد أن حكم لمدة عام واحد(٨٣) .

وكان شارل كونت أنجو قد مات فى السابع من يناير من العام نفسه فى مدينة فوجيا Foggia ، ثم نقل جثمانه بعد ذلك ودفن فى كاتدرائية مدينة نابلى(٨٤) ، وخلفه على العرش ابنه شارل الثانى (١٢٨٥ - ١٣٠٧م) ، وانشغل بمشاغله الداخلية و لم يلتفت إلى مملكة بيت المقدس .

وقد خلف يوحنا ملك قبرص أخوه هنرى الثالث (١٢٨٥ - ١٣٢٤م) ، الذى لم يحاول التوجه إلى عكا فى تلك المرحلة حتى ينجلى الموقف . وفى العام التالى (١٢٨٦م) تشجع هنرى وأبحر من قبرص واتجه إلى مدينة عكا مباشرة فوصلها فى اليوم الرابع من شهر يونيه ، واستقبله قومون عكا بالترحاب ، ويفهم من ذلك وجود ترتيب مسبق لقدوم هنرى إلى المدينة ، وأن الطريق أصبح ممهدًا لاستعادة حق أسلافه وحقه فى عرش مملكة بيت المقدس الأسمية . ولكن أودو بوالشيان رفض تسليم قلعة المدينة رغم اختلاف الأوضاع عن الظروف السابقة ، لأن الداوية الذين اعتادوا مساندته من قبل تخلوا عنه تلك المرة وإلتزموا الحياد، كما أن الاسبتارية والتيوتون التزموا الحياد أيضًا فى ذلك الصراع . ولكن المفاوضات والظروف اللاحقة ، وما لمسه أودو من ضعف موقفه أقنعته بتسليم القلعة ، فدخلها هنرى فى موكب حافل فى التاسع والعشرين من الشهر نفسه(٨٥) .

وعلى هذه الصورة يكون حكم شارل فى مملكة بيت المقدس الذى يوصف بالاغتصاب قد انتهى فى عكا ، كما انتهى فى صقلية وجنوب إيطاليا منذ عام

ونصف تقريبًا ، وابحر أودو بوالشيان ، وعادت مملكة بيت المقدس الأسمية بمركزها مدينة عكا إلى أصاحبها الشرعيين ، ثم ما لبثت أن سقطت عكا فى عام ١٢٩١ م فى أيدى المماليك .

والخلاصة أن شارل كونت أنجو الفرنسى الأصل تطلع إلى أملاك النورمان ومن بعدهم أسرة الهوهنشتاوفن فى صقلية وجنوب إيطاليا بمساعدة شرعية ومادية من البابوية أعداء أسرة الهوهنشتاوفن ومعاونة عسكرية ومادية من أخيه لويس والقوات الفرنسية . ثم امتدت يداه إلى أملاك الدولة البيزنطية ونجح فى ضم بعض الأراضى لفترة محدودة .

كذلك نجح فى تحويل حملة أخيه لويس على تونس لضرب الثائرين عليه والمسلمين الذين ساعدوا مانفرد وكونرادين ، ولكن مكاسبه انحسرت فى جمع بعض الأموال وعقد معاهدة مقابل خسارة أسطوله الذى تحطم عند عودته . كما أنه ادعى أنه ملك مملكة بيت المقدس الأسمية وسيطر لبعض الوقت على مقدراتها ، ونجح فى فرض سلطانه على جانب من هذه المملكة . وأخيرًا يمكن القول أن شارل ولد أميرًا ، وعاش غريبًا فى داره مكروها من عائلته ، وقضى حياته مغامرًا، ومات بعيدًا عن بلاده ودفن فى مدينة نابلى . .

الهوامش

(1) Joinville and Villehardouin, Chronicles of The Crusades, Penguin, 1963, pp. 191, 226.

(2) La Mone, The World of the Middle Ages, New York 1949, p. 192.

(3) Hallam, Capitian France (987 - 1328), London 1983, p. 207.

(4) Runciman, The Sicilian Vespers, Cambridge, 1958, p. 71.

(5) Villani, G. Selections From The first Nine Books of The Croniche Florentine. Tran. Rose E. Selefe, Westminster, 1896, pp -199 - 200, Sedgwick, Itlay in The Thirteenth Century, Boston, 1912, Vol.II, pp. 44 - 90.

(6) Runciman, op. cit., pp. 71 - 2.

(7) Hallam, op. cit., p.215.

(8) Matthew Paris, English History. tran. J. A. Giles. London, I, 263 - 8.

(9) Mathew of westminster, The Flowers of History, tran C. D. Yonge, London, 1853, II, p. 354.

(10) Mathew Paris, op. cit., II, p. 43.

(11) Hallam, op. cit., p. 223.

(12) Runciman, op. cit., p. 73.

(13) Joinvill and Villehardouin, op. cit., p. 196.

(14) Runciman, op. cit., pp. 73 - 4.

(15) Mathew of Westminster, op. cit II, pp. 247 - 9.

(16) Mckillian, Chronicle of The Pope, London, 1912, p. 317.

(17) Villani, G, op. cit., pp. 190 - 3.

(18) Ibid, pp. 190, 202 - 3.

(19) Matthew of Westminster, op. cit., II, p. 445.

(20) Anna Comnena, The Alexiad, Penguin, 1969, pp. 124 ff, 135 ff, 142.

(21) Fulcher of Charters, A History of The Expedition to Jerusalem, The University of Tennessee U. S. A. tran. France Rita Ryan, 1969, pp. 98 ff.

(22) John Kinnamos, Deeds of John and Manual Comnenes, New York, 1976, p. 76.

(23) Ernoul, Chronique, Paris, 1871, p.p. 305 ff.

(24) Ducellier, A. Byzance et Le Mond Orthodoxe, Paris, 1986, p315.

(25) Pierre Dubois, The Recovery of The Holy Land, tran. Walther I. Brandt New York, 1956, p. 172.

(26) Villani, G. op. cit., p.p. 213 - 6.

(27) Hendrickx, B. Regestes Des Empereurs Latins De Constantinople (1204 - 1261/ 1272), Thessaloniki, 1988, p.184.

(28) Gesta des Chiprois, R. H. C Arm. vol. II, Paris, p. 763.

(29) Runciman, op. cit., p. 132.

(30) Ibid., Loc. Cit.

(31) Hendrickx, B. op. cit., pp. 184 - 5.

(32) Leonard, E., G. Les Angevins de Naples, Paris, 1954, pp. 105-6.

(33) Hendrickx, B. op. cit., p. 184.

(34) Runciman, op. cit., p. 137.

(٣٥) ابن العبرى : تاريخ الزمان - دار المشرق - بيروت ١٩٨٦ - ص ٣١٦ ، الهمذانى : جامع التواريخ - دار النهضة - بيروت ١٩٨٣ - ص ١٢٥.

(36) Leonard, E. G. op. cit., pp. 105 - 6.

(37) Vambery, A. Hungary, London, 1889, p. 146.

(38) Runciman, op. cit., p. 138.

(39) Villani, op. cit., pp. 240 - 1.

(40) Runciman, op. cit., p. 139.

(41) Ostrogorsky, G. History of The Byzantine State, tran. Joan Hussey, Oxford, 1956, pp. 405 - 6.

(٤٢) الزركشى : تاريخ الدولتين الموحديه والحفصية - تونس ١٩٦٦ - ص٣٢.

(43) Matthew of Westminster, op. cit., II, p. 451.

(44) Villani, G. op. cit., pp. 215 - 17.

(45) Runciman, op. cit., p. 141.

(46) Villani, G. op. cit., p. 247.

(47) Joinville, op. cit., pp. 345 - 6.

(48) Villani, G. op. cit., p. 247.

(49) Runciman, op. cit., p.142.

(50) Joinville, op. cit., p. 350, Matthew of Westminster II, op. cit, 451.

(51) Ibid., Loc. Cit.

(52) Joinville, op. cit., pp. 346, 350, Villani, G., op. cit., pp. 249 - 250.

(53) Ibid, p. 249.

(54) Villani, G. op. cit. p. 250.

(55) Runciman, op. cit., pp. 143 - 4.

(56) Villani, G. op. cit., p. 250.

(57) Matthew of Westminsters, op. cit, II, pp. 353 - 5.

(58) Villani, G. op. cit. pp. 250 - 1 .

راجع أيضًا : ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر- تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر - الرياض ١٩٧٦م ص ٢٧٣ - ٢٧٤ ، ٣٨٢.

(59) Runciman, op. cit., p. 145.

(60) Hayton, La Flor des Estoires de Terre d'Orient. in R. H. C. Arm. vol. II, p. 171.

(61) Lettre des Chrétiens de Terre Sainte à Charles d' Anjou in Revue de L'Orient Latin, vol II. Paris 1894. pp. 213 - 4,

ابن العبرى : المصدر السابق - ص ٣٢٤ .

(62) Ostrogorsky, op. cit., p. 399.

(63) Lettre des Chrétiens de Terre Sainte, op. cit., 211 - 215.

(64) Eracles II, L'Estoire, in R. H. G. Occ. vol II, p. 456.

(65) Gesta des Chiprois, pp. 771, 773, 777.

(66) Eracles II, pp. 476 - 7, 479.

(67) Gesta des Chiprois, p. 783, Eracles II, pp. 478 - 9.

(68) Gesta des Chiprois, pp. 783 - 4, Eracles II, pp. 483 - 4 .

(69) Ibid, pp. 478 - 9.

(70) Gesta des Chiprois, pp. 777 - 8.

(٧١) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص ٣٩٧ - ٣٩٨

Eracles II, p.461.

(72) Mckillian, op. cit., p. 326.

(73) Ostrogorsky, op. cit., p. 402.

(74) Eracles II, pp. 474 - 5, Gesta des Chiprois, p. 783.

(75) Eracles II, pp. 478 - 9.

(٧٦) أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر - دار المعرفة - بيروت - (د . ت) جـ٤ ص١٢ - ١٣ ، بيبرس المنصورى : التحفة المملوكية فى الدولة التركية - نشر دكتور عبد الحميد صالح حمدان - الدار المصرية اللبنانية - القاهرة - ١٩٨٧م - ص٩٤ - ٩٥ .

(٧٧) أبو الفدا : المصدر السابق - جـ٤ - ص ١٤ - ١٥ ، ابن العبرى : المصدر السابق ٢٤٠ - ٢٤١ ، بيبرس المنصورى : المصدر السابق - ص٩٧ .

(78) Villani G. op. cit, p. 267 - 8.

(79) Gesta des Chiprios, p. 489.

(٨٠) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور . ونص الهدنة منشور فى Gabrieli, F., Arab Historians of The Crusades, University of California Press, 1969, pp. 326 - 331.

راجع أيضًا المقريزى: السلوك -جـ١ ق٣- القاهرة ١٩٣٩ - الملحق(٨) ص ٩٨٥-٩٩٧.

(٨١) بيبرس المنصورى : المصدر السابق - ص٩٦ .

(82) Gesta des Chiprois, pp. 789 - 91.

(83) Ibid, p. 792.

(84) Villani, G. op. cit., pp. 275 ff.

(85) Gesta des Chiprois, pp. 792 - 3.

منهج نقد الروايات التاريخية من منظور إسلامي

د. محمد بن صامل السلمي(*)

الإنسان محتاج في حياته إلى معلومات كثيرة لا سبيل له إلى كثير منها إلا بالأخبار ، والأخبار يقع فيها الحق والباطل ، والصدق والكذب ، والصواب والخطأ . وهو مضطر إلى تمييز هذا من ذاك(**) ليعمل بالحق والصدق والصواب ، ويجتنب الباطل والكذب والخطأ.

ولا بد من سلوك منهج يميز به المقبول من المردود . وقد كان للعلماء من سلفنا الصالح جهد كبير في وضع قواعد لنقد الأخبار وضبطها وخاصة ما يتعلق منها بالشريعة وأحكامها .

والتاريخ أخبار وروايات ووثائق منقولة عمن شاهدها أو دونها أو سمع بها وقد اقتفى الأخباريون الأوائل أثر علماء الحديث النبوي في تدوين الأخبار موثقة بالأسانيد التي نقلوها بها . وحتى نميز نحن الصحيح من غيره من تلك الأخبار فإننا بحاجة إلى سلوك منهج في نقدها يصل بنا إلى الحقيقة العلمية . وعلماء الجرح والتعديل وضعوا منهجاً دقيقاً في نقد الأخبار والأحاديث المنقولة عن النبي ﷺ وهو منهج صالح للتطبيق في ميدان الأخبار التاريخية مع الأخذ في الاعتبار طبيعة علم التاريخ وغايته.

وفي عصرنا الحديث شهد ميدان الدراسات التاريخية صحوة فكرية تسعى إلى تأصيل الأبحاث التاريخية واستقلالها عن المناهج الوافدة التي كانت نتائجها على تاريخ الإسلام ورجالاته ونظمه غير حميدة ، فاتجه عدد من الباحثين في الدراسات الجامعية (الأكاديمية) إلى دراسة المرويات التاريخية ونقدها فكانت تجربة تحقق لكثير منها الجدية والنجاح بحسب قدرات الباحثين وضبطهم لمنهج النقد عند المحدثين .

(*) كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة - أم القرى .

(**) انظر مقدمة عبد الرحمن المعلمي لكتاب الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (ص أ) .

منهج نقد الروايات التاريخية

معنى النقد :

النقد فى اللغة : تمييز الدراهم وإخراج الزيف منها .(١)

وعند المحدثين : هو تمييز الأحاديث الصحيحة من غيرها والحكم على الرواة تعديلاً وتجريحاً (٢).

والعلاقة بين التعريف اللغوى والاصلاحى واضحة وهى تمييز ما يصلح وإخراج ما لايصلح .

معنى الرواية :

المعنى اللغوى : قال ابن فارس : روى، الراء والواو والياء ، أصل واحد ، ثم يشتق منه . فالأصل ما كان خلاف العطش ، ثم يصرف فى الكلام لحامل ما يروى منه . فالأصل رويت من الماء رياً ...ثم شبه به الذى يأتى القوم بعلم أو خبر فيرويه ، كأنه أتاهم بريهم من ذلك (٣).

وقال فى اللسان : الراوى : هو الذى يروى الأحاديث والشعر والأخبار ، ويقال فلان راوية إذا كثرت روايته والهاء للمبالغة فى وصفه بالرواية (٤). وما يحمله ذلك الراوى ويبلغه هو الرواية .

المعنى الاصطلاحى : الرواية التاريخية تعنى بعبارة موجزة نقل الأخبار والأحداث والوقائع التاريخية والإخبار عنها بصور النقل المختلفة ، مثل النقل الشفهى ، ونقل الوثائق ، ونقل الكتب والمؤلفات .

تطور الرواية التاريخية :

لقد كانت الرواية فى أول نشأتها نقلاً يعتمد على الحفظ والذاكرة ، ثم بعد انتشار التدوين أضيف إلى النقل الشفوى رواية الوثائق والرسائل المدونة ، ثم رواية الكتب والمؤلفات واسنادها إلى مؤلفيها بعد تحمل روايتها بطرق تحمل العلم

المعروفة ، مثل السماع من لفظ الشيخ ، والعرض ، والإجازة ، والمكاتبة ، والوجادة (٥) . ومع انتشار التأليف ووفرة الورق وحوانيت الوراقين ، دخل ميدان العلم وروايته من ليس من أهله من القصاص وأصحاب الأهواء ، و لم يلتزموا بطرق تحمل العلم مما ساعد على إشاعة كم كبير من الروايات المكذوبة المفتعلة والقصص الوصفى المنمق الذى يخدم اتجاهات فكرية منحرفة ، وأهواء باطلة مضادة لمنهج أهل السنة والجماعة وتخالف الواقع التاريخى لمسيرة الأمة الإسلامية ، ومن ثم احتيج إلى النظر فى تلك الأحاديث والأخبار لنقدها وتمييز صحيحها من سقيمها .

الحاجة إلى نقد الروايات التاريخية :

لقد واجه الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين دعوة الإسلام بأنواع متعددة من المكائد والدسائس التى حاولوا بها الحد من إنتشار الدعوة المباركة وثبات أتباعها على الصراط المستقيم ، فاستخدموا أسلحة متعددة مادية ومعنوية ، وكان سلاح المواجهة العسكرية هو الأظهر ، فلم يفلحوا ، وظهر أمر الله وهم كارهون ، فأدركوا أن السر فى قوة المسلمين وظهورهم عليهم يكمن فى وحدتهم الفكرية التى قامت على المنهج القرآنى والهدى النبوى والتزامهم بهذا المصدر والتلقى منه وحده ، مما ضمن لهم الاستمرار على هذه الوحدة الفكرية والتى انبنت عليها وحدتهم السياسية فى الواقع الجغرافى ، فأصبحت دولة الإسلام بتلك الوحدتين - الفكرية والسياسية - دولة قوية مرهوبة الجانب ، مستعصية على الأعداء ، ولا تؤثر فيها مكائدهم ، أخبر سبحانه وتعالى ﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط ﴾.(٦)

فما كان منهم إلا أن لجأوا إلى سلاح الكيد على الحيلة ، والسعى بالتفرقة بين الأمة من الداخل ، فاستخدموا سلاح الصراع الفكرى بإثارة الشبة ، وزرع الأهواء التى أنتجت أحزاباً وفرقاً داخل الأمة الموحدة فى فكرها وواقعها السياسى يوم أن كانت عقيدتها واحدة ، أما بعد ظهور الفرق والأهواء فقد انفكت الوحدة

الفكرية ثم تبع ذلك بعد زمن انفكاك الوحدة السياسية الجغرافية ، وشوه تاريخ الأمة ورجالاتها ومواضع القدوة فيها .

لقد كانت حركة النفاق وظهور المنافقين فى العهد النبوى جزءاً من هذا الصراع الذى يجبن عن المواجهة ويستخدم الكيد على الحيلة ، فإن عبد الله بن أبى ابن سلول قد أشار على أتباعه بعد انتصار النبى ﷺ فى معركة بدر بالدخول فى الدين ، لا دخول المؤمن المصدق ولكن دخول المنافق الذى يكيد من الداخل ، وينتهز الفرص لإثارة البلبلة بين المؤمنين ، فقال كما فى صحيح البخارى : "هذا أمر قد توجه فبايعوا الرسول على الإسلام وأسلموا".(٧)

وتثبت الوقائع التاريخية فى العهد النبوى أثر هذا المنافق وأتباعه ، ومحاولاتهم المتعددة لإيقاع الفتنة بين المؤمنين .(٨)

وفى عهد الخلافة الراشدة وبعد الانتصار الساحق على الدولة الساسانية فى معركة القادسية ودخول المسلمين المدائن عاصمة الدولة الساسانية ثم القضاء على المقاومة الفارسية فى معركة تستر سنة١٧هـ(٩)، ثم معركة نهاوند سنة ٢١هـ . والانسياح بعد ذلك فى بلاد المشرق . بعد هذا الظهور للمسلمين قرر ساسة الفرس ورجالاتها أن المقاومة العسكرية غير مجدية ، وأنه لابد من سلوك طريق آخر فى المقاومة فأجمعوا بأنه لابد من الكيد على الحيلة والعمل من الداخل كما يقول ابن حزم (١٠) ، فاظهروا الإسلام ليطمأن لهم ويقبل قولهم ، وقد وفد إلى العراق فى هذه الفترة عبد الله بن سبأ الصنعانى اليهودى الذى أظهر الإسلام ، فالتقى بهؤلاء الحاقدين وتكاتفوا على العمل سوياً ، وقد ظهر أثر الفريقين ، على نشأة الشيعة وأفكارهم (١١) ، وقد انضم إليهم فيما يظهر بعض النصارى (١٢)، وكان أول الخطط ظهوراً اغتيال الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

ثم نبتت بتأثير أولئك الفتنة الأولى فى تاريخ الإسلام وذلك بالعدوان على الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه حيث قدمت الجيوش من ثلاثة من الأمصار الإسلامية لغزو المدينة عاصمة الخلافة وقتل الخليفة فى داره (١٣)، وهى

سابقة خطيرة تنم عن تنامى أثر الكيد من الداخل وتقدمه عما كان فى حادثة اغتيال عمر رضى الله عنه ووصوله إلى درجة الإعلان عن نفسه بهذه الوسيلة الجريئة والقوية فى نفس الوقت .

وبعد هذه الفتنة قامت الفتنة الثانية (١٤) وتحول الصراع إلى الداخل بدلاً من جهاد العدو فى الخارج فوقع القتال بين المسلمين فى معركة الجمل ، ثم فى معركة صفين ، وظهرت الفرق معلنة عن نفسها ، الخوارج ، الشيعة ، ثم المرجئة والمعتزلة ...(١٥)، وقامت بنشر أفكارها والمجادلة عنها بل وحمل بعضها السيف لإيجاد مكان لها على الخريطة الجغرافية وتمكن من ذلك .

وفى ظل هذه الظروف من التفرق وتشعب الأهواء دخل الوضع والتزوير ميدان الروايات التاريخية ، كما دخل إلى الحديث النبوى (١٦). وقذفت الفرق بعدد كبير من الرواة والأخباريين الذين يضعون القصص والحكايات ويزيدون فى الأخبار ما يخدم أغراضهم ومذاهبهم الفكرية (١٧)، فى حملة إعلامية للتأثير على عدد كبير من الناس ليكونوا لهم أعواناً وأنصاراً .

وهذا كله يبين شدة الحاجة إلى نقد الأخبار والروايات التاريخية وأهمية ذلك ، ويوجب على أهل العلم القيام بهذا الواجب ، وتطبيق مبدأ من أين لك هذا ؟ على الروايات التاريخية ، والتعرف على عقائد واتجاهات رواة الأخبار ومؤلفى الكتب ، وتمييز أهل العدالة والثقة من غيرهم من أهل الأهواء .

وإن فى تراثنا التاريخى والأدبى بل حتى بعض المصنفات الحديثية آلاف الروايات والقصص المدونة على طريقة الجمع والتقميش (١٨)، وهى بحاجة إلى غربلة ونقد من الباحثين المتخصصين قبل الاستدلال بها والاعتماد عليها ليعرف الصحيح من السقيم .

وقد كانت تلك الروايات المكذوبة فى كتب التراث صيداً ثميناً عند المستشرقين فرحوا به ، فعكفوا على استخراجها من بطون الكتب ونشرها

وابرازها لأنها تسير فى نفس الاتجاه الذى يهدفون إليه وتخدم أغراضهم التى فرغوا أنفسهم لها من صد المسلمين عن دينهم عن طريق التشكيك فى دينهم وتشويه تراثهم وتاريخهم ، وقد بنوا على تلك الروايات التى تلقوها عن سلفهم من الرواة الوضاعين أحكاماً تاريخية تجافى الواقع الحقيقى بل وبعضها يناقض الواقع المعلوم بالضرورة من حياة المسلمين وتاريخ رجالاته وأبطاله الأمجاد (١٩).

أصول فى منهج نقد الروايات التاريخية :

نقد الروايات علم له أصول وضوابط ، لابد من معرفتها وتطبيقها ، حتى نصل إلى الصورة الصحيحة للواقعة أو الوقائع التاريخية ، ونصدر أحكاماً عادلة ومنطقية فى نقد الروايات ، فإن الإثبات للواقعة التاريخية أو نفيها ، ثم تفسيرها وتعليلها ، لابد أن يبنى على علم صحيح ، وحتى نصل إلى العلم الصحيح يلزمنا اتباع الأصول التى تيسر معرفة العلم بالواقع التاريخى الذى حدث كما حدث فعلاً من غير تزيد أو تحريف .

كما أن معرفة تلك الأصول يساعد على معرفة الدوافع والأسباب للأحداث التاريخية ، ومن ثم يكون التعليل والتفسير لها صواباً أو مقارباً للصواب.

وقد حرر علماء الحديث الشريف أصول الروايات فى الحديث النبوى ، ووضعوا قواعد بينة واضحة ، ينبغى أن يستفاد منها فى نقد الروايات التاريخية ، وخاصة ما يتعلق منها بتاريخ الصدر الأول من الصحابة والتابعين ، فهم جيل القدوة ، وجيل التأسيس لبناء الأمة ، وجيل التطبيق المثالى لرسالة الإسلام ، ومما يساعد على هذا أن تاريخهم قد اتبع فى تدوينه - فى الغالب - أسلوب المحدثين وطريقتهم فى نقل الروايات والأخبار مسندة إلى من حضروا الوقائع وشاهدوها .

ومن الأصول النافعة فى منهج نقد الروايات التاريخية مايلى:

١- تحديد مصادر التلقى بدقة :

إن مصادر التلقى للمعرفة من الأهمية بمكان ، وحتى تكون المعرفة صحيحة فإنه لابد من تحديد مصادر التلقى وضبطها ، ومصادر التلقى فى موضوع نقد الروايات التاريخية على نوعين :

- مصادر أصول الاعتقاد والمنهج الفكرى ، الذى يوضح التصور الصحيح عن الله والكون والإنسان ، وأصل هذا الإنسان ووظيفته وغاية وجوده ، فالعقيدة هى النظام الفكرى الذى تقوم عليه جميع تصورات الإنسان وتوجهاته ، ومصادر هذا النوع هو الوحى المتلقى عن المعصوم ﷺ فى الكتاب والسنة وما بنى عليهما من الإجماع والقياس الصحيح . فهذا المصدر لابد أن يكون للباحث حظ منه لتستقيم له وجهته الفكرية ويستطيع كشف الزيف الذى يخالفها .

- المصادر المختصة فى بيان طريقة نقد الروايات وفق المنهج العلمى والقواعد المقررة عند العلماء الأثبات الثقات ، فإن لكل علم مصادر خاصة ، تبين أصوله ، وتوضح منهجه ، وترسم قواعده ، فينبغى معرفة هذه المصادر والرجوع إليها والاستفادة من موازينها النقدية .

فنقل الأخبار والروايات له قواعد قررها أهل العلم ، فمثلاً الروايات الواردة عن أهل الكتاب والتى اصطلح أهل العلم عن تسميتها بالاسرائيليات لها ثلاثة أحوال:(٢٠)

(أ) ما جاء موافقاً لما فى شرعنا فهذا نصدقه لتصديق شرعنا له .

(ب) ما جاء مخالفاً لما فى شرعنا فهذا نكذبه لتكذيب شرعنا له .

(جـ) ما لم يوجد فى شرعنا ما يخالفه ولا ما يصدقه ، فهذا تجوز حكايته لا على سبيل الاستشهاد به والتصديق له وإنما على سبيل الذكر والبيان .

كما أن الرواية عن المبتدعة تحكمها ضوابط بحسب نوع البدعة ، وبحسب نوع الرواية إن كانت مؤيدة للبدعة أم لا.(٢١)

وكذا الرواة المتروكون بسبب كذبهم فى الرواية ، أو غلطهم الفاحش . أو الرواة المجهولون إما جهالة العين أو جهالة الحال (٢٢). أو الرواة الضعفاء، وهم الذين تبين للنقاد عدم ضبطهم لما يروون (٢٣)، فكل هذه الأحوال للرواة يرجع فيها إلى المصادر المختصة التى بينت أحوالهم ، وقررت أصول التعامل مع رواياتهم.

٢ - معرفة الاتجاه الفكرى والعقدى لرواة الأخبار والمؤلفين :

إن التعرف على الاتجاهات الفكرية والمنازع العقدية لرواة الأخبار والمؤلفين واعتبار ذلك فى نقد الأخبار من الأهمية بمكان لأن الهوى مرد لأصحابه ، والخصومة حاجز عن إدارك الحق الذى عند الخصم ومانع من انصافه .

وبسبب الخلاف العقدى شاعت مئات الروايات المكذوبة على السلف الأولين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، خاصة فى أحداث الفتنة وذيولها ، حتى اختلط الحق بالباطل على كثير من الناس ، وتداول تلك الروايات عشرات المصنفين فى كتبهم ، حتى طغت الروايات المخالفة للواقع التاريخى على الصورة الصحيحة لذلك الواقع ، ومن ثم تلقتها الأجيال المتأخرة وكأنها حقائق مسلمة لاتقبل النقاش (٢٤)، مع أننا لو عدنا إلى أصول تلك الروايات ومصادرها لوجدناها صادرة من أهل الكذب والتعصب والانحراف عن العقيدة الإسلامية ، من أمثال الأخبارى لوط بن يحى ، ونصر بن مزاحم، واسحاق بن بشير البخارى، وعيسى بن داب ، ومحمد بن السائب الكلبى وابنه هشام ، والهيثم بن عدى ، وعوانة بن الحكم ، واليعقوبى ، وابن أعثم الكوفى والمسعودى ، وأبو الفرج الاصبهانى ، وابن أبى الحديد ، وأضرابهم . أو صادرة عن رواة ضعاف أو مجاهيل يأخذون عمن أقبل وأدبر ، مثل الواقدى ، وسيف بن عمر التميمى ، وأبو الوليد الأزرقى ، ومحمد بن اسحاق الفاكهى ، وأمثالهم .

وإن ذكر تلك الروايات فى كتب المؤرخين المشهورين مثل ابن سعد ، وخليفة بن خياط ، والطبرى ، والخطيب البغدادى ، وابن عساكر ، وابن الأثير ، والذهبى ، وابن كثير ، لا يعطى لها صفة الصدق والثبوت ما لم تكن صدقاً فى الواقع ، لأن هؤلاء العلماء ينقلون على الرواية والحكاية ولا يشترطون الصحة فى كل ما يروون .

٣ - مراعاة القواعد الشرعية والأصول العقدية عند نقد الأخبار والروايات :

مما يجب ملاحظته عند نقد الروايات التاريخية أن لا يكون النص فيه مخالفة عقدية أو شرعية وخاصة إذا كان النص أو الخبر منسوباً إلى أحد الصحابة رضى الله عنهم أو العلماء الثقات الذين يعرفون حدود الله وأحكامه ويلتزمون بها ، فقد ذكر الطبرى فى حوادث سنة أربعين من الهجرة أنه قد حج بالناس فى هذه السنة المغيرة بن شعبة . فقال : حدثنى موسى بن عبد الرحمن ، قال : حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الخزاعى ، قال : أخبرنا اسماعيل بن راشد ، قال : لما حضر الموسم - يعنى فى العام الذى قتل فيه على - كتب المغيرة بن شعبة كتاباً افتعله على لسان معاوية ، فأقام للناس الحج سنة أربعين ، ويقال إنه عرف يوم التروية ، ونحر يوم عرفة ، خوفاً أن يفطن بمكانه.(٢٥)

فإنه بصرف النظر عن دراسة السند فإن فى النص من المخالفة الشرعية ما يبطله، وهى الزعم بأنه عرف بالناس يوم التروية وهو اليوم الثامن ، وهذا العمل باطل شرعاً فإن هذه العبادة مؤقتة زماناً ومحددة مكاناً ، والحج عرفة ،ومن لم يقف بعرفة فى اليوم التاسع أو ليلة العاشر فلا حج له .

وقد نبه الحافظ ابن كثير على هذا فقال : وهذا الذى نقله ابن جرير لا يقبل ولا يظن بالمغيرة رضى الله عنه ذلك ، وإنما نبهنا على ذلك ليعلم أنه باطل ، فإن الصحابة أجل قدراً من هذا ، ولكن هذه نزعة شيعية .(٢٦)

كما ذكر الطبرى باسناد مرسل أن زياد بن سميه طلب من معاوية سنة ثلاث وخمسين أن يضم له ولاية الحجاز مع العراق فبلغ ذلك عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فدعا عليه ابن عمر، فطعن ومات . فقال ابن عمر حين بلغه الخبر : اذهب إليك ابن سميه فلا الدنيا بقيت لك ، ولا الآخرة أدركت .(٢٧)

فهذا الخبر مرسل لأن الراوى لم يدرك الحادثة ، ولا يعلم ممن تلقاه ، وفى متن النص نكارة وهى القول المنسوب لعبد الله بن عمر الصحابى الفقيه الورع بأن زياداً لم يدرك ثواب الآخرة ، وهذا فيه تأل على الله سبحانه وتعالى ومجازفة لا تصدر من هذا الصحابى .

وهذا الأصل نرد به كل رواية فيها قدح فى الصحابة رضى الله عنهم عموماً وخصوصاً ، فإن من المقرر عند علماء العقيدة : وجوب الامساك عما شجر بين الصحابة والسلف الأولين (٢٨) لما ورد من التصرص الشرعية الدالة على هذا مثل قوله ﷺ :" إذا ذكر أصحابى فأمسكوا ، وإذا ذكر النجوم فأمسكوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا"(٢٩) والمراد إذا ذكروا بسوء ، أما فضائلهم فإن نشرها والتحديث بها أمر مرغب فيه ، ولنهيه ﷺ أن يتخذ الصحابة غرضاً بعده.(٣٠)

ونحن نعلم أن الصحابة رضى الله عنهم بشر من البشر يصيبون ويخطئون وليسوا بمعصومين غير أنهم طراز فريد لأثر التربية النبوية المباشرة فيهم ، ولمشاهدتهم نزول الوحى ، ومصاحبتهم لرسول الله ﷺ ، وجهادهم معه بالأنفس والأموال وقد ثبت بالتتبع أنهم لا يتعمدون الخطأ فإذا وقع من أحدهم خطأ محض ونبّه عليه أقلع عنه وأناب ، وما يقع من أحدهم أثناء الغضب فإنه يطوى ولا يروى ، ومواقفهم رضى الله عنهم من المسائل وقع فيها خلاف راجع إلى الاجتهاد ، والمجتهد إذا أخطأ غفر خطأوه وله أجر الاجتهاد .(٣١)

٤- النظر إلى مآل الخبر وما يترتب عليه :

هذا أصل مهم يجب مراعاته فى منهج نقد الروايات التاريخية ، فإن الأمور بمآلاتها.

يقول الشاطبى : النظر فى مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعاً. (٣٢)

ويقول فى موضع آخر : الأدلـة الشرعية والاستقراء التـام يـدلان علـى أن المآلات معتبرة فى أصل المشروعية . ثم أورد عدداً من الآيات القرآنية والأحـاديث النبوية الدالة على ذلك .(٣٣)

ولقد تنبه لهذا الأصل عدد من أذكياء العلماء النابهين :.

قال الإمام مالك رحمه الله عندما سئل عن قوم يقدحون فى الصحابة رضى الله عنهم : إنمـا هـؤلاء أقوام أرادوا القـدح فـى النبى ﷺ فلـم يمكنهـم ذلـك ، فقدحوا فى أصحابـه ، حتى يقـال رجـل سـوء ، ولـو كـان رجـلاً صالحـاً لكـان أصحابه صالحين .(٣٤)

وقال أبو زرعة الرازى : إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسـول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق ، وذلك أن الرسول ﷺ عندنا حق ، والقرآن حق، وإنمـا أدى إلينا هـذا القـرآن والسنن أصحـاب رسـول الله ، وإنمـا يريـدون أن يجرحـوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة ، والجرح بهم أولى ، وهم زنادقة.(٣٥)

وقد اعتبر الإمام أحمد ، وكذا شيخ الإسلام ابن تيمية القـدح فـى الصحابة قدحاً فى الدين ، ذلك أنهم هم نقلـة الديـن إلينـا ، وعـن طريقهـم عرفنـا القـرآن ونصوص الأحاديث وبيان الأحكام والسنن .

قال الإمام أحمد : إذا رأيت أحداً يذكر أصحاب رسول الله بسـوء فاتهمـه على الإسلام .(٣٦)

وقال ابن تيمية : القدح فى خير القرون الذيـن صحبـوا الرسـول قـدح فـى الرسول عليه السلام كما قال مالك وغيره من أئمة العلم .(٣٧)

وقال : وهذه الأحاديث مستفيضة بل متواترة فـى فضـائل الصحابـة والثنـاء عليهم وتفضيل قرنهم على من بعدهم من القرون ، فالقدح فيهم قدح فـى القـرآن والسنة.(٣٨)

كما أن القدح فى أحاد الصحابة يؤول إلى القدح فى عامة الصحابة ، وهذا الباب إذا فتح لا يغلق ، وإذا هتك ستر أحدهم ولج منه إلى العموم .

يقول عبدالله بن المبارك : معاوية عندنا محنة ، فمن رأيناه ينظر إليه شزراً اتهمناه على القوم - يعنى الصحابة .(٣٩)

وقال أبو توبة الربيع بن نافع الحلبى : معاوية ستر لأصحاب محمد ﷺ ، فإذا كشف الرجل الستر اجترأ على ما وراءه.(٤٠)

فهذه النصوص عن هؤلاء العلماء تدل على اعتبارهم لهذا الأصل وملاحظتهم الدقيقة لمآلات مثل هذه الأخبار المروية وفيها قدح فى الصحابة، وأنهم نظروا إلى نتائجها المستقبلية فالقدح فى الصحابة أو فى أحدهم لاتنحصر آثاره فى كونه قدحاً فى أشخاصهم ، إنما يؤول الأمر إلى القدح فى رسول الله ﷺ إمامهم ومربيهم ، كما أنه قدح فى الشريعة والرسالة التى جاء بها ﷺ .

لذا فإن الأمر يحتاج إلى اعتبار هذا الأصل عند نقد الروايات التاريخية ، فمثلاً الفتنة التى وقعت بعد مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضى الله عنه خلفت آثاراً نشأ عنها تحزب وتفرق وأهواء خالفت سبيل السنة ومن ثم نقلت روايات وأخبار إما مختلقة أصلاً ، أو مزاد فيها بسبب الهوىَ والعصبية حتى دلت على خلاف أصلها ، والواجب اتباع المنهج العلمى الذى رسمه علماء الحديث لمعرفة الروايات المقبولة من غيرها مع اعتبار هذا الأصل المقرر وإلا فإن كثيراً من الروايات الواردة فى ذلك تؤدى فى مآلاتها إلى القدح فى الصحابة حملة الرسالة الإسلامية ، والقدح فيهم يؤول إلى القدح فى الدين الذى اعتنقوه ، والرسول الذى صحبوه وتربوا على يديه .

وقد ذكر شيخ الاسلام مثالاً على ذلك ما يشيع فى كتب بعض الطوائف من السب والشتم للخلفاء الراشدين ، واتهامهم بالتآمر على جحد حق الإمام المنصوص عليه ، المولى عليهم فولوا فاسقاً وظالماً ، ومنعوا عادلاً وعالماً مع علمهم

بالحق ، فقال : قد عرف بالتواتر الذى لا يخفى على العامة والخاصة أن أبا بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم كان لهم بالنبى ﷺ اختصاص عظيم وكانوا من أعظم الناس اختصاصاً به وصحبة له وقرباً إليه واتصالاً به وقد صاهرهم كلهم وما عرف عنه أنه كان يذمهم ولا يلعنهم بل المعروف عنه أنه كان يحبهم ويثنى عليهم وحينئذ فإما أن يكونوا على الاستقامة ظاهراً وباطناً فى حياته وبعد موته . وإما أن يكونوا بخلاف ذلك فى حياته أو بعد موته ، فإن كانوا على غير الاستقامة مع هذا القرب فأحد الأمرين لازم:

- إما عدم علمه بأحوالهم .
- أو مداهنته لهم .

وأيهما كان فهو من أعظم القدح فى الرسول ﷺ ، كما قيل :

فإن كنت لاتدرى فتلك مصيبة وإن كنت تدرى فالمصيبة أعظم

وإن كانوا انحرفوا بعد الاستقامة ، فهذا خذلان من الله للرسول فى خواص أمته وأكابر أصحابه.(٤١)

فهذا هو مآل أقوالهم فى الصحابة ولازمها .

٥ - اعتبار أحوال العصر وقياس الخبر على أحوال المخبر عنه :

المقولة التى تقول :" الإنسان ابن بيئته وعصره" لها نصيب من الصحة ، فإن المجتمع الذى يعيش فيه الإنسان له أثر عليه فى سلوكه وأحواله .

وعصر الرسالة والخلافة الراشدة هو أزهى وأزكى عصور الإسلام تمسكاً بالأخلاق الفاضلة والآداب الشرعية وقد بلغ بهم رسول الله ﷺ الغاية فى التربية على آداب الإسلام وتعاليمه فهذا العصر هو جيل الأسوة والقدوة ، والجيل المثالى فى كل مناحى الحياة الإسلامية ، وكذا ما تلاه من العصور الفاضلة حيث بين رسول ﷺ أن خير القرون قرنه ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم . (٤٢)

فالأجيال الثلاثة ، الأولى لها أفضلية بحسب النصوص الشرعية ، وقد دلّ الواقع التاريخي على صحة ذلك .

وهكذا كل عصر له خصائص ومميزات سواء كانت إيجابية أم سلبية ، فينبغي اعتبار أحوال العصر عند نقد الروايات والنصوص فإن من الوقائع التي يذكرها الأخباريون ما لا تحتمله أحوال العصر المروية عنه تلك الأخبار .

ومن أمثلة ذلك ما يذكره أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني من أخبار الشاعر عمر بن أبي ربيعة في المجون واللهو ، ثم يضع من الوقائع والقصص ما يفسر ذلك الشعر ، وما يذكره عن مجامع السهر ومواطن اللهو والشراب كما زعم في مكة والمدينة . وقد اعتمد عليه بعض الباحثين فقرروا آراء شاذة عن مجتمع الحجاز في القرن الأول(٤٣) وهي مما يجب رده ، فإن أحوال العصر لاتقبله. والأخبار التي يذكرها صاحب الأغاني تركز على الجانب الضعيف في حياة من يترجم لهم من الشعراء وأهل الأدب وهو جانب اللهو والمرح وإشباع الشهوات و لم يذكر جوانب الأخلاق والشيم الرفيعة والاهتمامات العالية .(٤٤) ثم عممها الباحثون المعاصرون على جميع مجتمع الحجاز وهذا خطأ في المنهج الذي سلكوه أفسد آراءهم ونتائج أبحاثهم .(٤٥)

ومن الأمثلة أيضاً : ما أخرجه ابن اسحاق في السيرة النبوية (٤٦) قال: حدثني عبدا لله بن الفضل بن عباس بن ربيعة بن الحارث عن سليمان بن يسار عن جعفر بن عمرو بن أمية الضمري قال : خرجت أنا وعبيد الله بن عدي ابن الخيار أخو بني نوفل بن عبد مناف ، في زمان معاوية بن أبي سفيان ، فأدربنا (٤٧) مع الناس فلما قفلنا مررنا بحمص- وكان وحشي مولى جبير بن مطعم قد سكنها وأقام فيها – فلما قدمناها ، قال لي عبيد الله بن عدي : هل لك في أن نأتي وحشياً فنسأله عن قتل حمزة كيف قتله ؟

قال : قلت له : إن شئت ، فخرجنا نسأل عنه بحمص ، فقال لنا رجل ونحن نسأله عنه : إنكما ستجدانه بفناء داره ، وهو رجل قد غلبت عليه الخمر ،

فإن تجداه صاحياً تجدا رجلاً عربياً ، وتجدا عنده بعض ما تريدان ، وتصيبا عنده ما شئتما من حديث تسألانه عنه ، وإن تجداه وبه بعض ما يكون به فانصرفا عنه ودَعَاه ، قال: فخرجنا نمشي حتى جئناه ، فإذا هو بفناء داره على طنفسة له ، فإذا شيخ كبير مثل البغاث (٤٨)، فإذا هو صاح لا بأس به .

قال : فلما انتهينا إليه سلمنا عليه ، فرفع رأسه إلى عبيد الله بن عدىّ، فقال: ابن لعدى بن الخيار أنت ؟ قال : نعم ، قال : أما والله ما رأيتك منذ ناولْتك أمك السعدية التى أرضعتك بذى طوى ، فإنى ناولتكها وهى على بعيرها، فأخذتك بعرضيك فلمعت لى قدماك حين رفعتك إليها ، فو الله ما هو إلا أن وقفتَ علىّ فعرفتهما .

قال : فجلسنا إليه فقلنا له : جئناك لتحدثنا عن قتلك حمزة ، كيف قتلته ؟ فقال : أما إنى سأحدثكما كما حدثت رسول ﷺ حين سألنى عن ذلك .

كنت غلاماً لجبير بن مطعم .... ثم قص كيفية قتله حمزة يوم أحد . قلت : هذا الخبر رجال اسناده ثقات : وصرح ابن أسحاق بالسماع فهو حسن ، لكن فى متن الخبر نكارة وهى قصة الخمر : وكونه يجلس عند باب داره وهو سكران ، فإن هذا إذا قسناه على أحوال المخبر عنه ، وأحوال ذلك العصر ، نجد أنه غير مقبول ، فالمخبر عنه صحابى وإن كان قتل - وهو مشرك - صحابيًا جليلاً هو حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء ، ثم أسلم وحشى بن حرب وشارك فى الجهاد فى سبيل الله وقتل أكذب خلق الله مسيلمة الكذاب ، والإسلام يُجُبّ ما قبله .

ونحن نستخدم هذا المقياس فى تعاملاتنا المتعددة ، فلو بلغنا خبُر عن رجل معروف لدينا ، وأحوال ذلك الرجل لا تحتمل وقوع مثل تلك الحادثة منه لأنكرنا ذلك ، وتوقفنا فى تصديق الخبر . وبخصوص هذه الرواية نجد أن أحوال العصر لا تحتملها لظهور الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة الحدود وتطبيق الشريعة بكمالها من قبل الدولة والمجتمع معاً .

ثم وجدنا أن الإمام البخارى قد أخرج فى صحيحه (٤٩) هذه القصة من طريق عبد الله بن الفضل عن سليمان بن يسار عن جعفر بن أمية – وهو الطريق الذى أخرج منه ابن اسحاق القصة – و لم يذكر فيها هذه الألفاظ المنكرة مما يدل على اقحامها ، وربما تكون من ذلك الرجل المجهول الذى لم يُسَمّ .

٦- الرجوع إلى الأمر المعلوم الثابت وترك الموهوم والمحتمل :

وهذا أصل يرجع له عند ورود الروايات والنقول التى تضاد الصورة المعروفة الثابتة ، فإذا لم يمكن نقد الروايات والنصوص عن طريق دراسة السند ، أو لم يكن للنقل سنداً، فإن الباحث يحاول الجمع بين الروايات بشرط أن لا يخالف الأصول فإذا تعذر الجمع فإن الأمر المعلوم الثابت لا يدفع بالأمر الموهوم ، واليقين لا يزول بالشك .

مثال ذلك ما يروى من الأخبار فى قدح بعض الصحابة رضى الله عنهم ، " فإن الأمر المعلوم من الكتاب والسنة والنقل المتواتر من محاسن الصحابة وفضائلهم لا يجوز أن يدفع بنقول بعضها منقطع ، وبعضها محرّف ، وبعضها لا يقدح فيما علم ، فإن اليقين لا يزول بالشك ، ونحن قد تيقنا ما دَلّ عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف قبلنا ، وما يُصَدّق ذلك من النقولات المتواترة من أن الصحابة رضى الله عنهم أفضل الخلق بعد الأنبياء ، فلا يقدح فى هذا أمور مشكوك فيها ، فكيف إذا علم بطلانها.(٥٠)

ومن ذلك أيضاً زعم الرافضة النص من النبى ﷺ على خلافة على وذريته رضى الله عنهم فإن أهل العلم بالنقل لا يعرفون ذلك ، وقد ورد من النصوص الثابتة عنه ﷺ ما يدل على استخلاف الصديق رضى الله عنه دلالة إيماء واشارة بل قال بعضهم : إن الدلالة نَصّية ، والصواب الأول ، فإن النبى ﷺ مات ولم يوصى لأحد بالخلافة بعينه (٥١)، وإنما أمر أن يصلى بهم الصديق ، وقال : يأبى الله والمؤمن: ' إلا أبا بكر "(٥٢) فوفق الله المؤمنين لبيعة الصديق كما توقع رسول الله مر ؛

ا لله سيوفق المؤمنين لاستخلافه ، فهذا الأمر الثابت المعلوم المتيقن فلا يزول هذا اليقين بالظن وبالأقوال التى لم تثبت .

وإن من الطرق التى يعلم بها كذب المنقول : أن يروَىَ خلاف ما عُلمَ بالتواتر والاستفاضة مثل أن نعلم أن مسيلمة الكذاب أدعى النبوة واتبعه طوائف كثيرة من بنى حنيفة فكانوا مرتدين لإيمانهم بهذا المتنبىء الكذاب ، ومثل أن المعراج كان بمكة ، وأن الصفة كانت بالمدينة ، وأن أهل الصفة كانوا من جملة الصحابة و لم يكونوا ناساً معينين ، بل كانت الصفة منزلاً ينزل بها من لا أهل له من الغرباء القادمين ، فإذا روى الجاهل نقيض ذلك علم أنه كذب .(٥٣)

٧- الكلام بالعلم والعدل لا بالجهل والهوى :

العلم والعدل صفتان مطلوبتان وخاصة لمن يشتغل بالحكم وفصل النزاع فى القضايا والمسائل المختلف فيها ، ونقد الروايات والنصوص يحتاج إلى هذه الصفة المهمة فى الناقد ، فلابد من العلم بطرق النقد وضوابطه ، ومناهج العلماء فى ذلك، ومعرفة الرواة وأحوالهم وما قيل فيهم جرحاً وتعديلاً ، وهو علم جليل برع فيه علماء الحديث النبوى ، وقرروا له قواعد مفصلة فى كتب مصطلح الحديث وكتب الجرح والتعديل ، فالدارس للروايات التاريخية ونقدها محتاج إلى هذا العلم وإلى الرجوع إلى أهل التخصص فى هذا الفن وهم علماء الحديث . يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : المنقولات فيها كثير من الصدق وكثير من الكذب ، والمرجع فى التمييز بين هذا وهذا إلى أهل علم الحديث كما نرجع إلى النحاة فى الفرق بين نحو العرب ونحو غير العرب ، ونرجع إلى علماء اللغة فيما هو من اللغة وما ليس من اللغة ، وكذلك علماء الشعر والطب وغير ذلك ، فلكل علم رجالٌ يعرفون به، والعلماء بالحديث أجلّ هؤلاء قدراً وأعظمهم صدقاً وأمانة وعلماً وخبرة فيما يذكرونه من الجرح والتعديل".(٥٤)

فإذا رجع الناقد للروايات إلى أهل التخصص وسلك طريقهم : كان كلامه بعلم وانتفى عنه الجهل ، لكن تلزمه صفة أخرى وهى العدل وعدم اتباع الميل والهوى .

فإن أكثر ما يقع الخطأ هو من التقصير فى هاتين الصفتين أو إحداهما ، والجهل والظلم آفتان خطيرتان فى الإنسان ، يقول المولى سبحانه وتعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا﴾(٥٥) ولكن لهما دواء إذا استخدمه طالب العلم شفى منهما ، فدواء الجهل العلم ، ودواء الظلم واتباع الهوى العدل والخوف من الله سبحانه وتعالى وسلوك طريق الأمانة ، وبقدر تحققهما فى الناس عامة وطلاب العلم خاصة، يستقيم السلوك الإنسانى ويكثر الصواب ويقل الخطأ.

٨- ملاحظة السنن الربانية والقوانين الاجتماعية :

من المعلوم أن حركة التاريخ تجرى بقدر الله ووفق سنته التى أجراها فى الخلق والحياة . وتحقق السنن الإلاهية الجارية مرتب على سلوك الإنسان فى الحياة الدنيا ومدى استجابته للأوامر والنواهى الشرعية ، والسنن الربانية تقع على أحوال مختلفة :

(أ) منها ما يكون جزءاً على الاستقامة على التوحيد والهدى وطاعة الرسل عليهم السلام ، قال تعالى :﴿ وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا﴾.(٥٦)

وقال تعالى :﴿ ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم * ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ....﴾ الآية.(٥٧)

(ب) ومنها ما يكون عقوبة على ترك الاستقامة وتكذيب الرسل ، وظلم العباد ، والواقع فى محارم الله . قال تعالى : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا

لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾.(٥٨)

وقال تعالى :﴿ وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكرا* فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا﴾.(٥٩)

(جـ) ومنها ما يكون للإبتلاء والاختبار حتى يتميز الخبيث من الطيب، ولرفع درجات أولياء الله الصالحين الصابرين على البلاء .

قال تعالى :﴿ ماكان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء فأمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم ﴾.(٦٠)

وقال تعالى :﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم﴾.(٦١)

(د) ومنها ما يكون للاستدراج والإملاء والإمهال .

قال تعالى :﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خيرٌ لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين ﴾.(٦٢)

وقال تعالى :﴿ والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملى لهم إن كيدى متين ﴾.(٦٣)

وقال ﷺ :"إن الله عز وجل ليملى للظالم فإذا أخذه لم يفلته".(٦٤) ثم قرأ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾.(٦٥)

فالسنن والقوانين الاجتماعية ذات أثر فى رقى الأمم والدول ، وقيام الحضارات ونشوء المجتمعات وتقدمها المادى والفكرى ، كما أن لها أثراً عكسياً فى تدهور الدول والحضارات وانحطاطها أو زوالها ، وذلك بحسب موقف تلك الدول والمجتمعات واتساقها مع ارادة الله الشرعية أو مخالفتها ، فإن الله لايغير ما

بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فإذا وقع فى المجتمع سواء كان ذلك التغيير إلى الأحسن والأفضل من الاستقامة على الخير والهدى واقامة العدل ، أم إلى عكسه من الانحراف والسقوط فى الرذيلة والظلم ، فإن السنة الإلاهية المناسبة لحالهم والموافقة لقدر الله وإرادته تتحقق .

وقد لاحظ العلامة ابن خلدون أن أحوال العمران البشرى وسننه الاجتماعية لها أثر فى أحوال الدول ومراحل قيامها ثم سقوطها ، وأن الترف مؤذن بخراب البلدان والمجتمعات .(٦٦)

وملاحظة هذه السنن مما يساعد على نقد النصوص والروايات التاريخية وفهمها وتفسيرها .

منهجية نقد الروايات التاريخية

بعد أن تعرفنا على الأصول المهمة التى تراعى عند نقد الروايات التاريخية فإنه يجدر بنا أن نعرض الخطوات العملية فى نقد الروايات التاريخية ، والملاحظات العلمية التى تساعد على نقد النص للوصول إلى نتائج مقبولة وحقائق علمية صحيحة .

وأولى الخطوات فى نقد الروايات :

١ - نقد السند :

الرواية التاريخية إما أن تكون مسندة أو غير مسندة ، فإذا كانت الرواية مسندة أى يتقدم متنها اسناد ، فإن النقد يكون أولاً لإسنادها وفى هذه الخطوة اختصار للجهد لأن السند إذا لم يصمد أمام النقد ، فلا حاجة عندئذ للانتقال إلى الخطوة الثانية وهى نقد المتن.(٦٧) وقد كان المنهج الذى سلكه غالب الأخباريين والمؤرخين الأوائل هو اسناد كل رواية ، فتأتى الرواية التاريخية تتقدمها سلسلة الإسناد ، وهم الرجال الذين يمثلون شهود العيان للخبر التاريخى ومن أخذ عنهم وحمل تلك الشهادة ، ولا شك أن هذه الطريقة فى التدوين قد يسرت على

الباحثين نقد النصوص ، ومعرفة صحة الوثائق من عدمها فإن الاسناد يشترط لصحته أن يكون متصلاً برواية العدل الضابط عن مثله من مبتدأ السند إلى منتهاه من غير شذوذ ولا علة (٦٨). والإسناد هو شاهد الحديث والواقعة ، وعدم إتصال السند يعنى وقوع سقط فى السند ، وهذا يدل على اختفاء شاهد العَيان أو من أخذ عن شاهد العيان .

والمنهج المتبع فى السند هو منهج علماء الجرح والتعديل والرجوع إلى أقوالهم فى الرواة ، وإثبات لقيا بعضهم بعضاً أو معاصرتهم على الأقل ،غير أن الأخبار التاريخية يحتمل فيها ما لايحتمل فى الحديث النبوى الذى هو أحد مصادر الأحكام الشرعية (٦٩)، ولذا فقد تساهل أهل العلم فى رواية الأخبار التاريخية فى مسألتين:

(أ) فى صفات رجال الإسناد الذين يروى بعضهم عن بعض ، من ناحية قلة الضبط فى الراوى ، أو الغفلة ، أو أن يكون مستور الحال غير متكلم فيه لا بجرح ولا تعديل .

(ب) فى اتصال الإسناد ، فيكثر فى أسانيد الرواية التاريخية رواية المرسل ، والمنقطع ، والمعضل ، والمعلق (٧٠)، وهذه الأمور قادحة فى الخبر عند علماء الحديث وتجعله من قسم المردود .

والذى ينبغى أن يعلم هو أن هذا التساهل ليس شاملاً لجميع الأخبار التاريخية ، بل لابد أن يقيد ذلك التساهل عندهم برواية الأخبار الواردة عن الحضارة ووصف البلدان والمعارك الحربية وماشابهها (٧١) إذا لم يوجد معارض أصح لتلك الرواية الواردة بهذه الصفة .

أما الأخبار المتعلقة بمسائل العقيدة ، والأحكام الشرعية ، والحكم على الأشخاص ، وبيان المواقف فى الفتن ، وخاصة ما كان بين الصدر الأول من الصحابة والتابعين ، فيجب عدم التساهل فى رواية الأخبار فى هذه الأنواع ،

ويجب التدقيق والبحث وتطبيق شروط صحة الحديث من حيث العدالة فى الرواة ، والاتصال فى الإسناد ، وانتفاء الشذوذ والعلة القادحة . ولهذا قال الكافيجى فى المختصر فى علم التاريخ : يشترط فى المؤرخ ما يشترط فى راوى الحديث النبوى.(٧٢)

وإليك بعض الأمثلة فى نقد السند :

(أ) قال ابن اسحاق حدثنى أهل العلم ، عمن حدثه ، عن محمد بن طلحة، عن عثمان بن عبد الرحمن ، قال : "أصاب رسول الله ﷺ فى غزوة محارب وبنى ثعلبة عبداً يقال له يسار فجعله رسول الله ﷺ فى لقاح له كانت ترعى فى ناحية الجماء (٧٣) فقدم على رسول الله ﷺ نفر من قيس كبة (٧٤) من بجيلة فأستوبئوا وطحلوا ، فقال لهم رسول الله ﷺ لو خرجتم إلى اللقاح فشربتم من ألبانها وأبوالها ، فخرجوا إليها ، فلما صحّوا وانطوت بطونهم ، عدو على راعى رسول الله ﷺ يسار ، فذبحوه وغرزوا الشوك فى عينيه ، واستاقوا اللقاح . فبعث رسول الله ﷺ فى أثارهم كرز بن جابر فلحقهم فأتى بهم رسول الله ﷺ مرجعه من غزوة ذى قرد فقطع أيديهم وأرجلهم ، وسمل أعينهم".(٧٥)

فسند هذا النص فيه من لم يسم ، وهو شيخ ابن اسحاق ، وكذا شيخ شيخه ، كما أنه ظاهر الارسال إذ أن عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان التيمى لم يدرك القصة ، فقد ذكر ابن حجر فى الإصابة أن والده من مسلمة الفتح ، أما هو فله رؤية إذ كان صغيراً ، وهذه فى السنة السادسة من الهجرة . ولا يحتج بمثل هذا السند ، ولكن أصل القصة ورد عند البخاريّ ومسلماً (٧٦) وغيرهما من طرق أخرى فهى صحيحة لأجل ذلك .

(ب) قال الطبرى : حدثنى عمر ، قال : حدثنى أبو الحسن ، قال حدثنا أبو مخنف ، عن جابر ، عن الشعبى ، عن أبى الطفيل ، قال : قال على : يأتيكم من الكوفة اثنا عشر ألف رجل ورجل ، فقعدت على نجفة ذى قار ، فأحصيتهم فما زادوا رجلاً ولا نقصوا رجلاً.(٧٧)

فهذا السند ساقط لا يحتج به ، فيه أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدى شيعى كذاب (٧٨)، وجابر هو الجعفى شيعى غال فى التشيع (٧٩)، والمتن منكر .

(جـ) قال الطبرى كتب إلى السرى ، عن شعيب ، عن سيف ، عن محمد وطلحة ،قالا : علم أهل المدينة بيوم الجمل يوم الخميس قبل أن تغرب الشمس ، من نسر مَرّ بما حول المدينة ، معه شىء متعلقة ، فتأمله الناس فوقع ، فإذا كف فيها خاتم ، نقشه "عبد الرحمن بن عتاب "وجعل مَن بَين مكةَ والمدينة من أهل البصرة من قرب من البصرة أو بَعُد ، وقد علموا بالوقعة مما ينقل اليهم النسور من الأيدى والأقدام (٨٠)،

وهذا الاسناد ضعيف جداً ، فشعيب بن ابراهيم ، راويه كتب سيف ليس بالقوى ، ومحمد بن عبد الله ، وطلحة بن الأعلم ، من المجاهيل . وسيف بن عمر التميمى مجروح عند المحدثين وهو عمدة فى التاريخ (٨١). ووجود السند فى هذه النصوص يَسّر لنا نقدها عن طريق الاسناد ، وهذه الخطوة التى هى نقد السند ، يقابلها فى مناهج البحث التاريخى المعاصرة عند الغربيين نقد المصادر ، وتصحيح الوثائق ، ويسمى النقد الخارجى للنص ، على تفاوت فى المنهجين (٨٢)، لأن المصادر الوثائق عندهم ليس لها اسناد ، فلجأوا إلى طرح مجموعة من الأسئلة والإجابة عليها ، فى محاولة للوصول إلى صحة مصدر الوثيقة .

٢- نقد المتن :

المتن : هو النص المروى سواء كان له إسناد أم لا إسناد له .

فإذا كان له إسناد فيبدأ بنقد اسناده كما تقدم ، ثم يعقب ذلك نقد المتن .

فإذا كان السند ضعيفاً فإن المتن المروى بهذا السند يكون ضعيفاً كذلك ما لم يرو من طرق أخرى تقويه .

وإذا كان السند صحيحاً أو حسناً فالغالب أن المتن يكون كذلك إذا سلم من الشذوذ أو العلة (٨٣) القادحة .

وإذا كان النص لا اسناد له كما هو الواقع فى بعض الأخبار التاريخية ، وبعض المؤلفات التى أهملت الاسناد ، فإن النقد يتجه إلى المتن مباشرةً.

وقد اعتنى العلماء بنقد المتون ، واعتبروا ذلك فى تعريف الحديث المقبول بسلامته من الشذوذ والعلة ، وهما يقعان فى المتن كما يقعان فى السند ، ومبنى كلام العلماء فى علل الأحاديث يتناول السند والمتن ، ومباحث الإدراج ، والمضطرب ، والمقلوب ، والتصحيف والوهم ، وزيادة الثقة(٨٤) متجهة لمتن الحديث كما هى متجهه للسند .

وقد وضع الإمام مسلم بن الحجاج صاحب الصحيح رسالة قيمة فى نقد متون الأحاديث سماها التمييز (٨٥) كما أن الإمام ابن الجوزى قد لاحظ مجموعة من القواعد التى قاس عليها متون الأحاديث التى حكم بوضعها فى كتابه الموضوعات .(٦٨)

وقد وضع ابن القيم قواعد لنقد متن الحديث دون النظر إلى سنده فى كتابه: المنار المنيف فى الصحيح والضعيف وذكر فيه ثلاث عشرة قاعدة لمعرفة كون الحديث موضوعاً ، وقد ضرب أمثلة على كل قاعدة .(٨٧)

كما توصل الباحث الدكتور مسفر بن غرم الله الدمينى فى رسالته للدكتوراه والتى بعنوان : مقاييس نقد متون السنة .(٨٨) إلى أن المقاييس المعتبرة عند المحدثين فى نقد السنة سبعة مقاييس هى :

١- عرض الحديث على القرآن .

٢- عرض روايات الحديث بعضها على بعض .

٣- عرض السنة بعضها على بعض .

٤ -عرض متن الحديث على الوقائع والمعلومات التاريخية .

٥- ركاكة لفظ الحديث وبعد معناه.

٦- مخالفة الحديث للأصول الشرعية والقواعد المقررة .

٧- اشتمال الحديث على أمر منكر أو مستحيل .(٨٩)

لذا ينبغى الاستفادة من منهج علماء الحديث واعتبار الأسس التى قرروها فى نقد المتون والأسانيد وذلك للتشابه بين علمى الحديث والتاريخ ، فهما معنيان بجمع الوثائق ونقدها لمعرفة صحيحها من سقيمها .

ونقد متن النص سواء كان مسنداً أو غير مسند يتم باتباع الخطوات التالية :

(أ) المقارنة بين النصوص ومعارضة بعضها ببعض ، وذلك لمعرفة الزيادة والمخالفة فى النص والانفراد بما لم يذكره الآخرون ، وهل من الممكن اعتبار هذه الزيادة شاذة ، أو زيادة مقبولة كما يتبين بها الإدراج فى النصوص ، وينبغى على الباحث أن يستفرغ جهده فى حصر الروايات المتعددة ، والرجوع إلى جميع المصادر التى روت الخبر التاريخى والمقارنة بينها ليصل إلى الحقيقة .

قال الإمام مسلم : فبجمع الروايات ومقابلة بعضها ببعض تتميز صحيحها من سقيمها ، وتتبين رواة ضعاف الأخبار من أضدادهم من الحفاظ .(٩٠)

(ب) سلامة النص من التناقض فلا يكون بعضه مناقضاً للبعض الآخر .

(جـ) عرض النص على الوقائع التاريخية الثابتة حتى يتبين إن كان موافقاً لها أم مخالفاً .

ومثال هذا ما ذكره الذهبى فى ترجمة الخطيب البغدادى من أن بعض اليهود فى زمن الخطيب (ت٤٦٣هـ) أظهروا ببغداد كتاباً فيه اسقاط النبى ﷺ الجزية عن يهود خيبر وفيه شهادة بعض الصحابة ، فعرضه الوزير على الخطيب البغدادى(٩١)، فقال : هذا مزور ، قيل له كيف عرفت هذا ؟ قال : فيه شهادة معاوية بن أبى سفيان وقد أسلم عام فتح مكة بعد خيبر ، وفيه شهادة سعد بن معاذ ومات قبل خيبر بسنين .

وأيضاً ما ذكره الطبرى من رواية أبى مخنف فى خطبة أبى بكر الصديق يوم السقيفة من الثناء على الأنصار وأنه قال :" وفيكم جلة أزواجه وأصحابه".

وبالرجوع إلى كتب التاريخ والتراجم والسير نجد أن النبى ﷺ لم يتزوج من الأنصار أبداً .(٩٣)

(د) اشتمال النص على منكر أو مستحيل الوقوع .

ويمثل له بما ذكره المسعودى من أن معاوية بن أبى سفيان قد صلى بأهل الشام وهو فى طريقه إلى صفين صلاة الجمعة يوم الأربعاء(٩٤)، وهذا لاشك فى استحالة وقوعه من معاوية رضى الله عنه .

(هـ) قياس الخبر على أحوال المخبر عنه فرداً أو جماعة أو عصرا ، وذلك لمعرفة امكانية قبول مثل هذا الخبر أم لا.

ذكر المسعودى أن رجلاً من أهل الكوفة دخل إلى دمشق على بعير له وذلك بعد منصرفهم من صفين ، فتعلق به رجل من أهل دمشق فقال : هذه ناقتى أخذت منى بصفين ، فارتفع أمرهما إلى معاوية ، وأقام الدمشقى خمسين رجلاً بينة يشهدون أنها ناقته ، فقضى معاوية على الكوفى ، وأمره بتسليم البعير إليه ، فقال الكوفى : اصلحك الله إنه جمل وليس بناقة ، فقال معاوية : هذا حكم قد مضى . ثم دس للكوفى بعد تفرقهم فأحضره ، وسأله عن ثمن بعيره ، فدفع إليه ضعفه وبرّه وأحسن إليه ، وقال له : أبلغ علياً أنى أقاتله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل .(٩٥)

فهذا الخبر إذا قسناه على أحوال المخبر عنه ، وأحوال عصره دلنا ذلك على كذبه ، وأنه حكاية مصنوعة من الخيال ليس لها نصيب من الواقع .

(و) النقد عن طريق لغة النص وأسلوب كتابته .

فإن لكل عصر خصائص اسلوبية ، ومفردات لغوية يشيع استعمالها فى كتابة الوثائق ودواوين الإدارة .

(ز) النقد عن طريق النظر إلى خط الوثيقة ، نوع الحبر المستعمل فى خطها، ونوع الورق ، وهل هناك اضافات على أصل الوثيقه ، إلى غير ذلك من الأمور الفنية التى يعرفها المتخصصون فى علم الخطوط والوثائق .

ونختم بمثال من تاريخ الإمام الطبرى (٩٦)، فقد ذكر رواية طويلة عن هشام بن محمد بن السائب الكلبى ، عن أبى مخنف قال :"..... وذكر فيها أن على بن أبى طالب كان دائباً فى جهاز رسول الله ﷺ ، وذكر مخاصمة حادّة بين عمر والحباب بن المنذر وتهديد الحباب باجلاء المهاجرين من المدينة وأن الأوس ما سارعت لبيعة أبى بكر إلا خوفاً من أن تليها الخزرج".

وهذه كلها ألفاظ منكرة ، ورحم الله شعبة بن الحجاج إذ يقول : لايجيئك الحديث الشاذ إلا من الرجل الشاذ(٩٧)، والروايات الصحيحة تؤكد أن جهاز النبى ﷺ لم يبدأ فيه إلا يوم الثلاثاء ، والسقيفة كانت يوم الاثنين ، وتؤكد أن علياً قد لزم بيته من هول المصيبة ، وكذلك ادعاؤه الخصام الحاد والتهديد بالطرد للمهاجرين يرده قول الله تعالى فى وصف الأنصار : ﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾.(٩٨)

فكيف يتفق الايثار فى هذه الآية مع الأثره التى تؤكدها الرواية ؟

وكيف يجمع بين المحبة والأخوة وبين البغض والعداوة ؟(٩٩)

والروايات الصحيحة عن بيعة أبى بكر رضى الله عنه يوم السقيفة ، وموقف الأنصار من ذلك ، تؤكد فقه الصحابة رضى الله عنهم وحرصهم الشديد على وحدة الأمة وأتباع الشرع والانقياد لأوامره ودرايتهم بالفقه السياسى لهذا الدين ، وموقفهم الموحد من المرتدين يؤكد ذلك ، ثم إن حركة الجهاد فى بلاد العراق والشام وحماسهم فيه يؤكد هذه الوحدة ، وتمكين الله لهم فى الأرض

ونصره للمجاهدين دليل على سلامة موقفهم وتوفيق الله لهم فى اختيار أبى بكر الصديق كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ فى قوله : " يأبى الله المسلمون إلا أبا بكر ".(١٠٠)

٣- معرفة مراتب المصادر :

مصادر التاريخ الإسلامى واسعة ومتعددة المناحى منها المصادر التاريخية المباشرة فى الأحداث والوقائع ، أو فى التراجم والطبقات ، ومنها المصادر المساعدة وهى التى تتحدث عن العلوم الأخرى لكن لها صلة بالتاريخ مثل :علوم الشريعة والفتاوى والفرق ، أو النظم الإسلامية والجغرافيا والرحلات وكتب الأدب بفنونه المختلفة .

ويلزم الباحث فى التاريخ الإسلامى الإحاطة بمصادر التاريخ الإسلامى والاطلاع على المصادر الأخرى المساعدة حتى تتسع عنده الدائرة فلا يحصر نفسه فى المصادر التاريخية المختصة لا يتعداها ، وخاصة تاريخ صدر الاسلام ، فإن كثيراً من الأحداث التى ثار حولها جدل كثير لاتزال وصورتها غير واضحة من خلال كتب التاريخ ، بل إن كتب التاريخ برواياتها المتعددة والمتضاربة قد أسهمت فى تشويش الصورة عن تلك الأحداث ، بينما هى واضحة وبينة ومحسومة عند علماء الشريعة والحديث النبوى ، وذلك لما بلغهم من الروايات الصحيحة عن هذه الأحداث ، فالاطلاع على كتب الحديث وشروحه ، وكتب العقيدة ، يساعد فى جلاء الحقيقة ورسم الصورة الصحيحة عن تلك الأحداث ،

والمصادر ليست بمنزلة واحدة وإنما تخضع فى ترتيبها لمقاييس علمية ومنهجية يجب مراعاتها حتى نستفيد من المصادر الفائدة المرجوة ونصل إلى الحقائق العلمية المطلوبة .

وترتيب المصادر هو بحسب مراتبها العلمية ويلاحظ فى ترتيبها جملة من المقاييس العلمية :

(أ) ترتب المصادر بحسب الثقة فى المصدر ، فتقدم رواية المصدر الموثوق على غيره ، والمصدر المعلوم على المصدر المجهول .... وهكذا .

فليس من المعقول أن نأخذ رواية من كتاب الأغانى ، أو كتاب العقد الفريد (مثلاً) ونقدمها على رواية أخرجها مالك فى الموطأ أو البخارى فى الصحيح لاختلاف المراتب من حيث المنهج التوثيقي بين هذه المصادر ، فإن كتابى الموطأ وصحيح البخارى قد سلك صاحباها منهجاً علمياً فى الرواية يقوم على التوثيق العلمى للرواة والروايات . أما كتابى الأغانى والعقد الفريد فإنهما لم يخضعا لهذا المنهج التوثيقى الدقيق ، وأبو الفرج الأصبهانى وابن عبد ربه لا يُوْزنان بمالك والبخارى فى الثقة والإمامة ، ولذلك فما فى الموطأ والصحيح مقدم على ما فى غيرهما من المصادر التى لم تخضع للمنهج التوثيقى .

(ب) ترتب المصادر بحسب المنهج المتبع فى التدوين ، فإن بعض المصادر قد دون على طريقة الجمع والتقميش ، وبعضها الآخر على طريقة النقد والتفتيش ، فالذى خضع لمنهج فى التوثيق عند تدوينه وانتفى الأخبار وفتش عن الصحيح من غيره لايماثله من يجمع الأخبار بمجرد جمع دون ملاحظة الشروط العلمية المطلوبة فى قبول الأخبار .

(جـ) كما ترتب المصادر بحسب القرب من الحادثة المروية ، فالمصدر المعاصر للحدث التاريخى سواء كان عن مشاهدة أو مشاركة فى الحدث أو عن معاصرة عن قرب مقدم على المصدر المتأخر فمثلاً ما كتبه إبن الأثير فى تاريخه عن أحداث الغزو المغولى مقدم على كتابات مؤرخى القرن التاسع أو العاشر الهجرى لأنه عاصر أوائل ذلك الغزو وكتب عن قرب .

(د) وترتب المصادر بحسب التخصص والاهتمام ، فالمختص بالأخبار والمتتبع لها أقرب إلى ضبطها ومعرفتها ، ومعلوماته تكون أدق من تلك التى يذكرها غير المتخصص ، ولذلك فروايته معتبرة حتى وإن كان ضعيفاً فى الميزان النقدى عند المحدثين فمثلاً محمد بن اسحاق ، ومحمد بن عمر الواقدى اهتما

بالسيرة وضبطا أخبارها وعُرفا بها ولذلك اعتبرا إمامين فى المغازى النبوية رغم أنهما عند علماء الحديث ينزلان عن درجة الثقة على اختلاف بينهما ، فابن اسحاق صدوق مدلس (١٠١) والواقدى متروك رغم سعه علمه "(١٠٢) هذا فى باب الأحاديث والأحكام ، لكنهما معتبران فيما تخصصا فيه .

وكذلك يذكر علماء الجرح والتعديل أن عاصم بن أبى النجود المقرئ صدوق وله أوهام (١٠٣) لكنه حجة فى القراءات لتخصصه وصرف أهتمامه إلى هذا النوع من العلم حتى تقدم فيه وصار إماماً وحجة .

(هـ) ومما يجدر اعتباره فى هذا المقام البحث عن معرفة الغرض من وضع المؤلف لكتابه ، فإن المعرفة بهذا مما يساعد على تقدير قيمة الكتاب ومعرفة مرتبته بين المصادر ، فبعض الكتب أساس وضعها جمع الحكايات والشائعات ، وأحاديث السمر والتسلية ، دون النظر إلى أدنى مقياس علمى لاختبار صحتها من عدمه ، ومن هذا النوع غالب كتب الأدب مثل كتابى الحيوان ، والبيان والتبين للجاحظ ، وكتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ، وكتاب حياة الحيوان للدميرى ، وأشباهها .

٤ – معرفة مناهج المؤلفين من المؤرخين وغيرهم :

إن مما يساعد على نقد الرواية التاريخية التعرف على مناهج المؤلفين التى سلكوها فى تأليف كتبهم ، فليس كل مؤلف اشترط أن لا يذكر فى كتابه إلا ما صح من الأخبار ، كما أنهم يتفاوتون بحسب المصادر التى يرجعون إليها ، وبحسب الطريقة والمنهج الذى سلكوه فى التأليف ، وبحسب المنازع الفكرية والاعتقادية وقد مرّ التأليف التاريخى من حيث المنهج بمرحلتين :

(أ) مرحلة الجمع والتقميش كما هو حال أغلب المصادر الأولى مثل سيرة ابن اسحاق ، ومغازى الواقدى ، والطبقات الكبرى لابن سعد ، وتاريخ خليفة بن

خياط ، وأخبار المدينة لعمر بن شبة ، وتاريخ الطبرى ، حيث أنهم قد اعتمدوا على الأسانيد ولهذا يقل فى مصنفاتهم النقد والترجيح .

(ب) مرحلة التصحيح ونقد الأسانيد وانتقاء أفضلها ، وهذه المرحلة لم تتم فى مجال الكتابات التاريخية إلا فى مسائل محدودة مثلما فعل ابن العربى (ت٥٤٣هـ) فى كتابه العواصم من القواصم (١٠٤) الذى خصص الجانب التاريخى منه لتحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة ، وانتقد الأسانيد والروايات الباطلة كما نجد مثالاً لهذه المرحلة عند الحافظ ابن حجر (ت٨٥٢ هـ) فى كتابه البارى شرح صحيح البخارى وذلك خلال ذكره لموضوعات السيرة النبوية ، وبعض الأحداث فى تاريخ الخلفاء الراشدين والعصر الأموى (١٠٥) حيث أنه اشترط أن لا يذكر خبراً فى كتابه إلاما كان عنده صحيحاً أو حسناً وإذا ذكر غير ذلك ينبه عليه.(١٠٦)

لكن هناك نوع من المصادر جمعت بين الطريقتين فأخذت من المرحلة الأولى الجمع والاستيعاب ومن المرحلة الثانية النقد لبعض النصوص والتنبيه على ما فيها من الخطأ والنكارة وترك البعض الآخر اعتماداً على ذكر السند ، وهذا منهج معلوم عند أهل العلوم وخاصة علماء الحديث إما النص على صحة الخبر أو ضعفه. وإما سنده (١٠٧) ، ويرون أن من ذكر السند فقد برىء من العهدة حيث قد وفّر للقارىء سبيل نقد النص من خلال ذكر الإسناد، وذلك بالرجوع إلى أقوال أهل العلم فى رجال الاسناد وما ميزوا به من ثقة أوضعف.

ويمثل هذه المصادر ابن الجوزى (ت٥٩٧هـ) والإمام الذهبى (ت٧٤٨هـ) والحافظ ابن كثير (ت٧٧٤هـ) ، فإنهم يسندون الأخبار التى يذكرونها وينبهون على كثير من الأخبار بما يناسبها من الصحة أو الضعف .

كما أنه توجد مصادر لا تذكر الاسانيد وإنما يكتفى بعضها بذكر مصادره فى مقدمة كتابه ، مثل تاريخ اليعقوبى (ت٢٩٢هـ) ، وكتاب الأخبار الطوال للدينورى (ت٢٨٢هـ) ، ومروج الذهب للمسعودى (ت٣٤٦هـ)، وهذا النوع

من المصادر ينبغى أن يتعامل معه بحذر شديد ، ويطبق على نصوصه قواعد نقد المتن والأصول المنهجية العامة .

إن معرفة هذه الطرائق فى التأليف ييسر على الباحثين الاستفادة من الكتب التاريخية وغيرها ونقد مابها من نصوص .

وإن وجود الخبر فى تاريخ الطبرى أو طبقات ابن سعد أو أخبار المدينة لابن شبة (مثلاً) لا يكفى للاستدلال به قبل أن تُعرَف صحته ، ويُجرَى عليه المنهج النقدى، وما يفعله بعض المؤلفين المعاصرين من الاكتفاء بالإحالة على كتب التواريخ دون محاكمة نقدية لصحة الخبر يعتبر من الخطأ المنهجى .

فإنه لا يكفى تذييل النص بالاحالة على تاريخ الطبرى (مثلاً) إلا مع النص على نقد السند أو ذكر ما فى المتن من النكارة والغرابة ، وعلى أقل الحالات أن يذكر اسناد الطبرى فيقول رواه الطبرى من طريق فلان عن فلان فيذكر السند ، وبذلك يشرك القارىء فى الصورة ويجعله على بينة من أمره ، بمجرد الإحالة على الجزء والصفحة فهو هروب من المسؤلية ، وتدليس على القارىء الذى يعرف منزلة الإمام الطبرى ويثق فى علمه وإمامته لشهرته بهذاوهو لا يعرف منهجه فى تدوين كتابه .

٥- الرواية خلاف ما علم بالتواتر والاستفاضة :

ذكر هذه الملاحظة شيخ الإسلام ابن تيمية فى منهاج السنة (١٠٨) حيث عقد فصلاً فى بيان الطرق التى يعرف بها كذب المنقول ، وضرب أمثلة كثيرة من الأمور المعلومة بالتواتر والاستفاضة مثل العلم بأن مسيلمة الكذاب ادعى النبوة ، وأن قاتل عمر بن الخطاب هو أبو لؤلؤة المجوسى ، وأن الصديق رضى ا لله عنه هو الذى كان يصلى بالناس فى مرض رسول ا لله ﷺ ، وأن المعراج كان بمكة وأن الصفة كانت بالمدينة" فإذا جاءت رواية تخالف هذا المعلوم بالتواتر والاستفاضة من الوقائع التاريخية علم أنها كذب ووجب ردها .

٦- تفرد الواحد والاثنين بذكر ما يعلم أنه لو كان واقعاً لتوفرت الهمم والدواعى على نقله :

فلو أخبرنا أحد بأنه قد تولى الخلافة رجل بين عمر وعثمان ، أو بين عثمان وعلى ، لرددنا روايته لأن مثل هذا الأمر لو كان واقعاً لنقل إلينا نقلاً متواتراً ومستفيضاً لتوفر الهمم والدواعى على نقله و لم ينفرد الواحد والاثنان بذكره(١٠٩) .

قال ابن تيميه : ومن هذا الباب زعم الشيعة بوجود النص من الرسول ﷺ على خلافة على رضى الله عنه ، فإنا نعلم أنه كذب من طرق كثيرة ، فإن هذا النص لم ينقله أحد من أهل العلم باسناد صحيح فضلاً عن أن يكون متواتراً ، ولا نُقل أن أحداً ذكره على عهد الخلفاء مع تنازع الناس فى الخلافة وتشاورهم فيها يوم السقيفة ، وحين موت عمر ، وحين جعل الأمر شورى بينهم فى ستة ثم لما قتل عثمان واختلف الناس على على .

فمن المعلوم أن مثل هذا النص لو كان كما تقوله الرافضة من أنه نصّ على علىّ نصاً جلياً قاطعاً للعذر لعلمه المسلمون ولكان من المعلوم بالضرورة أن ينقله الناس نقل مثله ولابد أن يذكره كثير من الناس بل أكثرهم فى مثل هذه المواطن التى تتوفر الهمم على ذكره فيها غاية التوفر ، فإنتفاء ما يعلم أنه لازم يقضى انتفاء ما يعلم أنه ملزوم .

ومن المعلوم أن الكذب نقيض الصدق ، وأحد النقيضين يعلم انتفاؤه تارة بثبوت نقيضه وتارة بما على انتفائه بخصوصه.(١١٠)

٧- كون الخبر مما يستحيل وقوعه من الناحية العقلية :

وقد أشار إلى هذا ابن خلدون فى المقدمة فقال : القانون فى تمييز الحق من الباطل فى الأخبار بالإمكان والاستحالة ، وإن تنظر فى الاجتماع البشرى الذى

هو العمران وتميز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه ، وما يكـون عارضـاً لا يعتد به ، وما لايمكن أن يعرض له".(١١١)

وضرب بعض الأمثلة على ذلك مثل ما ذكره المسعودى عن مدينة النحـاس وأنها مدينة كل بنائها نحاس بصحراء سلجماسـة ظفـر بهـا موسـى بـن نصـير فـى غزوته إلى المغرب ، وأنها مغلقة الأبواب وأن الصاعد إليها من أسوارها إذا أشرف على الحائط صَفّق ورمى نفسه فلا يرجع آخر الدهر".

ثم قال فى نقده : هـذا حديـث مستحيل عـادة مـن خرافـات القصـاص ، وصحراء سلجماسة قد نفضها الركاب والأدلاء و لم يقعوا لهذه المدينة على خـبر ، ثم إن هذه الأحوال التى ذكروا عنها كلها مستحيل عادة منـاف للأمـور الطبيعيـة فى بناء المدن واختطاطها ، وأن المعادن غاية الموجود منهـا أن يصـرف فـى الأبنيـة والخُرْثىّ.(١١٢) أما تشييد مدينة منها فكما تراه مـن الاستحالة والبعـد .(١١٣) وهذا المعدن النفيس تحيل العادة أن تبنى به الأسوار والقصـور لأن لـه استخدامات مناسبة لندرته ونفاسته .

هوامش البحث

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، ٤٢٥/٣،مادة نقد.

(٢) ابن أبى حاتم ، الجرح والتعديل ٥/١-٦. وانظر د. محمد مصطفى الأعظمى ، منهج النقد عند المحدثين ، (ص٥).

(٣) معجم مقاييس اللغة ٤٥٣/٢.مادة روى .

(٤) ابن منظور ، المصدر السابق ، (٣٤٨/١٤)، مادة روى.

(٥) لتعريف هذه المصطلحات راجع ابن كثير الباعث الحثيث فى اختصار علوم الحديث ،ص١٠٩-١٢٩.

(٦) سورة آل عمران،آية ١٢٠.

(٧) صحيح البخارى ، كتاب التفسير ، باب ﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذىً كثيراً﴾، حديث رقم(٤٥٦٦)، وقال ابن حجر فى فتح البارى (٢٣٣/٨) قوله : فبايعوا، بلفظ الماضى ويحتمل أن يكون بلفظ الأمر ، وانظر ابن هشام ، السيرة النبوية ٢٦٩/٢.

(٨) كان قد انخذل بثلث الجيش يوم أحد وترك القتال مع رسول الله (مغازى موسى بن عقبة (١٨٥) نسخة مستخرجة ، وانظر صحيح البخارى ، كتاب المغازى ، باب غزوة أحد، حديث رقم (٤٠٥٠)(٣٥٦/٧ من فتح البارى) . كما حاول فى غزوة بنى المصطلق إيقاع الفتنة بين المهاجرين والأنصار واستغلال بعض الحوادث العابرة ، وقوله : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. ثم هو الذى تولّى كبر حادثة الإفك (انظر: د. مهدى رزق الله ، السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية،ص٤٣٤-٤٣٩.

(٩) تستر: بالضم ثم السكون وفتح التاء من ارض خوزستان ، فتحها المسلمون سنه١٧هـ بقيادة أبى موسى الأشعرى وحضرها من مشاهير الصحابة ، حذيفة بن اليمان ، وعمار ابن ياسر، وجرير بن عبدالله البجلى، والبراء بن مالك ، وأنس بن مالك ، والبراء بن عازب، وقد أسر الهرمزان ملك الأهواز وجيء به إلى المدينة (انظر ياقوت ، معجم البلدان ، ٢٩/٢ وعن خبر فتحها انظر ، تاريخ الطبرى ٨٣/٤ وما بعدها).

(١٠) الفصل فى الأهواء والملل والنحل ،١١٥/٢٠، وانظر المقريزى ، الخطط ٣٦٢/٢.

(١١) عن ابن سبأ ودوره فى الفتنة ، انظر د. سليمان العودة ، عبدالله بن سبأ وأثره فى أحداث الفتنة فى صدر الإسلام ص٢٨-٥٣و١٤٣-١٥٨.

(١٢) يدل على ذلك أن المشاركين فى اغتيال عمر بن الخطاب ثلاثة : أبو لؤلؤة المجوسى ، الذى نفذ الاغتيال وهو من سبى نهاوند ، والهرمزان ملك الأهواز، وجفينة النصرانى من أهل الحيرة انظر : ابن سعد ، الطبقات الكبرى ٣٥٥/٣ وقد أخرج خبر اجتماعهم بإسناد صحيح .

(١٣) راجع تاريخ الطبرى ٣٦٥/٤-٣٦٩، ومحمد بن يحيى المالقى ، التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان ص٩٥-١٥٠.

(١٤) المراد بالفتنة الثانية الخلاف الذى نشأ عن الفتنة الأولى ونتج عنه القتال فى الجمل ثم فى صفين.

(١٥) كان بداية ظهور الفرق سنة ٣٧هـ بعد القتال فى صفين وحادثة التحكيم ، حيث ظهرت الخوارج ثم الشيعة فى مقابلها ، ثم القدرية ، والمرجئة .(انظر د. أحمد سعد حمدان ، مقدمة شرح اعتقاد أصول أهل السنة لأبى القاسم اللالكائى ص١٧-٢٦.

(١٦) روى مسلم فى مقدمة صحيحه (٢٠٠/١ مع شرح النووى) عن محمد بن سيرين قال: لم يكونوا يسألون عن الاسناد ، فلما وقعت الفتنة قالوا سموالنا رجالكم ، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم . كما أخرج من طريق مجاهد (١٩٦/١) قال:جاء بشير العدوى إلى عباس فجعل يحدث ويقول قال رسول الله ، قال رسول الله ، فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه ولا ينظر إليه ، فقال : يا ابن عباس ، مالى لا أراك تسمع لحديثى ، احدثك عن رسول الله ولا تسمع . فقال ابن عباس : إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلاً يقول رسول الله ﷺ ابتدرتة أبصارنا وأصغينا إليه بآذاننا ، فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف .

فهذا يدل على ظهور الوضع فى الأخبار واحتياط الصحابة وعلماء السلف من الكذابين .

(١٧) انظر على سبيل المثال ،د. عبد العزيز نور ولى ، أثر التشيع على الروايات التاريخية فى القرن الأول الهجرى ، وهى مهمه فى هذا الباب .

(١٨) التقميش: جمع الشيء من هاهنا وهاهنا ، كما في لسان العرب (٣٨٦/٦)، والمراد به عند علماء الجرح والتعديل جمع الروايات قبل نقدها على حد قول يحى بن معين : إذا كتبت فقمش وإذا حدثت ففتش ،(الذهبى ، سير أعلام النبلاء ٨٥/١١).

(١٩) انظر أمثلة لذلك عند د. عبد العظيم الديب ، المنهج فى كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامى ،ص٥٤-١٢٤.ود. أحمد غراب رؤية اسلامية للاستشراق ،ص٢٨-٨٤.

(٢٠) راجع ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ،١٤/١.وانظر د. رمزى نعناعة ، الاسرائيليات وأثرها فى كتب التفسير ، مبحث الاسرائيليات فى كتب التاريخ ،ص٢٠٩وما بعدها والمستشرقون والاسرائيليات ،ص٣٨٣وما بعدها .

(٢١) ابن حجر العسقلانى ؛ نزهة النظر شرح نخبة الفكر ،(ص٥٠-٥١).

(٢٢) مجهول العين : هو من سُمىّ وانفرد بالرواية عنه راو واحد . ومجهول الحال : يسمى المستور وهو ما روى عنه اثنان فصاعداً و لم يوثق.(ابن حجر ؛ المصدر السابق، ص٥٠).

(٢٣) يسمى سيء الحفظ ، وقد يكون ملازماً له فحديثه شاذ ، وقديكون طارئاً ، وهو المختلط. (ابن حجر ، المصدر نفسه ؛ ص٥١).

(٢٤) من أمثلة ذلك الرواية المشهورة فى كتب المؤرخين عن التحكيم ، وهى خلاف الواقع . انظر د. يحى بن ابراهيم ، مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى - عصر الخلافة الراشدة ، (ص٤٠٤-٤١٨).

(٢٥) تاريخ الرسل والملوك ١٦٠/٥.

(٢٦) البداية والنهاية ١٦/٨.

(٢٧) المصدر السابق ٢٨٩/٥.

(٢٨) الإمام أحمد ، رسالة السنة (ص٧٨) ، ابن أبى زيد القيروانى ، مقدمة رسالته(ص٨) طبع جامعة الإمام ، وكتاب الجامع (ص١١٥) ، ابن بطة العكبرى ، الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة ، ص٢٦٨، أبو عثمان الصابونى ، عقيدة السلف وأصحاب الحديث ، (ص٩٣) ، ابن قدامة المقدسى ،لمعة الاعتقاد ، (ص٤٠)، ابن تيمية ، العقيدة الواسطية (ص١٥٧)، ابن حجر العسقلانى ، فتح البارى ٣٤/١٣.

(٢٩) انظر لتخرجه ، الألبانى ، سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤٢/١ حديث رقم (٣٤).

(٣٠) أخرج الترمذى (٦٩٦/٥) حديث رقم ٣٨٦٢، باسناده عن عبد الله بن مغفل رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : الله الله فى أصحابى ، الله الله فى أصحابى لاتتخذوهم غرضاً بعدى ، فمن أحبهم فبحبى أحبهم ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن أذاهم فقد آذانى . قال أبو عيسى هذا حديث غريب . وقال الشيخ الألبانى فى ضعيف الجامع الصغير (برقم ١٢٥٩) ضعيف .قلت: لكن يشهد لمعناه حديث جابر ابن سمرة قال : خطبنا عمر بن الخطاب بالجابية فقال : إن رسول ﷺ قام فينا مقامى فيكم فقال : احفظونى فى أصحابى ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ." أخرجه ابن ماجه فى سننه ٧٩١/٢ حديث رقم (٢٣٦٣) . وانظر الألبانى ، سلسة الأحاديث الصحيحة ١٠٩/٣ حديث رقم (١١١٦).

(٣١) انظر صحيح البخارى (٣١٨/١٣، من فتح البارى) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ .

(٣٢) الموافقات ١٩٤/٤.

(٣٣) المصدر نفسه ١٩٦/٤.

(٣٤) ابن تيمية ، الصارم المسلول على شاتم الرسول ص ٥٨٠ ومجموع الفتاوى ٤٢٩/٤.

(٣٥) الخطيب البغدادى ، الكفاية فى علم الرواية ص٩٧.

(٣٦) عبد الإله الأحمدى ، المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد فى العقيدة ٣٦٤/٢.

(٣٧) مجموع الفتاوى ٤٢٩/٤.

(٣٨) المصدر نفسه ٤٣٠/٤.

(٣٩) ابن كثير ، البداية والنهاية ١٣٩/٨ .

(٤٠) المصدر نفسه ١٣٩/٨.

(٤١) منهاج السنة النبوية ٤٥٨/٧-٤٥٩.

(٤٢) فؤاد عبد الباقى : اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ١٨١/٣.

(٤٣) د. عبد الله الخلف، مجتمع الحجاز فى العصر الأموى بين الآثار الأدبية والمصادر التاريخية، الفصل الأول ص٢٨-١١٠، رسالة دكتوراه (غير منشورة) جامعة الإمام - كلية اللغة العربية .

(٤٤) المصدر نفسه ص٣٤، نقلاً عن الدكتور زكى مبارك .

(٤٥) انظر كتاب الدكتور شوقى ضيف ، الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية ص٦٨، ٣٣٢-٣٣٨.

(٤٦) انظر ٢/٧٠-٧١.

(٤٧) أدربنا : أى حزنا الدرب للغزو فى سبيل الله ، وهو تجاه بلاد الروم (المصدر السابق).

(٤٨) البغاث: قال ابن هشام : هو ضرب من الطير يميل إلى السواد (نفس المصدر).

(٤٩) أخرجه فى كتاب المغازى ، باب قتل حمزة بن عبد المطلب (٧/٣٦٧ من فتح البارى).

(٥٠) ابن تيمية ، منهاج السنة النبوية ٦/٣٠٥.

(٥١) انظر الأدلة على ذلك عند البيهقى ، دلائل النبوة ٧/٢٢١-٢٣٠.

(٥٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الأحكام ، باب الاستخلاف (١٣/٣٠٥ من فتح البارى) ومسلم فى صحيحه حديث رقم (٢٣٨٧).

(٥٣) ابن تيمية ، المصدر السابق ٧/٤٣٧-٤٣٩ بتصرف.

(٥٤) المصدر نفسه ٧/٣٤-٣٥.

(٥٥) سورة الأحزاب ، آية ٧٢.

(٥٦) سورة الجن ، آية ١٦.

(٥٧) سورة المائدة ، آية ٦٥-٦٦.

(٥٨) سورة الأعراف ، آية ٩٧.

(٥٩) سورة الطلاق ، آية ٨-٩، وانظر أمثلة من أنواع العقوبات التى أحلها بالأمم التى كذبت الرسل فى سورة الشعراء ، فقد ذكر الله هلاك فرعون وقومه بالغرق الآيات ٥٢-٦٨، ثم قوم نوح بالطوفان الآيات ١٠٥-١٢٢، ثم عاد الآيات ١٢٣-١٤٠، ثم ثمود قوم صالح الآيات ١٤١-١٥٩، ثم قوم لوط الآيات ١٦٠-١٧٥، ثم أصحاب الأيكة قوم شعيب علية السلام الآيات ١٧٦-١٩١.

(٦٠) سورة آل عمران ، أية ١٨٩.

(٦١) سورة محمد ، أية ٣١.

(٦٢) سورة آل عمران ، آية ١٧٨.

(٦٣) سورة الأعراف ، ىية ١٨٢- ١٨٣.

(٦٤) رواه البخارى ومسلم وهذا لفظ مسلم ، انظر صحيح مسلم ١٩٩٧/٤ حديث رقم (٢٥٨٣).

(٦٥) سورة هود، آية ١٠٢.

(٦٦) انظر مقدمة ابن خلدون ص١٧٠.

(٦٧) د. أكرم العمرى ، منهج النقد عند المحدثين مقارناً بالميثولوجيا الغربية ، بجلة مركز بحوث السنة والسيرة بقطر ، العدد الثالث ،ص١١٩.

(٦٨) انظر السخاوى ، فتح المغيث شرح ألفية الحديث للعراقى ١٤/١ود. محمود الطحان ، تيسير مصطلح الحديث ص٣٣.

(٦٩) أخرج الخطيب البغدادى فى كتاب الكفاية فى علم الرواية (ص٢١٢) بسنده عن الإمام أحمد أنه قال : إذا روينا عن رسول الله ﷺ فى الحلال والحرام والسنن والأحكام تشدّدنا فى الأسانيد ، وإذا روينا عن النبى ﷺ فى فضائل الأعمال وما لا يضع حكمًا ولا يرفعه تساهلنا فى الأسانيد " فهذا النص من الإمام أحمد رحمه الله واضح فى أن التساهل فى رواية الأسانيد هو فى أمور مخصوصة لا يترتب عليها وضع حكم ولا رفعه، وأنظر البيهقى ، دلائل النبوة (٣٣/١) .

(٧٠) هذه الأنواع هى من قسم الخبر المردود عند المحدثين بسبب سقط من الإسناد وانظر لتعريفها د. محمود الطحان ، مصدر سابق ، ص٦٨ - ٧٧ .

(٧١) د. أكرام ضياء العمرى ، السيرة النبوية الصحيحة ، ص٤٥ . وانظر مقدمته لتاريخ خليفة بن خياط ص ١٤ - ١٦ .

(٧٢) أنظر فرانز روزنتال ، علم التاريخ عند المسلمين ترجمة د. صالح أحمد العلى (ص٣٣٦).

(٧٣) الجماء : جبل يشرف على العقيق غربى المدينة وتسمى جماء تضارع (عاتق البلادى معجم المعالم الجغرافية فى السيرة النبوية) .

(٧٤) كبة :حى من بجيلة وفى رواية البخارى عرينة ، وهى حى من بجيلة (فتح البارى ١ / ٣٣٧) .

(٧٥) السيرة النبوية ٦٤٠/٢ .

(٧٦) صحيح البخارى ، كتاب الوضوء ، باب أبوال الإبل والدواب، ومسلم ١٢٩٦/٣ حديث رقم ١٦٧١ .

(٧٧) تاريخ الرسل والملوك ٤ / ٥٠٠ .

(٧٨) الذهبى ميزان الاعتدال ٣ / ٤١٩ .

(٧٩) المصدر نفسه ٣٧٩/١ .

(٨٠) تاريخ الرسل والملوك ٤ / ٥٤٤ .

(٨١) ابن حجر ، تقريب التهذيب ص٤٢٨ ترجمة رقم (٢٧٣٩) .

(٨٢) انظر لأنجلوا وسينوبوس ، المدخل إلى الدراسات التاريخية ، ترجمة عبد الرحمن بدوى ، (ص٨٦ - ٩٣) .

(٨٣) الشذوذ : هو مخالفة الثقة لمن هو أوثق منه ، والعلة : سبب غامض خفى يقدح فى صحة الحديث مع أن الظاهر السلامة منه. (د. محمود الطحان، مصدر سابق ص٣٣ - ٣٤).

(٨٤) انظر لتعريفها ، محمود الطحان ، مصدر سابق ص١٠٢ - ١١٨ و ١٣٦ .

(٨٥) طبع بتحقيق د. مصطفى الأعظمى سنة ١٣٩٥هـ ، والطبعة الثانية عن شركة الطباعة السعودية ، الرياض ، ١٤٠٢هـ . مع مقدمة طويلة عن منهج النقد عند المحدثين .

(٨٦) كتاب الموضوعات لابن الجوزى طبع بتحقيق عبد الرحمن محمد عثمان عند المكتبة السلفية بالمدينة سنة١٣٨٦هـ .

(٨٧) طبع بتحقيق محمود مهدى الاستانبولى .

(٨٨) نشرت الطبعة الأولى بالرياض سنة ١٤٠٤هـ .

(٨٩) انظر المصدر السابق ، ومقاييس ابن الجوزى فى نقد متون السنة (ص ١٨ - ١٩) .

(٩٠) كتاب التمييز ص٢٠٩ .

(٩١) تذكرة الحفاظ ٣ / ١١٤١ والخطيب البغدادى كانت وفاته سنة ٤٦٣ هـ وقد عرض نفس الكتاب المزور على شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) وقد جاء به عدد من اليهود يزفونه ويجلونه ، وقد غشى بالحرير والديباج فلما فتحه وتأمله بزق عليه وقال : هذا كذب من عدة أوجه وذكرها ، فقاموا من عنده بالذل والصغار ، انظر المنار المنيف لابن القيم (١١٠) وقد ذكر ابن القيم عشرة أوجه لإبطال هذا الكتاب انظرها فى (ص١٠٨ - ١١٠) .

(٩٢) تاريخ الطبرى ٣/٢٢٠ .

(٩٣) د. يحيى بن إبراهيم مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى عصر الخلافة الراشدة ، دراسة نقدية (ص١٢٤) .

(٩٤) مروج الذهب ومعادن الجوهر ٣ / ٤١ .

(٩٥) المصدر نفسه ٣/٤١ .

(٩٦) تاريخ الرسل والملوك ٣ / ٢١٨ .

(٩٧) الخطيب البغدادى ، الكفاية فى علم الرواية ، ص(٢٢٤) .

(٩٨) سورة الحشر ، آية ٩ .

(٩٩) راجع عن هذا الموضوع الكتاب القيم " مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى " للدكتور يحيى بن إبراهيم اليحيى ؛ ص ١٢٢ - ١٢٥ وما بعدها .

(١٠٠) سبق تخريجه ، هامش (٥٢) .

(١٠١) ابن حجر ، تقريب التهذيب ، ص٨٢٥ .

(١٠٢) المصدر نفسه ص٨٨٢ .

(١٠٣) المصدر نفسه ص٤٧١

(١٠٤) طبع ما يتعلق بحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة فى القاهرة بتحقيق وتعليق محب الدين الخطيب سنة ١٣٧١ هـ ، كما طبع الكتاب كاملاً بتحقيق د. عمار طالبى ، فى مجلدين بعنوان : آراء أبى بكر بن العربى الكلامية .

(١٠٥) قام الباحث د. يحيى بن إبراهيم اليحيى بإعداد رسالته للدكتوراه فى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بعنوان : الروايات التاريخية عن الخلافة الراشدة والدولة الأموية من فتح البارى جمعًا وتوثيقًا ، ونشرتها دار الهجرة ، الرياض سنة ١٤١٧هـ .

(١٠٦) مقدمة فتح البارى ص٤ .

(١٠٧) قال تقى الدين الفاسى فى ترجمة أحمد بن عبد الله محب الدين المكى الطبرى من كتابه العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ٣ / ٦٢ / وله تواليف حسنة فى فنون من العلم إلا أنه وقع له فى بعض كتبه الحديثية شئ لا يستحسن ، وهو أنه ضمنها أحاديث ضعيفة وموضوعة فى فضائل الأعمال وفضائل الصحابة من غير تنبيه على ذلك ولا ذكر

اسنادها ليعلم منه حالها ، وغاية ما صنع أن يقول : أخرجه فلان ، ويسمى الطبرانى مثلاً أو غيره من مؤلفى الكتب التى أخرج منها الحديث المشار إليه ، وكان من حقه أن يخرج الحديث بسنده فى الكتاب الذى أخرجه منه ليسلم بذلك من الانتقاد ، كما سلم به مؤلف الكتاب الذى أخرج منه المحب الطبرى الحديث الذى خرّجه أو يقول : أخرجه الطبرانى مثلاً بسند ضعيف كما صنع غير واحد من المحدثين فى بيان حكم سند الحديث الذى يرون إخراجه ، أو ذكره باسناد المؤلف الذى يخرجونه من كتابه .

(١٠٨) منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والقدرية ٧ / ٤٣٧ .

(١٠٩) انظر المصدر نفسه ٧ / ٤٣٩ .

(١١٠) المصدر نفسه ٧/٤٤٠ .

(١١١) المقدمة ص٣٧ .

(١١٢) الخرثى : بضم الخاء وإسكان الراء وكسر الثاء المشددة ؛ أثاث البيت ؛ وقيل أردأ المتاع والغنائم (ابن منظور ، مصدر سابق ٢ / ١٤٥ ، مادة خرث .

(١١٣) المقدمة ص٣٧ .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم :

- د. أحمد سعد حمدان :

مقدمة شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للإمام اللالكائى - دار طيبة - الرياض .

- د . أكرم ضياء العمرى :

١ - منهج النقد عند المحدثين مقارنًا بالميثولوجيا الغربية ، مجلة مركز بحوث السنة والسيرة النبوية ، العدد الثالث ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨م.

٢ - السيرة النبوية الصحيحة (مجلدان) ، دار العلوم والحكم ، المدينة .

٣ - تاريخ خليفة بن خياط (مجلد) تحقيق ، دار القلم ، بيروت ، ١٣٩٧هـ .

- الألبانى (محمد ناصر الدين بن نوح نجاتى) :

١ - سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦ مجلدات) ، المكتب الإسلامى ، ودار المعارف بالرياض .

٢ - سلسلة الأحاديث الضعيفة (٥ مجلدات) ، المكتب الإسلامى ، ودار المعارف بالرياض .

٣ - صحيح الجامع الصغير وزيادته (٦ أجزاء) ، المكتب الإسلامى ، بيروت.

٤ - ضعيف الجامع الصغير وزيادته (٦ أجزاء) ، المكتب الإسلامى ، بيروت.

- الإمام البخارى (محمد بن إسماعيل ت ٢٥٦ هـ) :

الجامع الصحيح مع فتح البارى (١٣ مجلدًا) ، المكتبة السلفية بمصر .

- ابن بطة (عبيد الله بن محمد العكبرى) .

الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة ، تحقيق د. رضا نعسان ، المكتبة الفيصلية بمكة .

- البيهقى (أبو بكر أحمد بن الحسين ، ت ٤٥٨هـ) .

دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة (٧ مجلدات) ، تحقيق عبد المعطى قلعجى ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٥هـ .

- الإمام الترمذى (محمد بن عيسى بن سورة ، ت ٢٧٩هـ) .

سنن الترمذى (٥ مجلدات تحقيق أحمد شاكر ، دار أحياء التراث العربى .

- ابن تيمية (أحمد بن الحليم الحرانى ، ت ٧٢٨هـ) .

١ - مجموع الفتاوى (٣٧ مجلدا) ، جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، ط ٢ ، سنة ١٣٩٩ هـ ، مكتبة ابن تيمية بالقاهرة .

٢ - العقيدة الواسطية ، شرح محمد خليل هراس ، طبع الجامعة الإسلامية .

٣ - منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والقدرية (٩ مجلدات) ، تحقيق د. محمد رشاد سالم ، طبع جامعة الإمام ، سنة ١٤٠٦هـ .

٤ - الصارم المسلول على شاتم الرسول ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة ١٣٩٨هـ .

- ابن أبى حاتم (عبد الرحمن بن محمد أدريس ، ت ٣٢٧هـ) .

تقدمة المعرفة لكتاب الجرح والتعديل ، تحقيق عبد الرحمن المعلمى ، دار الكتب العلمية ، بيروت عن الطبعة الأولى لدائرة المعارف العثمانية بالهند ،١٣٧١هـ .

- ابن حجر (أحمد بن على العسقلانى ، ت ٨٥٢هـ) .

١ - فتح البارى شرح صحيح البخارى (١٣ مجلدًا) ، المكتبة السلفية بمصر .

٢ - تقريب التهذيب (مجلد واحد) ، تحقيق أبو الأشبال صغير أحمد ، دار العاصمة بالرياض ، سنة ١٤١٦ هـ .

٣ - نزهة النظر شرح نخبة الفكر فى مصطلح أهل الأثر ، مكتبة الغزالى ، سوريا .

- ابن حزم (على بن حزم الظاهرى ، ت٤٥٦هـ) .

الفصل فى الأهواء والملل والنحل (٥ أجزاء) ، مكتبة المثنى فى بغداد والخانجى بالقاهرة .

- **ابن حنبل (أحمد بن حنبل الشيبانى ، ت ٢٤١ هـ) .**

١ - المسند (٦ مجلدات) ، دار صادر بيروت .

٢ - السنة ، تصحيح الشيخ إسماعيل الانصارى ، طبع دار الأفتاء بالرياض .

- **الخطيب البغدادى (أحمد بن ثابت ، ت ٤٦٣هـ) .**

الكفاية فى علم الرواية ، دار الكتب الحديثة بالقاهرة .

- **ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد الحضرمى ، ت ٨٠٨ هـ) .**

المقدمة . دار إحياء التراث العربى ، بيروت .

- **الذهبى (محمد بن أحمد بن عثمان ، (ت ٧٤٨هـ) :**

١ - سير أعلام النبلاء (٢٣ مجلدًا) ، دار الرسالة ، بيروت .

٢ - تذكرة الحفاظ (مجلدان) ، تصحيح عبد الرحمن المعلمى ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت .

- **د . رمزى نعناعة :**

الإسرائيليات وأثرها فى كتب التفسير ، دار القلم بدمشق ، سنة ١٣٩٠ هـ .

- **السخاوى (محمد بن عبد الرحمن ، (ت ٩٠٢ هـ) :**

فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للعراقى (٤ مجلدات) ، تحقيق على حسين على - دالا الإمام الطبرى ، ط٢ ، سنة ١٤١٢هـ .

- **ابن سعد (محمد بن سعد بن منيع ،(ت ٢٣٠ هـ) :**

الطبقات الكبرى (٨ مجلدات) ، دار صادر ، بيروت .

- **د. سليمان بن حمد العودة :**

عبد الله بن سبأ وأثره فى أحداث الفتنة فى صدر الإسلام ، دار طيبة، الرياض.

- **د. شوقى ضيف :**

الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية، دار الثقافة ، بيروت ، سنة ١٩٦٧م.

- **الصابونى (إسماعيل بن عبد الرحمن أبو عثمان ، (ت ٤٤٩هـ) :**

عقيدة السلف وأصحاب الحديث ، تحقيق بدر البدر ، الدار السلفية ، الكويت، سنة ١٩٧٧م .

- الطبرى (محمد بن جرير ، (ت ٣١٠ هـ) :

تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر.

- عبد الإله بن سليمان بن سالم الأحمدى .

المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل فى العقيدة ، دار طيبة ، الرياض .

- عبد الله بن سالم الخلف .

مجتمع الحجاز فى العصر الأموى بين الآثار الأدبية والمصادر التاريخية ، رسالة دكتوراة مطبوعة على الألة الكاتبة فى كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، سنة ١٤٠٧هـ .

- عبد الرحمن بن يحيى المعلمى اليمانى (ت١٣٨٦هـ) :

مقدمة كتاب الجرح والتعديل لابن أبى حاتم ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

- د. عبد العزيز محمد نور ولى :

أثر التشيع على الروايات التاريخية فى القرن الأول الهجرى ، دار الخضيرى سنة ١٤١٧هـ .

- د. عبد العظيم محمود الديب :

المنهج فى كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامى ، سلسلة كتاب الأمة بقطر ، ربيع الأول سنة ١٤١١ هـ .

- ابن العربى (أبو بكر محمد بن عبد الله ، (ت ٥٤٣ هـ) :

١ - العواصم من القواصم فى تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبى ﷺ ، تحقيق وتعليق محب الدين الخطيب ، المكتبة السلفية بالقاهرة ، سنة ١٣٧١هـ.

٢ - آراء أبى بكر بن العربى الكلامية (مجلدان) ، تحقيق عمار طالبى ، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع .

- ابن فارس (أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، (ت ٣٩٥هـ) :

معجم مقاييس اللغة (٦ مجلدات) ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة البابى الحلبى بمصر ، ط٢ ، سنة ١٣٨٩هـ .

- فرانز روزنتال (مستشرق) :

علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة أحمد صالح العلى ، مكتبة المثنى ، بغداد ١٩٦٣م .

- ابن قدامة (أبومحمد عبد الله بن أحمد موفق الدين ، (ت ٦٣٠هـ) :

لمعة الاعتقاد الهادى إلى سبيل الرشاد .

- القيروانى (عبد الله بن أبى زيد ، (٣٨٦ هـ) :

١ - كتاب الجامع فى السنن والآداب والمغازى والتاريخ ، تحقيق محمد أبو الإجفان وعثمان بطيخ .

٢ - آراء أبى بكر بن العربى الكلامية (مجلدان) ، تحقيق عمار طالبى ، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع .

- ابن القيم (محمد بن أبى بكر الزرعى ، (ت ٧٥١ هـ) :

المنار المنيف فى الصحيح الضعيف ، تحقيق محمود مهدى الأستانبولى ..

- ابن كثير (إسماعيل بن عمر القرشى ، (ت ٧٧٤ هـ) .

١ - الباعث الحثيث فى اختصار علوم الحديث ، تعليق أحمد شاكر .

٢ - تفسير القرآن العظيم (٨ مجلدات) ، تحقيق عبد العزيز غنيم ومحمد البنا ، دار الشعب بمصر .

٣ - البداية والنهاية (٧ مجلدات) ، دار المعارف ، بيروت .

-لانجلوا وسنوبوس :

المدخل إلى الدراسات التاريخية ، ترجمة عبد الرحمن بدوى .

- المالقى (محمد بن يحيى بن أبى بكر (ت ٧٤١هـ) :

التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان ، تحقيق محمود زايد دار الثقافة ، الدوحة ، ١٤٠٥ هـ .

- محمد مصطفى الأعظمى .

منهج النقد عند المحدثين ، منشور مع كتاب التمييز للإمام مسلم ، مطابع العمارية بالرياض .

- محمد فؤاد عبد الباقى .

اللؤلو والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (٣ مجلدات) ، دار الباز بمكة .

- د. محمود الطحان .

تيسير مصطلح الحديث ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٩٩ هـ ، دار القرآن الكريم ، بيروت .

- المسعودى (على بن حسين ، (ت ٣٤٦ هـ) .

مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى .

- مسفر بن غرام الله الدمينى .

مقاييس نقد متون السنة ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٤هـ .

مقاييس ابن الجوزى فى نقد متون السنة من خلال كتابة الموضوعات ، دار المدنى ، جدة ، سنة ١٤٠٥ .

الإمام مسلم بن الحجاج القشيرى ، (ت ٢٦١ هـ) .

صحيح مسلم مع شرح الإمام النووى (١٨ جزءًا) مراجعة الشيخ خليل الميس ، دار القلم ، بيروت .

التمييز ، تقديم محمد مصطفى الأعظمى ، الطبعة الثانية عن دار مطابع العمارية بالرياض .

- **المقريزى (أحمد بن على ، (ت ٨٤٥ هـ) .**
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، دار صادر ، بيروت .
- **ابن منظور (محمد بن مكرم الأفريقى ، (ت ٧١١ هـ)**
لسان العرب ، دار صادر ، بيروت .
- **موسى بن عقبة الأسدى (ت ١٤١ هـ)**
المغازى (نسخة مستخرجة) ، جمع وتحقيق د. محمد باقشيش ، الدار البيضاء.
د. مهدى زرق الله .
السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية ، طبع مركزالملك فيصل للدراسات الإسلامية ، الرياض .
- **ابن هشام (عبد الملك الحميرى ، ت (٢١٨هـ) .**
السيرة النبوية (٤ أجزاء) تحقيق مصطفى السقا وزملاؤه ، مطبعة البابى الحلبى بالقاهرة ، ط٢ ، سنة ١٣٧٥هـ .
- **ياقوت (ياقوت بن عبد الله الحموى (ت ٦٢٦ هـ) .**
معجم البلدان (٥ مجلدات) ، دار صادر ، بيروت .
- **يحيى بن إبراهيم اليحيى :**
مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى ، عصر الخلافة الراشدة ، دار العاصمة الرياض ، ط١ ، سنة ١٤١٠هـ .
الروايات التاريخية عن الخلافة الراشدة والدولة والأموية فى فتح البارى جمعًا وتوثيقًا ، دار الهجرة ١٤١٧هـ .

العيارون والشطار
فى العصر العباسى

د. على منصور نصر(*)

المقدمة :

حركة العيارين والشطار من الحركات الاجتماعية الفاعلة ، التى كانت لها استمرارية طوال التاريخ العباسى، أى منذ قيام الدولة العباسية، فى سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م حتى نهاية التسلط الأجنبى وسقوط بغداد فى أيدى المغول فى سنة ٦٥٦هـ ١٢٥٨م.

وتأتى هذه الحركة استجابة طبيعية للتفاوت الاقتصادى ، وما أدى إليه من تمايز طبقى فى الدولة العباسية ، بعد أن أصبحت حاضرة الخلافة العباسية ، بغداد، مركزًا اقتصاديًا وسياسيًا واجتماعيًا مهمًا ، بدأ من العصر العباسى الأول سنة ١٣٢ - ٢٣٢هـ/ ٧٤٩ - ٨٤٦م .

وكان للتسلط الأجنبى المتمثل فى بنى بويه والسلاجقة دور كبير فى ازدياد الفجوة بين الحاكمين والمحكومين ، ونتيجة لذلك التسلط الأجنبى وردًا عليه ازدادت حركة المقاومة الشعبية وعلى رأسها حركة العيارين والشطار .

ففى العصر البويهى (٣٣٤ - ٤٤٧هـ / ٩٤٥ - ١٠٥٥م) أقلق العيارون والشطار بال السلطات البويهية حيث كانوا يصطدمون بها دائمًا ، حتى إنهم أعيوهم ، ولم تسلم دور رجال الحكومة ولا أرواحهم من العيارين ، حيث قتلوا الكثيرين من رجالات الدولة ومن المتعاونين معهم .

وقد تركزت تحركات العيارين والشطار فى المدن العباسية ، وخاصة بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، حيث تميز المجتمع البغدادى بتعقد حياته ، وتطور عمرانه

(*) أستاذ التاريخ والحضارة العربية الإسلامية المشارك ، ورئيس قسم الدراسات العامة ، كلية الآداب - جامعة البحرين .

وامتداد سكانه ، واستطاعت حركة العيارين والشطار استقطاب عناصر كثيرة مختلفة ، من أصحاب المهن والصناعات الصغيرة والعاطلين والمتذمرين من السياسة القائمة . كل تلك العناصر وحد فيما بينها الانضمام إلى حركة العيارين والشطار التى تنادى بمبادئ سامية تدعو إلى تحقيق العدالة والمساواة فى المجتمع العباسى ، ونبذ التمايز والتفرقة .

إن حركة العيارين والشطار أصبحت من القوة ، فى عصر اتسم بالصراع بين الأخوين الأمين والمأمون (١٩٥ - ١٩٨هـ / ٨١٠ - ٨١٣م) ، فقد استطاع الأمين احتواء الحركة ، وسيرها لخدمة حربه مع أخيه ، لكن رغم البلاء الكبير الذى أبلوه فى تلك الحرب ، ورغم الانتصارات التى تحققت لهم ، إلا أن نتيجة المعركة التى حسمت ذلك الصراع جاءت مخيبة لهم ، حيث قتل الأمين ، وانتصر جانب المأمون ، لكنهم ظلوا قوة فاعلة على الساحة العباسية .

ورغم قساوة السلطة البويهية فى تتبع وإخماد حركة العيارين والشطار ، إلا أنها لم تستطع أن تقضى عليهم ، حيث استطاعوا رغم ذلك قيادة حركة المقاومة الشعبية ، وبلغ من شأنهم أن السلطة كانت ترسل لهم الجيوش للقضاء عليهم فلا تنال منهم ، إن لم تهزم أمامهم ، وكانت تتحطم هيبة الدولة بسبب ذلك . فكانت حركتهم ثورة على الأوضاع الاجتماعية والسياسية الجائرة ، وكثيرًا ما سرقوا ونهبوا وقتلوا ، لكن عملهم كان موجهًا ضد مياسير القوم ومن تبعهم .

وفى العصر السلجوقى ظل العيارون والشطار يمارسون نهجهم فى إقلاق السلطات الغازية ، حيث إن عصر نفوذ السلاجقة ، لا يختلف عن سابقه من الممارسات اللاإنسانية مع الرعب واستشراء الفساد الإدارى والمالى ، ومن حيث بقاء الخليفة العباسى كمركز روحى يملك ولا يحكم ، بينما تركزت السلطة الفعلية فى أيدى الأتراك السلاجقة المستبدين الجدد بالخلافة .

ورغم قساوة السلطة السلجوقية فى التعامل مع الحركات المناهضة ، إلا أن حركة العيارين والشطار لم تتوقف ولو فى أشكال أخرى مثل حركة الفتوة ،

وواصلت حركة العيارين والشطار عملها ضد ممثلي السلطة السلجوقية وأعوانهم وضد التجار وأصحاب المال ووجهاء القوم ونحو الاستيلاء على أموال الأغنياء واستخدامها لطرق مختلفة للوصول إلى مبتغاها .

وكانت حركة العيارين والشطار كغيرها من الحركات الاجتماعية في العصر العباسي التي ينقصها التنظيم والتدبير والقيادة الواعية ، التي كانت من الممكن أن تستقطب كل القطاعات والمجاميع المتذمرة والمتضررة من السياسات التي انتهجتها مختلف الحكومات على مر التاريخ العباسي ، ولم تكن لهم شعارات تدعو إلى قلب نظام الحكم ، وإن كل ما كانوا يبغونه هو لفت أنظار القائمين على الدولة إلى الأوضاع المأساوية التي يعيشونها ، ومحاولة تغيير تلك الأوضاع بالأساليب التي يعتقدون بأنها تخدم قضيتهم ، لكن الدولة اعتبرتهم خارجين على القانون ، وعاملتهم معاملة المجرمين أصحاب الجنايات ، لا ثائرين أصحاب قضية ورسالة ، مع أن انتفاضاتهم كانت في أحايين كثيرة صرخة مظلوم مستضعف في وجه ظالم مستبد .

وفي الوقت الذي كانت حركة العيارين والشطار مرفوضة من الناحية القانونية من قبل السلطة في العصر العباسي ، فإنها كانت مقبولة من الناحية الاجتماعية خاصة أن عناصرهم من الطبقة العامة الذين اعتبروا أصحاب تلك الحركة أبطالاً في نظرهم ، ونظروا إلى حركتهم على أنها حركة ثورية يقودها الفقراء ضد الأغنياء في محاولة لتحسين أوضاعهم ولو بالقوة .

النزاع بين الأمين والمأمون وأثره في نشأة حركة العيارين والشطار :

مر النزاع بين الأمين والمأمون بدورين ، الأول دبلوماسي سلمي انتهى سنة ١٩٥هـ/٨١٠م ، والثاني عسكري انتهى بمقتل الأمين سنة ١٩٨هـ/٨١٣م وله تسع وعشرون سنة وثلاثة أشهر(١) .

تولى محمد الأمين بالله الخلافة بعد موت أبيه هارون الرشيد ، وعمره ثلاث وعشرون سنة ، فى النصف من جمادى الآخرة سنة ١٩٣م / ٤ أبريل ٨٠٨م . وكان أبوه قد أوصى له بالخلافة من بعده ، من دون المأمون الذى يكبره سنًا ، بعد أن بويع بولاية العهد وهو لم يتجاوز الخامسة من عمره ، حيث أنه ولد فى شوال ١٧٠هـ/٧٨٦م ، ونصب فى ولاية العهد سنة ١٧٥هـ/٧٩١م(٢) . وقد أقدم الرشيد على هذا العمل إرضاءًا لزوجته زبيده العربية الأصل .

وبعد نحو سبع سنوات من البيعة للأمين ، عهد الرشيد إلى ابنه " عبد الله " المأمون بولاية العهد ، بعد أخيه الأمين ، ثم ولاه الرشيد بلاد المشرق وولى الأمين بلاد العراق والشام ومصر وبلاد المغرب(٣) .

بعد أن آلت الخلافة إلى الأمين ، سار فى نهج مغاير لطبيعة الخلافة الإسلامية وقادتها ، وأخذ يقبل على اللهو لدرجة أنه فاق من سبقوه فى ذلك ، وعاشر أهل المجون ، وأرسل إلى جميع البلدان فى طلب المهلبيين ، فضمهم إليه وأجرى لهم المرتبات ، وأسرف كثيرًا فى انفاق المال على ملذاته ومتعه ، فقسم ما فى بيوت الأموال ، وما فى حوزته من جواهر على خصيانه وجلسائه وندمائه ، وأمر ببناء أماكن لمنتزهاته ، ومواضع خلوته ، ولعبه ولهوه . ففى اليوم التالى لخلافته ، أمر ببناء ملعب بجوار قصر المنصور ببغداد(٤) ، ليلعب فيه الكرة . كما أمر ببناء جرافات (سفن) ، فى دجلة تكون على شكل الأسد ، والفيل والحية ، والعقرب والفرس . وأنفق فى بنائها أموالاً طائلة ، لكى يتنزه فيها . ووصفه كثير من المؤرخين بأنه كان سيء التدبير، كثير التبذير، ضعيف الرأى لا يصلح للإمارة(٥).

والواقع أن تربية الأمين المترفة جعلته قليل الصرامة بعيدًا عن تقاليد العباسين الميكافيلية ، لكنه فى المقابل كان فى نهاية القوة والشدة والبطش(٦) .

وكان من أهم نقاط الخلاف بين الأخوين ، مسألة ولاية العهد ، إضافة إلى تغذية الخلافات وتعميقها من قبل مشاورى الاثنين ، الذين لعبا دورًا مهمًا فى ذلك الخلاف .

فبعد موت هارون الرشيد أخذ الوزير الفضل بن الربيع الذى كان مع هارون فى رحلته الأخيرة ، يسرع الخطا إلى بغداد ، على رأس الجند ، ومعه المال ليبايع الأمين ، الذى استوزره أيضًا ، أما المأمون فقد ظهر بمعيته رجل اسمه الفضل ابن سهل ، كان دوره فى الصراع بين الأخوين أكبر من دور المأمون نفسه ، ولعل الفتنة أو الصراع بين الأخوين حدثت نتيجة لتنافس الرجلين القويين وهما الفضل ابن الربيع ، والفضل بن سهل ، على السيطرة على مقدرات الدولة العباسية، منذ أواخر أيام الرشيد . وكان كلما ذكر الأمين والمأمون ابنا الرشيد ، ذكر معهما " الفضلان " الوزيران اللذان تحيز كل منهما إلى أحد الأخوين وأثار بينهما صراعًا شديدًا ، ولاح ذلك فى سنة ١٩٤هـ/٨٠٩م ، وفيها مكر كل واحد منهما بصاحبه محمد الأمين وعبد الله المأمون ، وظهر بينهما الفساد(٧) .

ومثلما تحمل الفضل بن الربيع مسؤلية حمل الأمين على عزل أخيه ، وفتح باب الفتنة بين الأخوين تحمل الحسن بن سهل وأخوه الفضل بن سهل المسؤلية أيضًا فى توسيع الشقة بين الأخوين ودفع الأمور إلى الصدام والقتال ، أما الحسن ابن سهل وأخوه الفضل بن سهل فقد ظلا معترضين على تقديم أى تنازلات للأمين(٨) .

وكان أن استعان كلا الأخوين بالقومية التى ينتمى إليها ، فالأمين وهو هاشمى أبًا وأمًا استعان بالقومية العربية ، والمأمون وأمه فارسية ، استعان بالقومية الفارسية ، التى كان يعيش بين أهلها وأراد كل منهما تحقيق أهدافه ، من خلال تلك القومية ، ذلك أن الخلافة العباسية قامت قبل كل شىء على أساس أن تكون خلافة كل القوميات الإسلامية ، وليست خلافة قومية معينة(٩) .

وهكذا أخذ الفضل بن سهل يشجع المأمون ويسعى لتثبيت مركزه ، باسترضاء أهل خراسان من مختلف الطبقات ، ثم أشار عليه باسترضاء الطبقة الارستقراطية ، وتكريم القواد والملوك ففعل ذلك ، وقام باسترضاء عامة الشعب، بأن حط عن " خراسان ربع الخراج " فحسن موقع ذلك من الناس ، وسروا به

وقالوا : " ابن اختنا وابن عم "(١٠) . وكان الفضل بن سهل يدفع المأمون إلى الاستقلال بالمناطق الشرقية من الدولة العباسية (خراسان وما يحيط بها من أقاليم)(١١) . كما طمع الفضل بن سهل لصاحبه بالخلافة ، وليس دون ذلك، وكثيرًا ما شد عزيمة المأمون ونصحه بالعناد وألف حوله الأنصار ، وأجاب وفود الأمين بدلاً منه(١٢) .

ورأى الفضل بن سهل أن يحتاط للأمر ، بتقريب بعض رؤساء القبائل إليه ، وأن يظهر المأمون بمظهر الحريص على الحق ، وعلى العمل على إحياء السنن ، وأن يقعد على اللبود ، وأن يرد المظالم(١٣) .

أما من ناحية الأمين فقد رأى له الفضل بن الربيع أن يقدم ابنه موسى(١٤)، ولم يكن هذا رأى الأمين ، عند بدء خلافته ، ويقرر الطبرى ذلك صراحة فى قوله: " ولم يكن من رأى محمد ولا عزمه ، بل عزمه - فيما يذكر عنه - الوفاء لأخويه ، عبد الله والقاسم "(١٥) .

بعد إلحاح شديد من الفضل بن الربيع ، رضى الأمين أن يخلع المأمون ويبايع لابنه موسى ، بولاية العهد . ونهى عن ذكر المأمون والقاسم والدعاء لهما على شىء من المنابر ووجه إلى مكة كتابًا مع رسول من حجبة البيت ، فى أخذ الكتابين اللذين كتبهما هارون وجعلهما بالكعبة ، فاحضرهما إلى بغداد فمزقا(١٦) .

ومن المناسب هنا أن نسجل أن الأمين فى محاولته خلع أخيه المأمون لم يأت بجديد فى السياسة العباسية ، ولكنه اتبع السنة التى استنها المنصور ثم اتبعها الخلفاء الذين تولوا بعده حتى الأمين(١٧) .

تحمس الأمين لتنفيذ خطته ، حيث أخذ البيعة من بنى هاشم ، والقواد والجند بولاية ابنه موسى ولاية العهد من بعده فى سنة١٩٥هـ١٠٨م ، وسماه الناطق بالحق ، والبيعة لابنه عبد الله من بعده وسماه : القائم بالحق ، كما أرسلت الكتب إلى الملوك المحيطين بخراسان مثل الديلم وجبال طبرستان ، بقطع خراسان ، وعين ولاة على الرى وهمدان بقصد أن يفصل مناطق الجبال الفارسية عن خراسان ، بل منع التجار من حمل أى شىء إلى خراسان(١٨) .

وكان الأمين يحاول اضفاء صفة الشرعية على حكمه ، وعلى قراراته ، ولذا أخذ يتقرب من أهل خراسان ، شيعة المأمون بهدف أن يبين لهم أن خلافه مع أخيه قضية عائلية خاصة ، يجب أن لا تمس العامة ، بل رأى أن من واجبه رفع الجور عن الرعية ، والتخفيف من أعباء الخراج عليهم ، ويبدو ذلك فى وصيته لقائده الموجه للقبض على المأمون ، حيث قال : " امنع جندك من العبث بالرعية ، والغارة على أهل القرى وقطع الشجر وانتهاك النساء ، ومن خرج إليك من جند خراسان ووجوهها فاظهر اكرامه ، وأحسن جائزته ، ولا تعاقب أخًا بأخيه ، وضع عن أهل خراسان ربع الخراج "(١٩) .

وبيت الأمين النية فى الطلب من المأمون التنازل عن بعض أجزاء ولايته ، ليقلل من قوته ، فحذره القاسم بن صبيح من ذلك ، لأنه " توكيد للظن وتقوية للتهمة ، ومدعاه للحذر ، وقال : ولكن تكتب إليه وتعرفه حاجتك إليه ، وشوقك إلى قربه ، وإيثارك الاستعانة برأيه ، ومشورته ، وتسأله القدوم عليك ، فإن ذلك أحرى أن لا يوحشه "(٢٠) .

لكن الأمين طلب من المأمون التنازل عن قسم مضموم لخراسان ، ضمًا مؤقتًا وإرجاعه إلى ما كان عليه ، وهو طلب مخالف لظاهر الشرط ، ولكنه طلب من حق الأمين صاحب السلطان . وقد تلطف الأمين فى صيغة الطلب ، فطلب الصفح أو التجافى عن بعض الكور ، وعلل ذلك فقال : " أن أمير المؤمنين وإن كان أفردك بالطرف وضم إليك من كور الجبل ، فإن ذلك لا يوجب لك فضله من المال ، وقد كان هذا الطرف كافيًا لأمره، وقد ضم إليك إلى الطرف كورًا من أمهات كور الأموال لا حاجة لك بها ، فالحق أن تكون مردودة فى أهلها "(٢١).

وحاول الأمين معرفة مدى طاعة المأمون له ، فى محاولة لإثبات تمكنه من التصرف فى شئون دولته كلها ، وأن سلطانه يشمل ما تحت يد المأمون ، فكتب إلى العباس بن مالك ، عامل المأمون على الرى يأمره بأن يرسل إليه غروس الرى(٢٢) .

أما المأمون فمن جانبه كان يحاول إظهار الأمين بمظهر مغتصب الخلافة ، وناكث العهود ، فكانت حملته الدعائية القوية تتجه فى ذلك الاتجاه . وركز على جند الأمين وقواده ، فأرسل لهم رسائل يذكرهم بالعهود ، ويبين لهم أن أخاه ظالم ومعتد ممزق للمواثيق . وقد أثرت تلك العملية فى بعض قواد الأمين ، فأجابوه . كما أثرت فى بعض وجوه العرب ، من الذين كانوا على مقربة من مسرح الأحداث ، فلم يستجيبوا لرغبة الأمين ، ويخضعوا لهواه فى خلع أخيه ، أو قتاله ، فعبد الله بن خازم وهو ابن خازم بن خزيمة التميمى ، حذر الأمين من عاقبة خلع أخيه ، وقال له : " أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تكون أول الخلفاء نكث عهده وميثاقه ، واستخف بيعته ورد رأى الخليفة قبله " لكن الأمين لم يستجب لنصحه وتحذيره ، وقال له : اسكت لله أبوك(٢٣) .

رأى الأمين أخيرًا وضع أخيه أمام الأمر الواقع فى وقف الدعاء للمأمون ، وأعلن بيعة ابنه موسى الناطق بالحق ، بدلاً منه ، وضرب لذلك دراهم ودنانير تذكارية(٢٤) . ثم عزل المؤتمن عن جميع ما كان أبوه هارون الرشيد قد ولاه من عمل الشام وقنسرين(٢٥) . والعواصم والثغور وولى مكانه خزيمة بن خازم . وكان رد المأمون حازمًا لدى علمه بما فعله الأمين مع المؤتمن ، حيث اسقط اسم الأمين من الطرز والضرب على الدنانير ، وقطع البريد عنه(٢٦) .

المواجهة العسكرية ١٩٥ - ١٩٨هـ/ ٨١٠ - ٨١٣م :

ظل النزاع الدبلوماسى قائمًا خلال الحرب ، فالمأمون يلقب نفسه حتى قبل أن يخلع ولاية العهد بالإمام لا بالخليفة ، لكن مع ذلك يبدو أنه كان متسرعًا فى رد الفعل تجاه خطوة الأمين ، بعزل المؤتمن بناء على مشورة الفضل بن سهل ، وبناء على الاستنباط ، حيث رأى أن إقدام الأمين على عزل أخيه المؤتمن ، واستدعائه إلى مدينة السلام ، وأمره بالدعاء لابنه موسى بالأمرة ، ومكاتبة الأمصار بذلك ، تدبير عليه فى خلعه وأنه تدبير الفضل بن الربيع(٢٨) .

وتأكيدًا لدور الدبلوماسية حتى أثناء النزاع المسلح بين الأخوين ، أرسل المأمون سفيرًا إلى أعيان أهل العسكر ببغداد ، طالبًا منهم تأييده ضد الأمين ، أو الوقوف موقف الحياد على الأقل فوصل السفير فى وقت خلع المأمون ، ومكث فى بغداد يحاول استمالة القادة ، ويكتب إلى المأمون بالأخبار . وقد كتب إلى المأمون بعد فحص الوضع ببغداد ما يلى : " وجدت أكثر الناس ولاة السرير (للمأمون) ، ونفاه العلانية ، ووجدت المستمالين بالرغبة إلى الأمين لا يحوطون إلا عنها ولا ينالون ما احتملوا فيها أى قليلى الثبات ، والمنازع مختلج الرأى لا يجد دافعًا عن همة ، والقوم على جد فلا تميلوا للتوانى "(٢٨) .

عندما وصلت الأمور إلى حالة من التأزم بين الأخوة ، وبعد فشل حل النزاع بالطرق السلمية ، عزم الأمين على محاربة أخيه ، فأرسل أول بعث إليه فى أربعين ألفًا ، معظمهم من أعراب البوادى بقيادة على بن عيسى(٢٩) . أحد ولاة خراسان السابقين ، الذى عرف بأحاسيسه العربية ، مما جعله مكروهًا للخراسانيين، ودسوا عليه عند الرشيد ، الذى حبسه ، إلا أن الأمين أطلقه ، وعينه على رأس جيشه . فأعد المأمون جيشًا لمقابلته ، معظمه من الفرس ، من نواحى خراسان ، وبلاد ما وراء النهر ، بقيادة طاهر بن الحسين(٣٠) ، وهو قائد فارسى أخذ يعد العدة للدفاع ويستعد للقتال . وحاول على بن عيسى بن ماهان ، أن يستغل معرفته السابقة بالبلاد ، والاتصال بملوك الديلم وطبرستان وغيرهم من الملوك الوطنيين وإثارتهم . وهؤلاء أجابوه إلى قطع طريق خراسان . واستهان ابن ماهان بأمر طاهر ، إذ تقول النصوص : بأنه لما طلب إليه أصحابه بث العيون وعمل خندق ، قال : مثل طاهر لا يستعد له(٣٠) ، وخرج طاهر من مدينة الرى فى جيش قليل العدد ، نسبيًا ، حيث بلغ تعداده أربعة آلاف مقاتل . وعسكر على بعد قليل منها ، (خمسة فراسخ) ، كما حرص جنده على القتال ، خالعًا الأمين، داعيًا بالخلافة للمأمون(٣٢) .

أما الأمين فقد جمع قواده وأهل بيته ومواليه ، وشرح لهم ما كان من تصرفات المأمون . وحمس الفضل بن الربيع الأمين ، والحاضرين لاتخاذ موقف

متشدد حين قال : " لا حق لأحد فى الإمامة والخلافة إلا لأمير المؤمنين محمد الأمين . وأن الله لم يجعل لعبد الله ولا لغيره فى ذلك حظًا ونصيبًا(٣٣)"، وانتهى الاجتماع بمنحة تقسم على الحاضرين من موسى الأمين مقدارها ثلاثة ملايين درهم .

وكان من الطبيعى أن الأمين هو الذى سوف يتخذ خطوة اللجوء إلى السلام لحل الخلاف باعتباره الخليفة والرجل الأقوى ، لأن المأمون معتصم منه بولايته البعيدة ، ولهذا سير قائده على بن عيسى ماهان إلى خراسان وعقد له عليها(٣٤) .

أخبر على بن عيسى الخليفة الأمين ، بأن أهل خراسان كتبوا إليه يذكرون ،: " أنه إن خرج هو ، أطاعوه وانقادوا إليه "(٣٥) .

حاول المأمون استمالة على بن عيسى بن ماهان إلى جانبه ، أو أن يثبط من عزمه على الحرب . ولكن اغترار على بن عيسى بقوته كان بداية السير فى طريق الهزيمة.

وكان طاهر بن الحسين ، قائد جيش المأمون على الجانب الآخر ، يعمل لكل شىء حسابه ، حيث رفض أن يقيم فى الرى ، حتى يأتيه المدد من خراسان ، لأن أهل الرى " لعلى هائبون ومن سطوته مشفقون "(٣٦) . واستقر رأى طاهر على محاربة على بن عيسى ، رغم أن عدد جيشه أقل من جيش على ، وذلك حتى يأتيه المدد(٣٧) .

ولم ينتظر على بن عيسى ورود النجدات له من جنوب إيران ، واشتبك عند الرى فى معركة مع ابن طاهر بن الحسين ، فى شوال سنة ١٩٥هـ/٨١٠م . ورغم ما حققه على بن عيسى فى بداية المعركة من انتصارات إلا أن الحال تغير أمام صمود جيش طاهر . ثم جاءت المعركة نتيجة غير منتظرة ، إذ هزم جيش الأمين وقتل على بن عيسى على يد رجل من أصحاب طاهر ، أصابه بسهم وهو لا يعرفه(٣٨) . ولكن آخر يعرف بطاهر الصغير التاجى ، عرفه ، فذبحه بسيفه(٣٩) ، وحمل رأسه إلى طاهر ، وشدت يداه إلى رجليه ، وحمل على خشبة، يدهق كما يحمل الحمار الميت(٤٠) . فأمر طاهر بإلقائه فى بئر(٤١) . وذلك فى جمادى الآخرة سنة ١٩٥هـ/٨١٠م .

ولا شك فى أن نتيجة المعركة غير المنتظرة وهزيمة جيش الأمين وقتل على ابن عيسى ، كانت كلها أنباء أفرحت المأمون ، وما أن وصلته حتى قعد للتهنئة . ثم أعلن بعد أشهر خلع الأمين ، ودعا لنفسه بالخلافة فى خراسان . وتحول الجيش المدافع إلى جيش مهاجم ، يسير فى منطقة الجبال باتجاه العراق(٤٢) .

وتعزى هزيمة على بن عيسى ، إلى الاعتزاز والثقة الزائدة بالنفس ، حتى أنه كان يحمل معه قيدًا من فضة ، أعطته إياه زبيدة ، أم الأمين لتقييده(٤٣) . لكن السبب الحقيقى وراء هزيمته ، تعود إلى معاداة أهل خراسان له والتفافهم حول أخيه(٤٤) .

ونتيجة لهذه المعركة أعلن طاهر بن الحسين خلع الأمين ، الذى أصبح من حينها يعرف للخراسانية بالمخلوع . أما ابن سهل وزير المأمون ، فقد تلقب بذى الرياستين(٤٥)، أى رياسته للحرب ورياسته للقلم . وعقد له المأمون المشرق ، من جبل همذان إلى التبت طولاً ، ومن بحر فارس إلى بحر الديلم وجرجان عرضًا(٤٦).

الزحف على بغداد :

كانت تلك المعركة فاتحة سلسلة من الانتصارات قادت طاهرًا من الرى إلى بغداد . وتمكن طاهر بعد ذلك من هزيمة قائد الأمين ، عبد الرحمن بن جبلة ، الذى ولى همذان ، والذى كان يأمل أن يلى كل ما يفتحه من أرض خراسان ، ولكنه كان يضمر الغدر بطاهر ، إذ شن عليه هجومًا شديدًا يائسًا انتهى بقتله وهزيمة أصحابه(٤٧) .

أرسل الأمين جيشًا ثالثًا ، قوامه أعراب من ديار الجزيرة ، بالإضافة إلى جند من الأبناء ، يقودهم أحمد بن مزيد من أسرة مزيد العربية المعروفة ، إلا أن الأبناء تقاتلوا مع الأعراب عند حلوان(٤٨) ، قبل الذهاب إلى فارس . فسعى الأمين إلى تكوين جيش آخر من أهل الشام فى وقت نشوب ثورة حمص وثورة الشام بقيادة على بن عبدا لله بن خالد بن يزيد بن معاوية السفيانى(٤٩) . وهذا دليل على أن

العرب لم يأخذوا جانب الأمين فى هذا الصراع . وإن العرب بشكل عام لم يكن لهم فى هذه الحرب الأهلية هدف ولا مصلحة(٥٠) .

وهكذا كثرت الهزائم التى حلت بجند الأمين ، وبلغت الشدة مداها حين بدأت جيوش المأمون تزحف على بغداد ، من اتجاهين ، بعد الانتصارات التى تحققت للمأمون ، على يد قائده طاهر . وقد تمكن طاهر الذى ذهب إلى الأهواز ، من هزيمة جيش محمد بن يزيد بن حاتم المهلبى عامل الأمين على الأهواز ، وقتله رغم استبساله(٥١) . ثم استولى على الأهواز . كما تمكن طاهر من الاستيلاء على واسط .

وأمام الوضع العسكرى المهتز للأمين ، والانتصارات الباهرة لجيش المأمون كان الطريق ممهدًا للوصول إلى بغداد . فبعد السيطرة على واسط بقيادة طاهر بن الحسين ، وهرثمة بن أعين ، زحف القائدان على بغداد ، وشطراها حصارًا ، حيث حاصر هرثمة القسم الشرقى من المدينة ، وطاهر بن الحسين القسم الغربى(٥٢) ، حيث كان الأمين يقيم فى قصر الخلد ، فى هذه الفترة الأخيرة من حكمه . وكان أن نصبت المجانيق والعرادات(٥٣) . وحفرت الخنادق ، وبنيت الحيطان إيذانًا بحصار قد يطول(٥٤) . هذا فى حين أخذت مدن العراق الأخرى تتساقط واحدة بعد أخرى ، مثل البصرة ، والكوفة ، والموصل . وعقد طاهر بن الحسين إلى يزيد ابن جرير بن خالد القسرى ولاية اليمن . وعين باقى الولاة على قلة والمدينة واليمامة وعمان والبحرين(٥٥) .

وزادت الشدة على الأمين بعد أن انفض عنه بعض رجاله . ففر القائد خزيمة ابن خازم(٥٦) ، ومحمد بن عيسى صاحب شرطة الأمين ، ولما كان لهذا الرجل من تأثير لدى الأمين ، كان لاستئمانه أشد الأثر عليه ، حيث أنه لما استأمن إلى طاهر أشرف الأمين على الهلاك(٥٧) ، وضعف أمره وأيقن بالزوال(٥٨) .

وكان لضعف معنوية جيش الأمين ، وقلة ثباتهم ، أثر فى الهزيمة ، فجيش على بن عيسى قد مزق مع أنه كان يبلغ أضعاف جيش طاهر بن الحسين . ورجع

الجيش الثالث الذى أرسله الأمين ضد طاهر بقيادة أحمد بن مزيد دون قتال، لأن طاهرًا بث فيه دعاية ولدت الشقاق وأدت إلى تفريقه . كما أفسد الأمين جنده بكثرة العطايا والأموال ، فمثلاً كانوا بعد مقتل على بن عيسى وهزيمة جيشه يشاغبون ، ويطلبون بكل وقاحة الزيادة فى الأرزاق . فمنع الأمين من تأديبهم ، وأمر بتوزيع الأموال عليهم . كما أن الأمين لم يحاول استصفاء قلوب الرعية ، مثلما حاول المأمون ، ولم ينجح فى ذلك ، ولهذا حدثت اضطرابات داخلية ضده فى عاصمته ، فى نفس الوقت الذى كان جيشه ينازع جيش المأمون ، فأصبح بين نارين فتنة داخلية ، وحرب خارجية(٥٩) .

ولا شك فى أن حالة الاضطراب وعدم الاستقرار التى نجمت عن الخلاف بين الأمين والمأمون ، كان لها أثرها فى زعزعه أركان المجتمع مما ساعد فى نمو حركة العيارين والشطار .

الوضع الاجتماعى والاقتصادى للدولة العباسية إبان ظهور حركة العيارين والشطار :

إن النشاط التجارى والاقتصادى الهائل للدولة العباسية ، فى عصرها الأول (١٣٢ - ٢٣٢هـ/ ٧٤٩ - ٨٤٦م) أفرز عدة متناقضات اجتماعية ، منها ازدياد التفاوت الطبقى والتمايز الاقتصادى فى المجتمع العباسى ، نتيجة لسوء توزيع الثروة ، وتمتع الطبقة الخاصة بأغلب الامتيازات . وتشكلت التركيبة الطبقية لمجتمع بغداد فى تلك الحقبة التاريخية من الطبقة الخاصة ، وتشمل الطبقة الحاكمة العباسية والتى بيدها مقاليد الأمور فى البلاد ، والذين قربهم الخليفة العباسى إليه، وجعلهم من خواصه ، وهم الوزراء ، والكتاب ، والقضاة ، والحجاب . أما الطبقة العامة فقد تشكلت من الصناع والطوائف الحرفية والزراع والعيارين والشطار(٦٠) .

وضمن المتناقضات الاجتماعية التى أفرزها النشاط التجارى والاقتصادى ، بلوغ حياة الترف درجة لا توصف عند الطبقة الخاصة ، بسبب انغماس الخلفاء

العباسيين فى حياة البذخ والترف واستغراقهم فـى مظـاهر الكسـروية علـى النحـو الذى عرفناه من خلفاء بنى أمية ، بل إنهم فاقوهم فـى ذلـك . فقـد كـانوا يبلـون الأموال عن سعة ، ويبالغون فى إنفاقها في سبيل الرفه ، واصطناع الأنصار(٦١) . وعاشوا عيشة قوامها البذخ والأبهة فى كل مناحى الحياة المادية والأدبيـة . كـانت قصورهم وقصور الـولاة وقـواد الجنـد والأمـراء والتجـار ، تعـج بـأجمل الريـاش ، وأنفس التحف وحولها البرك والحدائق الغناء ، حيث الولائـم الكبـيرة التـى تحتـوى على ألوان هائلة من مفاخر الطعام ، ومجالس المنادمة والشراب ، وأجمـل الجـوارى وأحذقهن ، فى الموسيقى والغناء(٦٢) . ولم يكتفوا بـإغداق الأمـوال بـلا حسـاب على مجالس الغناء والطرب ، بل حتى على حفلات الزواج . فقد أفـاضت الكتـب التاريخية بوصف حفلـة زواج الرشـيد مـن زبيـدة ، إذ لم ير فـى الإسـلام مثلهـا . وبلغت نفقة هذا الزواج من بيت مال الخاصة ، سوى ما أنفقه الرشيد مـن مالـه ، خمسين ألف ألف درهم(٦٣) . واهتم خلفاء العصر العباسـى الأول بعـد أن استقر الأمر لهم ببناء القصور والمنشآت ، حيث بلغت تكاليف المنشآت فىعهـد المنصـور أربعة عشر ألف ألف دينار ، وثلاثة وثمانين ألـف درهـم(٦٤) ، وقـد أخـذ هـؤلاء الخلفاء كثيرًا من نظم الفرس وتقاليدهم . وحذا حذوهم غالبية خلفاء بنى العباس. وتبعهم فى ذلك القواد والأمراء والوزراء ورجالات الدولة(٦٥) . وكـان للبرامكـة تأثير واضح على الرشيد وعلى اهتماماته . وحذا كل من الأمـين والمـأمون، حـذو من سبقهم من الخلفاء ، فاهتم المأمون بإصلاح القصر الحسنى وهـو قصـر الحسـن بن سهل(٦٦) .

وكان للنساء كلمة مسموعة ومؤثرة فى صفوف الطبقة الحاكمـة . وكثـيرًا مـا كن يصدرن قرارات فاعلة . وكثيرًا ما أشركت الأميرات وسيدات القصر ، وسـيدات الطبقة الراقية فى بغداد ، فى رحلات موسيقية(٦٧) . ورعى الأمين رجال الموسيقى . فقد ذكر عن إسحاق الموصلى أنه قال : " لو كان بينه وبـين ندمائـه مئـة حجـاب خرقها كلها وألقاها عن وجهه حتى يقعد حيث قعدوا "(٦٨). وحذا الأمين حـذو أبيه هارون الرشيد فى تبذير أموال الفيء ، بل أنفق الكثير منهـا فـى سـبيل السـفه والطيش ، حيث أجاز لأحد الشعراء بحمل ثلاثة بغال من الدراهم(٦٩) .

وقد ذاع فى عهده ضرب جديد من اللهو ، هو عبارة عن حفلات رقص ، كان الأمين يديرها بنفسه فى الأبهاء . وكانت كل حلقة تتألف من مئة من أرشق الفتيات ، وأوفرهن جمالاً . وكن يظهرهن فى تلك الليالى الساهرة ، بأبهى الحلل الموشاة بالقصب ، المرصعة بالجواهر الثمنية ومما كان يثير الإعجاب والسرور ، أنهن كن يرقصن مجتمعات على أنغام الموسيقى الشجية ، بحركات إيقاعية ، ويتمايلن فى بطء رائحات غاديات ملوحات بسعف النخيل ، منحنيات تارة ومنتصبات تارة أخرى فى دوائر تشع عليها الأضواء الساطعة(٧٠) .

وكان أن أفرزت تلك الأوضاع مجتمعًا طبقيًا مصحوبًا بازدياد الفقر فى صفوف الطبقة العامة . كما هيأت تلك الأوضاع مناخًا مواتيًا لازدهار حركة التمرد والثورة على المجتمع والدولة ، بقيادة الطبقة العامة ، وعلى رأسها العيارون والشطار ، فى مجتمع كان يفتقر للنظام والتنظيم والتخطيط لتغير أسلوب الحكم . ولم يكن للقائمين بها من تصور لمجتمع آخر ، ومن ثم فهم لا يشكلون طبقة تاريخية (كالزنج والقرامطة وغيرها) بل لم يخطر ببالهم أساسًا الثورة على نظام الخلافة ؛ أو ذات الخليفة ، باعتباره خليفة الله على الأرض(٧١) .

لقد كان لهذه الفتنة العمياء أثر كبير على جميع مناحى الحياة السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، وغيرها ، وخاصة الناحية الاقتصادية إذ استنفدت مخزون الدولة وميزانيتها ، وأهملت الطبقة المتوسطة والفقيرة مما أدى إلى تذمرها وبروز فئة العيارين والشطار ، المطالبين بإنصافهم وإعطائهم بعض حقوقهم وشيئًا من الامتيازات التى تتمتع بها الطبقة الغنية وذوو النفوذ والسيادة .

العيارون والشطار فى عصر القوة العباسية :

تردد ذكر العيارين والشطار لأول مرة فى عهد الخليفة العباسى أبى عبد الله محمد المهدى(١٥٨ - ١٦٩هـ/ ٧٧٤ - ٧٨٥م) وعهد جعفر هارون الرشيد. أما عن ذكر العيارين والشطار فى خلافة المهدى ، فيقول البلاذرى : " فلما كثر الصعاليك والزعار - العيارون - وانتشروا بالجبل فى خلافة المهدى ، جعلوا هذه

الناحية ملجأ لهم وخوزوا ، فكانوا يقطعون الطريق ويأوون إليها فلا يطلبون"(٧٢).

والجبل هو (عراق العجم) الذى كان يموج انذاك بجماعات الخرمية المحمرة ، حيث كان منهم الصعاليك والدعار ، وأكد الهمدانى ذلك فى حديثه عن مدينة سيسر (بكسر الأول وفتح ما قبل الآخر) وهى إحدى رساتيق همدان وأحد تخومها ، بينهما وبين اذربيجان . حيث يقول : إن الصعاليك (الدعار كثروا فى خلافة الرشيد وتشعثوا سيسر ،فأمر ببنائها ، وتحصينها ، ورتب فيها ألف رجل من أصحاب ما قان الحارثى) . على أن سيسر لم تأخذ شكل المدينة إلا فى أيام الأمين(٧٣).

ورغم كثرة الصعاليك والعيارين فى عهد الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ/ ٧٨٦ - ٨٠٨م) إلا أنهم كانوا لا يشكلون مصدر خطر يهدد سلطة الدولة أو مركز الخلافة ، وربما كان هذا رد فعل طبيعيى للتفاوت الطبقى والاقتصادى الذى شهدته الحاضرة العباسية ، إبان عصرها الذهبى ، ولكنهم ، كما تصفهم كتب الأخبار والتاريخ ، " إنما غايتهم أن يطلبوا الشيء الطفيف ، أو يصيبوا ثمرة من أهل السفينة ، أو القافلة ، فيصيبوا ما يمكن اختلاسه " . ذلك أن قبضة الدولة كانت لا تزال قوية ، والخلافة فى أوج مجدها السياسى والحضارى(٧٤) .

وإذا كان المهدى والرشيد قد تمكنا من الحد من امتداد موجة العيارة والشطارة إلى بغداد ، فإن الأمين سمح لها بذلك . وصار العيارون والشطار أصحابه وبه عرفوا . ولفظة العيار فى اللغة تعنى : الكثير التجول والطواف ، الذى يتردد بلا عمل ، يخلى نفسه وهواها . والمعار بالكسر : الفرس الذى يحيد براكبه عن الطريق . والعيار : الكثير المجيء والذهاب فى الأرض(٧٥) ، وقيل هو الذكى الكثير التطواف(٧٦) ، وحكى الفراء : رجل عيار إذا كان كثير التطواف والحركة، ذكيًا(٧٧) ، وقال ابن الإعرابى : والعرب تمدح بالعيار . وتذم به . يقال: غلام نشيط فى المعاصى ، وغلام عيار نشيط فى طاعة ا لله عز وجل(٧٨) ،

ربما سمى الأسد بالعيار لتردده ومجيئه وذهابه فى طلب الصيد ، والعيار بمعنى الكيال والوزان(٧٩) .

أما الشاطر لغة : فهو من أعيا أهله خبثًا ويقال شطر على أهله وانفصل عنهم بمعنى نزح عنهم وترك موافقتهم وأعياهم خبثًا ولؤمًا . والشطارة : الانفصال والابتعاد والشاطر : هو الذى عصا أباه أو ولى أمره وعاش فى الخلاعة. وشطر فلان شطارة : اتصف بالدهاء والخباثة ، ومفردها شاطر ، والجمع شطار ، وهو المتصف بالدهاء والحيلة والذكاء ، واللص الشاطر الذى يستخدم الحيلة فى موضع الحيلة والقوة(٨٠) . والشاطر هو السابق ، كالبريد الذى يأخذ المسافة البعيدة فى المدة القريبة ، وقال الشيخ فى مشرب الشطار : يعنى أنه لا يتولى هذه الجهة إلا من كان منعوتًا بالشاطر الذى أعيى أهله ونزح عنهم ، ولو كان معهم ، إذ يدعونه إلى الشهوات والمألوفات(٨١) .

والعيارون والشطار هم طائفة من العامة ، برزوا على مسرح الأحداث ، بشكل مؤثر فى أواخر القرن الثانى للهجرة ، القرن التاسع الميلادى ، على أثر حصار بغداد الأول من قبل طاهر بن الحسين القائد العسكرى للمأمون ، فى يوم الثلاثاء الثانى عشر من شهر ذى الحجة سنة ١٩٦هـ الموافق ٢٤ أغسطس ٨١١م بأمر من المأمون نفسه ، حيث استخدمهم الأمين فى أحلك ظروف الحصار والمحنة، فأنجدوه وقادوا مقاومة العامة فى بغداد ، ضد قوات طاهر بن الحسين . وعندما باتت العاصمة قاب قوسين أو دنى من السقوط ، ليلة الأحد (وقيل ليلة الخميس) ٢٥ من محرم سنة ١٩٨هـ/٥ سبتمبر ٨١٣م ، دخلوا عليه ونصحوه ، فقالوا له : يا أمير المؤمنين ليس معك من ينصحك ، ونحن سبعة آلاف رجل مقاتل ، وفى أسطبلك سبعة آلاف فرس ، يحمل كل منا على فرس ، ونفتح بعض أبواب المدينة، ونخرج فى هذه الليلة ، فما يقدم علينا أحد إلى أن نصير إلى بلد الجزيرة وديار ربيعة ، فنجنى الأموال ، ونجمع الرجال ؛ ونتوسط الشام وندخل مصر ، ونكثر الجيوش والمال ، وعقود الدولة مقبلة جديدة . فقال : " هذا والله الرأى ، فعزم على ذلك وهم به وجنح إليه "(٨٢) .

إن محاولة بعض المؤرخين التفريق بين العيارين والشطار لم تلق تجاوبًا . ومن ذلك قول جرجى زيدان : " بأن الشطار أكثر انتشارًا فى المملكة الإسلامية من العيارين وأطول بقاء منهم "(٨٣) . وآخر يقول : " أن الشطار قاموا بحركات تشبه إلى حد كبير العيارين" (٨٤) .

إن الرد على ذلك يأتى من أن ظهور العيارين والشطار كان فى نفس الظروف التاريخية أثناء حصار بغداد ، وأن شيوع التسمية فى المرحلة اللاحقة هو الذى جعل زيدان يعممها ، دون أن يبين أن العيارين والشطار فى مرحلة نشوء حركتهم ، وحتى وقت متأخر كانوا يمثلون شيئًا واحدًا ، فالفرق فى شيوع التسمية (الشطار) لا يتعلق بجوهر الحركة من حيث تركيبتها وأهدافها . ثم أننا لا نجد تفريقًا جديرًا بالملاحظة لدى المؤرخين وفقهاء اللغة ، يدلنا على أن العيارين والشطار يمثلون فريقين متمايزين اجتماعيًا أوتاريخيًا وأن ذلك التفريق يعتبره بعض المؤرخين غير موفق .

وقعة قصر صالح :

ثار العامة فى بغداد فى أحداث ١٩٧هـ/ ٨١٢م ضد كبار التجار والأثرياء القواد ، وقد ثار عليهم الشطار لتخاذلهم فى نصرة الأمين ، أهل السجون ، وخرجوا منها ، وفتن الناس ، وساءت أحوالهم ، ووثب الشطار على أهل الصلاح(٨٥) والأخيار(٨٦) .

كما وقفت العامة موقفًا صلبًا من حصار طاهر بن الحسين وجنده الأغراب لبغداد ، وقاومت ذلك الحصار . وما كادت جيوش المأمون ترميها بالمجانيق والعراوات ، حتى دب الخراب فيها ، قتلا وهدمًا وحرقًا وتدميرًا(٨٧) ، حتى هرب معظم قادة الأمين ، وتخاذل جنده ، واستأمن بعضهم حفاظًا على أرواحهم. ويصف الطبرى ذلك الموقف قائلاً : خذلت الأجناد ، وتواكلت عن القتال ، إلا باعة الطريق والعراة وأهل السجون والأوباش ، والرعاع والطرارين ، وأهل السوق(٨٨) ، فهؤلاء هم الآفة ، على حد تعبير أصحاب طاهر بن الحسين ، لأنهم

لا يتوانون عـن قتالهم(٨٩) ، حيث عجـز طاهر عن دخول بغداد بسببهم ، فظـل " يقاتلهم لا يحيد عن ذلك ولا يمله ، ولا ينى فيه "(٩٠) ، أما العامة فإنها وجـدت الفرصة مناسبة للثأر من خصومها نتيجة الحرمان الذى كبلوها بـه . لذلـك كـانت فى ذلك النظام الاجتماعى القائم على التفـاوت الطبقـى أكثر عزمًا وقـدرة علـى مواصلة القتال من أجل تغيير ذلـك الواقـع ، لأن استمراره لـن يغير من حـالتهم المعيشية ، وهم لا يملكون شيئًا يخـافون فقدانـه . مـن هنـا جـاءت استماتتهم فـى القتال والدفاع عن بغداد فى معركة من أشرس المعارك التـى وقعـت بـين العيـارين وطاهر بن الحسين ، وهى المعركة التى عرفت بوقعة قصر صالح ، بعد أن استسـلم القائد الموكل بقصر صالح وصاحب شرطة الأمين " وكان مجدًا فى نصرة الأمـين " كما استسلم غيرهم من قبـل " فلمـا استأمن هـذا إلى طـاهر أشـفى الأمـين علـى الهلاك، وأقبلت الغواة من العيـارين وباعـة الطريـق والأجنـاد فـاقتتلوا داخـل قصـر صالح وخارجه قتالاً عظيمًا ، إلى ارتفاع النهار . ولم تكن وقعـة قبلهـا ولا بعدهـا أشد على طاهر وأصحابه منها ، ولا أكثر قتيلاً وجريحًـا مـن أصحـاب طـاهر مـن تلك الوقعة "(٩١) .

وفى هذه الوقعة تعرضت بغداد لتدمير عظيم ، من كلا الجـانبين المتقـاتلين ، كل فى الجانب الذى اعتصم فيه خصمه . كما تعرضت كذلك إلى نهـب كبـير . فقد تسابق إلى ذلك كل من الجيشين ، مـرة بـأمر مـن طـاهر بـن الحسـين ، قـائد المأمون ، ومرة بأمر من حاتم بن الصقر من قادة الأمـين الـذى أبـاح لهـم النهـب . ومرة من الأمين نفسه ، وقد ذكر لنا المؤرخـون نمـاذج مـن أوامـر الأمـين نفسـه ، بحرق الأسواق ، وسلب الناس وسبيهم ، بينما يغرق نفسه فى العبث(٩٢) .

وحدث هناك خلط لدى المؤرخين فى نسبة أعمـال الشـغب والتدمـير التـى تعرضت لها بغداد إلى العيارين والشطار ، فى حين أن تلك الأعمال من عادة الجند الذين يفتقدون إلى المسلك الحضارى . وتبين لنا القصيدة التى كـان يرددهـا بعـض فتيان بغداد(٩٣) ، والتى رثى فيها ناظم القصيدة ، بغداد رثـاء مـرًا يفيـض حسـرة

عليها ، كما رثاها شعراء كثيرون ، حتى العيارين أنفسهم رثوها ، وفى هذه القصيدة استنكار عام لما حل ببغداد . وتقع القصيدة فى خمسة عشر بيتًا ، ومن أبياتها :

بكيت دمًا على بغداد　　　فقدت غضارة العيش الأنيق

تبدلنا همومًا من سرور　　　ومن سعة تبدلنا بضيق

أصابتنا(٩٤) من الحساد عين　　　فأفنت أهلها بالمنجنيق

فقوم أحرقوا بالنار قسرًا　　　ونائحة تنوح على الطريق

وصائحة تنادى واصباحا　　　وباكية لفقدان الشقيق

فلا ولد يقيم على أبيه　　　وقد هرب الصديق بلا صديق

ومهما أنس من شىء تولى　　　فإنى ذاكر دار الرقيق(٩٥)

لقد استخدمت كل الأسلحة لتدمير بغداد الخفيفة منها والثقيلة ، وهذا ما أكدته القصيدة حيث أكدت استخدام المنجنيق ، وهذا ما يبعد تهمة الاشتراك فى تدمير بغداد عن العيارين والشطار ، حيث أن سلاح المنجنيق لا تمتلكه آنذاك إلا الجيوش ، وهى جيوش الأمين والمأمون(٩٦) ، أما العيارون والشطار فإنهم لا يتملكون إلا أسلحة خفيفة أغلبها بدائية وتستخدم للدفاع عن النفس ، حيث يمسك العيار فى اليد اليمنى مطرد(٩٧) ، أو رمح القصب بسن من الفولاذ ، أو مذب من ذنب مكنسة أو مقود لجام . وفى اليد اليسرى مقلاع لرمى القلاع أى الحجارة(٩٨) به أو بارية قد قيدت وحشيت بالحصى والرمال لتعمل عمل الدرقة وتسمى ترسًا(٩٩) .

لم يكتف الجانب المأمونى بتحميل العيارين والشطار مسؤلية تدمير بغداد ، بحكم انحيازهم لجانب الأمين ، وأن دفاعهم عن بغداد هو الذى جلب لها الخراب والدمار . ويتضح ذلك من الحملة الدعائية الارستقراطية التى شنها شعراء المأمون من العيارين ، وقد تجلت تلك الحملة فى ازدراء أصولهم الاجتماعية والاستخفاف بأسلحتهم ولباسهم وتفريغ نضالهم من كل معنى نبيل(١٠٠) .

ولكن الطبرى لم ينسب ما حدث لبغداد إلى العيارين ، بل كان محايدًا حين نسب ذلك إلى اللصوص والفساق ، فقال : " وكان لصوصها وفساقها يسلبون من قدروا عليه من الرجال والنساء والضعفاء من أهل الملة والذمة "(١٠١) .

وليس مصادفة أن الطبرى لم يورد العيارين مع اللصوص والفساق ، حيث أن شيم العيارين تمنعهم من ذلك ، لما امتلكوا من مبادىء أخلاقية وإنسانية(١٠٢)، رغم نعوتهم بنعوت مختلفة حتى وصفوهم بأنهم أولاد الزنا(١٠٣) وأنهم عراة لا سلاح معهم(١٠٤) . ويقول المسعودى فى ذلك : " وثارت العراة ذات يوم ، نحو مائة ألف بالرماح والقصب والطرادات من القراطيس على رؤسها . ونفخوا فى بوقات القصب وقرون البقر ، ونهضوا مع غيرهم من المحمدية (أتباع محمد الأمين) وزحفوا نحو المأمونية (أنصار المأمون) "(١٠٥) . أن هذا العدد الكبير الذى أورده المسعودى ، دليل أيضًا على تعاطف العامة معهم .

وامتلك العيارون والشطار قدرات متتالية عالية ، أسهمت فى تحقيق الانتصارات على جيوش المأمون ، رغم أنهم لا يستفيدون من مناصرة أحد الطرفين ، أو أن تكون لديهم أية طموحات فى الوزارة أو القيادة أوالاستيلاء على السلطة . ويبدو أن فكرة الدفاع عن بغداد من الهجوم الأجنبى (الخراسانى) ، كانت الوسيلة التحريضية التى اعتمدها الأمين وأتباعه من أجل استغلال الامكانيات البشرية والدفاعية التى يتمتع بها العيارون والشطار(١٠٦) ، وقد نجحوا فى ذلك حتى بعد انسحاب رجال الأمين من حوله .

وبعد أن أخذ الميزان العسكرى يميل لصالح طاهر بن الحسين بدأ طاهر يكاتب التجار ويحذرهم من القبض (الاستيلاء) على ضياعهم وأموالهم(١٠٧) . وبعد ممارسته للضغط والتهديد ، رضخ التجار لذلك التهديد وسلخوا الطاعة عن الأمين وتبرءوا منه ، وأعلنوا الطاعة للمأمون ، الذى بات نصره وشيكًا . وكان من الطبيعى أن يغير التجار من ولائهم ، وتبرءوا من جماعات العيارين والشطار ، حفاظًا على مصالحهم . ولكن الأمين ظل صامدًا لم يستسلم بعد ، ولا تزال حوله بقية من هؤلاء العيارين .

وكان أن مشى تجار الكرخ بعضهم إلى بعض ، بعد أن تأكدوا من تقدم طاهر ، فقالوا : ينبغى أن نكشف أمرنا لطاهر ، ونظهر له براءتنا من المعونة عليه ، فاجتمعوا وكتبوا له كتابًا ينم عن تواطؤ ضد العيارين ، وفيه تبرؤوا من هؤلاء السفلة الذين ليس لهم بالكرخ دور ولا عقار ، وإنما هم بين سواط ونطاف وأهل سجون ، وإنما مأواهم الحمامات ، والمساجد والتجار براء منهم باعة الطريق يتجرون فى محقرات البيوع ، قد ضاقت بهم طرق المسلمين ، وما لنا بهم يدان ولا طاقة ولا نملك لأنفسنا معهم شيئًا . وأن بعضنا يرفع الحجر عن الطريق ، وتخليده السجن ، وتنقيته عن البلاد ، وحسم الشر والشغب ونفى الزعارة والطر والسرق وصلاح الدين والدنيا وحاشى لله أن يحاربك منا أحد(١٠٨) .

وهكذا فإن قطع الشر والشغب فى نظر التجار يتم بالقضاء على المعدمين ، وزيادة تشريدهم بإدخالهم السجن وتهجيرهم عن البلاد . وتتجلى نظرتهم الارستقراطية فى اعتبارهم أن حق المواطنة يتحدد بملكية الدور والعقار ، وتقلد الأعمال التجارية الكبيرة ، حتى أنهم بينوا جشعهم وكشفوا تعاليهم ، حينما تبرؤوا من باعة الطريق ، لأنهم يتجرون فى محقرات البيوع(١٠٩) .

وكشف هؤلاء التجار عن أنفسهم ، فهم بعد أن انقلبت دفة الحرب لصالح المأمون أرادوا أن يتخلوا عن الأمين ، الخليفة الشرعى ، ويتنصلون من هؤلاء الغوغاء والسفلة والعيارين الذين دافعوا عنهم وحموا أموالهم ودورهم ، وكان مقدورهم غير ذلك باعتراف التجار أنفسهم ، الذين لا تزال أموالهم بين أيديهم ، ويخشون ذهابها(١١٠) .

ولم تلبث انتفاضات العامة التى قادها العيارون والشطار أن عادت بعد فترة من الهدوء النسبى ، انصرف فيها العيارون والشطار إلى البحث عن الأعمال ، واقتطاع الأموال من التجار ، رافضين دعوة طاهر بن الحسين للكف عن القتال والاستسلام له . وكان أن دارت معركة فاصلة بين الجانبين فى جزيرة العباس ، انتصر فيها فى أول يوم العيارون على أصحاب طاهر ، وكانوا قد اقتتلوا قتالاً

شديدًا ، فوجه إليهم طاهر أحد أصحابه ، من الذين يمتلكون خبرة عسكرية ، وقتالية ، فأوقع بهم وقعة صعبة وغرق في الصدارة بشر كثير ، وقتل آخرون(١١١) .

وعلى الرغم من أن طاهر بن الحسين بدا واثقًا من الظفر بالأمين ، بعد نتائج المعارك الأخيرة إلا أن العيارين أخذوا يثأرون لأنفسهم ، ويهزمون طاهر وأصحابه، مما اضطر طاهر إلى أن يباشر القتال بنفسه . وقاتل من معه بدار الرقيق فهزمهم ، حتى ألحقهم بالكرخ ، ومر طاهر لا يلوى على أحد " أما الأمين ، فقد خرج إلى مدينة أبى جعفر (بغداد) ، لكن عامة جنده تفرق عنه ، كما تفرق عنه خصيانه وجواريه ، في السكك والطرق لا يلوى منهم أحد على شيء . وتفرق الغوغاء والسفلة "(١١٢) . أن المعارك الشرسة التى دارت رحاها ، بين العيارين وجند المأمون والتى استمرت ما يقرب من أربعة عشر شهرًا ، هى عمر حصار بغداد ، دلت على صلابة هؤلاء العيارين الذين خاضوا حربًا حقيقية ، كانت تدور من شارع إلى شارع ، ومن بيت إلى بيت حتى سميت الوقعات باسم الدروب(١١٣) . ولأجل أن يحسم طاهر بن الحسين المعركة ، فرض حصارًا اقتصاديًا على بغداد ، فقطع عن أهلها الأقوات وغيرها ، من البصرة ، وواسط ، وغيرها من الطرق ، فغلت الأسعار في معسكر الأمين ، وقلت الأقوات " وضاقت النفوس من الفرج ، واشتد الجوع "(١١٤) .

ورغم تلك الأوضاع حارب العيارون بشجاعة فائقة ، حتى أن القتل كان فى أصحاب طاهر . وحاول الأمين ، وقد اشتدت به الحال والحصار أن يفى بالتزامات هؤلاء العيارين فأمر بجباية الأموال من الأغنياء والتجار ، ورغم أن العراة (العيارين) خسروا فى إحدى معاركهم نحو عشرة آلاف ، إلا أنهم كانوا يقاتلون بشجاعة . منقطعة النظير . لكن ذلك لم يوقف تقدم جيش المأمون الذى أخذ يقتطع الشارع بعد الشارع من بغداد ، حتى أدرك الأمين اليأس . وأخيرًا أيقن بالظفر ، وحدث ذلك فعلاً بعدما قرر طاهر قتل الأمين فى منتصف ليلة الأحد ٢٤ أو ٢٥ من المحرم سنة ١٩٨هـ/٢٥ سبتمبر ٨١٣م . وتم قتل الأمين

ذبحًا، بعد استسلامه واجتزت رأسه ، وحملت إلى طاهر . فسيرها إلى المأمون فى خراسان ، فنصبه فى صحن داره ، وأمر جنده الذين أجزل لهم العطاء بلعنه . فافرطوا فى ذلك فكفهم ، وحط الرأس ورده إلى العراق ، فدفن مع جثته(١١٥) .

ولم تنته مقاومة العيارين حتى بعد صيرورة الخلافة إلى المأمون ، وانتهاء الحرب ففى ذى الحجة سنة ١٩٨هـ/يوليه ٨١٤م خرج الحسن الهرش على نائبه فى بغداد، وهو الحسن بن سهل بن زاد ، انفرج ودعا إلى الرضى من آل محمد ، وتبعه سفلة الناس (العامة بزعامة العيارين) وجماعة كثيرة من الأعراب، حتى أتى الليل، فجبى الأموال ، وأغار على التجار ، وانتهب القرى واستاق المواشى(١١٦).

مبادئ حركة العيارين والشطار :

إن الازدهار الاقتصادى الذى حظيت به العراق فى العصر العباسى الأول صحبه نشوء تجمعات فقيرة طحنها غلاء المعيشة ، وفرقها الجهل والتشرد ، وجنها بهارج المدينة من سكان القرى والبوادى ، آملة فى الحصول على أعمال مستحدثه ، أو حتى بقايا الموائد وعطايا السلطان(١١٧) . وشكلت جماعات العيارين والشطار منذ أواخر القرن الثانى الهجرى ، فئة متميزة من الطبقة العامة ، فى وضع يتسم بالسوء والفوضى السياسية للعوام . وقد استطاعت تلك الجماعات أن تشكل عبر معاناتها الطويلة حركة منظمة ، لها أهدافها الاجتماعية الخالصة . وما تلك الحركة إلا ثورة ضد الأسياد السياسيين ، وضد أسياد المال(١١٨) . فقد استهدف العيارون والشطار فى هجماتهم بيوت الأغنياء ، وكبار التجار وأصحاب الشرطة والمتنفذين(١١٩) .

هدف العيارون والشطار من حركتهم الاجتماعية إلى تحسين أحوالهم وتوسلوا فى ذلك بالنهب والسلب والسرقات ، مستخدمين السلاح ، حيث أنهم ليسوا من أهل الشرور . ولا يعدون اللصوصية ضد الأغنياء جريمة . وإنما يعدونها صناعة ، ويحللونها باعتبار أن ما يستولون عليه من أموال التجار الأغنياء زكاة تلك الأموال أوصى الله بإعطائها للفقراء(١٢٠) . وكانوا يشعرون بأنهم مهملون

من قبل أصحاب النفوذ والسلطة . وأن ظروفهم المعيشية سيئة . لهذا اندفعوا إلى القيام بسرقة الحوانيت والأسواق ، وبيوت الأغنياء . لذا فإن حركتهم تمثل صراعًا طبقيًا ، وقد لاقت حركتهم شعبية كبيرة باعتبارها تدعو إلى تطبيق فكرة العدالة الاجتماعية ، والمساواة والاشتراكية ، والقضاء على التوزيع غير العادل ، وغير المتكافئ للثروة ، ولو بطرق غير مشروعة(١٢١) . فحركة العيارين والشطار لم تكن إلا جزءًا من حركة يمكن وصفها بأنها حركة العامة(١٢٢) .

ويؤكد المؤرخون أن النهج الذى اتخذه العيارون والشطار كان نهجًا ثوريًا ، كما كانت حركتهم عنيفة ضد السلطة القائمة ، وأصحاب الثراء . وهم بهذا يختلفون عن الحركات الأخرى المعادية للسلطة كالصوفية مثلاً(١٢٣) . وتحدثنا المصادر التاريخية والأدبية بأن العيارين والشطار كانوا ينزعون إلى حماية الفقراء وإسعادهم ، بالاستيلاء على أموال الأغنياء وأملاكهم ، وتوزيعها على الفقراء(١٢٤) . وهذا يعنى أن العيارين أخذوا على عاتقهم مهمة إصلاح الخلل الاجتماعى والاقتصادى بالقوة . فخافتهم الطبقة المترفة الثرية وعادتهم(١٢٥) .

يشير الدورى : أن بعضًا من المؤرخين لم يفهموا روح حركة العيارين والشطار فسموهم لصوصًا منحطين(١٢٦) ، ولقبوهم بالزعار والدعار والعياق والسفلة والطرارين والذعار والفجرة والسوقة والنطافين والمغامرين ، وغيرها من التسميات الأخرى . وهذه ما هى إلا تسميات متعددة لجماعات وحدت بينها الحالة الاجتماعية ، فالتجأت إلى العنف والحيلة لتأمين حاجاتها .

ولكننا نلاحظ أن كثيرًا من تلك التسميات ما هى إلا نوع من الوصف الذى وصفه خصومهم به ، وفيه من المبالغة والتشويه الشئ الكثير . وهى فى النهاية تسميات ألصقت بالعيارين والشطار نتيجة الموقف الطبقى الذى اتخذوه من نظام المجتمع ، فكانت صادرة عن موقف طبقى أيضًا(١٢٧) . حيث يقول الديوه جى : " بأن الشطار تبعوا العيارين وأنهم فى الطبقات المنحطة "(١٢٨) .

وطبيعى أن تتعرض حركة العيارين والشطار لسوء الفهم ، وأن ينعتوا بالنعوت المختلفة ، إلا أننا نرى فى وضعهم وفى استمرار حركتهم ، ما يبين أنهم يمثلون حركة اجتماعية ثورية بين العامة نتيجة التباين الاقتصادى ، وسوء الوضع المعاش للعامة ، رغم أن بينهم من أهل الصنايع والحرف والباعة(١٢٩) . وقد استقطبت حركتهم جموعًا كبيرة من المتضررين من السياسة الاقتصادية للدولة ، وتأثرت أسواق بغداد إلى درجة كبيرة من حركتهم ، واستفحل أمرهم وتكاثر عددهم ، وكانوا يستفيدون عادة من الفتن والاضطرابات لتحركاتهم(١٣٠) .

وكانت العناصر المكونة للعيارين والشطار مختلفة ، فبينهم العربى البغدادى، والسوادى ، والكردى(١٣١) ، وفيهم العباسى ، والعلوى ، والسنى(١٣٢) ، وبينهم الموالى من الإحباش والسودان والنوبة والبرابر (البربر) والأفارقة ، والصقالبة (الصقالب) ، والسنود ، والهنود ، والنبط والفرس ، والترك وغيرهم(١٣٣) ، وهذا الخليط من البشر يدل على اتساع حركتهم الاجتماعية واتفاقهم فى القيام بحركتهم الموجهة ضد رجال الحكم والأغنياء ، رغم اختلافهم فى النسب أو المنزلة الاجتماعية . وما كان ذلك إلا نتيجة لما كانت تعانيه عامة بغداد من قلق فى الحياة السياسية والاقتصادية(١٣٤) ، والحالة الاجتماعية للعيارين والشطار كانت تدل على أن تكوين جماعاتهم لم تخضع إلى أسس الانتماء إلى العرب أو الفرس ، أو غيرهم ، بل وحدت بينهم حياتهم المتردية ، وأهدافهم فى التمرد على التجار وذوى السلطان(١٣٥) .

وكانت هناك مجموعات من العيارين والشطار من العاملين فى الأسواق من حمالين وعتالين ، وباعة متجولين ونطار ، وغيرهم من أصحاب الأعمال المؤقتة ، بالإضافة إلى العاطلين عن العمل ، المتسكعين فى أسواق الكرخ ، ودروب بغداد ، وجماعات اللصوص الذين أنهكم البحث عن العمل ، فوجدوا فى سرقة الموسرين طريقًا وحيدًا ، وهؤلاء كانوا أكثر تمركزًا خارج بغداد ، وقد عبر عنهم الغزالى بقوله : " أم اللصوص فمنهم من يطلب عونا ويكون فى يديه شوكة وقوة

فيجمعون ويتكاثرون ، ويقطعون الطريق كالأعراب والأكراد . وأما الضعفاء منهم فيفزعون إلى الحيل إما بالنقب أو التلف عند انتهاز فرصة الغفلة وإما أن يكون طرارًا أو سلالاً ، إلى غير ذلك من أنواع التلصص الحادثة بحسب ما تنتجه الأفكار المصروفة إلى استنباطها "(١٣٦) .

وتميزت ظاهرة العيارة والشطارة بملامح وصفات خاصة ، إذ أضحت للعيارين والشطار تقاليد وآداب ، لابد من مراعاتها شأنهم فى ذلك شأن الطوائف والأصناف الأخرى . وكانت لهم رسالة واحدة أزعجت السلطات جميعها . فقد رأت فيهم طوائف خارجة على القانون . ولذلك كانت رؤية التاريخ السياسى إليهم سوداء بوجه عام ، إذ أكد على خروجهم على القانون ، ورأى حركاتهم على أنها انتفاضات غوغائية ، يقودها السفلة ضد الارستقراطية والشرعية . أما رؤية الوجدان الشعبى فكانت شيئًا آخر ، يختلف تمامًا عن رؤية التاريخ الرسمى ، فرأى فى حركاتهم عبر إبداعه الشعبى المدون ، والشفوى ، حركات ثورية شعبية، ورأى فى أبطالها ثوارًا يستحقون الإعجاب والخلود(١٣٧).

وبعد القضاء على حركات التمرد هذه من قبل العيارين لم تقم لهم بعدها قائمة إلا فى وقت متأخر حيث استجمعوا قواهم وجندوا جهودهم وعادوا للظهور مرة ثانية عندما رأوا الأمور لا تسير وفق صالح الطبقات الفقيرة .

العيارون والشطار فى عصر النفوذ الأجنبى :

أولاً : فى عصر بويه (٣٣٤ – ٤٤٧هـ/ ٩٤٥ – ١٠٥٥م) :

استطاع بنو بويه وهم من بلاد الديلم ، أن يلعبوا دورًا فى التاريخ العربى الإسلامى ، منذ أوائل القرن الرابع الهجرى (القرن العاشر الميلادى) ، بعد أن تمكن معز الدولة ، من دخول بغداد فى عام (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) ، وبسط نفوذ البويهين عليها(١٣٨) .

وأقام بنو بويه فى بغداد أمارة وراثية ، مارسوا من خلالها تسلطًا على الخلفاء ، وعلى عامة الناس . فقاموا بخلع المستكفى ، لاتهامه بالتآمر والاستنجاد بالحمدانيين ، وكانت سياسة بنى بويه مع الخلفاء العباسين تنطوى على إضعاف نفوذهم والاستئثار بالحكم(١٣٩) . وصاروا يتدخلون حتى فى تعيين كاتب الخليفة(١٤٠) .

وهكذا ساء حال الخلافة العباسية ، وأصبح الخليفه لعبة بيد البويهيين . ينصبونه ويعزلونه ، ويلحقون الأذى به ، والاعتداء عليه ، حتى صار الخليفة أشبه ما يكون بالموظف ، يخصص له الأمير البويهى راتبًا . وكانوا يتصرفون حسب مشيئتهم فى تخصيص تلك الرواتب . فقد جعل معز الدولة للخليفة المستكفى خمسة آلاف درهم فى اليوم(١٤١) . ثم خفض ذلك المرتب إلى الفىدرهم يوميًا ، عندما عين المطيع(١٤٢) . وتلقب الحكام البويهيون بلقب أمير ، وأنهم استخلفوا وظيفة أمير الأمراء(١٤٣) . وحكم البويهيون كأجانب ، لا تهمهم شئون الأهلين، ولا يعنيهم إلا الحصول على أكبر ما يمكن الحصول عليه من الوارد بالضرائب ، وبغيرها . وبدل من أن يدفعوا رواتب لجندهم ، ذهبوا إلى إقطاعهم الأراضى والقرى . ويأخذون من وارد ضرائبها بدل الرواتب . وهكذا قامت بداية الإقطاع العسكرى ، إذ أن الأراضى والقرى وزعت بالإقطاع على الجند والقادة ، كما أعطيت نسبة أقل بالضمان لبعض المدنيين(١٤٤) .

ونتيجة للسياسة الزراعية فى العصر البويهى ، قاسى الفلاحون من الضرائب العالية ، ومن قلة الرقابة على الجباة ، ومن تدهور نظام الرى ، رغم ما قام به بعض الأمراء البويهيين من إصلاحات فى العراق ، مثل معز الدولة وعضد الدولة . وكان من آثار إهمال الرى ، حدوث فيضانات متكررة ، أضرت بالزراعة فى السواد .

ومنذ بداية التسلط البويهى على العراق ، تصاعد نشاط العيارين والشطار بشكل واضح ، وكان لهم دور مميز فى إقلاق السلطة الغازية ، وتحدى أجهزتها

وأتباعها من ذوى النفوذ السياسى والاقتصادى(١٤٥) . بالرغم من قساوتها وعنفها .

واستعان ابن شيرزاد (أمير أمراء العراق السابق) بالعيارين والشطار ، على حرب معز الدولة ، " فكان يركب الماء ، وهم معه ويقاتل الديلم "(١٤٦) . ولم تنته هذه الحرب بنصر حاسم لأحد الطرفين . فجنح كلاهما للمصالحة ، واستقر الصلح بينهما فى محرم من سنة ٣٣٥هـ/ أغسطس ٩٤٦م . وهكذا اتحد العرب والأتراك والعيارون ضد بنى بويه منذ الوهلة الأولى(١٤٧) .

واستغل العيارون والشطار موقف السلطة البويهية من الاعتداءات المتكررة من جانب الروم على منطقة الحدود الجزرية والشامية فى سنة ٣٦١هـ/٩٧١م ، حيث شعروا بتمييع هذه السلطة لحركة الجهاد ضد البيزنطيين(١٤٨) . ففجروا الموقف ضد السلطة البويهية ، حتى اشتد خطرهم منذ أواخر سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م، " وعملوا ما أرادوا " وأصبحوا من الكثرة ببغداد بحيث أنهم إذا تحركوا ملكوا(١٤٩) .

ثم تجدد خطر العيارين والشطار عندما هددت قوات أبى تغلب بغداد فى ربيع الآخر سنة ٣٦٣هـ/ يناير ٩٧٤م ، واقتصرت كبسات العيارين على الجانب الغربى(١٥٠) ، الذى كان مفتونًا بينما كان الجانب الشرقى آمنًا . ولم يسكن الأثرياء بعض السكون إلا بعد قبض ابن تقية على جماعة من رؤساء العيارين وقتلهم(١٥١) .

واستفحل أمر العيارين والشطار مرة أخرى فى سنة ٣٦٤هـ/ ٩٧٤م عندما هاجموا أعوان البويهيين ، " حتى ركبوا الخيل (بالأصل الجند) وتلقبوا بالقواد ، وغلبوا على الأمور وأخذوا الخفارة عن الأسواق والدروب "(١٥٢) . فصارت المكوس والأتاوى تؤدى إليهم ، نظير الحماية والأمن . وبرز منهم قواد أشهرهم ابن كبروية ، وأبو الدور ، وأبو الذياب وأسود الزبد ، وأبو الأرضه ، وأبو النوانح(١٥٣) .

ونشطت حركة العيارين والشطار خلال الأعوام من٣٧٩-٣٨٠هـ/٩٨٩-٩٩٠م فى بغداد ، وتحدوا سلطة البويهيين جهارًا نهارًا . وقتلوا من قاومهم وتواترت سطواتهم المعروفة بالعملات والكبسات فى نهب الأموال(١٥٤) .

ويلاحظ أنهم استطاعوا تنظيم أنفسهم فى تلك الفترة ، فاتسعت تنظيماتهم، وأصبحت ذات شكل هرمى ، يترأسه الأمير . ووضعوا شروطًا خاصة للانتماء إليهم . وكان لهم فى كل محلة مقدم(١٥٥) ، ولكل عشرة منهم عريف ، ولكل عشرة عرفاء نقيب ، ولكل عشرة نقباء قائد ، ولكل عشرة قواد أمير(١٥٦). وكان عندهم درجة الرئيس ، حيث كان لكل محلة رئيس وقد يجتمع فيها عدة رؤساء(١٥٧) . ولهم مراسيم معينة وحفلات خاصة لقبول الأعضاء الجدد(١٥٨) .

وفى سنة ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م ثار العيارون والشطار بزعامة كبيرهم عزيز البا بصرى وطالبوا السلطة البويهية بإنصافهم وإنصاف الشعب . وعندما شعر البويهيون بخطورة هذه الحركة ، جندوا طاقاتهم لقمعها ، وتصدوا لها بقوة . ويبدو أن هذا الأمر دفع العيارين إلى تجميد بعض نشاطهم بعد هذه الحملة القاسية عليهم(١٥٩) .

وفى سنة ٣٩٠هـ/١٠٠٢م ، استفاض سعار النهب ، والحرق والقتل ، وتدارك بهاء الدولة الموقف ، فاستناب على العراق أبا على الحسن بن جعفر ، أستاذ هرمز بن الحسن ، الملقب بعميد الجيوش . فأصلح الأمور وقمع المفسدين ، ونفذ حد الحرابة فى بعضهم ومنع الناس من إظهار مذاهبهم(١٦٠) . واستطاع بذلك أن يشل نشاط العيارين والشطار بشكل مؤقت(١٦١) .

وقد استغل العيارون والشطار الظروف المواتية لتحقيق أهدافهم ، فى مواصلة نشاطهم ، وذلك عندما بدأت علائم الضعف على السيطرة البويهية فى بغداد سنة ٤٠٨هـ/ ١٠١٧م ، فقاموا بمصادرة كثير من الأموال(١٦٢) العائدة للبويهيين وأعوانهم . وازداد نشاطهم بشكل واضح فى عام ٤١٦هـ/ ١٠٢٥م ،

إذ استهانوا بالسلطة البويهية ، وبالغوا فى التحدى والاستهانة ، حتى أنهم كانوا يسيرون ليلا بالمشاعل والشموع . وبلغ من تحديهم أنهم نهبوا خزائن الحاكم البويهى ، مشرف الدولة ، فضلاً عن أموال التجارة العائدة لرجال السلطة وأعوانها(١٦٣) .

وقوى أمر العيارين فى عهد جلال الدولة أبى طاهر المعتز بن بهاء الدولة (٤١٦ - ٤٣٥هـ/١٠٢٥ - ١٠٤٣م) ، ولا سيما فى النصف الأول من أمارته. وترأسهم ربما للمرة الأولى رجل عربى فاتك من قبيلة تميم المفدية النازلة بالبصرة ، اسمه أبو على البرجمى ، الذى عرف بشدته وشدة أصحابه . وكان على ما يظهر يحمل لقب متقدم (درجة القائد ودرجة الرئيس)(١٦٤) ، ورغم ما حكى عن سطوة هذا القائد وفتكاته ، إلا أنه كان مع هذا فيه فتوة ، وله مروءة ، فلم يعرض إلى امرأة ، ولا إلى من يستسلم إليه(١٦٥) . وإن كان قد أسرف فى نهب الأموال(١٦٦) .

وفى سنة ٤١٦هـ/١٠٢٥م حدث نزاع بين عماد الدولة أبو كاليجار مرزبان بن سلطان الدولة صاحب الأهواز ، وخوزستان وفارس ، وبين عمه جلال الدولة ، حول ملكه بالعراق . وأدى ذلك النزاع إلى اهتزاز هيبة الدولة ، فاستغل العيارون ذلك النزاع ، وأكثروا من نشاطهم فى بغداد . وهكذا تتابعت عملات العيارين ضد سراة أهل بغداد ، ومياسيرهم أثناء الليل ، وأطراف النهار ، فى جرأة متناهية ، دونما خشية من السلطان . حتى بات ظهورهم مصدر هلع وفزع للطبقة الثرية . وللحد من نشاطهم طلبت السلطة فى بغداد منهم ترك البلد . إلا أنهم رفضوا ذلك الطلب ، بل استهانوا بها ، وهاجموا مضارب الجنود الديالمة . فأحرق الجند كثيرًا من الدور التى يحتمى بها العيارون(١٦٧) .

وتصاعد خطر العيارين فى سنة ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م بزعامة أبى يعلى الموصلى ، الذى اتخذ عبر خارج بغداد مقرًا له ... فهاجم رجالات الشرطة فى بغداد ، وقتل بعضهم ، وهو يحمل السيوف المسلولة مع رجاله ، فاضطر بعض

أفراد الجيش البويهى إلى نقل خيولهم إلى دورهم . كما نقل الحاكم البويهى جلال الدولة دوابه إلى دار المملكة(١٦٨) . وظل أبو يعلى هذا خارجًا على الحكومة مدة تقرب من ثلاث سنين ، كان يشن خلالها الهجمات ، وفى إحدى الهجمات قتل هو وأتباعه خمسة من " الرجاله وأصحاب المسالح "(١٦٩) .

وفى سنة ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م وسع العيارون نشاطهم ، بقيادة البرجمى حيث سطا وأتباعه على مخازن التجار ودور الأغنياء(١٧٠) . وفى محرم سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م تسلل العيارون إلى دار المملكة ، وأخذوا منها الشئ الكثير ، وواصلوا نشاطهم بزعامة البرجمى ، فقتلوا فى ٤٢٤هـ/١٠٣٣م صاحب الشرطة(١٧١) ، بعد أن تصدى لهم فى هجومهم على أسواق الكرخ . وكبسوا دور الأغنياء مرة أخرى . وأصبح البرجمى شخصية معروفة ومشهورة لدى الناس ببغداد .ومن شدة خوف الناس منه ومن أتباعه ، كانوا إذا دخلوا إلى الدار التى يريدون سرقتها لا يستطيع أحد من الجيران أن يغيث المسروقين مهما استغاثوا . وكانوا لا يتورعون عن سرقة الدار حتى إذا كانت مجاورة لدار المملكة (مقر السلطة البويهية)(١٧٢). وكان البرجمى قد اتخذ له مقرًا فى أجمة بالأحمرية ، يلجأ إليها هو وجماعته(١٧٣) فى حال تحركهم . ولم يرهبه وجود العسكر البويهى ببغداد(١٧٤) ، حيث أصبح من السطوة ، وعقد اتفاقًا مع العامل فى سنة ٤٢٥هـ/١٠٣٣م ، على أن يأخذ منه فى كل شهر عشرة دنانير ، وأن يسمح له بجعل سفينتين كبيرتين تسيران فى إحدى المواضع ، بدون دفع رسوم عنها ، وأن يقوم البرجمى ، مقابل ذلك ، بحماية ذلك الموضع بدلاً من الحكومة . ولم يكتف بهذا النصر على الحكومة بل واصل هجومه على الجانب الشرقى(١٧٥) من بغداد .

وعندما أرادت السلطات البويهية أن تضع حدًا لتحدى البرجمى لها ، قام الوزير البويهى بمطاردته وعهد إلى محمد ابن النسوى ، رئيس الشرطة بتلك المطاردة . وقلده النظر فى المعونة ، ومنحه لقب الناصح ، واستحجب وخلع عليه، فاستدعى جماعة من العيارين ، فأقامهم أعوانًا ، وأصحاب مسالح(١٧٦) . ليغرى

بقية العيارين بالتخلى عن البرجمى . لكن ما أن قتل أحد أصحاب ابن النسوى ، حتى هرب هو نفسه وترك بغداد تحت سيطرة البرجمى وجماعته(١٧٧) . وازداد التأييد للبرجمى ، وبلغ مداه ، حتى ثار العامة بالخطيب عند خطبة الجمعة فى جامع الرصافة ، ومنعوه من إكمال خطبته ، ورجموا القاضى أبا الحسين العريف الخطيب ، وقالوا : " إما أن تخطب للبرجمى وإلا فلا تخطب لخليفة ولا لسلطان ولا لغيره"(١٧٨) .

وبلغ الأمر بسكان بغداد ، أنهم لم يجرؤا أن يلفظوا اسم البرجمى الصريح ، بل كانوا يكنوه بالقائد أبى على(١٧٩) ، وهذا يظهر مدى كثرة أتباعه ومؤيديه الذين جعلوا الناس فى خوف من أن ينقل قولهم فيه إليه . وصار له فى سنة ٤٢٥هـ/١٠٣٣م من النفوذ والسيطرة ، ما جعل عمال السلطة البويهية يلتزمون بأوامره وصار يقف على قدم المساواة مع الخليفة العباسى والوزير البويهى(١٨٠) .

وفى نفس السنة ٤٢٥هـ/ ١٠٣٣م ، أصيبت حركة العيارين والشطار بنكسة كبيرة . وذلك عندما وقع البرجمى فى براثن قرواش أمير بنى عقل ، فى شرك نصبه له على ما يبدو جلال الدولة البويهى ، حيث أن قرواشًا قبض على عامله على مدينة عكبر بشرقى دجلة فى شمال بغداد ، ويدعى ابن القلعى . فجاء البرجمى يتشفع فى إطلاقه ، لمودة بينهما ، فغدر به واعتقله . وافتدى البرجمى نفسه بمال كثير ، فأخذ قرواش الفدية وأغرقه بدل من أن يطلق سراحه(١٨١) .

وقد حاولت السلطة البويهية استثمار مقتل البرجمى لتفتيت حركة العيارين، فأصدرت أمر الأمان لهم ، ودعتهم للتفاوض . وطلب منهم فى اجتماع موسع ، الانخراط فى مؤسسات السلطة ، أو مغادرة البلد . فخرجوا من البلد مؤقتًا(١٨٢)، حتى عادوا وجددوا نشاطهم واستهدفوا أبا محمد ابن النسوى ، الذى أعيد إلى منصبه ، صاحب المعونة ، وأرادوا تأديبه . فاقتحم مائة عيار داره وأحرقوها . كما أجبروه على الاستقالة فى سنة ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥ ، فأعيد أبو الغنائم بن أبى على إلى ذلك المنصب(١٨٣) .

والواقع إن قتل البرجمى لم يضعف من شوكة العيارين ، بل دفعهم ذلك لمزيد من النشاط ، حتى أن الحاكم البويهى جلال الدولة ، عجز عن التصدى لهم. وأصبحت بغداد من الناحية الفعلية بأيديهم(١٨٤) . وفى الوقت الذى انحل فيه أمر البويهيين " عظم أمر العيارين، وصاروا يأخذون الأموال ليلاً نهارًا ، ولا مانع لهم، لأن الجند يحمونهم من السلطان ونوابه ، والسلطان عاجز عن قهرهم "(١٨٥) ، حتى أنهم اقتحموا السجن فى سنة ٤٢٨هـ / ١٠٣٦م ، وفتحوا أبوابه ، وقتلوا سبعة عشر شرطيًا . وفى سنة ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م جدد العيارون والشطار هجومهم على أبى محمد ابن النسوى(١٨٦) .

ومن هذا يتضح أن حركة العيارين والشطار كانت شوكة فى صدر السلطة البويهية ، مما جعلها تبدو جزءًا مهمًا من حركة المقاومة الشعبية للتسلط الأجنبى(١٨٧) على بغداد . والعيارون هم جماعات من عامة بغداد ، لهم أهداف ثورية ، ولم تكن غايتهم اللصوصية والقتل(١٨٨) .

ثانيًا : فى العصر السلجوقى (٤٤٧-٦٥٦هـ/١٠٥٥-١٢٥٨م):

حدث عندما سيطر السلاجقة الأتراك على العراق ، بدخولهم بغداد سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م أن قامت الفتن بين جنود الاحتلال ، وعامة الناس ، فنهبت الجيوش السلجوقية الجانب الشرقى من بغداد ، وسيطرت على أحوال الناس(١٨٩). وقد أثارت هذه الأعمال الهمجية ردود فعل عارمة من الغضب بين أوساط الناس ، فهاجموا عسكر السلاجقة ، ووقع القتال بين الطرفين(١٩٠) .

وبدأ السلاجقة فى وقت مبكر تدخلهم فى شئون البلاد ، والتصرف بأمورها ومواردها المالية . لإشباع نهمهم للأموال ، دون مراعاة حرمة الخلافة ، أو الالتفات إلى مصالح الشعب . ولم تلبث موارد العراق المالية ، أن أصبحت تحت سيطرة السلاجقة ، بحيث أن أغلب السلاطين والأمراء السلاجقة كان هدفهم العمل على جباية أكبر قدر من المال ، بأى وسيلة كانت . وهم لا يتورعون عن ارتكاب عشر جرائم من أجل الحصول على دينار واحد(١٩١) .

وكان لسياسة العنف والقسوة التى اتبعها السلاجقة مع عامة الناس ، أثر واضح فى ضعف حركة العيارين والشطار فى بداية الاحتلال السلجوقى . إذ كان الحكام السلاجقة يتعقبون العصاة والخارجين على النظام بشدة(١٩٢) . وعلى ذلك الوجه نرى أخبار العيارين حتى عهد خلافة المستظهر با لله أبى العباس بن المقتدى بأمر الله (٤٨٧ - ٥١٢هـ/ ١٠٩٤ - ١١١٨م) ، وسلطنة ركن الدولة بركيارق ابن ملكشاة (٤٨٧ - ٤٩٨هـ/ ١٠٩٤ - ١١٠٤م) . وفى ذلك الدور بدأ العيارون والشطار تحركهم ، فى شهر شعبان سنة ٤٩٢هـ/ يونيه ١١٠٠م ، وزاد أمر العيارين ببغداد الغربية ، وعظم خطرهم ، فأمر الخليفة صاحب الشرطة ، كمال الدولة بتأديبهم " فأخذ جماعة من أعيانهم ، وطلب الباقين فهربوا "(١٩٣) .

وفى سنة ٤٩٥هـ/ إبريل - مايو ١١٠١م تدخل العيارون لمنع إحدى الغارات ، من قبل جند السلاجقة ، ومالوا على المغيرين ، فقتلوا أكثرهم . وغرست السياسة العنيفة للسلاجقة تجاه العامة الحقد فى نفوسهم ، والغضب فى قلوبهم ، فكثرت الفتن بينهم فى سنة ٤٩٧هـ/١١٠٣م وكالعادة انتشر العيارون والشطار خلال تلك الفتن ، لمزاولة حرفتهم فى السلب والنهب لدور الأغنياء(١٩٤) .

وعندما توفى السلطان بركيارق بدأ عصر وحدة السلاجقة ينتهى ، وبدأ عصر انقسامهم سنة ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م . وفى هذا العصر أخذت أخبار العيارين والشطار تنتشر بقلة ولكن فى قوة وربما كانت كثيرة وأغفل تدوين معظمها بتوجيه من رجال الدولة لمؤرخى السلطة(١٩٥) .

كان للعيارين والشطار فى الفترة السلجوقية دور نشط . وصارت فى فترة من الفترات قوة يحسب لها الحساب . وتحسنت مقاييسهم الأخلاقية كثيرًا ، وصارت الفتوة مثلهم . فلا نصل إلى أواخر الفترة السلجوقية ، حتى نرى تنظيمات الفتوة هى السائدة والمنتشرة . وتنظيمات الفتوة تركز على القيم الدينية

والخلقية من جهة ، وعلى الفروسية ، وما يتصل بها من جهة أخرى . وهى تنظيمات شعبية ، ولكنها لم تخل من احتكاكات فيما بينها(١٩٦) .

والفتوة أو الفتاء (بالفتح والمد) اسم يطلق على الصبى أو الحدث ، والشاب والصاحب والخادم . ويطلق اسم الفتوة على الذكر والأنثى ، فيقال للرجل فتى ، وللمرأة فتاة . وتطلق الفتوة فى العرف على مجموعة من الفضائل ، تميز المتصف به عن غيره ، مثل المروءة والشجاعة ، والصدق ، والوفاء والأمانة والرحمة(١٩٧) . والفتوة فى اللغة صفة الفتى ، اشتقت منه كالرجولة من الرجل ، والأبوة من الأب ، والأمومة من الأم ، والأخوة من الأخ ، والأنوثة من الأنثى ، واستعيرت الفتوة منذ أيام الجاهلية للشجاعة واستعير الفتى للشجاع(١٩٨) .

والفتوة بمعناها الفنى : فى الاصطلاح الإسلامى الدال على جماع الفضائل الخلقية من مروءة ، وشجاعة ؛ وكرم وضيافة ، ونكران الذات ؛ وروح التضحية، والإيثار ، وإغاثة الملهوف ، ونصرة صاحب الحق ، ورعاية الضعفاء(١٩٩) . وأنه فى اصطلاح العرب عبارة عن صفات محمودة ، اتسم بها الشخص على وجه مخصوص ، وامتاز بها عن أبناء جنسه ، فأوجبت له اسم فتى(٢٠٠) .

وقد انقسم الفتوة إلى نوعين ، وهما الفتوة العسكرية ، التى تضم جماعات الفتيان المحاربين من المتطوعين . والفتوة الصوفية التى تضم جماعات المتصوفة الزاهدة . وأمام المكانة الاجتماعية التى أحرزها أهل الفتوة ، كان طبيعيًا أن يندس فى صفوفهم بعض العناصر المشبوهة ، أو الطامعة التى اتخذت من ادعاء الجهاد وسيلة لإشباع رغباتها وأطماعها عن طريق النهب والسلب(٢٠١) .

وجرى تنازع بين أدعياء الفتوة . فالمتصوفون يعتقدون أن فتوتهم فى ربطهم وخانقواتهم وتكاياهم ، والشجعان الأسخياء السادرون يظنون أن فتوتهم هى الفتوة العملية الصحيحة ، لكن التطور المادى العملى ، أسرع من التطور الروحانى النظرى . فلذلك تغيرت الفتوة إلى غناء وشراب ولهو ومتعة وحرية وتسلط عند الراغبين فى الدنيا . وانقلبت الشجاعة المشرفة إلى شطارة وعيارة ، فصارت فتوة

مزيفة . وأصبح الفتيان فى الأمة طبقة مميزة كل التميز ، حتى فى الملابس والكلام(٢٠٢) .

وكان لفظ فتى شائعًا بين العيارين ، فقد تغنى شاعرهم قائلا :

يقول الفتى إذا طعن الطعنة   خذها من الفتى العيار

وهذا يشير إلى أن مدلول الكلمتين ، فتى وعيار ، فى الأصل واحد ، ويدل على أن الفتوة بدأت كحركة اجتماعية للطبقة الفقيرة . وكان لها مبادىء سامية . وأكد ذلك الجوزى من أهل القرن السادس فى فتوة زمانه وفتيانها " وإذا هم من الشجعان الأشرار ، المعروفين بالعيارين . والعيارون يسمون بالفتيان ، ويقولون : الفتى لا يزنى ، ولا يكذب ، ويحفظ الحرام ، ولا يهتك ستر امرأة . ومع هذا لا يتحاشون من أخذ أموال الناس ، ويسمون طريقتهم بالفتوة ، وربما حلف أحدهم بحق الفتوة فلم يأكل ولم يشرب "(٢٠٣) .

نستدل من ذلك أن الفتى فى ذلك العصر ، كان شاطرًا عيارًا ، وأن العيارين والشطار أطلق عليهم وصف الفتيان . وحتى عندما دخل القرن الرابع للهجرة ، ولفظ الفتى ولفظ الفتوة يقابلان أيضًا العيارة والشطارة . وفى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، نرى أنه كلما ساءت الأحوال السياسية والاقتصادية للدولة ، امتزجت الفتوة بالعيارة والشطارة . وانقلبوا عيارين وشطار ينشرون الاضطرابات ، ويخيفون السبل ، ويقلقون الأمة(٢٠٤) وفى نهاية القرن الرابع الهجرى أصبح تاريخ الفتيان والعيارين واحدًا(٢٠٥) . وكانت السمات السامية التى اتصفت بها الفتوة فى فتراتها السابقة هى نفس الصفات فى تلك الفترة التاريخية . وأكد على صفات الكرم والمجد والجود والعفة والنجدة وكبر النفس وعلو الهمة ، وسائر خصال الفضل والخير(٢٠٦) . وينتظر من الفتيان إطاعة الشريعة ، والرأفة بجميع الناس ، وعدم إيذاء أحد ، وإن حصل اعتداء منهم على أحد وجب تعويضه عما أصابه من ضرر ، واسترضاؤه ، والعفو عمن يسىء إليهم، وأن يتصفوا بالأمانة والصدق ، والتواضع والمحافظة على الوعد . وتذكر

الأخبار فى أمانة ونزاهة الفتيان ، خبر سقاء رفض أخذ دراهم مقابل ما قدمه من ماء لسجين . وتاجر يرفض أخذ ربح على رأس ماله ، لأن ذلك ليس من الفتوة ، وأمثلة بالرفق بالحيوان(٢٠٧) .

وذكر عن أبى الفاتك ، وهو قاضى الفتيان ، أنه قال : " الفتى لا يكون نشالاً ولا نشافًا ولا مرسالاً ولا نكامًا ولا مصاصًا ولا نفاضًا ولا دلاكًا ولا مقودًا ولا مغربلاً"(٢٠٨) .

ومن الصفات السامية للعيارين الفتيان أيضًا ، محافظتهم على شرفهم . فإذا سمع أحدهم عن ابنته أو أخته كلمة زور لا تصح ، وربما كانت من محرض ، عمد إلى قتلها ، وأنهم كانوا يعتبرون ذلك من الفتوة(٢٠٩) .

ولديهم المحافظة على شرف الكلمة . إذ كانوا لا يتنازلون عن كلمة قالوها لإنسان ، حتى وإن تعرضوا فى سبيل ذلك إلى التصادم مع الحكومة . فقد طلب من شاطر أن يسلم إلى السلطان غلامًا كان يخدمه ، فأبى ذلك فضرب ألف سوط إلا أنه استمر على إصراره(٢١٠) .

وحكى أن إنسانًا يدعى الفتوة ، خرج من نيسابور إلى بلده بخراسان ، فدنا منه رجل ومعه جماعة من الفتيان ، فلما فرغوا من أكل الطعام ، خرجت جارية تصب الماء على أيديهم ، فأبى الفتى النيسابورى ، وقال : ليس من الفتوة أن تصب النساء على أيدى الرجال(٢١١) .

إن هذه الأخلاق الفاضلة التى حاول الفتيان العيارون غرسها فى المجتمع البغدادى(٢١٢) وتطبيقها على العامة تدل على سمو تلك الحركة .

ويبين الدكتور محمد رجب النجار عن وجود فريقين من الفتوة حين يقول : " وفى ضوء ما ترويه كتب التاريخ والأدب عن أصحاب الفتوة اللاهية (من العيارين) ، أو الفتوة الصوفية (الزاهدين) ، فإن ثمة تداخلاً واختلاطًا حدث بين

الفريقين ، كان من شأنه أن يوسع القاعدة العريضة ، فيما يمكن أن نسميه بالفتوة الشعبية ، فانتسب كثير من العيارين إلى طوائف الفتيان . كما أن كثيرًا من الفتيان سلك سلوك العيارين . ومن هنا ظهر اصطلاح الفتى ، بمعنى العيار الخارج على القانون"(٢١٣) .

وكانت الفتوة فى ذلك العصر سريعة الانتشار حيث " أن الشطار يخلو أحدهم بالغلام الغرير ، فيقول له : لا يكون الغلام فتى أبدًا حتى يصادق فتى وإلا فهو تكش . والتكش عندهم الذى لم يؤدبه فتى ولم يخرجه . فما الماء العذب البارد بأسرع فى طباع العطشان من كلمته ، إذا كان للغلام أدنى هوى فى الفتوة وأدنى داعية إلى المنالة (الشطارة)(٢١٤) .

ولقيت الفتوة والعيارة والشطار مقاومة شديدة فى العصر السلجوقى ، من قبل أصحاب السلطة ، لما يعتقدون بإخلالها بالأمن ، ونشرها الفساد ، وإهلاكها العباد أولاً . ولأن السياسة السلجوقية كانت صارمة قاسية ، فالتجأت ثانية إلى التقوى بالدين والاجتماعات السرية ، أو التغفلية ، والاتصال بالدولة الفاطمية(٢١٥) .

وتغير الحال فى سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م ، حيث بلغت الفتوة الشاطرة مبلغها منذ أوائل خلافة الخليفة المقتفى لأمر الله العباسى ، وعهد السلطان الفاتك السلجوقى مسعود بن ملكشاه ، وولاية الشريف حسام الشرف أبى الكرم بن محمد الهاشمى آمر الشرطة ببغداد ، إذ ظهر عظم أمر الفتى ابن بكران العيار فى بغداد ، والعراق ، وكثر أتباعه ، وصار يركب ظاهرًا فى جمع من مريديه(٢١٦) .

وإذ كان الخليفة المقتفى إذ ذاك لا أمر له ولا نهى ، فى شئون الدولة العباسية فى حين كان السلطان السلجوقى يعاقر الخمر ليلاً ونهارًا ، ولا يعرف السياسة، لم

يخش الفتيان العيارون من ارتكاب السلب والنهب . وبعد أن دب الضعف فى الدولة، اجتمعت كل جماعة منهم بأمير من أمراء الدولة السلجوقية ، أو ابن وزير، أو كبير، فأخذوا أموال الناس ، ظاهرًا . وكانوا يكبسون الدور بالليل بالشموع ، ويدخلون الحمامات وقت السحر ، ويأخذون ثياب المستحمين(٢١٧) .

وأخذ الفتيان العيارون يزدادون قوة ، بقدر ما كانت الدولة العباسية تزداد ضعفًا . فتكاثرت هجماتهم واعتداءاتهم على المدن العراقية ، وعلى بغداد خاصة ، فكانوا يسلبون عمائم الناس ، ويقتلون من ظفروا به من أتباع صاحب الشرطة ، وينهبون الدكاكين . وصار الناس معهم فى ويل عظيم(٢١٨) .

وقد خفت وطأة الفتيان العيارين بوفاة السلطان السلجوقى مسعود بهمدان سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م ، واستقلال الخليفة المقتفى لأمر الله بالحكم فى العراق ، الذى أخذ ينتهز الفرصة ، فيتقرب إلى هؤلاء الفتيان العيارين ، ويدعوهم للانضمام إليه؛ حيث كان يدرك قوتهم وتأييد العامة وخضوعهم لأوامرهم . واستطاع أن يجندهم فى الجيش العباسى الذى اعتمد عليه فى محاربة السلاجقة وطردهم من البلاد(٢١٩) .

ومجمل القول ، إن العيارين فى عصر نفوذ السلاجقة ، واصلوا سياستهم فى نهب الأغنياء ورجال المال . وحاربتهم الدولة أكثر من مرة ، دون أن تنال منهم . وأخذ بعض رجال الشحنكية يسرقون باسمهم . بل إن نفرًا من كبار رجال الدولة وأعيانها كانوا على صلة بهم ، ولهم نصيب فيما يحصلون ، إلى أن قطعت الدولة دابرهم . وتاب معظمهم أيام السلطان مسعود . ولما فكرت الدولة العباسية فى الاستقلال عن سلطان السلاجقة ، لجأت إليهم ، فوقفوا إلى جانبها ، وحاربوا معها وعندما أنجحوا مسعاها ، استخدمتهم كمخلب قط فى التمثيل بالمغضوب عليهم من عمالها(٢٢٠) .

هوامش البحث

(١) مؤلف مجهول ، العيون والحدائق فى أخبار الحقائق ، ص ٣٤٢ .

(٢) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص ٢٤٠ .

(٣) سابر محمد دياب حسين ، قراءة فى أخبار الدولة العباسية ، ص٥٢ .

(٤) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص ٣٧٢ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج ٦، ص٢٢٥ .

(٥) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٧٤ .

(٦) المسعودى ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص ٣٩٤ .

(٧) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص ٣٧٤ .

(٨) فهمى عبد الجليل محمود ، العصر العباسى الأول ، ص ٢٣٤ .

(٩) عبد المنعم ماجد ، العصر العباسى الأول ، ص٢٩٥ .

(١٠) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٣٢٧ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص ٢٢٥ .

(١١) أحمد الشامى ، الدولة الإسلامية فى العصر العباسى الأول، ص١٣٤.

(١٢) شاكر مصطفى ، دولة بنى العباس ، ج١ ، ص ٤٣٤ .

(١٣) وفاء محمد على ، صفحات من تاريخ العباسيين ، ص٢٦ .

(14) H. Ibrahim, Islamic and History Culture, P. 122.

(١٥) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٣٧٤ وانظر كذلك :
Sayad Ameer, A Short History of Saracenes, P. 258.

(١٦) محمد الخضرى بك ، تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) ، ص ١٦٠ .

(١٧) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٤٠٦ .

(١٨) عبد المنعم ماجد ، العصر العباسى الأول ، ص٢٩٧ .

(١٩) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٤٠٦ .

(٢٠) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، ص٢٩٢ .

(٢١) الطبرى تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٣٧٧ .

(٢٢) وفاء محمد على ، صفحات من تاريخ العباسيين ، ص٢٩ .

(٢٣) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٣٩٩ .

(٢٤) شاكر مصطفى ، دولة بنى العباس ، ج١ ، ص٤٤١ .

(٢٥) قنسرين بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص بقرب العواصم وبعض يدخل قنسرين في العواصم ، ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، ج٤ ، ص٤٠٤ .

(٢٦) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص٢٢٩ .

(٢٧) مؤلف مجهول ، العيون والحدائق ، ج٣ ، ص٣٢٢ .

(٢٨) عبد العزيز الدورى ، العصر العباسى الأول ، ص١٥٣ .

(٢٩) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص١٩٥ .

(٣٠) مؤلف مجهول ، العيون والحدائق ، ج٣ ، ص٣٢٣ .

(٣١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص٢٤١ .

(٣٢) نبيلة حسن ، تاريخ الدولة العباسية ، ص١٧٩ .

(٣٣) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص ٣٩٠ .

(٣٤) شاكر مصطفى ، دولة بنى العباس ، ج١ ، ص٤٤٣ .

(٣٥) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص ٣٩٠ ، وانظر كذلك :

Sayad Ameer, A Short History of Saracenes, p. 258.

(٣٦) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص٢٤٢ .

(٣٧) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص٢٤٢

(٣٨) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٤١١ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص٢٤٤ .

(٣٩) مؤلف مجهول ، العيون والحدائق ، ج٣ ، ص٣٢٤ ;

Shaban, Islamic History, Vol. 2. p. 43.

(٤٠) مؤلف مجهول ، العيون والحدائق ، ج٣ ، ص٣٢٤ ;

Broklman, History of Islamic People, P. 122.

(٤١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص٢٤٤ .

(٤٢) شاكر مصطفى ، دولة بنى العباس ، ج١ ، ص٤٤٤ .

(٤٣) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص ٣٩١ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص٢٤٠ .

(٤٤) فهمى عبد الجليل محمود ، العصر العباسى الأول ، ص٢٣٧ .

(٤٥) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، ص٣٠٥ .

(٤٦) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص٢٥٧ .

(٤٧) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٤١٦ - ٤١٧ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص ٢٤٨ .

(٤٨) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ص٤٢٣ .

(٤٩) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٤١٥ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص٢٤٩ .

(٥٠) فهمى عبد الجليل ، العصر العباسى الأول ، ص ٢٤١ .

(٥١) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٤٣٤ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص٢٦٣ .

(٥٢) المسعودى ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص٤١٠ .

(٥٣) العرادات : هى آلات الحصار للرمى بالحجارة والنار ، انظر الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٤٤٥ .

(٥٤) المسعودى ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص٤١٣ .

(٥٥) مؤلف مجهول ، العيون والحدائق فى أخبار الحقائق ، ج٣ ، ص ٣٣٠ .

(٥٦) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص٢٧١ .

(٥٧) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص٢٧٢ .

(٥٨) مؤلف مجهول ، العيون والحدائق ، ج٣ ، ص٣٣٣ .

(٥٩) عبد العزيز الدورى ، العصر العباسى الأول ، ص١٥٤ .

(٦٠) إبراهيم سلمان الكروى ، طبقات مجتمع بغداد ، ص ٨٩ .

(٦١) ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، ص١٦٧ .

(٦٢) محمد رجب النجار ، حكايات الشطار والعيارين ، ص ٨٨ - ٨٩ .

(٦٣) الشابشتى ، الديارات ، ص ١٠٠ - ١٠١ .

(٦٤) الخطيب البغدادى ، تارخ بغداد ، ج١ ، ص ٧٣ - ٧٤ .

(٦٥) مليحة رحمة الله ، الحالة الاجتماعية فى العراق فى القرنين الثالث والرابع للهجرة ، ص ٥٩ .

(٦٦) الخطيب البغدادى ، تاريخ بغداد ، ج١ ، ص٩٩ .

(٦٧) على إبراهيم حسن ، التاريخ الإسلامى العام ، ص ٥٨٩ .

(٦٨) الجاحظ ، التاج ، ص٤٢ .

(٦٩) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٨٢ .

(٧٠) سيد أمير على ، مختصر تاريخ العرب ، ص ٢٢٠ .

(٧١) محمد رجب النجار ، حكايات الشطار والعيارين ، ص ٩٠ .

(٧٢) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ١٢٠ .

(٧٣) الهمدانى ، مختصر كتاب البلدان ، ص٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٧٤) محمد رجب النجار ، حكايات الشطار والعيارين فى التراث العرابى ، ص ٢٠ .

(٧٥) ابن منظور ، لسان العرب ، ج٥ ، ص ٣٠١ .

(٧٦) الزبيدى ، تاريخ العروس ، ج٣ ، ص ٤٣٤ .

(٧٧) ابن منظور ، لسان العرب ، ج٥ ، ص٣٠١ .

(٧٨) الزبيدى ، تاج العروس ، ج٣ ، ص٤٣٤ .

(٧٩) ينظر مادة عير فى المعاجم اللغوية .

(٨٠) ينظر مادة أشطر فى المعاجم اللغوية .

(٨١) الإصفهانى الأحول ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ج٧ ، ص٧٩ .

(٨٢) المسعودى ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص ٤١١ ، وانظر كذلك الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٤٧٨ .

(٨٣) جورجى زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامى ، ج٥ ، ص ٥٣ .

(٨٤) إبراهيم سلمان الكروى ، طبقات مجتمع بغداد فى العصر العباسى الأول ، ص ١٠١ .

(٨٥) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٨٦) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، مجلد ٣ ، ص٥٠٧ .

(٨٧) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٤٤٨ ، المسعودى ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص٤٠٤ .

(٨٨) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٤٤٨ .

(٨٩) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٤٥٧ .

(٩٠) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٤٤٨ .

(٩١) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٤٥٥ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص٢٧٢ - ٢٧٣ .

(٩٢) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص ٤٦٣ ، السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص٤٧٦ .

(٩٣) يقصد بعض العيارين .

(٩٤) إصابتها ، انظر السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٧٧ .

(٩٥) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص ٤٥٧ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

(٩٦) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، مجلد ٣ ، ص ٥٠٧ .

(٩٧) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص ٤٦٠ .

(٩٨) المسعودى ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص ٤٠٧ .

(٩٩) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٤٥١ .

(١٠٠) محمد نجيب أبو طالب، الصراع الاجتماعى فى الدولة العباسية ، ص ٢٢٢ .

(١٠١) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص ٤٥٦ .

(١٠٢) حسين الأمين ، تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ، ص٣٢ .

(١٠٣) محمد رجب النجار ، حكايات الشطار والعيارين ، ص٢٧ .

(١٠٤) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص ٤٥٧ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص ٢٧٤ .

(١٠٥) المسعودى ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص٤٠٩ .

(١٠٦) محمد نجيب أبو طالب ، الصراع الاجتماعى فى الدولة العباسية ، ص٢٢٣ .

(١٠٧) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص ٤٦٧ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص ٢٧٧ .

(١٠٨) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص ٤٦٧ - ٤٦٨ .

(١٠٩) محمد نجيب أبو طالب ، الصراع الاجتماعى فى الدولة العباسية ، ص ٢٢٥ .

(١١٠) محمد رجب النجار ، حكايات الشطار والعيارين ، ص٣٣ .

(١١١) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص ٤٦٩ .

(١١٢) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٤٧٤ .

(113) Sayad Ameer, A short history of the saracenes, p. 260.

(١١٤) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ،ص٤٧٥ ، المسعودى ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص٤٠٧ .

(١١٥) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٤٨٨ ، مؤلف مجهول ، العيون والحدائق ، ص٣٤١ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص٢٨٧ ، المسعودى ، مروج الذهب، ج٣ ، ص ٤١٤ .

(١١٦) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص ٥٢٧ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص ٣٠١ .

(١١٧) محمد نجيب أبو طالب ، الصراع الاجتماعى فى الدولة العباسية ، ص ٢١٣ .

(١١٨) عبد العزيز الدورى ، دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ، ص ٢٨٣ .

(١١٩) حسين أمين ، تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ، ص٣٣ .

(١٢٠) جرجى زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامى ، ج٥ ، ص٥٤ .

(١٢١) نيقولا زيادة ، دراسات إسلامية ، ص٢٣١ .

(١٢٢) عبد العزيز الدورى ، مقدمة فى التاريخ الاقتصادى العربى ، ص٧٢ .

(١٢٣) صابر محمد دياب حسين ، قراءة فى تاريخ الدولة العباسية ، ص١٣٢ ، فاروق عمر ، الخلافة العباسية فى عصر الفوضى العسكرى ، ص ١٧٠ .

(١٢٤) محمد أحمد عبد المولى ، العيارون والشطار البغاددة ، ص٢٧ .

(125) C. F. The Enscyclopaedia of Islam, New Edition, Vol, Fase 13. E.

(١٢٦) عبد العزيز الدورى ، دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ، ص ٢٨٤ .

(١٢٧) محمد نجيب أبو طالب ، الصراع الاجتماعى فى الدولة العباسية ، ص٢١٥ .

(١٢٨) بدرى محمد فهد ، العامة ببغداد فى القرن الخامس الهجرى ، ص٢٨٨ .

(١٢٩) عبد العزيز الدورى ، مقدمة فى التاريخ الاقتصادى العربى ، ص٧٧ .

(١٣٠) حمدان عبد المجيد الكبيسى ، أسواق بغداد ، ص ٢٧٦ .

(١٣١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص٨٨ ، الذهبى ، العبر ، ج٣ ، ص١٦١ .

(١٣٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٧ ، ص٢٢٠ .

(١٣٣) محمد أحمد عبد المولى ، العيارون البغاددة فى التاريخ العباسى ، ص٤٨ - ٤٩ .

(١٣٤) عبد العزيز الدورى ، نشوء الأصناف ، مقال فى مجلة كلية الآداب سنة ١٩٥٩ ، ص١٥٧.

(١٣٥) محمد نجيب أبو طالب ، الصراع الاجتماعى فى الدولة العباسية ، ص٢٢٧ .

(١٣٦) الغزالى ، إحياء علوم الدين ، ج٣ ، ص١٩٧ .

(١٣٧) محمد رجب النجار ، حكايات الشطار والعيارين ، ص٣٢٣ .

(١٣٨) عبد النعيم محمد حسنين ، سلاجقة إيران والعراق ، ص١١ .

(١٣٩) محمد حسين الزبيدى ، العراق فى العصر البويهى ، ص ٣٦ .

(١٤٠) عبد العزيز الدورى ، دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ، ص٢٥٠ .

(١٤١) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص٦٣٣ .

(١٤٢) مسكوية ، تجارب الأمم ، ج٢ ، ص ٨٧ .

(١٤٣) حسين أمين ، العراق فى العصر السلجوقى ، ص ٢٥ .

(١٤٤) عبد العزيز الدورى ، مقدمة فى التاريخ الاقتصادى العربى ، ص ٨٨ .

(١٤٥) خليل إبراهيم السامرائى ، الدولة العربية الإسلامية فى العصر العباسى ، ص١٦٨ .

(١٤٦) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٨ ، ص٤٥٤ .

(١٤٧) محمد أحمد عبد المولى ، العيارون والشطار البغاددة فى التاريخ العباسى ، ص١١٢ .

(١٤٨) خليل إبراهيم السامرائى ، الدولة العربية الإسلامية فى العصر العباسى ، ص١٦٨ .

(١٤٩) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص١٣٠ .

(١٥٠) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٨ ، ٦٣٢ .

(١٥١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٨ ، ص ٦٣٢ .

(١٥٢) ابن تغردى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج٤، ص١٠٧ - ١٠٨.

(١٥٣) التوحيدى ، الامتاع والموانسه ، ج٣ ، ص١٦٠ .

(١٥٤) الذهبى ، العبر فى خبر من غبر ، ج٣ ، ص١١ .

(١٥٥) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٧ ، ص١٥٣ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص٧٦ ، الذهبى ، دول الإسلام ، ج١ ، ص١٦٩ .

(١٥٦) المسعودى ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص٤٠٣ .

(١٥٧) مسكوية ، تجارب الأمم ، ج٢ ، ص٣٠٥ .

(١٥٨) عبد العزيز الدورى ، دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ، ص ٢٨٤ .

(١٥٩) الذهبى، العبر ، ج٣ ، ص٢٤ ، ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب، ج٣، ص١٠٦.

(١٦٠) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص١٧٨ .

(١٦١) طالب جاسم حسن ، المقاومة العربية ، ص٢٩٨ - ٢٩٩ .

(١٦٢) أبو الفداء ، المختصر ، ج٢ ، ص١٥٠ .

(١٦٣) ابن الجوزى ، المنتظم ،ج٨ ، ص٢٢ ، الذهبى ، العبر فى خبر من غبر ، ج٣ ، ص١٢١، أبو الفداء ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص١٨ .

(١٦٤) حسين أمين ، تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ، ص ٣٣ .

(١٦٥) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص٤٣٩ .

(١٦٦) الذهبى ، دول الإسلام ، ج١ ، ٤٣٩ .

(١٦٧) ابن الجوزى المنتظم ، ج٨ ، ص٢٤ ، أبو الفداء ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٠ .

(١٦٨) ابن الجوزى المنتظم ، ج٨ ، ص٤٤ - ٤٥ و ٥٠ - ٥١ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص ٤١٠ .

(١٦٩) ابن المعمار الحنبلى ، الفتوة ، ص٢٨٩ .

(١٧٠) ابن الجوزى ، المنتظم ،ج٨ ، ص ٤٧ - ٥٠ ، الذهبى ، دول الإسلام ، ج١ ، ص١٨٢، الذهبى ، العبر ، ج٣ ، ص١٤١ .

(١٧١) أبو الفداء ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٥ .

(١٧٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص٤٤ .

(١٧٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص٨٢ .

(١٧٤) بدرى محمد فهد ، العامة فى بغداد فى القرن الخامس الهجرى ، ص٢٩٤ .

(١٧٥) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص٧٦ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص٤٣٧ .

(١٧٦) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص٤٩ .

(١٧٧) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص٨٨ .

(١٧٨) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ، ج٩، ص٤٣٩، الذهبى، العبر فى خبر من غبر ، ج٣ ، ص١٥٤.

(١٧٩) الذهبى ، العبر فى خبر من غبر ، ج٣ ، ص١٥٣ .

(١٨٠) محمد رجب النجار ، حكايات الشطار والعيارين ، ص١٣٠ .

(١٨١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص٤٣٨ .

(١٨٢) طالب جاسم ، المقاومة العربية ، ص٣٠٢ .

(١٨٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص٧٩ .

(١٨٤) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص٨٢ .

(١٨٥) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص٤٤٠ ، الذهبى ، دول الإسلام ، ج١ ، ص٢٥٤ .

(١٨٦) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص٩١ - ١٥١ ، أبو الفداء ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٤٠ .

(١٨٧) طالب جاسم ، المقاومة العربية ، ص٣٠٣ .

(١٨٨) بدرى محمد فهد ، العامة ببغداد فى القرن الخامس الهجرى ، ص٢٩٦.

(١٨٩) صالح رمضان ، مقاومة الخلافة العباسية للتسلط السلجوقى ، ص٤٦ .

(١٩٠) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص١٦٦ .

(١٩١) صالح رمضان ، مقاومة الخلافة العباسية للتسلط السلجوقى ، ص ٤٨ .

(١٩٢) حسين أمين ، تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ، ص٩٧ .

(١٩٣) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج١٠ ، ص٣١٠ .

(١٩٤) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج١٠ ، ص٣٧٨ .

(١٩٥) محمد أحمد عبد المولى ، العيارون والشطار البغاددة ، ص١٤٠ .

(١٩٦) عبد العزيز الدورى ، مقدمة فى التاريخ الاقتصادى العربى ، ص ٩٤ .

(١٩٧) محمد أحمد عبد المولى ، العيارون والشطار البغاددة ، ص١٦ .

(١٩٨) مصطفى جواد ، مقدمة كتاب الفتوة لابن المعمار الحنبلى ، ص٥٠ .

(١٩٩) محمد رجب النجار ، حكايات الشطار والعيارين ، ص١٤٠ .

(٢٠٠) ابن المعمار الحنبلى ، الفتوة ، ص١٣٠ .

(٢٠١) محمد رجب النجار ، حكايات الشطار والعيارين ، ص ١٤١ .

(٢٠٢) مصطفى جواد ، الفتوة وأطوارها وأثرها فى توحيد العرب والمسلمين ، ص٤٨ .

(٢٠٣) ابن الجوزى ، تلبيس إبليس ، ص٣٩٤ .

(٢٠٤) عمر رضا كحاله ، دراسات اجتماعية فى العصور الإسلامية ، ص٢٤ .

(٢٠٥) مصطفى جواد ، مقدمة كتاب الفتوة لابن المعمار الحنبلى ، ص٣٥ .

(٢٠٦) مصطفى جواد ، الفتوة وأطوراها وآثارها فى توحيد العرب والمسلمين ، ص٥٤ .

(٢٠٧) عبد العزيز الدورى ، تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى ، ص٨٤ .

(٢٠٨) الجاحظ ، البخلاء ، ص٦٧ .

(٢٠٩) ابن الجوزى ، تلبيس إبليس ، ص٣٩٤ .

(٢١٠) القشيرى ، الرسالة القشيرية ، ص١١٤ .

(٢١١) أحمد أمين ، الصعلكة والفتوة فى الإسلام ، ص٥٦ .

(٢١٢) بدر محمد فهد ، العامة فى بغداد فى القرن الخامس الهجرى ، ص٣٠٩ .

(٢١٣) محمد رجب النجار ، حكاية الشطار والعيارين ، ص١٥٠ .

(٢١٤) الجاحظ ، الحيوان ، ج١ ، ص١٦٨ - ١٦٩ .

(٢١٥) مصطفى جواد ، مقدمة كتاب الفتوة لابن المعمار الحنبلى ، ص٣٨ .

(٢١٦) مصطفى جواد ، مقدمة كتاب الفتوة لابن المعمار الحنبلى ، ص٤٢.

(٢١٧) مصطفى جواد ، مقدمة كتاب الفتوة لابن المعمار الحنبلى ، ص٤٤ .

(٢١٨) ابن الفوطى ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة ، ص٢٧٨ .

(٢١٩) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج١١ ، ص١٦٠ .

(٢٢٠) مصطفى جواد ، مقدمة كتاب الفتوة ، ص ٤٧ - ٤٨ .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر الأولية :

- ابن الأثير : عز الدين أبى الحسن على بن أبى الكرم محمد الشيبانى (ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣م)

الكامل فى التاريخ ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ١٣٨٥هـ- ١٩٦٥م .

- الأصفهانى الأحول :

حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، مكتبة الخانجى ومطبعة السعادة القاهرة ١٣٥٥ - ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٦ - ١٩٣٧م .

- ابن تغردى بردى : جمال الدين أبى المحاسن يوسف الأتابكى (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م) .

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر ، القاهرة .

- التنوخى : أبى على المحسن بن أبى القاهر (ت ٣٨٤هـ / ٩٩٤م)

الفرج بعد الشدة ، الطبعة الأولى ، مكتبة الخانجى بمصر ومكتبة المثنى ببغداد ، القاهرة ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م .

- التوحيدى : أبو حيان (ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م)

الإمتاع والموانسة، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات دار الحياة،بيروت.

- الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/٨٦٩م) .

١ - البخلاء ، تحقيق طه الحاجرى ، دار المعارف بمصر ١٩٥٨م .

٢ - التاج فى أخلاق الملوك ، تحقيق : أحمد زكى ، المطبعة الأميرية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٣٢٢هـ/ ١٩١٤م .

٣ - الحيوان ، تحقيق وشرح : عبد السلام هارون ، شركة مكتبة ومطبعة البابى الحلبى بمصر ، الطبعة الثانية ، القاهرة .

- **الجهشيارى** : أبى عبد الله بن عبدوس (ت ٣٣١هـ / ٩٤٢م)
الوزراء والكتاب ، تحقيق : مصطفى السقا وآخرون ، الطبعة الأولى ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده ، القاهرة ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م .

- **ابن الجوزى** : أبو الفرج عبد الرحمن بن على (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) .
١ - المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، المطبعة العثمانية ، حيدر أباد الدكن ، الهند ١٣٥٨هـ .
٢ - تلبيس إبليس ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- **الخطيب البغدادى** : أبو بكر أحمد بن على (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م)
تاريخ بغداد أو مدينة السلام ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٤٩هـ/ ١٩٣١م.

- **ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م)**
١ - العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، المعروف بتاريخ ابن خلدون ، دار الكتاب اللبنانى للطباعة والنشر ١٩٥٧م .
٢ - مقدمة ابن خلدون ، مطبعة مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٩٦١م .

- **الحموى** : شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)
معجم البلدان ، دار صادر للطباعة والنشر ، دار بيروت للطباعة والنشر بيروت ١٩٧٥م .

- **الذهبى** : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٧٤٨ هـ / ١٢٤٧م) .
١ - دول الإسلام ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد الدكن ، الطبعة الثانية ، الهند ١٣٦٤ - ١٣٦٥هـ .
٢ - العبر فى خبر من غبر ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ١ - ٤ - ٥ ، وتحقيق فؤاد سيد ، ٢ ، ٣ ، مطبعة حكومة الكويت ١٩٦٠ - ١٩٦٦م.

- الزبيدى : محى الدين أبو الفيض محمد بن الرزاق (ت ١٢٠٥هـ / ١٧٩٠م).
تاج العروس من جواهر القاموس ، المطبعة الخيرية بالجمالية القاهرة ١٣٠٦هـ .
- السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م) .
تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة .
- الشابشتى : أبو الحسن على بن محمد (ت ٣٨٨هـ/٩٩٨م) .
الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٥١ .
- الطبرى : أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م) .
تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف مصر ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م .
- ابن العماد الحنبلى : أبو الفلاح عبد الحى (ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٩م) .
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، المكتب التجارى للطباعة والنشر ، بيروت .
- الغزالى : أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥ هـ/ ١١١١م) .
إحياء علوم الدين ، مطبعة البابى الحلبى ، القاهرة ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م .
- أبو الفدا : عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقى (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) .
البداية والنهاية ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م .
- أبو الفداء : إسماعيل بن على بن محمد
المختصر فى أخبار البشر ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت .
- الهمدانى : محمد بن إسحاق بن إبراهيم
مختصر كتاب البلدان ، المكتبة الجغرافية العربية ، تحقيق : ميكال يان دى خوية، مطبعة بريل ، ليدن ١٣٠٢هـ / ١٨٨٥م .

- **ابن الفوطي** : أبو الفضل عبد الرزاق بن أحمد (ت ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣م).
الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، تحقيق ، الدكتور مصطفى جواد ، مطبعة الفرات ، بغداد ١٣٥١هـ .
- **القشيري** : أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن النيسابوري (٤٦٥هـ/ ١٣٢٣م).
الرسالة القشيرية ، مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ١٣٥٩هـ / ١٩٤٠م .
- **مؤلف مجهول** :
العيون والحدائق في أخبار الحقائق ، مكتبة المثنى ، بغداد .
- **المقدسي** : شمس الدين أبو عبد الله محمد البشاري (ت ٣٨٧هـ / ٩٩٧م)
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، باعتناء ميكال يان دى خوية ، الطبعة الثانية ، مطبعة ، بريل ، ليدن ١٩٠٦ .
- **ابن مسكوية**: أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكوية(ت٤٢١هـ/١٠٣٠م)
تجارب الأمم وعواقب الهمم،مطبعة التمدن الصناعية ، القاهرة ١٣٣٣هـ/١٩١٥م.
- **المسعودي** : أبي الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م)
مروج الذهب ومعادن الجوهر ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م .
- **ابن المعمار الحنبلي** : أبي عبد الله محمد بن أبي المكارم (ت ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م)
الفتوة منذ القرن الأول للهجرة إلى القرن الثالث عشر ، تحقيق مصطفى جواد وآخرين ، الطبعة الأولى ، مطبعة شفيق ، بغداد ١٩٥٨م .
- **ابن منظور** : أبو الفضل جمال الدين محمد مكرم بن منظور الأفريقي المصري الأنصاري (ت ٧١١هـ/ ١٣١٠م) .
لسان العرب ، دار المعارف ، القاهرة .

ثانيا : المراجع الثانوية :

- **أمين : أحمد (الدكتور)**
الصعلكة والفتوة في الإسلام ، دار المعارف للطباعة والنشر بمصر ١٩٥١م .

- أمين : حسين (الدكتور)

تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ، منشورات المكتبة الأهلية ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م .

- بك : محمد الخضرى :

تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) المكتبة التجارية بمصر .

- أبو طالب : محمد نجيب

الصراع الاجتماعى فى الدولة العباسية ، دار المعارف للطباعة والنشر، تونس ١٩٩٠م .

- جاسم : طالب

المقاومة العربية ، بغداد ١٩٨٥م .

- جواد : مصطفى (الدكتور)

الفتوة وأطوارها وأثرها فى توحيد العرب والمسلمين ، مجلة المجمع العلمى العراقى ، العدد الخامس ، بغداد ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م .

- جيرارد زالجر :

الفتوة هى الفروسية الشرقية ، بحث منشور فى كتاب دراسات إسلامية بأقلام مجموعة من المستشرقين ، أشرف على تحرير الترجمة العربية د. نقولاً زياده ، دار الأندلس بيروت ١٩٦٠م .

- حسن : صالح رمضان

مقاومة الخلافة العباسية للتسلط السلجوقى رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الموصل ١٩٨٧م .

- حسن : على إبراهيم (الدكتور)

التاريخ الإسلامى العام، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٦٣م.

- حسن : نبيلة حسن (الدكتورة)

تاريخ الدولة العباسية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٨٩م .

- حسنين : عبد النعيم محمد (دكتور)

دولة السلاجقة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٥ .

- حسين : صابر محمد دياب (دكتور)

قراءة فى تاريخ الدولة العباسية ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٤١١هـ/ ١٩٩١م .

- الدورى : عبد العزيز الدورى (الدكتور)

١ - نشوء الأصناف والحرف فى الإسلام ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، حزيران ، سنة ١٩٥٩م ، مطبعة العالى ، بغداد .

٢ - العصر العباسى الأول ، دار الطليعة ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٨٨م.

٣ - دراسات فى العصور العباسية المتأخرة، مطبعة السريان، بغداد ١٩٤٥م.

٤ - تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى ، مطبعة المعارف ، بغداد ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م .

٥ - مقدمة فى الاقتصاد العربى ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٦٩م .

- رحمة الله : ملحية (الدكتورة)

الحالة الاجتماعية فى العراق فى القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة ، مطبعة الزهراء ، بغداد ١٩٧٠م .

- الزبيدى : محمد

العراق فى العصر البويهى ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٩م .

- زيدان : جرجى

تاريخ التمدن الإسلامى،مراجعة وتعليق د. حسين مؤنس، دار الهلال، القاهرة.

- السامرائى : خليل ، وأخرون

تاريخ الدولة العربية الإسلامية فى العصر العباسى ، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر ، الموصل ١٩٨٨م .

- سيد : أمير علي

مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى ، تعريب رياض رأفت ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٣٨ .

- الشامي : أحمد (الدكتور)

الدولة الإسلامية في العصر العباسي الأول ، الطبعة الثانية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٦م .

- عبد المولى : محمد أحمد (الدكتور)

العيارون والشطار البغاددة فى التاريخ العباسي ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ١٩٨٦م .

- علي : وفاء محمد (الدكتور)

صفحات من تاريخ العباسيين، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

- عمر : فاروق (الدكتور)

الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية ، مكتبة المثنى ، الطبعة الثانية ، بغداد ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م .

- فهد : بدري محمد (الدكتور)

١ - العامة ببغداد في القرن الخامس الهجرى ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .

٢ - تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٧٣م.

- الكبيسي : حمدان عبد المجيد (دكتور)

أسواق بغداد حتى بداية العصر البويهي ، منشورات وزارة الثقافة والفنون ، بغداد ١٩٧٩م .

- الكروى : إبراهيم سلمان (دكتور)

طبقات مجتمع بغداد في العصر العباسي الأول ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ١٩٨٩م .

- كحالة : عمر رضا

دراسات اجتماعية فى العصور الإسلامية ، دمشق ١٩٧٣م .

- ماجد : عبد المنعم (الدكتور)

العصر العباسى الأول، الطبعة الثانية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٩م.

- محمود : فهمي عبد الجليل (دكتور)

العصر العباسى الأول ، منهج جديد وتقويم موضوعى ، مكتبة الخانجى ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م .

- مصطفى : شاكر (الدكتور)

دولة بنى العباس ، وكالة المطبوعات ، الطبعة الأولى ، الكويت ١٩٧٣م .

- النجار :محمد رجب (الدكتور)

حكايات الشطار والعيارين فى التراث العربى ، الطبعة الثانيـة ، ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع ، الكويت ١٩٨٩م .

- النجم : وديعة طه (الدكتورة)

الجاحظ والحاضرة العباسية ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ١٩٦٥م .

ثالثًا : المراجع الأجنبية :

- ALI, SAYAD AMEER,

A SHORT OF THE SARACENES, LONDON, 1981.

- BROKELMAN : CARL,

HISTORY OF ISLAMIC PEOPLE, LONDON, 1981.

- ENCYCLOBEDIA OF ISLAM, NEW EDITION

HASSAN IBRAHIM

- ISLAMIC AND HISTORY CULTURE

SAUNDERS, J. J.

- A HISTORY OF MEDIEVAL ISLAM, LONDON 1972.

SHABAN, M. A.

ISLAMIC HISTORY A NEW, INTERPRETATION V.2
CAMBRIDGE UNIVRSITY PRESS, BRITAIN 1976.

المساكن الداخلية فى المدارس الإسلامية

د. إبراهيم بن محمد الحمد المزيني(*)

مقدمة :

حرص الواقفون على المدارس ودور التعليم المختلفة فى كثير من العواصم الإسلامية على توفير كافة احتياجات الطلبة الدارسين فيها ، ومدرسيهم ، وبالأخص المسكن الملائم لهم كى يجد الطلبة والأساتذة الغرباء ، والطلبة الفقراء من أهل البلد المأوى المناسب لطلب العلم . فكان من مستلزمات ومكملات كثير من المدارس إنشاء بيوت ملحقة بها تخصص لسكنى الطلبة والمدرسين ، ويعد هذا الأمر بحق إحدى مفاخر الحضارة الإسلامية ، ومنجزاتها .

ويقصد بهذه المساكن ، أماكن مبيت الطلبة والمعلمين ، ومن يقوم بخدمتهم إضافة إلى ما يتوفر لهم فيها من طعام واغتسال وطبابة ، ومخصصات نقدية تسمى المعلوم . وقد هدف هذا كله إلى تشجيع الطلبة على التفرغ لطلب العلم بحيث لا تشغلهم متطلبات المعيشة ، وأعباؤها الكثيرة عن ذلك .

وقد انتشرت هذه الظاهرة فى كثير من مدارس مصر والشام والعراق ، وأصبحت مرفقًا من مرافقها المهمة والضرورية .

ومما تميزت به المدارس الإسلامية عن غيرها من المنشآت أنه روعى فى تصميمها المعمارى التخطيط لهذه المساكن أو البيوت .

وكان نظام المساكن فى المدارس الإسلامية من مفاخر التعليم الإسلامى حيث ساعد هذا النظام على توفير الجو المناسب للطلبة والمدرسين كى ينقطعوا لطلب العلم بعد أن تكفل مؤسسو المدارس فى الأوقاف التى وقفوها عليها بتوفير ما يلزم المقيمين بها من المأكل والملبس والمسكن بجانب ما يتقاضونه من معاليم

(*) قسم التاريخ والحضارة – كلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

شهرية . كما أنها يسرت التعليم للفقراء والغرباء . وقد رصد ابن جبير مشاهداته لهذه المرافق فى دمشق أثناء زيارته لها فى أواخر القرن السادس الهجرى ، وتحدث عن التسهيلات المغرية لطلاب العلم فى هذه البلاد جميعًا ، ومنها هذه المرافق ، فقال : " ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الإحصاء ولا سيما لحفاظ كتاب الله عز وجل والمنتمين للطلب ... وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم لكن الاحتفال بهذه البلدة أكثر والاتساع أوجد . فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرب فى طلب العلم ، فيجد الأمور المعينات كثيرة ، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة ، وهو أكبر الأعوان وأهمها "(١) .

واختلفت نوعية هذه المساكن فى مستواها من مدرسة لأخرى تبعًا لمكانة الوقف الموقوف عليها وما جاء فى حجة ذلك الوقف من شروط وقواعد تحدد أوجه الصرف ومقداره ولذا فإن بعض بيوت الطلاب والمدرسين فاق البعض الآخر فى مستواه من الجودة والاتقان فنالت إعجاب من شاهدها ، ومر بها .

نشأتها :

لم يكن للمساكن الداخلية فى المدارس الإسلامية ذكر قبل القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) إذ إن أقدم ما وصلنا عن هذه المساكن ما قام به الإمام أبوحاتم بن حيان السجستانى البستى (ت ٣٥٤هـ/٩٦٥م) الذى اتخذ مسكنًا للغرباء الذين يدرسون عليه من أهل الحديث والمتفقهة ، وجعل لهم الجرايات الواسعة التى ينفقها عليهم من ماله الخاص(٢) .

وبعد ذلك تأتى إشارة المقريزى إلى أنه فى سنة ٣٧٨هـ (٩٨٨م) أنشأ الخليفة العزيز بالله الفاطمى دارًا للفقهاء بالجامع الأزهر بإشارة من وزيره يعقوب ابن كلس وأنها خصصت لإقامة خمسة وثلاثين من فقهاء الشيعة ، وأجرى عليهم الأرزاق التى تكفى لكل واحد منهم(٣) .

كذلك الحال بالنسبة للمدرسة العوفية التى أنشأها الخليفة الفاطمى الحافظ سنة ٥٣٢هـ(١١٣٧م) إذ أنها اشتملت على بيوت للطلبة(٤) . ثم أعقب ذلك

النشاط الذى قام به الوزير السلجوقى نظام الملك الطوسى حينما أنشأ النظاميات العشر فى كل من العراق ، وبلاد فارس ، فى أواسط القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) إذ إنه قام بإلحاق مثل هذه المساكن ببعض تلك المدارس(٥) .

واشتهرت المدرسة المستنصرية(٦) ببغداد بما ألحق بها من بيوت لأهل العلم، وفيها وصلت المساكن إلى أرقى ما عرف من هذا النوع فى العراق خلال القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) حيث اشتملت تلك المساكن على مستشفى خاص لعلاج الطلاب ، ومطبخ عام يقدم لهم الطعام بالمجان وحمام ، ولم يكن هذا معروفًا فيما سبق من المدارس(٧) . وهكذا انتشر نظام المساكن الداخلية مع انتشار المدارس الإسلامية وتطور بتطورها .

وفى هذا المقام أجدنى أخالف من ذكر أن المساكن الداخلية أول ما وجدت نشأت فى رحاب الجامع الأزهر ثم انتقلت منه إلى بقية المدارس فى العالم الإسلامى مثلما ذكر الأستاذ / أحمد شلبى(٨) .

تطور المساكن وانتشارها :

لم يكن وجود المساكن الداخلية لإيواء أهل العلم وبخاصةالغرباء قاصرًا على المدارس ، فقد وجد مثل هذه المساكن فى كثير من الجوامع والمساجد النشطة فى حركة التعليم فى الديار الإسلامية . وقد تحدث ابن جبير عن كثير من هذه المساكن فى الديار المصرية أثناء مروره بها فى العهد الأيوبى ، فقال وهو يصف مسجد ابن طولون : " وهومن الجوامع العتيقة الأنيقة الصنعة الواسعة البنيان ، جعله السلطان مأوى للغرباء من المغاربة يسكنونه ويحلقون فيه ، وأجرى عليهم الأرزاق فى كل شهر"(٩) ، ويضيف قائلاً عن مآثر صلاح الدين الأيوبى فى مصر: " وما منها جامع من الجوامع ، ولا مسجد من المساجد ولا روضة من الروضات المبنية على القبور ولا محرس من المحارس ولا مدرسة من المدارس إلا وفضل السلطان يعم جميع من يأوى إليها ويلزم السكنى فيها تهون عليه فى ذلك نفقات بيوت الأموال"(١٠).

أما الجامع الأزهر فقد استقبل منذ إنشائه أفواج الطلاب من داخل مصر وخارجها ومن كافة الأقطار الإسلامية وكان كثير من هؤلاء الطلاب يلازمون الإقامة فيه ولكل طائفة رواق يعرف بهم ، وتحمل إليهم الأطعمة والخبز والحلوى بانتظام .

وفى عصر المماليك زاد إقبال الطلبة من داخل مصر وخارجها على الدراسة فى الأزهر بعد أن زال عنه طابعه الشيعى ودعا هذا الأمر إلى اتخاذ أروقة الجامع مساكن يأوى إليها الطلبة المصريون والطلبة الغرباء(١١) ، ويذكر المقريزى أن عدتهم فى سنة ٨١٨هـ (١٤١٥م) بلغت سبعمائة وخمسين رجلاً ما بين عجم وزيالعة ، ومن ريف مصر والمغاربة(١٢) .

أما عن المساكن الداخلية فى دور الحديث ، فقد وردت إشارة إليها فى حديث ابن كثير عن دار الحديث الأشرفية بدمشق فقال : " وقد كانت دار الحديث الأشرفية دارًا لهذا الأمير - يعنى صارم الدين قايماز المتوفى سنة ٥٩٦هـ (١١٩٩م) - وله بها حمام ، فاشترى ذلك الملك الأشرف فيما بعد وبناها دار حديث وأخرب الحمام ، وبناه مسكنًا للشيخ المدرس بها "(١٣) ، وهذا النص يؤكد وجود مثل هذه المساكن فى دور الحديث لمدرسيها ، وأنه لم يقتصر وجودها على المدارس .

ومثل هذه المساكن كانت موجودة أيضًا فى الخوانق والربط . وفى ذلك ما ورد عن خانقاه سرياقوس التى أنشأها السلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٥هـ (١٣٢٤م) لتكون مقرًا لإقامة طلبة العلم والمتصوفة(١٤) .

أما المدارس ، فكانت السكنى فيها من الأركان الأساسية للمدرسة الإسلامية ، ويشير إلى ذلك ما ذكره صاحب الحوادث الجامعة عن المدرسة المستنصرية ، وأن هذه المدرسة قسمت أرباعًا ، فسلم ربع القبلة الأيمن للشافعية ، والربع الثانى يسرة القبلة للحنفية ، والربع الثالث يمنة الداخل للحنابلة ، والربع الرابع يسرة الداخل للمالكية ، وأسكنت بيوتها وغرفها وأجريت لهم الجرايات

الوافرة ، وكان بكل بيت يسكنه فقيه البساط والمنارة والنحاس ، وكان بالمدرسة حمام تتوافر فيه حاجياته .

وهكذا غدت المساكن الداخلية فى المدارس شيئًا أساسيًا ، ومن متطلباتها الضرورية ، حتى ذكر العماد الأصفهانى عنها ما نصه : " وسكن المدرسة النظامية ببغداد من جملة الشريعة رجالها "(١٥) ، والواقع أن المدرسة المستنصرية ببغداد بلغت فيها المساكن الداخلية غاية فى الفخامة والجودة ، وكان المحلقون فيها من الطلاب والمدرسين ينعمون بسخاء الخليفة وكرمه فى الإنفاق عليهم ، يقول ابن العبرى عن ذلك : " إن المدرسة المستنصرية لم يعمر الدنيا مثلها "(١٦) .

أما المساكن الداخلية فى بلاد الشام فإنها تعد مرفقًا مهمًا من مرافق مدارسها ودور التعليم المختلفة فيها ، وبخاصة فى العهدين الزنكى والأيوبى عندما نشطت حركة التعليم نشاطًا لم تشهد له بلاد الشام مثيلاً من قبل . وتعد المدرسة النورية الكبرى بدمشق وما احتوته من مساكن نموذجًا صادقًا لذلك .

وقد حدثنا ابن جبيرحديثًا ممتعًا وهو يصف إحدى مدارس حلب وما ألحق فيها من مساكن فقال : " ويتصل به - يعنى الجامع الكبير - من الجانب الغربى مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسنًا وإتقان صنعة ، فهما فى الحسن روضة تجاور أخرى . وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناء وغرابة صنعة ومن أظرف ما يلحظ فيها أن جدارها القبلى مفتح كله بيوتًا وغرفًا ولها طيقان يتصل بعضها ببعض ، وقد امتد بطول الجدار عريش مثمر عنبًا ، فحصل كل طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متدليًا أمامها ، فيمد الساكن فيها يده ويجنيه متكئًا دون كلفة ولا مشقة "(١٧) .

أما المدارس المصرية فى العهدين الأيوبى والمملوكى ، فقد شهدت تطورًا كبيرًا فى هذا الشأن ، وكانت مثالاً للفخامة والاتساع ، والعناية الفائقة حيث اشتهرت مجموعة منها بجودة مساكنها أكثر من غيرها ، فالمقريزى يصف التشاحن والتنافس بين الطلبة فى سكنى المدرسة الصاحبية البهائية التى أسسها الوزير

الصاحب على بن حنا سنة ٦٥٤هـ (١٢٥٦م)(١٨) ، بما أعد لإقامة الطلاب فيها ، بل ربما أقام الطالب منهم مشاركًا غيره فى البيت نفسه . يقول عنها المقريزى : " وكانت من أجل مدارس الدنيا ، وأعظم مدرسة بمصر يتنافس الناس من طلبة العلم فى النزول بها ويتشاحنون فى سكنى بيوتها حتى يصير البيت الواحد من بيوتها يسكن فيه الاثنان من طلبة العلم والثلاثة "(١٩) .

وتفيد هذه العبارة الأخيرة أن الغرفة الواحدة كانت مخصصة فى الأصل لطالب واحد إمعانًا فى توفير الهدوء والراحة لطالب العلم ، ولكن فى أوقات الزحام يمكن أن يسكن فى البيت الواحد إثنان أو ثلاثة . ولعل فى هذا كناية لما وفرته هذه المساكن من راحة ورفاهية للطلاب لكى يتمكنوا من مواصلة دراستهم بطمأنينة وراحة بال .

أما المدرسة الظاهرية التى أنشأها السلطان الظاهر بيبرس بالقاهرة سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٣م) فقد ذكر المقريزى عنها أن " للناس فى سكناها رغبة عظيمة ويتنافسون فيها تنافسًا يرتفعون به إلى الحكام "(٢٠) .

ومن ذلك أيضًا ما يرويه المقريزى من أن الشيخ جلال الدين البنانى الحنفى كان يدرس فى مدرسة الجاى التى أنشئت فى القاهرة سنة ٧٦٨هـ (١٣٦٧م) ويضيف إلى ذلك أنها كانت سكنًا له "(٢١) . ويقول فى الخطط أيضًا أن مدرسة مغلطاى الجمالى التى بنيت سنة ٧٣٠هـ (١٣٣٠م) كانت من أجل مدارس القاهرة ، وكان يسكنها أكبر فقهاء الحنفية(٢٢) .

وهذه المساكن تختلف فى جودتها وإمكانياتها من مدرسة لأخرى ، إذ اشتهرت كثير من المدارس بجودة مساكنها ، وانعكس ذلك على إقبال طلبة العلم عليها ، ونشاط الحركة التعليمية فيها ، كما حدث فى المدرسة الحلاوية بحلب التى تميزت بجودة مساكنها فشهدت إقبالاً كبيرًا عليها .

و لم تكن المساكن الداخلية مقصورة على الطلبة فحسب وإنما ضمت غيرهم من العلماء والمدرسين إذ يذكر ياقوت الحموى أن الشاعر محمد بن إسحق الزوزنى

(ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م) كان يسكن مدرسة السيورى بياعذرا (محلة بنيسابور) وكان يسكن بها أيضًا جماعة من الأئمة(٢٣) .

ولما وصل ابن ظفر الصقلى (ت ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م)(٢٤) ، إلى المشرق الإسلامى ودخل حلب أقام فى مدرسة ابن أبى عصرون ، وظل بها حتى وقعت فتنه بين السنة والشيعة بحلب فخرج منها إلى حماة(٢٥) .

كذلك أقام الإمام أثير الدين أبو حيان الغرناطى النحوى الكبير بعد قدومه إلى القاهرة بالمدرسة الصالحية بها(٢٦) .

ومما يشار إليه هنا أنه لم يكن من الضرورى أن يقيم المدرس بالمدرسة التى يتولى التدريس فيها ، فقد يكون سكنه فى مدرسة ، وهو يدرس بأخرى . من ذلك ما ذكره ياقوت الحموى عن أسعد بن مسعود العتبى وأنه له مجلس إملاء فى جامع المنيعى بنيسابور ويسكن فى مدرسة البيهقى(٢٧) .

الخدمات المتوافرة فى المساكن :

كان الساكنون فى المساكن الداخلية فى المدارس الإسلامية ينعمون إلى جانب إقامتهم فى هذه المساكن بخدمات متعددة ومتنوعة ، وهى خدمات تختلف من مدرسة إلى أخرى تبعًا لظروف أوقافها ، وشروط واقفيها ، كانت أبرز تلك الخدمات تتمثل فيما يلى :

١ - الجرايات أو الرواتب :

كان يقدم للطلبة فى السكن الداخلى المعاليم أو الرواتب الشهرية .

٢ - الطعام واللباس :

كما أنه كان يقدم لهم الطعام الذى يعد فى مطابخ خاصة داخل المدارس يقوم به طهاة مختصون ، وكثيرًا ما تشير وقفيات المدارس إلى كثير من الأطعمة التى توفر للطلاب الساكنين فيها . فهذه حجة السلطان حسن بن قلاوون تشير إلى أنه كان يقدم لطلاب السكن الداخلى " خبز ، وأرز ، وعسل ، وحبوب ، وحب رمان ، وغير ذلك "(٢٨) .

كما كانت توفر الألبسة لساكنى المدارس طيلة مدة إقامتهم(٢٩) .

٣ - الرعاية الطبية :

لم يهمل مؤسسو المدارس الرعاية الطبية الشاملة للمدرسين والطلبة ومن معهم من أصحاب الوظائف بالمدرسة سواء كانوا من المقيمين فيها أو فى خارجها. فهذه المدرسة المستنصرية ببغداد كان من شروط وقفها أن يكون فيها طبيب يطبب من يعرض له مرض من أرباب هذا الوقف ، ويعطى المريض ما يوصف له من أدوية وأشربة وغير ذلك(٣٠) .

كذلك جاء فى حجة السلطان حسن بن قلاوون أن يرتب الناظر (ناظر الوقف فى المدرسة طبيبين يتناوبان فى الحضور إلى المدرسة يوميًا " يداوى من يحتاج إلى المداواة من أرباب الوظائف والطلبة المقيمين بالأماكن ومن يحضر إليها من الطلبة وأرباب الوظائف ممن ليس له سكن ، ويتوجه إليه الطبيب فى مكان إقامته ولا يكلف المريض الحضور إلى الطبيب "(٣١) .

٤ - الحراسة والنظافة والإنارة :

لم يكن الدخول والخروج من المساكن الداخلية يتم عشوائيًا ، بل كان يتم وفق نظام دقيق وضعه القائمون على هذه المساكن حيث كان هناك حرس يلازم باب المدرسة لصيانتها ، وحفظ ما فيه من أثاث ومتاع ، ولمراقبة الداخلين إليها والخارجين منها ، وقد أعطى صلاحية لمنع من لا يقيمون فيها أو غير المرغوب فيهم من الدخول إليها ، ويشير المقريزى إلى أنه على البواب أن " لا يُمكن غريبًا يصعد إليها "(٣٢) ، وعلى البواب أن يكون يقظًا أمينًا ، ولا يترك الباب إلا لعذر على أن يستخلف من يقوم مقامه فى حال غيبته(٣٣) .

أما الفراشون فكانوا يتولون عملية تنظيف المدرسة ومساكنها الداخلية ، من كنس ورش وتنظيف الفرش ونفضها ، وكثيرًا ما كانت تلك الأعمال توزع بينهم بالتناوب . كما كان هناك القومة الذين يتولون الإشراف على إنارة المدرسة ومساكنها الداخلية وتعمير القناديل للطلبة ، وعمل الصيانة لها من المسح والتنظيف(٣٤) .

شروط المساكن وآدابها :

يذكر هنا أن السكنى فى هذه المساكن لم يكن يتم عشوائيًا دون تنظيم ، ومراقبة ، وإنما كان يتم فى الغالب وفق ضوابط وترتيبات دقيقة يضعها ويشرف عليها القائمون على هذه المساكن ، حيث وضع بعض الواقفين للمدارس شروطًا لساكنى بيوتها كأن يكون مثلاً أعزباً غير متزوج ، وألا يبيت خارجها إلا أيامًا معدودات يحدد الواقف عددها ، إلى غير ذلك من الشروط والضوابط .

وقد حرص الفقهاء المسلمون من خلال كتاباتهم عن هذه الآداب والشروط كابن جماعة مثلاً على تحديد العلاقة بين الطلبة والمدرسين الساكنين فى المدرسة ، والمحافظة على مبناها وصيانته ، والحفاظ على سمعة المدرسة ، ومن ينتمى إليها أو يسكن فيها ، وذلك من خلال مجموعة آداب وشروط فرضوها على من ينوى السكن فى مثل هذه المساكن .

وقد وضعت تلك الشروط والقواعد لتنظيم السكن فى تلك المساكن بشكل دقيق ، بحيث تراعى حالة السكن الصحية ، واختيار المكان الملائم ، كما تراعى المستوى الأخلاقى للطلبة عند اختيار أماكن سكناهم بالمدرسة مما يضمن حسن العلاقة بين جميع الساكنين(٣٥) .

من ذلك ما ورد فى وثيقة مدرسة السلطان برقوق بالقاهرة إذ نصت على " أن يكون من هو ساكن بهذه المدرسة من الطلبة الصوفية وأرباب الوظائف منهم، عزبًا غير متزوج ، وأن يبيت بها ، ويسامح بالمبيت خارجها خمس ليال من كل شهر "(٣٦) .

ولا زالت أنظمة المعاهد الداخلية فى عصرنا تسير على هذا النمط ، فتسمح للطالب بالمبيت خارج السكن لبضعة أيام فى الشهر ، وذلك لزيارة الأهل أو قضاء بعض الحاجات أو للنزهة أو للترويح عن النفس ، وتغيير جو المدرسة الرتيب ، إلى غير ذلك من الاعتبارات التى كانت واضحة لدى واقفى المدارس الإسلامية(٣٧) .

أما إذا أراد أحد الساكنين بالمدرسة الزواج ، فكان يسمح له بترك مسكنه بها ليحل محله أحد العزاب . كذلك كان لا يسمح لأحد الساكنين الجمع بين بيتين ، ويستثنى من ذلك المدرسون إذ كان يسمح لهم وعائلاتهم بالإقامة فى مساكن المدرسة .

واستحب الفقهاء من ساكنى المدارس أن يبادروا بإخلاء مساكنهم حين يبلغون غايتهم من تحصيل العلم ليتيحوا لغيرهم من الطلاب فرصة الإقامة بها . قال ابن جماعة فى ذلك : " واللبيب المحصل يجعل المدرسة منزلاً يقضى وطره منه ثم يرتحل عنه ... فإن المدارس وأوقافها لم تجعل لمجرد المقام والعشرة ولا لمجرد التعبد بالصلاة والصيام كالخوانك ، بل لتكون معينة على تحصيل العلم والتفرغ له، والتجرد عن الشواغل فى أوطان الأهل والأقارب "(٣٨) .

وقد يشترط الواقفون أن يسكن بيوت المدرسة فقط المرتبون بها دون غيرهم لذا ، فقد ذكر ابن جماعة أنه : " إذا حصر الواقف سكنى المدرسة على المرتبين بها دون غيرهم لم يسكن فيها أحد غيرهم "(٣٩) .

وكانت هناك تنظيمات وآداب تتعلق بسكنى المدارس . طالب المشرفون من يسكنها الالتزام بها ، وقد حافظت تلك الآداب على حرمة المدارس ومساكنها ومكنت القائمين فيها من أداء وظائفهم على أكمل وجه . ويذكر ابن جماعة بعض هذه الآداب فيما يلى : -

- أنه إذا حصر الواقف سكنى المدارس على المرتبين بها دون غيرهم لم يسكن فيها غيرهم فإن فعل كان عاصيًا ظالمًا بذلك ، وإن لم يحصر الواقف ذلك فلا بأس إذا كان الساكن أهلاً لها(٤٠) .

- وإذا سكن فى المدرسة غير مرتب بها فليكرم أهلها ، ويقدمهم على نفسه فيما يحتاجونه إليه منها ويحضر درسها لأنه أعظم الشعائر المقصودة ببنائها ووقفها لما فيه من القراءة والدعاء للواقف والاجتماع على مجلس الذكر وتذاكر

العلم فإذا ترك الساكن فيها ذلك فقد ترك المقصود ببناء مسكنه الذى هو فيه . وذلك يخالف مقصود الواقف ظاهرًا(٤١) .

- ومن الآداب لزوم حضور الدرس ، فقد ذكر ابن جماعة أن الساكن فى المدرسة إن لم يحضر الدرس لزمه الغياب عنها وقت الدرس لأن عدم حضوره الدرس مع وجوده داخل المدرسة من غير عذر فيه إساءة أدب وترفع على الطلاب واستغناء عن فوائدهم واستهتار بجماعتهم ، وإن قدر له الحضور فى المدرسة فى حال انعقاد الدروس ، فإنه يلزمه عدم الخروج من بيته إلا لضرورة ، ولا يتردد إليه مع حضورهم ولا يدعو إليه أحدًا أو يخرج منه أحدًا ، ولا يتمشى فى المدرسة أو يرفع صوته بقراءة أو تكرار أو بحث رفعًا منكرًا أو يغلق بابه أو يفتحه بصوت ونحو ذلك لما فى ذلك كله من إساءة الأدب على الحاضرين والحمق عليهم(٤٢).

- ومن الآداب ألا يشتغل فيها بالمعاشرة والصحبة ويرضى من سكنها بالسكة والخطبة بل يقبل على شأنه وتحصيله وما بنيت المدرسة له(٤٣) .

واللبيب المحصل يجعل المدرسة منزلاً يقضى وطره منه ، ثم يرتحل عنه فإن صاحب من يعينه على تحصيل مقاصده ويساعده على تكميل فوائده وينشطه على زيادة الطلب ويخفض عنه ما يجد من الضجر والنصب ممن يوثق بدينه وأمانته ومكارم أخلاقه فى مصاحبته فلا بأس بذلك بل هو حسن إذا كان ناصحًا فى الله غير لاعب ولا لاه(٤٤) .

- وليكن له أنفة من عدم ظهور الفضيلة مع طول المقام فى المدارس ومصاحبة الفضلاء من أهلها وتكرر سماع الدروس فيها وتقدم غيره عليه بكثرة التحصيل ، وليطالب نفسه كل يوم باستفادة علم جديد ، ويحاسبها على ما حصله فيها ليأكل مقرره فيها حلالاً(٤٥) .

- ويلزم على الساكنين فى هذه المدارس مراعاة أصولها وسبب بنائها ، فإن المدارس وأوقافها لم تجعل لمجرد المقام والعشرة ، ولا لمجرد التعبد بالصلاة والصيام

كالخوانك بل لتكون معينة على تحصيل العلم والتفرغ له والتجرد عن الشواغل فى أوطان الأهل والأقارب . والعاقل يعلم أن أبرك الأيام عليه يوم يزداد فضيلة وعلمًا ويكسب عدوه من الجن والإنس كربًا وغمًا(٤٦) .

- ومن الآداب المشهورة أن يلزم أهل المدرسة التى يسكنها بإفشاء السلام وإظهار المودة والاحترام ، ويراعى لهم حق الجيرة والصحبة والأخوة فى الدين والحرفة لأنهم أهل العلم وحملته وطلابه .

ويتغافل عن تقصيرهم ويغفر زللهم ، وستر عوراتهم ويشكر محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم .

فإن لم يستقر خاطره لسوء جيرتهم وخبث صفاتهم أو لغير ذلك فليرتحل عنها ساعيًا فى جمع قلبه واستقرار خاطره وإذا اجتمع قلبه فلا ينتقل من غير حاجة، فإن ذلك مكروه للمبتدئين جدًا(٤٧) .

- ومن آداب سكنى المدارس اختيار من يجاوره ، وأن يتخير إن أمكن أصلحهم حالاً ، وأكثرهم اشتغالاً وأجودهم طبعًا وأصونهم عرضًا ليكون معينًا له على ما هو بصدده(٤٨) .

وتوزيع المساكن حسب الأعمار والقدرة أمر اهتمت به المساكن الإسلامية إذ جعلت المساكن العالية لمن لا يضعف عن الصعود إليها ، وأما الضعيف والمتهم ومن يقصد الفتيا والاشتغال عليه فالمساكن السفلية أولى بهم(٤٩) .

والمراقى التى تكون قريبة من الباب أو من الدهليز أولى بالموثوق بهم أما المراقى الداخلة التى يحتاج فيها إلى المرور بأرض المدرسة أولى بالمجهولين والمتهمين(٥٠) .

والأولى ألا يسكن المدرسة وسيم وجه أو صبى ليس له فيها ولى فطن وألا يسكنها نساء فى أمكنة تمر الرجال على أبوابها أولها كوى تشرف على ساحة المدرسة . وينبغى للفقيه ألا يدخل إلى بيت من فيه ريبة أو شر أو قلة دين ولا

يدخل إليه من يكرهه أهلها أو من ينقـل سيئات سـكانها أو ينـم عليهـم أو يوقـع بينهم أو يشغلهم عن تحصيلهم ولا يعاشر فيها غير أهلها(٥١) .

وإذا سكن فى البيوت العليا خفف المشى والاستلقاء عليها ووضع مـا يثقـل كيلاً يؤذى من تحتـه . وإذا اجتمـع اثنـان مـن سـكان العلـو أو غيرهم فـى أعلـى الدرجة بدأ أصغرهما بالنزول قبل الكبير ، والأدب للمتـأخر أن يلبـث ولا يسـرع فى النزول إلى أن ينتهى المتقدم إلى آخر الدرجة مـن أسـفل ثـم ينـزل ، فـإن كـان كبيرًا تأكد ذلك وإن اجتمعا فى أسفل الدرجـة للطلـوع تـأخر أصغرهمـا ليصعـد أكبرهما قبله(٥٢) .

وألا يتخذ باب المدرسة مجلسًا بل لا يجلس إذا أمكن إلا لحاجة أو فى نـدرة لقبض أو ضيق صدر ولا فى دهليزها المهتوك إلى الطريق ، فقد نهـى عـن الجلـوس على الطرقات ، وهذا منها أو فى معناها لا سيما إن كان ممن يستحياً منـه أو ممن هو فى محل تهمة أو لعب ، ولأنها فى مظنـة دخـول فقيـه بطعامـه وحاجتـه فربمـا استحياً من الجالس أو يكلف سلامه عليهم ، وفى مظنـة دخـول نسـاء مـن يتعلـق بالمدرسة ، ويشق عليه ذلك ويؤذيه ولأن فى ذلك بطالة وتبذلاً(٥٣) .

وألا يكثر التمشى فى سـاحة المدرسـة بطـالاً مـن غـير حاجـة إلى راحـة أو رياضة ، أو انتظار أحد ، ويقلل الدخول والخروج مـا أمكنـه . ويسـلم علـى مـن بالباب إذا مر به(٥٤) .

وهذه التوصيات فى اختيـار غـرف السـكن ونوعيـة السـاكنين ، وأسـلوب الدخول والخروج من وإلى المساكن تؤكد حرص الفقهـاء والمربـين المسـلمين علـى راحة الساكنين وملاحظتهم الدقيقة للفروق الفرديـة بينهـم مـن النواحـى الجسـمية والعقلية والاجتماعية والنفسية والسلوكية بشكل عام .

* * *

و لم تغفل آداب سكنى المدراس عن الإشارة إلى جملة من الآداب المتعلقة بالمحافظة على متعلقات المسكن وحاجياته ، وصيانة المبانى المدرسية وتجهيزاتها ، انطلاقًا من أنها مؤسسات خيرية عامة رصدت للصالح العام . من ذلك ما ذكره ابن جماعة بأنه يجب على الساكن ألا يدخل ميضأتها(٥٥) العامة عند الزحام من العامة إلا لضرورة لما فيه من التبذل ، ويتأنى عنده ، وطرق الباب أن كان مردودًا طرقًا خفيفًا ثلاثًا ثم يفتحه بتأن ، ولا يستجمر بالحائط فينجسه ولا يمسح يده المتنجسه بالحائط أيضًا(٥٦) .

ومنها ألا يتوضأ من الفسقية لأنها مخصصة للشراب أو الصهريج أو الزير ، وعلى سطوح المنازل(٥٧) .

وعليه المحافظة على الفرش والحصر والقناديل ، والأثاث والمبانى باعتبارها ملكًا عامًا للمسلمين لايجوز لأحد أن يتصرف فيها كما لو كانت من أملاكه الخاصة(٥٨).

ومن الآداب أيضًا ألا ينظر فى بيت أحد فى مروره من شقوق الباب ونحوه. ولا يلتفت إليه إذ كان مفتوحًا . وإن سلّم سلّم وهو مار به من غير التفات، ولا يكثر الإشارة إلى الطاقات لاسيما إن كان فيها نساء . وألا يرفع صوته جدًا فى تكرار أو نداء أحد أو بحث كيلاً يشوش على غيره بل يخفضه ما أمكنه مطلقًا لا سيما بحضور المصلين أو حضور أهل الدرس وأن يتحفظ من شدة وقع القبقاب(٥٩) . والعنف فى إغلاق الباب ، وإزعاج المشى فى الدخول والخروج والصعود والنزول وطرق باب المدرسة بشدة لا يحتاج إليها ونداء من بأعلى المدرسة من أسفلها إلا أن يكون بصوت معتدل عند الحاجة(٦٠) .

وإذا كانت المدرسة مكشوفة إلى الطريق السالك من باب أو شباك تحفظ منها عن التجرد عن الثياب ، وكشف الرأس الطويل من غير حاجة ، كما نهى الساكن عن سلوك أى سلوك يعاب من العادات القبيحة ، ومنها الأكل ماشيًا وكلام الهزل غالبًا والبسط بالنعل ، وفرط التمطى والتمايل على الجنب والقفا والضحك الفاحش بالقهقهة وألا يصعد إلى سطحها المشرف من غير حاجة أو ضرورة(٦١) .

وقد حافظت تلك الشروط والآداب على حرمة المدارس ومساكنها ، ومكنت القائمين عليها والعاملين بها من أداء وظائفهم على أكمل وجه وأتمه .

الخاتمة :

وبعد هذا العرض لفكرة المساكن الداخلية فى المدارس الإسلامية ، وما وصلت إليه تلك المساكن من تطور ورقى فى إعدادها وتنظيمها تتضح أهميتها والأثر الذى تركته فى نشاط حركة التعليم على مر العصور الإسلامية إذ يتأكد هنا أن هذه المساكن كانت من العوامل الأساسية لنشاط حركة التعليم عند المسلمين كما كانت سببًا فى إقبال طلبة العلم على الدراسة نظرًا لما توفره تلك المساكن بإمكانياتها المتاحة من التفرغ لطلب العلم .

أما ما تتصف به من تنظيمات وآداب هدفت إلى الارتقاء بخدماتها ، وتوفير الهدوء والراحة للساكنين فيها من الطلبة والمدرسين على حد سواء فيؤكد سبق المدارس الإسلامية منذ زمن مبكر فيما تنادى به التنظيمات الحديثة من ضرورة تطبيق سلوكيات تربوية معينة فى مثل هذه المنشآت لتتضح العلاقة بين الطلاب أنفسهم من ناحية ، وبينهم وبين أساتذتهم ممن يقيمون معهم داخل هذه المساكن من ناحية أخرى .

الهوامش

(١) الرحلة ، ص٢٥٨ .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ٤١٨/١ .

(٣) المقريزى ، الخطط ، ٢٧٣/٢ .

(٤) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ١ / ٤٥٨ - ٤٥٩ .

(٥) السبكى ، طبقات الشافعية الكبرى ، ٦ / ١٤٢ .

(٦) تنسب هذه المدرسة للخليفة العباسي المستنصر با لله أبى جعفر منصور بن الظاهر محمد بن الناصر أحمد ، ولد سنة ٥٨٨هـ (١١٩٢م) وبويع بالخلافة سنة ٦٢٣هـ (١٢٢٦م) ودامت خلافته حتى وفاته فى سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢م) وقد اشتهر المستنصر با لله بأعماله العمرانية الكثيرة التى لا يزال بعضها باقيًا حتى اليوم ومنها هذه المدرسة . (سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ٨ / ٧٣٩ ، ابن الفوطى ، الحوادث الجامعة ، ص١٥٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣ / ١١٣ . ١٥٩) .

(٧) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص١٨٥ .

(٨) تاريخ التربية الإسلامية ، ص ٣٨٣ .

(٩) الرحلة ، ص ٢٦ .

(١٠) نفسه ، ٢٧ .

(١١) سيدة إسماعيل كاشف " الجامع الأزهر ودوره فى نشر الثقافة العربية الإسلامية " فى : تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية – أعدها للنشر عبد العظيم رمضان – القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩٢م) – ص٤٥ – ٨٥ – سلسلة تاريخ المصريين / ٥١).

(١٢) الخطط ، ٢ / ٢٧٦ .

(١٣) البداية والنهاية ، ٢٣/١٣ .

(١٤) المقريزى ، الخطط ، ٢ /٢٨٥ .

(١٥) زبدة النصرة ، ص٦٢ .

(١٦) مختصر الدول ، ص٢٤٧ .

(١٧) الرحلة ، ص ٢٢٧ – ٢٢٨ .

(١٨) هو : الوزير الصاحب بهاء الدين على بن محمد بن سليم بن حنا وزير الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، ومدبر شؤونه المتوفى فى ذى الحجة سنة ٦٧٧هـ (١٢٧٩م) .

(١٩) الخطط ، ٢ / ٣٧١ .

(٢٠) الخطط ، ٢ /٣٧٩ .

(٢١) الخطط ، ٢ / ٣٩٩ .

(٢٢) الخطط ، ٢ / ٣٩٢ .

(٢٣) معجم الأدباء ، ١٨ / ٢٠ .

(٢٤) هو أبو جعفر الصقلى الأصل ، المكى ، النحوى اللغوى الأديب ، صقلى المولد مكى النشأة رحل إلى مصر وأفريقية ، ثم تنقل بين البلاد حتى حط رحاله فى حلب وأقام فيها يدرس بالمدرسة العصرونية الشافعية ، ثم انتقل إلى حماة فى آخر عمره ومات بها ، (القفطى ، إنباه الرواة ، ٣/٧٤ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٤/٣٦٥ - ٣٩٧) .

(٢٥) ياقوت ، معجم الأدباء ، ١٩ / ٤٨ .

(٢٦) المقرى ، نفح الطيب ، ١/٥٨٩ .

(٢٧) ياقوت ، معجم الأدباء ، ٦ / ٤٠٤ .

(٢٨) عبد الغنى محمود عبد العاطى ، التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، ص ٣٠٣ .

(٢٩) محمد عادل عبد العزيز ، التربية الإسلامية فى المغرب أصولها المشرقية وتأثيراتها الأندلسية ، ص٥٣ .

(٣٠) ابن الفوطى ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة ، ص ٥٩ .

(٣١) عبد الغنى محمود ، مرجع سابق ، ص٢٠٦ ، نقلاً عن حجة حسن بن قلاوون ، ٨٨١ أوقاف .

(٣٢) الخطط ، ٢ /٣٨٢ .

(٣٣) محمد منير سعد الدين ، المدرسة الإسلامية فى العصور الوسطى ، ص١١٧ .

(٣٤) المرجع نفسه ، ص١١٧ .

(٣٥) عبد الغنى محمود ، مرجع سابق ، ص٣٠٥ .

(٣٦) المرجع نفسه ، ص٣٠٦ .

(٣٧) على سالم النباهين ، نظام التربية الإسلامية فى عصر دولة المماليك فى مصر ، ص٣١٧ .

(٣٨) ابن جماعة ، التذكرة ، ٢٢٠ .

(٣٩) التذكرة ، ٢١٠ والراتب عند المحدثين ما يقدم مكافأة لمن هو فى منصب أو خدمة وبه المرتبون هم الذين يجرى عليها أدرار من أوقاف المدرسة فيقيمون فيها .

(٤٠) تذكرة ، ص ٢١٥ ، والمرتبون هم الذين يجرى عليهم أدرار من أوقاف المدرسة ، فيقيمون فيها .

(٤١) التذكرة ، ٢١٥ - ٢١٦ .

(٤٢) تذكرة السامع ، ص٢١٦ .

(٤٣) نفسه ، ٢١٦ .

(٤٤) نفسه ، ٢٢٠ .

(٤٥) نفسه ، ٢٢٠ .

(٤٦) نفسه ، ٢٢٠ - ٢٢١ .

(٤٧) التذكرة ، ص ٢٢١ .

(٤٨) نفسه ، ٢٢٣ .

(٤٩) نفسه ، ٢٢٣ - ٢٢٤ .

(٥٠) التذكرة ، ٢٢٤ .

(٥١) نفسه ، ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٥٢) نفسه ، ٢٣٠ - ٢٣١ .

(٥٣) نفسه ، ٢٣١ .

(٥٤) نفسه ، ٢٣١ - ٢٣٢ .

(٥٥) الميضأة : مكان الاغتسال والوضوء .

(٥٦) التذكرة ، ٢٣٢ .

(٥٧) ابن الحاج العبدرى ، مدخل الشرع الشريف على المذاهب الأربعة ، ص٢١٣ - ٢١٧ .

(٥٨) عبد الغنى محمود ، مرجع سابق ، ٣٠٥ .

(٥٩) القبقاب : الحذاء المصنوع من الخشب .

(٦٠) ابن جماعة ، نفسه ، ٢٣٣ .

(٦١) نفسه ، ٢٣٣ - ٢٣٤ .

الحياة الاجتماعية بالمغرب الأقصى
فى عهد الدولة الوطاسية
٨٦٩ - ٩٦٢هـ/١٤٦٥ - ١٥٥٤م

د. نوال على محمد عبد العزيز(*)

مقدمة :

عاصرت الدولة الوطاسية أحداثًا تاريخية هامة وفاصلة ، سواء على المستوى المحلى ، أو العالمى .

ففى هذه الفترة اشتدت حركة الاسترداد المسيحى بالأندلس ، ومحاولة البرتغال والأسبان الاستيلاء على ثغور المغرب البحرية ، وبدأ النشاط الأيبيرى على بلاد المغرب مبكرًا ، فاستولت البرتغال على سبتة عام ٨١٨هـ/١٤١٥م ، وواصلوا استيلائهم بعد ذلك على بقية ثغور المغرب . وفى عام ٨٩٨هـ/١٤٩٢م سقطت غرناطة آخر معاقل المسلمين بالأندلس ، وتوالت الأحداث التاريخية متتالية تدق بشدة معلنة نهاية العصور الوسطى ، فنشطت حركة الكشوف الجغرافية وجاء كشف طريق رأس الرجاء الصالح عام ٩٠٢هـ/١٤٨٩م كرد فعل أوربى لسيطرة المسلمين على منافذ التجارة العالمية فى تلك الفترة . كما عاصر الوطاسيون امتداد التوغل العثمانى على الشمال الأفريقى وامتلاك الأتراك للجزائر وانتهت هذه الحقبة بسيطرة العثمانيين على معظم العالم الإسلامى شرقه وغربه ، باستثناء المغرب الأقصى . وعانى المغرب الأقصى فى تلك الفترة ، من الانهيار الداخلى الذى أصابه جزءًا من الانهيار العام الذى عم المغرب والمشرق فى ذلك الوقت .

ففى نهايات القرن الخامس عشر الميلادى تفتت وحدة الشمال الأفريقى فاستقلت عن تونس طرابلس وبوجى وقسطنطينية ، وعارضت وهران تلمسان و لم

(*) باحثة – عضو اتحاد المؤرخين العرب

تعترف مراكش بفاس ، وخضعت الواحات الواقعة جنوب توجورت حتى وادى دراو لسيطرة فروع الهلاليين المختلفة .

ومن المعروف أن الأوضاع الاجتماعية فى أى مجتمع تتأثر تأثيرًا كبيرًا بالأوضاع السياسية والاقتصادية فكان لانهيار الدولة الإسلامية فى الأندلس صداها على نواحى الحياة المختلفة فى بلاد الشمال الأفريقى بصفة عامة والمغرب الأقصى بصفة خاصة إذ ظهرت بعض الآثار الجوهرية على الحياة الاجتماعية فى بلاد المغرب الأقصى فى ذلك الوقت .

وقد عاصرت الدولة الوطاسية هذا الانهيار الذى ترك بصماته فى الحياة الاجتماعية فى المغرب الأقصى وما لحقها من تغيرات نتيجة انهيار الدولة الإسلامية فى الأندلس .

فبعد سقوط غرناطة عام ٨٩٨هـ/١٤٩٢م زحفت أعداد غفيرة من الغرناطيين على المغرب ، وأثر ذلك على التركيب السكانى لتلك المنطقة . وكان عدد كبير من هؤلاء الزاحفين من اليهود ، فشكل هؤلاء اليهود عنصرًا هامًا فى التركيب السكانى لبلاد المغرب ، ولعبوا دورًا هامًا فى الحياتين الاقتصادية والسياسة ، كما أحدثوا فسادًا فى المجتمع الفاسى بصفة خاصة بأخذهم الربا والتعامل بالغش فى البيع والشراء وفى إقليم شفشاون شمال المغرب دخل اليهود المدينة منذ تأسيسها على يد على بن راشد سنة ٨٧٦هـ/١٤٧١م ، حيث كانوا من جملة المهاجرين من الأندلس وقصدوها للآستسطان بها . واندمج اليهود فى المجتمع الإسلامى فى شفشاون اندماجًا كبيرًا ، وذكر أحمد بن عرضون أن اليهوديات كن يقمن بتعليم الحياكة للفتيات المسلمات ، وكن يدخلن بيوت المسلمين من أجل ذلك . كذلك ظهرت بعض العادات السيئة فى المناطق التى سيطر عليها البرتغال ، كشرب الخمر والزنا والتواكل والتماس البركات من الموتى بالقبور وغيرها .

وقدم صورة حية لهذه العادات بعض الفقهاء المعاصرين ومنهم الشيخ عبد الله محمد الهبطى ت ٩٦٣هـ/١٥٥٥م فيقول :

الدين ذاهب إلى الغروب   والكفر داخل إلى القلوب

إن العوام قد خرقوا الشريعة   وبدلوها كلها بالبدعة

وكل بدعة لهم كالبرهان   على فساد مالهم من إيمان

وكرد فعل على هذه الأمراض الاجتماعية والأحوال السياسية السيئة ، قدم بعض العلماء والفقهاء علاجًا لهذه الأمراض ، فتحدثوا عن القدوة الحسنة من السلف الصالح ، وعن دور حركة الجهاد وضرورة الإسراع لطلب الشهادة ومن العلماء المجاهدين المعاصرين ، عبد الله محمد العنابى الدرعى ت ٩٢٢هـ/١٥١٦م الذى قام بدور عظيم فى جمع الأموال لإطلاق سراح الأسرى المسلمين من أيدى الأعداء بعد سقوط غرناطة . كما تصدى لهذه البدع والانحرافات شيوخ الطرق الصوفية ، إذ وجدت الدعوة الصوفية صداها لدى المغاربة وتحمل شيوخ الزوايا الصوفية مهمة تبصير الناس بأمور دينهم وإشعال حماسهم الوطنى لرد المحتلين البرتغاليين المسيحيين .

وكان أن ظهر فى تلك الحقبة عدد من الطرق الصوفية ، منها طريقة الإمام الجزولى محمد بن سليمان السملالى الحسنى دفين مراكش ، والمتوفى سنة ٨٧٠هـ/١٤٦٩م ، وكان من تعاليمه لأصحابه تعريفهم بالعقيدة الإسلامية الصحيحة وهناك طريقة أخرى هى الطريقة الزروقية ، وصاحبها الشيخ زروق أحمد بن أحمد بن عيسى البرنسى ثم الفاسى المتوفى سنة ٨٩٩هـ/١٤٩٣م .

ولم يقتصر دور شيوخ التصوف على التبصير الدينى فحسب ، بل قدموا الرعاية الاجتماعية للطبقات الدنيا فى المجتمع ، فقاموا بحماية المظلومين وإيواء الفقراء وأبناء السبيل ، وكانت مواردهم للصرف على ذلك من أموال النذور والهدايا وغيرها .

وبعد هذه المقدمة ، يمكن أن نركز الحديث فـى صلـب البحـث فـى النقـاط الآتية :

- التركيب السكانى
- اضطراب الأوضاع الاجتماعية فى المجتمع المغربى .
- الاحتفالات والأعياد .
- تقاليد المآتم والوفاة .
- النظام الغذائى .
- تقاليد الزواج .
- بعض العادات والتقاليد البائدة .
- نظام التعليم .
- ازدهار الطرق الصوفية وحركة الجهاد الإسلامى .

التركيب السكانى :

قبل الخوض فى أعماق المجتمع المغربى فى تلك الفترة ، ومعرفة تقاليده وعاداته ، وأمراضه الاجتماعية وأفراحه وأطراحه ، نعرض للتركيب السكانى والبنية الأساسية لهذا المجتمع كنقطة بداية لدراسة الأحوال الاجتماعية ، فالسكان هم صانعو هذه الحياة .

ومن الصعوبة بمكان التحدث بصورة دقيقة عن سكان مملكة فاس فى ذلك العهد ، فالمصادر قليلة فى هذا الموضوع ، فضلاً عن إهمال الدراسات الاجتماعية بصورة عامة فى تلك الفترة ، القرن التاسع والعاشر الهجريين ، الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين والمعروف أن الدراسات الاجتماعية لم تلق اهتماماً كافيًا إلا منذ وقت قريب .

والغالب أن الرحالة المعاصرين ، كانوا عند ذكرهم لقبيلة أو فرع من قبيلة يصفونها فى إيطار الأحداث السياسية ، مثلما فعل « الحسن الوزان » فى وصفه، وهو معاصر ، إذ زار هذه المنطقة ، وأعطى أسماءًا لأهم القبائل وبعض فروعها كما كانت علية فى العصر الوطاسى(١) ووصف القبائل الرحل والمستقرة ، فتكلم عن استقرار بعضها فى سهول الهبط والحوز(٢) وبقاء البعض الآخر فى ممارسة حياة التنقل والترحال بحثًا عن الكلأ والماء ، واشتغال بعض القبائل المستقرة بالزراعة والتجارة فى الأنعام وخاصة الإبل ، والخيول ، وصيد الوعول والنعام والمها واللمط وغيرها من الحيوانات البرية(٣) .

ونرى أن الاضطرابات الداخلية والحروب التى واجهتها الدولة الوطاسية بالإضافة إلى الأوبئة أثرت على الحياة الاجتماعية والتركيب السكانى بصفة خاصة ففى الفترة الممتدة من أواخر القرن التاسع إلى بداية القرن العاشر الهجريين ، أوائل القرن الخامس عشر حتى أوائل القرن السادس عشر الميلاديين ، عرفت فاس أزمتين متتاليتين خلفتا عددًا كبيرًا من الضحايا وأدتا إلى انتشار الترحال والهجرة ففى سنتى ٨٤٦هـ /١٤٤١م ، ٨٧٣هـ/١٤٦٩م ، اجتاح مدينة فاس وباء الطاعون

مرتين ودام فى المدة الأولى حوالى ثمانية عشر شهرًا ، ووصل عدد الضحايا ما بين ٤٠٠٠ ، ٥٠٠٠ نسمة ، أما الطاعون الثانى فقد ترك حوالى ٤٠٠,٠٠٠ ضحية بفاس وحوالى ١٠٠,٠٠٠ بالبادية المجاورة لها وربما شاب هذه الأعداد بعض المبالغة ، ولكنها مع ذلك توضح مدى ضخامة الكارثة التى لحقت بسكان فاس وما حولها ونتج عنها خلل فى التركيب السكانى بها ، وأدى ذلك إلى هجرة أعدادًا كبيرة من السكان إليها فيما بعد . فبعد هذا الفراغ السكانى الذى أصابها حدث أن زحفت أعداد غفيرة من الغرناطيين بعد سقوط غرناطة بالأندلس عام ٨٩٨هـ/١٤٩٢م إلى المغرب وكان عدد كبير من هؤلاء المهاجرين من اليهود بعد أن اتخذ مسيحيو الأسبان الإجراءات التعسفية ضدهم(٤) فشكل هؤلاء اليهود عنصرًا هامًا فى البنية السياسية والاقتصادية خاصة ، وأحدثوا فسادًا اقتصاديًا فى المجتمع الفاسى كما ذكرنا(٥) .

وقد انقسم السكان إلى عدة عناصر ، منهم القبائل العربية التى استقرت فى المناطق الشرقية والغربية ، كما وجدت قبائل البربر من زناتة وهوارة بتامسنا . وفى ذلك العهد كثرت أعدادهم فبلغوا حوالى ألف نسمة ، منهم ستون ألف فارس ، ومائة ألف من المشاة(٦) .

يضاف إلى ذلك عناصر بشرية جديدة اندفعت إلى المغرب بعد عبورها مضيق جبل طارق ، نتيجة لحركة الاسترداد المسيحى بالأندلس ، وللقرب المكانى بينهما وضمت هذه العناصر مسلمين ويهود ومسيحيين ، استقر بعضهم بفاس وتطوان وسلا والرباط وشفشاون ، كما تجاور المسلمون واليهود فى عدة قرى ومدن(٧) ، والملاحظ أن ازدياد النسبة العددية لليهود فى هذا العهد نتجت عن هذه الهجرة الأندلسية .

وفى نهاية القرن التاسع الهجرى وبداية القرن العاشر منه (نهاية القرن الخامس عشر الميلادى) وبداية القرن السادس عشر الميلادى ، توزعت العناصر السكانية فى بعض المناطق بين القبائل العربية والبربرية ، وسادت العنصرية العربية

في منطقة « دكالة » و أصبحت تمثل أغلبية السكان ، وانتشرت اللغة العربية في هذه المنطقة ، فأصبحت اللغة الوحيدة السائدة والمستعملة بها(٨) .

وتفرعت القبائل العربية إلى ثلاث مجموعات كبرى(٩) فهناك قبائل شرقية وقبائل غربية بالإضافة إلى قبيلة عبدة ، وتكونت القبائل الشرقية من ست قبائل حسب موقعها كما يلي :

١ - **أولاد فرج** : سكنت شرق « أزمور » وجنوب نهر « أم الربيع » وبلغ امتدادها شرقًا إلى قرية « بنكير » و« تافوف » الواقعتين على مشارف « هسكورة السهل » وامتدت غربًا إلى ست مراحل شرق قرية « موكرس » واتصلت بأولاد عمران « السكاون » من ناحية الغرب . وبقيت هذه القبيلة محافظة على موقعها من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجريين السادس عشر إلى القرن العشرين الميلاديين ، وكان من فروعها أولاد زيد .

٢ - **أولاد عمران (السكاون)** : تمركزت حول قرية (السكاون) الشهيرة بسهل سيدى « بنور » ، وحول بحيرة « ورار » ، وامتدت شرقًا إلى الجبل الأخضر وغربًا إلى الساحل لتفصل ما بين أولاد فرج وأولاد « سبيطة »(١٠) .

٣ - **أولاد سبيطة** : انتشرت من « ازمور » و« سبيت » شمالاً إلى ضواحي المدينة الغربية جنوبًا ، وشرقًا حتى بداية منطقة أولاد عمران الجنوبية .

٤ - **أولاد بوعزيز** : وهم قليلو العدد ضئيلو الأهمية ، والدليل على ذلك ضيق رقعتهم وموطنهم جنوب « ازمور » على طول الساحل ، وحلت قبيلة أولاد عزيز العربية ، محل صنهاجة البربرية ويعرفهم البرتغال بأنهم « عرب أزمور » ولها فروع كثيرة أخرى(١١) .

٥ - **قبيلة أولاد عمران الجنوبية** : وهي تعيش جنوب « دكالة » ، وبفضل موقعها اتصلت بكل من الحوز ومراكش وكانت تلجأ إليهما في فترات الخطر .

٦ - **أولاد يعقوب** : وهى أكبر القبائل الشرقية وموقعها بين دكالة ونجد الكنتور، وهذا الموقع جعلها تسيطر على رقعة واسعة منعتها من الاصطدام مع جيرانها.

قبيلة الغربية : وموقعها يشمل المنطقة الممتدة من المحيط إلى شرق قرية « سرنو » حيث قبيلة أولاد عمران الجنوبية ومشارف « آسفى » جنوبًا وهى جارة لأولاد سبيطة ومشترايه ، ولكل من قبيلة أولاد عمران ، وعبدة ، وهذا الموقع جعلها فى حالة صدام مستمر مع جيرانها .

قبيلة عبدة : سكنت ضواحى « آسفى » الشرقية ، والجنوبية(١٢) .

أما القبائل البربرية الباقية بدكالة « فتتمثل فى مشراية » وهى أكبر القبائل البربرية بها فىالقرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى . أما بنو ماكر فقد استقروا شرق« آسفى » وإلى جانب ذلك ، قامت « ركراكة » حول جبل الحديد ، وعرف أفرادها بالجبليين(١٣) .

من العرض السابق يتضح أن المجتمع المغربى لم يكن مجتمعًا متجانسًا ، فقد تنوعت العناصر السكانية به ، وساده عدم التجانس السكانى وهذا كان من أسباب نجاح البرتغاليين فى اقتطاع بعض أجزائه ، كما سيتضح فى الجدول التالى ، وهذا النفوذ البرتغالى ، سيكون له أثره أيضًا على الأحوال الاجتماعية للمجتمع المغربى .

ذلك أنه من المعروف أن الأوضاع الاجتماعية فى أى مجتمع ، تتأثر تأثرًا كبيرًا بالحالة السياسية والاقتصادية ، لذلك سنجد أن الحياة الاجتماعية ، أثناء حكم الوطاسيين ، ونتيجة لما لحق الحياة السياسية والاقتصادية من اضطراب وفوضى ، لم تسلم هى الأخرى من السوء فعمت الفوضى وعدم النظام أرجاء المجتمع ، وخيم هذا الاضطراب وتلك الفوضى على وجه الحياة الاجتماعية ، فصبغته بصبغة مظلمة ، وظهرت الكثير من العادات الاجتماعية السيئة خاصة فى بعض المناطق النائية ، والبعيدة عن العاصمة ، والتى لم يصلها إلا النذر اليسير من الينبوع الحضارى ، حيث فى مناطق الأطراف يخفت بصفة عامة الضخ الحضارى

وتسود الهمجية ، كما ظهرت هذه العادات فى المناطق التى سيطرت عليها البرتغال وانتشرت بعض هذه العادات السيئة فى كثير من المناطق ، كعادة الوشم(١٤) وشرب الخمر والزنا(١٥) والتواكل والتماس البركات من الموتى بالقبور لانقاذ الأحياء ، وحل مشكلاتهم وبذلك كثرت البدع والمنكرات ، وسادت الدعاوى الكاذبة والضلالات ، وامتطى الانتهازيون والمغرضون هذه الموجة ، ووجهوها لخدمة مصالحهم ، فلبسوا ثياب الورع والتقوى ، وادعوا الولاية وإتيان الكرامات.

ويبرز هذا الوضع الاجتماعى المضطرب فى ثنايا كتب فقه النوازل المعاصرة(١٦) ، حيث وردت الكثير من الفتاوى فى هذه الكتب عن موقف الإسلام من هذه العادات السيئة التى شاعت فى المجتمع فى تلك الفترة .

وكما يتفتق الورد من الشوك ، واستنادًا للقاعدة القائلة بعدم وجود شر محض وخير محض ، فقد ظهر فى ذلك العصر الكثير من المصلحين ، الذين ساءتهم هذه الأوضاع ، وكان أغلب هؤلاء من العلماء والفقهاء(١٧) أخذ هؤلاء العلماء يبصرون الناس بأمور دينهم ، وتصحيح مفاهيم عقديتهم والعودة للكتاب والسنة وترك البدع . واستعانون فى ذلك بالكتابات الحماسية ونظم الشعر وألهبت هذه الكتابات الحماسة الوطنية ، والجهاد ، والغيرة على المجتمع ، فبدأوا يدافعون عن حدوده ويجاهدون فى سبيل انقاذه. وبذلك قدم العلماء قدوة حسنة ، وسموا بأفراد المجتمع فوق رذائله ، وضحوا بأنفسهم وأموالهم وأسرهم فى سبيل تلك الأهداف النبيلة . ويقدم الفقيه «عبد الله محمد الهبطى » ت ٩٦٣هـ/١٥٥٥م(١٨) أحد معاصرى هذه الفترة صورة حية لما كانت عليه أوضاع المجتمع من عادات وتقاليد واستحداث البدع(١٩) واعتقادهم فى الخرافات وانتشار عادات الخمر ويقدم العلاج لهذه الأمراض الاجتماعية ، فيتحدث عن القدوة الحسنة من السلف الصالح، وعن دور العلماء فى الجهاد والإسراع لطلب الشهادة، ويتأسف على الحالة التى تردى فيها المسلمون فى زمانه من تخاذل وتقاعس فى الدفاع عن أوطانهم(٢٠) وهناك نفر من العلماء ذاع صيتهم فى مجال الجهاد ، ولم يقتصر دورهم على الكلمة والقلم، بل حملوا السلاح وارتخصوا النفس والنفيس ، ومن هؤلاء:

- أبو محمد عبد الله الورياجلى ، الذى خصص الشتاء والربيع للعمل بالتدريس ، وجعل الصيف والخريف للخروج والمرابطة على الحدود(٢١) .

ومن العلماء المجاهدين أيضًا ، عبد الله العنابى الدرعى توفى سنة ٩٢٢هـ وقام بدور عظيم فى جمع الأموال لإطلاق سراح الأسرى المسلمين من أيدى الأعداء ، بعد سقوط غرناطة ، واستشهد غريقًا فى اليم وهو يقوم بهذه المهمة الجهادية(٢٢) .

ومثل آخر من الشيوخ المتصوفة وهو أبو عبد الله محمد بن يجيش التازى توفى سنة ٩٢٠هـ وامتاز بحماسته ووطنيته الفياضة فألف كتابًا يعرض فيه لأحوال المجتمع المغربى فى هذه الفترة ويدعو الناس للجهاد(٢٣) ووضع له عنوانًا ينم عما بداخله « تنبيه الهمم العالية على الصدقة والانتصار للملة الذكية وقمع الشر ذمة الطاغية »وهذا البيت من الشعر يوضح وجهة نظره فى الجهاد والحث عليه فيقول:

أين أسود العرب وأين رجاله　　　وأين ذو الخيل العناف والأعزة(٢٤)

وأخيرًا وليس آخر يأتى عالم ومؤرخ اجتمعت فيه كثير من المواهب ، فكان إمامًا وخطيبًا وأستاذًا متعدد الكراسى والمجالس العلمية ، وشيخًا للجماعة على نهج شيخه الورياجلى ، واتبع طريقه فى الجهاد ، فخرج عدة مرات لهذا الغرض ولم يمتنع عن الخروج حتى بلغ أرزل العمر ، حيث خرج فى آخر حياته ، وبعد أن بلغ من العمر عتيًا ، ورجع فى هذه المرة وهو محمولاً من شدة المرض ، ومات بعد قليل من عودته إلى فاس، وهو المجاهد أبو عبد الله بن غازى المنكاسى ثم الفاسى(٢٥).

الاحتفالات والأعياد :

وكان للاحتفالات الدينية نصيب وافر فى حياة المجتمع - سواء إسلامية، أو مسيحية ، فيحكى ابن عسكر عن والدته فيقول « ومن كرامتها رضى الله

عنها أنها كانت ليلة مولد النبى تعتنى به وتطعم فيه الطعام وتذبح فيه البقر والغنم حبًا فى النبى ﷺ ، على عادة فضلاء أهل المغرب فى ذلك »(٢٦) .

وبجانب الاحتفال بالمولد النبوى ، كان سكان فاس يحتفلون بمولد السيد المسيح عليه السلام ، فينشدون التراتيل الدينية ، ويتناولون عشاءً خاصًا فى ليلة هذه المناسبة ، وهو عبارة عن حساء مكون من الخضر كالقرنبيط واللفت والجزر، ويطبخون مجموعة من الخضر سوية على حالها كالفول وحبوب القمح ويأكلونها فى تلك الليلة ، فضلاً عن الحلوى الكثيرة وفى أول العام الجديد يلبس الأطفال الأقنعة على وجوههم ، ويطوفون بالشوارع مرددين بعض التراتيل الدينية طالبين من المحسنين بعض الفاكهة(٢٧) .

وفى يوم ٢٤ يونيو (حزيران) يوقد الناس فى كل الأحياء نارًا كبيرة وقودها من القش احتفالاً بعيد القديس حنا .

وهناك احتفالات تتم عند بداية ظهور أسنان الطفل ، فيدعو والدى الطفل الأطفال الآخرين لتناول الطعام ، ويسمى هذا الاحتفال « دنتيلا » وهى كلمة لاتينية تعنى التسنين(٢٨) .

تقاليد المآتم والوفاة :

بالغ المجتمع المغربى فى ذلك العصر فى مراسيم الوفاة ، فكان من عادة النساء عند وفاة عزيز لديهم ، كالزوج أو الأب أو الأخ ، لبس الملابس الثقيلة ، وتلطيخ الوجوه بالسخام يحصولن عليه من قيعان القدور . ويستدعون بعض الأفراد يطلق عليهم الأنذال ، يتجولون فى الشوارع لابسين ملابس النساء ، لكى يدقوا على دفوف مربعة الشكل ، ويرتجلوا أشعارًا حزينة فى مدح الفقيد ، تستدر الدمع من العيون ، وعند نهاية كل منزل تطلق النساء الصراخ والعويل بصوت عال ، ويخدشن الخدود والصدور إلى أن يسيل الدم غزيرًا ، وينزعن شعورهن ، وهن ينتحبن ويولولن . ويدوم الحال على هذا المنوال سبعة أيام وبعد أربعين يومًا

يستأنفن البكاء، لمدة ثلاثة. وهذه عادة شائعة عند العامة ، أما بالنسبة للخاصة من الأشراف فكانت عاداتهم فى هذه المناسبات أخف وطئًا من العامة ، إذ كان أهل الفقيد يبكون دون تعذيب أنفسهم و لم يكن من عادة النساء السير خلف الجنازة حتى من أقرب أقربائهن(٢٩) . ويؤكد الشعر المعاصر مشاهدات الوزان العيانية(٣٠) .

النظام الغذائى :

أنقسم المجتمع فى أساليبه الغذائية إلى قسمين ، من حيث التوزيع الطبقى ، فكان لكل طبقة نظامها الغذائى الخاص ، فمن عادة الشعب تناول اللحم الطازج مرتين فى الأسبوع ، أما علية القوم فيتناولونه مرتين فى اليوم طبقًا لشهيتهم وغذاء هذه الفئة أرفع فى مستواه من غذاء فئة عامة الشعب . وتمتع العلماء بمستوى أفضل من المعيشة ، وعدد الوجبات الغذائية اليومية ثلاث وجبات ، أولها الفطور ، وهى خفيفة تتكون عادة من الخبز والفواكه والحريره ، وفى الشتاء يتناولون شوربة القمح المطبوخ المملح . أما وجبة الغذاء فهى مؤلفة من الأطعمة الخفيفة كالخبز والسلطة والجبن والزيتون . وفى فصل الصيف تكون هذه الوجبة أكثر دسامة . وأما وجبة العشاء ، فيؤكل فيها الأطعمة الخفيفة كالخبز مع البطيخ أو العنب والحليب ويزاد اللحم المسلوق مع « الكسكسى » فى فصل الشتاء ، وهذا الأخير مصنوع من دقيق القمح بعد خلطة بالماء وتحويله إلى حبيبات صغيرة الحجم فى حجم الأرز وتطبخ هذه الحبيبات فى قدور مزدوجة تسمى «الكسكاسة» فى بلاد المغرب(٣١) ويختلف استخدام المواد الغذائية من بلد إلى آخر ، حسب المنتجات الزراعية لكل منطقة ، ففى منطقة « حاحة » يتناول سكانها خبز الشعير ودقيق الشعير بعد طبخه بالماء فى آنية بجوفة القعر ، ويصب عليه زيت أركان ، يغلى هذا الدقيق مع الحليب والزبدة فى فصل الصيف ، ويؤكل اللحم مطبوخًا مع البصل والفلفل أو « الكسكسى » الذى شاع كطعام شعبى منذ القدم(٣٢) .

وعند أكلهم الطعام يفترشون الأرض ، أو يجلسون أمام ما يعرف (بالطبلية) ويأكلون بأيديهم ، ويتناول جميع الضيوف طعامهم من نفس الوعاء ، دون

استخدام الملاعق ، ويحدث ذلك أيضًا عند تناولهم اللحم والحساء ، أى يشربونها من القطعة نفسها ويختار كل فرد قطعة من اللحم ويمسكها بيده ويستخدم أسنانه فى قطعها ويأكلون طعامهم على عجل ، ولا يشربون قبل أن يشبعوا ، ويتم الشرب من طاسة ماء تسع أقل من لترين تقريبًا(٣٣) .

ونتيجة للهجرات اليهودية من الأندلس ، حدث تغير فى بعض طرق الطهى ، وانتقل هذا التغير من اليهود للأسر المسلمة ، فكان مألوفًا فى أطعمة اليهود أكل الفلفل بعد قليه وتقطيعه وغمسه فى الخل ، وتحميضه مع بعض الحمضيات الأخرى كالباذنجان والجزر وكل ذلك كان معروفًا فى الأطعمة اليهودية قبل انتقالها للأسر المسلمة(٣٤) .

بعض العادات والتقاليد البائدة :

من المتعارف عليه ، أن طبيعة الظواهر الاجتماعية ، خاضعة للتغيير والتبديل باختلاف الظروف ، ومضى الزمن ، فهناك عادات وتقاليد اجتماعية كانت سائدة فى تلك الحلقة من القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) فى جبال غمارة ، وانمحت هذه التقاليد والعادات ولم يبق لها وجود ورغم ذلك فعن طريق المصادر الموثوق بها والمعاصرة الناقلة للواقع كما هو ، وبفضل ظهور كثير من المصلحين فى ذلك العصر ، والرافضين لهذه الظواهر رغبة فى التغيير للأفضل ، فقد سجلت تلك الظواهر التى كانت سائدة فى مجتمعهم تسجيلاً دقيقًا ونقلت بعضها بإيجاز والبعض الآخر حظى بالإسهاب .

وعلى رأس هؤلاء المصلحين الذين رغبوا فى الإصلاح والتغيير الشيخ أبو عبد الله بن محمد الهبطى السابق ذكره ، والشيخ أبو القاسم على بن خجو الحسانى ٩٥٦هـ(٣٥) والشيخ عبد الوارث اليلصوتى(٣٦) والشيخ أبو العباس أحمد ابن الحسن بن عوضون الزجلى ثم الشفشاونى ت ٩٢٢هـ(٣٧) وهؤلاء العلماء

المصلحون وصفوا كثيرًا من الظواهر الاجتماعية فى مجتمع غمارة(٣٨) فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) .

وبجانب هؤلاء المصلحين ، هناك مصادر أخرى صورت الحياة الاجتماعية فى تلك الفترة ، منها كتب النوازل ، إذ كان طالبى الفتاوى يعرضون قضاياهم على الفقهاء والمفتين ليعرفوا حكم الشرع ، وعرضت هذه القضايا بوضوح واقعى ، مثل عادات وتقاليد الوشم ، وشرب الخمر ، والرقص ، واقامة الولائم ، والحفلات والمآتم وغيرها من الأمور .

والشيخ عبد الله الهبطى فى « الفيتة السنية » انتقد بمرارة كثيرًا من عادات ذلك العصر . وكان هذا الانتقاد موجهًا لمختلف طبقات المجتمع حكامًا وامراء وفقهاء وقضاة، وعدول وعوام ، نساءًا ورجالاً ، ومن الظواهر التى وجه إليه انتقاده الشديد ، اختلاط النساء والرجال فى الأفراح والحفلات والمناسبات ، وعلى شواطئ الأنهار وسواحل البحر(٣٩) .

وأولى العادات المنتشرة والمشينة التى كانت تمارس فى جو يسىء للأخلاق والفضيلة ، عادة الوشم(٤٠) ، وانتشرت هذه العادة انتشارًا كبيرًا بين سكان جبل غمارة ، وخاصة بين النساء البدو ، حيث كانت توشم المرآة فى ريعان شبابها ، إذ كان الوشم مصدرًا للفخر والمباهاة بين النساء وبالغت بعضهن فى وشم أعضاء كثيرة من جسمها ، كالذقن والجبين والعنق والكتف والذراعين واليدين والقدمين وكان الوشامون يمارسون عملهم وسط المنازل حيث تجلس الفتاة بين يدى الوشام لابسة غلالة رقيقة على جسدها حتى لا تعوقه عن ممارسة عمله فى الوشم فى جو يسوده الاستهتار والابتذال ويتنافى مع الحشمة والوقار(٤١) .

كذلك انتشر شرب الخمور بين كثير من الناس ، وحاربها المصلحون الاجتماعيون . الفقهاء ، وفى مقدمتهم الشيخ الهبطى فى منظومته ، التى وصف فيها المظاهر والعادات السيئة التى كانت سائدة بين الناس ، ودعاهم إلى التخلى

عن الرذائل واتباع الطريق القويم ، وفى إحدى منظوماته عرض لتفشى هـذا الـداء بين الناس(٤٢) .

ولم يكتف الشيخ الهبطى بمحاربـة الرذائـل بمنظوماتـه ، بـل اتخـذ الأسـاليب المختلفة لذلك ، فكان يتنقل كواعظ ومرشد . ويكتب إلى زعماء القبائل وكبارها وذكر ابنه عبد الله الهبطى الصغير ١٠٠١ هـ فى ترجمته لوالـده أنـه أراق فـى سنة واحدة ألفين من دنان وجرار الخمر(٤٣) .

ومن العادات السيئة أيضًا ، الرقص المبتذل المستهر ، إذ كـان الرقـاص يـردد مقطوعات غنائية خليعة ، بالإضافة إلى أن حفلات الرقص كانت ماجنـه يصحبهـا الخمر والرقص مـع النسـاء وأغضبـت هـذه العـادات السيئة رجـال الديـن ودعـاة الإصلاح ، وخاصة أن أهم ثغور المغرب كانت واقعـة تحـت الاحـتلال البرتغـالى ، فكان يشق على المصلحين أن ينساق الناس وراء عواطفهـم وشـهواتهم متجـاهلين هذا الخطر القابع على أطراف بلادهم ، وما يفرضـه الواجـب الدينـى الوطنـى مـن أجل تحرير هذه الأطراف(٤٤) .

العادات والتقاليد :

اختلفت التقاليد المرتبطة بالزواج عند الطبقات ، فالطبقـات العليـا كـان لهـا تقاليدها الخاصةبها ، والطبقة المتوسطة لها عاداتها وتقاليدها أيضًا .

كان السائد عند علية القوم ، قبل عقد الزواج أن يسبقه خطبة ، وأن يدفـع الخاطب مهرًا كبيرًا يشمل النقد والعين ، بالإضافة إلى الجوارى ، وقسم المهر ، إلى قسمين : مقدمًا ومؤخرًا ، وكان المؤخر يقسـط علـى عـدة سنوات ووثيقـة عقـد زواج السلطان أحمد بن محمـد البرتغـالى علـى السـيدة الحرة بنـت علـى الراشـدى العلمى ، توضح كثيرًا من التقاليد التى سادت ذلك العصـر ، واشـتمل هـذا العقـد على صفحتين تضمنت التحميد والشكر لله . وعن المهر وقيمته ورد مـا يلـى فـى هذه الوثيقة " انعقد النكاح السعيد بين الخاطب والمخطوبـة علـى بركـة الله تعـالى

الكريمة الصلة والعائد ، وتوفيقه الذى ببركته تجرى على أجمل العوائد وعلى صداق مبارك ، جملته بين نقد أوجبته المياسرة اعجالاً ، وكالىء اقتضته المكارمة أمهالاً: أربعة آلاف أوقية ، من الدراهم النقرة الجارية السكية ، وعشرون مملوكة من وسط رقيق السودان ، وعشرة من البغال المتوسطة فى نوعها ، وحوائج تشتمل على ثوبى موبر ، وفضلتى وجه اسكندرانى وفضلتى غريض ، ومنيين وسببنيتين وأربعة المابة وأربعة مناشف ، وأربعة كنابش كل ذلك من الجديد العالى فى جنسه ، النقد المعجل لها فى ذلك شطر الدراهم والمماليك وجميع البغال والحوائج الموصرة ، والكالىء المؤجل شطر الدراهم المذكورة ، مقسطًا عليه بتقسيط السواء والاعتدال والتوالى والاتصال ، على أقاب عشرين عامًا من تاريخ هذا الانتظام .

وكان الزواج يعقد بولى وشهود ، فجاء فى هذه الوثيقة ما يلى " أنكحه أياها بإذنها ورضاها أخوها للأب السيد الشريف العالى القدر المنيف ، معدن الشرف والفخار ، ومنتهى المجد والوقار ... أبو عبد الله محمد وقبله الزوج نصره الله وارتضاه ، وألزمه نفسه الكريمة وأمضاه على ما قرره الشرع الواضح واقتضاه ، والله يؤلف بينهما على ما يحبه ويرضاه »(٤٥) أما التقاليد المتبعة عند الطبقة المتوسطة، فيقدمها الحسن الوزان ، فيقول " إذا رغب رجل فى الاقتران بامرأة ، فبعد موافقة والدها على الزواج ، يدعو أبو الخاطب أصدقاؤه للاجتماع فى المسجد ، ويصطحب معه كاتبًا عدل يقومان بتسجيل العقد ويحددان شروط المهر بحضور الخاطب والمخطوبة ، ويقدم متوسط الحال ثلاثين دينارًا نقدًا ،وأمة سوداء قيمتها خمسة عشر دينارًا ، وقطعة قماش من نسيج الحرير والكتان ذات ألوان عدة متصالبة ، ومناديل أيضًا ، وقماشًا مطرزًا بديعًا ، وبعض الحلى الفضية ، وأشياء أخرى كالأمشاط والعطور والمراوح الجميلة . بعد تسجيل العقد ، يدعو الخاطب جميع الحضور لتناول الغداء معه فيقدم لهم الزلابية واللحم المشوى والعسل ، أما والد المخطوبة فيدعو أصدقاءه لوليمة(٤٦) . ويواصل الحسن الوزان مشاهدته ، عن الواجبات والحقوق لوالد المخطوبة وللخاطب ، وعن موكب

العروس وعن الولائم التى تقام فى هذه المناسبة ، وهى ثلاث ولائم ، الأولى تكون يوم الزفاف والثانية فى ثانى يوم لهذا الزفاف ولا يدعى فيها إلا النساء ، أما الثالثة فبعد أسبوع من الزفاف ، ويحضرها والد العروس وكل أقاربها ، ويرسل والد العروس فى هذا اليوم ، هدايا قيمية ، للزوج ، تتألف من علب الحلوى ومن الخراف ، كما أن العريس يخرج بعد سبعة أيام من الزفاف لشراء كمية من السمك ، لكى ترمى على قدمى العروس ، كنوع من الفأل الحسن . بالإضافة إلى هذه الولائم الثلاث التى تقام فى منزل الزوج ، فهناك وليمتان تقاما فى منزل والد العروس ، الأولى قبل يوم واحد من الزفاف ، والثانية يوم الزفاف(٤٧) .

ومن العادات الأخرى السيئة ازدياد إيمان الناس بالكهان والمشعوذين وكثرة عددهم، وقد لفت ذلك نظر الحسن الوزان فذكرهم فى كتابه ، وقسم العرافين إلى ثلاثة أقسام ، فالقسم الأول هم العرافون الذين يجيدون فن الضرب بالرمل ويتقاضون نقودًا تتفق وموارد الأشخاص . والقسم الآخر ، هم العرافون الذين يسكبون الماء فى قطعة كبيرة مطلية بدهان ويسقطون فى هذا الماء قطرة زيت ، ومن خلال الطبقة التى تكونها نقطة الزيت ، يوهم العرافون الناس أنهم يرون عصابات بعضها قادمة من البحر والبر ، ويقوم العراف باستجواب الشياطين ، ويصدقهم الناس ، ويدفعون لهم الكثير من الأموال . أما القسم الثالث من العرافين ، فهى فئة من النساء ، يوهمون الناس بأنهم على صلة قوية بالشياطين ويستطعن التنبؤ بأى شئ عن طريق سؤال الشياطين وعندما يحصل السائل على بغيته يترك هدية للشياطين(٤٨) .

كذلك وجد فى فاس عدد كبير من المشعوذين ، وهم من الرجال يقومون بترديد القصائد فى الحدائق العامة . وأثناء غنائهم هذه الأشعار يدقون الدفوف ويعزفون على الربابة والعود ويبيعون للناس الرقى وهى أوراق كتب عليها بعض الكلمات لشفاء الأمراض(٤٩) .

وإلى جانب هؤلاء العرافين والمشعوذين ، وجد نوع آخر من المشعوذين ، يطوفون فى الشوراع ، وهم يعملون على ترقيص القردة ، ويحملون الأفاعى حول أعناقهم وفى أيديهم ، ويقومون بالتنبؤ بالغيب عن طريق الرمل ، ويخبرون النساء بالمستقبل(٥٠) .

وصحبت هذه العادات السيئة أمراض اجتماعية أسوأ ، إذ كان بعض الرجال يأتون الأطفال شهوة كما مارست النساء الفحش مع النساء ، فالحسن الوازان عند كلامه عن فاس ، يعرض لبعض المنحرفين من المتصوفة ، الذين يبيحون لأنفسهم كل المتع ، وهؤلاء المتصوفة لا عمل لهم ولا يمارسون أية مهنة بل يعيشون مثل الأنعام أو اضل سبيلاً ، وليس من عادتهم الزواج بالنساء بل ممارسة الشذوذ مع تلاميذهم الصغار . وفى حديثه عن العرافين فى فاس ، يتطرق إلى فئة النساء من هؤلاء العرافين ويصفهم بأنهن يستعملن المساحقة بعضهن مع بعض(٥١) .

النظم التعليمية :

تعكس النظم التعليمية والتربوية فى تلك الفترة مختلف التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ولذلك اتسمت بتدهور الناحية التربوية والتعليمية فى بلاد المغرب . وينعى ابن عرضون الموقف التعليمى المتدهور ، وخاصة تعليم الأطفال ، الذين سدت أمامهم طرق تعليم مبادئ القراءة والقرآن والسنة خصوصًا ، وأدى هذا " لانتشار الكفر وهو شيء مشاهد للعيان " وتمثل هذا الكفر فى رأيه فى عدم عناية الآباء بتربية أطفالهم ، وممارسة العادات البعيدة عن السنة والمنهج المالكى كما ضعف الارتباط بالدين الإسلامى(٥٢) .

ويقدم ابن عرضون عدة نصائح ومقاييس لإصلاح هذا التدهور التعليمى تختص بالملبس والمأكل وبعض مظاهر العيش ، ليلتزم به الناس فى تربية أبنائهن وتعليمهم بعيدًا عن مظاهر البذخ والترف فيقول : " ومهما كان الأب يصونه من

نار الدنيا فإن يصونه من نار الأخرة أولى وصيانته بأن يؤدبه ، ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من قرناء السوء ولا يعوده التنعم ، ولا يحبب إليه الزينة وأسباب الرفاهية فيضيع عمره فى طلبها ـ ويمدح عنده الصبى المتأدب القليل الأكل ، ويحبب إليه الإيثار بالطعام وقلة المباهاة به والقناعة بالطعام الخشن ، ويحبب للصبيان الثياب البيضاء دون الملون ، ويحفظ الصبى عن الصبيان الذين عودوا التنعم والترفه ولبس الثياب الفاخرة ، وعن مخالطة كل من يسمعه يرغبه ، ويقبح إلى الصبيان حب الذهب والفضة والطمع فيهما ، بل على الأكابر أيضًا ويعوده التواضع والإكرام ، ويمنع أن يؤخذ من الصبيان شيء بدلالة وحشمة إن كان من أولاد المحتشمين بل يعلم أن الرفعة فى العطاء لا فى الأخذ وأن الأخذ لوم وخسة ، وأن كان من أولاد الفقراء فليعلم أن الأخذ والطمع مهانة ومذلة»(٥٣) .

ولم يكن التعليم حقًا للجميع ، فالقلة القليلة من الذين يدخلون الكتاب هم القادرون على مواصلة دراستهم للحصول على شيء من العلم والمغاربة الأثرياء هم الذين كانوا يرسلون أطفالهم للتعليم كما اقتصر التعليم الإجبارى على الذكور ، دون الإناث ، اللاتى اقتصر تعليمهن على تعلم الفرائض وأدائها وكان هناك تحفظ من تعليمهن الكتابة والقراءة ويتم تعليمهن بعيدًا عن الذكور ،وكما قال المغراوى « وأحسن النظر التفريق بين الذكور والإناث وأكره خلطهم لأنه فساد » وربما كان يتم تعليمهن فى بيوت خاصة ، وعلى أيدى معلمين منتدبين لهذا الغرض .

وكانت إجبارية التعليم لا تنصب على سن محددة ، بل كان الفصل يجمع بين أعمار متفاوتة ولذلك نادى المغراوى بوجوب التفرقة بين الصغار والكبار .

وقام تدريس المنهج الدراسى على عدة مراحل ، ففى أول الأمر ، يطلب من التلاميذ حفظ القرآن ، ثم الكتابة والقراءة فى المرحلة الثانية ، أما المرحلة الثالثة فيطلب من التلاميذ الترتيل وإتقان الحفظ والإعراب وكانت هناك مواد مساعدة

على فهم الآيات القرآنية ،كقواعد اللغة العربية والبلاغة ، كما كانت هناك مواد إضافية ، كحفظ أسماء الشهور العربية والميلادية ، والشعر الجيد والفلك ودرس هذا العلم الأخير بهدف معرفة الشهور العربية وأوقات الصلاة وغير ذلك من الأمور المتصلة بالشعائر الدينية . أما علم الحساب فدخل ضمن مناهج الدراسة نتيجة لهجرة الأندلسيين إلى المدن المغربية ، وكان الغرض من تعليمه ، فهم المعاملات المالية وقسمة الميراث(٥٤) .

أما تعلم الخط فقد كان له أهميته بين هذه المواد ، وحظى بإقبال كبير ، حيث يتمكن من يتقنه الحصول على وظيفة كاتب فى إحد دواوين الحكومة ، أو عند السلطان .

وتم تدريس هذه المواد بصورة تدريجية ، حيث ينتقل الطالب بعد هذا الإعداد إلى تعلم اللغة العربية عن طريق المتون ، والهدف العام لتلقين هذا المنهاج الدراسى ، هو تعميق الفكر السنى المالكى ، وتمكينه فى نفوس الناشئة وأدى ذلك إلى إهمال المواد التعليمية والفلسفية(٥٥) .

أما عن فترات الدراسة فقد كانت الدراسة تبدأ بصباح يوم السبت وتنتهى صباح الخميس ، ويبدأ اليوم الدراسى بعد صلاة الصبح ، وهو يوم كامل ، ويقسم إلى عدة فترات ، فمن صلاة الصبح إلى الضحى ويعطى التلاميذ بعد ذلك فترة راحة ، ويواصل الطلاب الدراسة إلى قرب صلاة الظهر ، ثم ينصرفون من أجل الصلاة وتناول الطعام ، ثم يواصلون الدراسة إلى صلاة العصر . ويبدو من هذا أن تقسيم اليوم الدراسى مرتبط بأداء الصلاة ، وهذا يوضح ارتباط التعليم بالناحية الدينية .

ويأخذ التلاميذ أجازة يومين عقب ختم القرآن ، وثلاثة عند عيد الفطر ، وخمسة أيام عيد الأضحى ، وسمح للمعلم بالتغيب يومين أو ثلاثة بأجر للقيام بالأمور الزراعية ، ولا يحق للمعلم التغيب عن الدراسة إلا بأذن أولياء الأمور .

وأولياء أمور الطلاب كان لهم سلطتهم على المدرسة والمدرسين ، فالمدرس يأخذ الأجازة بعد موافقتهم ، ويستأذن ولى الأمر ، فى زيادة عقوبة الطالب ، بالنظر إلى سن التلميذ ويهيىء أولياء الأمور أماكن الدراسة ، بعقد واتفاق مع المعلمين ، ويقومون بالصرف على المدارس(٥٦) وبجانب هذه المدارس العامة ، مدارس خاصة مرتبطة ببعض الشخصيات ، فابن غازى نحى نحوًا خاصة فى طريقة تدريسه ، لذلك أصبح صاحب مدرسة خاصة . وكان له دور فى نشر العلم . ومكانته العلمية فى عصره ، وتصدره للدرس والتدريس ، وكرس له كرسى لتدريس العمدة فى الحديث ، رسالة ابن زيدون(٥٧) . وقد كثر تلاميذ ابن غازى، فكان يدرس ببيته ، علاوة على المسجد والمدرسة . وكان الطلاب يرحلون إليه من كل مكان للاستماع إليه ، كما كانت له مراسلات مع بعض تلاميذه ، حول المسائل الفقهية والأدبية . وقد أجاز ابن غازى الكثير فى المشرق والمغرب ، ومنهم أحمد بن على البلوى الواداياشى الذى خرج من غرناطة قبيل سقوطها مع أبيه وأخيه ، قاصدًا أداء فريضة الحج والاتصال بمشايخ الإسلام ومن تلمسان كتب لابن غازى لإجازته(٥٨) .

والأجازات فى هذا العصر كانت بمثابة شهادات علمية ترفع حائزها إلى مصاف العلماء ، وتخوله تولى المناصب العليا فى دواوين الدولة . وعندما يجيز الشيخ طالبه فى علم أو عدة علوم يذكر سنده فى هذه العلوم ، موضحًا الشيوخ الذين أخذ عنهم وشيوخهم مسلسلين إلى واضع العلم أو مؤلف الكتاب(٥٩) .

وكان لجامع القرويين دوره الثقافى المتميز فى ذلك العصر ، فيصف أحد الشيوخ المعاصرين(٦٠) الحياة التعليمية فى هذا الجامع ، والمواد التى تدرس به مثل الحديث والفقه والنحو والتفسير والحساب والطب والفلك ، وكانت الدراسات الفقهية لها عناية كبيرة وتخصص لها مجالس مختلفة ويتحدث هذا الشيخ عن دراسته بهذا الجامع فيقول « فلما أتيت إلى فاس وجدتها روضًا من رياض الجنة ، وذلك على أيام الشيخ ابن زكريا محمد الشيخ الوطاسى ت ٩١٠هـ/ وكان فى ذلك الزمان الرجال الأفاضل من العلماء قراءة وفهما(٦١) .

وقد نال المعلم حظًا كبيرًا من الإعداد التربوى والعلمى والأخلاقى ، فكان من متطلبات هذه المهنة ، أن يكون المعلم عارفًا بأحكام القرآن واتقان اللغة العربية . والفقه ، وأن يكون متزوجًا ، ويتمتع بأخلاق وسمعة حسنة ، فالمغراوى يطالب بأن يمنع من التدريس من يتحدث عنه بسوء(٦٢) .

وكان المعلم فى البادية يختلف عن معلم المدن ، لأنه يمارس مهام أخرى غير العملية التعليمية . فنتيجة لانتشار الأمية . قام بمهنة الكاتب للآخرين ، وساعد فى حل المنازعات وحل كثير من القضايا ، وزرع وحصد ، لذلك اختلفت المواعيد الدراسية عند أطفال البادية ، فكانوا يتعلمون ليلاً ، لانشغال المعلم والأطفال بالأعمال الأخرى .

ونادى ابن عرضون والمغراوى بوجوب حسن سلوك المعلم وتحليه بالأخلاق الكريمة ، ورسما للمعلم طريقًا مثاليًا للتدريس ، فطالبا باتخاذ الجدية تجاه طلابه ، وإتباع أسلوب العدل بينهم ، فى كل شىء والتدرج بالتلاميذ لتوصيل المادة الدراسية لأفهامهم ، فتبدأ العملية التعليمية بكتابة الحروف على اللوح للصبى وتهجيته لها . هذا مع التكرار حتى يستطيع الصبيان إتقان مادتهم العملية وكان من واجب المعلم الإشراف على كل صغيرة وكبيرة ، فى جلوسهم وكتبهم وتجويدهم وألواحهم وضبطها وأصلاحها(٦٣).

أما العقوبة للمخالفين للنظام التعليمى فهى تدريجية ، تبدأ بالتنبيه الشفهى ، فالتقريع والوعيد دون سب أو شتم . أما أقصى عقوبة فهى الضرب الذى يزداد كلما كبر سن المتعلم . وأن تكون العقوبة معادلة للخطأ(٦٤).

أما أماكن التعليم ووسائله ، فخصصت المساجد لتعليم الكبار ، وكانت تعتبر مرحلة وسطى بين الكتاب والمرحلة العليا للتعليم . وطالب فقهاء ذلك العصر بأن تكون أماكن التعليم سهلة الوصول إليها ، فتكون وسط المدينة ، ولذلك تركزت الكتاتيب بها ، وكان أولياء أمور التلاميذ يجهزون هذه الأماكن التعليمية،

عن طريق عقد سنوى بين المعلم وبينهم . وقد يختار المعلم المكان المناسب لأداء هذه العملية . أما الوسائل التعليمية ، فتمثلت فى اللوح ، والممحاة الخاصة بمحو ما يكتب عليه ، وكانت تسمى (الأجانة) أو (الحلابة)(٦٥) بالإضافة إلى أداة العقاب وهى الفلقة أو الدرة التى اعتبرها ابن عرضون غير لائقة بحامل القرآن ومعلمى الأطفال .

وأعطى الحسن الوزان وصفًا لمدارس تعليم الأطفال التى بلغت فى عهده المائتين فالمدرسة كانت تضم قاعة كبيرة بها درجات تستخدم مقاعد للأطفال ، ويقوم المعلم بتعليم الأطفال القراءة ، بالاستعانة بألواح كبيرة من الخشب عليها التلاميذ واقتصر الدرس اليومى على كتابة آية من آيات القرآن الكريم ، فى خلال سنتين أو ثلاث ، يتم كتابة القرآن الكريم كله . وتكرر هذه العملية عدة مرات حتى يجيد الأطفال تعليم القرآن بصورة متقدمة جدًا ، ويحفظه عن ظهر قلب ، وربما تم ذلك بعد إنقضاء سبع سنين وبعد ذلك يقوم المعلم بتعليم الأولاد قليلاً من الخط .

ولم يكن هذا التعليم مجانيًا بصورة مطلقة ، بل كان والد الطفل يقدم هدية معينة للمعلم بعد إجادة ابنه جزءًا لا بأس به من القرآن ، وعندما يختم الطفل القرآن الكريم ، يقيم الأب وليمة فخمة لكل التلاميذ يحضرها أصدقاؤه وفى هذه الوليمة يقدم أصدقاء الوالد الحاضرون هدية للمعلم ، كما يقدم الطفل المحتفى به كسوة جديدة لأستاذه ، وفى يوم مولد النبى يقوم الآباء بإهداء شمعة للمدرسة ، كذلك يأتى كل طفل بشمعته . وهذه الشموع تعتبر موردًا ماليًا للمعلم ففى بعض الأحيان يبيعون هذه الشموع ، بما قيمته مائة دينار(٦٦).

واتفق وصف الحسن الوزان فى نقاط كثيرة مع ابن عرضون ، والمغراوى وقد قدما تأليفين ، عن الحياة التعليمية والتربوية فى عصرهما .

الهـــوامش

(١) الحسن الوزان : وصف أفريقيا ، صفحات متفرقة .

(٢) انظر الخريطة المرفقة فى نهاية البحث .

(٣) إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ج٢ ، ص٢٣٢

(٤) محمـد مزين : فاس وباديتها مساهمة فى تاريخ المغـرب السـعدى ، ج١ ، ص١٥٧ .

(٥) ذكر قصـة المهـاجرين المسمون اليوم بـالبلدين مخطـوط ، رقـم ٣٦١٨ ، الخزانـة الملكية بالرباط ص٤٣٦ .

(٦) الحسن الوزان : مصدر سابق ص٢٠٢ ، وانظر الخريطة فى نهاية البحث .

(٧) إبراهيـم حركـات : مرجـع سـابق ص٢٣٣ ، عبـد القـادر العافيـة : الحيـاة السياسـية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازها ص٢٠٨ .

(٨) أحمد بوشرب دكالة والاستعمار البرتغالى ، ص٧٦ - ٧٧ .

(٩) انظر الخريطة فى نهاية البحث .

(١٠) أحمد بوشرب : مرجع سابق ، ص ص٧٦ - ٧٧ .

(١١) نفسه .

(١٢) أحمد بوشرب: مرجع سابق ، ص ص٧٩ - ٨١ .

(١٣) الحسن الوزان : سابق ، ص ١٢٤ .

(١٤) عبد الكريم كريم ، (دكتور) : المغرب فى عهد الدولة السعدية ، ص٤٢ .

(١٥) شهد الحسن الوزان بيوت ممارسة الزنا ، فقال « عند كلامه عن مدينـة فـاس » ويوجـد أيضا بيوت عامة تمارس فيها البغايا بثمن بخس وتستمد هـؤلاء النسـوة حمـايتهن مـن قبـل مفوض الشرطة وحاكم المدينة » . ويمارس بعض الرجال ، دون خجل فـى بـلاط الملـك عاداتهم السيئة فلديهم نساء ساقطات فى بيوتهـم وخمـر للبيـع ويسـتطيع أى شـخص أن يستمتع بذلك بكل طمأنية » . وصف أفريقيا ، ص ص ٥٢٠ -٥٢١ .

(١٦) مثل كتاب المعيار المعرب ، والجامع المغرب عن فتاوى علماء أفريقية والأندلس والمغرب، لأحمد بن يحيى الونشريسى المتوفى بفاس عام ٩١٤هـ وكتـاب النـوازل ، لإبراهيـم بـن هلال السجلاماسى .

(١٧) القرآن الكريم : سورة فاطر ، آية ٤٨ .

(١٨) يمدحه ابن عسكر فيقول أنه الشيخ العالم الزاهد الحجة الدامغة الناسخة ، صنهاجي الأصل من طنجة ، أخذ العلم عن عديد من المشايخ والفقهاء ، واعتمد في التصوف على عديه شيخه عبد الله الغزواني . دوحة النشر ، ص ص ٧ - ١٤ ، وأحمد بن القاضي : لقط الفوائد من لفاظة حقق الفوائد ، ص٣٠٨ .

(١٩) يقرر الأستاذ محمد المنوني أنه في ظل الاحتلال البرتغالي ونتيجة له ، حدث انحلالاً خلقيًا وعقائديًا وشاعت البدع وظهرت جماعات منحرفة مثل الطائفة« اليوسفية » ، وعرفت أيضا بالشراقة وهم من أتباع الإمام ابن العباس أحمد بن يوسف الراشدي الملياني المتوفى سنة ٩١٧هـ/ ، وانحرفت هذه الطائفة عن طريق أستاذهم . محمد المنوني : التأثير العثماني في المغرب ، أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي الجزء الثاني ، سلسلة الدراسات التاريخية (١) عام ١٩٧٩ وينعى صاحب الدوحة ما وصلت إليه هذه الطائفة المنحرفة عن الطريق السوي فيقول « ليس هؤلاء المبتدعة من أحوال الشيخ أبي العباس للملياني » في شيء بل فعلوا كفعل الرافضة والشيعة في أئمتهم » . ابن عسكر دوحة النشر ص٩٢

(٢٠) إن الجهاد أكبر المعين ... عليه تبتني أمور الدين
وكانت تباع النفس دون ريب ... بلذة عظيمة في القلب
وعندما مال إلى الزوال ... دين الهدى ذو العز والمعال
انتشر الإيمان قل من عقده ... شيئًا فشيئا بانقضاء ذره

(٢١) كان من أكابر العلماء أخذ العلم عن الإمام القوري ورحل إلى تلمسان ، وأخذ عن الإمام ابن مرزوق ، ولما احتل البرتغاليون طنجة وأصيلا لازم الثغور الهبطية لأجل الرباط والجهاد في سبيل الله تعالى وانتشار التعليم والعلم ، وكان الورياجلي يدرس العلم « بقصر كتامة » ويقضي ويفتي بسائر البلاد الهبطية ، وكان من عادته أن يشتغل بالتدريس في فصل الشتاء والربيع ، ويرابط في الصيف والخريف بثغور القبائل الهبطية ، تولى رياسة العلم في « فاس » وبها استقر إلى أن مات ، اشتهر بغزارة علمه ، فكان الناس لا يرفعون إليه إلا المعضلات من المسائل الكبار المهمات « وتوفي في سنة أربع وتسعين وثمانمائة من الهجرة » . ابن عسكر ، الدوحة ، ص ٣٠ - ٣٣ ، أحمد الونشريسي : وفيات الونشرين ، ص١٥٢ ، ابن غازي : الفهرسة : ص١١٣ .

(٢٢)ابن عسكر : مصدر سابق ، ص٩١ - ٩٢ ، ومحمد بن محمد مخلوف : شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية ، ص٢٦٩ .

(٢٣) ابن عسكر : مصدر سابق ، ص٦٦ - ٦٧ .

(٢٤) الحسن زين فيلالى: إبراهيم بن هلال السجلماسى، رسالة ماجستير غير منشورة عام ١٩٨٦ .

(٢٥) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن على بن غازى العثمانى المكناسى الفاسى ، وقد اختلف فى سنة ولادته ، فبعضهم يرجعها إلى سنة ٨٥٣هـ والبعض الآخر يرجح تاريخ ٨٤١هـ استنادًا إلى ما ذكره فى كتابه الروض الهتون فتحدث عن رحلته إلى فاس « وأظن أن رحلتى سنة ثمانٍ وخمسين وثمانى مائة فاقمت بها » فيكون رحل إلى فاس وعمره سبع عشرة سنة لاستكمال دراسته ، ووردت ترجمته فى عدة كتب من كتب التراجم منها درة الحجال ، وجذوه الاقتباس لابن القاضى ، ودوحة الناشر لابن عسكر وشجرة النور الزكية لمحمد بن محمد مخلوف ، وغيرهم .

وله مؤلفات كثيرة منها « شفاء العليل بشرح خليل » و« الروض الهتون فى التعريف بأخبار مكناسة الزيتون » وفهرسته المعروفة باسم « التعلل برسوم الأسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد » وأخذ العلم عن كثير من العلماء فى المشرق والمغرب ، منهم الشيخ بن قاسم القورى ، والشيخ على بن منون الحسنى المكناسى ، والشيخ عبد الله بن عبد الواحد الورياجلى والشيخ عثمان بن محمد الديمى المصرى ، والشيخ محمد بن عبد الرحمن السخاوى القاهرى والشيخ عبد الرحمن الجدولى المشهور بالتونسى . ومن أساتذته الذين أجازوه الشيخ محمد بن محمد بن مرزوق التلمسانى .

وكان لمكانة ابن غازى العلمية فى عصره ، أن كثر تلاميذه ، فكانوا يرحلون إليه من بعيد للاستماع إليه وكان له مع بعضهم مراسلات فقهية وأدبية . ومن أشهر تلامذته ، ابنه أبو العباس ، وابنه محمد وغيرهم كثيرون . وتوفى فى أواخر العشرة الثانية من القرن العاشر الهجرى بمدينة فاس يوم الأربعاء التاسع من جمادى الأولى ، ابن عسكر : الدوحة، ص٤٥ - ٤٦ ، وابن القاضى : جذوة الاقتباس ، القسم الأول ص٣٢٠ . ، وابن غازى: الفهرسة ، المقدمة لمحقق المخطوط ، محمد الزاهى أستاذ بالمعاهد الثانوية التونسية .

(٢٦) دوحة الناشر ، ص٢٤ .

(٢٧) الحسن الوزان : مصدر سابق ، ص٢٦٠ - ٢٦٢ .

(٢٨) نفسه .

(٢٩) نفسه .

(٣٠) ففى موضوع المآتم والمبالغة فى الأحزان يقول الشيخ عبد الله الهبطى:

ومـــن اقـــامة البرهـــــان | على ذهاب الدين والإيمـــان
ما أظهروا من كفرهم بربهـم | عند حلول الموت فى قريبهـم
نرى نساء أولئك الفجـــار | فى حالة كحالة أهل النـــار

عن الألفية السنية للشيخ عبد الله الهبطى ، مأخوذة من كتاب الحياة السياسية بشفشـاون تأليف عبد القادر العافية ص١٨٧ - ١٨٨ .

(٣١) الحسن الوزان : مصدر سابق ، ص ٢٥٥ - ٢٥٦ ، وعند زيارتى لبلاد المغـرب ، لاحظت أن كثير من هذه العادات ما زالت موجودة بين الطبقات الفقيرة .

(٣٢) إبراهيم حركات : مرجع سابق ، ص٢٤٢ .

(٣٣) الحسن الوزان : مصدر سابق ، ص٢٢٥ -٢٥٦ .

(٣٤) محمد بن أحمد بن شقرون (دكتور) مظاهر الثقافة المغربية ، ص٤٢ .

(٣٥) يصفه صاحب الدوحة ، بأنه كان يمقت البدع فقيهًا حافظا متقنًـا ورعـا شـديد الشكية فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، تفقه بحضرة فاس وأخذ عن كثيرون مـن مشايخها مثل ابن غازى ، والهبطى وغيرهم ، وأخذ من هذا الأخير طريق التصـوف ، ألـف كتـب منها « غنيمة السلمانى » وآخر اسمه ضياء النهار ، وكتـاب سماه « بالنصـائح يحرم مـن الأنكحة والذبائح » ، وتوفى رحمة الله عليه سنة ست وخمسين وتسـعمائة ودفـن داخـل باب الفتوح من مدينـة فـاس ، ويضيـف ابـن القـاضى إلى ذلـك أنه كـان فقيهـا نوازليا يستظهر الفقه المالكي وكان قوالا للحق . ابن عسكر : الدوحة ص ص ١٤ - ١٥ ، ابن القاضى: جذوة الاقتباس ، القسم الأول ص١١١ .

(٣٦) هو أبو البقاء عبد الوارث بن عبـد الله اليصلوتـى ، أصلـه مـن بنـى يعلـوت مـن قبـائل غمارة على مقربة من قرية شفشاون ، كان أستاذًا لابن عسكر قرأ عليه رسـالة ابـن زيـد فى الفقه، ورجز ابن سينا فى الطب واستفاد مـن علمـه الكثير ، إذ كـان غزيـر العلم ، وأخذ العلم عن شيوخ عدة منهم محمد سيدى عبـد الله الغزاونـى ، والشيخ أبـا العبـاس أحمد بن يحى الونشريسى ، والقاضى المكناسى وابن الحباك وغيرهم ، توفـى فـى حـدود ٩٧٠هـ ، وكان عمره أكثر من تسعين سنة . ابن عسكر : دوحة ، ص٥ - ٦ .

(٣٧) أسند إليه منصب القضاء بشفشاون ، ابتداء من عهد المتوكل السعدى (٩٨١/٩٨٣هـ) /١٥٧٣ - ١٥٩٥م) وكان من القضاة الذين يفتخر بهم هذا المنصب ، وكان له مواهبه فى القضاء والافتاء وله مؤلفات عديدة تدل على غزارة علمه ، ظل فى منصب القضاء نحو عشر سنين ، من أهم كتبه « اللائق لمعلم الوثائق » وهو كتاب هام لا يستغنى عنه القضاة والمفتين ، وكتابه الآخر « مقنع المحتاج فى آدب الأزواج » ، يتناول فيه قضايا الزواج ، وتربية الأطفال ، ويتحدث عن العادات فى الولائم والحفلات وغيرها ، وله عدة كتب أخرى ، يقول عنه ابن القاضى أنه كان عاقلاً ، توفى بمدينة فاس بعد السبعين وتسعمائة . ابن القاضى ، جذوة الاقتباس بالقسم الأول ، ص١٦٠ ، عبد القادر العافية ، مرجع سابق ، ٣٣٥ - ٣٣٨ .

(٣٨) هى إحدى قبائل مصمودة ، من قبائل البربر البرانس ، طبقا لتقسيم ابن خلدون لقبائل البربر ، وتسكن هذه القبائل ما يعرف باسم منطقة الريف ، ومن أشهر قبائلها بنى منصور وبنى وزين . ابن خلدون : العبر جـ٢ ، ص٩٠ - ٩٢ ، الحسن الوزان : مصدر سابق ، ص٣٢٦ .

(٣٩) عبد القادر العافية: مرجع سابق ، ص١٥٠ - ١٥٧ .

(٤٠) الوشم محرم فى الإسلام لأنه تغيير للخلقة ، ويقول ﷺ فى حديثه الشريف « لعن الله الواصلةوالمستوصلة والواشمة والمستوشمة » سيد سابق : فقه السنة ص٤٤ .

(٤١) عبد القادر العافية : مرجع سابق ص١٥٧ .

(٤٢) قال الشيخ الهبطى فى عادة شرب الخمور :

شراب الخمور فاش فى غير حشمة ... على جهرة وفاق كل البرية

فذاك يشربه وذاك بكسبه ... وهذا مداهن لأهل الغواية

تعامى خيار الخلق عن كل منكر ... ولكن تسارعوا إلى كل فتنة

ومن ألفيته السنية نلتقط بعض الأبيات ، توضح من هذه العادة السيئة :

شرب الخمر فى المحافل ... بمحضر الفضول قل والفاضل

يشربونها على ائتلاف ... بمحضر المئين والالآف

مع أن فيهم للكتاب حافظا ... ولا يقبلون فيها حتما واعظا

إن حثتهم بآية وبالخبر تبسموا بل قهقهوا بلا حذر

ويواصل كلامه عن مضار الخمر فى الدينا والآخرة فيقون :

الخمر ضار عند أصحاب الغنى من جهلهم أحل ما قد يقتنى

من مخطوطة الألفية للشيخ الهبطى ، مأخوذة من كتاب الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازها ص١٦٩ .

(٤٣) عبد القادر العافية : مرجع سابق ص١٦١ .

(٤٤) نفسه ، عبد الكريم : مرجع سابق ، ص١٩ - ٢١ .

اتخذوه عدة للحادثات به ينال العزما بين الصفاه

وربما استغنوا عن النساء وعنه ما لهم من استغناء

إن سافروا به يسافرون أو قدموا إليه يقدمون

وكل ما كان إلى الانفاق فى الخمر قد أتى بلا شقاق

من الألفية السنية للشيخ الهبطى .

(٤٥) وثيقة رقم ١١٥ ، من مجموعات وثائقية ودورية ، الوثائق الملكية الأولى - المطبعة الملكية الرباط .

(٤٦) الحسن الوزان : مصدر سابق ، ص٢٥٧ .

(٤٧) نفسه ، ص٢٥٨ - ٢٦٠ .

(٤٨) الحسن الوزان : مصدر سابق ، ص ٢٥٦ - ٢٦٦ .

(٤٩) نفسه ، ص٢٧٢ .

(٥٠) الحسن الوزان : مصدر سابق ، ص ٢٧٧ .

(٥١) نفسه .

(٥٢) تامر البشير : جوانب من تاريخ التربية فى المغرب ، ص ص ٤٢ - ٤٧ « مجلة تاريخ المغرب العدد الرابع ، السنة الرابعة ، ذو القعدة ١٤٠٤هـ / أغسطس ١٩٨٤ .

(٥٣) نفسه ، ص٤٨ .

(٥٤) المغراوى : جامع جوامع الاختصار والتبيان فيما يعرض بين المعلمين وآباء الصبيان ، مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط رقم ١٥٤١ .

(٥٥) تامر البشير : مرجع سابق ، ص٥٣ .

(٥٧) إبراهيم حركات : مرجع سابق ص٢٥٦ .

(٥٨) ابن غازى : التعلل برسوم الاسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد ، صفحات متفرقة .

(٥٩) محمد حجى : الحركة الفكرية بالمغرب فى عهد السعديين ، جـ١ ، ص١٠٠ -١٠١ .

(٦٠) هو الشيخ أبو الحسن على بن ميمون الحسنى الغمارى شغل منصب القضاء بشفشاون ، مدة من الزمن ثم اتجه إلى فاس وبقى بها سبع سنين ، وفى سنة ٩٠١هـ / ١٤٩٥م ، رحل إلى المشرق ، مارًا بالجزائر ، تونس ، وبعد أداء فريضة الحج ، تجول فى بلاد الشام وتركيا واستقر فى صالحية دمشق وبقى بالشام إلى أن توفى بقرية « مجدل معوش » قرب بيروت سنة ٩١٧هـ وله تأليف يتحدث فيه عن جامع القرويين ، يسمى « الرسالة المجازة فى معرفة الأجازة » ابن عسكر دوحة الناشر ، ص ٢٣ .

(٦١) عبد القادر العافية : الحياة السياسية والاجتماعية بشفشاون ، ص٢٤٦ - ٢٤٧ .

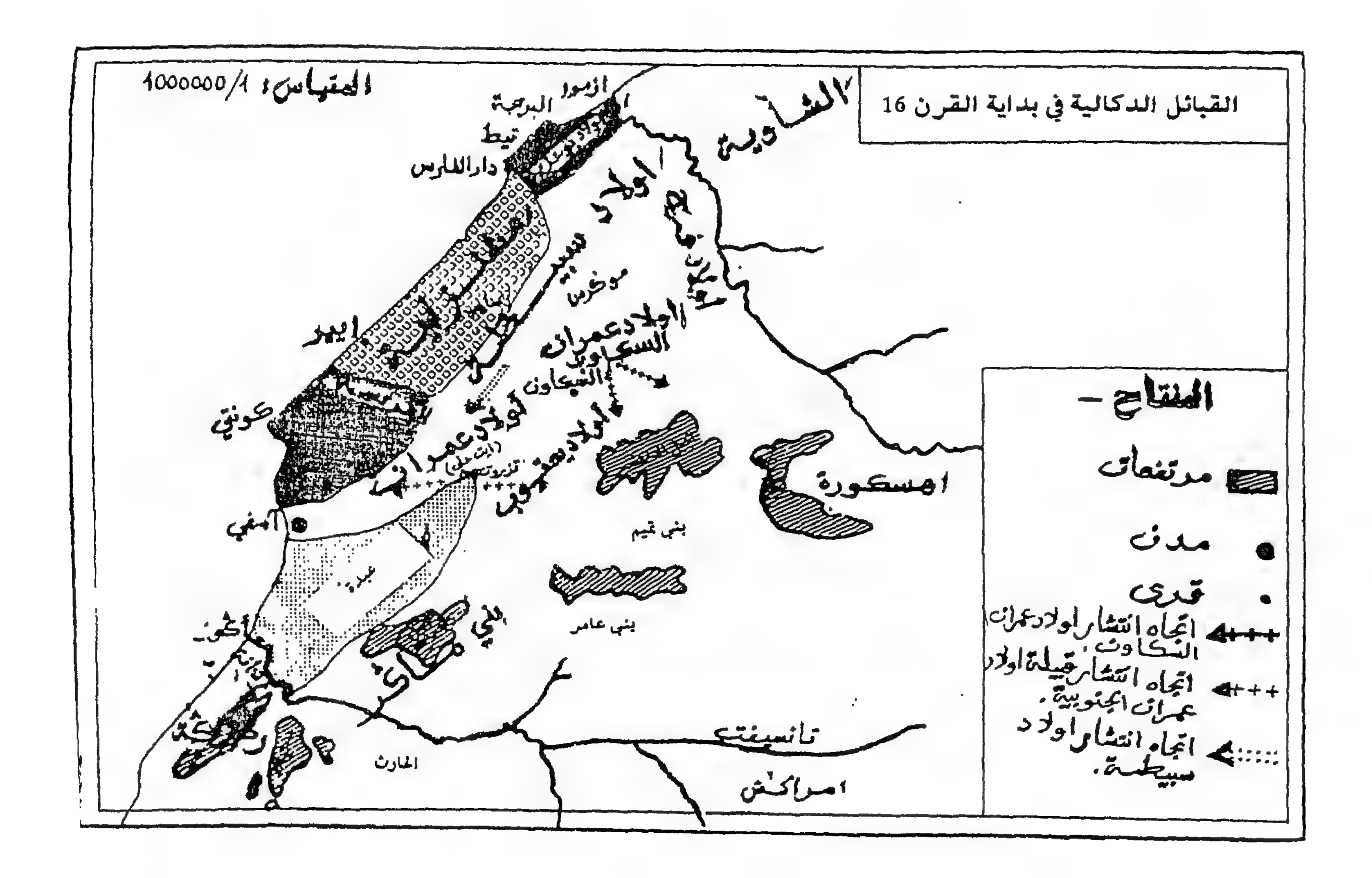
(٦٢) المرجع السابق : ص٥٤ .

(٦٣) نفسه ، ص٥٨ .

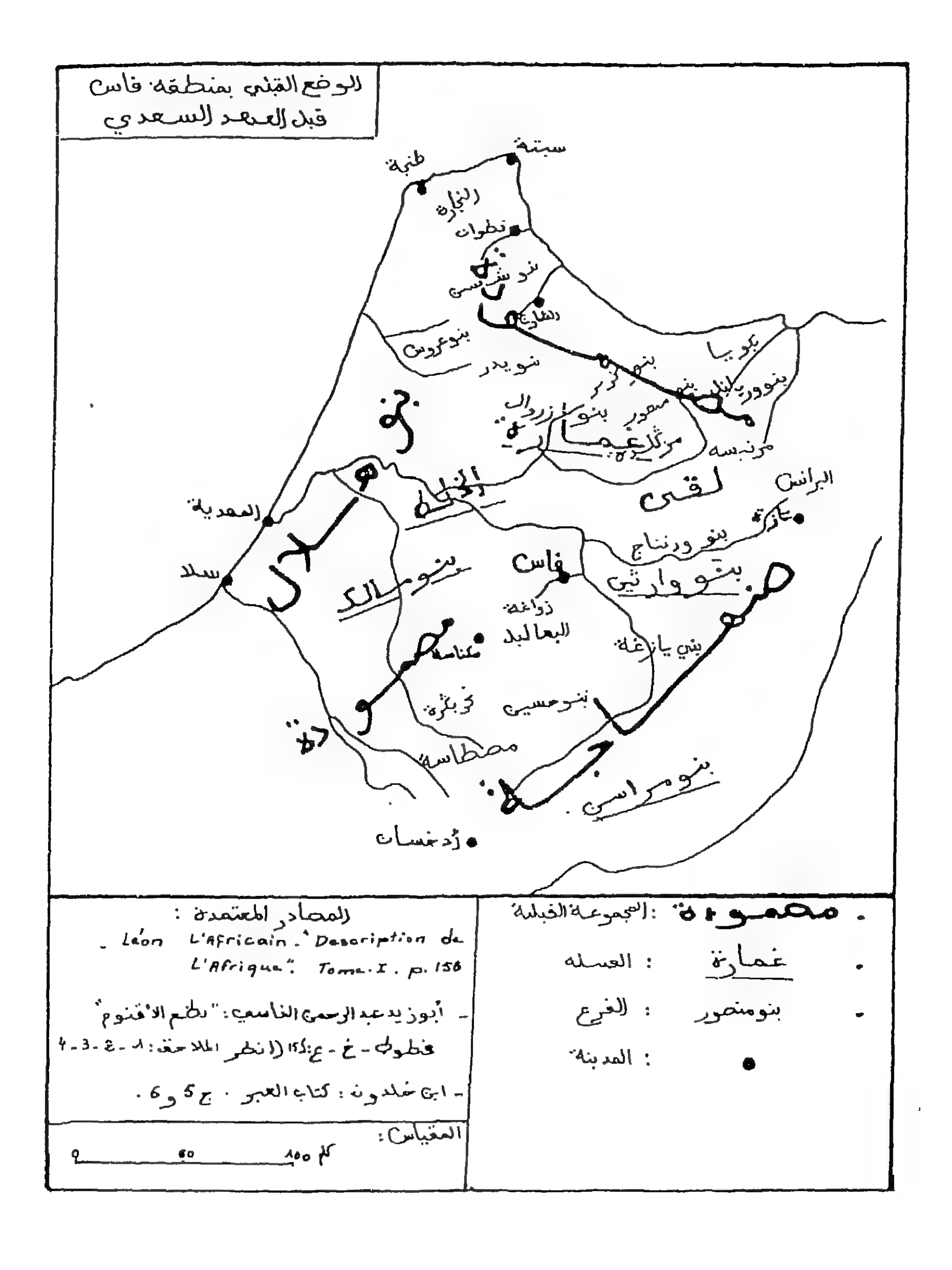
(٦٤) نفسه ، هذه المبادىء التربوية ينادى بها بعض التربويين فى العصر الحالى وتؤخذ فى الاعتبار فى العملية التربوية .

(٦٥) تامر البشير : المرجع السابق ، ص٥٦ .

(٦٦) الحسن الوزان : مصدر سابق ، ص٢٦٣ - ٢٦٤ .



القبائل الدكالية في بداية القرن 16
المقياس: 1/1000000
المفتاح –
مرتفعات
مدن
قرى
اتجاه انتشار اولاد عمران الشكاوث
اتجاه انتشار قبيلة اولاد عمران الجنوبية
اتجاه انتشار اولاد سبيطة.
ازمور
البرجة
تيط
دار اللارس
ايير
كونتي
آسفي
الشاوية
اولاد
موغرسا
اولاد عمران
الشكاون
بني تميم
بني عامر
امسكورة
الحارث
تانسيفت
امراكش



الوضع القبلي بمنطقة فاس
قبل العهد السعدي
سبتة
طنجة
تطوان
بنو عروس
بنو زروال
مرنيسة
البرانس
تازة
بنو ورتناج
المهدية
سلا
فاس
زواغة
البهاليل
مكناسة
بني يازغة
بنو حسين
مطاسة
بنو مراسن
المصادر المعتمدة :
- Léon L'Africain. "Description de L'Afrique". Tome. I. p. 156
- أبو زيد عبد الرحمن الفاسي: "نظم الأقنوم"
مخطوط - خ - ع: ١٤٢٥ (انظر الملاحق: ١ - ع - 3 - 4
- ابن خلدون: كتاب العبر. ج 5 و 6.
المقياس:
٥ ٥٠ ١٠٠ كلم
المجموعة القبلية : مصمودة
الفصيلة : غمارة
الفرع : بنو منصور
المدينة : •

ظاهرة ضعف القيم الأخلاقية في عصر الطوائف بالأندلس

د. أحمد بن صالح السحيباني (*)

عاش المجتمع الإسلامي بالأندلس - حكاماً ومحكومين - حياة وسطية لاتصل به إلى الغلو وترك المباحات والطيبات من الرزق ، كما لاتهبط به إلى الهاوية والانغماس في البذخ والملذات .

وقد ظل كثير من الزعماء الأمويين بالأندلس محافظين على هذا الاتجاه ، مؤكدين على أهميته ، وهذا بلاشك مما أعطى دولتهم قوة أمام القوى الصليبية المتربصة بالمسلمين هناك ، ولكن حينما بدأ الضعف ينتاب الخلفاء اللاحقين وأخذت النزعة المادية لديهم بالظهور ، وتزامن مع بداية ضعف الدولة ليس أمام القوى النصرانية فحسب ، بل حتى مع الثوار والمنتقضين على الدولة من بني جلدتها ، حينئذ بدت معاول الهدم ، وأسباب الضعف تنخر في جسم الدولة الأموية ، مما انذر بسقوطها .

وحينما سقطت الدولة الأموية بالاندلس، قامت على أنقاضها دول الطوائف ، التي غلب عليها حب الدنيا والسعي للمصالح الذاتية ، وإشباع الغرائز فضلاً عن حياة اللهو والترف ، وغدا ذلك كله هاجساً دائماً ، وهدفاً مهماً يسعى إليه الكثير من مسلمي الأندلس حتى ولوأدى ذلك إلى تقديم تنازلات دينية ، أو سياسية ، أو خلقية ، أو وطنية(1) .

وهكذا ضعفت كثير من القيم الخلقية مما أدى إلى انتشار الكثير من الأمراض الخلقية بينهم ، كحياة الترف ، وكالمجون ، والخلاعة ، وشرب الخمر

(*) كلية العلوم الاجتماعية - جامعة الأمام محمد بن سعود- الرياض .

والاستغراق فى الملذات الجسدية ، والاكثار من الجوارى والنساء ، وهى الأمور التى صارت قاسما مشتركا بين كثير من دول الطوائف(٢).

ومما لاشك فيه أن وجود مثل هذه الأمراض الخلقية يمثل معولا من أكبر معاول الهدم التى تقضى على الأمم والجماعات بل حتى الأسر والأفراد ، وفقا لقوله تعالى ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾(٣).

وعبر الشاعر عن ذلك بقوله :

إنما الأمم الأخلاق مابقيت   فانهموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقد ادرك هذه الحقيقة ابن خلدون فعقد فصلا فى مقدمته بعنوان :(فى أن من علامات الملك التنافس فى الخلال الحميدة وبالعكس) وقد جاء فى هذا الفصل قوله :(.. إذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات ، وانتحال الرذائل وسلوك طرقها ، فتفتقد الفضائل السياسية منهم جملة، ولا تزال فى انتقاص إلى أن يخرج الملك من أيديهم ... واستقرىء ذلك وتتبعه فى الأمم السابقة تجد كثيرا مما قلناه ورسمناه ...)(٤).

ويدرك من يستقرىء تاريخ ذلك العصر أن هذه الظاهرة لم تنشأ فى الأندلس من فراغ فى ذلك المجتمع المسلم ، بل كان لها أسباب وظروف نشأت فى ظلها ، كما كانت لها وسائلها وطرقها وميادينها ، كما تمخض عنها نتائجها وافرازاتها .

وسوف تحاول هذه الدراسة بإذن الله – رصد هذه الظاهرة من خلال هذه المحاور .

أما أسبابها فمما لاشك فيه أن الوازع الدينى عند أفراد ذلك المجتمع كان السبب الرئيسى لذلك الضعف ، وقد أكّد ذلك عدد من المؤرخين المعاصرين فابن حيّان – شيخ مؤرخي الأندلس – قال واصفاً ذلك العصر :(دهرنا هذا قد غربل

أهليه أشد غربلة ، فسفف أخلاقهم ، وسفه أحلامهم ، وخبث ضمائرهم ... فاحتوى عليهم الجهل يعللون نفوسهم بالباطل ...)(٥) .

أما ابن حزم فقد وصف تلكم الحالة بقوله :(اللهم إننا نشكو إليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا ، بدنياهم عن إقامة دينهم ، وبعمارة قصور يتركونها عما قريب ، عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم فى معادهم ودار قرارهم ، ويجمع أموال ربما كانت سبباً فى انقراض أعمارهم ، وعوناً لأعدائنا عليهم عن حاجة ملتهم حتى استشرف لذلك أهل القلة والذمة ، وأنطلقت السنة أهل الكفر والشرك(٦)...) كذلك ذكر فى موضع آخر أن ملوك الطوائف لو علموا أن فى عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها(٧)وقد ذكر ابن عذارى أنه فى سنة خمس وثلاثين وأربعمائة تميز ملوك الطوائف ، وعمتهم الفرقة ، مامنهم من يحذر الآخرة(٨).

وقد ترك لنا ابن الكردبوس وصفا أدق لمجتمع ملوك الطوائف حيث بّين أنهم:« مشغلون بشرب الخمر ، واقتناء القيان ، وركوب المعاصى ، وسماع العيدان ، وكل واحد منهم ، يتنافس فى شراء الذخائر الملكية .. إلى أن ضعف ... الطالب والمطلوب وذل الرئيس والمرؤس ، وافتقرت الرعية ، وفسدت أحوال الجميع بالكلية ، وزالت من النفوس الأنفة الإسلامية ...»(٩).

أما الشعراء والأدباء فقد لمسوا هذا الضعف ، فصوروه ، وذكروا سببه وأجادوا فى ذلك .

ومن هؤلاء أبو الحسن بن الجدّ وكان من ضمن ماقاله(١٠):

أرى الملوك إصابتهم بأندلس	دوائر السوء لا تبقى ولاتذر
ناموا وأسرى تحت الدجى قدر	هوى بأنجمهم خسفاً وما شعروا
وكيف يشعر من فى كفه قدح	تحدوبه مذهلات النأى والوتر
كأنني بكم قد صرتم سمرا	ومالكم فى الورى عين ولا أثر
أماتكم قبل موت سوءُ فعلكم	وكيف بالذكر إذلم تحسن السير

كذلك ذكر المقرى قصيدة لأحد شعراء الأندلس ، بين فيها واقع المسلمين آنذاك ، وكيف تغير حينما ابتعدوا عن دينهم ، وتخلوْا عن أصالتهم وقيمهم التى دخلوا بها ، ومما جاء فى تلك القصيدة(١١) .

فإن قلنا العقوبة أدركتهم	وجاءهم من الله النكير
فإنا مثلهم وأشد منهم	نجور وكيف يسلم من يجور
أنأمن أن يحل بنا انتقام	وفينا الفسق أجمع والفجور
وأكل للحرام ولا اضطرار	إليه فيسهل الأمر العسير
ولكن جرأة فى عقر دار	كذلك يفعل الكلب العقور
يزول الستر عن قوم إذاما	على العصيان آرخيت الستور

هكذا وصف المؤرخون حالة أولئك القوم ، فالبعد عن الالتزام بأحكام الدين ومبادئه، أصبح سمة غالبة ، لها مظاهرها الواضحة فى المجتمع الإسلامى بالأندلس.

وقد وصف المراكشى بعض تلك المظاهر ، بقوله :(وأخذ الله أكثر هؤلاء الرؤساء ... بسوء فعلهم ... من ظلم المسلمين ، وأخذ أموالهم بغير حق ، وتغييرهم لنعمهم ، وقطعهم لثمارهم ...)(١٢) .

ووصف أحد الباحثين المحدثين ذلك الوضع فقال : « انتشر الربا بين الناس الذين تحايلوا على منع الزكاة ، وقاموا باحتكار السلع والمواد الغذائية ، حتى يثروا على حساب الغير ، كما أثرى غيرهم من الحكام ، وجرهم هذا إلى إتقان تزييف العملة ... أما الرشوة وأكل أموال اليتامى ، والتجسس ، والجبن ، والجهل ، والكذب ، وغش الأطعمة ، والأغذية ، وانتشار السرقات ، واللصوصية ، وغير ذلك من الرذائل ، والعيوب الاجتماعية ، فقد انتشرت بين الناس انتشاراً واسعاً حتى قال بعض المعاصرين أن تلك الحال لا يصلحها إلا نبى »(١٣) .

وبالإضافة إلى ضعف الوازع الدينى فإن من الأسباب القوية - أيضا- فى إيغال أولئك القوم فى تلكم المستنقعات الموبوءة مامنوا به من ضعف معنوى ، إلى

جانب ماتعرضوا له من نكبات نفسية ، وشعور بالقلق ، مما جعلهم يتوقعون أن في ممارسة مثل تلكم السلوكيات خلاصا لهم مما كانوا يعانونه من الأوجاع النفسية أو ساترا لماهم فيه من ضعف وحيرة ، ومن أمثلة ذلك ماذكره ابن عذارى من أن المعتضدبن عباد والى حرب ابن الأفطس صاحب بطليوس عدة شهور من سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة ، فغير بلده كمادمر عمارات واسعة وأفسد غلاتها وأوقع في رعيته المجاعة الطويلة . فلما انتهى ابن عباد من تدويخ بلاده ورجع إلى إشبيلية أرسل المظفربن الأفطس رسولا إلى قرطبة ليشترى له وصائف ملهيات يأنس بهن نافيا بذلك الشماتة عن نفسه ، ولم تكن له عادة بمثل هذا الأمر . وقد وجد له رسوله صبيتين ملهيتين عند بعض التجار فاشتراهما بغالى الثمن(١٤)، وتعجب الناس « مما شهربه نفسه من البطالة أيام الحروب المحرمة لإظهار النساء على فحول الرجال العاقلة لآزرة على ماكان يدعيه لنفسه من الأدب والمعرفة»(١٥).

كذلك ذكر الفتح بن خاقان أن المعتصم صاحب المرية أقام مجلساً للهو والخمر ليخفف من جزنه على وفاة إحدى حظاياه ، ويقول الفتح فى ذلك :«قدم بين يديه من الآت أطرابه وأدوات شربه ، ما اتخذه لأنسه جالباً، وللوعته غالبا»(١٦).

هكذا كان أولئل القوم يلقون بأنفسهم فى أوحال الترف ، ومستنقعاته ، ظنا منهم أن فى تلكم الأعمال خلاصاً مماهم فيه من ضعف ونكسة نفسية ، فإلى جانب ضعفهم في ميادين الجهاد ومقاومة الأعداء فإن هذا التحرر من الأخلاق والعادات والقيم أدى إلى ضعف دولهم ، وتراخى سلطانهم حينما أصبحوا أسرى للذاتهم وشهواتهم حيث وصف أحدهم تلكم الحال بقوله(١٧) :

لعمرك إنى بالمدامة قوال	وإنى لما يهوى الندامى لفعّال
قسمت زمانى بين كدّوراحة	فللرأى أسحار وللطيب آصال
فأمسى على اللذات واللهو عاكفا	وأضحى بساحات الرئاسة ختال
ولست على الإدمان أغفل بغيتى	من المجد إنى فى المعالى لمحتال

ويقول الآخر :

علل فؤادك قــد أبــلّ عليــل ... واغنم حيـاتك فالبقــاء قليــلُ

لــو أن عمــرك ألف عام كامل ... مــا كان حقا أن يقال طــويل

أكذا يقـودبك الأسى نحو الردى ... والعـود عود والشمول شــمول

لايستبيك الهـــم نفســك عنوة ... والكأس سيف فى يديك صقيـل

بالعقل تزدحم الهموم على الحشا ... فالعقل عندى أن تزول عقــول(١٨)

وقد انعكس هذا الضعف ، فى التمســك بمبـادىء الديـن وأحكامـه ، علـى واقع المجتمع الإسلامى هناك ؛ حيث أدى غياب الوازع الدينـى مـن نفـوس النـاس حكاماً ومحكومين إلى حدوث خلل عام ، بدت صوره ومظاهره واضحة للعيــان ، من أهمها ظاهرة ضعف القيم الأخلاقية .

وهذه الظاهرة قد بدت فى عدة صور لعل من أهمها :

١- التكاثر المادى ٢- الترف والاسراف ٣- المجون والخلاعة.

١- أما التكاثر المادى :

فقد بدت ظاهرة واضحة ، وسمة مميزة لذلــك العصـر حيـث تنـافس أولئـك القوم فيها ، وقد كانت لهم وسائل خاصة سلكوها من أجـل هـذا الغـرض، بينهـا المؤرخون حيث ذكروا أن الكثير من أولئك القوم كانوا لا يتورعون عن أى وسيلة يرون أنها تزيد من كسبهم ، أوتعينهم على تحقيق مصالحهم الذاتية ، أو توفـر لهـم حياة مترفة . فعلى بن حمود(٤٠٧-٤٠٨هـ) صاحب قرطبة فرض على أهل قرطبة ضروباً من المغارم ، كما انتزع السلاح منهم(١٩)، من أجل تحقيق هـذا الغـرض ، بل أنه حاول ضرب الناس بعضهم ببعض ، حيث ((توصل إلى أعيـانهم بقـول مـن شرارهم ففتحوا لهم أبواباً من البلايـا أهلكـوا بهـا الأمـة ، وتقربـوا إليـه بالسـعادة فيهم، وصار شطر الناس أشراطا على سائرهم ، قلما تلقى أحدا الا بوكيلـين عليه .. وأظلمت الدنيا وأبلس أهلها ، وغشـيهم مـن الله ماغشـيهم ..)(٢٠) وكذلـك

هذيل بن خلف بن زرين (٤٠٣-٤٣٦هـ) صاحب شنتمرية الشرق فقد غرق في لذته وشهواته وصارت حياته صماء عن كل عمل خير بل بلغ به الجهل والفظاظة أن قتل أمّه بيده(٢١) .

أما المعتضدبن عباد صاحب إشبيلية ، فإنه لما ولى الأمر بعد أبيه ، بدأ بتصفية رجال الدولة ؛ لكى يستبد بالأمور ، وينفرد بالجاه والسلطان ويتحقق له ما يريد من حياة الترف ،« فمنهم من قتله صبرا ، ومنهم من نفاه عن البلاد ، ومنهم من أماته خمولا وفقراً ، إلى أن تم له ما اراد من الاستبداد بالأمر ..»(٢٢). ويذكر المراكشى أنه استولى على مال رجل أعمى ، فلما ذهب الأعمى إلى مكة حيث أخذ يدعو على المعتضد ، أرسل إليه من سمّه هناك ، كما قتل على هذه الصورة رجلا من المؤذنين من أهل إشبيلية ، فرمنه إلى طليطلة(٢٣).

ولم يتورع المعتضد بن عباد حتى عن أموال العميان ومتوسطى الحال من عامة الناس ، بل ضمها إلى ماله ليكاثر بها أقرانه ملوك الطوائف ، وليدفعها ثمناً لملذاته وشهواته ، غير مبال بالأسلوب الذى نهجه أو الوسيلة التى اتبعها . ومما زاد الأمر سوءاً أنه حينما سلك هذا المسلك لم يكن بحاجة إلى ذلك المال للدفاع عن البلد أو تجهيز جيوش الجهاد ،بل كان جل غرضه وغرض أنداده من ملوك الطوائف الذين نهجوا هذا المنهج هو بنيان القصور ، وجمع الخيول ، واقتناء الغلمان ؛ ليتفاخروا بها فيما بينهم ، حيث عدوا هذه الأمور من الهمم العالية ، والرتب الملوكية ، كما أنها أصبحت هدف كل واحد منهم(٢٤). ويذكر ابن حيان أن المعتضد ابتنى القصور السامية ، واعتمر العمارات المغلة واكتسب الملابس الفاخرة ، وغالى الأعلاق السنية ، وارتبط الخيول السابحة ، واقتنى الغلمان الروقة ...»(٢٥).

ومن أبرز من سلك هذا المسلك من ملوك الطوائف المقتدر بالله أحمد بن هود (٤٣٨-٤٧٤هـ) حاكم الثغر الأعلى الأندلسى ، فقد أجبر رعيته على دفع المال له ، فلما اعترض عليه أحد الصالحين قتله(٢٦)، وقد ترك لنا المؤرخون وصفاً

دقيقاً لتمادى كل من مبارك ومظفر العامريين - حاكما مدينتى بلنسية وشاطبة - فى هذا السلوك. يقول ابن عذارى : « وبلغت جبايتهما لأول ولا يتهما إلى مائة وعشرين ألف دينار فى الشهر ، سبعون بلنسية ، وخمسون شاطبة ، يستخرجانها بأشد العنف من كل صنف حتى تساقطت الرعية .... وسلك مبارك ومظفر سلوك الملوك الجبارين فى إشادة البناء والقصور ، والتباهى فى عليات الأمور إلى أبعد الغايات ، واشتمل هذا الرأى على جميع أصحابهما ومن تعلق بهما من وزرائهما ، وكتابهما ، فاحتذوا فعلهما فى تفخيم البناء ...لاهين عما كانت فيه الأمة يومئذ كأنهم من الله على عهد لايخلفه ...

واتسع الخرق فى عظيم ذلك الإنفاق ، فمنهم من قُدّرت نفقته على منزله مائة ألف دينار ... وكان لمبارك ومظفر جنة ذلك النعيم ... فأنغمسا فى النعيم إلى قمم رؤوسهما وأخلدا إلى الدعة ...»(٢٧).

أما ابن حيان فقد بين أن ما ناله هذان الزعيمان من بحبوحة العيش إنما كان بسوق الرعية المضطهدة ، فقد كانا لايعبئان بما نالها من آذا هما حيث يقلدان عليها شرار العمال ، حتى غدا كثير منهم يلبسون الجلود والحصر ، ويأكلون البقل والحشيش ، كما فر أكثرهم من قراهم(٢٨)، كذلك بين أن هذا الأسلوب كان سلوك الكثير من ملوك الطوائف الذين أقاموا دولتهم على أنقاض دولة بنى أمية هناك(٢٨). وذكر الطرطوشى أن من عوامل ضعف المسلمين فى عصر ملوك الطوائف بالأندلس حرصهم على جمع المال ، ليس من أجل إعداد الرجال والقوة بل من أجل الراحة والدعة . وهذا مما أضعفهم حيث كان « للروم بيوت رجال وللمسلمين بيوت أموال ، فبهذه الحلة قهرونا وظهروا علينا »(٢٩) كما يقول الطرطوشى .

وقد عد ابن بسام تلك التصرفات المشينة(٣٠) من قبلهم بأنها قد غاظت الجماعة حيث داسوا أحساب الأحرار بأقدامهم متغافلين عن عادة الله فيمن جرى مجراهم(٣١).

أما منذر بن يحيى التجيبى (٤٠٧-٤٣٠هـ) صاحب سر قسطة فقد كان مع سموه للمعالى مؤثراً لشهواته ، غير متردد فى قضاء لذاته حيث كان متهالكا على حب الدنيا(٣٢) .

وكان أبويحيى محمد بن صمادح (٤٤٤-٤٨٠هـ) صاحب وشقة قد آثر مصالحه الذاتية مستبدا بالأموال لإشباع شهواته ولذاته « دون قضاء حق فى جهاد عدو أو سد ثغر..»(٣٣) .

وذكر ابن بسام أن أبا يحيى هذا اقتصر على قصر يبنيه ، وعلق يقتنيه ، من اللذة يستولى عليه ويبرزفيه(٣٤) اما حسام الدولة ابن رزين (٤٣٦هـ) فقد نافس جاره إسماعيل بن ذى النون فى جمع المال ، وفى خلال البخل وفرط القسوة ... وهو أول من بالغ الثمن بالأندلس فى شراء القينات فاشترى جارية ابن عبد الله المتطبب بعد أن أحجمت الملوك عنها لغلاء سومها بثلاثة آلاف دينار ..»(٣٥) كما ذكر ابن بسام أن ابن رزين كان له طبع يدعوه فيجيب ، كما كان يزدرى بالأمة ولايأبه بالناس(٣٦) أما أبو الوليد عبد الملك بن جهور (٤٥٠-٤٦١هـ) فقد استباح أموال الناس ، كما سلط على الرعية أهل الفساد ، حيث أهمل مسؤولياته الشرعية ، بل تعاظم على من حواليه حيث سمى نفسه بذى السيادتين ، المنصور با لله ، والظافر بفضل ا لله(٣٧) .

ويذكر ابن عذارى أن سبب خلع أهل قرطبة لعبد الملك بن جهور هو ضجرهم من جوره وتعديه هو وحاشيته على الناس(٣٨) حيث استعانوا بجيش ابن عباد الذى جاء لنصرته ضد ابن ذى النون ، ولما حاصر قرطبة ثار عليه أهل المدينة بمؤازرة الجيش العبادى ، فكان زوال ملكه أسرع من لحسة الكلب كما يقول صاحب كتاب الأنباء فى سياسة الرؤساء(٣٩). ويبدو أن عبد الملك بن جهور قد بالغ كثيراً فى الاستيلاء على أموال الناس ، وضمها إلى حوزته حيث يذكر ابن سهل أنه أقيمت عليه دعوى بهذا الخصوص بعد سقوط دولة الجهاورة ، وأنه حكم برد المظالم إلى أهلها(٤٠).

ومن أجل تحقيق المصالح الدنيوية لم يتورع بعض ملوك الطوائف عن التنازل عن المدن التى يحكمونها مقابل مال معين يحصلون عليه . ومما يذكر فى هذا الشأن موقف عبد العزيز البكرى حاكم شلطيش حينما حاصره ابن عباد بها فقد اصطلح معه على أن يبيعه سفنه وأثقاله بعشرة آلاف مثقال . ثم لجأ إلى قرطبة فى كنف ابن المأمون مستأمنا على الأموال والأنفس ، بينما دخل ابن عباد شليطش التى خذلها زعيمها مقابل حصوله على الأموال(٤١).

* * *

هذه نماذج وأمثلة لحرص ملوك الطوائف على جمع المال ، والتفاخر فى كثرته ، ثم انفاقه فى ترفهم ومجونهم ، وهنا لابد من التساؤل عن الأساليب والوسائل التى كان أولئك القوم يستخدمونها لهذا الغرض الهدّام ، وتلك الغاية المقيتة ؟ ، وللإجابة على هذا التساؤل يقال : إن المتتبع للتاريخ السياسى والحربى لذلك العصر يدرك أنه لم يكن يحكمه أى مبدأ من مبادىء القيم والأخلاق بل الأعراف والتقاليد ، حيث كان الصراع السياسى والحربى هما الوسيلة الأولى فى هذا الميدان مهما كان الثمن لذلك ، ولم يتورع الحكام عن المكر والخديعة ، ونقض العهد ، كما كانوا ينهجون المراوغة مرة والمداهنة أخرى ، من أجل تحقيق هذا الهدف المهم فى نظرهم ، فإن لم ينفع هذا ولاذاك فالسيف(٤٢)وهذا بلاشك مما أوقد نار حرب ضروس ، كان وقودها المسلمون عامة ، خلفت الكثير من المآسى ، وذهب ضحيتها الآلاف من القتلى ، ولذا بقيت المدن نتيجة لتلك الحرب خالية من سكانها عدا الشيوخ والأطفال والنساء كما يذكر ابن عذارى(٤٣).

ولو حاولنا استقصاء ما بذل فى هذا الميدان لطال بنا المقام ، ويكفى أن كتب التاريخ التى عنيت بعصر ملوك الطوائف زاخرة بأحداث وحوادث تلكم المآسى ، ولكن حسبنا فى هذا المقام إشارة عابرة للدلالة والاستشهاد لا للرصد والتدوين .

ولعل مما يشفع لنا فى هذا المقام أن مؤرخى الأندلس المعاصرين لها قد أعرضوا عن ذكرها لالطول أحداثها فحسب ، بل لمرارتها وشدة وقعها على

النفوس . يقول ابن بسام ، وهو ممن عايش تلكم الأحداث حينما تحدث عن ابن صمادح :« وقد كانت بينه وبين حلفائه من ملوك الطوائف فى الجزيرة فتون مبيرة... وقد اندرجت له ولهم فى تضاعيف هذا التصنيف قصص تضيق عنها الأيام وتتبرأ منها القراطيس والأقلام »(٤٤).

ومما يمكن ذكره هنا ، تلكم الحروب التى وقعت بين عدد من ملوك الطوائف تناحراً على المصالح الذاتية ، فمنها ماوقع بين بنى زيرى أمراء غرناطة وبين زهير الفتى الصقلبى حاكم المرية والتى انتهت بمقتل زهير عند أسوار غرناطة ، حينما تصدى له باديس بن حبوس زعيم البربر فى غرناطة سنة ٤٢٩هـ(٤٥)، ثم استولى على المرية معن بن صمادح غدراً من يد صهره عبد العزيز بن أبى عامر(٤٦).

و لم تكن هذه هى الجبهة الوحيدة التى قاتل فيها البربر ، بل إن بنى زيرى خاضوا حروباً متواصلة مع بنى عباد حكام إشبيلية ، حيث تمكن العباديون من اختراق الصف البربرى ، حينما أوقعوا بين زناتة فى قرمونة ، وصنهاجة فى جنوب الأندلس ، لكن العباديين خسروا الجولة حينما حاولوا الاستيلاء على قرمونة وأشبونة ، واستجة ، حيث قتل قائدهم إسماعيل بن عباد سنة ٤٣٠هـ حينما خذله بعض جنده(٤٧).

وكانت دولة بنى جهور فى قرطبة هدفاً مهماً لكثير من ملوك الطوائف ، وذلك لأهمية موقعها ، ولضعف قوتها ، حيث كان أول الطامعين بها بنوعباد الذين واصلوا حملاتهم العسكرية ضدها ؛ بغية الاستيلاء عليها ، وإسقاط دولة بنى جهور ، إن لم يبايعوا هشام المؤيد(٤٨)، وقد أثرت تلك الحملات على أهل قرطبة حيث غلت أسعارهم كما أصبحوا شبه محصورين داخل مدينتهم ، حينئذ أدركت باديس بن حبوس حاكم غرناطة الحمية ، فخرج لنصرة ابن جهور ضد خصومه بنى عباد الذين فروا بعد هزيمتهم خارج قرطبة سنة ٤٣١هـ(٤٩).

و لم يكن بنو عباد وحدهم الطامعين فى إسقاط دولة الجهاورة ودخول مدينة قرطبة للاستيلاء على خيراتها(٥٠)، بل إن الحموديين وبنى ذى النون ،

وغيرهم(٥١)كانت لديهم تلك الأطماع حيث حاولوا ذلك أكثر من مرة لكنهم فشلوا ، وفى النهاية آلت قرطبة إلى العباديين ، بعد تمكن جيشهم من طردبنى ذى النون من عند أسوارها ، وذلك فى ٢١ شعبان ، سنة ٤٦٢هـ(٥٢).

وكانت العلاقة بين بنى الأفطس حكام سرقسطة ، وبين جيرانهم بنى عباد سيئة، بسبب التنافس على المصالح الذاتية ، فقد وقعت بينهما مصادمات حربية كثيرة بسبب نزاعهما حول مدينة لبلة التى تقع على الحدود بينهما ، حيث قتل فى إحدى المعارك سنة ٤٤١هـ أمير قرمونة كما قتل عبيدا لله الخراز صاحب يابرة بينما نجا ابن الأفطس من المعركة بصعوبة ، وقتل من جيشه ما لا يقل عن ثلاثة آلاف رجل(٥٣).

أما بنو ذى النون وبنو هود حكام سرقسطة ، فقد استمر الصراع بينهما من أجل تلكم الغايات الدنيوية ، ومما يذكر هنا نزاعهما حول مدينة وادى الحجارة(٥٤)، ذلك أنه حينما استولى عليها سليمان بن هود ، قامت قيامة يحيى بن ذى النون طمعا بتلك المدينة وما فيها من خيرات . وقد استعان كل واحد منهما بالنصارى ضد صاحبه حيث دامت الحرب بينهما من عام ٤٣٥هـ إلى آخر عام ٤٣٨هـ ولم تنته إلا بوفاة سليمان بن هود(٥٥)بعد أن خلفت آثاراً عسكرية ، واجتماعية ، ونفسية ، واقتصادية جسيمة .

هكذا كان واقع ملوك الطوائف، فالراضى منهم كان يضمر التوسع ، والساخط ينوى الثأر والانتقام . وهذا مما أشعل الحرب بينهم وأدام نشوب المعارك، وربما لسنوات عديدة دون هدف سام ، أو غاية نبيلة ، وقد كان الواحد منهم حينما يحشد الحشود لمحاربة أحد جيرانه من ملوك الطوائف يبالغ فى ذلك حتى إن كل واحد من ملوك الأندلس حينما يسمع بتلك الحشود يتوقع أنه توجه نحوه ، ويظن أنه لايريد سواه(٥٦).

ولم تكن تلك الحروب تحكمها مبادىء دين أو خلق ، بل كانت تقوم على المكر والخديعة ، ثم تنتهى بالسلب والنهب ، وربما القتل والتمثيل ، وهذا بلاشك

مما أمات فى النفوس الأنفة الإسلامية ، والشيم الحميدة ، حيث صار أفراد تلك الجيوش كالوحوش المتنافسة على فريستها ، حينما تجردوا من كل خلق سليم ،أو قيم حميدة ، حيث لم تنج أسرة واحدة من الأسر الحاكمة فى ذلك العصر من الصراع الداخلى والخارجى(٥٧)، بل أمضوا معظم سنى حكمهم فى ذلكم الصراع ، وهكذا أصبح الاستقرار السياسى شبه معدوم عندهم ، بسبب الجشع والطمع ، والسعى وراء الذات ومصالحها .

وبالإضافة إلى ما سبق فقد أدى الظلم فى جمع الأموال من الرعية ، وتحصيلها بأى وسيلة ممكنة إلى قول أحد المعاصرين « إنه ليس فى الأندلس فى ذلك الوقت درهم حلال ولادينار طيب يمكن القطع بأنه حلال عدا ما يستخرج من وادى لاردة من ذهب »(٥٨) كما قال أحد الكتاب المحدثين إنه فى الوقت الذى كان النصارى يعدون الرجال لحرب المسلمين كان سلاطين الأندلس يخزنون الأموال ، ويضيعون الرجال ، كما قال أحد المعاصرين إن تلك الحال لا يصلحها إلا نبى(٥٩).

ويبدو أن هذا المرض بل الداء العضَال قد تأصل فى نفوس جميع ملوك الطوائف حتى من عُدوا من الفاسطين منهم كأبى الحزم ابن جهور الذى وصفه الذهبى بأنه « من رجال الدهر حزماً وعزماً ودهاء ورأياً »(٦٠).كما وصفه ابن حيان بأنه أمين الجماعة المأمون عليها(٦١). لكنه مع هذا كان حريصا على جمع المال ، «حتى تضاعف ثراؤه وصار لاتقع عينه على أغنى منه أحاط ذلك كله بالبخل الشديد والمنع الخالص اللذين لولاهما ماوجد عائبه عليه مطعنا ولكمل لو أن بشرا يكمل »(٦٢) كما يقول ابن حيان . ولعل من الإنصاف أن نذكرهنا أن ثراء أبى الحزم بن جهور لم يكن على حساب بيت الدولة ، بل كان بسبب نظره لمعيشته حسبما يقوله ابن عذارى(٦٣)، كما ذكر ابن بسام أنه كان لايلتبس من مال المسلمين ولا يدخل داره(٦٤)وقد ذكر ابن عذارى - أيضا- نقلا عن ابن حيان أنه « اخترع لهم لأول وقته نوعا من التدبير حملهم عليه ، وأجادوا السياسة فيه ،

فانسدل الستر على أهل قرطبة مدّته وحصل كلّ ما يرتفع من البلد بعد إعطاء مقاتليه ، وصير ذلك فى أيدى ثقاة من الخدمة مشارفاً لهم بضبطه فإن فضل شىء تركه فى أيديهم ، مثقفا مشهودا عليه لا يلتبس لهم بشىء منه ، ومتى سئل قال ليس لى عطاء ولا منع هو للجماعة ، وأنا منهم ...»(٦٥).

لكن تلك الأمور التى تجمعت فى بيت مال قرطبة لم تفدها كثيرا . ذلك أنها لم توجه إلى إعداد القوة وتحصين البلاد ضد الأخطار المحيطة بها ، بل ربما أضحت مصدر خطر حينما تسامع بها أولئك الطامعون فتداعوا عليها كما تتداعى الأكلة على قصعتها .

وكان هذا الحرص على التكاثر المادى عند ملوك الطوائف سببا فى ظلم الرعية والاستيلاء على أموالهم بغير حق(٦٦)، كما كان عاملا رئيسا فى القعود عن الجهاد ، بل حتى عن إعداد الجيش ومدافعة العدو القادم . ولعل مما يدل على ذلك موقف أهل بربشتر(٦٧) التى داهمها العدو سنة ٤٥٦هـ فقد وجد فيها من الأموال والأمتعة ما يعجز عن وصفه كثرة ، كما يذكر البكرى(٦٨)ولا استبعد أن تكون ظاهرة التكاثر المادى التى غُنى بها أولئك القوم ،حتى أصبحت آفة من آفات عصرهم ، قد عمل النصارى على إشعال جذوتها والسعى لتأجيج نارها بين المسلمين ، حتى يهدموا بيوتهم بأيديهم ، ويقضوا على قوتهم بذلكم المعول البالغ الأثر فى القضاء على الأمم والشعوب . ولعل مما يؤيد هذا الأمر ما ذكره الحجارى من أن النصارى قد تنبهوا لهذه الثغرة منذ وقت مبكر ، حيث قال أحد ملوكهم مخاطبا قومه حينما رأى طلائع جيوش المسلمين الفاتحة تجتاح بلاد الأندلس :« لا تعترضوهم فى خرجتهم هذه ، فإنهم كالسيل يحمل من يُصادره ، وهم فى إقبال أمرهم ، ولهم نيات تُغنى عن كثرة العدد ، وقلوب تغنى عن حصانة الدروع، ولكن أمهلوهم حتى تمتلىء أيديهم من الغنائم ، ويتخذوا المساكن، ويتنافسوا فى الرياسة ويستعين بعضهم ببعض فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر»(٧٠) .

ولعل من المناسب أن نشير فى نهاية هذا المبحث إلى أنه بالرغم من حرص ملوك الطوائف على المال وجمعه إلا أنه كان يرخص فى عيونهم حينما يرون أن

بذله يدعم سلطانهم ، أو يظهر هيبتهم ، ولهذا بذلوا الكثير منه لكسب الأدباء والشعراء ، ورغبة فى الحصول على مدحهم وثنائهم . ومن أمثلة ذلك أن المعتصم بن صمادح (٤٤٣-٤٨٤هـ) منح قرية بأكملها للشاعر أبى الفضل جعفر بن أبى عبدالله البرجى ، حينما قدم إليه يشتكى عامل تلك المدينة، وأنشده قصيدته التى مطلعها :

قامت تجر ذيول العصب والحبر ضعيفة الخصر والميثاق والنظر

إلى أن بلغ قوله :

لم يبق للجور فى أيامهم أثر إلا الذى فى عيون الغيد من حور

فقال له المعتصم :« أنا سوغلك جميعها لهذا البيت الواحد ، ثم وقع له بها وعزل عنها نظر كل وال » (٧١).

أما المعتمد بن عباد (٤٦١- ٤٨٤هـ) فقد أعطى الشاعر عبد الجليل بن وهبون ألفى دينار على بيتين اثنين من الشعر هما :

غاض الوفاء مما تلقاه فى رجل ولا يمر بمخلوق على بال

قد صار عندهم عنقاء مُغربة أو مثل ماحدّثوا عن ألف مثقال(٧٢)

كما منح الشاعر أبا العرب الصقلى على بعض شعره مبلغا كثيرا من الدنانير الفضية ، وتحفة غالية فى صورة جمل من العنبر مرصع بنفيس الجوهر بيع بخمسمائة مثقال (فسارت بهذا الخبر الركائب وتهادته المشارق والمغارب(٧٣).

أما صور ذلك الضعف فى القيم الأخلاقية فقد بدت واضحة ومن أهمها مظاهر الإسراف والبذخ والعيش فى حياة مترفة تجاوزت الحدود فى هذا الأمر ؛ إضافة إلى انتشار المجون والخلاعة بين أو ساط كثير من شرائح مجتمع ملوك الطوائف .

٢- الترف والإسراف :

أما مظهر الإسراف والترف فقد تحدث عنه المؤرخون كثيراً ، ولعل من الأمثلة الواضحة على ذلك ماذكروه من إسراف المعتمد بن عباد - صاحب

إشبيلية ذلك أن زوجته اعتماد الرميكية رأت ذات يوم بإشبيلية نساءَ البادية يبعن اللبن فى القرب وهن رافعات عن سوقهن فى الطين ، فقالت له : أشتهى أن أفعل أنا وجوارى مثل هؤلاء النسوة ، فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد ، وصير الجميع طينا فى القصر ، وجعل لها قربا وصالاً من ابرسيم ، وخرجت هى وجواريها تخوض فى ذلك الطين . ويقال : إنه لما خلع وكانت تتكلم معه مرة ، فجرى بينهما مايجرى بين الزوجين ، فقالت له : وا لله ما رأيت منك خيرا قط ، فقال لها : ولا يوم الطين ؟ تذكيرا لها بهذا اليوم الذى أباد فيه من الأموال مالا يعلمه إلا ا لله تعالى ، فاستحيتْ وسكتتْ(٧٤)

كان هذا مثالاً واضحاً يدل على ما حلّ بدولة بنى عباد من ترف وبذخ ، وقد سارت على هذا المنهج دولة بنى ذى النون التى بلغت فى البذخ والترف إلى الغاية كما يقول المقرى (٧٥) ، وقد ذكر كدليل على هذا ماعرف عندهم بالأعذار الذنونى ، والذى كان يضرب به المثل عند أهل المغرب ، إذا أصبح عندهم بمثابة عرس بوران عند أهل المشرق(٧٦) .

وقد ترك ابن حيان وصفا لوقائع ذلك الحفل الكبير الذى أقامه المأمون احتفالا بختان حفيده يحيى ، وفيه من صور الترف والبذخ ما ينم عن أن بنى ذى النون قد استرسلوا فى هذا الأمر(٧٧)كما بالغوا - أيضا- فى بناء القصور الفخمة، والتى كانت سببا فى هدم الدين والدنيا ، وتسلط الأعداء من النصارى ، كما يقول ابن بسام(٧٨) ، وقد عد الأموال التى أنفقت فى هذه الأعمال بأنها من السحت(٧٩) .

وقد سلك مبارك ومظفر العامريان فى إشادة البناء والقصور ، والتباهى فى عليات الأمور ، مسلك المبذرين ، وحذا نهجهما كتابهما ووزراؤهما وكثير من رعاياهما ، حيث هاموا فى ترهات مضلة ، وأعمال متصلة لاهين عما كانت فيه الأمة حينذاك من محن وأخطار(٨٠)، كذلك ذكر ابن عذارى أنهما بلغا فى هذا الأمر منتهاه ، حيث انغمسا فى النعيم إلى قمم رؤسهما ، وأخلدا إلى الدعة ، وسارعا فى قضاء اللذة حتى أربيا على من تقدم وتأخر(٨١).

ومما يذكر فى ميدان حياة الترف التفنن فى بناء القصور والمبالغة فى الانفاق عليها بل والسهر والجهد فى متابعة بنائها . وكان الواحد منهم حينما لا يظهر البناء بالشكل الموافق لرغبته ، وبالتالى لا يسد مالديه من فراغ ويملأ ما عنده من طموح ، يصبح ويضحى وهو مكفهر الوجه ، شارد الذهن كأنه قد أصابته فاجعة «لضياع ثغوره ، وتشعث أموره ، وامتشار الشرك بإزائه وظهوره»(٨٢) ولعل موقف المأمون بن ذى الذنون من عريف بناء قصره بطليطله دليل واضح على تأصل حياة الترف فى نفوس أولئك القوم(٨٣)، ومما يدل على هذا الأمر أيضا أن ابن بسام أفرد حديثا خاصا لماتناهى إليه المأمون من تشييد البنيان بقصور طليطلة (٨٤) .

وقد ساق ابن حيان ماروا أبو العباس السكرى الأسكندرانى أحد وزراء المأمون بن ذى النون حيث قال :« فدخلنا عليه - يعنى المأمون - لأيام يسيرة من مهلك أبيه ، وهو فى إيوان كبير قد ملأه بنقر الفضة ... فأمرنا بالدنو ، فبعد لأى ماخلصنا إليه ، لكثرة ما كان من ذلك بين يديه ، وقد امتلأت صدورنا عجباً ، وتقيدت الحاظتنا فما تجد متقلبا ، لهذا الاتفاق كيف وقع ، ولهذا السحت من أين جمع فاتصل رأى أبيه فى اختزانه ، ويُعرض بجمود كان فى بنائه ، ونحن نقول : لعله قد أنف لضياع ثغوره وتشعث أموره ، وانتشار الشرك بإزائه وظهوره ، وكأنه فهم مانحير ، وعلم إلى أين نشير ، فأظلم مابيننا وبينه وازور ازوراره أنكرنا بها أثره وعينه ، وقال من حق مثل هذا أن يصرف فى مثل ضروب الحلية الرائقة ... قال ابن بسام فتبارك من أحاط بالأشياء ، ولم يخف عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ومن جعل اليوم ذلك القصر العجيب ببيانه الهادم للدين والدنيا شأنه مربطا للأفراس وملعبا للأعلام الأرجاس(٨٥) » .

هذه نماذج لحياة الترف فى عصر ملوك الطوائف ، وهى بلا شك تعطى دليلاً واضحاً على ماوصل إليه ذلك المجتمع من إيغال فى تلك الحياة ، بل إنها تدلنا دلالة واضحة على تفننهم فى هذا المجال ، بل وحرصهم عليه مهما كانت النتائج المتمخضة عنه . ولهم فى هذا الميدان وغيره من المجالات المشابهة له أخبار

مأثورة كما يقـول ابن حيان(٨٦) . بل إن هذا الأمر قـد تأصـل فى نفوسـهم حيث لم يستطع الكثير منهم الخلاص من حياة الترف فقد ذكر ابن حيـان أن أهـل مدينة بلنسية قد خلوا بشهواتهم فتهاوروا على المنكـرات والمعاصى(٨٧) . ويؤكـد ابن الدلائى هذا الأمر حيث يقول :(وقد اطبعت مدينة بلنسية بقلة الهم ، لا يكـاد ترى فيها أحداً من جميع الطبقات ألا وهـو قليـل الهـم مليئاً كـان أو فقـيرا ، وقـد استعمل أكثر تجارها لأنفسهم أسـباب الراحـات والفـرج ولاتكـاد تجـد فيهـا مـن يستطيع على شيء من دنياه إلا وقد اتخذ لنفسـه مغنيـة أو أكـثر مـن ذلـك ، وإنمـا يتفاخر أهلها بكثرة الأغانى ، يقولون عند فلان عودان وثلاثـة وأربعـة وأكـثر مـن ذلك ، وقد أخبرت أن مغنية بيعت فى بلنسبة بـأكثر مـن ألـف مثقـال طيبـة وأمـا مادون الألف فكثيرات »(٨٨).

وقد ذكر الأمير عبد الله بن بلقين (٨٩) أن أهل البيرة على مثل هذه الحـال، كما ذكر أيضا أن جده باديس بن حبوس قد أخلد إلى الراحة والشراب والدعـة ، وترك البلاد(٩٠) .

و لم يكن هذا الأمر فى أوقات السلم ، بل كان حتى أيـام الحـرب وأوقـات الشدة وفى ميادين المعارك . وقد ذكر المؤرخون عددا من الأمثلـة الدالـة علـى ذلـك، ومنها وصف ابن حيان لخروج أهل طليطلة لقتال عدوهم حيث خرجوا خروجـاً غـير لائق للقتال فيقول : « ومما وقع من التعجب أنه أخـذ مـن البيـاض المقتولـين مـن أهـل طليطلة فى ذلك الوقعة ألف غفارة من لبوس أهل الرفاهية أيام المباهاة ، ركبوا بهـا إلى الطاغية - قصمه الله - كأنهم وقد سلم يشيدون العاقدة ، فياللرجال الحلوم قـوم سكان بثغر مخوف ن أبناء قتلى وسلالة أسرى ، فلما خلوا مـن هيعـة ، عدمـوا الراعـى العثوف منذ حقب ، فنبذوا السلاح وقعدوا فوق الأرائك مقعد الجبـابرة المتفـاتنين بين أهل موسطة الأندلس ينتظرون من ينبعث من أهلها للقتال عنهم حسبة»(٩١).

ويبدو أن هذه الموقعة التى تحدث عنها ابن حيان كانت من الأحـداث التـى قبل سقوط طليطلة سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م. حيث أن ابن حيان لم يشهد السقوط واحداثه بل توفى رحمه الله قبل ذلك .

ويضاف إلى ما سبق ذلك الوصف الذى قاله الشاعر ابن الجد (٩٢) فى أهل بلنسية وهم خارجون للقاء عدوهم فى معركة بطرنـه (٩٣) سنة ٤٥٦هـ وذلك حينما خرجوا بثياب الزينة غير متأهبين للقتال حيث قال :

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم　　حلل الحرير عليكم ألوانا
ما كان أقبحهم وأحسنكم بها　　لو لم يكن ببطرنة ما كانا(٩٤)

٣- الخلاعة والمجون :

ومن صور الضعف فى القيم الأخلاقية الخلاعة والمجون ، واتضح هذا الأمر فى التعلق بالجوارى والشغف بهن وما صاحب ذلك من شيوع العلاقات الغرامية، والاسترسال فى هذا الأمردون مبالاة بتعاليم الدين ، أو التزام بأداب الحياء والستر وقد ذكر ابن حزم أن الضعف فى هذا المجال عم جميع الناس و لم يسلم منه النزر القليل(٩٥) كما أسهب المؤرخون فى الحديث عن هذا الأمر ، إذ ذكر ابن حيان أن قرطبة حاضرة المسلمين هناك أصبحت مرتعا خصبا لمزاولة تلك الرذائل ، حيث كان ملوك الطوائف إذا احتاجوا إلى شىء من الملهيات يرسلون رسلهم إلى قرطبة للبحث والتنقيب عن الأوصاف التى يريدونها من الجوارى ، وأنه فى شوال سنة ٤٤٢هـ ، ورد على أبى الوليد بن جهور فى قرطبة رسول المظفر بن الأفطس يلتمس شراء وصائف ملهيات يأنس بهن فوجد له صبيتين ملهيتين عند بعض التجار واشتراهماله(٩٦) .

كما ورد على أبى الوليد بن جهور بقرطبة من الكتب فى يوم واحد كتاب من ابن اصمادح صاحب المرية يطلب فيه جارية عواده ، وكتاب من ابن عباد يطلب جارية زامرة(٩٧) .

وقد اشتهر المعتمد بن عباد بأنه كان « له كلف بالنساء وخلط فى أجناسهن ، فانتهى فى ذلك إلى مدى لم يبلغه أحد نظرائه » كما كان مولعا بالنساء حيث خلع ثمانمائة امرأة من أمهات الأولاد، وجوارى المتعة، وإماء الخدمة(٩٨).

وكان مجاهد العامرى صاحب دانية والجزر الشرقية ذاشخصية مزدوجة ، فطورا كان ناسكاً ، وطورا يعود خليعا فاتكا لايساتر بلهو ، ولاللذة ، ولا يستفيق من شراب وبطالة ، ولا يأنس بشىء من الحقيقة ، له ولغيره من سائر ملوك الطوائف فى ذلك أخبار مأثورة(٩٩) ويقول ابن حيان : أما هذيل بن خلف بن زرين صاحب شنتمرية فقد كان من أرفع ملوك الطوائف همة فى اقتناء القينات حيث اشترى جارية بثلاثة آلاف دينار(١٠٠) .

وكان ممن غرقن فى تلك المستنقعات ، ولادة بنت المستكفى الأموى ، والتى أعلنت وقوعها فى هذا الأمر ، حيث كتبت بالذهب على طرازها الأيمن(١٠١) :

أنا والله أصلح للمعالى   وأمشى مشيتى وأتيه فيها

وكتبت على الطراز الأيسر :

وأمكّن عاشقى من صحن خدّى   وأعطى قبلتى من يشتهيها

وقد ذكر ابن حزم فى كتابه طوق الحمامة العديد من صور الانحلال الخلقى التى كانت موجود فى ذلك العصر . ومن أمثلة ذلك مجلس جمع بينه وبين إخوانه عند بعض مياسير أهل بلده وقد وصف المجلس بقوله :« ... فرأيت بين بعض من حضر وبين من كان بالحضرة أيضا من أهل صاحب المجلس أمراً أنكرته ، وغمزا استشعته ، وخلوات الحين بعد الحين ، وصاحب المجلس ، كالغائب أو النائم ، فنبهته بالتعريض فلم ينته ، وحركته بالتصريح فلم يتحرك فجعلت أكرر عليه بيتين قديمين لعله يفطن وهما هذان :

إن إخوانه المقيمين بالأمن   أتوا للزناء لا للغناء

قطعوا أمرهم وأنت حمار   موقر من بلادة وغباء

وأكثرت من إنشاءهن حتى قال لى صاحب المجلس : قد أمللتنا من سماعهما فتفضل بتركهما أو إنشاء « غيرهما فأمسكت وأنا لا أدرى أغافل هوام متغافل ، وما اذكرانى عدت ذلك المجلس بعدها »(١٠٢) .

وبالإضافة إلى ماذكره المؤرخون ، فقد ذكرت كتب الحسبة التى عاصرت أولئك القوم أن التعلق بالقيان أصبح عادة منتشرة بين كثير من شرائح المجتمع وفئاته ولو كانوا من المؤذنين والقضاة حتى قال أحد الشعراء .

ليتنى فى المؤذنين حياتى　　أنهم يرون من فى السطوح

فيشيرون أو تشير إليهم　　بالهوى كل ذات دل مليح(١٠٣)

وقد ذكر ابن عبدون أن مجالس القضاء كان لا ينكر فيها وقوع مراودة المرأة والكلام معها ، وربما طالت قضيتها أمام القضاء ، حتى يتكرر دخولها على القاضى . وقال ابن عبدون أنه رأى هذا عيانا(١٠٤) .

هكذا غرق أولئك القوم فى مستنقع المجون والخلاعة ، وقد استغل هذا الأمر بعض الوزراء والموظفين الذين رغبوا أن يستبدوا بالحكم والسلطان ، فأشغلوا حكامهم بإغراقهم فى الملذات ، وإشغالهم بالنساء اللائى كثرن ، وأخذ الكثيرات منهن تطمح فى ولاية من تربيةً من أبناء السلطان حتى يكون لها الحظوة والغلبة(١٠٥)، ويذكر الأمير عبد الله بن بلقين أن أشغال الحكام بالنساء كان أمرا مألوفا عند وزراء دولة بنى بلقين فى غرناطة(١٠٦) .

أما شرب الخمر فى قرطبة وغيرها من بلدان ملوك الطوائف فيبدو أنه أصبح أمرا لاغرابة فيه فى ذلك العصر ، حيث يذكر ابن حزم أن بيع الخمر فى بلاد المسلمين - آنذاك - أصبح أمراً مباحاً(١٠٧) ولهذا لما حاول أبو الحزم ابن جهور منعها مدحه الشعراء ومنهم ابن زيدون ، وعبد الرحمن بن سعيد المصغر(١٠٨) ، كما ذكر المقرى أن وادى إشبيلية لا يخلو من جميع أدوات الطرب وأن شرب الخمر فيه غير منكر(١٠٩) .

ولعل القارىء لدواوين الشعر فى ذلك الوقت يدرك كيف أن وصف الخمرة والتغنى بها كان أمرا مألوفا عند كثير من شعراء ذلك العصر حتى قال أحدهم(١١٠) .

جرت منى الخمر مجرى دمى　　فجل حياتى من سكرها

ولم يكن هذا الأمر قاصرا على فئة معينة من الناس ، بل كان كثير من الناس يقضون لياليهم إيقاظا يجتمعون على الكؤس حتى الصباح(١١١) .

بل لقد ذكر ابن عبدون أن مجالس القضاء لم تخل من ذلك حيث إن الخصماء أمام القضاة ما رسوا ذلك(١١٢) .

وكان للطرب والغناء نصيب عند أولئك القوم ، فقد كانوا يتفاخرون بكثرة آلاتها وبجيديها حيث يقولون : عند فلان عودان وثلاثة وأربعة وأكثر من ذلك(١١٣) .

ولو حاولنا استقصاء ماذكره المؤرخون حول الطرب والغناء فى عهد ملوك الطوائف لطال بنا المقام ولكن قد يكون من المناسب أن نكتفى بذكر ماقاله أحد الباحثين حول هذا الموضوع حيث قال :((فانتشرت مجالس الغناء وأصبح هذا الفن بجملته جزءا من ثقافة الشعب حتى لنجد الفلاح فى حقله ، والعامل فى مصنعه ، والفقير فى كوخه ، لايقل ولع أحدهم بالغناء عن الأمراء والعظماء(١١٤).

وكان هاجس الترف واللهو يسيطر على عقول أولئك القوم حتى وهم فى ساحات الوغى وميادين القتال .فالمعتمد بن عباد حينما كان يحكم شلب أرسله أبوه ليحتل مالقة ، لكنه فى الطريق إليها انشغل باللهو والسرور صحبة مغنيات كان يلتقطهن أثناء مسيره إليها ، فلم يستعد لمنازلة الخصوم فهزم . فلما عاد إلى أبيه ، وكان غاضبا عليه أرسل إليه قصيدة جاء فيها :

لم أوت من زمنى شيئًا ألذبه	فلست أعهد ماكأس ولا وتر
ولا تملكنى ذلّ ولا خفر	ولا سبى خلدى غنج ولا حور
هو المدام التى أسلوبها فإذا	عدمتها عبثت فىقلبى الفكر(١١٥)

وقد كان انشغال الظافر بن المعتمد بن عباد حاكم قرطبة ووزيره ابن مرتين باللهو والشراب سبباً فى دخول ابن عكاشة مدينة قرطبة وقتله إياهم(١١٦) .

وقد بدأت أعراض تلك الأوجاع التى حلت بالمجتمع الإسلامى فى الأندلس فى تلك الفترة تظهر عيانا فاستخف بعض الناس بالدين وتجردوا من الأخلاق والقيم الإسلامية ، وانتشر العهر بين النساء والبنات ، بل إن بعض زعماء ذلك العصر أباح لرجاله محارم الناس ، فكانوا يأخذون النساء من أزواجهن ، والبنات من آبائهن ، بل إن أحدهم زنى بزوجة أبيه وبعمته غير مبال بحرمة أو مرتدع من دين أو سلطان (١١٧) .

ومن صور الانحلال الخلقى ؛ الشغف بالغلمان ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره ابن حزم من أن إبراهيم بن سيار النظام رأس المعتزلة فى الأندلس ، عشق غلاما نصرانيا فوضع له كتابا فى تفضيل التثليث على التوحيد تقربا إليه(١١٨) ، كما يذكر - أيضا - أنه فى ذلك العصر عظم البلاء فهان القبيح ورق الدين حتى رضى الإنسان بالفضائح والقبائح مقابل وصوله مراده وشهوته . وقد حكى لنا كثيرا من القصص حول هذا الموضوع منها ماذكره حول « عبيد الله بن يحيى الأزدى المعروف بابن الحريرى فإنه رضى بإهمال داره وإباحة حريمة والتعريض بأهلة طمعا فى الحصول على بغيته من فتى كان علقه ...»(١١٩).

كذلك ذكر ابن بسام أن ابن السقا(١٢٠) وزير بنى جهور كان رجلاً عَهر الخلوة لزهده فى النساء ، وكلفه بالغلمان ، حيث اتخذ داراً آخر مدته للخلوة بهم. فكان لا يخدمه فيها ولايحف به غير خاصة غلمانه كما كان لايأذن لأحد من طبقات الناس بالدخول إليه فيها ، ولهذا أكثر الناس القول فى هذه الدار وسموها دار اللذة(١٢١) .

وتحتوى كتب الأدب ودواوين الشعر على نماذج كثيرة لهذا النوع من الإنحلال الأخلاقى . وقد وصف ابن خاقاب أحد أدباء إشبيلية بقوله إنه : « لا يحفل بملام ، ولا ينتقل عن المدام إلا فى طاعة غلام »(١٢٢) كما قال فى وصف آخر أنه كان أليف غلمان(١٢٣).

ومن العجب أن هؤلاء القوم على الرغم من وقوعهم أسرى لملذاتهم وشهواتهم إلا أنهم كانوا وهم فى تلك الحال لا يعفون عمن يشعرون بأنه يسىء

إليهم ، أو يهدد سلطانهم . فالمعتمد بن عباد حينما غنت له إحدى الجوارى وقع فى نفسه أنها تعرّض بالمرابطين فألقاها فى النهر وهلكتْ ...(١٢٤).

أما عن أثار ونتائج هذا التدهور الخلقى الذى أصاب - ملوك الطوائف فلا شك أنها كات وخيمه وبخاصه فى الجوانب السياسيه والعسكرية ذلك لأن النصارى كانوا يراقبون واقع المسلمين فلما رأوا أنهم قد غرقوا فى مستنقع الفحش والرذيلة ، وأنهم أصبحوا يعيشون حياة طابعها الخلاعة والمجون ، أخذوا يسعون للإطاحة بهم . وقد بيّن هذا الأمر السيد القمبيطور فى خطابه إلى أعيان بلنسية ، ومما جاء فيه : « ... من كانت له قضية عادلة فليأت إلى متى شاء ، وسأستمع إليه ، فإنى لا احتجب عنكم ، ولا أخلو مع النساء للشراب والغناء كما كان يفعل أولو أمركم ممن لم يمكنكم قط رؤيتهم »(١٢٥) .

هكذا زالت هيبة ملوك الطوائف من نفوس أعدائهم ، وكسر حاجز القوة بينهم بسبب تردى أخلاقهم وانغماسهم فى حياة المتع واللذائذ ، ولم يكن هذا الشعور عند النصارى فقط ، بل إنهم هانوا حتى فى نظر إخوانهم المسلمين ، كما يتضح فى قول السلطان يوسف بن تاشفين (٤٦٥-٥٠٠هـ) :« إنما كان غرضنا فى ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدى الروم لما رأينا استيلاءهم على أكثرها ، وغفلة ملوكهم وإهمالهم للغزو ، وتواكلهم وتخاذلهم ، وإيثارهم الراحة، إنما همة أحدهم كأس يشربها ، وقينة تسمعه ، ولهو يقطع به أيامه ، ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التى ملكها الروم طوال هذه الفتنة إلى المسلمين ، ولأملأنها عليهم - يعنى الروم خيلاً ورجالاً لاعهد لهم بالدعة ، ولا علم عندهم برخاء العيش ، وإنما أحدهم فرس يروضه ، ويستفرهه ، أو سلاح يستجيده ، أو صريخ يلبى دعوته ...»(١٢٦) .

ومما لاشك فيه أن هذا الضعف الذى منى به ملوك الطوائف جعل مسلمى الأندلس يصابون بخيبة أمل ؛ لأنهم أدركوا أن زمام الموقف أصبح بيد النصارى المتربصين ، عبر عن هذا الشعور الشاعر الأندلسى ابن العسال حينما قال :

حثـوا واحلكم يـا أهـل أندلس　　فمـا المقـام بهـا إلا من الغلط
السـلك ينثـر من أطرافه وأرى　　سـلك الجزيرة منثورا من الوسـط
من جاور الشـر لايأمن عواقبه　　كيف الحياة مع الحيات فى سفط؟(١٢٧)

و لم يكن هذا الشعور قاصرا على المسلمين بل تعداهـم إلى العـدو النصرانـى الذى أدرك أن حصون المسلمين الداخلية قد ضعفت وأن الفرصـة أصبحت مهيـأة له لدخول الثغور والحصون الخارجية . ولهذا وضعوا خطة حربية تتناسب مع ذلـك الواقع . وقد أبان هذه الاستراتيجية الحربية فرناندو بـن شـانجة ملـك جليقيـة أثنـاء حصار النصارى لمدينـة طليطلـة سنة ٤٧٨هـ حيـث قـال لأهلهـا الذين خرجـوا يطلبون الصلح معه لما أعيتهم المقاومة :« ... مـا أجيبكـم إلى سلم ، ولا أعفيكـم من حرب ... فإنما نطلب بلادنا التى غلبتمونا عليها قديما فـى أول أمركـم ، فقـد سكنتموها مـا قضـى لكـم ، وقـد نصرنـا الآن عليكـم برداءتكـم ، فـارحلوا إلى عدوتكم - يعنى بلاد المغرب - واتركوا لنا بلادنا ، فلا خـير لكـم فـى سـكناكم معنا بعد اليوم ...»(١٢٨) كما أبانها الفونسو السـادس - ملـك قشتالة - حيـث قال لرسول المعتمد بن عباد حينما قدم إليه : «... كيف أترك قوما مجـانين تسـمى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم ... وكل واحد منهم لايسل فـى الـذب عـن نفسه سيفا ، ولايرفـع عـن رعيتـه ضيمـا ، ولاحيفـا قـد أظهـروا الفسـوق والعصيان، واعتكفوا على المغانى والعيدان! وكيف يحل لبشـر أن يقـر منهـم علـى رعيته أحداً ، وأن يدعها فى أيديهم سدى »(١٢٩) .

وقال أحد قادة النصارى بعـد إحـدى المعارك التى خاضها مع المسـلمين : « كنا نظن أن الدين والشجاعة والحق عند أهل قرطبة ، فـإذا القـوم لاديـن لهـم ، ولاشـجاعة فيهـم ، ولاعقـول معهـم(١٣٠) » . وقـد أكّـد هـذا الأمـر الكـاتب النصرانى (انخل بالنثيا) حينما ذكر أن ملوك الطوائف وهن أمرهم بسـبب مـاحل بهم من ترف وبذخ وسعى للمطامع والنزوات(١٣١) .

وقد صرح بتلك النوايا والخلط وزير الفونسو السادس ششنندو (مسـنندو) حيث يذكر الأمير عبد الله بن بلقين فى مذكراتـه أن هـذا الوزيـر النصرانـى قـال

لمسلمى غرناطة قبيل سقوط مدينة طليطلة بأيدى النصارى سنة ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) « إنما كانت الأندلس للروم فى أول الأمر حتى غلبهم العرب وألحقوهم بأنحس البقاع جليقية فهم الآن عند التمكن طامعين بأخذ ظلاماتهم فلا يصح ذلك إلا بضعف الحال ، والمطاولة حتى إذا لم يبق مال ولا رجال أخذناها بلاتكلف »(١٣٢).



هذا عرضا لبعض ما سجله المؤرخون عن ظاهرة الضعف فى القيم الأخلاقية ، فى المجتمع الإسلامى فى عصر ملوك الطوائف(١٣٣). ومما لاشك فيه أن هذا التحول فى حياة الناس فى ذلك العصر يعد منزلقا خطيراً وسابقة لها مابعدها من النتائج والآثار . ومن أهم النتائج المترتبة على ذلك بداية الزحف النصرانى على الثغور الإسلامية مما أدى إلى سقوط العديد من القواعد الإسلامية مثل طليطلة وقلمرية ، وبرنشتر ، وبلنسية وغيرها ، مما أدى إلى إنحسار الوجود الإسلامى ، ومكن العدو من القضاء على دوله المسلمين بالأندلس .

الهوامش

(1) Suarez Fernamdez : Manual de Historia umiverral . Tomo lll Madrid 1972 Zo Edi pp 159 .

(٢) رجب محمد عبد الحليم : العلاقات ص٢٩٦. وقد تمخض عن حياة الترف والمجون ثروة أدبية تمثلت فى الشعر والنثر الذى قاله كثير ممن عشق تلكم الحياة ، مما أثرى الجانب الأدبى فى ذلك العصر ، وقد اعترف بذلك عدد من المؤرخين المسلمين والنصارى .

انظر: ابن نباته : سراج العيون فى شرح رسالة ابن زيدون ص٧

Menendez Pidal : Poesia , arabe Poesia Europes Coleccior austral No 19 Madrid , 1975 pp 94 .

Jose Hagerty : Al-muctamid : Poesia Barcelona 1979, pp17

(٣) سورة الإسراء ١٦.

(٤) المقدمة جـ١ص٢٥٢-٣٥٣

(٥) ابن بسام : الذخيرة ق٣جـ١ص١٨٨-١٨٩،(نقلا عن ابن حيان) المقرى: نفح الطيب جـ٤ص٤٥٢.

(٦) ابن حزم : رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس جـ٣ص٤١.

(٧) المصدر السابق ص١٧٦.

(٨) ابن عذرى : البيان المغرب جـ٣ص٩٠.

(٩) تاريخ الأندلس ص٧٧-٧٨.

(١٠) ابن بسام : الذخيرة ق٢جـ١ ص٢٥٦-٢٥٧.

(١١) المقرى : نفح الطيب جـ٤ص٤٨٤ - ٤٨٦ ، وهذه القصيدة تبلغ اثنين وسبعين بيتاً ، وقد قام الدكتور الطاهر أحمد مكى بتحليلها والتعرف على هوية قائلها .

(انظر كتابه :(دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة جـ١ص٢٢٩.)

(١٢) البيان المغرب جـ٣ص٢٣٠.

(١٣) رجب محمد عبد الحليم : العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية فى عصر بنى أمية وملوك الطوائف ص ٣٠١.

(١٤) البيان المغرب جـ٣ ص٢١٢.

(١٥) المصدر السابق ص١٤٨,٢٣٢.

(١٦) قلائد العقبان ص١٢٦.

(١٧) ابن الأبار: الحلة السيراء حـ٢ص٤٦.

(١٨) المراكشي : المعجب ص١٥٢.

(١٩) ابن عذارى : البيان المغرب حـ٣ص١٢٣.

(٢٠) المصدر السابق حـ٣ص١٢٣.

(٢١) المصدر السابق حـ٣ص١٨٣.

وقد قال عنه ابن عذارى بأنه حيّة صماء لم يشارك فى معونة مسلمى الأندلسى بدرهم، ولم يمد بفارس على كثرة ماطرق الأندلس من الخطوب (البيان المغرب حـ٣ص١٨٣) كما ذكر أحد الباحثين المحدثين بأن التاريخ لم يحتفظ له بصفة كريمة تستحق الذكر ، وكل ما عرف عنه هو انهماكه فى الملذات والترف والإسراف فى ذلك) سعد البشرى : الحياة العلمية فى عصر ملوك الطوائف ص٨٢.

(٢٢) المراكشي : المعجب ص١٤١.

(٢٣) انظر تفصيلات ذلك فى المعجب ص١٤٤-١٤٥.

(٢٤) ابن عذارى : البيان المغرب حـ٣ص٢٠٥.

(٢٥) ابن بسام : الذخيرة ق١حـ٢ص٢٦(نقلا عن ابن حيان)

(٢٦) ابن عذارى : البيان المغرب حـ٣ص٢٢٩.

(٢٧) ابن عذارى : البيان المغرب حـ٣ص١٦٠-١٦١.

(٢٨) ابن عذارى: البيان المغرب حـ٣ص١٦٢(نقلا عن ابن حيان) .

(٢٩) المصدر السابق حـ٣ص١٦٢.

(٣٠) سراج الملوك ص١٦٧.

(٣١) يلحظ القارىء أن المؤرخين حينما تحدثوا عن تلك التصرفات كانوا يتحدثون ، بتحسر ومرارة . فابن حيان عد تولى مبارك ومظفر بأنه من غرائب الليالى والأيام اللاعبة بالأنام، كما ذكر أن توليهما الحكم هو من الحجج البالغة والدالة على هوان الدنيا عند الله ، ولكنهما مع ذلك كانا بعيدين عن الأعتبار.

(ابن عذارى : البيان المغرب حـ٣ص١٥٨،و١٦٢نقلا عن ابن حيان).

أما ابن عذارى فقد عد وفاة مبارك بأنها نعمة حيث أمن أهل البلد من مقته وكفاهم الله أمره ، كما أنه ذكر سببا معينا لتلك الوفاة مرتبط بظلمه للناس ، وتعديه على أموالهم

حيث قال :(وكان سبب موت مبارك أنه ركب يوماً من قصر بلنسية يبغى الخروج للنزهة خارج البلد ... وأهل بلنسية يستغيثونه في أن يرفق لهم في مال كان قد افترضه عليهم فقال لهم يومئذ : اللهم إن كنت لا أريد إنفاقه فيما يعم المسلمين نفعه فلا تؤخر عقوبتى الساعة ، ثم ركب إثر ذلك ، فلما أتى القنطرة وكانت من خشب خرجت رجل فرسه ، فرمى به أسفلها واعترضته خشبة نائية من القنطرة شدخت وجهه وسقط لفيه ويديه ، وسقط الفرس عليه وكسر عظامه ، وفتق بطنه ففاضت نفسه لوقته ، وأمن أهل البلد من مقته ...)) (ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص١٦٣.)

أما ابن بسام فقال فيهما عبدى مهنة وأميرى فتنة قل الناس فكثروا ، وخلالهم الجو فباضوا ، وصفروا ، تساوى عندهم سجع البلبل ورغاء الإبل. (ابن عذارى: البيان المغرب جـ٣ ص ١٦٢ - ١٦٣) .

(٣١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص١٦٢-١٦٣(نقلا عن ابن بسام).

(٣٢) ابن بسام : الذخيرة ق١جـ١ص١٨١.

(٣٣) وقد ذكر ابن عذارى أن ابن صمادح تلقب من الألقاب السلطانية بالمعتصم والرشيد وهو يعلم أن من الجور والباطل ملكه الذى ورثه عن أب لم يكرم فيه فعله ولاطال فيه تعبه.

ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص١٧٤

(٣٤) ابن بسام : الذخيرة ق١جـ٢ص٧٣٢.

(٣٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص١٨٣.

(٣٦) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص١٨٤. (نقلا عن ابن بسام).

(٣٧) ابن بسام : الذخيرة ق ؟؟؟ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٤٩، ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص٢٣٣.

(٣٨) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص٢٥٩.

(٣٩) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص٢٦٠(نقلا عن الكتاب المذكور أعلاه).

(٤٠) الأحكام الكبرى (مخطوط)ورقة ١٥٠.

(٤١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص٢٤٢.

(٤٢) ليث جاسم : أن عبد البر الأندلسى ص٦١.

(٤٣) البيان المغرب جـ٣ص٢٨٢.

(٤٤) الذخيرة ق١جـ٢ص٧٣٣.

(٤٥) يذكر ابن عذارى أنه كان من بين الأسرى الذين أسرهم باديس عدد من حملة الأقلام مثل الوزير أحمد بن عباس وابن حزم وأبو الوليد الباجى، وغيرهم حيث عفى عنهم جميعا دون الوزير بن عباس الذى أمر بقتله ؛ لأنه كان سبباً لتلك المعركة .(البيان المغرب جـ٣ص١٧١).

(٤٦) انظر فى تفضيلات ذلك كلا من عبد الله بن بلقين التبيان ص٢٢-٢٣، ابن بسام : الذخيرة ق١جـ٢ص٦٦٢،٧٣١-٦٦٥، ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص١٦٦و١٧١.

(٤٧) ابن بسام : الذخيرة ق١جـ١ص٢٧٢، (نقلا عن ابن حيان) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص٢٠٢.

(٤٨) هشام بن الحكم المستنصر : ولى الأمر بعد وفاة أبيه سنة ٣٦٦هـ ، وسنه عشرة أعوام وبضعة أشهر ، حيث تولى الوزير محمد بن عبد الله بن أبى عامر الوصاية عليه، وفى سنة ٣٩٩هـ خرج عليه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، الملقب بالمهدى حيث خلعه وقتل وزيره عبد الرحمن بن أبى عامر ، ومن هنا نشأت الفتنة ببلاد الأندلس.
وقد بقى هشام بن الحكم (المؤيد) فى قرطبة حتى دخلها سليمان بن الحكم المستعين بالله سنة ٤٠٣هـ ، وهنا اختلف المؤرخون حول مصيره فابن بسام وابن عذارى قالا : قيل إنه قتل ، وقيل : إنه فر من أمام المستعين ، أما ابن الخطيب فيشك فى مقتل هشام حيث يذكر أن موت هشام مشكوك فيه ، بينما يجزم المراكشى بمقتل هشام على يد البربر الذين دخلوا مع سليمان المستعين .
هكذا تباينت آراء المؤرخين حول مصير هشام المؤيد بعد دخول سليمان المستعين لقرطبة سنة ٤٠٣هـ .

ويذكر ابن عذارى أنه لما قامت دولة بنى عباد فى إشبيلية ، وكانت بحاجة إلى سند شرعى يدعم كيانها أمام بعض متربصى ملوك الطوائف لاسيما بنى حمود ، أعلن أبو القاسم بن عباد فى سنة ٤٢٦هـ ، أن هشام المؤيد مختف خشية الفتنة ، وأن بنى عباد قد بايعوه خليفة للمسلمين فى إشبيلية ، كما يذكر ابن عذارى أنه بعد مبايعته أنزل ابن عباد معه فى القصر ، وسلم له مقاليد السلطة ، حيث أصبح حاجبا له كا لمنصور بن أبى

عامر، ثم خطب لهشام فى بعض أقاليم بلاد الأندلس ، مما قطع الأطماع ضد بنى عباد ، لكن ابن الخطيب ذكر أن بعض ملوك الطوائف أرسلوا رجالا للتأكد من صحة الأمر فأدخلوا على الرجل فى بيت مظلم مدعيا أنه يشكو من مرض فى عينه ، فكلمهم وكلموه ، ثم خرجوا من عنده منهم المقر ومنهم المنكر ، وقد سخر ابن حزم من هذا الادعاء ، واعتبره من الادعاءات التى لم تحدث مثلها فى التاريخ (ابن حزم : العروس ص٨٣-٨٤، ابن بسام : الذخيرة ق١جـ١ص٣٧، ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص٣١٤-٣١٥، ابن الخطيب: أعمال الأعلام القسم الثانى ص١٥٤، المراكشى : المعجب ص٤٥-٤٧).

(٤٩) ابن عذارى ك البيان المغرب جـ٣ص٢٠١.

(٥٠) ابن بسام : الذخيرة ق١جـ٢ص٦٠٩، ابن الخطيب ، أعمال الأعلام جـ ٣ص١٤٩، ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص٢٣٣،و ٢٦٠، يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس ص٤١.

(٥١) ابن بسام : الذخيرة ق٢جـ١ص١٨.

(٥٢) ابن بسام : الذخيرة ق١جـ١ص٢٨٦-٢٨٧.

(٥٣) ابن بسام : الذخيرة ق١جـ١ص٢٨٧-٢٨٨، ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص٢٠٢، دوزى : ملوك الطوائف ص٢٩.

(٥٤) مدينة وادى الحجارة : تعرف بمدينة الفرج بالأندلس تقع شرق قرطبة ، وهى مدينة كثيرة الأرزاق جامعة لأشتات المنافع ، وبينها وبين طليطلة خمسة وستون ميلا . (الحميرى : الروض المعطار ص٦٠٦).

(٥٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص٢٧٧.

(٥٦) ابن بسام : الذخيرة ق٤جـ١ص٢٦٦.

(٥٧) رحب عبد الحليم : العلاقات ص٢٨٨.

(٥٨) رحب عبد الحليم : العلاقات ص٢٩٣،٣٠١.

(٥٩) المرجع السابق ص٢٩٤.

(٦٠) العبر فى خبر من غبر جـ٣ص٣٨٣.

(٦١) ابن بسام : الذخيرة ق١جـ٢ص٦٠(نقلا عن ابن حيان).

(٦٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص١٨٦(نقلا عن ابن حيان).

(٦٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص١٨٦.

(٦٤) ابن بسام : الذخيرة ق١جـ٣ص٦٠٣.

(٦٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص١٨٦.

(٦٦) المصدر السابق ص٢٣٠.

(٦٧) بربشتر : إحد مدن الثغر الأعلى الأندلسى ، تقع شمال شرق سرقسطة ، وتعد من أمنع القواعد الأندلسية ، أغار عليها النورماينون سنة ٤٥٦هـ ، فتخاذل عن نصرتها جارها أحمد بن هود ، حيث كانت تتبع لأخيه يوسف الذى لم يتمكن من إعانتا ، وقد سقطت بيد النصارى بعد أربعين يوما من الحصار القاسى حينما عطش أهلها ، وقد أدى سقوطها إلى رد فعل قوى عند مسلمى الأندلس حيث تمكنوا من استعادتها بعد تسعة أشهر من سقوطها .

(انظر فى تفصيلات ذلك ابن بسام : الذخيرة ق١جـ٣ص١٨٩-١٩٠، ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص٢٥٣-٢٥٤ ابن الآبار: الحلة السيراء جـ٢ص٢٤٧).

(٦٨) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص٢٥٣(نقلا عن البكرى).

(٦٩) المقرى : نفح الطيب جـ١ص٢٧٥(نقلا عن الحجارى).

(٧٠) ابن بسام : الذخيرة ق٤جـ١ص١٩٢، بالنثيا: الفكر الأندلسى ص١١١.

(٧١) بالنثيا : الفكر الأندلسى ص٩٧.

(٧٢) المقرى : نفح الطيب جـ٤ص٢٦١.

(٧٣) المقرى : نفح الطيب جـ١ص٤٤٠.

(٧٤) المصدر السابق جـ٤ص٤٤٠.

(٧٥) المصدر السابق جـ٤ص٤٤٠.

(٧٦) ابن بسام : الذخيرة ق٤جـ١ص١٤٣-١٤٩.

(٧٧) المصدر السابق جـ ٤ص١٤٩.

(٧٨) المصدر السابق ص١٤٥-١٤٦.

(٧٩) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص١٦١.

(٨٠) المصدر السابق جـ٣ص١٦١.

(٨١) ابن بسام : الذخيرة ق٤جـ١ص١٤٦.

(٨٢) المصدر السابق ص١٤٨.

(٨٣) المصدر السابق ص١٤٧.

(٨٤) الذخيرة ، ق٤جـ١٤٦ ، ص ١٤٦-١٤٨.

(٨٥) ابن عذارى : جـ ٣ ص ١٥٦(نقلا عن ابن حيان).

(٨٦) ابن بسام : الذخيرة ق٣جـ٣ ٨٥٥،و٨٥٠(نقلاً عن ابن حيان)

(٨٧) نصوص عن تواريخ الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار ص٩٣.

(٨٩) التبيان ص١٩.

(٩٠) المصدر السابق جـ٤٢،و٥٣.

(٩١) ابن بسام : الذخيرة ق٣جـ٢ص٨٥٠.

(٩٢) بطرنة : قرية من قرى بلنسية (ابن سعيد الأندلسي : المغرب جـ٢ص٣٥٥، المقرى : نفح الطيب جـ١ص١٤٣،وجـ ٤ ص٤٤٨.

(٩٣) هو أبو الحسين يوسف بن محمد بن الجد ، وبنو الجد ينتسبون إلى بنى فهر سكنوا ليله وقد أثنى ابن بسام على هذا الشاعر ، وقد استكتبه الوزير ابن عمار (ابن بسام : الذخيرة ق٢جـ٢ص٥٥٦، ابن سعيد : المغرب جـ١ص٣٤٠

(٩٤) ابن بسام : الذخيرة ق٣جـ٢ص٨٥٠، المقرى : نفح الطيب جـ١ص١٨١

(٩٥) طوق الحمامة وقد أشار إلى ذلك فى مواضع مختلفة ، انظر مثلا : ص٩٢ ، و٧١ ، و٧٢، و٤٠ ، و٤٢ ، وغيرها .

(٩٦) ابن عذارى : البيان المغربى جـ٣ص٢١٢(نقلا عن ابن حيان)

(٩٧) المصدر السابق جـ٣ص٢١٢.

(٩٨) ابن الآبار : الحلة السيراء جـ٢ص٤٣،٥٣.

(٩٩) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص١٥٦(نقلا عن ابن حيان)

(١٠٠) المصدر السابق جـ٣ص٣٠٨.

(١٠١) المقرى : نفح الطيب جـ٤ص٢٠٥.

(١٠٢) طوق الحمامة ص١٧١، وقد ذكر ابن حزم أنه قال فى هذا الرجل قطعة من الشعر منها :

أنت لا شك أحسن الناس ظنا ... ويقينا ونية وضميرا

ليس كل الركوع فأعلم صلاة ... لا ولا كل ذى لحظ بصيرا

(طوق الحمامة ص ١٧٢).

(١٠٣) السقطى : أداب الحسبة ص٨.

(١٠٤) ابن عبدون : رسالة فى القضاء والحسبة ص١٢-١٣.

(١٠٥) رجب محمد عبد الحليم : العلاقات ص٢٩٦.

(١٠٦) مذكرات الأمير عبد الله ص٨٥.

(١٠٧) رسائل ابن حزم ص١٧٤.

(١٠٨) ابن بسام : الذخيرة ق١جـ١ص٣٨٨.

(١٠٩) المقرى : نفح الطيب جـ٤ص١٩٩.

(١١٠) ابن سعيد : المغرب جـ١ص٣٦٩.

(١١١) رجب محمد عبد الحليم : العلاقات جـ١ص٣٠٠.

(١١٢) رسالة فى القضاء والحسبة ص١٣

(١١٣) العذرى : نصوص عن الأندلس ص١٨.

(١١٤) محمد عبد الوهاب خلاف : قرطبة الإسلامية ص٣٢١.

(١١٥) ابن الأبار : الحلة السيراء جـ٢ص٤٦.، هنرى بيريس : الشعر الأندلسى فى عصر الطوائف ص٣١٨.

(١١٦) ابن الخطيب : أعمال الأعلام جـ٣ص١٥١ .

(١١٧) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص٣١٣.

(١١٨) طوق الحمامة ١٣٠ .

(١١٩) المصدر السابق ص١٣٠.

(١٢٠) هو أبو الحسن إبراهيم بن محمد بن يحيى المعروف بابن السقا ، كان فى أول أمره فقيراً كابد من شظف المعيشة كان يسكن مع إخوته بدار صهره بجوار المسجد الجامع فى قرطبة ، لكنه لما تولى الأمامة أثرى على حساب الآخرين حيث يذكر ابن حيان أنه لما تحمل الأمانة جعلها أسفل رحله ، كما تحول إلى حرداً للسرقة والخيانة حيث ابتنى القصور المنيعة . (ابن بسام : الذخيرة ق٤جـ١ص١٣٨-١٤٠) .

(١٢١) الذخيرة ق٤ جـ١ ص٢٤٢-٢٤٣.

(١٢٢) قلائد العقيان ٦٨٣.

(١٢٣) المصدر السابق ص٧١٧

(١٢٤) المقرى : نفح الطيب جـ٤ص٢٧٦.

(١٢٥) راجع طاهر مكى ص٤١٧.

(١٢٦) المراكشى : المعجب ص٢٤١-٢٤٢.

(١٢٧) ابن سعيد : رآيات المبرزين ص٥٠، المقرى : نفح الطيب جـ٤ص٣٥٢.

(١٢٨) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص٢٨٢.

(١٢٩) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ص٨٩.

(١٣٠) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ ص٩٠.

(١٣١) انخل حننالت بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى (ترجمة حسين مؤنس) ص٧٧-٧٨).

(١٣٢) التبيان ص٧٣.

(١٣٣) قد يبدو للقارىء أن ما ذكرناه من صور لهذه الظاهرة فيه شيء من المبالغة ، ولكن هذا الأمر يتبدد ويزول حينما يتذكر القارىء أن ما ذكرناه من صور إنما هى من روايات المعاصرين الذين عايشوا تلكم الأحداث كابن حيان ، وابن حزم ، وابن بلقين وغيرهم .

المصادر والمراجع

- **ابن الأبار** : أبـو عبـد الله محمــد بن عبد الله القضاعى المعروف بـابن الآبـار (ت٦٥٨هـ)

- **الحلة السيراء** :تحقيق حسين مؤنس - نشر الشركة العربية للطباعة والنشر ط / الأولى ١٩٦٣م .

- **ابن الأثير** : أبو الحسن على بن محمد الشيبانى (ت٦٣٠هـ) .

الكامل فى التاريخ/ نشر دار صادر بيروت ١٣٨٥هـ.

- **بالنثيا** : انخل جنثالث ، تاريخ الفكر الأندلسى - ترجمة الدكتور حسين مؤنس القاهرة ١٩٥٥م.

- **ابن بسام** : أبو الحسن على بن بسام الشنترينى (٥٤٢ هـ) .

الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة - تحقيق الدكتور إحسـان عبـاس / دار الثقافـة بيروت ، ط/ الثانية ١٣٩٩هـ .

- **ابن بلقين** : عبد الله بن بلقين الصناجى (٤٨٣ هـ) .

مذكـرات الأمير عبد الله المسمّى بكتـاب التبيـان - نشـر وتحقيــق أ. ليفــى بروفنسال / دار المعارف بمصر (ذخائر العرب١٨).

- **جاسم** : ليث سعود

ابن عبد البر الأندلسى وجهوده فى التاريخ - نشر دار الوفاء للطباعـة والنشر والتوزيع بالقاهرة . الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ .

- **جمهرة أنساب العرب** :

تحقيق عبد السلام هارون - دار المعارف بمصر ١٣٨٢هـ .

- **ابن حزم** : أبو محمد بن حزم (٤٥٦هـ) :

رسائل ابن حزم الأندلسى - تحقيق الدكتور إحسان عباس

- **الحميدى** : أبو عبد الله بن أبى نصر (ت ٤٨٨ هـ) .

جذوة المقتبس فى تاريخ علماء الأندلس - تحقيق إبراهيم الأبيارى الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ .

- **ابن الخطيب** : أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٧٧٦ هـ) :

أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام القسم الثالث تحقيق ليفى بروفنسال - نشر دار الكشوف ، الطبعة الثانية بيروت ١٩٥٦ م .

- **خلاف محمد عبد الوهاب** : قرطبة الإسلامية فى القرن الخامس الهجرى الحياة الاقتصادية والاجتماعية الدار التونسية للنشرتونس ١٩٨٤ م .

- **ابن خلدون** : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ) : العبر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر . بيروت ، دار الفكر الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ .

- **الذهبى** : أبو عبد الله شمس الدين الذهبى (ت ٧٤٨ هـ) : العبر فى خبر من غبر ، تحقيق فؤاد الرشيد ، نشر دار المطبوعات والنشر بالكويت ١٩٦١ م .

- **ابن سعيد المغربى** : على بن موسى بن محمد (ت ٦٨٥ هـ) ، المغرب فى حلى المغرب . تحقيق شوقى ضيف . نشر دار المعارف بمصر .

- **السقطى أبو عبد الله محمد بن أبى أحمد** (ت ٥٢٠ هـ) .

آداب الحسبة ، باريس ، المطبعة الدولية ١٩٣١ م .

- **ابن سهل الأندلسى** (أبو الأصبع عيسى) ت ٤٨٦ هـ .

الأحكام الكبرى (أو نوازل ابن سهل) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط برقم ٣٣٩٨.

- **الضبى** : أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبى (ت ٥٩٩ هـ) : بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس علمائها وأمرائها وشعرائها وذوى النباهة فيها ممن دخل إليها أو خرج عنها ، طبع فى مدينة مجريط سنة ١٨٨٤م.

- **الطبرى** : محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) .

تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم بيروت .

- **الطرطوشى** : أبو بكر محمد بن الوليد (ت ٥٢٠ هـ) : سراج الملوك .

تحقيق محمد فقى أبو بكر ط/ الأولى ١٤١٤ هـ .

- **طوق الحمامة فى الألفة والألاف** : تحقيق حسن كامل الصير فى ، وتقديم إبراهيم الأبيارى ، نشر المكتبة التجارية الكبرى بمصر .

- **عبد الحليم** : رحب محمد ، العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية فى عصر بنى أمية وملوك الطوائف ، دار الكتب الإسلامية .

- **ابن عبد ربه** : العقد الفريد .

- **ابن عبدون** : محمد بد أحمد التجيبى (ت ق ٦) ، رسالة فى القضاء والحسبة، ضمن ثلاث رسائل أندلسية فى آداب الحسبة والمحتسبة ، نشرها ليفى بروفنسال ، طبع المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية القاهرة ١٩٥٥ م .

- **ابن عذارى** : أبو عبد الله محمد المراكشى (ت بعد ٧١٢ هـ) .

البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب . تحقيق ومراجعة ج . س . كولان و أ. ليفى بروفنسال . دار الثقافة بيروت الطبعة الثالثة ١٩٨٣ م .

- **العذرى** : أبو العباس أحمد بن عمر (ت ٤٧٨ هـ) ، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع لأخبار ...) / معهد الدراسات الإسلامية مدريد ١٩٦٥ م .

- العطار : نجاح ، الأندلس من نفح الطيب ، نشر وزارة الثقافة السورية دمشق ١٩٩٠م .

- ابن الفرضى : أبو الوليد عبد الله بن محمد (ت ٤٠٣ هـ) .

تاريخ علماء الأندلس ، تحقيق إبراهيم الأبيارى ، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ ، دار صادر بيروت .

- ابن القوطية : أبو بكر محمد بن عمر (ت ٣٦٧ هـ) .

تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق إبراهيم الأبيارى الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ .

- ابن كثير : إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ) ، البداية والنهاية ، الطبعة الأولى ١٩٦٦ م . مكتبة المعارف بيروت .

- ابن الكردبوس : أبو مروان عبد الملك بن الكردبوس التوزرى (ت بعد ٧٣هـ)/ تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفة لابن الشباط ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى ، نشر معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٧١م ، نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٧ هـ

- المراكشى : عبد الواحد بن على (ت ٦٤٧ هـ) ، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ، ومحمد العربى العلمى ، القاهرة مطبعة الاستقامة ١٣٦٨ هـ .

- المقرى : أبو العباس أحمد بن محمد التلمسانى (١٠٤١ هـ) / نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب تحقيق الدكتور إحسان عباس . دار صادر بيروت ١٣٨٨ هـ .

Jose Hagerty : Al- muctamid : Poesia Barcelona 1979 .

Menendez Pidal : Poesia Arabe Poesia Europes Coleccior

عناصر المرتزقة فى الجيوش المغربية

منذ القرن السادس الهجرى حتى القرن الثامن الهجرى

(١٢ - ١٤م)

أ. د. رضوان محمد رضوان البارودى(*)

دأبت الدول المتباينة التى تعاقبت على حكم بلاد المغرب منذ مطلع القرن السادس الهجرى(١٢م) على استخدام عناصر من المرتزقة المسيحيين للعمل كجنود فى صفوف جيوشها ، ومن العجيب أن بعض هذه الدول قامت على أساس دعوة دينية إصلاحية ، واتخذت من الجهاد فى الأندلس هدفًا أساسيًا لقيامها، مثل المرابطين والموحدين ، وكذلك بنى مرين الذين جعلوا من الجهاد هدفًا مباشرًا لقيام دولتهم برغم أنهم لم يستندوا إلى دعوة دينية إصلاحية كما فعلت الدول السابقة عليهم(١) . وعندما نتساءل عن الأسباب التى دفعت حكام المغرب إلى الاستعانة بهذه العناصر المسيحية وضمها إلى صفوف جيشها ، يعطينا ابن خلدون تبريرًا لذلك فيقول أن طريقة القتال عند هذه العناصر المسيحية المرتزقة والتى تعتمد على أسلوب الثبات فى الزحف هى السبب الأساسى لاستخدام هذه العناصر ، لأن أسلوب القبائل البربرية التى كانت تكون غالبية أعداد الجيوش المغربية اعتمد على الكر والفر ، ويضيف ابن خلدون أن هؤلاء المرتزقة كانوا يستخدمون فقط فى الحروب المحلية ضد الثائرين والمخالفين سواء من العرب أو البربر ، أما فى الحروب ضد النصارى فلا يستعان بهم حذارًا من ممالأتهم على المسلمين(٢) . ويمكن أن نضيف إلى ما ذكره ابن خلدون سببًا آخر هو عدم ثقة حكام دول المغرب فى بعض العناصر المحلية وخشيتهم للتعرض للاغتيال فى حال استخدام هذه العناصر المحلية كحرس خاص لهم(٣) .

(*) أستاذ بكلية الآداب - جامعة الكويت .

كذلك استخدم المرتزقة المسيحيين فى عملية جباية الضرائب . ويرى أحد الباحثين الحديثين أن النظام الإقطاعي العسكرى الذى ساد فى عصرى المرابطين والموحدين ومن بعدهم فى الدول المغربية الأخرى (مثل دولة بنى مرين وبنى عبد الواد) قد أرهق الفلاحين بأنواع مختلفة من الضرائب والجبايات ذات السمة الإقطاعية والتى لا أصل لها فى الشرع(٤) . وهذه الضرائب والجبايات يصعب تحصيلها فى المناطق البعيدة والنائية – وخصوصًا المناطق التى تجتازها القبائل الرحل – حيث تضعف السلطة المركزية ، ولابد للدولة أن تبعث بجنودها لحماية عمال الجباية والمشاركة فى تحصيلها(٥) .

أما عن بداية استخدام هذه العناصر فى الجيوش المغربية ، فقد اختلف المؤرخون فيما بينهم حول أول من استخدمهم ، فابن الخطيب يذكر أن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين هو أول من استخدمهم فى صفوف جيشه(٦) . أما ابن عذارى وصاحب الحلل الموشية فيؤكدان أن الأمير على بن يوسف بن تاشفين هو أول من استخدمهم من المرابطين(٧) . وقد برز من هؤلاء النصارى على عهد المرابطين قائد قطلانى من أهل مدينة برشلونة Barcelona عرف فى المصادر العربية باسم الربرتير Reverter وكان هذا القائد من ضمن قواد ملك أراجون ولكنه وقع أسيرًا فى يد أمير البحر المرابطي على بن ميمون ، فحمله إلى على بن يوسف بن تاشفين بمراكش فولاه قيادة المرتزقة فى جيوشه . وقد أبلى هذا القائد بلاء حسنًا فى الدفاع عن دولة المرابطين ، حتى قتل فى إحدى المعارك ضد الموحدين عند مدينة تلمسان بالمغرب الأوسط عام ٥٣٩هـ/١١٤٥م(٨) .

أما فى عصر الموحدين : فقد استمرت عملية استخدام المرتزقة الأجانب فى صفوف جيوشهم . ذلك أن الفرقة النصرانية العاملة فى جيش المرابطين انضمت إلى الموحدين بعد أن سهلوا لعبد المؤمن بن على أول خلفاء الموحدين دخول مدينة مراكش عاصمة المرابطين عام ٥٤١هـ / ١١٤٦(٩) . لذلك لم يجد عبد المؤمن بن على حرجا فى ضمهم إلى صفوف جيشه . وقد يبدو هذا الإجراء من جانب عبد

المؤمن بن على غربيًا ، حيث يذكر عبد الواحد المراكشى أن عبد المؤمن كان شديدًا على أهل الذمة من اليهود والنصارى ، وأنه لم تنعقد فى عهده ذمة ليهودى ولا نصرانى ولا يوجد فى جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة(١٠) . ولكن يبدو أن الحاجة إلى جهود هؤلاء المرتزقة كانت شديدة ، لذلك غض الموحدون الطرف عن مسألة تشددهم المزعوم مع النصارى واليهود . ودليلنا على ذلك ما تذكره المصادر من أن هؤلاء المرتزقة شاركوا فى العديد من العمليات العسكرية التى قامت بها الجيوش الموحدية ضد الثائرين فى بلاد المغرب . من ذلك أنه عندما ثار محمد بن عبد الله بن هود الماسى (نسبة إلى رباط ماسة على ساحل المحيط الأطلسى) فى عهد عبد المؤمن بن على ، لم يتردد هذا الأخير فى إرسال جيوشه لأخماد هذه الثورة . وكانت فرقة الروم أو الجند النصارى ضمن الفرق المكونة لهذا الجيش(١١) . كذلك يشير ابن صاحب الصلاة إلى أن الروم كانوا من ضمن العناصر التى خرجت رفقة الخليفة الموحدى أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ - ٥٨٠هـ) لاستقبال العرب الوافدين إلى مراكش فى ربيع الآخر عام ٥٦٩هـ/ يناير ١١٧٣م(١٢) . ومن أشهر قواد المرتزقة النصارى فى جيوش الموحدين شخصية القائد البرتغالى جيرالدو سمبافور Giraldo Sampavor (والمعروف فى المصادر العربية باسم جراندة الجليقى) ، هذا الفارس انضم مع جماعة من الفرسان النصارى لخدمة الموحدين بعد أن استسلم لهم عام ٥٦٩هـ / ١١٧٣م ، وقد قام الخليفة أبو يعقوب بنقله هو وجنوده من الأندلس إلى المغرب حيث أرسله إلى السوس الأقصى وولاة قيادة المرتزقة العاملين فى الجيش الموحدى فى هذه المنطقة . بيد أن نهاية هذا القائد البرتغالى كانت مأساوية ، حيث قتل على يد عامل درعه موسى بن عبد الصمد ، وبتحريض من الخليفة نفسه . ويذكر البيذق أن سبب اغتيال هذا القائد هو اتصاله بابن الرنك (الفونسو هنريكث ملك البرتغال) وخيانته للموحدين(١٣) .

أما الخليفة أبو يوسف يعقوب المعروف بالمنصور فكان حرسه الخاص من هؤلاء المرتزقة ، وكانوا من الرماة ، وأسكنهم أحد القصور التى شيدها ، وكانوا يسيرون أمامه أينما تنقل من مكان لآخر(١٤) .

ونلاحظ أن هؤلاء المرتزقة سواء الذين عملوا فى خدمة المرابطين أو الموحدين لم يكن لهم أى دور فى توجيه الأحداث الداخلية ، ولم يتعد دورهم أكثر مما رسمه لهم حكام المغرب ، فهم حرس خاص أو جباة ضرائب أو يشاركون فى إخماد بعض الثورات الداخلية . ولم يكن لهم فى المقابل أية حقوق - باستثناء رواتبهم - فلم يكن لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية ، ولا توجد لهم كنائس خاصة بهم أو حتى أساقفة منهم . بيد أنه منذ خلافة المأمون الموحدى (٦٢٤ - ٦٣٠هـ/ ١٢٢٧ - ١٢٣٣م) أخذت هذه العناصر من المرتزقة تلعب دورًا بارزًا فى أحداث بلاد المغرب ، فقد استعان بهم هذا الخليفة لدخول مراكش عندما ثارت ضده وبايعت لأخيه يحيى الناصر بالخلافة . وقد أرسل المأمون إلى ملك قشتالة فرناندو الثالث يطلب مساعدته بفرقة من الفرسان القشتاليين ، وبالفعل استجاب فرناندو لهذا الطلب وسير جماعة من هؤلاء الفرسان بلغ عددهم اثنى عشر ألف فارس(١٥) . ولكن ملك قشتالة اشترط عدة شروط على المأمون نظير موافقته على مسير هؤلاء المرتزقة القشتاليين لمساعدة المأمون الموحدى ، ومن هذه الشروط :

أن يقدم الخليفة الموحدى عشرة حصون يختارها الملك القشتالى بنفسه ، وأن يسمح لهؤلاء النصارى ببناء كنيسة لهم فى وسط مراكش يؤدون فيها شعائرهم الدينية بحرية كاملة ، وإذا اعتنق أحد هؤلاء المرتزقة الإسلام فلا يقبل منه ويرد إلى أخوانه . وقد قبل المأمون كل هذه الشروط(١٦) .

هذا وقد استنكر نفر من المؤرخين القدماء والحديثين هذا التصرف من قبل المأمون ، فصاحب كتاب ذكر مشاهير أعيان فاس ينتقد الموحدين بقوله : " ومن قبح فعلهم التجييش بالنصارى وسكناهم مراكش وإقامة دينهم بين ظهور المسلمين وعدم تصرفهم فيهم ، بل جعل أمرهم لرهبانهم يجهزون بهم لحرب المسلمين

بالمغرب"(١٧) . أما المؤرخ التونسى محمد المطوى فقد برر تصرف المأمون بإنه كان مدفوعًا برغبته فى التنصر والارتداد عن الإسلام ، لأن المأمون من وجهة نظر المطوى - كان متأثرًا بنزعة مسيحية حيث ارتقى العرش على أسنه رماح المرتزقة . ثم أن أم المأمون أم ولد نصرانية رومية(١٨) . والواقع أن كلا الطرفين أخطأ فيما ذهب إليه ، لأن ما فعله المأمون الموحدى ليس بدعة أو سنة جديدة ، فقد سبقت الإشارة إلى استعانة المرابطين وخلفاء الموحدين الآخرين بعناصر المرتزقة فى جيوشهم . أما القول بالتأثر بالنزعة المسيحية والرغبة فى التنصر فهو قول بعيد تمامًا عن الصحة . ويعلق بيير دى سينفال على هذه الحادثة بالقول بأن المأمون لم يكن يفكر فى اعتناق المسيحية(١٩) .

وكيفما كان الأمر ، فقد صار لعناصر المرتزقة المسيحية فى أواخر عهد الدولة الموحدية دخل كبير فى أحداثها ، إذ هاجم الأمير الموحدى يحيى بن الناصر مدينة مراكش مستغلا فرصة انشغال عمه المأمون بحصار سبته عام ٦٢٩هـ/١٢٣٢م ، وقام بحرق كنيسة نوتردام التى خصصها المأمون لجنده النصارى ، كما قام بقتل عدد كبير من هؤلاء الجند . ويبدو أن الأمير يحيى كان يريد أن يكسب عامة أهل مراكش إلى جانبه ، لأن هؤلاء لم يستسيغوا وجود عناصر من المرتزقة بين ظهرانيهم ، كما أن السماح لهم بممارسة شعائرهم الدينية بكل حرية قد مس مشاعر هؤلاء العامة . وقد حاول المرتزقة من جانبهم الدفاع عن أنفسهم ، وكاد الموقف ينفجر بين الطرفين لولا أن الخليفة الموحدى الجديد الرشيد بن المأمون - عمل على تهدئة الأمور داخل مراكش ، فأصدر عفوا عن أهل مراكش ، وفى نفس الوقت دفع مبلغًا كبيرًا من المال لقائد المرتزقة القشتاليين المسمى فرنسيل حتى لا يتعرض لأهل مراكش بسوء(٢٠) . وبرغم ذلك فقد استمر الموحدون يستخدمون هذه العناصر لمساندتهم فى القضاء على الثائرين ، إذ استعان الرشيد الموحدى بهم فى التخلص من أحد زعماء القبائل العربية بالمغرب - وهو مسعود بن حميد زعيم قبائل الخلط - حينما رفض هذا الأخير الاعتراف ببيعة الخليفة الرشيد(٢١) . أما المرتضى الموحدى فقد استكثر من

هؤلاء المرتزقة بصورة واضحة حيث أرسل إلى الأندلس عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م يطلب أعدادًا كبيرة منهم ليركبوا معه ويكونوا أعوانا ، فوصلوا إليه في تلك السنة(٢٢) .

ولكن برغم ازدياد الحاجة إلى هذه العناصر المسيحية من المرتزقة ، إلا أن الأمر لم يسلم من تعرضهم لأعمال عنف من قبل الحكام الذين كانوا يشكون فى إخلاصهم فى كثير من الأحيان . وقد يبدو ذلك منطقيا ، لأن هذه العناصر إنما تدين بولائها لمن يدفع لها ، ولذلك نسمع عن حدوث تنكيل بهؤلاء المرتزقة المسيحيين . من ذلك أن الخليفة الموحدى المرتضى دبر مؤامرة لاغتيال قائد الفرقة النصرانية فى جيشه المسمى دى اللب Del Lobo مع من معه من هؤلاء المرتزقة(٢٣)، كذلك قام هذا الخليفة بإلقاء القبض على قائد الجند النصارى فى مراكش المسمى جارثيا طاليس Garcia Tales لأنه خشى أن يفر هذا الأخير إلى أعدائه(٢٤) .

المرتزقة الأجانب وجيوش الدول المغربية عقب انهيار دولة الموحدين:

حدث عقب انهيار دولة الموحدين أن تفتتت وحدة بلاد المغرب التى كانت قائمة فى عصرى المرابطين والموحدين ، وتولى حكمها ثلاث دول هم : المرينيون فى منطقة المغرب الأقصى وعاصمتهم فاس ، والزيانيون فى المغرب الأوسط وعاصمتهم تلمسان ، والحفصيون وعاصمتهم تونس . هذا الدول الثلاث لم تشذ كثيرًا فى نظمها عما كان سائدًا عند الموحدين ، ولذلك استمر استخدام عناصر المرتزقة الأجانب فى صفوف جيوشها لنفس الأغراض السابقة . ففى عهد المرينيين كان استخدامهم منذ فترة مبكرة فى تاريخهم ، إذ يذكر ابن خلدون أن الأمير أبا بكر بن عبد الحق المرينى هو أول من استخدمهم عندما أوقع بفلول الجيش الموحدى المنسحب من أمام تلمسان عام ٦٤٦هـ/١٢٤٨م ، وضم إليهم عدة فرق من هذا الجيش ومن ضمنهم هؤلاء المرتزقة أو الروم كما يسميهم ابن خلدون(٢٥).

كذلك شاركت عناصر المرتزقة المسيحيين فى الأحداث الداخلية لدولة بنى مرين ، فكانوا إحدى الفرق التى خرجت مع السلطان أبى يوسف يعقوب لغزو تلمسان عام ٦٧٧هـ/ ١٢٧١م . كما انضموا إلى جانب الأمير المرينى أبى على ابن أبى سعيد عثمان فى ثورته ضد والده(٢٦) . وفى أثناء ثورة الوزير رحو بن يعقوب الوطاسى ضد السلطان ابن الربيع سليمان عام ٧١٠هـ / ١٣١٠ انضم هؤلاء المرتزقة وزعيمهم عنصاله (جونثالو Gonzalo) إلى جانب الوزير المرينى فى ثورته(٢٧) .

وقد ازداد تدخل هذه العناصر فى أمور الدولة المرينية خاصة فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى ١٤م ، حيث بدأت علامات الضعف تظهر على حكم المرينيين ، وانشغل السلاطين والأمراء بالصراع ضد بعضهم البعض فى سبيل الحكم والسلطة . ولعل مأساة السلطان أبى الحسن المرينى مع ابنه السلطان أبى عنان فارس أبرز دليل على ما نقول . ولهذا كثر اعتماد المرينيين على هذه العناصر المرتزقة لمؤزراتها فى صراعها ضد الطامعين فى العرش . ويحدثنا ابن الخطيب فى كتابه نفاضة الجراب عن أحداث تلك الفترة المضطربه فى تاريخ الدولة المرينية عقب وفاة السلطان أبى عنان فارس ، وكيف تنازع القواد فيما بينهم لتوليه أمير بعينه على العرش . ويشير إلى دور الفرقة النصرانية فى أحداث هذا الصراع ، حيث انضموا إلى جانب أحد المرشحين ودار قتال عنيف بين أنصار كل مرشح . ولم ينته الأمر إلا بظهور السلطان ابن سالم إبراهيم على مسرح الأحداث(٢٨) . وفى أواخر أيام هذا السلطان تآمر أحد وزرائه مع قائد المرتزقة النصارى غرسيه بن أنطول على الفتك بالسلطان أبى سالم ومبايعة الأمير المرينى أبا عمر تاشفين بن سلطان أبى الحسن على . وتمكن أحد الجند النصارى من اغتيال السلطان أبى سالم(٢٩) . ولكن مصير قائد المرتزقة غرسية لم يكن بأفضل من مصير سلطانه حيث لقى هو الآخر مصرعه على يد السلطان الجديد أبى عمر تاشفين المعروف بالموسوس ، هذا عن قتل عدد كبير من المرتزقة المسيحيين حينما فروا إلى معسكرهم بحى الملاح فى فاس ، وقد رد المرتزقة على تلك المذبحة التى تعرض لها

أخوانهم باغتيال عدد كبير من أهل فاس كانوا بالملاح يشربون الخمر ، ولم تهدأ الأمور ألا بعد تدخل الجيش المريني لإنهاء هذه الفتنة(٣٠) .

هناك حادثة أخرى وقعت في تلك الفترة توضح مدى نفوذ هؤلاء المرتزقة النصارى وتدخلهم في الشئون الداخلية للمدنيين ، فقد حاول أحد الأمراء المرينيين وهو الأمير عبد الحليم بن أبي علي بن أبي سعيد عثمان الظفر بالعرش المريني ، ولكن الوزير عمر بن عبد الله عمل من جانبه على مواجهة هذا الخطر ، ولم يجد من يستعين به إلا المرتزقة النصارى ، فعمل على كسب رضاهم وأخذ عليهم المواثيق والعهود بمناصرته ، ومن العجيب أن مفاوضات هذا الوزير مع هؤلاء المرتزقة تمت في كنيستهم على يد ترجمانه وقسيسهم ، كما يذكر ابن الخطيب(٣١) . وقد تمكن الوزير عمر من الانتصار على الأمير عبد الحليم بفضل مساعدة هؤلاء المرتزقة النصارى .

ومن الأعمال الأخرى التي انيط بالمرتزقة القيام بها عملية الاغتيالات السياسية ، فقد عهد السلطان أبو الربيع سليمان إلى قائد الجند النصارى (غصاله) قتل الوزير وصاحب العلامة عبد الله بن أبي مدين نتيجة لوشاية الحاجب أبي خزر اليهودي(٣٢) . كما أوعز الأمير المريني أبو الفضل بن السلطان أبي سالم إبراهيم لقائد الجند النصارى باغتيال منافسه على العرش الأمير عبد المؤمن بن علي بن أبي سعيد عثمان فقتله وجاء برأسه إليه(٣٣) .

وبالإضافة إلى أعمال الاغتيالات السياسية ، كلف السلاطين من بني مرين بعض هؤلاء القادة المرتزقة بالقيام بأعمال السفارة لدى ملوك أسبانيا المسيحية ، فالسلطان المريني أبو يعقوب يوسف أرسل قائد المرتزقة النصارى في جيشه المسمى برناط سجين سفيرًا إلى ملك أراجون جايمي الثاني Jaime II كذلك عمل هذا القائد سفيرًا للسلطان أبي ثابت عامر لدى الملك الأراجوني لطلب المساعدة في حروب المرينيين ضد غرناطة حينما استولى السلطان الغرناطي محمد الثالث على مدينة سبتة(٣٤) عام (٧٠٥ هـ/ ١٣٠٥م) ، أما الفارس القشتالي جارثيا مارتينيز

دى جايجوس Gercia Martinez de Callegos فكان أحد أعضاء الوفد المرينى الذى ذهب للتفاوض مع قائد الأسطول القشتالى دون بدرو ابن الملك القشتالى الفونسو العاشر أثناء حصار الجزيرة الخضراء عام ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م(٣٥) .

والملاحظ أن هؤلاء المرتزقة المسيحيين العاملين فى صفوف الجيش المرينى عوملوا معاملة طيبة من قبل الحكام المرينيين بصفة عامة . فقد كان لهم رئيس يسمى " أمين النصارى " ، ولهم قساوستهم الذين يشرفون على شئونهم الدينية ، فضلاً عن كنيستهم الخاصة بهم . كما أقاموا فى مكان خاص بهم فى مدينة فاس الجديدة وهو حى الملاح ، الذى كان حى اليهود أيضًا . كذلك كان لهؤلاء المرتزقة النصارى مطلق الحرية فى تناول الخمر فى حيهم هذا . ويذكر ابن مرزوق أن السلطان أبا الحسن على المرينى برغم ما عرف عنه من تشدد فى الأمور الدينية(٣٦) ، إلا أنه لم يتمكن من منعهم من شرب الخمر ، وكل ما فعله هو أنه اشترط عليهم ألا يجاهروا بشربه ، ومن ضبط منهم وهو ثمل أو ثبت عليه أنه باع الخمر لمسلم عوقب بشدة حتى يصبح عبره للمعتبر(٣٧) ويبرر ابن مرزوق هذا التساهل من قبل أبى الحسن مع النصارى بشدة الحاجة إليهم وانتفاع المسلمين بهم.

أما دولة بنى زيان وهى إحدى الدول المغربية التي قامت على أنقاض دولة الموحدين فى منطقة المغرب الأوسط واتخذت من مدينة تلمسان عاصمة لها ، ومؤسس هذه الدولة هو الأمير أبو يحيى يغمراسن (ومعناها بالزيانيه رئيس القوم) الذى أعلن فى عام ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م استقلاله عن سلطة الموحدين وإن كان ظل يدعو لهم تارة وللحفصيين أصحاب تونس تارة أخرى(٣٧) .وقد استعان الزيانيون بفرق من المرتزقة المسيحيين فى جيوشهم لنفس الأسباب التى دعت المرينيين ومن قبلهم الموحدين والمرابطين إلى استخدام هذه العناصر . وكانت مملكة أراجون بالذات هى المصدر الرئيسى الذى أمد الزيانيين بحاجتهم من هؤلاء النصارى المرتزقة ، ويتضح ذلك من خلال المراسلات المتبادلة بين الزيانيين وملوك أراجون . فقد بعث السلطان يغمراس بن زيان سفارة إلى خايمى الأول ملك أراجون فى ٢٩ ربيع الأول عام ٦٤٨هـ/ ٣٠ يونيو ١٢٥٠م يطلب منه عدة مطالب من ضمنها

فرقة مـن المرتزقـة القطلانيـين للعمـل فـى الجيـوش الزيانيـة(٣٨) . وتشـير المصـادر الأراجونية إلى سفارة أخرى أرسـلها جـايمى الثـانى ملـك أراجـون عـام ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م إلى أبى سعيد عثمان سلطان بن زيان لمناقشة بعض الأمـور بـين الدولتـين ومن ضمنها ما يتعلق بالمرتزقة القطلان العاملين فى خدمة الزيانيين ، حيث أبـدى الملك الأراجونى استعداده لإرسال المؤن والبضائع اللازمة لأفراد هذه الفرقة ، كما طلب تعيـين أحـد القـواد ويدعـى رودريجوسـا تشيزدى بيرجـاس قـائدًا للمرتزقـة النصـارى فـى تلمسـان(٣٩) . ومـن الملاحـظ أن المصـادر العربيـة تنفـى أن يكـون المرتزقة قد عملوا فى خدمة الزيانيين حتى ذلك الوقت ، إذ يشير أبـو زكريـا يحيـى ابن خلدون أن السلطان يغمراسن بن زيان قد أطاح بهـم عقـب اكتشـافه لمؤامـرة دبرها المرتزقة لاغتياله وذلك عام ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م . ويضيف ابن خلدون أنه منذ ذلك الوقت لم يستخدم بنو عبد الواد هؤلاء المرتزقـة فـى جيوشـهم(٤٠) . بيـد أن الوثائق الأراجونية وكذلك العربية المحفوظة فى أرشيف تاج أراجون تثبت – بمـا لا يدع مجالاً للشك – استمرار بنى زيان فى الاستعانة بهـؤلاء المرتزقـة المسيحيين ، بحيث أصبح موضوع الفرقة العسكرية القطلانية العاملة فى صفوف الجيوش الزيانية من الموضوعات الرئيسية فى كل المراسلات المتبادلة بين سلاطين بنى زيـان وملـوك أراجون . فعلى سبيل المثال ورد فى رسالة بعث بها خايمى الثانى ملك أراجون إلى أبى عبد الرحمن سلطان بنى زيان عام ٧١٩هـ / ١٣١٩م إشارة إلى موافقـة الملـك الأراجونى على بقاء المرتزقة القطلان فى تلمسان كنوع من التعاون بين الدولتين . وفى رسالة أخرى مؤرخة بتاريخ ١٥ مـارس ١٣٢٥م / ٢٨ ربيـع الأول ٧٢٥هـ ومرسلة من ملك أراجون إلى ابـن تاشـفين إشـارة إلى طلـب الملـك الأراجونـى أن يكون له وحده حق تعيين قائد الفرقة العسكرية الأراجونية العاملـة فـى تلمسـان ، بل واقترح أن يكون ابنه خايمى الأراجونى قائدًا لهذه الفرقة ، ومن المثير للدهشة أن السلطان الزيانى فى رده على هذه الرسالة قد وافق علـى هـذا الطلـب(٤١) . هـذا و لم يقتصر استخدم الزيانيين للمرتزقة المسيحيين على المشاة أو الفرسان فقط ، بـل تعداه إلى استخدام البحـارة القطـلان لمساعدتهم فـى مواجهـة هجمـات جيرانهم

الحفصيين أو لشن هجمات على الموانئ الحفصية ، كذلك عمل قادة المرتزقة القطلان كسفراء لسلاطين بنى زيان لدى ملوك أسبانيا ، فنسمع عن القائد فيليب دى موبا Felip de Mova وخايمى يثرييخى ، وكذلك القائد خايمى الأراجونى (وهو ابن غير شرعى للملك خايمى الثانى ملك أراجون) هؤلاء عملوا كسفراء من قبل سلاطين بنى زيان إلى ملوك أراجون .

أما فى عهد الدولة الحفصية ، فمن المعروف أن الحفصيين فرع من الموحدين ينتسبون إلى أبى حفص يحيى بن عمر الهنتاتى شيخ قبيلة هنتاته إحدى بطون قبيلة مصموده ، والشيخ أبو حفص كان من كبار رجال المهدى بن تومرت ، وترجع صلة الحفصيين بتونس إلى أيام الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص صهر الخليفة الموحدى المنصور ، حيث ولى أفريقية فى خلافة الناصر محمد الموحدى عام ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م . ولما انهارت دولة الموحدين ورث الحفصيون الموحدين فى حكم أفريقية . وقد استخدم الحفصيون - شأنهم شأن بقية حكام المغرب - الجنود المسيحيين المرتزقة للعمل فى صفوف جيوشهم وخاصة كحرس لهم. وتشير المصادر إلى أن استخدام هؤلاء المرتزقة المسيحيين يرجع إلى بداية عهد الدولة . وقد خصص السلطان الحفصى أبو زكريا يحيى بن المستنصر الملقب بالواثق لهؤلاء المرتزقة ربضًا خارج النطاق الشرقى من مدينة تونس وسمى بربض النصارى(٤٢) .

وكان الغرض منه أن يمارس هؤلاء الجند شعائرهم الدينية بحرية تامة بعيدًا عن أعين المسلمين . كما سمح لهم ببناء كنيسة فى ربضهم تحمل اسم القديس فرانسوا يقام بها القداس وسمح لهم بدق الأجراس(٤٣) . وكما تعرض الموحدون لانتقاد الناس لهم بسبب استخدام المسيحيين فى جيوشهم ، لم يسلم الحفصيون من ذلك النقد ، فقد ذكر الآبى فى كتابه " الإكمال " أن السلطان الحفصى زكريا بن أحمد اللحيانى كان مارًا من باب السويقة - أحد أبواب مدينة تونس - ويحيط به حرسه من المسيحيين ، فتصدى له الشيخ القروى أحد زهاد إفريقية فى ذلك الوقت - وكان صديقًا للسلطان فى نفس الوقت - فقال له : يا فقيه لا يجوز

ذلك فتوقف السلطان ، واستفسر حول هذا النداء ، فأجابه الشيخ القروى مستشهدًا بإحدى أحكام الفقه المالكى ، وهى أن الله حرم الاستعانة بمشرك . ولم يزد السلطان فى رده على الشيخ القروى أكثر من قوله : أجل ، ثم انصرف(٤٤). ونلاحظ أن هذا الاعتراض على استخدام المرتزقة المسيحيين أنما صدر من أحد المتشددين فى الدين ، ولذلك لم يعبء السلطان به ، وظل استخدام المسيحيين فى الجيش الحفصى قائمًا حتى نهاية عصر الدولة الحفصية .

الهوامش

(١) أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، الأسكندرية ١٩٦٨ ، ص٢٠٦ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٧٤ ، كما أشار لسان الدين بن الخطيب إلى مسألة ثبات الفرنج فى قتالهم بقوله " والأحجام غندهم والتقهقر مقدار الشبر ذنب عظيم وعار شنيع " . الأحاطة فى أخبار غرناطة ، جـ٢ ، ص ٤٣ - ٤٤ .

(٣) الواقع أن عملية استخدام عناصر معينة كحرس للحكام المسلمين فى بلاد المغرب والأندلس ، بدأت منذ فترة بعيدة ، حيث استخدم الأمير الأموى الحكم بن هشام المعروف بالربضى (١٨٠ / ٢٠٦هـ - ٧٩٦ - ٨٢٢م) حرسا خاصًا من الصقالبة واستمر استخدامهم فى العهود المتعاقبة ، كذلك استخدم الفاطميون الصقالبة كحرس خاص وكقادة للجند ولكن الفرق بين الصقالبة والعناصر المرتزقة - موضوع البحث - أن الصقالبة مماليك اشتروا وربوا تربية عسكرية إسلامية ودربوا على أعمال القصر والحرس والجيش ، فهم يرتبطون ارتباطًا وثيقًا بسيدهم . وأما هؤلاء المرتزقة فكانوا يعملون نظير أجر معلوم ويمكن الاستغناء عنهم فى أى وقت . راجع : مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والأندلسى ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ٤٠٨ - ٤٠٩ .

(٤) محمود إسماعيل : سوسيولوجيا الفكر الإسلامى ، القاهرة ، ١٩٩٢ ، جـ ٣ ، ق١ ، ص٣٣ ، ص٧٦ .

(٥) عبد الله الزيرى : مذكرات الأمير عبد الله أو كتاب التبيان ، نشر ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٩٥م ، ص ٢١٣ - ٢١٤ هوبكنز : النظم الإسلامية فى المغرب فى القرون الوسطى ، ترجمة أمين الطيبى ، ص١١١ .

(٦) مجهول : الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامه، ص٨٤ - ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق أحسان عباس، القسم الخاص بالمرابطين ، بيروت ، ١٩٨٠ - ص١٠٢ - ١٠٣ .

(٧) ابن القطان : نظم الجمان فى أخبار الزمان ، نشر محمود على مكـى ، الربـاط ، ١٩٦٤ ، ص٩٦ ، البيذق : أخبار المهدى بن تومرت ، تحقيـق عبـد الحميـد حاجيـات ، الجزائـر ، ١٩٧٤م ، ص٨٦ - ٩٦ .

(٨) ابن صاحب الصلاة : المن بالأمامـة علـى المستضعفين ، تحقيـق د. عبـد الهـادى التـازى ، بيروت ، ص ٧٨ ، انظر كذلك :

R. Dozy : Recherches sur L'historie et la Litterature de l'Espagne, Amesterdam, 1965, Tom. 2. pp. 427 - 442.

(٩) عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سـعيد العريـان ، القاهرة ، ١٩٦٣م ، ص ٣٨٣ .

(١٠) مؤلف مجهول : الحلل الموشية ، ص١٤٦ .

(١١) ابن صاحب الصلاة : المن بالأمامة تحقيق عبد الهادى التازى ، ص ٤٣١ .

(١٢) البيذق : أخبار المهدى بن تومرت ، ص١٦٧ - ١٦٨ .

(١٣) ليون الأفريقى : وصف أفريقيا ، ترجمة عبد الرحمن حميده ، الرياض ، ص١٤٤ .

(١٤) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب بروض القرطـاس ، أو بسـالا ، ص ١٦٧ ، السـلاوى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤ ، جـ٢ ، ص٢٣٧ .

(١٥) ابن أبى زرع : نفس المصدر السابق والصفحة .

(١٦) مؤلف مجهول : ذكر مشاهير أعيان فاس فى القديـم ، تحقيـق عبـد القـادر زمامـه ، مجلـة البحث العلمى ، الربـاط ، العـدد ٣ عـام ١٩٦٤ ، ص ٥٣ ، محمـد بـن مبـارك الميلـى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث ، الجزائر ، ص٦٦٤ .

(١٧) محمد العروسى المطوى : السلطنة الحفصية ، منشورات دار الغـرب الإسـلامى ، بـيروت ١٩٨٦ ، ص١٢٤ - ١٢٥ .

(18) Pierre de Cenival ; :'eglise Chretienne de Marrakech au XIII Siecle, R. Hesperis, Tome VII, Annee, 1927, Ier Trimestre, p.75.

(١٩) السلاوى : الاستقصا ، جـ٢ ، ص٢٤٢ .

(٢٠) راجع التفصيلات فى : ابن عذارى ، البيان المغرب ، قسم الموحدين ، ص ٣١٩ - ٣٢٠ .

(٢١) المصدر السابق ، ص ٣٩٩ .

(٢٢) ابن خلدون : العبر ، جـ٧ ، ص ٢٤٤ .

(٢٣) ابن عذارى : المصدر السابق، ص ٤٣٦ ، ابن خلدون ، المصدر السابق ، جـ٦ ، ٢٦١.

(٢٤) ابن خلدون : جـ٧ ، ص١٧٣ - السلاوى : الاستقصا جـ٤ ، ص ١٣ .

(٢٥) نفس المصدر ص ٢٤٤ .

(26) Geminz Soler; OP. CIT., P. 262 - nota 2 .

(٢٧) راجع التفاصيل فى : ابن الخطيب : نفاضة الجراب فـى غلالـة الاغـتراب ، تحقيـق أحمـد مختار العبادى ، القاهرة : ١٩٦٧ ص ٢٥ ، ص ٢٣٠ .

(٢٨) نفس المصدر السابق ، ص ٢٧١ - ٢٧٦، ابن خلدون : العبر ، جـ٧ ، ص٣١٣ .

(٢٩) ابن الخطيب : المصدر السابق ص٢٥٦ ، السلاوى : الاستقصا : جـ٤ ، ص٤٢ .

(٣٠) نفس المصدر ، ص ٣٠٦ .

(٣١) ابن خلدون : العبر جـ ٧ ، ص ٢٣٩ ، مجهول ، ذكر مشاهير أعيان فاس ، ص٩٧ .

(٣٢) ابن خلدون : العبر جـ ٧ ، ص ٣٢٤ .

(33) Gimenez Soler; La Corona de Aragon, p. 120.

(34) Lopez de Ayala : Cronica de los Reyes de Espana, p. 56.

(٣٥) يشير العمرى إلى أن السلطان أبا الحسن المرينى كان يعاقب من يتـأخر عن الصلاة مـن الجند ، وإذا كان فى السفر وأذن المؤذن للصلاة نزل هو وجنـده وتقـام الصـلاة جماعـة ، العمرى : مسالك الأبصار ، ص١٣٠ .

(٣٦) ابن مرزوق : المسن د. الصحيح الحسن فى مآثر مولانا السلطان الحســن ، تحقيـق ماريـا خيسوس بيجرا ، الجزائر ، ١٩٨١ ، ص ٢٨٢ ، هذا ونشير هنا إلى أن التجار المسيحيين أيضًا سمح لهم بتناول الخمور فى المدن الإسلامية التى ينزلون فيها للتجارة ولكـن داخـل فنادقهم المخصصة لهم حتى يتيسر لهؤلاء التجار لونًا من ألوان الحياة الاجتماعية يتفق مـع ما زلفوه فى بلادهـم . راجـع : سـعيد عاشـور ، دراسـات فـى تـاريخ الحضـارة العربيـة الإسلامية ، الكويت : ١٩٨٦ ، ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

(٣٧) ابن خلدون : العبر ، جـ ٧ ، ص٨٠ - ٨١ .

H. Terrasse : Histoire du Maroc. New York, 1973, Tom I, p. 355.

(38) Miret Y Sans : Un Missatage de Yarmssen de Tremcen a Jaume I., Boletinde La Real Academia de Buenas Lettras de Barcelona, Tom IX, 1915, pp. 95, Du Forcq, L'Espagne Catalane et le Maghrib aux XII e et XIV Siecles, Paris, 1966, p. 147.

(39) Dufourcq (Ch.) Les Espanoles et le royaume de Tlemcen aux XII et XIV siecles, Boletin de La Real Academia de Buenas Lettras, Barcelona, 1948, Tom XXI, p. 59.

(٤٠) يحيى بن خلدون : بغية الرواد فـى ذكـر الملـوك مـن بنـى عبـد الـواد ، نشـر الفردبـل - الجزائر، ١٩٠٣ ، ص ١١٤ - ١١٥ .

(٤١) راجع :

Capmany y Nontpalau : Memrias historicas Sobre la marina comercio y arts de la antigua ciudad de Barcelona, Madrid, 1779 - 1792. vol, 4, pp. 67 - 69 - De Mas Latrie : Traites de Paix et de commerce divers concernant Les relations de chretines avec les Arabs de L'Afrique Septentrionale au moyen age, Paris, 1860, Tom, 1, p. 312.

(٤٢) ليون الأفريقى : وصف أفريقيا ، ترجمة عبد الرحمن حميـد ، الريـاض ، ١٣٩٩ هـ ، ص ٤٦٦ - ٤٦٧ - ابن أبى دينار ، المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس ، تونس ، ١٣٠٥هـ ، ص ١٤٥ - ١٥٠ .

(٤٣) برنشفيك ، تاريخ أفريقية فى العهد الحفصى ، ترجمة وتعليق حمادى الساحلى ، بيروت ، ١٩٨٨م ، جـ١ ، ص٤٧٨ .

(٤٤) الآبى : الأكمال ، طبعة القاهرة ، ١٣٢٧ - ١٣٢٨ هـ ، جـ٤ ، ص ٣٥٥ .

الأمير سوار بن أيتكين

ودوره في الجهاد ضد الصليبيين

د. عبدالله بن سعيد بن محمد بن سافر الغامدي(*)

أولاً : سوار في خدمة حكام دمشق :

أشارت المصادر باقتضاب شديد إلى سيرة سوار ، فذكرت أنه الأمير سيف الدولة سوار بن أيتكين ، رئيس شحنكية حلب ونائب عماد الدين زنكي بها(١) وبالبحث والتقصي عثرت على معلومات عن شخص أطلقت عليه المصادر أيتكين الحلبي ، بدا لي أنه والد سوار ، التحق بخدمة البيت السلجوقي منذ عهد الأمير دقاق بن تتش ، وبعد وفاة دقاق في الثامن عشر من رمضان سنة ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م استمر أيتكين في خدمة أخيه بكتاش ، بعد أن عزل طغتكين أتابك دقاق، ابنه الصغير الذي كان عمره آنذاك سنة واحدة ، وأقام مكانه عمه بكتاش ابن تتش(٢) ، وكان أن لعب أيتكين الحلبي دوراً بارزاً في مساعدة بكتاش بن تتش على مواجهة أطماع طغتكين ، الذي طلب من بكتاش الخروج إلى الرحبة للسيطرة عليها . وعندما عاد منها منعه طغتكين من دخول دمشق ، حيث قطع الخطبة له وأعادها إلى ابن دقاق الصغير الذي لم يكن قد تجاوز العاشرة من عمره . فأشار بعض خواص بكتاش عليه بالذهاب إلى بعلبك للتزود بالرجال والعتاد تمهيداً لمهاجمة دمشق ، واستعادة حكمه بها . ولكنه عدل عن دخول دمشق واتجه سراً إلى بعلبك ، وذلك في صفر من سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م، ولحق به الأمير أيتكين الحلبي (صاحب بصرى) وراسلا بلدوين الثاني (Baldwin II، ١١١٨-١١٣١م) ملك مملكة بيت المقدس الصليبية، وطلبا منه النجدة ضد الأمير طغتكين، فأجابهما إلى ذلك « فسارا إليه واجتمعا به وقرروا القواعد معه » على أن بلدوين الذي يريد استغلال هذا الخلاف لأضعاف الدماشقة ماطل بكتاش وأيتكين الذين « أقاما

(*) أستاذ مشارك تاريخ العصور الوسطى ، قسم التاريخ الإسلامي - جامعة أم القرى .

عنده مدة، فلم يريا منه غير التحريض على الإفساد فى أعمال دمشق وتخريبها»(٣)، ويبدو أن بلدوين قصد بتلك الأعمال التخريبية إشعال نار فتنة بين الطرفين ، تعقبها حرب أهلية تؤدى إلى استنزاف قوى الأمراء الدماشقة ، تمهيداً للسيطرة على مدينة دمشق ، التى كانت هدفاً أساسياً للقوى الصليبية فى المشرق الإسلامى .

ويبدو أن الأمير سوار بن أيتكين سار على نهج والده ، فقد أمضى سنيَّه الأولى فى خدمة حكام دمشق ، حيث تشير المصادر إلى أنه خدم حاكم دمشق تاج الملوك بورى . وقد اكتسب سوار خلال تلك السنين التى خدم فيها الأمراء الدماشقة خبرة فى التعامل مع الصليبيين على المستويين السلمى والحربى ، فكانت له « بصيرة بالحرب وتدبير الأمور »(٤) .

ثانياً : تحول سوار إلى خدمة عماد الدين زنكى :

كانت للسياسة الانهزامية التى انتهجها حكام دمشق ، والتى كثيراً ما كانت ترتكز على إقامة تحالف مع حكام مملكة بيت المقدس الصليبية ، بهدف المحافظة على عرشهم النغيص فى دمشق ، خاصة بعد بزوغ نجم عماد الدين زنكى ونجاحه فى بناء المرحلة الأولى من مشروع الجبهة الإسلامية المتحدة التى شملت مناطق إقليم الجزيرة وشمال الشام - أثره السيىء على المخلصين من أبناء الأمة الإسلامية ممن كان يعيش فى دمشق ذاتها . ويبدو أن الأمير سوار بن أيتكين كان واحداً من أولئك النفر الذين اشتهروا بغيرتهم وحميتهم على دينهم وأرضهم ، وأدركوا أن الانضواء تحت لواء عماد الدين زنكى الذى كان يعبر عن تطلعات الأمة الإسلامية آنذاك ، أفضل من الاستمرار فى خدمة أسرة لم يكن حكامها يتورعون عن خطب ود الصليبيين فى مملكة بيت المقدس الصليبية رغبة فى الحفاظ على مصالح دنيوية ، يغلب عليها الأثرة وحب الذات وهنا تذكر المصادر المعاصرة لفترة البحث أن سوار بن أيتكين (استوحش من تاج الملوك بورى) صاحب دمشق ، وتوجه إلى حلب ، بعد أن استقر أمرها بيد السلطان عماد الدين زنكى ،

وذلك فى سنة ٥٢٤هـ/١١٣٠م. حيث استقبله زنكى أحسن استقبال « فأكرمه وشرفه ، وخلع عليه »(٥) .

ثالثاً : سوار نائباً عن عماد الدين فى حلب :

ظل السلطان عماد الدين زنكى طوال السنين التى سبقت وفاة السلطان السلجوقى ، محمود بن محمد سنة ٥٢٥هـ/١١٣١م ، مطمئنا على حكمه فى الموصل وقد أقام زنكى فى مدينة حلب ، يوسع مشروع الجبهة الإسلامية المتحدة، التى كان يرى أنها الأساس الأول الذى يجب أن يسبق بدء عملية الجهاد الشامل ضد الوجود الصليبى فى المشرق الإسلامى . وفى ذات الوقت اتخذ من حلب مقراً لمناوشة الصليبيين الذين ما فتئوا يحاولون وأد مشروع الجبهة الإسلامية فى مهده على أن وفاة السلطان السلجوقى فى تلك السنة ، وما أعقب ذلك من صراع مرير داخل البيت السلجوقى . حول وراثة السلطنة اضطر عماد الدين زنكى للعودة إلى الموصل ، كى يراقب عن كثب تطورات الموقف داخل السلطنة السلجوقية ، علّه يجنى من وراء ذلك بعض المكاسب لحساب الجبهة الإسلامية المتحدة ؛ وقد استغل زنكى ما كان يتمتع به فى الموصل من نفوذ وسلطان ، وطالب بأن تسند السلطنة السلجوقية إلى الأمير أبى طالب أرسلان بن السلطان محمود ، الذى كان قد تربى على يديه . وكان أن أرسل زنكى إلى الخليفة العباسى المسترشد « يسومه أن يخطب ببغداد له » إلا أن الخليفة فطن - على ما يبدو- لمطامع زنكى ، فوقف إلى جانب السلطان داود بن محمود ، بحجة أن والده عهد إليه بالسلطنة قبيل وفاته وهو بأصبهان ، يضاف إلى ذلك أنه أعتذر لزنكى عن الموافقة على تولية ألب أرسلان والخطبة له ؛ لأنه (صبى) لا يقوى على تدبير أمور السلطنة وأن حكام الولايات والأطراف قد وردت رسلهم إلى الخليفة (بالخطبة له)(٦) . وهنا يبدو أن الخليفة العباسى المسترشد ، أراد عدم إظهار معارضته المتشددة لزنكى ، وفى ذات الوقت حرص على أن يستخدم معه أسلوب المرونة والتهديد فى آن واحد ؛ حيث أجابه بأنه لا يستطيع اتخاذ أى إجراء بهذا الخصوص ، قبل أخذ رأى « عم

القوم » السلطان سنجر ، سلطان سلاجقة خراسان وما وراء النهر ، باعتباره كبير الأسرة السلجوقية(٧) .

على أن هذه السياسة التى اتبعها الخليفة العباسى ، لم تفلح فى نزع فتيل التنافس بينه وبين السلطان عماد الدين زنكى ، فلاحت فى الأفق بوادر نزاع مسلح بين الطرفين(٨) ، الأمر الذى جعل زنكى يدرك أن إقامته فى ولاياته الشرقية ستطول ، وأن عليه أن يستخلف في حلب شخصاً ذا خبرة واسعة ودراية كافية بميادين السياسة والإدارة والحرب . ليتمكن من مواجهة الأخطار المحتملة على الجزء الغربى من الجبهة الإسلامية المتحدة ، أبان غيابه عن حلب . التى تقع بين خطر الهجمات الصليبية المتكررة من ناحية ، والدماشقة الطامعين فى التوسع من ناحية أخرى . وقد وقع اختيار عماد الدين زنكى على الأمير سوار إذ رأى فيه الرجل المناسب فى المكان المناسب ، فأنابه فى حلب ، وجعله رئيس الشحنة بها ، وكان سوار عند حسن ظن زنكى ، فقد تمكن بفضل تمرسه على مواجهة الصليبيين ، وتعامله مع الأمراء الدماشقة أبان خدمته لهم ، من مواجهة كافة الأخطار بكل كفاءة واقتدار(٩) .

وكان نظام الإقطاع الحربى يلزم الأمير المقطع بواجبات حربية ، تشمل تقديم العساكر وقت الحرب وهى مجهزة بكل ما تحتاجه ، من مؤن وعتاد وأسلحة، إضافة إلى أنه كان مسئولاً مسئولية كاملة عن صد غارات الأعداء المفاجئة على إقطاعه والأراضى القريبة منه هذا فضلاً عن أن الأمير المقطع كان له مطلق الحرية فى تسيير الجيوش لجهاد الأعداء عند الحاجة دون إذن الحاكم(١٠) لذلك حرص زنكى على منح نائبه فى حلب الأمير سوار بن أيتكين «الإقطاعات الكثيرة»(١١)، وذلك لضمان تمكينه من صد غارات الصليبيين وغيرهم المحتملة على مدن شمال الشام التى كانت قد انضوت تحت لواء عماد الدين زنكى . هذا فضلا عن إعطائه الحرية المطلقة فى بث السرايا ،وتنظيم الغارات على معسكرات الصليبيين ، دون الرجوع إلى عماد الدين زنكى طوال فترة غيابه عن حلب .

وكان أن تحقق ذلك ؛ ففى المدة التى عنى فيها عماد الدين زنكى بالمشكلات التى طرأت فى بغداد غداة وفاة السلطان محمود بن محمد ، وتدخله فى النزاع الذى نشب بين أبناء البيت السلجوقى على منصب السلطنة ومن ثم تعرضه للحملة التى قام بها الخليفة العباسى المسترشد با لله على الموصل سنة ٥٢٧هـ/١١٣٢م(١٢) ، إضافة إلى حرصه على توسيع نطاق الجبهة الإسلامية فى بلاد الجزيرة وديار بكر ، تغيب زنكى عن حلب منذ سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م حتى سنة ٥٢٨هـ/١١٣٣م . وقد قام نائبه فى حلب الأمير سوار بن أيتكين فى سنة ٥٢٧هـ/١١٣٢م ، بتجريد حملة جلها من الخيالة ، أغارات على الصليبيين فى تل باشر ، التابعة لإمارة أنطاكية التى كانت منتجعاً لأميرها الصليبى جوسلين الثانى (Joscelin.II.) . فخرج إليه الصليبيون فى « جمع غفير » ودارت بين الطرفين معركة عنيفة ، انتهت بانتصار الأمير سوار ، الذى عاد إلى حلب « سالماً غانماً » بعد أن أثخن فى الصليبيين قتلاً وأسراً(١٣) .

وفى السنة نفسها أغار ملك مملكة بيت المقدس الصليبية فولك الأنجوى (Fulk of Anjou)(١٤)، على أطراف مدينة حلب ، ووصل إلى موضع يعرف بنوار، فنهض إليه الأمير سوار بن أيتكين « النائب بحلب » بعسكره ومن أنضاف إليه من عساكر التركمان الذين كانوا قد توافدوا آنذاك على بلاد الشام ، فالتقى الطرفان، « وتحاربوا أياماً وتطاردوا » حتى وصلوا إلى أرض قنسرين(١٥) . وفيها دارت رحى معركة فاصلة بين الطرفين ، كان النصر فى بدايتها من نصيب الصليبيين ، حيث حمل ملك بيت المقدس على جيش سوار « فكسرهم كسرة عظيمة » حتى أن سواراً اضطر إلى التراجع بجيشه إلى داخل حلب ، بهدف إعادة تنظيمه . وهنا يبدو أن الصليبيين كانوا ينوون مهاجمة الأمير سوار بداخل حلب ، ولذا لم يبارحوا معسكرهم فى قنسرين ، على أن سوار عرف نواياهم ، فعاود الخروج إليهم بمن « بقى من العساكر والأتراك » واقتتل الفريقان مرة ثانية ، وكان النصر فى هذه المعركة من نصيب نائب عماد الدين زنكى بحلب الأمير سوار بن أيتكين إذ نجح فى إجبار الصليبيين على ترك قنسرين ، ولاذوا بالفرار لا يلوون على شيء لدرجة

أن ملكهم نجا بنفسه إلى أنطاكية ، حيث حل ضيفاً على أميرها الصليبي ريموند بواتيه .

ويبدو أن بعض خيالة إمارة الرها الصليبية ، استغلوا ذلك الحدث بهدف الانتقام من سوار ، فحاولوا مهاجمة ممتلكات الجبهة الإسلامية في شمال الشام . وما إن انتهى خبرهم إلى الأمير سوار حتى نهض من حلب على رأس ثلة من جيشه ومعه الأمير حسان البعلبكى ، واتجهوا صوبهم . فأدركوهم قبل دخولهم إليها ، وأثخنوا فيها قتلاً وأسروا من وقع في أيديهم حياً ، وعادوا إلى حلب « ظافرين سالمين ومعهم الأسرى والرؤوس »(١٦) .

ولا يستبعد أن يكون الأمير سوار بن أيتكين وراء قيام التركمان في هذه السنة بالإغارة على إمارة طرابلس الصليبية، حيث توغلوا داخل أراضيها « وغنموا وقتلوا كثيراً » ، فخرج إليهم أميرها الصليبي ريموند الثانى (١١٢٧-١١٥٢، Raymond II) ، وعندئذ تراجع التركمان أمامه لاستدراجه إلى مكان مناسب ، ثم عاودوا الهجوم عليه ، « فهزموه وأكثروا القتل في عسكره » وأجبروه على اللجوء إلى قلعة بعرين . ثم تقدموا صوبها ، وفرضوا عليها حصارا محكما ، فاضطر ريموند الثانى إلى التسلل منها سراً ، ومعه عشرون فارساً من أعيان أصحابه قاصدين طرابلس ، وترك الباقين في بعرين يحفظونها . « وكان أن كاتب جميع الفرنج » فتوافد عليه الصليبيون بأعداد كثيرة ، وخرجوا تحت قيادته صوب بعرين لانقاذها من السقوط في يد التركمان ، واشتبك الطرفان في معركة حامية الوطيس ، رجحت فيها كفة التركمان حتى « أشرف الفرنج على الهزيمة » ، وأجبروهم على التقهقر أمامهم صوب الساحل « فتعذر على التركمان اللحاق بهم »(١٧) .

ويبدو أن عدم ملاحقة التركمان للصليبيين بعد انكفائهم صوب الساحل كان استجابة لتعليمات الأمير سوار بن أيتكين الذى كان يكتفي بالهجمات الخاطفة على معسكرات الصليبيين ، وعدم التوغل داخل العمق الصليبي ، لحين

عودة عماد الدين زنكى من الموصل واستكمال مشروع الجبهة الإسلامية فى تلك الجهة .

والواقع أن تلك النجاحات التى حققها الأمير سيف الدين سوار بن أيتكين، نائب عماد الدين زنكى فى حلب ، خلال فترة غيابه عنها شجعت عماد الدين على العودة إلى المشرق للتدخل فى النزاع الذى تجدد فى بغداد بين الخليفة العباسى الراشد الذى تولى الخلافة بعد وفاة أبيه المسترشد والسلطان السلجوقى مسعود بن محمد ؛ حيث ترك عماد الدين حصار دمشق سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م ، وتوجه إلى بغداد لمناصرة الخليفة الراشد وحليفه السلطان السلجوقى داود بن محمود ، كما ورد إلى بغداد جماعة من ملوك الأطراف « متفقين على قتال السلطان مسعود»(١٨) ؛ لذلك خرج الخليفة بصحبة عماد الدين زنكى إلى الموصل لترتيب صفوفهم،ومن ثم معاودة الهجوم على السلطان مسعود فى بغداد . ولكن السلطان بادرهم بقطع الخطبة للراشد فى بغداد بعد مضى أحد عشر شهراً فقط على خلافته ، وأقامها للمقتفى بالله ، عم الراشد الذى بويع بالخلافة سنة ٥٣١هـ/١١٣٦م . ثم جرت مفاوضات بين عماد الدين زنكى والخليفة العباسى المقتفى ، انتهت بحصول زنكى على توقيع من الخليفة بأن يتملك « صريفين ، ودرب هرون ، وحزبى ٠٠٠ويزاد في ألقابه » ، مقابل أن يبايع زنكى المقتفى ، ويخطب له فى الموصل؛ وذلك فى رجب سنة ٥٣١هـ/١١٣٦م(١٩).

ويعنينا فى هذا المقام أن الأمير سوار بن أيتكين نائب عماد الدين زنكى بحلب قام خلال مدة غيابه عن حلب بتجريد عدد من الغارات ضد الصليبيين ؛ ففى سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م أغار سوار على قرية الجزر وحصن زردنا ، ثم تقدم صوب حارم وهاجم الصليبيين بها ، وألحق بهم خسائر فادحة ، وقد شجعته تلك الانتصارات المتلاحقة على المضى قدماً للجهاد ضد الصليبيين فى مواقع أخرى ، « فشحن إلى بلد المعرتين » وهاجم معسكرات الصليبيين بهما ، وعاد إلى حلب محملاً بالغنائم(٢٠) .

ويبدو أن مهام الأمير سوار بن أيتكين نائب زنكى فى حلب لم تقتصر على مسألة الجهاد ضد الصليبيين ، بل تعدت ذلك إلى توسيع رقعة الجبهة الإسلامية المتحدة . ومما يذكر فى هذا المجال أن عماد الدين زنكى أوعز إلى سوار فى سنة ٥٣٠هـ/١١٣٥م بمهاجمة أعمال حمص ومحاولة ضمها إلى مشروع الجبهة المتحدة. وكان أن شرع سوار فى إعداد الجيوش بحلب ، وزودها بما تحتاجه من مؤن وعتاد، وكاتب أهل حماة يطلب منهم المعونة ، ثم سار على رأس تلك الجموع صوب حمص التى كان حكامها من « أولاد خير خان بن قراجا ، والوالى عليها من قبلهم » قد راسلوا شهاب الدين حاكم دمشق فى أن يسلموا إليه حمص خوفاً عليها من عماد الدين زنكى ، مقابل أن يعطيهم تدمر عوضاً عنها . فوافق شهاب الدين على ذلك وتسلمها منهم ، وأقطعها إلى مملوك جده معين الدين أنر، وقرر ولايتها للحاجب يوسف بن فيروز ، على أن يكون نائباً عنه بها . أما زنكى فقد خرج من حلب على رأس قواته صوب حمص ، وجرت بينه وبين أصحابها « عدة وقائع »(٢١) . ويبدو أن كلا الطرفين أدرك أن الاستمرار فى المنازلة سيكون بمثابة حرب استنزاف يفيد منها فى المقام الأول عدوهما المشترك وهم الصليبيون ، فجرت بينهما « مراسلات ومخاطبات » أسفرت عن « المهادنة والموادعة والمسالمة إلى أمد معلوم وأجل مفهوم »(٢٢) ونخرج من هذا بأن عماد الدين ربما يكون قد أفضى إلى نائبه سوار باغتنام مراسلة شهاب الدين له ، ومطالبته بالتوقف عن الهجوم انتظاراً لزوال مشاكله الخاصة بالصراع بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية . ومن ثم معاودة الهجوم على حمص فى الوقت المناسب وضمها إلى مشروع الجبهة الإسلامية المتحدة ، وهذا ما حدث فعلا فبمجرد عودة عماد الدين زنكى من الموصل إلى حلب فى رمضان ١٤ رمضان سنة ٥٣١هـ/١١٣٦م أصدر أوامره إلى قواته بالشروع فى حصار حمص ؛ ثم خرج بنفسه من حلب فى السادس عشر من الشهر نفسه ، ويبدو أن عماد الدين زنكى أراد فى بداية الأمر استخدام الوسائل السلمية لتسلم حمص من صاحبها معين الدين أنر ، وإلحاقها بمشروع الجبهة الإسلامية ، حقناً لدماء المسلمين . يدلنا على ذلك ما ذكره

العظيمى من أن عماد الدين زنكى بعد خروجه من حلب أمر حاجبه صلاح الدين محمد الياغيسانى الذى كان أكبر الأمراء معه ، وكان « ذا مكر وحيل » بالتقدم إلى حمص ، للتفاوض مع معين الدين أنر لتسليم حمص لزنكى من غير قتال ، فى حين عرج عماد الدين على مدينة حماه ، وعيَّد بها عيد الفطر المبارك انتظاراً لما ستسفر عنه جهود حاجبه الياغيسانى . ولما سمع زنكى أنه لم يتمكن من إقناع معين الدين أنر بتسليم المدينة ؛ إذ لم « ينفذ فيه مكره »(٢٣) على حد تعبير ابن الأثير خرج زنكى من حماه صوب حمص ومعه خمسمائة رجل من حماه ، حيث انضم إلى عسكر حلب ، وبدأ حصار حمص ؛ وذلك فى مطلع شوال من السنة نفسها ، وفى ذات الوقت لم تتوقف المفاوضات بين زنكى ومعين الدين أنر ، حيث عاود زنكى مراسلته فى التسليم غير مرة ، « تارة بالوعد وتارة بالوعيد » ، واحتج معين الدين أنر بأن حمص ملك صاحبه شهاب الدين وهى بيده أمانة لا يستطيع تسليمها « إلا عن غلبة »(٢٤) ولذلك فإننا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا : إن معين الدين أنر كان يناور بهذا الكلام كسباً للوقت ريثما تتم عملية الاستعانة بالصليبيين ، إذ كان قد بدأ اتصالاته بزعماء الصليبيين فى إمارتى أنطاكية وطرابلس ومملكة بيت المقدس حيث استجاب الصليبيون لذلك ، وخرجوا « نجدة لحمص وغيله لزنكى »(٢٥) ، ونخرج من هذا بأن الصليبيين لم يقصدوا بهذه النجدة مجرد إنقاذ حمص من السقوط فى يدى عماد الدين زنكى ، بل كانوا يرومون ماهو أبعد من ذلك ، وهو أن بقاء حمص بيد معين الدين أنر أهون عليهم من ضمها إلى مشروع الجبهة الإسلامية المتحدة التى كان زنكى بصدد بنائها استعداداً لبدء حركة الجهاد الشاملة ضدهم .

وعلى أية حال فقد نجح معين الدين أنر بمساعدة الصليبيين فى إجبار زنكى على الرحيل عن حمص ، ولكنه لم يعد إلى حلب بل اتجه إلى مهاجمة الصليبيين فى حصن بعرين ؛ وذلك فى شوال من السنة نفسها . ولما سمع الصليبيون بذلك ساروا على وجه السرعة إليه لإنقاذه ، فاغتنم زنكى ذلك ، وأوعز إلى الأمير سوار ابن أيتكين الذى كان مرافقاً لهذا الحملة بالتقدم للقاء الصليبيين وهم فى طريقهم

إلى بعرين ، فالتقى بطلائعهم وأوقع بهم هزيمة ساحقة ، وأثخن فيهم قتلاً وأسراً ، وكان من جملة الأسرى ريموند الثانى أمير إمارة طرابلس الصليبية(٢٦) . ويظهر لنا من هذا مدى ثقة عماد الدين زنكى فى الأمير سوار بن أيتكين إذ كان يعتمد عليه فى تنفيذ الكثير من المهام القتالية الصعبة ضد الصليبيين، وخاصة الحروب الخاطفة التى طالما تمرس عليها سوار إبان خدمته للدماشقة ، وخلال نيابته عن زنكى فى مدينة حلب .

ويبدو أن ذلك النصر الذى حققه سوار بن أيتكين ضد طلائع الصليبيين لم يفت فى عضدهم ، بل استمر تقدمهم صوب بعرين ، ودخلوها بزعامة ملك مملكة بيت المقدس الصليبية فولك الأنجوى . وهنا يبدو أن دخول الصليبيين بعرين كان مقصوداً من قبل عماد الدين زنكى الذى أمر قواته بما فيها فرق الطلائع التى يقودها سوار بن أيتكين بضرب حصار محكم على الصليبيين بعد تكامل دخولهم بعرين ، مما أدى إلى نفاد أقواتهم ، فطلبوا الأمان من زنكى . وعلى الرغم من أنه رفض طلبهم فى بداية الأمر إلا أنه عاد وأجابهم إلى ذلك ، على أن يملى شروط الصلح بنفسه ؛ فاشترط عليهم تسليم حصن بعرين ، ودفع مبلغاً كبيراً من المال قدره بعضهم بخمسين ألف دينار . ولما استجابوا لذلك أطلق سراحهم « وخلع على الملك »(٢٧) ، ويمكن رد موافقة زنكى على طلب الصلح وتجنيب الصليبيين عواقب الكارثة التى كانت تنتظرهم داخل بعرين إلى الأنباء التى بلغت زنكى عن حشود الصليبيين والبيزنطيين التى بدأت استعداداتها لمهاجمة مدن الشام الشمالية ، إضافة إلى سماعه عن قدوم قوات صليبية جديدة نجدة لبعرين بقيادة ريموند دى بواتيه أمير إمارة أنطاكية الصليبية .

ومما يضاف إلى الجهود التى بذلها سوار بن أيتكين إبان غياب عماد الدين زنكى أنه استغل تفرق الصليبيين عن اللاذقية . ولعل ذلك كان بسبب سماعهم عن انشغال سوار بحمص . فجهز سوار جيشاً من أهل حلب وحماه ومن انضم إليهم من التركمان الذين بلغ عددهم ثلاثة آلاف مقاتل ، وسار بهم إلى اللاذقية فى

شعبان من سنة ٥٣٠هـ/١١٣٥م . فهاجموها على حين « غرة وغفلة » وحاصروا البلد من كل الجهات . ولم يتمكن الصليبيون من الانفصال عنها والاحتراز ، وألحق بهم سوار ورجاله خسائر فادحة ، ثم عادوا إلى حلب محملين بالأسرى والغنائم(٢٨) ، وقد فرح المسلمون بذلك فرحاً عظيماً ، ولم يستطع الصليبيون عمل شيء مقابل هذه الحادثة « عجزاً ووهناً »(٢٩) .

دور الأمير سوار فى صد الحملة الصليبية البيزنطية المشتركة على شمال الشام :

كان الإمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين (Alexius Comnenus، ١٠٨١-١١١٨م) قد أرغم زعماء الحملة الصليبية الأولى على أن يقسموا له يمين الولاء والتبعية ، وأن يعيدوا لبيزنطة كامل الأراضى التى فقدتها لحساب السلاجقة المسلمين منذ معركة ملاذ كرد ٤٦٣هـ/١١٦٨م ، بما فى ذلك مدينة أنطاكية التى انتزعها السلاجقة من البيزنطيين عام ٤٧٧هـ/١١٨٢م ، إلا أن الصليبيين بعد سيطرتهم عليها تنصلوا عن تعهداتهم لبيزنطة ، وأقاموا إمارة صليبية بزعامة الأمير بوهيمند النورمانى (Bohemond ، ١٠٩٨-١١٠٤م) ، ونشب بين البيزنطيين والنورمان خلاف شديد حول مستقبل أنطاكية ، حتى أن بوهيمند عاد من أنطاكية إلى الغرب الأوربى ليقنع والده روبرت جيسكارد بدعوة أوربا إلى تجريد حملة صليبية ضد بيرنطة . وعندما تولى حنا الثانى كومنين (John Comnenus II، ١١١٨-١١٤٣م) العرش البيزنطى بعد وفاة والده الكسيوس كومنين سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م قرر القيام بحملة عسكرية لاسترداد قليقية من الأرمن وأنطاكية من الصليبيين ؛ وذلك فى أواخر سنة ٥٣١هـ/١١٣٧م، وبعد أن نجح فى السيطرة على بعض المدن الرئيسية فى قليقية تقدم صوب أنطاكية وفرض عليها حصاراً شديدًا طالب خلاله أميرها الصليبى ريموند بواتيه (١١٣٦- ١١٤٩ م) بالاستسلام له دون قيد أو شرط . وعقد صلح بين الطرفين ، اعترف ريموند بموجبه بسيادة بيزنطة على أنطاكية ، وأن ترفع أعلام الإمبراطور البيزنطى على أسوار المدينة وأبراجها ، على أن يظل ريموند حاكماً على المدينة ، وتابعاً لبيزنطة ،

ثم اجتمع ريموند مع حنا كومنين عند أسوار أنطاكية ، وشارك في الاجتماع جوسلين الثاني (Joscelin .II.) أمير الرها ، واتفقوا على القيام بحملة مشتركة على بلاد المسلمين للاستيلاء على مدن شمال الشام ؛ حلب وشيزر وحمص وحماه، على أمل أن تقام بها إمارة صليبية جديدة تسلم إلى ريموند ويتخلى نهائياً عن أنطاكية للبيزنطيين(٣٠).

وكان أن سارت الحملة المشتركة صوب مدن شمال الشام ، وعندئذ أدرك عماد الدين زنكي خطورة الموقف فأرسل إلى بغداد وحكام أقليم الجزيرة يطلب المدد . وفي ذات الوقت قام ببعض الإجراءات الدفاعية السريعة ، التي أوكل إلى الأمير سوار بن أيتكين تنفيذها ريثما تصل الإمدادات الإسلامية ، فطلب من سوار التصدي لسرية بيزنطية كانت في طريقها للإغارة على أطراف حلب ؛ وذلك في ذي الحجة من سنة ٥٣١هـ/١١٣٧م، حيث ظفربهم سوار ، « فقتل بعضاً وأسر بعضاً »(٣١) ، وعاد بالأسرى إلى حلب . يفهم من هذا أن زنكي أراد استغلال مواهب سوار بن أيتكين في تنفيذ الغارات الخاطفة ، فأوعز إليه بمواجهة هذه السرية ؛ ليؤكد للبيزنطيين الذين كانوا على وشك الاتفاق مع الصليبيين على حربه أنه على استعداد تام لمواجهتهم في الوقت الذي كانت رسل الإمبراطور البيزنطي حنا كومنين تترى إلى عماد الدين زنكي تخبره أن هدفهم هو أراضي « ابن لاون » زعيم الأرمن في قليقية(٣٢) ، وتوهمه أن البيزنطيين ليسوا راغبين في أن يبادروا بمهاجمتهم(٣٣) ، والحق أن الأمبراطور البيزنطي حنا كومنين كان عاقداً العزم على مهاجمة ممتلكات عماد الدين زنكي في شمال الشام بهدف وأد مشروع الجبهة الإسلامية في مهده ، فقد ذكرت المصادر المعاصرة لفترة البحث أن الصليبيين في أنطاكية عمدوا إلى نقض الهدنة التي كانت معقودة بينهم وبين زنكي فقبضوا على التجار الحلبيين الذين كانوا موجودين آنذاك بأنطاكية وبعض مدن الساحل القريبة منها ، وقدر عددهم بخمسمائة رجل؛ وذلك في جمادى الأولى من سنة ٥٣٢هـ، كي لا تتسرب أخبار الحشود والاستعدادات التي حشدها الأمبراطور البيزنطي في أنطاكية خشية انقيادها له استعداداً لمهاجمة شطر الجبهة الإسلامية في شمال الشام(٣٤) .

وعلى أية حال فإنه ما لبث أن افتضح أمر الحملة الصليبية البيزنطية المشتركة ، وعلم أهل حلب أنها فى طريقها إليهم حين وصل إليهم نفر من البيزنطيين ضلوا طريقهم ، فأخبروهم بمسير الامبراطور إليهم على رأس حملة مشتركة من البيزنطيين والصليبيين ، وعندئذ شرع أهل حلب فى ترميم تحصينات مدينتهم وتزويدها بما تحتاجه من المؤن والعتاد استعداداً لمقاومة الحصار المرتقب . ولحسن حظ الحلبيين ، شاءت إرادة الله أن ينشغل البيزنطيون والصليبيون بعض الوقت بحصار حصن بزاغة ، مما أعان أهل حلب على إكمال استعداداتهم ، ومكاتبة عماد الدين زنكى الذى كان آنذاك متواجداً فى حمص ، فاهتم بالأمر أيما اهتمام . وقد رأى زنكى أن خير من يقوم بمهمة الدفاع عن حلب لحين عودته إليها هو ساعده الأيمن ورجل المهمات الصعبة سيف الدين سوار بن أيتكين الذى توجه من فوره إلى حلب بصحبة الرجالة الحلبيين وخمسمائة فارس ، يعضدهم أربعة من الأمراء « الاصفهسلارية » ، ووصلوا جميعاً إلى حلب فى ٢٧ رجب من سنة ٥٣٢ هـ، « فقويت قلوب أهل حلب بهم »(٣٥) ، وشرع أهل حلب فى زيادة تحصينات مدينتهم وتوسيع خنادقها(٣٦) ، ويفهم من هذا أن سوار ابن ايتكين كان يعد الرجل الثانى فى دولة عماد الدين زنكى يناط به مواجهة المهام الصعبة والمباغتة ؛ لما كان عليه من خبرة ودراية بإعداد الخطط والتدابير السريعة لمواجهة الأخطار المفاجئة . هذا إلى أن أهل حلب كانوا يشعرون بثقة زائدة عندما يكون سوار بين ظهرانيهم ، لما عهدوا فيه من كفاية وسرعة بديهة فى مواجهة المواقف الحرجة ، وبالأخص عندما يتعرضون لعدوان خارجى مباغت .

وعلى أية حال فقد سيطر الإمبراطور البيزنطى على بزاغة بعد أن ضيق على أهلها ونصب عليها المنجنيقات حتى اضطرهم إلى التسليم فى الخامس والعشرين من رجب من سنة ٥٣٢هـ/١١٣٨م . وبعد ذلك اتجه الإمبراطور إلى حلب ومعه من بالساحل من الفرنج « فى خيلهم ورجلهم » . وهنا تجلت خبرة سوار العسكرية حيث أوعز فى البداية إلى أحداث حلب الذين اشتهروا بسرعتهم وحماستهم الشديدة لحركة الجهاد بالخروج لملاقاة الصليبيين والبيزنطيين خارج

حلب ، فناوشوهم القتال . ثم لحق بهم سوار ومعه أهل حلب ودارت بين الطرفين معارك شديدة ، قتل فيها من الصليبيين والبيزنطيين (خلق كثير) ، وأقام الصليبيون والبيزنطيون ثلاثة أيام فلم يظفروا بطائل ثم انكفأوا إلى معسكرهم ، حيث استراحوا به أياماً قليلة حتى عن لهم محو هزيمتهم أمام حلب بمهاجمة قلعة الأثارب ، فخاف من بها من المسلمين وأخلوها ، فاستولى عليها الصليبيون والبيزنطيون ، وأودعوا الأسرى والسبايا الذين ظفروا بهم فى بزاعة « فى خنادقها وأحواشها » ، حتى رحلوا عنها . وهنا تمكَّنَ جماعة من الأسرى من الهروب إلى حلب ، وأعلموا الأمير سوار بن أيتكين بذلك ، « وأن الروم قد انعزلوا عنها » ، فأعد سوار للأمر عدته ، وخرج من حلب على رأس ثلة من جيشها قاصداً الأثارب « فصابحهم وقد انتشروا بعد طلوع الشمس » ، فأوقع بمن فيها من الروم والصليبيين ، واستخلص السبايا إلا اليسير منهم ، وأركب الضعفاء خلف الخيالة ، وأخذ بنفسه جماعة من الصبيان وأركبهم بين يديه ومن خلفه ، ووصل بهم إلى حلب فى يوم السبت الحادى عشر من شعبان حيث قوبل بترحاب شديد من أهلها الذين سروا بهذه النوبة « سروراً عظيماً »(٣٧) .

ويتضح من هذا أن مهام سوار بن أيتكين لم تكن مقصورة على الدفاع عن حلب التى كان نائباً عن عماد الدين بها ، بل كان مخولاً من قبل عماد الدين بالمشاركة فى حماية البلاد المجاورة لحلب من أى خطر خارجى بيزنطى أو صليبى .

ومع أن عماد الدين زنكى عاد إلى حلب قادماً من حمص بعد أن مر بحماة وسلمية ، وذلك لمواجهة خطر الحملة الصليبية البيزنطية المشتركة ، إلا أن فشل هذه الحملة فى السيطرة على شيزر وعودة الإمبراطور البيزنطى حنا كومنين والأمير الصليبى ريموند إلى أنطاكية(٣٨) . جعل زنكى يترك حلب مرة أخرى لنائبه بها سوار بن أيتكين ؛ ليتفرغ من جديد لإكمال مشروع الجبهة الإسلامية المتحدة . وقد استغل صليبيو أنطاكية ذلك ، وأغاروا سنة ٥٣٦هـ/١١٤٢م على سرمين وجبل السماق وكفر طاب ، وارتكبوا فيها الكثير من السلب والنهب

والتخريب . ولما علم سوار بن أيتكين بذلك أعد جيشاً بقيادة ابنه علم الدين لمعاقبة الصليبيين على ذلك العمل ، فأغار علم الدين ومعه التركمان على معسكرات الصليبيين حتى بلغ « باب أنطاكية » ثم عاد إلى حلب محملاً بالغنائم « والوسيق العظيم »(٣٩) .

ويبدو أن هذه الضربة الموجعة التى وجهها علم الدين بن سوار لصليبيى أنطاكية ، جعلت أميرهم ريموند بواتيه يفكر من جديد فى الانتقام من سوار وابنه؛ ففى سنة ٥٣٧هـ/١١٤٣م ورد الخبر إلى سوار بحلب أن أمير أنطاكية الصليبى فى طريقه إلى ناحية بزاغة لمهاجمتها ، فأعد سوار للأمر عدّته وخرج بنفسه لملاقاته ، « وثناه عنها وحال بينه وبينها »(٤٠) .

وكان لهاتين النوبتين اللتين انتصر فيهما سوار بن ايتكين وابنه علم الدين على صليبيى أنطاكية ، وكبداها من خلالها خسائر فادحة فى الأرواح والعتاد والدواب - أثره البالغ فى دفعهما إلى مواصلة كيل الضربات الموجعة لإمارة أنطاكية الصليبية وقد ذكر ابن العديم نقلاً عن العظيمى أن الأمير سيف الدين سوار بن أيتكين نهض فى العشر الثانى من رمضان سنة ٥٣٨هـ/١١٤٤م إلى بلد أنطاكية ، ولقى عند الجسر جمعاً غفيراً من الصليبيين وخيماً مضروبة ، وقطعة من العسكر « يخطفون الأطراف » فخاض التركمان نهر العاصى وهاجموهم وهزموهم شر هزيمة ، ثم عاد سوار إلى حلب محملاً بالغنائم والأسرى والسبايا (٤١). كذلك ذكر ابن القلانسى أن سواراً أوعز إلى ثلة من جيشه بالخروج من حلب ومهاجمة قافلة كبيرة من التجار والأجناد وغيرهم ، خرجت لتوّها من أنطاكية ، ومعها الكثير من الدواب والمتاع والأثاث ، فأوقعوا بها واشتملوا على ما كان بها ، وعادوا إلى حلب « بالمال والسبى والأسرى والدواب »(٤٢).

* * *

وختاماً يمكن القول أن سيف الدين سوار بن أيتكين نائب عماد الدين زنكى بحلب قام بدور فعال فى حماية الجزء الغربى من دولة عماد الدين ، أثناء

انشغاله بمشاكل الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية ، فضلا عن مشروع الجبهة الإسلامية المتحدة ، بل زاد على ذلك بأن نجح فى تحجيم دور إمارة أنطاكية وتهميش دورها الحربى خلال الفترة ، مما شجع زنكى بعد ذلك على التفكير فى مهاجمة الرها واستردادها من الصليبيين فى سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م . وهنا يبدو للباحث أن زنكى لم يصطحب سوار بن أيتكين معه عند خروجه لمهاجمة الرها بل أبقاه فى حلب خوفاً من غدر الدماشقة وحلفائهم حكام مملكة بيت المقدس الصليبية ، بدليل أن المصادر المعاصرة لتلك الفترة لم تشر إلى مشاركة سوار فى ذلك الحدث الهام .

والواقع أن المصادر التاريخية صمتت - كما يبدو للباحث - عن أى إشارة إلى هذا القائد العظيم ، بعد هذه الحوادث التى أشرنا إليها فى ثنايا البحث باستثناء إشارة بسيطة وردت فى ابن القلانسى الذى ذكر أن سواراً رافق نور الدين محمود عندما دخل حلب بعد وفاة والده ، ومن ثم رافقه عندما خرج لاسترداد الرها من يد جوسلين الثانى سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م(٤٣) . ويمكن أن نعزو هذا الصمت إلى أن سوار بن أيتكين كان قد تقدمت به السن وبات غير قادر على أداء مهامه القتالية بالشكل المطلوب ، مما جعله يعتزل الحياة السياسية والعسكرية . يؤيد هذا ما ورد فى ثنايا البحث من أن سواراً أخذ ينيب عنه ابنه علم الدين فى قيادة الجيش الحلبى الذى كان يخرج لأداء بعض المهام القتالية ضد الصليبيين (٤٤).

أما نور الدين محمود بن زنكى فقد استقلّ بالجزء الغربى من دولة والده عشية وفاته واتخذ من حلب حاضرة له ، وبالتالى لم تعد هناك حاجة لاستبقاء سوار نائباً بحلب ، كما كان الحال زمن عماد الدين زنكى ، وهكذا صار سوار مجرد فرد عامل فى صفوف جيوش نور الدين محمود التى كانت تعمل جاهدة تحت قيادة نور الدين محمود نفسه من أجل استكمال مشروع الجبهة الإسلامية المتحدة ، استعداداً لبدء حركة الجهاد الشاملة ضد الوجود الصليبى فى بلاد الشام .

الهوامش

(١) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٧٥؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢، ص٢٤٥؛ وينفرد ابن القلانسى بإضافة اسم مسعود ؛ أما ابن الأثير فيذكره على أنه أسوار بالألف ، انظر الكامل ، جـ٨،ص٢٢٢؛ والشحنكية أو الشحنة : وظيفة يسمى متوليها صاحب الشحنة وهو بمثابة رئيس الشرطة الموكل بالأمن فى البلد ، انظر محمد قنديل البقلى ، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص١٩٣؛ أما الدكتورة فتحية النبراوى فقد عرفت الشحنة استناداً إلى لسان العرب بأنها « وظيفة يقوم المكلف بها بالجمع بين الحكم والقضاء » انظر البندارى ، سنا البرق الشامى ، حاشية المحقق ، ص٢٨.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٨،ص٢٢٢؛ الذهبى ، دول الإسلام ، ص٢٦٩؛ ابن خلكان وفيات الأعيان ، جـ١، ص٢٦٩؛ أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، جـ١، ص٢١٧؛ والأتابك لقب مكون من لفظين الأول أتا بمعنى أب والثانى بك بمعنى أمير ، وكانت نظرية السلاجقة فى الحكم تنص على أن يتولى أفراد من الأسرة السلجوقية حكم الأقاليم، وأن يرتبط بكل فرد قائد تركى يحمل لقب أتابك ، أى الأمير الوالد ، مهمته تربية الأمير الصغير بعد وفاة والده ، وقد يتزوج الأمير ابنة الأتابك ، وبالتالى تصبح العلاقة بينهما شبه أبوية ، ويصبح للأتابك الكثير من النفوذ والسلطان . انظر على الغامدى ، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى ، وانظر أيضاً ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك، ص١١١-١١٣؛ أما طغتكين فهو ظهير الدين أبو منصور أتابك دقاق وعتيق والده تتش، توفى يوم السبت لثمان خلون من صفر سنة ٥٢٢هـ، انظر ابن خلكان ، المصدر نفسه ، جـ١،ص٢٩٦.

(٣) ابن الأثير ، الكامل جـ٨،ص٢٢٢؛ أبو الفدا ، المختصر ، جـ١،ص٢١٧؛ والرحبة قرية من قرى دمشق ،(انظر ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٣،ص٣٣)؛ وبعلبك : بالفتح ثم السكون وفتح اللام والباء الموحدة ، والكاف المشددة ، وصفها ياقوت بأنها « مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة وآثار عظيمة وقصور على أساطين الرخام لا نظير لها فى الدنيا ، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام واثنا عشر فرسخاً من جهة الساحل » . (انظر المصدر

نفسه، جـ١، ص٤٥٣-٤٥٥) وبصرى بالضم وهى من أعمال دمشق وتعد قصبة حوران (انظر المصدر نفسه ، جـ١،ص٤٤١).

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢،ص٢٤٥؛ وتاج الملوك بورى هو تاج الملوك أبو سعيد بورى بن ظهير الدين أبو منصور طغتكين ، توفى يوم الاثنين الحادى والعشرين من رجب من سنة ٥٢٦هـ، متأثراً بجراحه بعد أن أصابه الباطنية (انظر ابن خلكان المصدر نفسه، جـ١،ص٢٦٩؛ الذهبى ، دول الإسلام ، ص٢٧١).

(٥) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢، ص٢٤٥ .

(٦) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١،ص٤٦؛ انظر أيضاً ابن الأثير ، الباهر ، ص٤٢،٤٣؛ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ٨، ص١٣٦؛ ابن أبى الهجاء ، تاريخ ابن أبى الهجاء،ص١٨٩.

(٧) ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج١،ص٤٦؛ انظر أيضاً ابن الأثير ، الباهر ، ص٤٣ ؛ الحسينى، أخبار الدولة السلجوقية ، ص٩٩ وما بعدها ، سعيد الديوه جى ، تاريخ الموصل، جـ١ ، ص٢٧١ .

(٨) أدى اعتذار الخليفة العباسى عن إقامة الخطبة لألب أرسلان بن محمود إلى إثارة غضب زنكى الذى اعتبر ذلك إهانة له ، وبات كل منهما يتربص بالآخر ، وهنا اهتبل السلطان مسعود بن محمد الخلاف الذى نشب بين الخليفة العباسى المسترشد وعماد الدين زنكى ، فاستعان بزنكى ضد أخيه سلجوق شاه الذى دخل بدوره إلى بغداد وانضم إلى صف الخليفة العباسى ، وعلى الرغم أن زنكى تردد بادىء الأمر فى التحالف مع السلطان مسعود ، إلا أن تنازل الأخير له عن بلدة أربل جعله يوافق على ذلك ، فانضم زنكى إلى السلطان مسعود فى حربه ضد الخليفة العباسى وأخيه سلجوق ، ودارت رحى الحرب بين الطرفين انتهت بهزيمة مسعود وحليفه زنكى ؛ وذلك فى سنة ٥٢٦هـ/١١٣٢م . واضطر زنكى بعدها إلى الرحيل إلى الموصل . وظل بها يرقب تطورات الموقف ، خاصة بعد أن سمع بمقدم السلطان سنجر ، وأنه قد وصل إلى الرى فى طريقه إلى العراق لحسم الموقف (لمزيد من التفصيل راجع مسفر الغامدى ، الجهاد ضد الصليبيين فى الشرق الإسلامى ، ص١٩٦-١٩٧) .

(٩) انظر ما سبق .

(١٠) نشأ نظام الإقطاع الحربى فى الشرق الإسلامى منذ أيام الدولة السلجوقية التى كانت تسير على أساس صرف مرتبات نقدية للجيوش النظامية حتى منتصف القرن الخامس الهجرى ، (الحادى عشر الميلادى). وعندما اتسعت رقعة الدولة وأرهقت إدارتها المالية من جراء مرتبات الجند ، فكر نظام الملك فى الاستعاضة عن المرتبات النقدية بنظام توزيع الأراضى كإقطاعات على الجند (انظر المقريزى ، الخطط ، جـ ١، ص١٥٣؛ العماد الأصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص٦١؛ نظام الملك ، سياسة نامة ، ص٦١؛نظير حسان سعداوى ، جيش مصر ، ص٢٢١؛ إبراهيم طرخان ، النظم الإقطاعية فى الشرق الإسلامى فى العصور الوسطى . وقد انتقل نظام الإقطاع الحربى كاملاً إلى الدولة الزنكية التى نبتت وترعرعت فى أحضان السلاجقة ، يدلنا على ذلك قول أبى المحاسن : (أنشأ بنو بويه بنى سلجوق ، وأنشأ بنو سلجوق بنى أرتق ، وآق سنقر جد زنكى ...) (انظر النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص٣٧٩) وقد ارتبط الإقطاع الحربى فى عصر الزنكيين بالخدمة الحربية ، ولكن منح الإقطاع بواسطة السلطان لم يكن معناه تمليك الأراضى الزراعية للأمير المقطع ، وليس معناه أيضاً تمتع المقطع بتحصلات الإقطاع لفترة طويلة ، بل كان يعطى المقطع مجرد الحق فى أن يجمع لنفسه وأجناده مجموعة من الضرائب مقابل الواجبات المدنية والعسكرية التى كان المقطع ملزماً بها وقت الخروج للجهاد .

انظر Hassanein Rabie, The Financial System of Egypt. pp.20-30

(١١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ،ص٢٤٥.

(١٢) خرج الخليفة العباسى المسترشد بالله لحصار الموصل فى سنة ٥٢٧هـ فترك عماد الدين الموصل إلى سنجار ، وأبقى بها ثلة من جيشه للدفاع عنها بقيادة (نصر الدين جقر) الذى حفظها « أحسن حفظ » وكان عماد الدين يرسل السرايا من كل مكان لقطع الميرة عن جيش الخليفة ، فقلت الميرة وعزت الأقوات عنهم وأصبحوا شبه محصورين ، فترك الخليفة الموصل ، بعد حصار دام ثلاثة أشهر عائداً إلى بغداد بعد أن بلغه أن السلطان مسعود استغل انشغاله بالموصل فتوجه إليها ومعه دبيس بن صدقة (لمزيد من التفصيل انظر ابن الأثير ، الباهر ، ص٤٧،٤٨، الحسينى ، أخبار الدولة السلجوقية ، ص

١٠٨، ١٠٩) سعيد الديوه جى : تاريخ الموصل ، ص٢٧٢؛ عبد النعيم حسنين ، سلاجقة إيران والعراق ، ص١٢٢، ١٢٣.

(١٣) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٣٦؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١، ص٨؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢، ص٢٥١؛ وجوسلين الثانى (Joscelin II.) هو الأمير الصليبى الذى تولى إمارة الرها بعد وفاة والده جوسلين الأول سنة ٥٣٥هـ/١١٣١م واستمر يحكم الرها حتى سقوطها بيد زنكى سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م (انظر أبو شامه ، الروضتين ، جـ١،ق١ ص١٢٥ حاشية المحقق) ؛ وتل باشر ، بلدة مشهورة لها قلعة معمورة إلى الشمال من حلب بينهما مسيرة يومين وأهلها نصارى أرمن (انظر ابن العديم ، بغية الطلب ، جـ١،ص٣٢١؛ ياقوت ، معجم البلدان ،جـ٢ ، ص٤٠).

(١٤) هو فولك الخامس كونت انجو من كبار بارونات فرنسا وقع الاختيار عليه ليكون زوجاً للأميرة ميسلند ابنة بلدوين الثانى ، وكان فولك آنذاك يبلغ من العمر أربعين عاماً ، أوصى بترشحه الملك لويس السادس والبابا هنريوس الثانى . وقد أبلغ فولك أن بلدوين الثانى ونبلاء مملكة بيت المقدس قد وافقوا بالإجماع على أنه فى خلال خمسين يوماً من وصوله إلى المملكة سيتم زواجه من ميسلند ويكون من حقه وراثة العرش فى حالة وفاة بلدوين الثانى . وفى ربيع عام ١١٢٩م تم زواج فولك من ميسلند . وبعد وفاة بلدوين فى ٢١ أغسطس ١١٣١م انتقل العرش إلى فولك وزوجته دون إجراء انتخاب ، وأصبح فولك من الوجهة القانونية ملكاً على الصليبيين فى بيت المقدس (لمزيد من التفصيل انظر، وليم الصورى، ص ؛ عبد الحفيظ محمد على ، مشكلات الوراثة فى مملكة بيت المقدس ، ص١٥-٢١) .

(١٥) قنسرين ، بكسر أوله وفتح ثانيه وتشديده : مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص بقرب العواصم (انظر ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٤٠٣ ، ٤٠٤) .

(١٦) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٤٠ ، ٢٤١.

(١٧) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١، ص٧،٨؛ ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٤٠.

(١٨) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص٦٤؛ انظر أيضاً ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١، ص٣٦؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ،ص٢٥٩؛ أبو شامة ، الروضتين ، جـ١،

ص٣١؛ والخليفة الراشد: هو أبو جعفر المنصور بن المسترشد با لله ، بويع بالخلافة فى يوم الاثنين مستهل ذى الحجة سنة ٥٢٩هـ ، ومات مقتولاً سنة ٥٣١هـ، ودفن بجامع شهرستان (انظر ابن العمرانى ، الأنباء فى تاريخ الخلفاء ،ص٢٢٢-٢٢٤).

(١٩) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١١ ،ص٤٤،٤٥؛ انظر أيضاً ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١، ص٦٩ ، ٧٠ ؛ ابن أبى الهيجاء ، ص١٥٦، وصريفين وصفها ياقوت بأنها قرية كبيرة غناء شجراء قرب عكبراء ، وبين الأخيرة وبغداد عشرة فراسخ (انظر معجم البلدان ، جـ٣، ص٤٠٣،٤٠٤؛جـ٤ ، ص١٤٢)؛ ودرب هرون أو هرور أو هرور حصن منيع من أعمال الموصل إلى الشمال منها ، بينهما ثلاثون فرسخاً (ياقوت ، جـ٥، ص٤٠٣)؛ وحزبى بليدة فى أقصى دجيل بين بغداد وتكريت مقابل الحظيرة ، ياقوت جـ٢ ، ص ٢٣٧.

(٢٠) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢،ص٢٥٤؛ والجزر كوره من كور حلب (ياقوت ، معجم البلدان، جـ٢، ص١٣٣)؛ وزردنا بليدة من نواحى حلب الغربية (ياقوت ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٣٦) ؛ وحارم حصن حصين وكوره جليلة تجاه أنطاكية ، وكانت آنذاك من أعمال حلب ، (انظر ياقوت ، المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٢٠٥) .

(٢١) ابن الأثير ، الكامل ،جـ١١ ، ص٣٨؛ انظر أيضاً ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٥٢ ، ٢٥٣ ؛ وتدمر بالفتح ثم السكون وضم الميم مدينة قديمة مشهورة فى برية الشام ، بينها وبين حلب خمسة أيام (انظر ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٢ ، ص١٧) .

(٢٢) ابن القلانسى ، ذيل مرآة الزمان ، ص٢٥٢؛ انظر أيضاً ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١، ص٣٨ .

(٢٣) انظر ، الكامل ، جـ١١، ص٥٠ .

(٢٤) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٥٠ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٦١ .

(٢٥) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢، ص٢٦١.

(٢٦) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١١، ص٥١،٥٢؛ ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ص٢٥٩؛ أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣،ص١٢؛ مسفر الغامدى ، المرجع نفسه ، ص٢٢١،٢٢٢؛ عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكى ، ص١٤٢؛ وبعرين أو بارين

وصفها ياقوت بأنها مدينة حسنة بين حلب وحماه من جهة الغرب (انظر معجم البلدان، جـ١، ص٣٢٠،٣٢١).

(٢٧) ابن العديم ، زبدة الحلب ،جـ٢، ص٢٦١، ٢٦٢؛ انظر أيضاً ، ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٥٩؛ ابن الأثير ، الباهر ، جـ١١، ص٥٢؛ أسامة بن منقذ ، كتاب الاعتبار، ص١٨٤.

(٢٨) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٥٥؛ انظر أيضاً ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١،ص٤٠؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢، ص ٢٦٠، ٢٦١؛ ويذكر ابن الأثير ، أن سواراً غنم سبعة آلاف أسير ما بين رجل وامرأة وصبّى ، ومائة ألف رأس من الدواب ما بين فرس وبغل وحمار وبقر وغنم ، وأما ما سوى ذلك من الأقمشة والعين والحلى فيخرج عن الحد) .

(٢٩) ابن الأثير ، الكامل جـ١١، ص٤٠.

(٣٠) للوقوف على تفصيل هذه الحملة انظر (وليم الصورى ، تاريخ الحروب الصليبية ،جـ٢، ص٦٦٥-٧٠٢؛ رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٢، ص٣٤٠ ، ٣٤١؛ فوشيه الشارترى ، تاريخ الحملة إلى القدس ص١٤٢،١٤٣؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢، ص٥٦٧.

(٣١) ابن العديم ، زبدة الحلب ،جـ٢، ص٢٦٢.

(٣٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢،ص ٢٦٢،٢٦٣؛ وابن لاون هو ليون الثانى(.Lion II) الذى كان يحكم أرمينية آنذاك (انظر ابن واصل ،جـ١،ص٧٩ حاشية رقم ١) أما أرمينية الصغرى فكان ظهورها ناجماً عن توسع السلاجقة فى هضبة أرمنيه ؛ إذ أدى ذلك إلى هجرة أعداد كبيرة من الأرمن إلى الأقاليم الواقعة غربى نهر الفرات وشماليّه ، ثم اشتدت هجرتهم عشية انتصار السلاجقة فى ملاذ كرد سنة ٤٦٣هـ/١٠٧١م، حيث لجأ كثير منهم إلى جبال طوروس وإلى قليقية وشمال الشام والجزيرة هرباً من غزوات السلاجقة وسميت أرمينية الصغرى . (انظر سعيد عاشور ، سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى ، ص٢٢٨،٢٢٩؛ على الغامدى ، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبى ، ص ٢٢٣؛ كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص٤٠٢) .

(٣٣) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ،حـ٢،ص٣٤٣.

(٣٤) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٦٥؛ ابن الأثير ، الكامل ، حـ ١١،ص ٥٦.

(٣٥) ابن العديم ، زبدة الحلب ،حـ٢، ص٢٦٥؛ انظر أيضاً ابن واصل ، مفرج الكروب ، حـ١، ص٧٧؛ « والأصفهسلاريه أو الاسفهسلاريه ، مفردها اسفهسلار عرفه القلقشندى بأنه اسم لوظيفة من وظائف أرباب السيوف وعامة الجند ، وصاحبها زمام كل زمام ، وإليه أمر الأجناد والتحدث فيهم ، وفى خدمته وخدمة صاحب الباب تقف الحجاب على اختلاف طبقاتهم ؛ وهى كلمة أعجمية معناها قائد الجيش) (انظر القلقشندى ، صبح الأعشى ، حـ٣،ص٤٧٩؛ انظر أيضاً ، محمد قنديل البقلى ، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ، ص٣٢ » .

(٣٦) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٦٣.

(٣٧) ابن العديم ، زبدة الحلب ، حـ٢،ص٢٦٦؛ والأحداث ،أو الحدثان ، جمع حدث وهو (الفتى الصغير السن) ويقال رجل حدث ؛ أى :شاب ، وهؤلاء غلمان حدثان ؛ أى : أحداث (انظر ابن منظور ، لسان العرب ،حـ٤،ص ٣٢،٣٣ مادة (حدث)، ويذكر بعض المؤرخين أن طائفة الأحداث هذه تكونت فى بعض مدن الشام منذ النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) بهدف مقاومة النفوذ الفاطمى ، وهم عبارة عن جماعات من القوات المدنية كان يناط بهم إلى جانب ذلك عدد من المهام داخل المدن؛ كحفظ الأمن ، ومكافحة الحرائق ، وإغاثة المنكوبين ، إضافة إلى أنهم كانوا يخرجون مع القوات النظامية عندما يعلن داعى الجهاد النفير العام (انظر سعيد عاشور ، بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص٣٠،٣١؛ مسفر الغامدى ، الجهاد ضد الصليبيين ،ص٤٩) ويمكن أن تشبه فرق الأحداث هذه بما يعرف فى وقتنا الحاضر بفرق الدفاع المدنى أو المقاومة الشعبية ، التى تحرص الحكومات الحالية على إعدادها وتطويرها لمواجهة الأزمات والكوارث الناجمة عن اشتعال الحروب ، أو حدوث الزلازل والفيضانات والحرائق وما شابهها . (وللوقوف على المزيد من التفاصيل عن هذه الفرقة، انظر عبدالله الغامدى ، دور المتطوعة فى حركة الجهاد ضد الصليبيين والمغول ، بحث منشور بمجلة المؤرخ العربى التى تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ، العدد الثانى، المجلد الأول ، مارس ، ١٩٩٤م.ص٣٤١-٣٤٥).

(٣٨) يمكن إرجاع فشل هذه الحملة إلى عوامل عدة ؛ منها تراخى الأمراء الصليبيين فى مساعدة الإمبراطور البيزنطى الذى تحمل أكبر العبء خلال هذه الحملة . ونجاح عماد الدين زنكى فى استغلال بوادر عدم الثقة بين إمبراطور بيزنطة وأمير أنطاكية ، ومراسلة كل منهما على حدة ، وتحذير كل واحد منهما من نوايا الآخر ، كما كان لتظاهر زنكى بانتظار نجدات إسلامية من كافة الأطراف بما فى ذلك الخلافة العباسية أثره البالغ على زعيمى الحملة وبالذات الإمبراطور البيزنطى ، إضافة إلى الدور الذى لعبه ابن منقذ أمير شيزر الذى عمد إلى مراسلة الإمبراطور سراً ، وعرض عليه تعويضات بجزية عن نفقات الحرب . مما جعل الإمبراطور يقبل ذلك خاصة بعد ما تبين له تقصير الصليبيين فى مساعدته ، وثمة عامل آخر وهو الهجوم الذى تعرضت له مدينة أذنة التابعة لبيزنطة من قبل سلطنة الروم حيث استغل السلطان مسعود انشغال الإمبراطور بالحملة المذكورة فقام بمهاجمتها ، مما جعل الأخير يضطر للعودة للدفاع عنها ، وأخيراً الدور المريب الذى قام به أمير الرها للإيقاع بين الإمبراطور البيزنطى وأمير أنطاكية ، خشية أن يؤدى نجاح هذه الحملة إلى ازدياد نفوذ أنطاكية ويكون ذلك على حساب الرها (لمزيد من التفصيل راجع محمود سعيد عمران ، تاريخ الحروب الصليبية ،ص٦٢-٦٤؛ عليه الجنزورى ، إمارة الرها الصليبية ،ص٢٨٤).

(٣٩) ابن العديم ، زبدة الحلب ،جـ٢،ص٢٧٥؛ وسرمين ، بفتح أوله وسكون ثانيه وكسر ميمه : بلدة مشهورة من أعمال حلب ، قيل سميت بسرمين ابن اليفز بن سام بن نوح عليه السلام (انظر ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٣ ، ص ٢١٥) ؛ وجبل السماق ، هو جبل عظيم من أعمال حلب الغربية ، يشتمل على مدن كثيرة وقرى وقلاع (انظر ياقوت ، المصدر نفسه ، جـ٢، ص ١٠٢) ؛ وكفر طاب : بلدة بين المعرة ومدينة حلب (انظر نفسه ،جـ٤، ص ٤٧٠) .

(٤٠) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٧٦ .

(٤١) انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢، ص٢٧٦.

(٤٢) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٧٨ .

(٤٣) ابن القلانسى ، المصدر نفسه، ص٨٥، ٨٨ .

(٤٤) انظر ما سبق .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية :

- **ابن أبى الهيجاء** (الأمير عز الدين محمد بن أبى الهيجاء الأربلى ت ٧٠٠هـ / ١٣٠١م) تاريخ ابن أبى الهيجاء ، تحقيق ودراسة صبحى عبد المنعم محمد ، ط الفيوم ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م .

- **ابن الأثير** (أبو الحسن بن أبى الكريم محمد بن عبد الكريم الشيبانى ، ت٦٣٠هـ/١٢٣٣م) .

١ - الباهر فى الدولة الأتابكية ، تحقيق عبد القادر طليمات، ط القاهرة ١٩١٣م .

٢ - الكامل فى التاريخ ، ط ليدن ١٨٧٦م .

- **ابن تغرى بردى** (جمال الدين أبى المحاسن يوسف الأتابكى ، ت٨٧٤هـ / ١٤٧٠م) .

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ط القاهرة ١٣٩٢/١٩٧٢م .

- **ابن خلكان** (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر ، ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) .

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، ط بيروت ١٩٧٢م.

- **ابن شاهين** (غرس الدين خليل) .

زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك عنى بتصحيحه ، يولس راويس ، ط١ بارس ١٩٨٤م .

- **ابن العديم** (كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله، ت٦٦٠هـ/١٢٦٢م).

١ - بغية الطلب فى تاريخ حلب ، تحقيق سهيل زكار ، ط دمشق ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

٢ - زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، تحقيق سامى الدهان ، ط دمشق ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م.

- **ابن العمرانى** (محمد بن على بن محمد ، ت فى حدود سنة ٥٨٠هـ/١١٨٥م).
الأنباء فى تاريخ الخلفاء ، تحقيق وتقديم ودراسة قاسم السامرائى ، ط الرياض،١٩٨٢م .

- **ابن القلانسى** (أبو يعلى حمزة ، ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م) .
ذيل تاريخ دمشق ، ط بيروت ، ١٩٠٨م.

- **ابن منظور** (أبو الفضائل جمال الدين محمد بن مكرم ،ت ٧١١ هـ/١٣١١م).
لسان العرب ، ط بيروت .

- **ابن واصل** (جمال الدين محمد بن سالم ، ت٦٩٧هـ/١٢٩٨م) .
مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط القاهرة ، ١٣٧٢ هـ ، ١٩٥٣م .

- **أبو شامه** (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى، ت٦٦٥هـ/١٢٦٧م).
كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، ط القاهرة ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م.

- **أبو الفدا** (عماد الدين إسماعيل ، ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) .
المختصر فى أخبار البشر ، ط بيروت .

- **البندارى** (الفتح بن على ، ت٦٤٣هـ/١٢٤٥م) .
سنا البرق الشامى ، تحقيق فتحية النبراوى ، ط القاهرة ١٩٧٩م.

- **الحسينى** (صدر الدين أبى الحسن على بن السيد ناصر بن على ت٥٧٥هـ).
كتاب أخبار الدولة السلجوقية، اعتنى بتصحيحه محمد اقبال، ط بيروت ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

- **الذهبى** (الحافظ شمس الدين أبو عبدا لله الذهبى ، ت ٧٤٦هـ) .
دول الإسلام ، ط بيروت ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

- **أسامة بن منقذ** (مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد الكنانى الشيزرى ، ت٥٤٨هـ/ ١١٨٨م).
كتاب الاعتبار، تحقيق فيليب حتى، ط جامعة برنستون الولايات المتحدة ١٩٣٠م.

- سبط ابن الجوزى (شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلى ، ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م) .

مرآة الزمان ، جـ٨، ق١-٢،ط حيدرأباد ١٣٧٠هـ/١٩٥١م .

- **العماد الأصفهانى** (عماد الدين محمد بن محمد ، ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م).

تاريخ دولة آل سلجوق ، اختصار الفتح بن على البندارى ، ط بيروت ١٩٧٨م .

- **المقريزى** (تقى الدين أحمد بن على ، ت٨٤٥هـ/١٤٤١م) .

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ط القاهرة ١٢٧٠هـ .

- **نظام الملك** (ت٤٥٨هـ) .

سياسة نامه ، ترجمة وتعليق السيد محمد العزاوى ، ط بغداد .

- **ياقوت الحموى** (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى ، ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م) .

معجم البلدان، ط بيروت سنة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

ثانياً : المصادر الأجنبية :

- **فوشيه الشارترى** (Fulcher of Chartres.)

تاريخ الحملة إلى القدس ، ترجمه من اللاتينية إلى الإنجليزية ، فرنسيس ريتا ريان (Frances Rita Ryan) ونقله إلى العربية، زياد جميل العسلى ط عمان١٩٩٠م.

- **وليم الصورى** : رئيس اساقفة صور (William Archbishop of Tyre) .

تاريخ الحرب الصليبية (Ahistory of Deeds Pone Beyond The Sea) نقله إلى العربية وقدم له ، سهيل زكار ، ط دار الفكر ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .

ثالثاً : المراجع العربية والمترجمة :

- **إبراهيم طرخان** :

النظم الاقطاعية فى الشرق فى العصور الوسطى ، ط القاهرة ١٩٦٨م.

- **ستيفن رنسيمان :**

تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى . ط بيروت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣ م .

- **سعيد الديوه جى :**

تاريخ الموصل ، ط الموصل ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

- **سعيد عبد الفتاح عاشور :**

١ - الحركة الصليبية ، ط القاهرة ، ١٩٧٨م.

٢ - بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ط بيروت ، ١٩٧٧م.

- **عبد الحفيظ محمد على :**

مشكلات الوراثة فى مملكة بيت المقدس وأثرها على تاريخ الحركة الصليبية ، ط القاهرة ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م .

- **عبدالله سعيد الغامدى :**

دور المتطوعة فى حركة الجهاد ضد الصليبيين والمغول ، بحث منشور فى مجلة المؤرخ العربى التى تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب فى القاهرة ، العدد الثانى ، المجلد الأول ، مارس ١٩٩٤م.

- **عبد النعيم حسنين :**

سلاجقة إيران والعراق ، ط القاهرة ، ١٣٨٠هـ/ ١٩٧٠ م .

- **على محمد الغامدى :**

بلاد الشام قبيل الغزو المغولى ، ط مكة المكرمة ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

- **عليه الجنزورى :**

إمارة الرها الصليبية ، القاهرة ، ط ١٩٨٦ م .

- **عماد الدين خليل :**

عماد الدين زنكى ، ط بيروت ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م .

- فايد حماد عاشور :

جهاد المسلمين فى الحروب الصليبية (العصر الفاطمى والسلجوقى والزنكى)، ط بيروت ١٤٠١هـ / ١٩٨١ م .

- كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ط .

- محمد قنديل البقلى :

التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ، ط القاهرة .

- محمود سعيد عمران :

تاريخ الحروب الصليبية ، ط الاسكندرية ، سنة ١٩٩٦م .

- مسفر سالم الغامدى :

الجهاد ضد الصليبيين فى الشرق الإسلامى قبل قيام الدولة الأيوبية فـى مصـر ، ط جدة ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

- نظير حسان سعداوى :

جيش مصر فى أيام صلاح الدين ، ط القاهرة ١٩٥٩م .

رابعاً : المراجع الأجنبية :

- Hassanein Rabie, The Financial System of Egypt, London (1972) .

- Suhayl Zakkar, The Emirate of Aleppo, Beirut (1971).

معركة نفارين البحرية فى ضوء الوثائق المصرية

د/ عبد المنعم إبراهيم الجميعى(*)

المقدمة :

كتابة التاريخ من واقع مصادره الأصلية تتيح للمؤرخ الإلمام الدقيق بحقائق العصر الذى يدرسه ، وتجعل أمامه صورة الأحداث واضحة وتضيف دلالات جديدة وموضوعية لبحثه ، وتجعله ينهج نهج الأسلوب العلمى الذى يحتم عليه ألا يعتمد على النقل عن الغير ، وإنما يستقى التاريخ من أوثق المصادر والأصول التى تجعله يقف على حقائق الأمور بلا أدنى شك أو مواربة . فالوثائق هى المادة الخام التى تحمل روح العصر الذى كتبت فيه ، والتى تعطى الفهم الصحيح له وتفسر أحداثه .

وديوان المعية السنية(١) بقسميه العربى والتركى الذى اعتمدنا عليه فى كتابة هذه الدراسة يتميز عن غيره من الدواوين بأهميته التاريخية خاصة ولأنه الديوان الذى ينشر أوامر الوالى ، ويفحص مختلف أعمال الدولة ، ويفصل فى القضايا التى تقدمها إليه الدواوين الأخرى ، وكانت بواسطته يتم الاتصال مع بقية الدول .

وهذا الديوان عبارة عن وحدة أرشيفية متكاملة منظمة تشمل العديد من الدفاتر والمحافظ ويتكون القسم العربى منه من٥٠٤ سجلاً ، أقدمها السجل رقم (١) بتاريخ سنة ١٢٤٥هـ (١٨٢٩م) وأحدثها بتاريخ ١٢٩٧هـ (١٨٧٩م) وهذه السجلات تشمل العديد من الأوامر والشروح والخطابات والفرمانات .

أما القسم التركى من دفاتر المعية ، والذى اعتمدنا عليه بصفة أساسية فى هذه الدراسة فمعظمه مترجم إلى العربية ، وبداية كتابة أوامر الوالى وتعليماته فيه

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر – كلية التربية – فرع جامعة القاهرة بالفيوم . وكيل الكلية وأمين عام الجميعة المصرية للدراسات التاريخية .

أقدم من سجلات القسم العربى ، فمن المعروف أن الأوامر الحكومية الرسمية كانت تكتب فى بداية عصر محمد على باللغة التركية ، ثم كتبت بالتركية والعربية ثم رجعت إلى التركية فقط ، وأن هذه الوثائق قد تم ترجمة معظمها إلى العربية فى عصر الملك فؤاد الذى عمل على إماطة اللثام عما أحتوته دار المحفوظات من وثائق بهدف الإشادة بأعمال جدية إبراهيم ومحمد على ، ووالده إسماعيل وأبراز دورهم فى تأسيس مصر الحديثة(٢) .

والوثائق التى نعرض لها تمثل صورة حية بالأسانيد والأرقام الرسمية لحروب محمد على فى بلاد اليونانية ، منذ أن طلب منه السلطان محمود الثانى مساندته فى إخماد الثورة اليونانية وحتى واقعة نفارين البحرية وما أعقبها من تطورات .

والجدير بالذكر أن لغة هذه الوثائق سواء العربية أو المترجمة من التركية فى معظمها ركيكة لم يراع فيها قواعد النحو أو الهجاء إلى جانب امتزاجها فى معظم الأحيان بكلمات تركية وفارسية . وقد اضطررنا حفاظًا على الأمانة التاريخية إثبات هذه الوثائق بأسلوبها كما هى وعدم التدخل بالتصويب لأى خطأ يكون مصدر الوثيقة قد وقع فيه ، حفاظا على أصالتها ، ومراعاة لأسلوب العصر الذى كتبت فيه .

والجدير بالذكر أن التاريخ المتبع فى تسجيل هذه الوثائق هو التاريخ الهجرى ، ويذكر أحيانًا بجانبه التاريخ القبطى ، خاصة فى الوثائق المتعلقة بالزراعة ومواعيدها .

ومن المعروف أن بلاد اليونان كانت جزءًا من السلطنة العثمانية منذ أن دخلتها قوات محمد الفاتح فى عام ١٤٥٣م ، وأن السلطان العثمانى كان يرسل إليها من يحكمها من ولاته حتى الربع الأول من القرن التاسع عشر . واستمرت الأمور على ذلك المنوال حتى أسس التجار اليونانيون جمعية أطلقوا عليها هيتريا أى جمعية الإخوان Hetairia Philike بهدف طرد الأتراك من أوربا ، وتخليص اليونان

من التبعية الإسلامية ، وإنقاذ الحضارة الإغريقية من سيطرة الأتراك ، تحقيقًا لوصية بطرس الأكبر وكاترنيا .

وقد استندت هذه الجمعية على عدة ركائز منها :

مبادىء الحرية والمساواة التى أطلقتها الثورة الفرنسية ، والمساندة المادية والمعنوية من العديد من الجمعيات الأهلية التى تشكلت فى معظم بلدان أوربا تحت اسم جمعيات محبى اليونان هذا بالإضافة إلى تشجيع بعض الدول الأوربية خاصة روسيا على الثورة ضد العثمانيين ، واشتداد النعرة ضد مساوىء الحكم العثمانى والمبالغة فى وصف هذه المساوىء .

ونتيجة لذلك اتخذ اليونانيون من المورة حصنًا منذ عام ١٨٢١م وشكلوا حكومتهم ، واشتعلت نيران ثورتهم ، واستطاعوا أن يكبدوا العثمانيين خسائر فادحة حيث قاموا بتوجيه الضربات المفاجئة للحاميات العثمانية فى العديد من المواقع ، كما ضيقوا الخناق على الأسطول العثمانى المرابط فى المياه الألبانية ، وقطعوا الطريق عليه حتى أضحى كالأسير ، مما اضطر السلطان العثمانى محمود خان(٣) إلى طلب النجدة من محمد على والى مصر لعله يستطيع بجيشه وأسطوله انقاذه من هذه الورطة ، وإعادة الأمور إلى نصابها فى نظير منحه لقب « حاكم كريت والمورة » ولقب « قاطع دابر الكفرة والمشركين(٤) » .

وعلى الرغم من أن بلاد اليونان لم تكن مطمحًا لامال محمد على فى أى وقت من الأوقات ، فقد أكدت الوثائق أن محمد على لم يتردد لحظة فى إجابة السلطان إلى طلبه(٥) ، بل حاول إقتناص الفرصة ليؤكد للسلطان مدى قدرته على مساندته فى الظروف الصعبة ، وإظهار تمام رضوخه لما تأمره به الدولة ، فأرسل رسالة إلى السلطان يقول فيها " إنى بصفة كونى خادمًا لولى نعمتى صاحب الشوكة السلطان المعظم فإنه يمكن للدولة العلية أن تطلب جميع ما تريد ، وإنى مستعد للقيام به وفاء بحق الدين والملة ، وأن ذلك عندى من الأمور المعتنى بها ، وإنى لا أتأخر عن بذل نفسى فى سبيل تقوية شأنها وإعلاء كلمتها ورفع

قدرها(٦) . ونتيجة لذلك أمر محمد علي صهره أمير البحر محرم بك(٧) بتجهيز الأسطول والتحرك لمساندة الأسطول العثماني المحاصر، وتعزيزه بالمهمات والذخائر(٨).

وقد أعد محرم بك أربع عشرة سفينة حربية بما يلزمها من الجنود ، وأقلع بها لمساندة الدولة العثمانية في محنتها . وبعد أن وصل إلى مياه كريت اشتبك مع بعض السفن اليونانية التي كانت تهاجم سفينة تجارية عثمانية ، كما قام بمطاردة سفن القراصنة في بحر إيجة . ونظرًا للخسائر التي تعرض لها الأسطول المصري في هذه المناوشات عاد إلى الإسكندرية مضطرًا ، في محاولة لإعادة تنظيم وتعويض ما فقده ، وإصلاح ما يحتاج من السفن إلى ترميم(٩) .

وفي محاولة من محمد على لتعزيز الموقف أعد أسطولاً آخر يتكون من ١٨ سفينة تحت قيادة « طبو زادة أوغلى قبوجي باشا محمد أغا » لمساندة الأسطول العثماني والعمل على تخليصه من الحصار(١٠) .

كذلك أعد جيشًا بريًا مكونًا من ١٧ ألف جندى من المشاة ، وأربعة بلوكات من المدفعية وسبعمائة وخمسين من الفرسان ، وأوكل قيادته لابنه إبراهيم ومساعدة الكولونيل سيف(١١) .

وقد أقلعت هذه الحملة من الأسكندرية في ١٩ يوليو ١٨٢٤ واتفق على أن يتجمع الأسطولان التركي والمصري في جزيرة رودس ثم يتحركا في اتجاه الجزر اليونانية المتناثرة في بحر إيجه ، حيث كانت تمثل المعقل الرئيسي للثوار والقراصنة الذين هددوا المراكب العثمانية ، وبعدها يتحركون نحو شبه جزيرة المورة المركز الرئيسي للثورة .

وطبقًا لتعليمات الباب العالى فقد تولى القيادة البحرية العليا للأساطيل القبطان « خسرو باشا »(١٢) ، بينما تولى « إبراهيم باشا » قيادة القوات البرية .

ونتيجة لعدم توحيد أمر القيادة العليا في يد قائد واحد يستطيع إدارة دفة القتال ، ونظرًا للكراهية الشديدة التي كان يكنها خسرو باشا لمحمد على وابنه ،

ولرغبته فى إظهارهمــا أمـام السـلطان بمظهـر غـير المتعـاون وغـير المهتـم بمصلحـة السلطنة ، أخذ خسرو باشا فى كتابة التقارير ضد إبراهيم وإرسالها إلى الأسـتانة ، كما اشتكى إبراهيم من « خسرو » لعـدم إسـعافه بالسـفن اللازمـة أثنـاء حصـار ميسولونجى . ونتيجة لذلك وحرصًا على حسن سير العمليات الحربية طالب محمد على السلطان بأن يتولى ابنه إبراهيم القيادة العليا للأسطول بجـانب قيادتـه للقـوات البرية حتى يتمكن من إحراز النصر(١٣) .

ومع أن السلطان وافق على عزل خسرو مـن القيـادة البحريـة فإنـه لم يعـين إبراهيم مكانه بل عين عـزت باشـا قبودانـا(١٤) للأسـطول كمـا أصـدر السـلطان فرمانًا فى ٦ مارس ١٨٢٤ بتعيين إبراهيم باشا واليًا على جزيرة كريت ومورة ، ومنحه الحرية الكاملة لإعادة النظام والاستقرار إلى بلاد اليونان .

وسارت العمليات الحربية على قدم وساق . وفى حين كانت القوات البرية بقيادة إبراهيم باشا تحقق الانتصار تلو الآخر كان الأسطول العثمانى المصـرى(١٥) يتلقى الضربات الموجعة فى البحر ، ويحقق اليونانيون العديد من الانتصارات عليه. وقد يرجع السبب فى ذلك إلى مهارة اليونانيين البحرية ، وعدم وجود قواد بحريين أكفاء لدى العثمـانيين أو محمـد علـى ، هـذا بالإضافـة إلى حداثـة عهـد المصريـين بركوب البحار ، وقدرة السفن اليونانية الصغيرة على المناورة وخفـة الحركـة أكـثر من السفن العثمانية الضخمة ثقيلة الحركة .

وعلى أى حال فقد استغل إبراهيـم باشـا الخـلاف الـذى دبّ فـى معسـكر اليونانيين ، وتذمر بعض بحارتهم واضرابهم بسبب عدم دفع رواتبهـم ، واسـتطاع أن يضـرب الحصـار علـى نفـارين Navarine معقـل بـلاد اليونـان ، وتمكـن مـن إسقاطها فى الثامن عشر من مايو ١٨٢٤ . وكانت هذه المعركـة فاتحـة انتصاراتـه فى حرب المورة ، كما استطاع احتلال تريبولـتزا Tripolitza بوسـط اليونـان فـى الثالث والعشرين من يونيو ١٨٢٥ . وفى أعقاب ذلك أخذت قوات إبراهيم باشـا تتأهب للزحف نحو نوبليـا Nauplia(١٦) قصبـة بـلاد اليونـان ممـا أدى إلى اقـتراب الثورة اليونانية من نهايتها دون أن تحقق مبتغاها فى الاستقلال .

ونتيجة لذلك ارتاعت أوربا خشية عواقب انتصار القوات المصرية ، وعقدت نيتها على ألا يستكين الصليب للهلال(١٧) فبدأت الحكومات الأوربية في الإساءة إلى سمعة إبراهيم باشا وتشويه صورته أمام الرأى العام الأوربى باتهامه بالبربرية لقيامه بسفك دماء الأسرى وخرق قوانين الحرب .

وعندما كان القائد المصرى يصلى الثوار نارًا حامية ويتحقق له الفوز الساحق فى المعارك التى خاضها والتى كان أبرزها سقوط (ميسولنجى) Missolonghi فى الثالث والعشرين من أبريل ١٨٢٦(١٨) مما جعل الطريق إلى أثينا مفتوحًا ، رأت الدول الأوربية أنه لا مفر من التدخل الفعلى لمساندة اليونانيين وتأييد جانبهم . وتحكى لنا الوثائق عن عقد إنجلترا وفرنسا وروسيا لمؤتمر فى لندن فى السادس من يوليو ١٨٢٧ قصد إنهاء الأزمة اليونانية ، وإعادة حبل الأمن فى البحر المتوسط(١٩) واتفاقها على ضرورة قيام الباب العالى بمنح بلاد اليونان استقلالاً إداريًا فى ظل السيادة العثمانية ، وعلى أساس دفع جزية سنوية . وإذا لم يقبل الباب العالى هذه الوساطة فى خلال شهر من الزمان ، ويوافق على وقف القتال فإن الدول الثلاث تتفاوض فيما بينها « لتفرض الهدنة على الطرفين بمنعهما من مواصلة القتال ، من غير أن تشترك هى مباشرة فى الحرب » .

وبينما كانت المناورات السياسية مستمرة ، وجهود الدول الأوربية لوقف القتال تتحرك فى كافة الاتجاهات ، استولى إبراهيم باشا على أثينا ، وضرب الحصار على قلعة الأكروبولس Acropolis حتى سلمت فى ٢٧ يونيو ١٨٢٧ ، مما شجع السلطان على رفض وساطة الدول الأوربية بحجة أن معالجة أمر العصاة من حقوق الدولة العلية ، وأن الثورة اليونانية تعد مسألة داخلية بحتة ، وأن السلطان لن يقبل أى مسعى فى هذا السبيل لأن التدخل فى مثل هذه الشئون بالنسبة للعلاقات الدولية يعد أمرًا فى غير محله(٢٠) .

وعلى الرغم من إصرار السلطان العثمانى على موقفه وتشدده فى معالجة الأمور ، فقد كان لمحمد على رأى آخر فرضه عليه تفكيره فى عواقب الأمور ، إذا

ما تدخلت أساطيل إنجلترا وفرنسا وروسيا فى المعارك لصالح الثوار . ونتيجة لذلك أرسل إلى الصدر الأعظم بالأستانة يعرض عليه الحالة الحربية فى بلاد المورة بشكل واضح ، والمأزق الذى يمكن أن تتعرض له القوات والأساطيل الإسلامية إذا لم يتم تسوية الأمر سلميا بقوله « إن عمل الدول فى الوقت الحاضر لم يعد بمثابة تهويش بل يلوح منه شبح الحرب !... نعم نحن قوم من أرباب الحرب والضرب إلا أننا ما زلنا فى مستهل كتاب الحرب نقرأ فى حرف الألف والباء . أما الدول فقد أتموا كتب هذا العلم فلو بادرناهم بالحرب فإنى أرى بصفة محققة أن الأساطيل لاخير منها على الإطلاق ، وستهلك أرواح الثلاثين أو الأربعين ألفًا من الجنود الموجودة فيها(٢١) .

وحفظًا لماء الوجه اقترح محمد على توسط النمسا فى الأمر حتى يمكن تسوية الموضوع بالشكل الذى يرضى السلطنة . ونظرًا لرفض السلطان لأى مسعى سلمى ، وتشدده فى معاقبة الثوار رأت الدول الأوربية أنه من الصعب حسم النزاع لصالح اليونانيين إلا بالإلتجاء إلى القوة لصالحهم ، وأنه من واجب القوات البحرية المتحالفة أن تبدأ الاتصال بالثوار اتصالاً وديًا ، وأن تصادر كل الإمدادت التى ترسلها الدولة العثمانية عن طريق البحر لمحاربتهم .

وإلى جانب ذلك حاصرت أساطيل الدول المتحالفة قوات إبراهيم باشا ، وقامت بتحذيره من التقدم بقواته أو خروج أسطوله إلى عرض البحر حتى لا يتم استخدام القوة ضده . وكان رد إبراهيم باشا على هذا التحذير أن مهمته لا تشمل السياسة وأن التفاوض يكون مع محمد على فى مصر أو مع السلطان فى الأستانة ، وحتى تصدر إليه التعليمات فى هذا الشأن فأنه يتعهد بوقف جميع الأعمال الحربية التى تقوم بها قواته البرية والبحرية مؤقتًا بشرط توقف الثوار عن أعمالهم العدائية(٢٢) .

وخلال ذلك بدأ اليونانيون يتحينون الفرصة للإيقاع بإبراهيم باشا واستفزاز قواته خاصة بعد أن وصلتهم الإمدادات من أنحاء أوربا ، فقاموا بحركات عدائية

فى خليج كورنثوس ، وحاصروا كريت ، ونجحوا فى إبـادة حامية عثمانية ، مما أدى إلى تحرج مركز القوات المصرية فـى باتراس Patras (شمـال المورة) وجعل إبراهيم باشا يضطر إلى قطع حبل المهادنة ومطاردتهم . لذلك أبحر إلى بـاتراس مع مجموعة من السفن الحربية ، مما عجل بوقـوع الكارثـة ، فقد اتهمه قـادة الحلفـاء بنقض الهدنة المتفق عليها ، وأرسل « كوردنجتون » قائد الأسطول الإنجليزى سفنه لتعقب السفن المصرية ، وتهديدها بالحرب إذا لم ترجع من حيث أتت ، فاضطرت للعودة إلى نفارين . وعلى الرغم من ذلك فقد زحف إبراهيم باشا بقوة من جنده داخل المـورة لإنجاد الحاميات المصريـة التى تطاول عليهـا الثـوار مما دفـع قـواد الأساطيل المتحالفة إلى اتهامـه بنقـض الهـدنة واتخـذت مـن ذلـك ذريعـة للتحـرش بالبحرية المصرية العثمانية .

وقد اصطفت السـفن المصريـة والعثمانيـة داخـل الميناء فـى ثلاثـة صفـوف متوازيـة تقريبـًا كـل فـى شـكل نصـف دائـرة . وكـانت السـفن الكبـيرة والفرقاطـات(٢٣) فـى الصـف الأول ، ويليهـا سـفن القرويـت(٢٤) ثـم سـفن الأبريق(٢٥) وغيرها بعدهـا فـى الصـف الثـالث . وكـانت بنفـارين استحكامات لتحمى مدخـل الميناء كمـا وضعـت بطاريـات مـن المدافـع فـى طـرف جزيـرة « أسفاخترياً » مع مساعدة سفن خفيفة من الحراقات(٢٦) .

وخلال ذلك أرسل أمير البحـر الفرنسـى (رينـى) إلى الضبـاط الفرنسـيين العاملين فى الأسطول المصرى بترك أعمـالهم والتخلـى عـن الخدمـة فـى الأسـطول المصرى حتى لا يحاربوا فرنسيين مثلهم فلبوا الدعوة(٢٧) .

وفى منتصف الساعة الثانية من ظهر العشرين من أكتوبـر ١٨٢٧ اقتحمـت القوات المتحالفة البوغاز ، واصطفت وفقـًا لنظام حربى على شـكل نصـف دائـرة تقريبـًا أمام الأسطول المصرى(٢٨) والعثمانى ، واقتربت منه حتـى أصبحـا وجهـًا لوجه . وخلال ذلك انطلقت رصاصة من سفينة مصرية على بحارة إحدى السـفن الإنجليزية مما كان ذريعة لقيام سفن الحلفـاء بـإطلاق نيرانهـا فـى منتصف السـاعة

الثالثة بعد ظهر العشرين من أكتوبر ١٨٢٧ على الأسطول التركى المصرى وتجاوبت المدافع ، وعلا الدخان وتناثرت أشلاء القتلى فى مشهد رهيب ، واستمر القتال حوالى ثلاث ساعات ، وانتهى بتدمير الأسطول المصرى التركى فى مذبحة مروعة وفقدان حوالى ٣٠ ألف جندى .

وعلى الرغم مما حدث فقد رفضت الآستانة أن تعترف بالهزيمة أو تذعن بأن تدمير أساطيلها يعنى إنهاء القتال(٢٩) بل طالبت باتخاذ التدابير اللازمة لاستمرار القتال ، فى حين أخذ محمد على - الذى تألم كثيرًا عند سماعه خبر تدمير قوة مصر البحرية الوليدة(٣٠) - أخذ يبحث عن وسيلة للخروج من هذا المأزق الخطير ، خاصة وأنه أخذ يشعر بالمخاطر التى يمكن أنه تسببها له الدول الأوروبية . وكانت الوسيلة المثلى أمامه هى المفاوضات وعقد الصلح مع الحلفاء وقد تم ذلك فى الثالث من أغسطس ١٨٢٨ والذى تم بمقتضاه جلاء قوات إبراهيم باشا عن شبه جزيرة المورة ، والتعهد بإعادة الأسرى اليونانيين ، وعدم إجبار اليونانيين المقيمين بمصر على مغادرتها ، فى نظير إعادة جميع الأسرى المصريين والسفن المصرية التى استولى عليها الحلفاء فى الحرب(٣١) .

ونتجية لذلك صدرت الأوامر للقوات المصرية بإخلاء المدن اليونانية والاستعداد للرحيل إلى مصر دون انتظار لأوامر السلطان ، مما أحرج مركز الباب العالى ، واضطره فى النهاية إلى الاعتراف بالاستقلال الذاتى لبلاد اليونان(٣٢) .

* * *

ومما سبق يتضح أنه على الرغم من خسارة مصر الفادحة فى هذه الحرب بعد ضياع الأسطول الذى اشترى محمد على وحداته من مختلف الممالك الأوروبية ، فإن المكاسب السياسية كانت كبيرة ، فقد تفاوضت الدول الأوروبية ولأول مرة مع محمد على دون وساطة الدولة العثمانية ، مما اكسب مصر منزلة سياسية أشبه ما تكون بالاستقلال الفعلى عن تركيا وإلى جانب ذلك فإن هذه الحرب كانت أول معركة يخوضها الجيش المصرى فى أوربا مما أكسبه تدريبًا عمليًا على خوض الحروب الحديثة .

ومع ذلك فإن تورط محمد على فى شئون أوربا السياسية قد أنهك موارده إلى حد كبير ، خاصة وأن ما أنفقه من الأموال الطائلة على بناء سفنه وفى شراء المؤن والذخائر التى تدفقت على المورة ، ثم إن ما جمعه من الرجال ودربه من الجنود ، وبعث به إلى ميادين القتال كل هذا قد ذهب أدراج الرياح بين عشية وضحاها ، بعد أن عاد جيشه من المورة وهو فى حالة عجز وفقدان للثقة وبؤس شديد(٣٣) .

وعلى أى حال فقد اشتد ضيق السلطان من محمد على لتفاوضه مع الدول الأوربية دون إذنه ، وسحبه لقواته دون الرجوع إليه ، كما بدأ محمد على يراجع سياسته تجاه الباب العالى ، الذى لم يكافئه على خدماته رغم تحطيم أسطوله ، مما جعله يفكر جديًا فى توسيع رقعة أملاكه على حساب الدولة العثمانية ، وذلك بالاستيلاء على بلاد الشام .

الوثائق

وثيقة رقم (١)

موضوعها : تجهيز محمد على لأسطوله ، وإرساله إلى المورة لتأديب الثائرين على الدولة بناء على أوامر السلطان العثمانى .

مصدرها : دفتر ٤ معية تركى - ترجمة المكاتبة التركية رقم ٢٩٢ .

تاريخها : ٢٩ رمضان ١٢٣٦هـ .

من المعية :

إلى ملجأ الصدارة .

حضرة سلطانى ومولاى صاحب الدولة والعناية والعطوفة والرأفة والأبهة ولى النعم العالى الهمم الكثير اللطف والكرم .

بينما كان عبدكم بمصر فى شيرا وصل فى يوم الثلاثاء الحادى عشر من شهر رمضان أمركم السامى الصادر بالشرف سابقا الأمر بتجهيز قدار مناسب من سفن عبدكم وتعيين قائد عليها وإرسالها توًا إلى جهة مورة(٣٤) ، وإفهام قائدها أن يعمل بمقتضى الحال بالمخابرة مع على بك قائد السفن الهمايونية الموجودة فى حوالى ألبانيا « بلاد الأرنود » وإرسال سفينة أو سفينتين من السفن الصالحة للعمل أيضًا إلى الجزر فيما وراء رودس بناء على أن رعايا مورة قد عصوا بسبب ما دبره كفار الروم من الوساوس وما نصبوه من شراك الدسائس ، وسرى عصيانهم إلى مجاوريهم(٣٥) ، فأظهر الطغيان أيضًا رعايا لواديه وصالة وآتنه فسدوا الطرق حتى أرسل حضرة والى الروم ايلى(٣٦) باشا إلى جانب مورة عساكر كما يلزم وأذيعت أيضًا أوامر السبى والاسترقاق بموجب الرخصة الشرعية ، واقتضت المصلحة إبراز السطوة والجلادة للغاية نحو مورة ، وقد قام كفار جامليجة وصوليجة وابيصاره(٣٧) أيضًا ورفعوا رءوسهم .وحيث توجد عند هؤلاء المذكورين سفائن حربية فمن الملاحظ أن يتعرضوا لسفن التجار التى تطرق وتمر

بها ، والذخائر التى ترسل إلى الآستانة ، وللعساكر الذين ينقلون من الأناضول إلى الروم ايلى ، والقاضى أيضًا بإرسال الذخائر المعتاد إرسالها كل سنة من الأقاليم المصرية إلى الآستانة ، مع ضم مثلها عليها فى هذه المرة لئلا تقع مقاسات ضائقة فى الآستانة من جهة الذخائر بسبب ما حدث فى إفلاق وبغدان(٣٨) من الفتن ، فعندما ازدانت يد التكريم بهذا الأمر الكريم ركبت بعد الإفطار فى السفينة « فانجه » وأتت إلى الإسكندرية ليلة الخميس فجهزت ثلاث عشرة سفينة ببركات هممكم السامية فى مدة أربعة عشر يومًا من اليوم الرابع عشر من شهر رمضان إلى اليوم الثامن والعشرين منه بمضاعفة السعى ليل نهار ، وقد اشتريت أربع سفن من تجار الإفرنج وابتدر إلى تجهيزها وتهيئتها أيضا بعناية خاصة ووضعت فيها المدافع ورماة المدافع ، وعين عبدكم محمد أغا طبوزادة من رؤساء البوابين فى الإيوان العالى قائدًا عليها فيرسل مع تلك السفن بمنه تعالى فى اليوم العاشر من شوال بعد العيد إلى جهة رودس ، وتلحق الموجودة فى الإسكندرية فى الأسطول الهمايونى أيضًا بتلك السفن بوضع العساكر والمهمات فيها وحيث توجد فى رودس وبدروم(٣٩) سفينتان لصهرى عبدكم محرم بك وسفينة لعبدكم ، وسفينة أميرية أيضًا فى رودس فيرسل ما يكفى لهذه السفن الأربع من الأنفار وسائر المهمات وتلحق بتلك السفن ، وتعزز تلك السفن أيضًا من ورائها بتجهيز ما يرد من الخارج من السفن من سفن عبدكم ، وسفن عبيدكم اتباعى الصالحة للعمل مع الاستمرار على اشتراء مقدار واف من السفن الواردة إلى الأسكندرية الموقوفة بها من تجار الأفرنج وإرسالها أيضًا بوضع العساكر والمهمات فيها على أن لحاق سفن عبدكم المرسلة ، واجتماعها مع سفن الأسطول الهمايونى وإن كان من الأمور المشكلة ، بالنظر إلى ما بلغنا من سد أشقياء البحر المضايق بسفن كثيرة .

لكن من قبيل اللازم والملزوم للاجتماع تجول هذه السفن فى تلك المياه ، وسعى مأمور الأسطول الهمايونى جهده فى الورود فعليه تلزم مضاعفة قوة مأمور الأسطول الهمايونى وحمله إلى إجراء الإرادة الملوكية فى أقرب وقت ، وبعد

اجتماع سفن عبدكم مع سفن الأسطول الهمايونى بعناية ربنا الفتاح ، وإعانة جناب مرسل الرياح ، وسيرهما على سفن أشقياء البحر بالاتفاق وحصول التغلب عليهم ، وقهر الأشقياء المذكورين ، وتدمير وتيسير تطهير جهة البحر منهم بقوة حظ حضرة صاحب مالك ممالك العالم يكون من الأمر السهل الهين قهر الجزر المذكورة ، واستئصالها .

وبعد ذلك إلى أى جهة انتدبت السفن بالاتفاق سواء كان هذا الانتداب لجهة مورة أو لأى جهة أخرى يوصل من ورائها العساكر والأدوات اللازمة بوضعها فى سفن التجار وإرسالها على التعاقب وتستحصل أسباب غالبيتهم ، وقد استؤجرت بعد تفكير دقيق على سبيل التجربة سبع سفن من تجار الإنجليز لايصال الذخائر إلى الآستانة فى هذه الأيام ، وشحنت السفن المذكورة بخمسين ألف « هكذا هنا » كيل من القمح وجهزت للإرسال على أن تسلم للمخازن العامرة ، فبعد إرسال السفن المجهزة بيوم ترسل سفن الذخائر هذه إن شاء الله تعالى ، ولدى وصول خبر دخول الذخاير المذكورة بالسلامة من المضيق إلى الداخل ، وبلوغ هذا الخبر لصوب عبدكم بسرعة ترسل الذخاير إلى الاستانة على التعاقب ويكمل المقدار الذى هو مطلوب المقام العالى من الذخاير ، ويرسل على التعاقب أيضًا ما طلب من الذخاير التى تعرض للبيع بأثمانها الجارية بتجهيزها لتباع فى الأستانة بأسعارها الجارية ، وحيث أنه لا ريب ولا اشتباه إننى أبذل كل همتى ومكنتى لإجراء مضمون الأمر العالى وانفاذ الأمر والإدارة فى جميع الأزمان ولا سيما فى مثل هذا الأوان كما لا شك فى أن الجهاد والغزوة فرض عين علينا فلا محالة أنه لا يضن بالخدمة والسعى جهد الطاقة فوق وسعى من كل الجهات فى سبيل الدين والملة ، وفى سبيل دولتنا ومرضاة لمولانا وولى نعمتنا صاحب الشوكة والكرامة والمهابة السلطان ملجأ الإسلام ملك الملوك الذى من جنوده الملائكة الكرام . وقد ازدانت أيضًا يد التكريم بورود ما صدر محفوظا بالشرف سابقًا ولاحقًا فى هذه المرة من نحو أمرين أو ثلاثة أوامر من أوامر ولى النعم السامية .

ووصلت أيضا إلى عبدكم مكاتيبكم السامية الخديوية المحررة خطابـًا لباشوات مقاطعات الجزائر وتونس وطرابلس الغرب ومراكزها العسكرية « وجاقات » وحيث كان ورودها عقب إرسالى رجالاً إلى هولاء الباشوات بيوم تحريضًا لأهالى تلك البلاد على الجهاد والغزوة والمحاربة ضد أشقياء البحر قائلاً لهم أن هذا الزمن إنما هوزمن الخدمة للدين المبين ، وللدولة العلية الأبدية ، وزمن اكتساب حسن التوجه الخسروى من حضرة مولانا السلطان الحارس ملك ملوك وجه الأرض صاحب الشوكة والكرامة، فقد ارسلت هذه المكاتيب السامية الواردة من ولى النعم بعد يوم من يوم ورودها إلى الباشوات الموحى إليهم بحرًا بانتداب رجل من أتباعى عبيدكم لذلك مع الاستعجال بشأن عودته بأجوبتها وقد صارت إفادة ما ذكر باعثا لعرض عبوديتى فالأمر والإرادة لدى حصول الشرف لنا بوصول هذه العريضة إليكم ، وإحاطة علمكم العالى الشامل للعالم بذلك ، ٢٩ رمضان ١٢٣٦ .

* * *

يستخلص من هذه الوثيقة ما يلى :

- ترحيب محمد على بالأمر السلطانى الخاص بتجهيز سفنه للاشتراك فى حرب المورة.
- تعرض الثوار اليونانيين والقراصنة لسفن التجار المسلمين .
- تجهيز محمد على ثلاث عشرة سفينة وشرائه لأربع من السفن من التجار الإفرنج ، وتجهيزها بالمدافع والرماة .
- العمل على قهر أشقياء البحر وتأديبهم .
- إرسال محمد على الذخائر وشحنات القمح إلى الاستانة .
- طلب المعونة من ولاة الجزائر وتونس وطرابلس الغرب وتحريض أهالى هذه البلاد على الجهاد ومحاربة أشقياء البحر .

وثيقة رقم (٢)

موضوعها : رسالة من محمد على إلى السلطان العثمانى محمود خان بشأن إرساله سفنه للمساعدة فى تأديب الثائرين ومساندة الأسطول العثمانى ضد مراكب اليونانيين .

مصدرها : دفتر ٤ معية تركى - ترجمة المكاتبة التركية رقم ٢٨٨ .

تاريخها : ١٠ شوال ١٢٣٦ هـ .

إلى الصدارة العليا

حضرة سلطانى ومولاى صاحب الدولة والعناية، والعطوفة والرأفة ، والأبهة ولى النعم العالى الهمم الكثير اللطف والكرم .

سبق الانهاء فى عريضة عبدكم المقدمة إلى مقامكم العالى بتاريخ ٢٩ رمضان أنه ستجهز بهممكم السامية ثمانى عشرة سفينة من سفن عبدكم الموجودة فى ميناء الأسكندرية ، ومن السفن المشتراة من تجار أوربا ، ويعين عبدكم محمد أغا(٤٠) طبوزادة من رؤساء البوابين(٤١) بالديوان العالى قائدًا عليها ويرسل بعد العيد إلىجهة رودس ، وحيث أنه توجد سفينة من الأسطول فى الأسكندرية فستلحق تلك السفينة بعد شحنها بالمهمات والعساكر بتلك السفن ، كما أنه توجد سفينتان لصهرى محرم بك(٤٢) وسفينة لى فى رودس وبودروم(٤٣) وسفينة أيضا من الأسطول الهمايونى(٤٤) فى رودس وسترسل العساكر والمهمات إلى تلك السفن ، وتلحق بالسفائن السابقة الذكر أيضا ، وأنه قد نبه على عبدكم المومأ إليه أن يتجول ويطوف فى تلك المياه ويسرع فى اللحاق بالأسطول الهمايونى ويسعى جهده بالاتفاق فى قهر أشقياء البحر وتدميرهم وأنه ستعزز تلك السفائن من ورائها بترتيب وتجهيز سفن من سفن عبدكم ، ومن السفن التى اشتريها من أتباعى ومن تجار أوروبا ، وبأرسالها وبعد أن تجتمع السفن المذكورة من سفن الأسطول الهمايونى ، وبعد أن تتم مهمة قهر أشقياء البحر وتدميرهم فإلى أى اتجاه سيرت

تلك السفن ، وبأية مهمة أمرت يرسل إليها من ورائها العساكر البرية ، وسائر المهمات بسفن التجار ، وكان أشير أيضًا فى تلك العريضة إلى أنه قد استؤجرت سبع سفن من تجار الإنجليز لإيصال الذخائر إلى الأستانة العلية ، وحمل عليها تسعة وسبعون ألف كيل ومائتا كيل من القمح فأصبحت جاهزة للإرسال على أن تسلم للمخازن العامرة فها هى بحمد الله تعالى قد أرسلت السفائن المذكورة إلى جهة رودس فى اليوم الحادى(٤٥) عشر من شوال المكرم الجارى بهواء لطيف وريح موافقة ، وأوصى القائد المومى إليه أن يلتحق بالأسطول الهمايونى فى أقرب وقت، وأن يتحد ويتفق مع مأمورى السلطان الهمايونى ، وأن يبرزوا مآثر الحمية والغيرة فى قهر أشقياء البحر واستئصالهم ، وفهم تلك الوصايا ، وبلغ إليه أيضًا أنه إذا تعذر المرور بسبب قفل المضايق ، وتعذر اللحاق بالأسطول الهمايونى لا يقيم فى مكان ماعاطلاً بل يبقى ناشرًا للقلوع ومادًا أنظار التبصر إلى الأطراف ، ويهاجم سفن الأشقياء إذا صادفها مستعنيًا بالله غير مكترث بقلتها أو كثرتها ، وينزل العساكر فى الجزر العاصية ويضربها ما وجد إلى ذلك سبيلاً »

ومن المعلوم أنه إذا ضبط سرب أو سربان من سفن الأشقياء المذكورين ، ووقعت الإغارة على جزيرة أو جزيرتين منها أسرًا وقتلاً لأهلها ينعكس طالعهم ، ويستولى الرعب والخوف على قلوبهم وتتشتت جماعاتهم وتزداد عساكر المسلمين شوقًا وغيرة ، وتمتلىء قلوب الموحدين قوة وسكينة .

* * *

يستخلص من هذه الوثيقة ما يلى :

١ - استجابة محمد على لطلب السلطان بإرسال أسطوله للمساعدة على تأديب الثوار اليونانين وتخليص الأسطول العثمانى الذى أضحى كالأسير فى أرخبيل اليونان .

٢ - إرساله أسطولاً يتكون من ١٨ سفينة تحت قيادة محمد أغا طبوزادة للالتحاق بالأسطول العثمانى .

٣ - إصدار أوامر إلى صهره محرم بك بالتحرك لمساندة الأسطول العثمانى المحاصر وتعزيزه بالمهمات والذخائر .

٤ - استئجار بعض سفن التجار الإنجليز لإيصال الذخائر المطلوبة والقمح إلى الأستانة ورودس .

٥ - استعمال الشدة مع أشقياء البحر ، والعمل على قهرهم حتى ترتفع الروح المعنوية لدى المقاتلين المسلمين .

وثيقة رقم (٣)

موضوعها : ترتيب المؤن لحملة المورة .

مصدرها : دفتر ١٣ معية تركى .

تاريخها : غرة رجب ١٢٣٩ .

من : محمد على

إلى : جناب الصدر الأعظم .

حضرة سيدى صاحب الدولة والعناية والعطوفة والرأفة والأبهة ولى النعم عالى الهمم كثير اللطف والكرم .

حيث أنه جرى فى هذه السنة العميمة الميمنة ترتيب وزراء ومأمورين وعساكر كثيرة لأجل الهجوم على أطرافها أيضًا برًا بفرق متعددة واستعدادت قوية ، والسعى فى التغلب على عصارة الكفرة ، والإقدام على ذلك بالاتحاد ، وبلغ عدد المأمورين والعساكر المرتبين إلى عدد يتراوح بين الخمسين ألفا والستين ألفا على أن يتجمعوا عقب يوم أول الربيع كما أنه اقتضى المبادرة إلى وسيلة تدارك المؤن أيضًا بصورة مستوفية لكيلا يحصل أى خلل أثناء العمل من عدم وجودها غير أنه بالنظر إلى تعسر مداركة الذخائر الوفيرة من جهة الرومللى(٤٦) المصابة بالمحن والارزاء منذ مدة لهذا العدد الكبير من العساكر ، وتعذر توصيلها إلى هناك من محلات أخرى ترتيب مؤن مختلفة الأنواع من جهة مصر بمقدار خمسمائة ألف كيل استانبولى ، وتعلقت الإرادة السنية بخصوص ترتيبها سريعًا ، وإرسالها إلى مورة بحرًا بتحميلها فى السفن فى أول الربيع بمنه تعالى على أن يكون أكثرها بكسماطا ودقيقا وما عداه شعير وفول ، وعلى أن لا يخل ذلك بتقديم المدد والمعونة لكريد ثم أصدر بهذا الخصوص أمر عال مرشح أعلاه بالخطوط السلطانية، وأرسل مع عبدكم صاحب السعادة محمد نجيب أفندى(٤٧) من رجال الدولة العلية ، والناظر الحالى لدار البارود العامرة ، ووكيلى لدى الباب العالى على أن

يبلغنى الخصوصات اللازمة شفهيًا ، وأن نيل العساكر المسوقة إلى كريد فى الأول والآخر الغلبة والنصر ، وحسن اجتهادى اوجبا كمال المسرة الملكية وحصل التفضل بالعناية والإحسان بثوب سمور مزركش سلطانى متسوجب السرور ، وسيف ملكى مرصع مدمر العدو وأرسل كذلك مع وكيلى المومى إليه فقد استقبل بموكب عند وصوله إلى أطراف مصر ، ووروده إلى جوار باب النصر ، وتقبل بخطوات التعظيم والتبجيل عند قدومه إلى محل الديوان واتمت مراسيم محاسن التكريم والتبجيل وجعلت الفروة المذكورة زينة لكشف الافتخار ، والسيف الذى ربط فى الوسط رمزًا للغيرة والإقدام ثم صار الدعاء لدوام وتأييد عمر وشوكة حضرة الخليفة زينة للألسنة القرينة الإخلاص والثناء لقوام وتأييد شأن وسلطنة السلطان واصلا إلى السماء العالية فالمولى خالق الأرض والسماء يجعل عمر وشوكة ولى نعمتنا وأفندينا صاحب الشوكة والمهابة والكرامة سلطان العالم وملك الزمان بحيث لا نهاية لهما ، ويجعله ممنونًا وسعيدًا بنيل معالى النصر والظفر والفتوحات ومظلل الأمن والأمان لمفارق الملك والملة بظل عاطفته السلطانية ثم يجعل ذاتكم الولية النعم العالية مسرورة ومحبورة فى إيوان صدور الأوامر وعينا لامعة للزمان والأيام فى محفظة خاتم الدولة والإقبال آمين . وهذا وقد حررت عريضة عبدكم ، وقدمت إلى عتبة إجلالكم بالخضوع والإبتهال بخصوص التماس توجه ولى النعم السامى ، وفى سياق إظهار الشكر والممنونة والإفادة عن المائة ألف أردب الغلال المصرية التى صدر الفرمان بشأنها سيجر ترتيبها وتحميلها فى السفن ، وإرسالها إلى مورة وإلى المحلات الأخرى التى فيها المأمورون بالمخابرة ثم أن الوصايا السنية والتنبيهات السلطانية التى أودعت فى حافظة الأفندى المومى إليه صارت حلية لمسامع تيقنى وانتباهى واحدة فواحدة فستنفذ بكمال المطاوعة مع إيفاد لوازم العبودية كما أن أمر ولى النعم السامى الشامل كل كيفية وخصوص بهذا الشأن ، والمشتمل على أنواع المحاسن والتوجه الذى أرسل مع عبدكم الأفندى المومى إليه صار زينة ليد التعظيم ، وكل خصوص أصبح معلومًا

بذهن عبدكم الوسيم الإخلاص على نحو ما بسط فيه وذلك بمطالعته مرة أخرى ، وقد جعل انفاذه فرضا على عهده العبودية وأنه أرسل الأمران إلى متصرفى الجزائر وتونس برًا مع الهجان فلدى الوصول إن شاء الله تعالى ، وإحاطة علمكم العالى بأن عبدكم ليس له أمل سوى الخدمة والغيرة فى سبيل الدين والدولة العلية ، وإن هذه الخدمة ستجرى بكمال الممنونية ، ويحصل الاعتناء فى انفاذ وإجراء مقتضى الأمر السلطانى ، والتنبيهات الملكية المقرونة بالكرامة . فإن الأمر والفرقان بخصوص التفضل بإسداء توجهات وتعطفات ولى النعم للعبد .

* * *

يستخلص من هذه الوثيقة ما يلى :

- الاستعداد لمهاجمة المورة برًا وبحرًا .
- ترتيب المؤنة المطلوبة للقوت المحاربة من مصر بمقدار خمسمائة ألف كيل استانبولى وتحميلها على السفن .
- تنفيذ التوجيهات السلطانية بشأن تحميل السفن بالإمدادات المتجهة إلى المورة .
- إرسال الأوامر السلطانية إلى متصرفى الجزائر وتونس برًا .

وثيقة رقم (٤)

موضوعها : رغبة محمد على فى توحيد القيادة العليا للأسطول ، ووضعها فى يد ابنه إبراهيم .

مصدرها : دفتر ١٣ معية تركى - ترجمة المكاتبة التركية رقم ٢٢١ ص١٠٤

تاريخها : غرة رجب ١٢٣٩هـ/١٨٢٤م .

من محمد على باشا

إلى الصدر الأعظم

حضرة سيدى صاحب الدولة والعناية والعطوفة والرأفة والأبهة ولى النعم عالى الهمم كثير العطف والكرم .

صدرت أخيرًا الإرادة القاطعة السلطانية بمأموريتى على المورة وانتدب لإبلاغها إياى عبدكم صاحب السعادة نجيب أفندى(٤٨) « القبوكتخدا » ثم لدى وروده أصبحت مضامين ومزايا الأوامر العالية والمكاتبات السنية التى يحملها معلومة للعبد ، ونقشت التنبيهات السنية السلطانية المودعة فى حافظة على لوح الخاطر من تقريره الشفهى ، ولعلى بأن القيام دائمًا بحسن الخدمة وبمصلحة الدين والدولة موجب للفخر ، ومؤد لسعادة الدنيا والآخرة . وبالنظر إلى إنى عبد للدولة العلية متواضع ومحسوب للسلطنة السنية نشأ بنعمها قد بعثت إحالة مصلحة المورة إلى عبدكم أنواع المسرة والفخار ، وبما أنه لا يوجد أى نقص فى خصوص المهمات والعساكر والمؤن فى ظل الحضرة السلطانية فإن شاء الله تعالى سأرسل عبدكم صاحب السعادة ولدى إبراهيم باشا باستعدادات قوية ، وعساكر كثيرة ، وجعله ينسق هذه المصلحة بحسن توجه ولى النعم ، غير أنه لما كان توحيد الكلمة، وإعطاء النفوذ والاستقلال للمشار إليه فى مهمته مثل هذه المهمة من مقتضى الحال فإن التفضل بالإحسان إلى سعادته برتبة القيادة العليا للأسطول السلطانى

الذى سيرسل بـالمقدار المخرج فـى السنة السابقة وتفويضه مـا يقتضى لتصفية وتطهير جزيرة المورة وجزر البحر المتوسط إلى سعادته بالاستقلال علـى ألا تحصل مداخله من طرف المأمورين الآخرين فى مسألة الجزر المذكورة بوجه مـن الوجوه ثم توجيه إيالة المورة الآن إلى عبدكم المشار إليه على أن توجه إلى الـذى يراد من طرف الدولة العلية بعد اقتران المسألة بالختام ، وتدارك خيول وبغال بمقدار يتـرواح بين ثلاثة آلاف وأربعة من الروم‌للى ، وتهيئتها بميناء بره وزه(٤٩) لجلبها إلى المورة واستخدامها فى خصوص نقل المؤن والمهمات على أن تعطى قيمتها أو أجرتها من طرف عبدكم هو من رجاء المحسوب لكم كما أن حصـول مساعدة ولى النعم السنية بذلك هو من ملتمس العبـد ، وأن الخصـوص الـلازم والمقتضـى أدرج فـى عريضة عبدكم نجيب أفندى وعليه فإن الإفادة بما ذكر أوجبت عرض عبوديتى فإن شاء الله لدى حصول العلم لولى النعم فإن الأمر والفرمان بخصوص التفضل بـإبداء مساعدتكم الخديوية، واسداد إسعافاتكم البهية من مسئوليات العبد .



يستخلص من هذه الوثيقة ما يلى :

- صدور الأمر السلطانى بالحاق إدارة المورة إلى محمد على .
- رغبة محمد على فـى إلحـاق القيـادة العليـا للأسـطول السـلطانى لابنـه إبراهيـم، وتوجيه إيالة المورة إليه أيضًا .

وثيقة رقم (٥)

موضوعها : تكليف إبراهيم باشا باستئصال شافة ثوار المورة وتأخره فى أداء مهمته حتى تكتمل الاستعدادات اللازمة لذلك .

مصدرها : ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٦ محافظ بحر برا - محفظة رقم (٩).

تاريخها : ٥ رمضان ١٢٣٩هـ .

مكاتبة بختم محمد على

سيدى صاحب الدولة والعناية والعاطفة والأبهة ولى النعم عظيم الجود والهمم لقد تلقيت أمركم الكريم الذى تفضلتم وأشرتم فيه إلى أن الحضرة العلية السلطانية على الرغم مما بذلته من الجهود فى سبيل إنهاء أمر المورة منبع فساد الأمة اليونانية لم يتيسر حتى الآن معالجة هذه الحالة الأمر الذى كان له وقعه المؤلم عند جلالة السلطان. إن جلالته قد قابل رغبتى الصادقة فى القيام بهذه المهمة بالرضاء السامى حيث وجهت إلى عبدكم الوزير المكرم نجلى سعادة إبراهيم باشا والى جدة القيادة العليا للأسطول المصرى السلطانى وولاية المورة ليدبر شئونهما برأيه المستقل كما عهد إلى سعادته بتطهير بعض الجزر من الأشقياء وقد عين ففى معيته - عدا السفن الحربية العشرة إلى أوفدت إلى الأسكندرية بقيادة البطرونة همايون(٥٠) - السفن الحربية العشرة فى مياه بالية بادرة بقيادة خليل بك الجشمة لى - وصدر الأمر الكريم إلى خليل بك بذلك ، واجيبت ملتمساتى الأخرى التى كان من المستطاع إسعافى بها ، وقد تفضلتم ونوهتم كذلك بأن سعيد أنور أفندى قد قام إلى هنا ايحمل لسعادة نجلى المرسوم الصادر « بالتوجيه » وانتدابه لهذه المهمة ثم طلبتم أن يقوم نجلى الباشا المشار إليه بمن فى معيته من العساكر والمهمات والعتاد فى أقرب وقت ، وأن يسعى السعى الحثيث لإنهاء أمر المورة وجزيرتى جامليجة وصوليجة . ولقد تلقيت كذلك الأوامر العلية التى نوهتم ، عنها ووقفت على مضمونها الكريم أدام الله حضرة صاحب الشوكة والقدرة ولىنعمتنا ومولانا

السلطان وأبقاه مدى الدهر على أريكة ملكة متمتعا بصفاء البال واستقرار الحال ، وخذل الله أعداء الخلافة والدين والدولة ، ومناهم بالتشتت والإضمحلال آمين . إن جلالة مولانا السلطان ليعلم أننى العبد الذى وقف نفسه لخدمة الدولة العلية الأبدية الدوام والسلطنة السنية السرمدية القيام ، والذى لايضن بالنفس والنفيس فى سبيل الدولة العلية . وإن الإرادة السلطانية التى تشرفت بتلقيها والقاضية بإحالة أمر معالجة هذا الخطب الجسيم على نجلى لما تستوجب الفخر العظيم لهذا السعيد بين الأقران ، وتشع فى نفسى السرور والحبور ولقد رفعت أكف الضراعة إلى الله المرة بعد المرة بدوام بقاء جلالته . إن نجلى المشار إليه ومن فى معيته من العساكر والمهمات والذخائر على استعداد للحركة على نحو ما بينه أخيرًا عطوفة نجيب أفندى قبوكتخدا غير أن السفن السلطانية التى ستصل إلى هنا بقيادة خليل بك لم يظهر لها أى أثر بعد وهى بعد وصولها إلى هنا لابد من التريث مدة من الزمن لإكمال نواقصها وترميم النواحى التى تحتاج إلى الترميم فيها ثم أن السفن التى تقرر إبحارها إلى هنا من موانى بر الشام لم تصل كذلك ، ولا أدرى ماذا تم بصددها ، وكذلك السفن المتآمنة التى ستصل من الأستانة وعليها صهاريج الماء لم ندر عنها أى شيء حتى الآن ومن أجل هذه الأسباب تأخر قيام نجلنا إلى ما بعد العيد ، وسيتحرك من هنا فى اليوم الثانى أو الثالث من العيد إن شاء الله تعالى ... هذا وإنى لأرجو أن يبذل لنجلنا عطف ولى النعم الجزيل الكثير البركات - الذى هو أشد مضاء من الأكسير - حتى ينال النصر وتلاقى خدماته الرضاء السامى السلطاني وأخيرًا أقرر أننى لا أستطيع أن أفى هذه التعطفات السنية حقها من الشكران والأمر والإرادة لحضرة صاحب الدولة والعناية والعاطفة والأبهة ولى النعم عظيم الجود الهمم سلطانى .

ختم

محمد على

يستخلص من هذه الوثيقة ما يلى :

- عدم تمكن السلطان العثمانى من السيطرة على زمام الموقف فى المورة .
- تكليف إبراهيم باشا بتعقب الثوار .
- عدم وصول الإمدادات العثمانية من السفن والموانى فى الوقت المقر لها ، وتأخر إبراهيم باشا من التحرك بقواته حتى تكتمل الاستعدادات .

وثيقة رقم (٦)

موضوعها : محاولات الدول الأوربية التدخل فى المسألة اليونانية .

مصدرها : محفظة ١١ بحربرا - ترجمة القسم الخاص بالمورة من المكاتبة رقم ٤٦ .

تاريخها : ١٢ رجب ١٢٤٢هـ .

من مجهول إلى المعية

لقد عقد إمبراطورو إنجلترا والنمسا وروسيا وفرنسا وبروسيا مؤتمرًا تداولوا فيه الرأى ثم وضعوا القرار التالى كنتيجة لرأيهم الفاسد وهذا نصه :

حيث أن الدولة العثمانية لم تعن طيلة هذه السنين بأمر كبح جماح رعاياها الذين حملوا لواء العصيان ، ولم تأخذ خلال هذه المدة بأسباب الإصلاح ، وتوطيد الأمن في البر والبحر ، وحيث أنه يلوح من بعض الأدلة أن هذه الدولة لن تعمد إلى التفكير فى مثل هذه الأمور بعد الآن أيضًا . وحيث أن هذه الحالة واضطرب حبل الأمن فى البحر الأبيض تضطر كل دولة من دولنا لأن تبقى فى هذا البحر ٨ أو ١٠ من سفنها لتتولى المحافظة على مصالح التجار من رعاياها وفى هذا ما فيه من النفقات الطائلة التى تتحملها خزائن دولنا بدون فائدة ، وحيث أن شعب الروم كان قديمًا الدولة اليونانية التى تغلبت عليها الدولة العثمانية ، وقطعت أوصالها مع الأيام وأخرجتها من مصاف الدول وأدمجتها فى صفوف رعاياها ، وقد تغلب هذه الشعب الآن على الترك وأخذ يطالب بحقه فى تصرفه بملكه ، وحيث أنه مما لا جدال فيه أن هذا الشعب على حق فى طلبه بحيث يجب أن يتخلص من وضعه الحالى توطئة لإعادة حقوقه إليه فإنه يجدر بنا والحالة هذه أن نتوسط لهذا الشعب لدى الدولة العثمانية فى منحه استقلاله وإعادة الملكية إليه وأن نحملها على أن توافق على ذلك .

وبعد مضى ثلاثة أو أربعة أيام على تاريخ هذا القرار الفاسد عـاد إمبراطور النمسا ، وقال أن هذه المسألة من المسائل الداخلية فى الدولة العثمانيـة وليـس فـى الأصول المتبعة أن يدخل الغير فى معالجتها فإن لكل دولة منا رعايا فإذا ما أوجـب الأمر أن تتدخل الدول فى حل المشاكل الداخلية التى تظهر فى أية دولة فإن الحالـة تسوء إذ ذاك ، وهذا ليس من المنطـق فـى شـىء ، ولـذا فـإنى سـحبت كلامـى ، ورجعت عن رأيى الأول . غير أن ملوك هذه الدول لم يأخذوا بهذا الرأى ، وقالوا أن النمسا دولة ضعيفة بالنسبة لنا وذهبوا إلى أن رجـوع ملـك النمسـا عـن الـرأى المتفق عليه بهذه السرعة ، ومن غير ما اكتراث قد يكون ممـا أوحـت بـه السياسـة الروسية ولذا فإنهم قد ظلوا متمسكين بقرارهم الأول . وقد أدركت الدولة العليـا أن جميع هذه الدول ستصر على أن العصاة كانوا قديمًا الدولة اليونانيـة ، وتطـالب بلسان واحد بوجوب إنهاء الحرب وإقرار السلم والأمن ، وقد اتصل أحـد هـؤلاء الملوك بوزراء الدولة العلية ، بصورة سرية وقال لهـم : أن الـدول ستطلب موافقـة الدولة العليا على أن يكون لليونان حكومة ملكية ، ولما كان ليـس ثمـة أى محذور فى عدم إجابة هذا الطلب إذ أن الـدول لا تقـدم علـى عمـل أى شـىء فـى حالـة الرفض فإن الإمر يقتضى برفضه فى الحال . وعلى أثر ذلك قرر الوزراء العظـام أن يكون الرد على هذا الطلب السخيف أن معالجـة أمـر الرعايـا العصـاة مـن حقـوق الدولة العليا فالحرب القائمة حرب داخلية ولذا فإن تدخل الأجانب فى مثـل هـذه الشئون يعد بالنسبة للعلاقات الدولية وضع فى غير محله . وفعلاً عمد سفير إنجلـترا فى بادىء الأمر إلى تقديم تقرير فى هـذا المعنـى . أمـا الروسيا فقـد قـررت عـدم تدخلها فى هذه المسألة وفقـًا لما جاء فى معاهدة أقرمان التى اعتبرت مسألة عصـاة الروم من المسائل الداخلية فى الدولة العثمانيـة علـى أنـه وإن كـان مـن الظـاهر أن الروسيا سوف لاتتدخل فى هذه المسـألة تدخـلاً جديـًا إلا أنهـا مـن قبيـل إغفـال الإنجليز ومماشـاتهم المصطنعة قـد أرسـلت هـى الأخـرى تقريرهـا المـماثل لتقريـر

الإنجليز، غير أن الرد على كل حال سيكون الرفض حسبما قرره الوزراء إذ أن هذه المسألة من المسائل الداخلية التى لا يجوز للغير أن يتدخل فيها .

* * *

يستخلص من هذه الوثيقة ما يلى :

- استنجاد ثوار اليونان بدول أوربا وتداول أباطرة وملوك إنجلترا والنمسا وروسيا وفرنسا وبروسيا فى الأمر واتهامهم للدولة العثمانية بأنها لم تأخذ بيد الإصلاح فى هذه البلاد مما عرض مصالحهم للخطر .
- محاولة بعض الدول الأوربية اقناع الدولة العثمانية بمنح اليونانيين استقلالهم .
- تردد النمسا فى الأمر بحجة عدم التدخل فى الشئون الداخلية للدولة العثمانية وإصرار باقى الدول على إعطاء اليونان الاستقلال .
- رفض الدولة العثمانية للوساطة الأوربية على اعتبار أن تمرد ثوار اليونان ومواجهة الدولة لهم من المسائل الداخلية التى لا يجوز للغير التدخل فيها .

وثيقة رقم (٧)

موضوعها : مقترحات محمد على للسلطنة بشأن قبول وساطة الدول الكبرى وإنهاء الأزمة اليونانية سلميًا .

مصدرها : دفتر رقم ٢ عابدين - ترجمة المكاتبة التركية رقم ٣٢٢ .

تاريخها : ١٧ ربيع الأول ١٢٤٣هـ .

من : الجانب العالى

إلى : مولانا الصدر الأعظم

إن أوامر دولتكم الواردة إلىّ أولاً وآخرًا وعيت مضامينها ، ووقفت على مزاياها حرفيًا . فعبدكم هذا هو عبد خالص يبذل الروح فداء ، وأنى اعتبر شخصى مكلفًا بتنفيذ الإرادات الملكية فى كل مادة ، لا سيما فى مسألة المورة هذه . وبما أنى على يقين من أن الواجب يفرض علىّ أن أعنى بتسخير المورة ، وتأديب أشقياء الروم وقهرهم ، واستخلاص جامليجة وصوليجة من أيدى الأشقياء وتطهير تلك الأرجاء من إدران الأروام اللئام ، فإن كل أفكارى التى تساورنى ليلاً ونهارًا منصرفة إلى حال الأسطول ، وإلى أحوال المكلفين به ، وليس لدىّ ما يشغل بالى بحسب المأمورية غير هذه المسألة .

لقد علمت مما فصلتموه فى أمركم الداورى أن الدول قد اتفقت وأن أساطيلهم وشيك وصولها ، وعززتها الأنباء التى ترامت إلىّ من الخارج ، إلا أنه لم يصيبنى أدنى فتور من ذلك بفضل استظلالى بظلال الحضرة الملوكية ذات المكرمات ، ولم أسمح لهمتى بالتقاعس أبدًا فى أداء الخدمات التى تقتضيها هذه المصلحة الخيرية وأومل أن أبقى ثابتًا على العهد من بعد الآن ، وعلى ما أنا عليه ، وأن أظل دائبا موفور السعى طالما كانت الروح فى الجسد ، والجسد قوى بالروح، وأن أقدم على أداء ما يفرضه علىّ الواجب والله ولى التوفيق .

ولما كان ليس من الجائز أن يكون اجتماع المتضامنين(٥١) فى حكومة واحدة أحرارًا فقد رأيت أن الإجابة العالية القاطعة المبلغة إلى سفراء الدول التى تقول بحرية الأروام موافقة بالنسبة للدولة والملك والملة . وأن دولتكم بإيرادكم هذا الرد قد رفعتم من شأن الدولة العليا ، ووفيتم واجبات السلطنة السنية . وبما أنكم قطعتم القول على ذلك فإن هذا العبد الخاضع لسالك هذا المسلك ومتتبع أثركم . فلما بذلت كل قواى لأداء الخدمات الدينية المحالة على عهدتى وتجهيز عبدكم محرم بك محافظ الأسكندرية ، وقائد الأسطول المصرى العام للسفر مقتفيـًا أثر الأسطول الهمانى ، استدعيته مرارًا وطلبت منه بلهجة التأكيد أن يأخذ كفايته من الماء من الشاطىء المقابل (الأناضول) وألا يتمهل بل يعمل على الوصول إلى المورة بأقصى سرعة حتى إذا ما تقابل مع نجلى عبدكم إبراهيم باشا عُنى بإعداد ما يحتاج إليه هنالك منها فى وقت قصير ، وقام بكامل قوته بعد إكمال نواقصه متوجهـًا نحو جامليجة مباشرة لمحاصرتها وأن يضع يده عليها بدون تمهل . ثم زودت البك القبودانة (أميرال درجة ثالثة - قائد الأسطول الهمايونى) بمثل هذه الوصايا ، وشرحت له كل ما يختص بمأموريته . والمأمول ألا يهملا هذه الوصايا بل يعملا على تنفيذها باذلين قصاراهما .

وبما أنكم تفضلتم بإرسال صورة من أمركم العالى إلى عبدكم نجلنا الباشا المشار إليه فلابد أن يكون على علم بما حوته من الوصايا السنية ، والتنبيهات العليا وحيث أن عبدكم البك القبودانة وعبدكم محرم بك وما فى معيتهما من سفن الأسطول هنالك ، فلا شك فى أن نجلنا يتولى إبلاغهما وما يحتويه الأمر العالى من التعليمات ويعمل من جانبه على إيفاء ما تقتضيه مأموريته . بيد أن هذه المسألة خطيرة وعظيمة جدًا ، ولذلك أقضى ليلى ونهارى فى قلق ومع أنى كنت قبل ورود أمركم السامى الآنف الذكر أيضًا أجيب إجابات بكل شجاعة على الأنباء التى تترامى إلىّ عن هذا الموضوع ممن يفدون علينا من أوروبا ويذهبون إليها ، ولولا إنى كنت كلما أفكر فى صحة هذه الأنباء ساورنى القلق والألم والكدر ،

كما أن خلاصات الأوامر الكريمة التى وردت إلى منكم مرتين ، ضاعفت كدرى وغمى . ولقد اقتضى الأمر أن اكتب لاعتابكم الكريمة فى معرض الرد ، لكنى لم أجرؤ على التحرير لأنى فقدت المقدرة على التحرير قائلاً أن هذا الموضوع هو على هذا الشكل أو غيره ، وفضلت التحرير إلى القبوكتخدا بصفة سرية وبصورة عرض للحالة مشيرًا إلى بعض مالاح بفكرى بحسب قصر عقلى ، ثم عدلت عن ذلك أيضًا و لم أجسر على إرسال ما كتبت ، وبقيت فى حيرة من أمرى ... وإذا وردت أخيرًا إلىّ بعض الرسائل من لدن عبدكم إبراهيم باشا ، وسارعت فى إرسال الرسالة التى وردت إلىّ من إبراهيم باشا إلى أعتاب دولتكم ، وإلى إرسال المكاتبة السابق تحريرها إلى عبدكم قبوكتخدانا والتى لم أجرؤ على إرسالها أولاً إليه ، وستعلمون كل بعد الاطلاع على رسالة إبراهيم باشا ، وعلى المكاتبة المرسلة منا إلى القبوكتخدا .

سيدى ! ماذا أقول ؟ ... وماذا استطيع أن أقول ؟ ... أن عمل الدول فى الوقت الحاضر لم يعد بمثابة تهويش بل يلوح منه شبح الحرب!... نعم نحن قوم من أرباب الحرب والضرب ، إلا أننا ما زلنا فى مستهل كتاب الحرب نقرأ فى حرف الألف والباء . أما الدول فقد اتموا كتب هذا العلم فلو بادرناهم بالحرب فانى أرى بصفة محققة - بحسب ما يمليه على عقلى القاصر أن الأساطيل لاخير منها على الإطلاق ، وستهلاك أرواح الثلاثين أو الأربعين ألفًا من الجنود الموجودة فيها . ولن تنتهى الحرب من بعد ذلك إذ يقفون حجر عثرة فى سبيل القوة فى سبيل القوة الجديدة التى ستعطى للدولة العليا ، ويمنعون وصول الجنود المنظمة ... وبناء على ما تقدم كتبت إلى عبدكم إبراهيم باشا بالتريث لحين ورود أمر كريم آخر من لدن ولى النعم فإن كنتم تفكرون فى اختيار أهون الشرور فى هذا الخطب الجسيم تحسنون صنعًا وتكونون قد قمتم بما تفرضه واجب النظر فى عواقب الأمور ... وحبذا لو عنيتم فى الوقت الحاضر بالمذاكرة مع دولة النمسا التى يؤمل منها الصداقة منذ القديم أو مع دولة أخرى يعتمد عليها ، وتوسيطها وافراغ

الموضوع فى قالب آخر حتى إذا ما عمدت الدولة العليا فيما بعد فى تقوية شئونها ، وتنظيم مصالحها تتوسل بوسائل أخذ الثأر والانتقام .

هذا ما عنَّ بى من الملاحظات ، وفى الواقع لا أجد فى نفسى اللياقة لحل الأمور العظيمة وعقدها إذ لا بد أن يكون وزراء الدولة العليا أعرف بروح الشئون وأقدر على استخراج النتائج . ورأيى ما هو إلا من قبيل الأخطار يميله علىّ إخلاصى وصداقتى ، والرأى الأعلى لمولانا فما أنا إلا عبد أوامره ، والمفروض علىّ أن أعمل وفقًا لما يصدر من دولتكم بمقتضى إخلاصى . ورأى هذا العاجز إنما هو عرض . وعلى كل حال فالأمر والفرمان لحضرة من له الأمر .

* * *

يستخلص من هذه الوثيقة ما يلى :

- إعلان محمد على خالص عبوديته وطاعته للسلطنة واستمراره على العهد.
- عرضه للحالة الحربية بشكل واضح وتخوفه من تدخل أساطيل إنجلترا وفرنسا وروسيا فى المعارك لصالح الثوار .
- اقتراحه بضرورة الموافقة على مؤتمر لندن الخاص بمنح بلاد اليونان استقلالاً إداريًا فى ظل السيادة العثمانية وإبلاغ إبراهيم باشا بذلك للسير بمقتضى هذه التعليمات .
- التحذير من خطورة مواجهة الدول الكبرى فى البحر خشية ضياع الأساطيل والجنود وضرورة التبصر بعواقب هذه الأمور .
- اقتراحه بإمكانية وساطة النمسا فى هذا الموضوع حفظًا لماء الوجه .

وثيقة رقم (٨)

موضوعها : تدخل إنجلترا وفرنسا وروسيا إلى جانب الثوار .

مصدرها : محفظة ١٢ بحربرا - ترجمة المكاتبة التركية رقم ١٨ بتاريخ ١٧ ربيع الثانى ١٢٤٣هـ .

من الصدر الأعظم

أخى حضرة صاحب السعادة والمكرمة والمودة

لقد تفضلتم وذكرتم فى خطابكم الكريم المرسل إلينا قبل مدى أنكم عندما أردتم إرسال السفن على الجزر من ميناء أنا وارين ، حالت السفن الروسية والإنجليزية والفرنسية دون ذلك ، وطلبتم موافاتكم بالإدارة السنية التى تصدر فى هذا الشأن . وقد بعثنا إليكم إذ ذاك الرد الذى نرجو أن يكون قد وصل إليكم حتى الآن ووفقتم على مضمونه ، أنه لمن الجلى أن استمرار اضطرابات الأروام حتى الآن يرجع إلى تدخل الأفرنج وما يمدونهم به من مساعدات خفية ومكشوفة صب عليهم الله ألف نوع من أنواع البلاء وجازاهم بما يستحقون من مصائب فبينما كنا نعمل على ما فيه صالح الدولة العليا ، ونترقب فى نفس الوقت وصول أخباركم ، اتصل بنا من مصادر أوربية آتية من أزمير أنه فى غرة شهر ربيع الثانى دخلت إلى ميناء أنا وارين بغتة سفن الأسطول الإنجليزى والفرنسى والروسى ، بعد أن ظهرت بمظهر الصديق ، وسرعان ما حملت على السفن الإسلامية الرابضة فى الميناء وراحت تقذفها بنيرانها حتى منى الطرفان بخسائر فادحة ، وعلى أثر ذلك كتبنا إلى سعادتكم وإلى سعادة والى الروم ايلى ، ومحافظى اينه بختى ، وباليه بادرة نطلب موافاتنا بحقيقة الحادث ، وإلى الآن لم نتلق الرد على أن سفراء الدولة السالفة الذكر بالأستانة قد أيدوا وقوع هذه المعركة ، وعليه فإن الحرب قد أصبحت بادية العلامة . وإذا كانت الحرب لم تعلن رسميًا من قبل الدولة العليا فإن بلوغ الأمر إلى هذا الحد من شأنه أن يجعل الجهاد فرض عين على كل مسلم . ولذا فقد أخذنا نبذل قصارى الجهد ، ليلاً ونهارًا فى سبيل تقوية مراكزنا واستكمال نواقصنا الحربية . إن إقدام هذه الدول على توجيه مثل هذه الإهانة إلينا

سيكون من العوامل التى ستساعد على اندحارها وخزلانها ... إن الحرب وإن تكن لم تعلن بعد من قبل الدولة العلية إلا ان الوضع الحالى يجعل الحرب كأنها قائمة بالفعل ونحن إذا كنا لم نقف حتى الآن على حقيقة حادثة أناوارين فإن تأييد سفراء الدول لخبر هذه الحادثة لمما يعزز وقوع الحرب ولذا نلاحظ أن تموين قوات سعادتكم إبان وجودكم داخل مناطق المورة سيكون بعد الآن من الصعوبة بمكان ، وعليه إذا ما تحقق لدى سعادتكم أنه يتعذر عليكم بعد اليوم أن تظلوا ومن معكم من القوات داخل بلاد المورة فإن الأولى فى هذه الحالة أن تسحبوا العساكر المرابطة فى طرابوليجة وتأتوا بهم إلى قلاع متون وقرون ليقوموا على حراستها على أن توفروا لهم ما هم فى حاجة إليه من المئونة والمهمات الموجودة لديكم لمدة سنة وأن تقودوا استحكامات القلاع ، وتقوموا بعد ذلك بمن فى معيتكم من العساكر المنصورة إلى بالى بادرة ، ومنها إلى خليج ابنه يختى بطريق الساحل ، وإذ أمكن قوضوا واحرقوا النواحى التى تمرون بها ، وانقذوا فى المضايق والمعابر إلى خارج تلك المناطق وجامع القول اعمدوا إلى اتخاذ التدابير التى ترون وجوب اتخاذها ثم تفضلوا ووافونا بالنتيجة ، ونرجو ألا تأسفوا على إتباع هذه الخطة إذ لا شك فى أنكم ستنالون النصر والتوفيق فى القريب العاجل فعسى أن تتفضلوا بتطبيق هذه الخطة ، وأن توافونا بأخباركم ، وتطلعوننا على الجهة التى تقيمون فى اليوم فيها .

فى ربيع الثانى ١٢٤٣هـ .

* * *

يستخلص من هذه الوثيقة ما يلى :

- وقوف إنجلترا وفرنسا إلى جانب الثوار ودخول سفنهم فى ميناء نفارين .
- الاحتكاك المباشر بين أساطيل الحلفاء وأساطيل السلطان محمد على وحدوث العديد من الخسائر الفادحة .
- تأييد سفراء الدول بالأستانة لحدوث المعارك ورغبة الصدر الأعظم فى التعرف على ما حدث من محمد على .
- الرغبة فى سحب العساكر إلى القلاع وتوفير المؤن اللازمة لهم .

وثيقة رقم (٩)

موضوعها : رغبة محمد على فى سحب قواته من بلاد اليونان والاتفاق مع أميرال البحر الإنجليزى على ذلك .

مصدرها : دفتر ٣١ معيه تركى ، ترجمة المكاتبة التركيةرقم ٢٦٤ بتاريخ ٢٩ محرم ١٢٤٤هـ .

من الجانب العالى

إلى القبوكتخدا

لما كنا قد أرسلنا إلى عطوفتكم العريضة التى كتبناها للباب العالى ، وأشرنا فيها إلى ما آل إليه حال القوات العسكرية الموجودة فى معية نجلنا الباشا السر عسكر من جراء عدم وجود الأقوات الكافية لديها ، وطلبنا من قبيل العطف والحنان أن يسمح لهذه القوات بالعودة إلى مصر فقد بعثتم إلينا برسالة تنبؤننا فيها بأنكم قد قدمتم إلى الباب العالى عريضتنا هذه حيث صدر الأمر السامى على أثر ذلك بانتداب سعادة نجلكم أحمد شكرى بك للقيام إلينا بالرد السامى الصادر فى هذا الشأن ، وليبسط لنا بعض الأمور الهامة الشفهية . وقد وصل سعادة نجلكم وأطلعنا عن مضمون الرد السامى ، ووقفنا على جميع الأمور التىأدلى لنا سعادته بها . لقد بذلنا الجهد المستطاع فى سبيل المورة ، ولم ندخر وسعًا فى هذا السبيل حتى اليوم لا من ناحية المال ولا من ناحية الرجال . ومن البديهى أنه لوتبسنى مد نجلنا الباشا بما يقوم بحاجة عساكره من الأقوات اليومية لما تقلقل من مكانه ، ولكننا لم نوفق لمده بشىء من هذا القبيل . وقد حملتنا هذا الحالة على أن نهيب بأولياء الأمور المرة بعد المرة طالبين معالجة هذا الموقف وتلافى نتائجه الوخيمة وبذلنا فى هذا السبيل الشىء الكثير من الجهود ، وقمنا بإضعاف هذه المساعى على أمل أن نتمكن من ناحيتنا من مد نجلنا بحاجته من الأقوات ، غير أننا فشلنا فى جميع مساعينا ومحاولاتنا ومن ثم عمدنا إلى بسط الأمر الواقع بين الأسى والحسرة ، وطلبنا الشفقة والرحمة لهذه القوات العسكرية بعد أن وصل بها الحال

إلى ما وصل . ولكن جميع تضرعاتنا هذه والتماساتنا لم تلاق آذانًا صاغية و لم ينظر إليها بنظر الاعتبار . وكانت النتيجة أن ظل نجلنا ومن فى معيته من العساكر فى حالة مؤلمة من ناحية الأقوات وأصبحوا لا يستطيعون أن يأتوا بأى عمل من جراء ما حل بهم من ضعف ووهن . ولما كان هلاك مثل هذا العدد من جنود الموحدين الذين جاهدوا طيلة هذه السنين ، وغدوا الآن فى حالة تستحق الشفقة مما لا يرضاه الله، ولا يسمح به جلالة السلطان فقد التمسنا أن يسمح لهم بالعودة إلى مصر حتى إذا ما عادوا أخذنا ننظم أمورهم وشئونهم ونعدهم للعمل فى الجهة التى يراد استخدامهم فيها بعد أن يكونوا قد استراحوا مما حل بهم من عناء مدة من الزمن . هذا ولقد مضى على وصل نجلكم إليك الموما إليه أكثر من ٤٨ يومًا دون أن يصلنا من نجلنا الباشا أى خبر فقلقنا من جراء انقطاع أخباره عنا ، وبينما نحن فى هذه الحالة وصل إلى هنا محمد أغا خفتانى عطوفة نجلنا حيث اتضح لنا من الخطاب الذى زود به ، ومما قصه علينا شفهيًا مبلغ ما يعانيه نجلنا من الضيق والضجر ، وهنا ضاق صدرنا وتألمنا من قراره نفسنا حيث حرنا فى أمرنا ، ولم نعد ندر أى الطرق نتبعها ، وإذ ذاك اتصل بنا أن ثمة سفينة من طراز قباق قد وصلت إلى الأسكندرية تقل الإميرال الإنجليزى (فودرنتون) وعلى أثر ذلك انتقلنا إلى الأسكندرية حيث تحادثنا والأميرال الإنجليزى واتفقنا على بقاء قوات كافية من العساكر فى قلاع المورة وأن ترسل إلى هذه القوات الأقوات الكافية وأن يعود إلى مصر نجلنا الباشا ، ومن سيبقى معه من العساكر حتى إذا ما استراحت هذه العساكر مدة من الزمن هنا ونظمت أمورها ، ولزم الأمر بعد ذلك استخدامها فى أى جهة ألحقنا بها طوائف أخرى من أشداء العساكر ، سيرناها إلى الجهة المطلوب استخدامها فيها ، وبذلك تظل القلاع السلطانية فى أيدى المسلمين بما سيقام فيها من العساكر للمحافظة عليها ، ويبقى أهالى موره على وضعهم الحالى ، وعملا بهذا الاتفاق سنرسل للعساكر التى ستظل هناك ، وللأهالى ما يفى بحاجتهم من الأقوات ستة أشهر بما فى ذلك زيت القناديل أيضًا . أما العساكر الذين سيعودون مع نجلنا إلى مصر فسنوافيهم بحاجتهم من الأقوات لمدة شهرين على نحو ما يتضح

لعطوفتكم من مضمون عريضتنا المقدمة للباب العالى وتحمل هذه الأقوات إلى هناك السفن الثلاث من الأسطول السلطانى الراسية الآن فى الأسكندرية ، وسفن القرصان والسفن النصف مسلحة المصرية ، وسفن التجار والسفن الأخرى التى استأجرت ومجموعها ٣٠ سفينة ، وستقلع إلى هناك فى هذين اليومين بقادة سعادة البطرونة هما يون حسين بك . فيا حضرة الأخ إن موقفنا هذا الذى وقفناه قد لا يتفق فى الظاهر وواجبات الإخلاص بيد أننا أرغمنا عليه إرغامًا بعد أن وصل الحال إلى ما وصل . ونحن لو لم نتبع هذه الخطة الجريئة لهلكت تلك الجموع من أفراد الأمة المحمدية من جراء الجوع وحاسبنا الله على ذلك يوم الحشر . وأنا لنأمل أن نفوز بالصفح السلطانى بالنسبة لضيقتنا هذا الذى ما قصدنا منه سوى تلافى هذه الحالة . لقد كان علينا أن نختار أهون الشرين فعمدنا إلى اتباع هذه الخطة فعسى إذا ما تسلمتم خطابنا هذا أن تعمدوا إلى تقديم عريضتنا إلى الباب العالى ، وإن تزيدوا عليها كلمة طيبة من عندكم ، وإن يعملوا لى فى نفس الوقت على فوزنا بالصفح عن وقوفنا هذا الموقف الذى ما دفعنا إليه إلا أملنا الوطيد فى اللطف والكرم السامى .

* * *

يستخلص من هذه الوثيقة ما يلى :

- عدم وجود الأقوات اللازمة للقوات بعد الهزيمة هذا بالإضافة إلى سوء أحوالها ، وطلب الدعم من السلطنة وفشل المساعى الخاصة بذلك .

- إعلان محمد على عن رغبته فى السماح لقواته بالعودة إلى مصر حتى تتمكن من إعادة تنظيم أمورها .

- اتفاق محمد على مع إميرال البحر الإنجليزى على انسحاب القوات المصرية قبل الحصول على موافقة السلطان .

- مطالبة محمد على السلطان بالصفح عن موقفه الذى اضطر إليه .

الهوامش

(١) أطلق على هذا الديوان مسميات عديدة منها ديوان الوالى ، وديوان شورى المعاونة ، والديوان العالى وقد نشرت وزارة الثقافة والإرشاد القومى السجل الأول من القسم العربى من هذا الديوان والذى يشمل الفترة من ٨ يوليو ١٨٢٩ إلى ٢٣ ديسمبر ١٨٣٠ فى يوليو ١٩٦٠.

(٢) ظلت التركية لغة الدواوين معظم عصر إسماعيل حتى ترجم عبد الله فكرى اللوائح إلى العربية . للتفاصيل انظر كتابنا اتجاهات الكتابة التاريخية فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، القاهرة ، عين للدراسات والنشر ١٩٩٤ ص٤٥ وما بعدها .

(٣) السلطان محمود الثانى .

(٤) رينيه وجورج قطاوى : محمد على وأوربا - ترجمة الفريد يلوز - القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٢ ص٨١ - ٨٢ .

(٥) دفتر معية تركى بتاريخ ٢٩ رمضان ١٢٣٦ هـ وثيقة رقم ٢٩٢ .

(٦) انظر وثيقة رقم (١) تحت عنوان رسالة من محمد على إلى السلطان محمود خان .

(٧) أصله من قوله ، وقد استخدمه محمد على فى كثير من المهام ، ولثقته به زوجه بكريمته تفيدة هانم، وجعله محافظًا للأسكندرية ، كما أحال إليه إدارة أسطوله واشترك فى حرب المورة وواقعة نفارين ثم عاد إلى الأسكندرية . انظر دار الوثائق: محافظ إبحاث ، محفظة ١١٤ .

(٨) انظر وثيقة رقم (١) بتاريخ ١٠ شوال ١٢٣٦هـ . ومن المعروف أن تكوين البحرية المصرية فى العصر الحديث بدأ فى عام ١٨١٠ منذ أن شرع محمد على فى خوض غمار الحروب مع الوهابيين . ففى ترسانة بولاق انشئت السفن التى استخدمتها مصر فى البحر الأحمر خلال حروبها مع الوهابيين ، وفى ترسانة الأسكندرية انشئت السفن التى كانت تمخر عباب البحر المتوسط حيث عهد محمد على إلى شاكر أفندى الأسكندرى وإلى الحاج عمر أحد مشاهير المعلمين فى بناء السفن بالأسكندرية مهمة إنشاء وعمارة أسطوله ، كما أنشأ إدارة خاصة لهذا الأسطول جعل على رئاستها صهره محرم بك .

(٩) فقد الأسطول المصرى فى هذه المناوشات ثلاث سفن ، كما تعطل أربعة . انظر عبد الرحمن زكى : التاريخ الحربى لعصر محمد على ، القاهرة دار المعارف ١٩٥٠ ص١٧٩ .

(١٠) انظر الوثيقة رقم (١) .

(١١) دفتر ١٣ معية تركى بتاريخ غرة رجب ١٢٣٩هـ/١٨٢٤م ص١٠٤ وللتفاصيل انظر عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ، القاهرة ، النهضة المصرية ، الطبعة الثالثة ١٩٥١ ص٢١٦ ، بيير كرابيتس ، إبراهيم باشا - ترجمة محمد بدران - القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧ ص٧٠ .

(١٢) أول والى عثمانى لمصر بعد جلاء الفرنسيين عنها في عام ١٨٠١ ، وبعد أن تم إبعاده عن مصر بفعل دسائس محمد على تولى الصدارة العظمى أكثر من مرة فى الأستانة . انظر دار الوثائق : محافظ أبحاث محفظة ١١٤ موضوعات متنوعة .

(١٣) انظر وثيقة رقم (٧) تحت عنوان رغبة محمد على فى توحيد القيادة العليا للأسطول ووضعها فى يد ابنه إبراهيم .

(١٤) بمعنى قائدًا للأسطول .

(١٥) كان الأسطول المصرى مكونًا من ثمانى عشرة سفينة حربية على حين كان الأسطول العثمانى مكونًا من ست عشرة سفينة ، وأربع سفن تونسية وجزائرية ، وست حراقات، وأربعين مركبًا لنقل الجنود .

(١٦) كانت حكومة الثورة قد اتخذت من هذه المدينة عاصمة ومقرًا لها .

(١٧) بيير كربيتس : إبراهيم باشا - ترجمة محمد بدران - القاهرة - لجنة التأليف والترجمة ١٩٣٧ ص٧٧ .

(١٨) حول تفاصيل هذه المعركة انظر عبد الرحمن زكى : مرجع سابق ، ص١٩٩ - ٢١١ .

(١٩) محافظ بحر برا . محفظة رقم ١١ ترجمة القسم الخاص بالمورة فى المكاتبة رقم ٤٦ بتاريخ ١٢ رجب ١٢٤٢هـ .

(٢٠) نفس الوثيقة .

(٢١) انظر وثيقة رقم (١٣) تحت عنوان مقترحات محمد على للسلطنة بشأن قبول وساطة الدول الكبرى وإنهاء الأزمة اليونانية سلميًا .

(٢٢) حول المكاتبات عن هذا الموضوع . انظر . أمين سامى : تقويم النيل جـ٢ ص٣٣٠ .

(٢٣) الفرقاطة كانت تحمل حوالى خمسمائة من الجنود و٦٤ مدفعًا كبيرًا وصغيرًا .

(٢٤) القرويت مركب حربى يحمل حوالى مائتين من الجنود أو مائتين ونيفا كما يحمل من اثنين وعشرين إلى خمسة وأربعين مدفعًا صغيرًا وكبيرًا .

(٢٥) الأبريق مركب حربى له صاريان ويحمل من الجنود حوالى مائة كما يحمل مائتين ١٦ و١٨ مدفعًا صغيرًا انظر . عمر طوسون : صفحة من تاريخ مصر فى عهد محمد على ، الجيش المصرى البرى والبحرى طبعة ١٩٤٠ ص٢٠٩ .

(٢٦) الحراقات مراكب تشتعل فيها النيران فتندفع وسط سفن الأعداء لتحرقها بنارها ، وذلك عن طريق توجيهها بواسطة دفع الريح لشراعها .

(٢٧) عبد الرحمن زكى : مرجع سابق ص٢١٨ .

(٢٨) كانت وحدات الأسطول المصرى المتواجدة خلال المعركة إحدى وثلاثين قطعة تتألف من أربع فرقاطات ، وعشر سفن من نوع القرويت ، وست سفن من نوع الإبريق ، وخمس من نوع الفولت ، وست حراقات هذا بالإضافة إلى النقالات الكبيرة .

محمد فؤاد شكرى وآخرون : بناء دولة مصر محمد على - السياسة الداخلية ، القاهرة ، دار الفكر العربى ١٩٤٨ ص١٣٨ .

(٢٩) أمين سامى : مرجع سابق جـ٢ ، ص٣٣١ .

(٣٠) سجل رقم ٣١ معية تركى - صورة ترجمة الكتاب رقم ١٨ بتاريخ ١٣ ربيع آخر ١٢٤٣هـ من محمد على إلى محرم بك .

(٣١) عن نص شروط هذا الاتفاق انظر :

Dodwell, H,L. The founder of modern Egypt - Astudy of Muhammed Ali. Cambridge, 1931 p. 22

وأيضًا اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار جـ٢ ص٢٤٠ - ٢٤١.

(٣٢) عقدت الدول الأوربية معاهدة فى لندن عام ١٨٢٧ أجبرت فيها الباب العالى على الاعتراف باستقلال اليونان الذاتى ، وفى عام ١٨٣١ استطاع الشعب اليونانى انتزاع استقلاله التام ونجح فى استخلاص حريته وأعطى بذلك مثلاً للشعوب التى كانت تهدف إلى تحرير نفسها .

(٣٣) بعد عودة هؤلاء الجنود إلى مصر وهم فى حالة سيئة رخص محمد على لبعضهم بالإقامة فى بلاده سنة أو أكثر من أجل استعادة الثقة إلى نفوسهم ، ثم صدرت إليهم التعليمات بعد ذلك بالحضور إلى القاهرة وترتيب من يصلح منهم فى أورطة جديدة .

الوقائع المصرية العدد ١٩٦ فى١٨ ربيع الآخر١٢٤٦هـ/١٨٣٠ تحت عنوان حوادث الجهادية.

(٣٤) إقليم المورة فى جنوب اليونان إقليم ثائر فاتر ، جباله قاسية ، ومرتفعاته منعية ، وشعبه مستميت .

(٣٥) يذكر الجبرتى أن ثوار المورة قطعوا الطريق على المسافرين واخذوا المراكب الخارجة من استامبول وفيها قاضى العسكر المتولى قضاء مصر وبعض الحجاج وقتلوهم عن آخرهم . انظر الجزء الرابع من عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ص٣٤١ تحت عنوان واستهل شهر ذى القعدة بيوم الأربعاء سنة ١٢٣٦ .

(٣٦) تعنى ولايات الروم ، وهذا التعبير كان يطلق غالبًا على الأراضى العثمانية الواقعة فى شرق أوروبا .

(٣٧) كانت Psara تمثل مركزًا هامًا للقراصنة فى غرب جزيرة خيوس Chios .

(٣٨) يقصد ولايتى الأفلاق والبغدان برومانيا .

(٣٩) صحتها بودروم وهى إحدى المدن التركية الهامة التى تقع فى أقصى جنوب تركيا ، وتقع إلى الشمال من جزيرة رودس بحوالى ١٠٠كم .

(٤٠) أغا تعنى رئيس أو سيد .

(٤١) عنوان رتبة خاصة تعنى الحاجب ، وقد كلف بقيادة هذه السفن ، وضمها إلى الأسطول العثمانى ، والعمل على تخليصه من الحصار المفروض عليه من الثوار اليونانيين .

(٤٢) هو محرم بك الأميرال صهر محمد على ، وكان حاكمًا للجيزة ، ثم عين محافظًا للأسكندرية ، فقائدًا للأسطول المصرى الذى ذهب لأرخبيل اليونان لمطاردة الثوار ، واشترك فى حرب المورة . دار الوثائق : محافظ أبحاث ، محفظة ١١٤ ، موضوعات متنوعة . وقد كلفه محمد على بقيادة السفن الحربية والاقلاغ بها لتأديب الثوار اليونانيين. انظر الأمر التركى المترجم بتاريخ ٢٤ رمضان ١٢٣٦هـ .

(٤٣) ميناء على شاطىء الأناضول .

(٤٤) كلمة همايونى فارسية الأصل ومعناها اللغوى مبارك ، أو مقدس ، أو حسن الحظ .

(٤٥)كذا فى الأصل المترجم ، ولعل صحتها عاشر شوال كما يظهر من تاريخ المكاتبة .

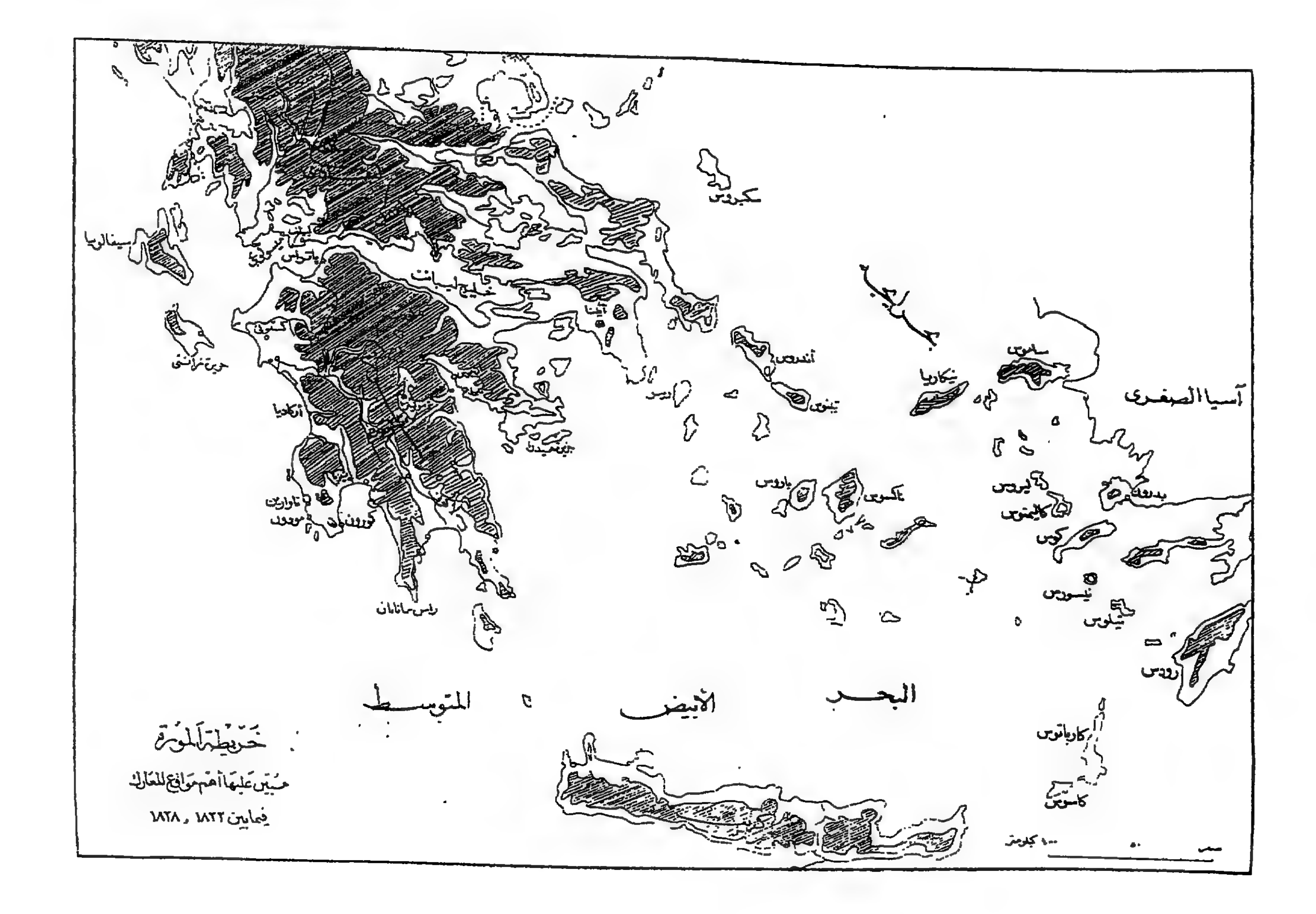
(٤٦) صحتها الروم أيلى وتعنى ولايات الروم وشاعت كتابتها خطأ الروميللى لأنهما كلمتان

(٤٧) نجيب أفندى : مندوب السلطان الذى حضر إلى مصر ليسلم محمد على فرمان الولاية على المورة .

(٤٨) مندوب السلطان الذى جاء إلى مصر ليسلم محمد على فرمان الولاية على المورة .

(٤٩) صحتها بروزيه ، وكان الأسطول العثمانى محصورًا فى تلك الجهة .

(٥٠) يقصد القائد العثمانى البطرونة مختار بك .



خريطة المورة
مبين عليها أهم مواقع المعارك
فيما بين ١٨٢٢ و ١٨٢٨
البحر الأبيض المتوسط
آسيا الصغرى
خليج ليبانت
أثينا
سيفالونيا
أركاديا
سكيروس
أندروس
تينوس
نيكاريا
ساموس
باروس
ناكسوس
كوس
تيلوس
رودس
كارپاتوس
كاسوس
١٠٠ كيلومتر

ولاية جان بردى الغزالى على الشام
(٩٢٣ - ٩٢٧هـ / ١٥١٧ - ١٥٢٠ م)

د. خلف دبلان خضر الوذيناني(*)

عندما تولى السلطان سليم الأول حكم الدولة العثمانية فى ٩١٨ هـ / ١٥١٢م . أحدث تغييرًا واضحًا فى سياسته إذ لوى عنان جيوشه إلى الشرق الإسلامى فاستطاع إخضاع شمال العراق والشام ومصر ، أما الحجاز وحكومة اليمن المملوكية فإنهما أعلنتا ولاءهما للدولة العثمانية(١) .

وقد أعتقد بعض الباحثين أن التحول العسكرى العثمانى من الغرب إلى الشرق إنما كان على أساس خطة سابقة استهدفت بها الدولة العثمانية الوصول إلى بحر عمان والمحيط الهندى للقضاء على البرتغاليين(٢) .

ولكن هذا الرأى خالف الحقائق التاريخية حيث أن السلطان سليم الأول لم يتحرك بجيوشه نحو الشرق إلا ليضرب الشيعة الصفويين فى فارس والعراق بعد أن تحرشوا به وحاولوا نشر مذهبهم فى الأناضول ، وعرقلة الفتح العثمانى فى أوربا ، فانتصر عليهم فى موقعة جالديران سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤م(٣) .

وبعد انتصار السلطان سليم الأول فى هذه المعركة المشهورة دخل عسكره مدينة تبريز واستطاع السيطرة عليها سيطرة تامة ، وصلى فيها الجمعة ، وخطب باسمه . وأراد الإقامة فيها للإستيلاء على إقليم فارس كله وإخضاعه للدولة العثمانية ، لكنه لم يتمكن من ذلك(٤) . بسبب القحط والغلاء حيث بيعت العليقة الواحدة للدواب بمائتى درهم ، وبيع رغيف الخبز بمائة درهم .

وقبل أن يرحل السلطان العثمانى سأل عن سبب تأخير وانقطاع قوافل الإمدادت التى أعدها لتموين الجيش وعندئذ تبين له أن سلطان مصر قانصوه

(*) استاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد - كلية الشريعة والدراسات اللإسلامية جامعة أمن القرى - مكة المكرمة .

الغورى كانت بينه وبين إسماعيل الصفوى شاه إيران علاقة ومراسلات واتفاقيات للتعاون معًا فى حرب ضد السلطان العثمانى سليم الأول . وبموجب هذه الاتفاقية بين الطرفين أمر السلطان الغورى بقطع القوافل والامدادات عن السلطان العثمانى فى إيران(٥) .

وكان الباعث على ذلك هو أنه لما استقل السلطان سليم الأول بسلطنة الدولة العثمانية بعد وفاة أبيه بايزيد الثانى أمر بقتل أخوته ، ولكن أحدهم استطاع الهروب إلى مصر حيث استجار بالسلطان الغورى الذى أجاره . وعندما أرسل السلطان سليم الأول رسله لتسليمه لهم رفض السلطان الغورى ذلك ، فساءت العلاقة بينهما بسببه ، وزاد من ذلك العداء التحالف المملوكى الصفوى الذى ظهر واضحًا عندما غزا سليم الأول فارس عن طريق البيرة(٦) . وكان حاكمها تابعًا للسلطان الغورى فأمر أهل مدينة مرعش بإيعاز من السلطان الغورى ألا يبيعوا عسكر السلطان سليم ما يلزمهم من زاد مما أنزل الضرر بالجند والدواب(٧) . واعتبر السلطان العثمانى هذا تحديًا وإيذانًا بالحرب بين المماليك والعثمانيين(٨) .

وهكذا قرر السلطان سليم فتح مصر ليأمن جانب الشام فى تحركاته لحربه مع الشاه(٩) .

ولم يكد السلطان سليم الأول يعود إلى عاصمته أسطنبول حتى قام بإعداد حملة قوية لغزو بلاد الشام ومصر وإزالة حكم المماليك الجراكسة(١٠) ، الذين رفضوا الاعتراف بسيادة السلطان سليم الأول من غير حرب حقنًا لدماء المسلمين من الطرفين(١١) .

ولما سمع السلطان الغورى بخروج السلطان سليم إلى حلب قام بإعداد حملة كبيرة هو الآخر ، وخرج بها من مصر لقتال السلطان العثمانى فى الشام (٩٢٢هـ / ١٥١٦م)(١٢) .

وعندما وصل السلطان الغورى حلب التقى بسفارة أرسلها السلطان سليم الأول ، فذكر لهم أنه يريد تحصين علاقته بالشاه إسماعيل الصفوى ، لأجل التوسط بينه وبين السلطان العثمانى فى تأليف القلوب ومحو النفور ، ولكن السلطان سليم لم يقبل منه هذا الاعتذار ، بل جد فى السير إلى حلب .

ويقال أن السلطان العثمانى ارسل رسلاً إلى الغورى ذكروا لـه أن السلطان سليم لا ينظر إلى الغورى إلا نظرته للوالد الذى يطلب منه الدعاء ، وأكدوا لـه أن العثمانيين ما قدموا إلا لحرب الشاه إسماعيل الصفوى ، وسوف يقضون عليه . فرد عليهم الغورى قائلاً : " لولا أنه " سليم " مثل ولدى ما جئت من مصر إلى هنا بأهل العلم حتى نصل بينه وبين إسماعيل الشاه "(١٤) .

ويبدو أن الغورى تخوف من سوء العاقبة إذا دخل فى حرب ضد العثمانيين، فقرر أن يرسل سفارة من قبله إلى السلطان سليم الأول ردًا على زيادة البعثة العثمانية ، واستشار كبار دولته فى هذا الأمر ، فاجمع رأيهم على أن يرسل رجلين من أهل العلم والدين لحقن دماء المسلمين . ولكن الغورى لم يفعل ذلك ، واختار كاتم سره (الدوادار) الأمير مغلباى إلى السلطان سليم الأول ، ليؤكد لـه رغبته فى الصلح واهتمامه بأمر الوساطة . كما أمر عشرة من خيار عسكره باصطحابه .

وقد تضايق سليم كثيرًا من اصطحاب العسكر لرسول الغورى ، وقال له: " يا مغلباى " استاذك ما كان عنده رجل من أهل العلم يرسله لنا .. ؟! وإنما أرسلك بهؤلاء العشرة ليرعب بهم قلوب عسكرى ، ويخوفهم برؤية أجناده ولكن أنا أكيده بمكيده أعظم من مكيدته " . ثم قام بقتل الجنود والقبض على" مغلباى " وكاد أن يشنقه لولا شفاعة بعض وزراء السلطان سليم ، وعاد مغلباى إلى الغورى فى حالة سيئة ، وأخبره بما حدث وبأن السلطان سليم قال لـه : " قل لأستاذك : يستعد لملاقاتنا وها أنا حضرت إليه كالبرق الخاطف والرعد القاصف »(١٥) .

وهكذا لم ير السلطان الغورى مفرًا من القتال ، فأمر قواته بالخروج من حلب والاستعداد لقتال السلطان العثمانى ، وكان ذلك فى يوم الجمعة الثانى من

شهر رجب سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦م(١٨) . فالتقى الجمعان بقرب حلب فى مرج دابق(١٩) . فى ٢٢/٧/ ٩٢٢ هـ ، وفى اليوم التالى الأحد ٢٣ من شهر رجب سنة ٩٢٢هـ الموافق ٤ أغسطس سنة ١٥١٦م كانت بداية الحرب بن المماليك والعثمانيين ولم يقاتل فى ذلك اليوم من المماليك الجراكسة أكثر من ألفى فارس . وأما جلبان(٢٠) السلطان الغورى فلم يتحركوا من مواقعهم ولم يهزوا رمحًا ولا سيفًا ، لأن السلطان الغورى أمر بأن يخرج للحرب أولاً القرانصة(٢١) . لكونهم أعرف بالحرب والقتال من جلبان السلطان ، ولكنه كان يهدف من وراء ذلك العمل أن يقتل هؤلاء القرانصة ليتخلص منهم ومن كيدهم ، وبهذه الطريقة يصفى له الجو دون معارض ، فقد كان يخاف من مكرهم .

ومن أجل ذلك آخر (الجلبان) لتنفيذ مخططه ضدهم دون أن يشعروا به ، فتنبه لذلك القرانصة وبما كان يدور فى ذهنه نحوهم وما يدبره من مكيده ضدهم للتخلص منهم حين رأوه واقفًا مع الجلبان خلفهم لا يقاتل . لذلك شكوا فى نواياه وقالوا له : " نحن نقاتل بأنفسنا وسط نيران المعركة ، وأنت واقف تنظر إلينا شامتًا لماذا ؟ لا تأمر أحدًا من مماليكك يخرج معنا للميدان " .

وكان عدد الجلبان حوالى ثلاثة عشر ألفًا مملوكًا كلهم من مشتريات الغورى وقد علمهم ودربهم تدريبًا عاليًا على كافة فنون القتال والفروسية ، لينشئ له عسكرًا خاصًا به وبالتالى يتغلب على (القرانصة) وهم مماليك من كانوا قبله من سلاطين الجراكسة(٢٢) .

وكان السلطان الغورى يخاف على نفسه من تآمر اثنين من كبار أمرائه ، هما (خاير بك) و (جان بردى الغزالى) وكلاهما من المتعصبين عليه ويبحثان عن السلطنة ، ويشك فى ولائهما له . وكان الاثنان يكرهانه فى السر كما يكرهما . وكان يضمر لهما شرًا ، فامرهما أيضًا أن يتقدمًا لقتال السلطان سليم أولاً . ويعنى ذلك أنه جعلهما وعسكرهما حجابًا ساترًا أمامه فى حين وقف هو بحراس عسكره الذى يعتمد عليهم من ورائهم خلف القرانصة ، مستهدفًا بتلك

الخطة أن يقتلا بالمدافع والبنادق فى أول اللقاء مع العثمانيين ، وبذلك يتخلص منهما ومن شرهما ، ويسلم هو وجنده ومن معه(٢٣) .

ويبدو أنه أراد بهذا العمل أو المخطط تصفية خصومه ومنافسيه أولاً ثم بعد ذلك يدخل المعركةضد السلطان العثمانى معتمدًا على سياسته وقوة جنوده .

ولكن خاير بك والغزالى فطنا إلى تلك الخدعة التى دبرها السلطان الغورى، فارسلا إلى السلطان وطلبًا منه الأمان وتوثقا منه أن لا يقتلهما بل يكرمهما وينعم عليهما(٢٤) .

والواقع إن شك السلطان الغورى كان فى محله لأنهما كانا على اتصال سرى دائم بالعثمانيين ، كما أفاد سيباى الذى لم يصدقه فى أول الأمر . وشاركهما عدد من أمراء المماليك كانوا يكرهون حكم السلطان الغورى ، وقد أرسلوا سرًا برسائل إلى السلطان سليم الأول لتأييده ووعده بالتعاون معه " إذا احتل بلاد الشام ، وطلبوا منه مقابل ذلك مبالغ مالية ومناصب عالية "(٢٥) .

وإذا صحت هذه الرواية فقد أدت سياسة السلطان الغورى إلى جلب عداء المماليك له ، حتى جعلهم يعملون على الاتصال بالسلطان سليم الأول الذى أرسل إلى خاير بك ، وجان بردى الغزالى بالأمان وعهد لهما بما يطيب خاطرهما وأن يوليهما مملكة مصر والشام ، فقبلا ذلك منه ووافقاه على ذلك قبل القتال(٢٦) . والواقع إن كثيرين من الأمراء المماليك كان يتمنى هلاك السلطان الغورى حتى يكون هو السلطان مما سهل على العثمانيين إسقاط دولة المماليك(٢٧) ، كما سيأتى .

وفى هذه الأجواء تم لقاء الجيشين واضطرمت نيران الحرب بالبنادق والمدافع فى مرج دابق ، وكان العسكر الغورى منقسمًا على نفسه ومختلفين فيما بينهم ، لا يحكمهم رأى ولا نظام ، ومن أعجب الأمور أن المقاتلين الجراكسة قاتلوا قتالاً شديدًا وصمدوا أمام القوة العثمانية صمود الأبطال فأوقفوا الزحف العثمانى حتى

صاح السلطان سليم فى قادته وعسكره ، قائلاً : " هكذا تقاتلون أمامى قدامى المماليك فحمل العثمانيون على الجراكسة حتى تراجع الجميع " . وما زال السلطان سليم وجيشه مواصلين زحفهم حتى وصلوا إلى صف الغورى(٢٨) .

وتنفيذاً للاتفاق فقد تراجع خاير بك والغزالى مع من انهزم من الجراكسة حتى خيمة الغورى التى كان يحتمى بها خلف صفوفهم مع جنده الخاص ، ونادى الخائنان بأعلى صوتهما " الفرار ، الفرار ، فإن سليم أحاط بكم ، وقتل الغورى والكسرة علينا " ، وانسحبا إلى حلب ، فتبعهما جلبان السلطان وتشتت جيش الغورى ، وظنوا أن سلطانهم مات كما قال : خاير بك والغزالى(٢٩) ، اللذان أطاحا به قبل أن ينال منهم شيئًا(٣٠) . وهكذا انكشف السلطان الغورى ومعه خواصه وعسكره الخاص أمام الجيش العثمانى ، الذى أطلق عليه المدافع والبنادق ، فهلك من جيشه من هلك ، وهرب من هرب لا يدرى أين يسلك ، وانقلب النهار ليلاً مظلمًا بالدخان ، فمات السلطان الغورى تحت حوافى الخيل(٣١) .

وهكذا زال ملك الغورى وقد أنشد بعض الشعراء فى ذلك شعرًا

اعجبوا للأشرف الغورى الذى   منذ تناهى ظلمه فى القاهرة

زال عنه ملكه فى ساعة   خسر الدنيا إذًا والآخرة(٣٢)

أما عسكره فقد فرّ إلى حلب ولكن أهلها قاوموهم لشدة ما قاسوا منهم حين دخلوا مع الغورى إلى بلادهم ، فتشتت شملهم وانكسرت شوكتهم بعد قوتهم ومنعتهم . وقد أسعدت هذه الهزيمة أهل حلب حيث أن السلطان الغورى حين تحرك منها لمواجهة السلطان العثمانى فى مرج دابق أودع لديهم المماليك جميع أموالهم .

أما خاير بك فقد دخل حلب لأخذ (سيدى محمد ابن السلطان الغورى) وكان أبوه قد أبقاه على خزانته وأمواله بقلعة حلب ، فخوفه خاير بك إن بقى فى حلب أخذه السلطان العثمانى ، فهو قاصد أخذه وأخذ حلب . فقال : ابن الغورى سيدى محمد ؛ ما هو الرأى يا خاير بك ؟ قال الرأى عندى أن تنادى فى العساكر بالرحيل إلى مصر ، حتى يجتمع إليك ما شئت منهم . وتكون سلطانهم فى مصر مكان أبيك ، وأنا مساعد لك فى ذلك الأمر . ونادى ابن الغورى سيدى محمد فى حلب ، فخرجت العساكر وتركت كثيرًا من أموالها وأثقالها ، فكان ذلك مكيدة من خاير بك حتى يدخل السلطان سليم حلب من دون حرب.

وكان أن أرسل خاير بك إلى السلطان العثمانى يخبره بما فعل ، ويحثه على السير إلى حلب الخالية من الجيش المصرى فتقدم السلطان سليم حتى دخل حلب(٣٣) . وهكذا ارتفعت راية السلطان سليم الأول على قلعة حلب الشهباء ، فطلب أهلها الأمان من السلطان العثمانى فأجابهم على ذلك(٣٤) ، وخلع على كبارهم وأعيانهم الحلل الثمينة ، ثم حضر صلاة الجمعة وخطب له الخطيب باسمه ودعى له ولآبائه وأسلافه ، وبالغ الخطيب فى مدحه . ولما سمع السلطان سليم الخطيب يقول كلمة : " خادم الحرمين الشريفين سجد لله تعالى شكرًا ، وقال : الحمد لله الذى يسر لى أن صرت خادم الحرمين الشريفين " وأظهر الفرح والسرور على لقبه الجديد ، خادم الحرمين الشريفين ، وخلع على الخطيب خلعًا متعددة وهو على المنبر(٣٥) . منها حلته التى كانت عليه ، وكانت تساوى خمسين ألف غرشًا(٣٦).

أما ابن الغورى فقد خرج من حلب يريد دخول دمشق ، فخرج عليه أهلها ونهبوا أمواله وأثقاله ومن كان معه . ولولا صمود الأمير أبرك قائد الجلبان والأمير جان بردى الغزالى ومقاومتهم لأهل دمشق لأسروا جميع العسكر مع ابن السلطان. وقد أصاب العساكر من جراء ذلك هلعًا وخوفًا مما لحق بهم من أهل دمشق ، فلم يقيموا بها سوى ثمانية عشر يومًا أراد أن يعلن فيها الأمير جان بردى الغزالى حاكم حماه من قبل السلطان الغورى نفسه سلطانًا جديدًا للمماليك فعارضه الأمير أبرك

حيث قال : من الأولى أن تكون السلطنة لابن السلطان (سيدى محمد الغورى) فوافقه جيش السلطان (الجلبان) الخاص ، وقدامى المماليك " القرانصة " على رأيه(*) .

وعندما سمع جان بردى الغزالى ذلك القول يئس من السلطنة ، وخاصة عندما قام أحد أمراء المماليك وقال أين تخت السلطنة بمصر أم فى الشام ؟ قالوا بمصر ، قال " فاذهبوا إلى مصر ، واجتمعوا بمن بها من الأمراء ، واتفقوا على أمير تختارونه وسلطنوه ، فإن السلطنة لا تصلح لأحد إلا لأشجعنا وأعقلنا " فالآن أحوالنا مضطربة ، وعدونا يتربص بنا ، فكيف نسلطن علينا ولدًا صغيرًا ؟ " .

وهكذا خرج من دمشق الأمراء والعساكر متجهين جميعًا إلى مصر يرافقهم جان بردى الغزالى ، وهو يبطن لهم الغدر لرفضهم بالإجماع سلطنته لأنه كان يطمع فى حكم مصر بعد السلطان الغورى ، فمال إلى رأى خاير بك وهو تحريض السلطان سليم الأول على أخذ مصر(٣٧) . لكسب وده ورضاه ، إذا آل حكم مصر إليه .

وبعد اجتماعهم فى مصر اتفقت الآراء جميعًا على تعيين طومان باى سلطانًا لمصر وبايعوه بالسلطنة فى ١٥ / ١٠ / ٩٢٣هـ / ١٥١٧م(٣٨) .

---

* جان بردى الغزالى سلافى الأصل من خرواتيا وهى منطقة سلافية تقع الآن فى يوغسلافيا . وكان يتكلم اللغة الخرواتية ، ثم وقع فى أسر العثمانيين فى عهد السلطان بايزيد الثانى والد السلطان سليم الأول عند فتح منطقة البلقان (التى تسمى فى المصطلح العثمانى باسم الروملى) . ثم أرسل ضمن مجموعة من الأسرى الأقوياء كان عددهم عشرين هدية إلى السلطان المملوكى فى القاهرة . ثم أعتقه من ضمن العبيد السلطان المملوكى الأشرف قايتباى ثم وصل هذا إلى درجة الأمارة فى عهد السلطان قانصود الغورى وطومان باى .
وجان : بمعنى الروح ، وبردى : تعنى أعطى . أما الغزالى : فهو نسبة إلى منية غزال فى الشرقية بمصر ، وكانت ضيعة لتغرى بردى وكان جان بردى حارسًا لها . انظر : محمد حرب . المرجع السابق ، ص١٤٣ - ١٤٤ .

Ismail Hami Danismend : op. cit. p. 66.

أما السلطان سليم الأول فقد زحف بجيشه على دمشق عند خروج المماليك منها بعد أن أقام أيامًا قليلة بحلب ، فخرج أهل دمشق لاستقباله وطلبوا منه الأمن والأمان ، فأجابهم إلى ذلك ، وخلع على كل من يستحق الخلع الفاخرة ثم بعد ذلك توجه لفتح مصر(٣٩) .

ويؤكد المؤرخ أحمد زنبل الرمال فى تاريخه وهو حجة ومعاصر لهذه الأحداث وكان مستشارًا للسلطان الغورى ، ويميل إلى رأيه المماليك ، أن السلطان سليم كان يريد الاكتفاء بحلب ودمشق بعدانتصاره فى مرج دابق ، غير أن المماليكِ الذى انضموا إليه حثوه على مواصلة القتال وحذروه من مغبة التراخى . وقد دعم موقفهم هذا رفض المماليك فى مصر الصلح وإصرار طومان باى سلطان مصر الجديد على مواصلة القتال . وقد صرح السلطان سليم الأول أن ما دفعه لفتح مصر إلا خاير بك وجان بردى الغزالى والمماليك الذين انضموا إليهما وأنه كان يريد العودة إلى أسطنبول(٤٠) .

وقيل أنه كان ينوى الاتجاه من حلب لمحاربة الشاه الصفوى فى فارس و لم يكن فى نيته التوجه إلى مصر ، ولكن ما دفعه لأخذ مصر إلا خاير بك ورفيقه جان بردى الغزالى . لذلك أجل حرب الدولة الصفوية حتى يتم له فتح مصر(٤١).

ولا شك فى أنه كان لموقف جان بردى الغزالى وخاير بك وأتباعهم أثره فى النصر الذى أحرزه العثمانيون فى معركة مرج دابق(٤٢) . وكان واضحًا منذ اللحظة الأولى للمعركة أنه ليس هناك ثمة تكافؤ بين الطرفين ، وخاصة فى مجال التنظيم وإدارة الحرب ونوعية الأسلحة ، فالجيش المملوكى الذى يتبع فى تكتيكه الحربى نظام الفروسية لم يستطع مقاومة القوات العثمانية بتنظمها المتقن واستعمالها المدفعية وأساليب القتال الحديثة . هذا فضلاً عن الارتباك الحاصل فى صفوف المماليك لعدم ترابط عسكرهم وتبادل الشك بين السلطان وكبار قادته ، مما أدى إلى هزيمة ومقتل السلطان الغورى وانسحاب بقية قواته المنهزمة إلى مصر خوفًا على أرواحهم(٤٣) . وقد ولوا عليهم طومانباى نائب الغيبة سلطانًا على مصر ،

كما أسلفنا ولقبوه بالملك الأشرف واجتمعوا حوله ، وأصبحوا طوع أمره ، وعقدوا الألوية عليه ، وساروا بها إلى الريدانية خارج القاهرة ، وهناك نصبوا المدافع استعدادًا لصد السلطان العثمانى سليم الأول عن دخول مصر . وفى الريدانية تقابل الجيشان العثمانى والمملوكى ، وقاتل السلطان طومان باى قتال الأبطال ، أذهل العقول ضد السلطان العثمانى ، ولم يلبث طويلاً فى قتاله حتى أنكسر مع جيشه أمام القوات العثمانية ، وهرب طومان باى إلى البر لما تفرق عنه جيشه وقصد صديقه شيخ عربان بنى جذام ، واسمه عبد الدائم بن بقر ، ودخل السلطان سليم الأول بعد هذه المعركة مصر دخول الفاتحين(٤٤) .

ولم يلبث أن قام شيخ العرب عبد الدائم بن بقر بتسليم طومان باى أسيره إلى السلطان تقربًا إليه فأنعم عليه مقابل ذلك بالخلع الثمينة والأموال الطائلة ، وحبس طومان باى عنده ، لكنه عدل عن ذلك وأراد أن يكرمه ويجعله نائبًا عنه على مصر إذا رجع إلى عاصمته أسطنبول ، وصار يحضره فى مجلسه ويستشيره فى بعض الأمور والأحوال(٤٥) .

وكان سليم الأول يريد الابقاء على حياة طومان باى لولا أن خاير بك وجان بردى الغزالى أوغر صدر السلطان عليه(٤٦) . وذلك خوفًا منه لخيانتهما فى موقعة مرج دابق كما سبق ذكره .

يضاف إلى ما سبق أن السلطان سليم الأول عندما كان يقاتل طومان باى أمر جان بردى الغزالى بالتوجه لحربه ، فدارت معركة ضارية حول أم دينار بين المماليك والعثمانيين ، أظهر فيها طومان باى ومن معه من الأمراء والفرسان ، بطولات خارقة . وسقط قائد العثمانيين جان بردى الغزالى من فوق فرسه أسيرًا عندما انهزم عسكره ، واقتيد إلى طومان باى الذى هم بقتله ، فما كان من الغزالى إلا إن قبل يديه وقدميه متوسلاً إليه بالله ليعفو عنه ، وعندئذ رق طومان باى لحاله، وعفى عنه ، فرجع الغزالى متقدمًا فلول عسكره العثمانى المهزومين ، وقد أصر فى نفسه أن تكون له كرة أخرى على طومان باى لينتقم لنفسه(٤٧) .

وتخلصا منه فقد أرجف فى أهل مصر عن طومان باى أنه لم يقع فى الأسر، وأنه اختفى ويجمع عسكرًا ، وينتهز الفرصة لاستعادة حكمه وأنه شجاع وقوى لا يطاق ولا يقدر على نزاله أحد ، وبلغت السلطان تلك الأراجيف من الناس ، فرأى أن الفتنة لا تسكن ما دام طومان باى ، لذلك أمر بأن يركب طومان باى على بغلة ويحيط به جنود الانكشارية خوفًا من افلاته ، ويمضى به إلى باب زويله ، ليشنق ويصلب هناك ليراه الناس بأعينهم ، فشنق وصلب على باب زويلة(٤٨) فى ٩٢٣/٣/٢١هـ ، ١٣ إبريل ١٥١٧م ، ودفن بالقبر الذى كان أعده السلطان قانصوه الغورى لنفسه(٤٩) .

وقد دبر الغزالى وخاير بك هذه الحيلة للتخلص منه خوفًا من ابقاء السلطان سليم الأول عليه وتعيينه لولاية مصر ، ولو حصل ذلك لانتهى أمرهما ولكنهما استطاعا بهذه الشائعة التخلص منه ليخلو لهما الجو لحكم مصر والشام دون منازعة كما وعدهم السلطان .

وبعد هزيمة المماليك من قبل الدولة العثمانية احتفظت الشام ومصر بقدر كبير من الحكم الذاتى الداخلى فقد وضع هذان البلدان الشام ومصر تحت إشراف دائم من جانب القادة العسكريين الذين انحازوا إلى جانب السلطان سليم الأول(٥٠) . فعين السلطان العثمانى خاير بك على ولاية مصر(٥١) . مقابل تعاونه مع العثمانيين كما نص الاتفاق بينهما قبيل معركة مرج دابق(٥٢) . وعاد السلطان من مصر بعد أن وطد الحكم بها إلى الشام بصحبة جان بردى الغزالى الذى وعده بولاية الشام ، لكنه عدل عن ذلك وولاه (نيابة طرابلس وصفد وغزة والرملة وبيت المقدس وجبل نابلس) فقط ولم يوليه نيابة الشام ، فشق ذلك على الغزالى ، لكن السلطان عاد وولاه نيابة الشام(٥٣) . إقطاعًا حتى يموت لا يأخذ السلطان من مالها شيئًا(٥٤) ، وكما كانت ولاية مصر الثمن الذى تقاضاه خاير بك مقابل تعاونه مع العثمانيين ، كذلك كان الشام الثمن الذى تقاضاه جان بردى الغزالى مقابل تعاونه هو الآخر مع العثمانيين(٥٥) .

وكانت ولايته للشام فى ٥ من شهر صفر سنة ٩٢٤هـ / ١٥١٨م ، على مال معين قدره مائتا ألف دينار وثلاثون ألف دينار ؛ وما معها من بلاد المعرة(٥٦). إلى عريش مصر ، وأضاف إليه أيضًا أمر الجراكسة بدمشق من الحجوبية الكبرى والثانية(٥٧) .

يقول نيقولاى ايفانوف أنه بعد أن أكمل السلطان العثمانى احتلال المدن والقلاع المهمة فى بلاد الشام ومصر منح لهذين الحاكمين استقلالاً داخليًا شبه تام، حتى أعفى خاير بك من دفع الضرائب للسلطان العثمانى، وكان كل منهما - يعنى الغزالى وخاير بك - يملك قواته العسكرية الخاصة به إضافة إلى جهازه الإدارى ، الذى لم يطرأ عليه أى تجديد يذكر، وقد استاء أبناء السلطان سليم الأول من تصرف والدهم لأنه بعد هذا النصر لم ينتزع السلطة من يد المماليك بل أعادها لهم مرة ثانية دون أن تكون هناك أى فائدة تذكر للعثمانيين(٥٨) .

ويعنى ذلك أن دخول العثمانيين الشام ومصر إنما كان نتيجة لمواقف حربية وسياسية جديدة أملتها عليهم الظروف حين تحالف المماليك مع الشاه إسماعيل الصفوى ضد الدولة فلم يكن لهم هدف آخر .

أما سيطرة العثمانيين على الحجاز واليمن والبحر الأحمر وتصديهم للبرتغاليين فكان ذلك ميراثًا مملوكيًا لا يستطيعون التخلى عنه(٥٩) . فرضته عليهم الظروف والمواقف بعد أن آل حكم المماليك لهم فى مصر .

وأخيرًا سار السلطان سليم الأول إلى أسطنبول بعد أن رتب البلاد الشامية(٦٠) ، وقبل مغادرة السلطان الشام سبقه جان بردى الغزالى فى يوم الأحد العاشر من شهر صفر سنة ٩٢٤هـ / ١٥١٨م إلى مدينة حمص لضيافة السلطان فيها ثم توديعه ، وبعد توديع السلطان إلى عاصمته دخل جان بردى الغزالى دمشق في ٢٠ من الشهر نفسه ، فتلقاه الأمراء بدمشق ، وشباب أهل الشام فى حلل

بهية وأمامة الجيش الانكشارى ورماة البنادق يزيدون على خمسمائة جندى فى حفل واستقبال مهيب ، والغزالى يرتدى زى العثمانيين ونزل بالشام ، وأمر فى الحال ببناء دار السعادة (الحكم) واصطبلها ، فشرع البناؤون فى ذلك سريعًا ، ثم أمر مناديه ، فنادى بأعلى صوته بأنه لا ظلم اليوم ولا عدوان فى الشام(٦١) .

وقد استمر فى حكم الشام تحت الطاعة العثمانية منقادًا لأوامرها ، إلا أنه كان يطمع ويحلم فى داخله باستقلال حكم الشام وإعادته إلى حكم المماليك كما كان من قبل ، ويبدو أن السلطان سليم الأول عندما عدل عن إعطاء ولاية الشام للغزالى فى أول الأمر كما وعده كان يشك فى ولائه له ، لذلك كان السلطان مترددًا فى دفع ولاية الشام إليه ، ولكنه عاد وأعطاه ولاية الشام كلها وفاءً لوعده كما سبق ذكره .

وعندما عاد السلطان سليم الأول إلى أسطنبول قام الغزالى بالقضاء على مشايخ الإعراب المناوئة للحكم العثمانى فى الشام(٦٢) ، مطبقًا السياسة العثمانية فى بداية عهده ، فقام بقمع حركات تمرد البدو دون رحمة وبخاصة عندما سحق انتفاضة الشيخ البدوى الحنش فى عام ٩٢٥هـ/ ١٥١٩م قرب بعلبك الذى حاول السيطرة على وادى البقاع ، وشن حملتين لغزو حوران ، وساد البلاد هدوء تام حتى قيل أن " الذئب والحمل استطاعا السير معًا " كما يقال :

يا أيها الملك الذى سطواته   فى البيداء يخشى ذئبها من شاتها(٦٣)

بذلك أظهر الغزالى ولاءه للسلطان العثمانى ليغطى تحركاته المريبة فى المناطق المحيطة التى كان يهدف من ورائها التحالف مع البلاد المجاورة لمساعدته فى طرد العثمانيين عندما تحين الفرصة له(٦٤) .

لذلك شكل الغزالى جيشًا خاصًا به إلى جانب الجيوش العثمانية ؛ كان قوامه من البدو والمماليك ، ثم التف حوله أبناء الطبقات المميزة القديمة بعد أن وضعوا أنفسهم فى خدمة السلطان سليم الأول وبايعوه ، لذلك تغير ولاؤهم فلم

تعد تستهويهم المثل العثمانية ويشدهم الحنين إلى الماضى لاستعادة الحكم والامتيازات المملوكية(٦٥) .

وقد بدأت أحلام جان بردى الغزالى تظهر لإقامة دولة مستقلة بحكم بلاد الشام تحت قيادته ، وذلك قبيل وفاة السلطان سليم الأول ، وبالتحديد فى ليلة الجمعة الموافق ١٢ من شهر ربيع الأول لعام ٩٢٦هـ / ١٥٢٠م ، حين احتفل بالمولد الشريف فى دمشق ، ودار الحديث فى ذلك المجلس ، واستطرد الكلام حتى سأله بعض الحضور لمن يهدى أجره ؟ هل فى صحائفه أم صحائف السلطان سليم الأول ؟ فقال بدون تردد بل أهديها إلى صحائف استاذى العظيم السلطان الأشرف قايتباى ، فلم يفطن الغزالى إلى مثل ذلك القول لفرط اندفاعه نحو السلطنة(٦٦) .

وكان قد حضر ذلك المجلس أمير عثمانى كبير سمع بإذنه الحديث الذى صدر من الغزالى(٦٧) ، وهذا الأمير هو نائب قلعة دمشق ، معه قاضى القضاة الشافعى ولى الدين محمد بن الفرفور ، والمظفرى شيخ المدرسة السليمية فى دمشق، فهؤلاء الثلاثة تنبهوا وأيقنوا بأن الغزالى يتوق نحو السلطنة دون تردد .

عندئذ بعث هؤلاء الثلاثة فى ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠ م إلى السلطان سليم الأول بما سمعوا فى ثلاث رسائل مع هجان ذكروا فيها أن الغزالى يعد العدة للانفصال بالشام تحت قيادته بعيدًا عن السيادة العثمانية . ولكن أنصار الغزالى استطاعوا كشف أمر هذه الرسائل فقبضوا على الهجان وقدموا الرسائل إلى الغزالى ، فما كان منه إلا أن أمر بالقبض على الشيخ المظفرى ، فقبض عليه ، أما قاضى القضاة ابن الفرفور فقد لاذ بالفرار إلى قلعة حلب واعتصم بها قبل أن يدركه الطلب . ولم يجرؤ الغزالى على إصدار أمره بالقبض على نائب قلعة دمشق لاعتصامه هو الآخر بالقلعة(٦٨) .

ويتضح من ذلك أنه منذ أن رحلت القوات العثمانية من دمشق ، وخلا الجو لجان بردى الغزالى نائب الشام ، حدثته نفسه بالخروج عن طاعتها ، وصعب

على طبعه إلا أن يخون سيده الثانى ، كما خان سيده الأول ، لذلك لم يستطع البقاء طويلاً على الولاء لأسياده العثمانيين .

ومن يتعود عادة ينجذب لها على الكره منه والعوائد أهلك(٦٩)

وقيل أن السلطان العثمانى سليم الأول كان على علم بتحركات الغزالى المشبوهة فى المنطقة ، من عيونه وبعض أمراء المدن الشامية من العثمانيين المخلصين للدولة ، ولكن الموت لم يمهله حتى يقضى عليه(٧٠) .

ففى يوم ٩ من شهر شوال سنة٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م توفى السلطان سليم الأول ودفن فى أسطنبول، وكانت مدة سلطنته ثمان سنين وثمانية أشهر وتسعة أيام(٧١) ، وقد أرسلت الدولة العثمانية بهذا الخصوص فى١٢ من شهر ذى القعدة سنة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م مندوبين من العاصمة أسطنبول إلى نائب الشام جان بردى الغزالى بخبر وفاة السلطان سليم الأول . وبعد يومين من وصول المندوبين شاع فى دمشق خبر وفاة السلطان أى يوم ١٤من شهر ذى القعدة(٧٢) . وبموته أقامت المماليك الجراكسة صدورها ووجد جان بردى الغزالى الفرصة سانحة أمامه لتنفيذ ما كان يرومه من قبل(٧٣) . وخاصة عندما بلغه تولى ابنه سليمان الأول (القانونى) فى ١٧ من شهر ذى القعدة سنة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠ م وهو شاب صغير فإزداد طمع الغزالى أكثر من ذى قبل فى الشام وحدثته نفسه بإعلان استقلاله وانفصاله عن الدولة العثمانية ، وإعادة الشام إل المماليك الجراكسة ، ويكون هو السلطان ، وتعلقت آماله وأحلامه بتلك الأوهام لحكم البلاد ، فوجد الغزالى هذا الموقف يصلح أن يكون منطلقًا معقولاً إلى إعلان سلطنته بحجة أن السلطان سليمان ولد غر لا يصلح للسلطنة(٧٤) . وفى الوقت الذى ازدادت مطامع الغزالى عقب موت السلطان سليم الأول ، كان الشاه إسماعيل الصفوى على أتم استعداد للتعاون معه فى هذه المحاولات إذا ما طلب منه ، وامداده بالمال والجند حتى يرى اليوم الذى يطرد فيه الغزالى العثمانيين من الشام كله ليشفى غليله(٧٥) ويمسح العار الذى لحق به فى معركة جالديران الشهيرة .

وقد تسرع الغزالى فى ذلك لطمعه وخفته وهوجه وافتقاره للرأى السديد . وقد ساعدته الدولة العثمانية دون أن تدرى حين أخضعت لحكمه ولايات الشام كلها وهو ما لم تفعله الدولة الشركسية التى كانت تسند ولايات الشام إلى أربعة ولاة(٧٦) ، ظنًا أن ذلك فرصة مناسبة لتحقيق أحلامه وطموحاته فى حكم الشام التى كان يخفيها(٧٧) .

وقبل أن يبدأ جان بردى الغزالى بثورته على الدولة العثمانية اتصل بالشاه إسماعيل الصفوى وكذلك قراصنة جزيرة رودس فرسان القديس يوحنا ، وأرسل لهم سفراء للاتفاق معهم لمحاربة الدولة العثمانية العدو المشترك للجميع ، فأمدوه بالأسلحة والمعدات اللازمة ، ثم بالخبراء والمهندسين المتخصصين فى المدفعية وصيانتها للاستعانة بهم فى حربه ضد السلطان العثمانى(٧٨) . كما وعده الصفوى بإن يمده بالرجال .

عند ذلك أخبر خاصته وحاشيته بما فى نفسه ، فأشاروا عليه أن يرسل إلى خاير بك والى مصر يعلمه بذلك الأمر ، فإن وافقك على هذا الاستقلال فافعل ، وإلا فلا قدرة لك ولنا على جنود الدولة العثمانية ، لأن معركة مرج دابق لا زالت عالقة فى أذهان المماليك(٧٩) .

ورد جان بردى الغزالى على خاصته وأصحابه بقوله : " إنما كان ذلك من السلطان سليم ، وإنما هذا ولد غر ليس له قدرة على فعل شئ من ذلك ، ولا أظنه يتم سنة فى الملك "(٨٠) .

ثم بعد ذلك بعث إلى خاير بك ورجال حكومته برسائل سرية تفيدهم بنواياه وعزمه على الاستقلال بالشام عن الدولة العثمانية(٨١) . ويطلب منه الانضمام لإعادة حكم المماليك على مصر والشام ، ويخبره بسهولة الفوز على السلطان سليمان الأول لصغر سنه وارتباك سلطنته وبعد دار الخلافة عنهما(٨٢) . وقد حان الوقت لإعادة الدولة المملوكية وبعثها من جديد ، وأن إحياءها أسهل مما كان عليه الأمر من قبل (٨٣) ، وكان الغزالى يطمع فى ضم خاير بك إليه لكسب ة مصر إلى جانبه فى حربه مع العثمانيين(٨٤) .

ولكن خاير بك أجابه محذرًا بأن لا يقدم على هذا العمل ويقول لـه : " أمـا يرضيك إقليم الشام تتصرف فيه تصرف الملوك " فإياك ثم إياك أن تتفوه بشـئ مـن ذلك "(٨٥) . إلا أن جان بردى الغزالى لم يقبل نصح خـاير بـك والى مصـر ، بـل لقد سولت نفسـه أن يعلـن استقلاله بـبلاد الشـام ، ويطلـق علـى نفسـه سـلطان البلاد(٨٦) .

وفى هذا الصدد يرى المؤرخ أحمد فؤاد متولى أن والى مصر خاير بـك كـان على علم بتطور الأحداث فى الشـام منـذ أن بـدأت ، وكـان بـوده لـو أن الحكـم العثمانى انحسر عن الشام ومصر ، وقد اتفق سرًا مع الغزالى شريكه فى الخيانة كما أسلفنا ، إلا أن خوفه من فشل ثورة الغزالى ضد الدولة العثمانية فت فـى عضـده ، فهو يخشى أن تدور الدائرة عليه لو فشـل الغـزالى فـى مسعاه ، لأن هنـاك حاميـة عثمانية قوية فى مصر تحت قادة أقوياء تمسك بزمام مصروتربطها بالتبعية العثمانية. لذلك كان موقف خاير بك السرى غير المعلن هو التعـاون والتضـامن مـن الغـزالى ويود أن ينجح فى مهمته فيقوم هو بثورة مماثلة فى مصر للانفصال بها عن الدولـة العثمانية . أما موقفه المعلن أمام الدولة العثمانية فيما يحدث فى الشـام فهـو إظهـار عدم رضاه عن هذا الموقف مما جعله يرسـل رسميًـا إلى جـان بـردى الغـزالى رسـالة يحـذره فيهـا مـن مغبـة الإقـدام علـى هـذا العمـل ، ويذكـره بقـوة السـلطان العثمانى(٨٧).

وقد استغرب الغزالى رده فأرسل له مرة ثانية رسالة تقـول : " إن لم تطعنـى على ذلك وإلا جردت عليك وحاربتك أما بى وأما بك " (٨٨) . لأن أمالهما فـى الاستقلال وإعادة حكم المماليك كانت متفقة .

ومما يؤكد هذا الاتفاق مـا ورد فـى الوثيقـة التـى أرسلـت للسـلطان سـليم الأول باسطنبول من قبل رجال حاميتـه العثمـانيين فـى قلعـة كريـت ، تفيـد هـذه الوثيقة المرسلة بأن رجال الحامية المذكورة استطاعوا أسر شخص من طـرف عـدو الدولة شاه إيران يتجسس عن طريق التجارة ، وعند التحقيـق معـه أدلى بمعلومـات

خطيرة ومهمة جدًا قال بأنه أسر من قبل فى مصر حين فتحها السلطان سليم ، ومن مصر استطاع أن يصل إلى كاشان(٨٩) . وكان بها ابن اردبيل(٩٠) ، وفى تلك الأثناء قدم من قبل الغزالى رسول إلى ابن اردبيل فى كاشان ، رآه هذا الأسير أثناء وجوده فى اردبيل ، وعندما سار الأسير إلى بغداد ومكث بها خمسة شهور ، أرسل ابن اردبيل حاكم كاشان فى تلك الفترة رسولين الأول إلى حاكم بغداد الشاه على أوباش، والثانى إلى جان بردى الغزالى فى الشام للتحالف ضد الدولة العثمانية.

لذلك أرسل حاكم بغداد الشاه على أوباش هو الآخر رسولاً إلى الشام لمقابلة جان بردى الغزالى لبحث التعاون بين الطرفين ضد الدولة العثمانية ، ونتيجة لهذه المفاوضات بعث الغزالى رسولاً إلى شاه بغداد على أوباش تأكيدًا للتحالف بينهما ضد الدولة العثمانية ، ثم توجه هذا الرسول نفسه إلى ابن اردبيل فى كاشان لنفس الغرض والمهمة ، وقد بين الأسير مهمة هذا الرسول وهى الكلام على لسان الغزالى إلى ابن أردبيل حيث يقول : " تعال يا ابن اردبيل بنفسك أو أرسل عسكرًا ، أننا سنفتح ولاية الشام ، ولتعلم أن من بمصر اتفقوا معنا "(٩١) . ويعنى بذلك خاير بك .

و لم يكن السلطان العثمانى سليم الأول على علم بهذه المحادثات إذ أن رسول الغزالى كان قد وصل بهذه الرسالة سرًا إلى كاشان لمقابلة الشاه إسماعيل ، وفى هذه الرسالة عرض آخر من الغزالى هو تقديم تبعيته للشاه إسماعيل الصفوى(٩٢) . من أجل التعاون معه لطرد العثمانيين من الشام ومصر .

وفى هذا دليل واضح على أن خاير كان على اتفاق سرى مع الغزالى هو الآخر لإعادة حكم المماليك على الشام ومصر كما كان ، وعلى علم بكل الاتفاقات التى دارت بهذا الخصوص بين حاكمى بغداد وإيران مع الغزالى لتوحيد الجهود لطرد العثمانيين من الشام ثم مصر كما جاء فى الوثيقة السابقة . وإذا سلمنا بصحة هذه الوثيقة التى تتهم خاير بك بالاتفاق مع جان بردى الغزالى ضد السلطان لإعادة حكم المماليك ، فإن هناك تناقض واضح مع موقفه المعلن

وهو عدم موافقة الغزالى على تمرده للدولة من بداية الأمر عندما طلب منه ذلك ، ويعنى أن هناك على ما يبدو مكيدة لإيقاعه وإقحام اسمه فى شرك ثورة العصيان على الدولة العثمانية لتوريطه لكسب موقفه وموقف مماليك مصر معه .

ورغم هذا الموقف إلا أن هناك بعض الرسائل التى تضفى ظلالاً من الشك على تورطه ومن هذه الرسائل أن الغزالى بعث برسالة له : يخبره فيها عن كيفية فتح قلعة دمشق ، وعن سعيه الجاد لحماية هذه البلاد ، كما بين له الخطة فى استعادة بعض المدن الشامية وطرد حاكمها من قبل السلطان العثمانى لاستعادة الحكم المملوكى تمهيدًا لفتح حلب باسم خاير بك ، وفى الوثيقة إظهار لولاء الغزالى لخاير بك صريحًا وإقراره له بالتبعية(٩٣) .

ولكن خوف خاير بك من فشل ثورة الغزالى جعله يتخذ هذا الموقف السرى غير المعلن وهو تأييد الغزالى ، وفى نفس الوقت أعلن معارضته له لكسب الدولة العثمانية ، لما يتمتع به من فطنة عصمته من الوقوع فيما قد تحاسبه عليه الدولة العثمانية ، عكس الغزالى الذى كان لا يفطن إلى مثل ذلك لفرط حبه للسلطنة ، خاصة أن السلطان سليم الأول أخذ معه إلى أسطنبول بعض أبناء خاير بك وزوجاته كرهائن عندما ولاه حكم مصر ، ولم يسمح السلطان سليمان لهؤلاء بالعودة إلى مصر إلا بعد أن انتهت حرب الشام بالقضاء على الغزالى ، وبذلك يكون قد وضح موقف خاير بك المعلن والسرى(٩٤) .

وهكذا اتخذ خاير بك الحيطة فأرسل خطابًا إلى الغزالى يخادعه فيه خوفًا من أن ينكشف أمره للسلطان العثمانى حتى يتمكن من إرسال الخطابات التى وصلته من الغزالى ليكون السلطان على علم بذلك الأمر لما رأى منه الجد فى الكلام حيث قال : " أن كان ولابد وأنت معول على ذلك ، أذهب إلى حلب وخذها فإن ملكتها فإننى مساعد لك فيما تقدم وموافق لك على ما تقول "(٩٥) .

ومن الواضح أن هذا يحتمل وجهين لكسب الطرفين إذ أنه يؤيد غزو الغزالى لحلب فإذا فشلت ثورة الغزالى فقد ضمن حياده وولاءه للدولة العثمانية ، وإذا نجحت ثورة الغزالى ثار هو الآخر واستقل بمصر .

وفى ٢٦ من شهر ذى القعدة سنة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠ م حضر مندوب الغزالى ودفع لخاير بك برسالة ورسائل أخرى إلى أمراء دولته ، وعندما قرأها الأخير اضطربت أحواله ، لما فيها من عصيان وتحريض ضد الدولة العثمانية لإعادة دولة المماليك فتحفظ خاير بك على المندوب وأنزله فى بيت الأمير الحمزاوى تحت الإقامة الجبرية تمهيدًا لإرساله إلى أسطنبول ، ثم شرع حالاً فى تحصين قلعة الجبل وركب على أبراجها المدافع والمكاحل ، وأمر طائفة من الانكشارية من الفرسان بالسكن حول القلعة للحراسة الدائمة ، وأمرهم بعدم مغادرتها إلى المدينة. ثم قام خاير بك بإرسال مندوب والى الشام إلى السلطان سليمان مقيدًا بالحديد من مصر إلى أسطنبول عبر البحر الأبيض المتوسط ، ومعه جميع الرسائل الواردة ، ليخبر السلطان بما وقع من عصيان وخروج واليه الغزالى فى الشام(٩٧) .

ولم ينس خاير بك أن يعرب عن ولائه المطلق للعثمانيين وأنه لا يوافق الغزالى المغامر فى تمرده(٩٨) .

ومن ناحية أخرى جدد أمراء الشراكسة والعثمانيون فى مصر الطاعة والولاء للسلطان سليمان الأول كما كان الحال لوالده من قبل فى ١ من شهر ذى الحجة سنة ٩٢٦هـ / ١٥٢٠م ، وذلك عندما اجتمعوا فى القلعة للتهنئة بشهر الحج أمام القضاة الأربعة وعلى المصحف الشريف(٩٩) .

ولم يكتف خاير بك بذلك وإنما حلف على المصحف الشريف مؤكدًا الولاء والطاعة للسلطان سليمان الأول ، ثم أمر أن ينادى مناديه فى القاهرة بالأمان والاطمئنان والاستمرار فى البيع والشراء وأن يمسك الناس عن الكلام ، ولا يتدخل أحد فيما لا يعنيه ، وهو الحديث عن عصيان الغزالى وحربه للسلطان. وطالب بالإكثار من الدعاء لنصره السلطان . وبذلك سكن الاضطراب الذى ساد الناس من جراء عصيان الغزالى(١٠٠) .

ويبدو أن خاير بك بالغ عندئذ فى تحصين القلعة وتأمين ما يلزمها من ماء وغذاء ، ورفع بين قواته درجة الاستعداد الحربى إلى أقصى الحدود وذلك تحسبًا

من غزو مرتقب من جان بردى الغزالى بدليل أنه أصدر أوامره إلى الشراكسة وإلى العثمانيين بالاستعداد للسفر إلى الشام إذا ما دعت الحاجة ، بل أنه فتح باب التطوع العام لانضمام المتطوعين إلى الجيش . وربما أراد خاير بك التحرك إلى الشام وسحق قوات الغزالى ، ولكنه كان فى انتظار جواب السلطان سليمان إذا أمره بذلك(١٠١) .

وحين تسلم الغزالى هذا الجواب المخادع من خاير بك بأن يأخذ قلعة حلب، صدق قوله واستبشر بالموافقة على عصيانه وتأييد استقلاله ، دون أن يعلم ما كان يبطنه خاير بك من مخادعة لكسب الوقت ومكاشفة السلطان العثمانى بأمره . وكان أن أرسل الغزالى إلى سيدى محمد الأمير قرقماش لحضور مجلسه ، ولما حضر قام بإطلاعه على خطاب خاير بك فشكك سيدى محمد فى موافقة خاير بك وقال له : " أننى لا أصدق شيئًا من ذلك القول ، وإنما الرجل خادعك بهذا الكلام لما رأى منك الجد ، ولكن إذا أردت رأيى أترك هذا الأمر وكن على ما أنت عليه من ولاية الشام ، تحت الطاعة العثمانية أسلم لك وأحفظ لمكانتك " .

ولم تعجب تلك النصيحة جان بردى الغزالى وهو الرجل الطموح وكان الغزالى معتمدًا على إسماعيل الصفوى حسب الاتفاق السرى معه(١٠٢) ، وقد أرسل للغزالى بأنه استطاع جمع حوالى اثنى عشر ألفًا من الجند(١٠٣) . لمساعدته فى استقلال الشام .

وكان الصفوى قد جمع فعلاً ذلك العدد الكبير من الجند انتظارًا لنجاح الغزالى فى حربه ضد السلطان العثمانى لينقض بقواته لمناصرة الغزالى على العثمانيين ، لأنه يعلم كل العلم مع حليفهم الثالث حاكم العراق مدى قوة وبأس الجند العثمانى ويخشى جانبهم .

وقبل إعلان سلطانه على الشام كله فكر الغزالى بتدبير حيلة للتخلص بها من الجيش العثمانى المرابط فى دمشق فخطر له أن يعمل مولدًا يجمع هؤلاء ، وأمر رجاله بأن يدعوا لهذا المولد جميع عساكر دمشق من العثمانيين الذين قدموا مع

السلطان سليم الأول حين فتحها وأبقاهم فى دمشق مع جان بردى الغزالى لحفظ بلاد الشام وهم (الصناجق والاغوات والانكشارية) . فلما اجتمعوا عنده فى المكان المعد لهذه المناسبة وحان موعد الطعام مد لهم سماطًا طويلاً لم يعمل مثله أحد من قبل ، فانهمكوا فى الأكل والكلام على السماط ، وكان أتباع الغزالى واقفين خلف هذا العسكر المدعويين ، كل منهم يحمل سيفًا يخفيه تحت ثيابه وينتظرون تنفيذ أوامر سيدهم ، ولما رأى الغزالى العسكر العثمانى منشغلاً فى الأكل والكلام أشار لرجاله بتنفيذ الخطة ، فسلوا سيوفهم بسرعة متناهية وضربوا بها أعناق من حضر من الجنود العثمانية بدمشق وهم يأكلون ، فما شعروا إلا ورؤوسهم تتطاير عن أجسادهم ، فلم ينج منهم أحد . ثم أمر الغزالى عسكره بإخراج جثثهم ورميها خارج دمشق دون دفنها فأكلتهم السباع والوحوش(١٠٤). ولم يبق أمامه سوى الجنود العثمانية المرابطة بقلعة دمشق .

وكان الغزالى يهدف من وراء ذلك أن تصفو له دمشق حتى لا يبقى أمامه معارض من الجنود العثمانية ، ليبدأ إعلان تمرده وعصيانه على الدولة(١٠٥) . وقيل أنه فعل ذلك بعد رجوعه من حصار حلب وسحب قواته إلى الشام فدعا العساكر العثمانية الذين أوكل لهم السلطان العثمانى حماية دمشق إلى ضيافته وقتلهم أثناء تناولهم الطعام كما سبق ذكره(١٠٦) .

وبعد ذلك بدأ أعماله ضد العثمانيين بعزل الأمير سنان العثمانى بغتة من ولايته على البقاع وما حولها فى ١٥ من شهر ذى القعدة سنة ٩٢٦هـ/ نوفمبر ١٥٢٠م وولاها للمقدم أحمد بن المقدم ناصر بن الحنش(١٠٧) ، فانطلق الأمير سنان إلى قلعة دمشق وحذر قائدها العثمانى ، فما كان منه إلا أن رفع جسرها الممتد أمام بابها الكبير ، واستطاع الجيش العثمانى قفل منافذ القلعة فى يوم ١٦ من شهر ذى القعدة سنة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م استعدادًا للدفاع عنها(١٠٨) .

وقد أراد الغزالى فى بداية الأمر أخذ قلعة دمشق من الحامية العثمانية بالحيلة والخديعة ولكنه لم يتمكن من ذلك لعلمهم بشق طاعته على الدولة ، فقام الغزالى

بحصار القلعة فى ليلة ١٧ من شهر ذى القعدة سنة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م(١٠٩) ، وأحاطها بجيشه ونصب حولها المدافع ، وبدأ بضرب الباب الكبير وأبراجه ، فركز جنود الحامية العثمانية دفاعهم عن هذا الحصن الأمامى ، ولكن قوات الغزالى تمكنت من قطع مياه النهر عن خندق القلعة ، وتمكن جماعة من الفنيين الذين كانوا ضمن حملة الغزالى من رفع الشباك الحديدى الذى يحمى مدخل الخندق المؤدى إلى القلعة ، وعند ذلك اندفع جنود الغزالى منه إلى داخل القلعة والحامية العثمانية مشغولة بالدفاع عن واجهة القلعة الأمامية . فلم يشعروا إلا وجند الغزالى فوق رؤوسهم ، فما كان فى وسعهم غيرالاستسلام(١١٠) ، وكان فيها نحوالمائة والخمسين مع العلماء والفقهاء .

وقام الغزالى بالقبض على أربعة وستين ، منهم نائب القلعة العثمانى والأمير سنان ، وأطلق سراح الباقين ، أما نائب القلعة والأمير سنان فأمر بإرسالهما إلى القدس منفيين ، ثم قام بمصادرة بيوت الجميع إضافة إلى دكاكينهم وما عندهم من أموال . وأظهر فى ذلك اليوم لبس الجراكسة وأبطل لبس العثمانيين(١١١) .

وأرسل الغزالى إلى والى مصر خاير بك برسالة يخبره بما حدث ويبشره بالنصر التام فى القريب العاجل وعودة الحكم المملوكى إلى سابق عهده(١١٢) . وفى رسالة الغزالى هذه إلى خاير بك يقول : " عند حصارها تجمع أهل القلعة داخلها وأقفلوا أبوابها ووضعوا الحجارة من خلفها ونصبوا المدافع وتسلقوا الأسوار للدفاع عنها ، وقد بلغ عددهم حوالى ثلاثمائة مقاتل ، وشرعوا بالرمى على جيشنا المملوكى المحاصر لهم ، فأرسلت لهم وفدًا لمفاوضتهم على الصلح والتسليم سلمًا ، فلم يقبلوا ذلك وأغلظوا فى الكلام للوفد المفاوض .

وفى اليوم التالى تسلق جنودى أسوار القلعة ووقع بيننا قتال شديد تبادلنا فيه النار فلم يحتمل من بها حتى المساء وقد أخذناها بالقوة وتسلمها المملوك فاصبحت فى حوزة مولانا (خاير بك) ومحسوبة إلى دولته.

وغير خاف على ما كان فى صحبة السلطان سليم خان من العساكر عند فتح الشام فإنه لم يستطع فتحها بالقوة لولا اختلاف جيشنا المملوكى . ولكن ستعود جولتنا إلى سابق عهدها ويكفى ما صار لشعبنا من ذل وهوان وما فعله المخدوم (الغزالى) إلا للخدمة فإن مملوكها وولى خدمتها هو أحق بطاعة المملوك بها كما كان (خاير بك) ويسعى المملوك لحماية هذه البلاد ، ولو حضر كثير من الجنود العثمانية فإنى كاف لصدهم وحربهم ، وكل الرعايا من كبير وصغير وأمير وحقير إلى المملوك قدموا أرواحهم تطوعًا أمامه متمنين عودة دولتنا وامتداد حكم مولانا المخدوم خاير بك والمملوك (الغزالى) يتعهد بإعادة الحكم المملوكى بسيف مولانا (خاير بك) بعد مده بالمال والرجال .

وقد بلغنى ضم حماه وحمدًا لله تم استلامها ، والاحتمال الوارد أن يتبع نائب طرابلس المملوك (الغزالى) فيتبعه جميع عساكره مما يسهل أمر حلب ونيابتها، وقد ذكرت الوثيقة قسم الغزالى با لله على أن لا يتخلى عن خدمة خاير بك ولا يرجع عن طاعته .

- وأنه ملك يديه وتحت طاعته ينتظر إشارة منه فإنه مستمر على خدمته كما هو الواجب .

- وإذا لم يرض فإن المملوك (الغزالى) يعتذر عن خطئه(١١٣) .

وبعد ذلك أمر الغزالى بتسيير جيشين كان الأول بقيادة قانصوه المقرقع أحد أنصاره الموالين ، بعد أن ولاه مدينة حماه ، وقد نجح القائد ابن المقرقع فى مهمته فقتل رئيس فرقة الفرسان العثمانية بمدينة حمص ، وعزل قاضيها العثمانى وأرسله إلى دمشق ، ثم ولى المدينة من قبله للمقدم ابن الحرفوش ، وواصل هذا القائد حربه ضد مدينة حماه ، حتى استطاع أن يستولى عليها بالقوة من الحامية العثمانية، وأن كان أميرها قد تمكن من الهرب إلى حلب(١١٤) .

أما الحملة الثانية فكانت بقيادة دواداره الثانى الذى سار إلى طرابلس للاستيلاء عليها فأخذها ، ولكن أميرها استطاع هو الآخر الهرب منها ولجأ إلى حلب(١١٥) .

وبذلك يكون الغزالى قد استطاع القضاء على حامية دمشق العثمانية ، وطرد العثمانيين من بيروت وطرابلس وحماه وغيرها من المدن ، ولكن تمرده لم يحظ بتأييد شعبى واسع على الرغم أنه أعلن انفصال الشام عن السلطنة العثمانية ، ولكن لم يكن المماليك المصريون على مستوى ما علق عليهم من آمال(١١٦) .

ويبدو أن أهم أسباب فشل الغزالى هو عدم تحالف حليفه خاير بك معه ، كما مر بنا .

وعلى أى حال فإنه لم يبق أمام الغزالى فى الشام من الحصون القوية سوى قلعة حلب التى أوصى خاير بك بأخذها . وقبل خروجه من دمشق إلى حلب منع الدعاء للسلطان سليمان الأول فى الخطبة فى سائر جوامع دمشق ، وأمر بالدعاء له أى للغزالى ، وضرب باسمه السكة على الذهب والفضة ، وأعلن نفسه سلطاناً على الشام كلها وتلقب بـ " الملك الأشرف "(١١٧) ، وقد دخل فى طاعته العسكر الشامى ، وأهل دمشق جميعًا وخطب له على منابر مساجدها ، وأمر بأن تزين الشام فزينت زينة لم يعهد لها مثيل قط مدة سبعة أيام(١١٨) .

أما الأمراء فقد قبلوا له الأرض واجتمع حوله عسكر غفير وكثر حوله الملتفون تحت رايته ، ولحق به كثير من مماليك مصر سرًا مناصرة لتمرده ، يريدون عودة الحكم المملوكى ، فاجتمع عليه من الجند حوالى خمسة عشر ألفا من المماليك والتركمان ، وثمانية آلاف من المهرة الرماة فى رمى البنادق(١١٩) .

وتلا ذلك أن بدأ بإعداد حملة قوية لأخذ مدينة حلب - أقوى حصون بلاد الشام - فانضم إلى هذه الحملة أعداد كبيرة من شباب مدينة دمشق ولواءان من نائبه على صفد والقدس ، ومثل ذلك من دواداره الكبير ، فضلاً عن أعداد كثيرة من الجراكسة ومن الأكراد ومن دروز لبنان ، ومن كل الطبقات المختلفة ، وبعد اكتمال الحملة خرج بها الغزالى من دمشق فى ٢٥ من شهر ذى القعدة سنة ٩٢٦هـ / ١٥٢٠م فى ضجة كبيرة ، ويرافقها عشرون مدفعًا من أعظمها ثلاثة مدافع سحبت من قلعة دمشق على عجل لحصار حلب وانتزاعها(١٢٠) .

وبالإضافة إلى ذلك فقد أرسل له فرسان القديس يوحنا (قراصنة رودس) بعض قطع المدفعية عبر البحر المتوسط لمساعدته ومناصرته فى حربه وتمرده ضد الدولة العثمانية للاستقلال بحكم الشام(١٢١) ، وذلك نظرًا لعدائهم للسلطان العثمانى سليمان الأول لصرفه عن جزيرتهم التى صمم على فتحها مهما كلفة الأمر .

وكان نائب حلب قراجه أحمد باشا أميرًا من صناجق السلطان سليم الأول(١٢٢) ، فلما بلغه موت السلطان سليم الأول وهو بعسكره خارج حلب ، عاد إليها فى ١٧ من شهر ذى القعدة سنة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م ، ثم صلى صلاة الغائب على السلطان سليم الأول ، وخطبوا باسم السلطان سليمان الأول ، وشرع فى تحصين قلعة حلب ، وأدخل من كان خارج أسوارها ، وسد أبوابها بالحجر والكلس تحسبًا لأى غزو مرتقب(١٢٣) . ، ثم خرج قراجه أحمد باشا نائب حلب العثمانى فى حملة تأديبية على القرى التى ثارت مع الغزالى وقتلت القضاة والموظفين الغثمانيين ، فاستولى على ما بها من مال وماشية ، وقتل كل من تصدى لحربه ، لكنه قبل أن يعود إلى حلب تعرض لهجمات من جانب طلائع جيش الغزالى الذى كان يريد حلب قبل دخوله لها ، فأستولت قوات الغزالى على ما كان قد أخذه من مال وماشية من تلك القرى ، إلا أن قراجه أحمد باشا استطاع أن يدخل قلعة حلب وأن يتحصن بها استعدادًا لمحاربة الغزالى(١٢٤) .

ولما تأكد قراجه أحمد باشا أن هدف حملة الغزالى هو حلب ، كتب خطابًا فى الحال إلى السلطان سليمان الأول ، بأنه لا قدرة له على حرب الغزالى ، وأرسله مع عشرة جنود إلى السلطان يستعجله إرسال عدد من العساكر العثمانية لصد حملة الغزالى وإلا أخذت حلب من يديه ، " وقد ضرب الغزالى الحصار عليها، وها أنا محاصر إلى أن يفعل الله ما يشاء "(١٢٥) .

وهكذا ثبت للسلطان عصيان واليه على الشام جان بردى الغزالى وخروجه عن طاعة الدولة(١٢٦) .

لذلك كلف السلطان سليمان الأول اياس آغا بإعداد حملة كبيرة لتأديب جان بردى الغزالى ، وإعادة الشام إلى الطاعة العثمانية كما كانت من قبل فخرج الجيش العثمانى من العاصمة أسطنبول إلى حلب فى ١٣ من شهر ربيع الأول سنة ٩٢٧هـ / ١٥٢٠م يريد جان بردى الغزالى ، وكانت هذه الحملة تتكون من خمسة آلاف من الانكشارية وعشرة آلاف من الفرسان ، ومعها المدافع والآلات الحربية(١٢٧) .

ثم أمر السلطان سليمان وزيره الثالث فرحات باشا مرافقة الحملة للإشراف عليها ومعه فرقة من طائفة الانكشارية لقتال الغزالى مع قائد الحملة اياس آغا ليتمكنا من قمع ثورته وإخماد فتنته التى آثارها فى بلاد الشام(١٢٨) .

وفى تلك الأثناء أرسل السلطان سليمان الأول إلى خاير بك الذى كان ينتظر أوامره لحرب الغزالى ، بأنه عين حملة عظيمة لتأديب والى الشام الغزالى ، " ولا داعى لإرسال حملة من قبلكم فنحن نكفيكم أمره "(١٢٩) .

أما الغزالى فإنه لما وصل إلى حلب وجد أبوابها أوصدت فى وجهه ، وقد طلع الجند على أسوارها يرقبون وصوله ، فلما اقتربت منهم جموعه رموا عليه بالمدافع والأحجار ، وحاصر الغزالى حلب دون فائدة(١٣٠) . وقطع قناة الماء التى تدخل إلى حلب ، فانقطع الماء عن أهلها(١٣١) ، وهكذا مكث الغزالى ثلاثة أشهر وهو محاصر لها دون أن يستطيع أخذها لوقوف أهلها واستبسالهم دونها ، ، حتى دخل عليه الشتاء واشتد البرد واستنفد قدرًا عظيمًا من ذخيرته ومؤنته فانسحب عنها ، وكان فى نيته أن يعود إليها بعد ترتيب قواته ولا يعود إلا بعد أخذها عنوة مهما كلفه الأمر(١٣٢) .

وبعد أن رفع الغزالى الحصار عن حلب توجه إلى حاكم غزة لأخذها منه بعد أن أعلن عليه العصيان لولاءه للدولة العثمانية . وقد مر بمدينة صيدا وهو فى طريقة إلى غزة ، وهناك رآه محمد ابن حنش أحد أنصار الدولة(١٣٣) . فأرسل خطابًا بما رأى إلى قاضى العسكر العثمانى بأسطنبول يقول توجه ملك الأمراء جان بردى الغزالى ومن صحبته من العساكر إلى بلاد صيدا ولا يعلم المملوك (محمد بن الحنش) سبب لذلك والذى أرفعه لكم أن الغزالى ما كان يقيم فى بلاده منذ مدة إلا بالمراسيم والتشريفات(١٣٤) . ويعنى ذلك رفض الطاعة العثمانية وإعلان سلطنته على الشام .

وهكذا انسحب الغزالى وعاد قافلا إلى دمشق فتفرقت الجموع التى كانت مرافقة له ولحملته إلى بلادهم دون أن يحصل على مكاسب تذكر بعد أن قاسوا من البرد والمطر ما لا يوصف(١٣٥) ، ففرح أهل حلب بانسحابه فرحًا عظيمًا لما كانوا فيه من الشدة والغلاء من جراء حصاره لهم ، كما ردوا قناة الماء المقطوعة التى سبق أن قطعها جنوده إلى حلب ، وخرج الناس لأعمالهم(١٣٦) .

وحين وصوله إلى دمشق ، علم الغزالى بأن نائب حلب قد كتب إلى السلطان سليمان الأول يخبره بما فعل بحلب ، فضاق صدره وخاصة لما علم بقدوم الجيش العثمانى مع إياس آغا(١٣٧) ، وأنه لم ينتظر انقضاء فصل الشتاء ودخول فصل الصيف كما كان يخطط الغزالى نفسه للعودة إلى أخذ حلب .

وقد نقل للغزالى هذا الخبر رجل من أنصاره من أهل حلب ، وسفه رأيه وأحلامه وما قدم عليه من فعل ، ثم نصحه قائلاً : " إذا أمكنك الحرب فأهرب " فندم الغزالى ، واحتار كيف يصنع أمام هذا الأمر ؟ واضطربت أحواله على ما فعل! وكتم ذلك فى سره ، وبقى فى حيرة من أمره ماذا يفعل ؟ وكيف يتصرف لمعالجة هذا الموقف ؟ هل يهرب كما نصح ؟ إن القرار صعبًا ! كيف يستطيع ترك بلاد الشام ؟ وإن بقى فإنه لا قدرة له على حرب السلطان العثمانى ، لتفرق جيوشه التى جمعها من قبل لحرب العثمانيين ، وقد رحلت إلى بلادها(١٣٨) .

وهكذا ظل الغزالى فى دوامة من التفكير والهم والغم حتى انتهى فصل الشتاء ووردته الأخبار بأن إياس آغا قادم إلى الشام فى عسكر كثير يفوق الوصف(١٣٩) ، عند ذلك أمر عسكره بالخروج لملاقاة جيش الدولة العثمانية فى عملية انتحارية غالبًا أو مغلوبًا(١٤٠) . وشرع فى تحصين قلعة دمشق بسد جدار وفك أخرى ، وحرق بعض الأسواق ، ثم قام فى جيشه خطيبًا ، وخطب خطبة حماسية يشحذ بها همم جنوده للاستبسال فى صد القوة العثمانية حيث قال : " لا تقاتلوا العثمانيين لأجلى بل قاتلوهم خوفًا على حريمكم " ثم أحضرهم لدى قاضى دمشق بالجامع الأموى وحلفهم على القيام معه على حرب الدولة العثمانية.

وتلا ذلك أنه فى يوم الجمعة ٢٢ من شهر ذى الحجة خطب لجان بردى الغزالى بالجامع الأموى وفى حضرته بأنه سلطان الحرمين الشريفين ، ولقب بالأشرف ، وخرج من الجامع فى موكب حافل(١٤١) .

أما الحملة العثمانية فقد سارت إلى دمشق يرافقها الوزير فرحات باشا وإياس باشا وقراجه أحمد باشا بمن معهم من الجيوش ، وكان معهم ثمانية عشر من المدافع الكبار(١٤٢) . والتف حولهما عساكر كثيرة لا تحصى . وما أن وصل الركب ظاهرة دمشق حتى أرسل إياس آغا رسولاً من قبله بكتاب إلى الغزالى(١٤٣) ليستعد للحرب والقتال والطعن والنزال ، وينتظر ما يفعله الأبطال جيش السلطان سليمان الأول ، وأخذ يوبخه ويحط من شأنه ، ومن جملة ما قاله : " أنه لو كان فيك خير كان لأبناء جنسك فالذى ما فيه خير لجنسه كيف يكون فيه خير لغير جنسه ، يا خائن ... يا غدار ... " ، وأخذ يؤنبه على ما فعله من عصيان ضد الدولة العثمانية ويقول : " إنما هذه نيتك الخبيثة انقلبت عليك فسوف ترى صنع الله فيك غدًا أن شاء الله تعالى " .

وحين وصل خطاب إياس باشا إلى الغزالى قام بفضه ، وقرأه فازداد همًا على هم ، وضاق صدره ، ولم يستطع النوم فى تلك الليلة ، وأحس بزوال حكمه ونعمته التى كان يرفل بها ، ولم تبق له حيلة يحتال بها أو عذر يعتذر به ولكنه لم يظهر ذلك الشعور بالخوف لأحد من أصحابه ، بل كتم ذلك السر بين أضلاعه(١٤٤) .

وفى يوم ٢٦ من شهر صفر سنة ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م ، خرج جان بردى الغزالى لملاقاة الجيش العثمانى ، فما طلع إلا وقد اصطفت عساكره ، ودقت طبوله للحرب ، ووقف بنفسه يرتب جنوده بالميمنة والميسرة(١٤٥) ، ومن ناحية أخرى أقبلت عساكر الدولة العثمانية واصطفت هى الأخرى للحرب تحت قيادة إياس آغا(١٤٦) ، وفى وقت الظهر من يوم الثلاثاء ٢٧ من شهر صفر سنة ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م تلاقى الجيشان وتلاحق العسكر العثمانى والشامى فكانت المعركة الحاسمة بأرض النمور شرقى قرية برزة من ضواحى دمشق(١٤٧) ، وقيل فى القابون التى تقع على بعد ميل واحد من الطريق المؤدى إلى العراق من دمشق(١٤٨) ، حيث التحم القتال بين الجيشين .

ولكن الغزالى حمل على العسكر العثمانى حملة قوية شتتهم ومزقتهم شر ممزق ، فكان يقاتل قتال المستميت الذى يئس من الحياة ، فقتل من العسكر العثمانى عدد كثير .

ولكن لم تلبث أن تغيرت موازين المعركة وانقلبت إلى صالح إياس آغا(١٤٩)، ودب الخلل فى جيش الغزالى ، واختل منه النظام ، وحميت المعركة وتلاعبت السيوف بالأعناق(١٥٠) ، وأظلم الجو من البارود ما بين السماء والأرض من أفواه المدافع حتى حجبت الرؤيا على جند الغزالى(١٥١) ، فانكسر الغزالى وهرب إلى حماه ولكن الجيش العثمانى لحق به واقتتلوا معه فانسحب ودخل دمشق .

وكانت بين الفريقين معركة قوية دارت رحاها خارج مدينة دمشق ، قتل فيها نحو عشرة آلاف جندى ، وقيل أكثر من ذلك . وانكسر الغزالى على أثر هذه الموقعة واستطاع إياس آغا قمع ثورته(١٥٢) ، وتمكن الجند العثمانى من القبض عليه ، فقتل وحزت رأسه ، وأرسلت إلى السلطان العثمانى فى أسطنبول مع رؤوس عدد من جماعته وأعوانه(١٥٣) .

وقد انفرد ابن زنبل فى رواية عن كيفية مقتل جان بردى الغزالى ، وهو المعاصر لهذه الأحداث وكان بمنزلة المستشار للسلطان الغورى ومن بعده للمماليك يأنسون لرأيه ويصدقون ما يقوله ، حيث قال : " فما كان إلا ساعة واحدة ، وقد ذهبت تلك العساكر والجموع وما سلم منهم غير طويل العمر ، وبقى الغزالى واقفًا لا يعرف كيف يصنع ولا أين يذهب ؟ فالتفت فوجد صنجقه(١٥٤) ، واقفًا ليس عنده أحد ... " فلما رآه واقفًا والعلم فى يده قال له : " يا ولدى إلى متى وأنت تقف وعسكرنا كلهم هلكوا وتشتتوا ؟ قال : وإلى أين أذهب ؟ ... لا أفارقك حتى تذهب روحى . فشكره الغزالى على ذلك ، وقال له : يا ولدى ما بقى لنا غير الفرار من هذا العسكر . فقال له : وا لله يا سيدى ما عملت فينا خيرًا، وما ضرك لو كنت باقيًا على ما أنت عليه أمنًا على نفسك ، وإن كنت سلطان مخيفًا سعيت فى هلاك نفسك وأهلكتنا فى جرتك ، قال : ما كنت أظن أن الأمر كذلك ، وأن العساكر تفر منى وينقلب الأمر . فقال له على بالى : أن العارفين قالوا من لم يحسب العواقب ما الدهر له بصاحب " .

فقال له الغزالى : ما دام غبار المعركة قائمًا فأقلع العلم من فوق رمحه وضعه فى مخلاته وادفن المخلاة فى الأرض ، وارم رمح العلم ، فننزل من فوق ظهور خيلنا ونخلع كامل ملابسنا الحربية ، ونتنكر حتى ننجوا بأنفسنا من إياس آغا وعسكره ، فإذا رأونا على هذا الحال لا يمكن أحد أن يعرفنا(١٥٥) . ونفذ الغزالى فكرته فى الحال حيث نزل عن فرسه للتنكر استعدادًا للهرب ، فخلع لبسه ودفنه فى التراب ولم يبق فوق جسمه غير القميص الداخلى ، ورأسه مكشوف ، وزيادة فى التنكر لاط وجهه بالتراب ، حتى يستطيع بهذه الحيلة أن يفلت من يد إياس آغا وعسكره(١٥٦) .

ولما رأى على بالى الغزالى بهذه الصفة انتقده وقال له : " وا لله يا سيدى ليس عندك من الأمر شئ ، فإننا لوكنا على ظهور خيلنا ... وهربنا ... حمينا أنفسنا ... من محل الحرب ثم ننزل على بعد ونختفى فى مكان لا يعرفنا به أحد ،

وأما نزولنا فى محل المعركة فلا فائدة فيه " فركب على بالى فرسه وهم بالهرب ، فقال الغزالى : " هكذا يا على تذهب وتتركنى للعدو ؟ " وفى خلال هذا الحوار بينهما انجلى غبار المعركة ، وشاهد الناس بعضهم بعضًا ، وإذا بمنادى القائد العثمانى إياس آغا ينادى ويقول : " كل من جاءنا بالغزالى أو برأسه أو دلنا عليه أو على مكانه أعطيناه جميع ما يتمناه "(١٥٧) .

عندئذ لوى على بالى عنان فرسه نحو الميدان ، وعند وصوله وجد طائفة من الجند العثمانى ، فقال أنا أدلكم على مكانه ، فالتفوا حوله وقالوا أين هو ؟ قال : هو قريب من هنا ، ولكن لا أدلكم عليه حتى تعاهدونى على إعطائى ما أريد ؟ فأجابوه على ما يريد ؟ فقال : أريد أن أكون أمير صنجق ، وأنا حامل صنجقة ، وأننى من أبناء الشام ، ونحن للسلطان سليمان طائعون ، فقالوا : لك ما ترد ، فقادهم إلى الغزالى ، وهو ما زال واقفًا فى مكانه يدور ويقول : " هو هو " فأشار على بالى إليه وقال هذا هو الغزالى ، كان يقصد الغزالى بهذه الكلمات " هو هو " أن يحتال بها عليهم حتى لا يعرفونه حين رآهم يتجهون إليه(١٥٨) .

وقد اتهم الجند على بالى بالسخرية عليهم فأخذ من جانبه يؤكد بإنه الغزالى ، ولكنهم أنكروا عليه ذلك بقولهم بأن الغزالى كان يحاربنا بعدته الحربية ، فأخبرهم بما فعل من حيلة ، فطوقه الجنود وأمسكوا به وهو يهذى كالمجنون ويقول : " هو .. هو .. هو .. " فبادروه بالسؤال هل أنت الغزالى ؟ فقال لهم أنا رجل درويش عريان ومن أين لى أن أكون كالغزالى ، فكاد أن يطلقه الجنود ، فقد تحيروا ، وعلى بالى يحلف ويؤكد ويقول لا تصدقوه ، أنه هو الغزالى ، تعالوا أدلكم على لباسه المدفون وسلاحه وفرسه التى لا تزال فى الميدان ،وذهب بهم إلى المكان فوجدوا الدليل على صحة ما يقول على بالى عندما رأوا ثيابه وفرسه وسلاحه فى ذلك المكان ، لكن الغزالى كان مصرًا على إنكار ذاته .

ولما تحير الجند العثمانى فى أمره حسم على بالى الموقف وقال لهم : " أنا : لم رأسه وأذهب به إلى إياس آغا فإنه يعرفه ، فإذا لم يكن هو فرأسى عوضًا عن

رأسه " ، وعندما وصلوا جميعًا إلى إياس آغا وأخبروه بالأمر طلب منهم إحضار الرأس حتى يراه بنفسه ، فأتوا به ووضعوه أمامه ، فتأمله ثم صرخ بالقول بأن هذا هو رأس الغزالى ، ولا مجال للشك به ، فحسم الأمر وطلب منهم الرجل الذى دلهم عليه ، فحضر على بالى إليه ، فخلع عليه خلعة ثمينة وعينه أمير صنجق كما طلب(١٥٩) .

وقد ذكر محمد فريد بك هذه القصة فى إيجاز حيث قال : " وقتل أغلب من كان معه وفر متنكرًا (الغزالى) لكن خانه بعض إتباعه (على بالى) وسلمه إلى الوزير فرحات باشا فقتله ، وأرسل رأسه إلى أسطنبول "(١٦٠) .

وهناك قول آخر وهو أنه عندما انكسر الغزالى فى المعركة التى سبق ذكرها هرب إلى حماه وتبعه الجيش العثمانى ، ففر من حماه حتى دخل دمشق واعتصم بها، فدارت معركة بين الجيش العثمانى والجيش الشامى خارج مدينة دمشق على القابون ، فقتل فى هذه المعركة نحو عشرة آلاف جندى ، وقيل أكثر ، ففى نهاية المعركة انكسر الغزالى بجيشه الشامى على يد الجيش العثمانى ، واستطاع إياس آغا إفساد ثورته(١٦١) ، وقد تمكن الجيش العثمانى من القبض عليه أثناء المعركة ، فقتلوه وحزت رأسه وأرسلت إلى السلطان بأسطنبول مع رؤوس كثير من أنصاره وأعوانه(١٦٢) ، كهدية للسلطان سليمان وقد وصل إليه فى السادس من شهر فبراير سنة ١٥٢٠م ، فى حالة تعفن شديد ورائحة كريهة(١٦٣) .

وفى رواية أخرى قيل قتل الغزالى بيد القوات العثمانية التى تعقبته أثناء فراره للالتجاء إلى عشيرة عنزة المشهورة لدى العرب قبل أن يصل إليها(١٦٤) .

وقيل أن الغزالى الطاغى الباغى قطع رأسه من قبل الوزير فرحات باشا وجنوده ، الذى أمره السلطان بأن يرافق الحملة للإشراف عليها ، وأرسل بها إلى السلطان سليمان فى أسطنبول بعد أن قطع جسده تحت سيوف الانكشارية فى ساحة المعركة فى ٧ / ٢ / ٩٢٧هـ الموافق ١٢ / ١٢ / ١٥٢٠م ، فكفى الله السلطان العثمانى أمره ، ودرأ عن المسلمين شر فتنته(١٦٥) .

يقول محمد كرد علي : لما دارت الدائرة على جان بردى الغزالى وانكسر هو وجيشه أمام الجيش العثماني ، تشتت جيشه من حوله ، فقتله خازن أمواله ، وجاء برأسه إلى القائد العثمانى ، فذهب هو ودولته الموهومة فلم ينل الشام ولم ينل الشام منه إلا الضغط والشدة بعد تمرده ، الذى أضر به الشام ومزق كلمته(١٦٦) .

وعندما أرسل إياس برأسه إلى السلطان سر لذلك ، وأرسل إلى إياس آغا يشكره على ما فعل ، وأمره بأن يتولى حكم الشام ، وعدم إيذاء رعايا بلاد الشام ، وأقامة الحدود وتطبيق الشريعة على الوجه الشرعى وإقامة العدل فى أحكامه مع أهل الشام(١٦٧) .

وهكذا انتهت حركة الغزالى فى الشام بالفشل ، وعاد الشام مرة ثانية إلى الحكم العثمانى ، بعد أن استوعبت الدولة العثمانية الدرس ، فغيرت نظام الشام من ولاية واحدة إلى أربع ولايات ، يقوم بحكم كل ولاية منها واليًا مستقل عن الآخر وهى (حلب ، ودمشق ، وصيدا ، وطرابلس)(١٦٨) على أن ترتبط هذه الولايات ارتباطًا كليًا بالسلطان العثمانى فى أسطنبول فى كل قضاياها وأمورها الداخلية والخارجية(١٦٩) .

* * *

وهكذا استطاعت الدولة العثمانية أن تنهى ثورة الغزالى وتسكنها وتستعيد حكم الشام الذى كاد أن يفلت من قبضتها ، وأن يعكس أحلام الشاه الذى كان يرقب ثورة الغزالى فى مدينة قيسرى إذ لو نجح الغزالى فى مهمته لانقض إسماعيل الصفوى بجنوده إلى جانبه ضد عدوهم المشترك (الدولة العثمانية) للأخذ بثأره فى موقعة جالديران ، ولكن فشل الغزالى اضطر الصفوى إلى تهنئة السلطان سليمان الأول بنجاحه فى معركة الشام والقضاء على خصمه(١٧٠) .

وبذلك فشل التحالف الصفوى المملوكى لقوة الدولة العثمانية(١٧١) .

وكان مدة ولاية جان بردى الغزالى على الشام ثلاث سنين وسبعة أشهر زال حكمه وكأنه لم يكن(١٧٢) .

هوامش

(١) عبد الجواد صابر إسماعيل : ولاية خاير بك على مصر ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، مطبعة الحسين الإسلامية ، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م ، ص ٥ ، ٦ .

(٢) محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، دار التراث ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ص٨٧ .

(٣) محمد بن أحمد ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م ، ص١٩٠ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ .

، عبد الجواد صابر إسماعيل : المرجع السابق ، ص ٦ - ٧ .

(٤) قطب الدين النهروالى : الإعلام باعلام بيت الله الحرام ، طبع مدينة غتنقه ، بمطبعة المدرسة المحروسة ، ١٢٧٥هـ ، ص ٢٧٦ .

، جار الله بن فهد المكى : الجواهر الحسان فى مناقب السلطان سليمان بن عثمان ، مخطوط ورقة ٤٥ .

، أحمد زينى دحلان : الفتوحات الإسلامية ، القاهرة ، الناشر : مؤسسة الحلبى وشركاه للنشر والتوزيع ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م ، ج٢ ، ص١٤٠ .

، رأفت الشيخ : تاريخ العرب الحديث ، القاهرة ، الناشر : عين الدراسات الإنسانية والاجتماعية ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م ، ٢٣ .

(٥) محمد ابن أبى السرور : المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية ، مخطوط ، محفوظ بالمكتبة الوطنية بباريس رقم ١٦٢٣ ، وتوجد منه نسخة بمركز البحث العلمى ، ورقة ١٠ .

، قطب الدين النهروالى : المصدر السابق ، ص٢٧٦ - ٢٧٧ .

، أحمد زينى دحلان : المصدر السابق نفسه .

(٦) البيره : قلعة حصينة بين حلب والثغور العثمانية ، انظر : ابن زنبل أحمد الرمال : آخرة المماليك واقعة السلطان الغورى مع السلطان سليم العثمانى ، تحقيق عبد المنعم عامر ، ص١٩.

(٧) ابن زنبل : المصدر السابق .

(٨) محمد عبد اللطيف البحراوى : المرجع السابق ، ص٨٦ .

(٩) جار الله بن فهد المكى : المصدر السابق نفسه .

(١٠) جار الله بن فهد المكى : المصدر السابق ، ورقة ٤٨ .

، محمد بن أبى السرور : المصدر السابق نفسه .

، قطب الدين النهروالى : المصدر السابق ، ص٢٧٧ .

، إبراهيم بك حليم : التحفة الحليمية فى تاريخ الدولة العلية ، الطبعة الأولى ، مطبعة عموم الأوقاف ، ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م ، ص ٨٢ .

، عمر بن عبد العزيز عمر : تاريخ المشرق العربى ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، ص٧٤ .

(١١) حسين لبيب : تاريخ الأتراك العثمانيين ، القاهرة ، مطبعة الواعظ مصر ، ١٢٣٥هـ / ١٩١٧م ، ج٢ ، ص٥١ .

(١٢) جار الله بن فهد المكى : المصدر السابق نفسه .

، محمد بن أبى السرور : المصدر السابق نفسه .

، إبراهيم بك حليم : المصدر السابق نفسه .

، عمر عبد العزيز عمر : المرجع السابق نفسه .

(١٣) ابن زنبل : المصدر السابق، ص٢٢

، عمر عبد العزيز عمر : المرجع السابق ، ص٢٢ .

(١٤) ابن زنبل : المصدر السابق نفسه .

، عمر عبد العزيز عمر : المرجع السابق ، ص٧٤ - ٧٥ .

(١٥) عمر عبد العزيز عمر : المرجع السابق ، ٧٤ - ٧٥ .

، ابن زنبل : المصدر السابق ، ص٢٢ ، ٢٣ .

، حسن لبيب : المصدر السابق نفسه .

(١٦) جار الله بن فهد : المصدر السابق نفسه .

، محمد بن أبى السرور البكرى : المصدر السابق نفسه .

، قطب الدين النهروالى : المصدر السابق نفسه .

. إبراهيم حليم بك : المصدر السابق نفسه .

(١٧) الجلبان : الجنود المجلوبة بالشراء للحرب كلهم من مشتريات السلطان الغورى بماله الخاص مدربين على كافة أنواع الحرب والفروسية . انظر : ابن زنبل : المصدر السابق ، ص٢٦ .

(١٨) القرانيص : هم جند المماليك قديمو الهجرة بالديوان أصحاب الأرزاق الكبيرة (الرواتب) وهم فى منزلة أمراء الخمسوات . انظر : ابن زنبل : المصدر السابق ، ص ٢٨ .

(١٩) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٦ .

(٢٠) قطب الدين النهروالى : المصدر السابق ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

، محمد بن أبى السرور البكرى : المصدر السابق نفسه .

، أحمد زينى دحلان : المصدر السابق ، ص ١٥١ .

، عبد العزيز سليمان نوار : تاريخ الشعوب الإسلامية ، بيروت ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٧٣ ، ص٨٩ .

Stanford Show, History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, Cambridge, London, 1976, p. 84.

(٢١) قطب الدين النهروالى : المصدر السابق ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

، محمد بن أبى السرور البكرى : المصدر السابق ، ص١٥١ .

Stanford Show, Ibid.

، عبد العزيز سليمان نوار : المرجع السابق نفسه .

(22) Stanford Show, Ibid.

(٢٣) قطب الدين النهروالى : المصدر السابق نفسه .

، محمد بن أبى السرور البكرى : المصدر السابق نفسه .

Lewis, B, Pellat, Ch., and Schacht : The Encyclopaedia of Islam. New Edition, Vol,II . E. J. Brill, Leiden, 1965, p. 1042.

(٢٤) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص١٥ .

(٢٥) محمد بن أبى السرور البكرى : المصدر السابق نفسه .

، ابن زنبل : المصدر السابق ، ص٢٨ ، ٢٩ .

، جار الله بن فهد : المصدر السابق ، ورقة ٤٨ .

، قطب الدين النهروالى : المصدر السابق ، ص٢٨٧ .

Lewis, B, Pellat, Ch., and Schacht : op. cit, p, 1042.

، السيد عبد المؤمن السيد أكرم : أضواء على تاريخ توران ، مكة ، مطبعة رابطة العالم الإسلامى ، ص١٧٤ .

، فيليب حتى وآخرون : تاريخ العرب ، الطبعة السابعة ، بيروت ، دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٦م ، ص ٧٩٧ .

(٢٦) عمر عبد العزيز عمر : المرجع السابق ، ص٧٦ .

(٢٧) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٢٨) محمد بن أبى السرور البكرى : المصدر السابق نفسه .

، جار الله بن فهد : المصدر السابق نفسه .

، فيليب حتى وآخرون : المصدر السابق نفسه .

، السيد عبد المؤمن السيد أكرم : المرجع السابق نفسه .

(٢٩) عمر بن عبد العزيز عمر : المرجع السابق نفسه .

(٣٠) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص ٣٤ .

(٣١) محمد بن أبى السرور البكرى : المصدر السابق .

، جار الله بن فهد : المصدر السابق نفسه .

، قطب الدين النهروالى : المصدر السابق نفسه .

، فيليب حتى وآخرون : المرجع السابق .

Stanford Show, op. cit., p. 84.

، السيد عبد المؤمن السيد أكرم : المرجع السابق نفسه .

(٣٢) قطب الدين النهروالى : المصدر السابق ، ص ٢٧٩ .

، محمد بن أبى السرور البكرى : المصدر السابق نفسه .

V . J. Parry : A Hisory of the Ottoman Empire to 1730, Cambridge,London, New York, p. 75.

، أحمد زينى دحلان : المصدر السابق ، ص١٤١ .

، محمد كمال الدسوقى : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٧٦ ، ص ٥١ .

(٣٣) أحمد زينى دحلان : المصدر السابق ، ص ١٤٢ .

(٣٤) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص ٣٥ ، ٣٦ .

(٣٥) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص٤٠ .

(٣٦) قطب الدين النهروالى : المصدر السابق ، ص ٢٧٩ - ٢٨٠ .

، محمد بن أبى السرور البكرى : المصدر السابق نفسه .

V . J . Parry : op. cit, p. 75.

، أحمد زينى دحلان : المصدر السابق ، ص ١٤١ - ١٤٢ .

، محمد كمال الدسوقى : المرجع السابق نفسه .

(٣٧) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص٣٦ ، ٤٢ .

، ابن إياس : المصدر السابق ، ص ٤٣ - ٤٥ .

، عبد الجواد صابر إسماعيل : المصدر السابق ، ص ٦ - ٧ .

(٣٨) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص٣٦ .

(٣٩) أحمد عزت عبد الكريم : التقسيم الإدارى فى العهد العثمانى ، حوليات كلية الآداب ، المجلد الأول مايو سنة ١٩٥١م ، القاهرة ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، ١٩٥١م ، ص١٦٥ .

(٤٠) إبراهيم خليل أحمد : تاريخ الوطن العربى فى العهد العثمانى ، ١٥١٦ - ١٩١٦ م ، الموصل مدير مطبعة الجامعة ، ص٣٥ - ٣٦ .

(٤١) قطب الدين النهروالى : المصدر السابق ، ٢٨٠ - ٢٨١ .

V . J . Parry : op. cit. p. 75 - 76 .

، كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، الطبعة السادسة ، بيروت دار العلم للملايين ، ١٩٧٤م ، ص ٤٤٨ ، ٤٤٩ .

، عمر عبد العزيز عمر : المرجع السابق ، ص ٧٧ .

، محمد أسعد طلس : تاريخ العرب ، بيروت ، دار الأندلس ، ص ١١٠ - ١١١ .

(٤٢) قطب الدين النهروالى : المصدر السابق نفسه .

، محمد بن أبى السرور البكرى : المصدر السابق ، ورقة ١٢ .

(٤٣) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨٥م ، ص١١٣ .

(٤٤) عبد الجواد صابر إسماعيل : مصر تحت الحكم العثمانى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، مطبعة الحسين الإسلامية ، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م ، ص٢٨ .

(٤٥) قطب الدين النهروالى : المصدر نفسه .

، محمد بن أبى السرور البكرى : المصدر السابق نفسه .

(٤٦) بسام العسيلى : فت الحرب الإسلامى فى العهد العثمانى ، بيروت ، الناشر : دارالفكر ، ج٥ ص ١١٧ .

(٤٧) نيقولاى ايفانوف : الفتح العثمانى للأقطار العربية١٥١٦ - ١٥٧٤م ، نقله إلى العربية، يوسف عطا الله ، الطبعة الأول ، بيروت ، الناشر ، دار الفارابى ، ١٩٨٨ ، ص٧٧ .

(٤٨) محمد قطب الدين النهروالى : المصدر السابق ، ص ٢٨٢ .

، محمد بن أحمد ابن إياس ، المصدر السابق ، ص ٢٠٨ .

(٤٩) عبد الجواد صابر إسماعيل : ولاية خاير بك على مصر ، ص ٧١ .

(50) Ismail Hami Daui Danismend : Izahli Osmanli Tarihi Kronolo Jisi, Turkiye Yeylnevi, Istanbul, p. 66.

، ابن إياس : المـ ـدر السابق ، ص٢٠٨ .

(٥١) ابن زنبل أحمد الرمال : آخرة المماليك ، واقعة السلطان الغورى مع السلطان سليم العثمانى ، تحقيق : عبد المنعم عامر ، ص١٥٤ .

، كامل باشا : تاريخ سياسى دولت عليه عثمانية ، مطبعة أحمد أحان ، ١٣٢٧ هـ ، ج١، ص١٦٣ .

، فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٥٩م ، ج٢ ص ٣٠٧ .

، أحمد عزت عبد الكريم : دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، بيروت دار النهضة العربية ١٩٧٠م ، ج١٢ ، ص١١٠ ، عمر سليم إسكندر : تاريخ مصر من الفتح العثمانى إلى قبيل الوقت الحاضر ، راجعه الكبتن أ . ج . سفدج ، القاهرة ، الناشر : مكتبة مدبولى ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، ص١١.

، إبراهيم شحاته حسن : أطوار العلاقات المغربية العثمانية ، الإسكندرية ، الناشر : منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٨١م ، ص٩٧ .

(52) Antony Bridge : Suleman the Magnificent, Scourge of Heaven, Granada, London, p. 40.

، عبد الجواد صابر إسماعيل : المرجع السابق ، ص٧١ .

(٥٣) بلاد المعرى : هى معرة النعمان وما حولها . وانظر : محمد بن طولون الصالحى الدمشقى: إعلام الورى بمن ولى نائبًا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، الطبعة الثانية ، دمشق ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، ص ٢٤٤ .

(٥٤) شمس الدين محمد ابن طولون : مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان ، حققه : محمد مصطفى ، القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، ١٣٨١هـ ١٩٦٢م ، ج٢ ، ص٨٢ ، ابن طولون : إعلام الورى ، ص٢٤٤ .

(٥٥) الفتح العثمانى للإقطار العربية ... ، ص٧٧ .

(٥٦) عبد الجواد صابر إسماعيل : المرجع السابق ، ص٧ .

(٥٧) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص١٥٤ .

(٥٨) ابن طولون : مفاكهة الخلان ، ج٢ ، ص٨٣ . ، ابن طولون : إعلام الورى ... ، ص٢٤٤ .

(٥٩) أحمد فؤاد متولى : الفتح العثمانى للشام ومقدماته ، القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٦ م ، ص٢٤٢ .

(٦٠) ابن إياس : المصدر السابق ، ص٣٨٢ ، نيقولاى ايفانوف : المرجع السابق ، ص ٧٧ - ٧٨ ، فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج٢ ، ص٣١١ .

(٦١) أحمد فؤاد متولى : المصدر السابق نفسه .

(٦٢) نيقولاى ايفانوف : المرجع السابق ، ص ٧٨ .

(٦٣) ابن طولون : مفاكهة الخلان ، ج٢ ، ص١٠١ ، ١٠٢ ، عبد الجواد صابر إسماعيل : المرجع السابق ، ص٧٣ ، ٧٤ .

(٦٤) ابن طولون : مفاكهة الخلان ، ج٢ ، ص١٠٢ .

(٦٥) عبد الجواد صابر إسماعيل : المرجع السابق ، ص٧٤ .

(٦٦) محمد كرد على : خطط الشام ، الطبعة الثالثة ، الناشر ، مكتبة النورى ، دمشق ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ، ص٢٢١ ، فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج٢ ، ص٣١١ ، عبد الوهاب بكر : الدولة العثمانية ومصر ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٣م ، ص١١

Antony Bridge : op. cit, p. 40.

(٦٧) أحمد متولى فؤاد : المصدر السابق ، ص١٤٥ ، كامل باشا : المصدر السابق نفسه .

(٦٨) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص ١٥٤ .

(٦٩) ابن طولون : مفاكهة الخلان ، ص١٢٣ .

(٧٠) ابن إياس : المصدر السابق ، ص٣٦٧ .

Lewis, B, Pellat, Ch., and Schach : op. cit., p. 1042.

(٧١) إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، الطبعة الأولى ، مصر ، طبع بالمطبعة الأ ـ ية ببولاق ، ١٣١٢هـ ، ج١ ، ٥٣٣ .

، أحمد رشيد : خريطة لى ورسملى مكمل تاريخ عثمانى ، استانبول ، كتـاب خانة تفيـض ١٣٢٧هـ ، ج١ ، ص٢٣٧ ، ابن زنبل : المصدر السابق نفسه .

Ismail Hami Daui Danismend : op. cit., p. 66.

، عبد الجواد صابر إسماعيل : المرجع السابق ، ص٧٤ ، بسام العسـيلى : المرجـع السـابق ، ص١٢١ .

(٧٢) أحمد فؤاد متولى : المصدر السابق نفسه .

(٧٣) ابن إياس : المصدر السابق ، ص ٣٨٢ ، عبد الجواد صـابر إسماعيل : المرجـع السـابق ، ص ٧٤، ٧٥ .

(٧٤) إسماعيل سرهنك : المصدر السابق نفسه .

(75) Ismail Hami Daui Danismend : op. Cit., p. 66.

(٧٦) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص١٥٤ .

(٧٧) ابن زنبل : المصدر السابق نفسه .

(٧٨) ابن زنبل : المصدر السابق نفسه .

Philip K. Hitti : Syria, A Sort History, London, Macmillan, Co , Ltd. 1959, p. 215.

، عبد الجواد صابر إسمـاعيل ، المرجـع السـابق نفسـه ، بسـام العسـيلى : المرجـع السـابق ، ص١٢١ .

، محمود شاكر : التـاريخ الإسـلامى العهـد العثمـانى ، الطبعـة الثانيـة ، بـيروت ، المكتـب الإسلامى ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ، ج٨ ، ص١٠٤ .

(٧٩) إسماعيل سرهنك : المصدر السابق نفسه .

(٨٠) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة عنان محمود سلمان ، تركيا ، اسـتانبول ، منشورات مؤسسة الفيصل للتمويل ، ١٩٨٨م ، ج١ ، ص٢٦١ .

، محمد حرب : العثمـانيون فـى التـاريخ والحضـارة ، الطبعـة الأولى ، دمشـق دار القلـم ، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م ، ص ٩٠ .

(٨١) عبد الجواد صابر إسماعيل : المرجع السابق ، ص٧٥ .

(٨٢) ابن زنبل : المصدر السابق نفسه .

(٨٣) ابن طولون : أعلام الورى ... ، ص٢٥١ .

(٨٤) الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته ، ص ٢٤٣ .

(٨٥) ابن زنبل : المصدر السابق نفسه .

(٨٦) لا يعرف كيف وصل هذا الجاسوس إلى كاشان بعد أن وقع فى الأسر أثناء تجسسه فى مصر فربما سهل له الهرب من قبل والى مصر خاير بك أو أحد رجاله ، وربما استطاع الهرب بنفسه دون مساعدة من أحد ، وهو جاسوس على جانب كبير من الأهمية .

انظر : أحمد فؤاد متولى : المصدر السابق ، ص ٢٤٤ .

(٨٧) الشاه إسماعيل الصفوى .

(٨٨) وثيقة رقم ٥٤٩ ، محفوظة بأرشيف طوبقبوسراى ، بأسطنبول .

، أحمد رشيد : المصدر السابق ، ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

(٨٩) محمد حرب : المرجع السابق ، ص٩٠ ، أحمد رشيد : المصدر السابق ، ص ٢٣٧ .

(٩٠) وثيقة رقم (٦٣٦٢) محفوظة بأرشيف طوبقبوسراى باسطنبول .

(٩١) عبد الجواد صابر إسماعيل : المرجع السابق ، ص ٧٣ .

(92) Ismail Hami Daui Danismend : op. cit., p. 66.

، ابن زنبل : المصدر السابق ، ص١٥٤ ، ١٥٥ .

Lewis, B, Pellat, Ch., and Schacht : op. cit., p. 1042.

، إسماعيل سرهنك : المصدر السابق نفسه ، بسام العسيلى : المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

، اندرى كلو : سليمان القانون مثل التمازج بين الهوية والحداثة ، تعريب البشير سلامة بيروت ، دار الجيل ، ص ٧٢ .

، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق إحسان حقى ، الطبعة الثانية ، بيروت ، دار النفايس ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص١٩٩، يلماز: المصدر السابق ، ص ٢٦١ .

(٩٣) أمراء العشرات : هى امرة عشرة وفى الممالك الشامية تكون تولية العشرات عن النواب أكثر ، وإذا كتبت مراسيمهم عن الأبواب السلطانية ففى قطع الثلث . هكذا وردت . انظر : أبو العباس أحمد بن على القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، المطبعة الأميرية ، وزارة الثقافة والارشاد ، القاهرة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م ، ج١٢ ، ص١٩٧ - ٢٨١ .

، محمد قنديل البقلى : التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٣م ، ص٢٤٥ .

(٩٤) ابن إياس : المصدر السابق ، ص٣٦٧ - ٣٦٨ ، محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص١٩٩ ، بسام العسيلى : المرجع السابق نفسه .

(٩٥) محمد حرب : المرجع السابق ، ص١٤٦

(٩٦) ابن إياس : المصدر السابق ، ص٣٦٨ .

، عبد الجواد صابر إسماعيل ، المرجع السابق ، ص٧٦

(٩٧) ابن إياس : المصدر السابق ، ص٣٦٨ ، ٣٦٩ .

(٩٨) ابن إياس : المصدر السابق ، ص٣٧٣ ، ٣٧٥ .

، عبد الجواد صابر إسماعيل ، المرجع السابق ، ص ٧٥، أحمد فؤاد متولى : المصدر السابق ، ص٢٤٣ .

(٩٩) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص١٥٥ .

(١٠٠) وثيقة رقم ٥٤٦٩ محفوظة بأرشيف طوبقبو سراى بأسطنبول .

، أحمد رشيد : المصدر السابق ، ص٢٣٧ كامل باشا : المصدر السابق ، ص١٦٤ .

(١٠١) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص١٥٧ - ١٥٨ .

(١٠٢) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص١٥٨ .

(103) Ismail Hami Daui Danismend : op. cit., p. 66.

(١٠٤) ابن طولون : إعلام الورى ... ، ص ٢٤٧

، ابن طولون : مفاكهة الخلان ... ، ص١٢٣ .

(١٠٥) ابن طولون : مفاكهة الخلان ... ، ص١٢٣، عبد الجواد صابر إسماعيل : المرجع السابق ، ص ٧٦ .

(١٠٦) ابن طولون : مفاكهة الخلان ... ، ص ١٢٣ .

، ابن طولون : إعلام الورى ... ، ص٢٤٧ .

(107) Antony Bridge : op, cit, p. 40.

، عبد الجواد صابر إسماعيل : المرجع السابق ، أحمد عزت عبد الكريم : دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، ص١١١ .

(١٠٨) ابن طولون : إعلام الورى ... ، ص٢٤٧ Antony Bridge : Ibid.

، أحمد فؤاد متولى : المصدر السابق ، ص ٢٤٦ .

(١٠٩) أحمد فؤاد متولى : المصدر السابق ، ص ٢٤٨ .

(١١٠) وثيقة رقم ٦٣٦٢ ، محفوظة بأرشيف طوبقبو سراى بأسطنبول .

(١١١) ابن طولون : إعلام الورى ... ، ص٢٤٧ Antony Bridge : Ibid.

، أحمد فؤاد متولى : المصدر السابق ، ص٢٤٦ .

(١١٢) ابن طولون : إعلام الورى ... ص٢٤٨ Antony Bridge : Ibid.

(113) Ismal Hami Daui Danismend : op. cit., p. 66.

، نيقولاى أيفانوف : المرجع السابق ، ص٧٨ .

(١١٤) محمد بن أبى السرور البكرى : المصدر السابق ، ورقة ١٥ ، ابن زنبل : المصدر السابق، ص ١٥٦ .

، ابن إياس : المصدر السابق ، ص ٣٦٨ ، فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ص٣١١ .

، نيقولاى أيفانوف : المرجع السابق نفسه ، محمد كرد على : المصدر السابق ، ص٢٢٢ .

(١١٥) ابن إياس : المصدر السابق نفسه Philip K. Hitti : op. cit., p. 215.

، ابن زنبل : المصدر السابق نفسه ، أحمد رشيد : المصدر السابق ، ص٣٨ .

، محمد كرد على : المصدر السابق نفسه، أحمد زينى دحلان : المصدر السابق ، ص ١٥١.

(١١٦) محمد كرد على : المصدر السابق نفسه .

Lewis, B, Pellat, Ch., and Schacht : op. cit., p. 1042.

(١١٧) ابن طولون : إعلام الورى ... ، ص٢٤٨ ، ابن إياس : المصدر السابق ، ص ٣٣٦ .

، ابن زنبل : المصدر السابق ، ص ١٥٦ .

(١١٨) نيقولاى ايفانوف : المرجع السابق نفسه ، اندرى كلو : المرجع السابق ، ص٨٢ .

(١١٩) ابن زنبل : المصدر السابق نفسه .

Ismail hami Daui Danismend : op. cit., p. 66 .

(١٢٠) ابن طولون : إعلام الورى ... ، ص٢٤٨ ، محمد كرد على : المصدر السابق نفسه .

(١٢١) عبد الجواد صابر إسماعيل : المرجع السابق ، ص ٧٧ ، محمد كرد على : المصدر السابق نفسه .

(١٢٢) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص ١٥٦ ، كامل باشا : المصدر السابق ، ص١٦٣

(١٢٣) ابن إياس : المصدر السابق ، ص٣٦٨ Antony Bridge : op. cit., p. 40.

(١٢٤) ابن زنبل : المصدر السابق نفسه .

، ابن إياس : المصدر السابق ، ص٣٨٢ ، محمد كرد على : المصدر السابق نفسه .

، أحمد رشيد : المصدر السابق ، ص٢٣٨ Antony Bridge : Ibid, p. 41.

(١٢٥) أحمد تشلبى القرمانى : تاريخ سلاطين آل عثمان ، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابى ، الطبعة الأولى ، دمشق ، دار البصائر ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، ص٤٠ .

، جار الله بن فهد المكى : المصدر السابق ، ص ٦٥ ، إسماعيل سرهنك : المصدر السابق .

، محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٩٩، بسام العسيلى : المرجع السابق ، ص١٢٢.

(١٢٦) ابن إياس : المصدر السابق ، ص ٣٧٧

، أحمد عزت عبد الكريم : دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، ص١١ .

(١٢٧) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص١٥٦ ، أحمد رشيد : المصدر السابق ، ص٢٣٤ .

، ابن طولون : إعلام الورى ، ص ٢٥٠ . Antony Bridge : op. cit., p. 41 .

، اندرى كلو : سليمان القانونى ... ، ص٧٢ .

(١٢٨) ابن طولون : المصدر السابق ، ص ٢٤٩ .. Antony Bridge : Ibid

(١٢٩) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص١٥٧ .

(١٣٠) أحمد فؤاد متولى : المصدر السابق ، ص ٢٥٢ .

(١٣١) وثيقة رقم (١٠٧٣٤) محفوظة فى أرشيف طوبقبو سراى بإسطنبول .

(١٣٢) ابن إياس : المصدر السابق ، ص١٧٧ ، ابن طولون : المصدر السابق ، ص ٢٥٠ .

، ابن زنبل : المصدر السابق نفسه ، أحمد عزت بعد الكريم : المرجع السابق نفسه .

(١٣٣) ابن طولون : المصدر السابق نفسه .

(١٣٤) ابن إياس : المصدر السابق ، ص ٣٧٧ ، ابن زنبل : المصدر السابق نفسه .

Antony Bridge : Ibid.,

(١٣٥) ابن زنبل : المصدر السابق نفسه .

(١٣٦) ابن إياس : المصدر السابق ، ص ٣٨٢ ، ابن زنبل : المصدر السابق نفسه .

(١٣٧) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص ١٥٨ Antony Bridge : op. cit., p. 41.

(١٣٨) ابن طولون : إعلام الورى ... ، ص٢٥٢ .

(١٣٩) القرمانى : المصدر السابق نفسه .

(١٤٠) ابن زنبل : المصدر السابق نفسه .

(١٤١) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص ١٥٩ .

(١٤٢) ابن زنبل : المصدر السابق نفسه . Antony Bridge : Ibid.

(١٤٣) ابن زنبل : المصدر السابق نفسه .

(١٤٤) محمد بن أبى السرور البكرى : المصدر السابق ، ورقة ١٥ ، أحمد رشيد : المصدر السابق نفسه .

(١٤٥) شهاب الدين أبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى : معجم البلدان ، طبع بيروت ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م ، ج٤ ، ص٢٩٠ .

(١٤٦) ابن زنبل : المصدر السابق نفسه ، أحمد رشيد : المصدر السابق نفسه .

(١٤٧) جار الله بن فهد المكى : المصدر السابق ، ورقة ٦٥ ، كامل باشا : المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

(١٤٨) ابن زنبل : المصدر السابق نفسه .

(١٤٩) ابن إياس : المصدر السابق ، ص ٣٨٢ ، اندرى كلو : المرجع السابق ، ص٧٢ .
، محمد كرد على : المصدر السابق ، ص ٢٢٢ .

Lewis, B, Pellat, Ch., and Schacht : op. cit., p. 1042.

(١٥٠) ابن إياس : المصدر السابق نفسه ، ابن طولون : إعلام الورى ... ، ص ٢٥٢ .
، محمد بن أبى السرور البكرى : المصدر السابق ، ورقة ١٥، جار الله بن فهد المكى : المصدر السابق ، ورقة ٦٥ .

، ابن زنبل : المصدر السابق نفسه ، أحمد رشيد : المصدر السابق ، ص ٢٣٩ .

Lewis, B, Pellat, Ch., and Schacht : op. cit., p. 1042.

(١٥١) كان شابًا شجاعًا اسمه (على بالى) رباه الغزالى منذ صغره ، وهو ليس جركسيًا ، فلما رآه الغزالى شجاعًا قربه منه حتى جعله حامل لوائه وكان يقول : " إن عليًا هذا عندى أعز من ولدى " . انظر ابن زنبل : المصدر السابق ، ص٦٠ .

(١٥٢) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص١٦٠ – ١٦١ .

(١٥٣) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص ١٦١ ، نيقولاى ايفانوف : المرجع السابق ، ص ٧٨.

(١٥٤) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص ١٦١ – ١٦٢ .

(١٥٥) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص١٦٢ . Antony Bridge : op. cit. p. 41 .

(١٥٦) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص ١٦٢ – ١٦٣ .

(١٥٧) تاريخ الدولة العلية ، ص ١٩٩ ، وافقه : نيقولاى ايفانوف : المرجع السابق نفسه .

Ismail Hami Daui Danismend : op. cit., p. 66 - 67 .

(١٥٨) ابن إياس : المصدر السابق ، ص ٣٨٢ ، اندرى كلو : المرجع السابق نفسه .

(١٥٩) ابن إياس : المصدر السابق نفسه ، ابن طولون : إعلام الورى ... ، ص٢٥٢

، محمد بن أبى السرور البكرى : المصدر السابق ، ورقة ١٥ ، جار الله بن فهد المكى : المصدر السابق ، الورقة ٦٥ ، إبراهيم بك حليم : المصدر السابق ، ص ٨٥

(160) Antony Bridge : op. cit. p. 41.

(161) Ismail Hami Daui Danismend : op. cit., p. 67.

(١٦٢) بجوى إبراهيم افندى : أسطنبول ، طبعت عن طريق أوفست عن الطباعة القديمة ، الناشر : مكتبة اندرون ، ص٦٧ .

، رمضان : الرسالة الفتحية الرادوسية ، مخطوط ، محفوظ بالمكتبة الوطنية بباريس تحت رقم ١٦٢٢ ورقة ٥٧ ، القرمانى : المصدر السابق ، ص ٤٠ .

، محمود شاكر : المرجع السابق ، ص ١٠٤ .

(١٦٣) خطط الشام ، ج٢ ، ص ٢٢٣ .

Ismail Hami Daui Danismend : op. cit., p. 67.

Philip K. Hitti : Syria, A Sort History , London , Macmillan, Co. Ltd. 1959, p. 215.

(١٦٤) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص ١٦٤ ، القرمانى : المصدر السابق ، ص ٤١ .

، إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج١ ، ص ٥٣٣ .

، أحمد عزت عبد الكريم : دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، ص ١٢٨ .

، اندرى كلو : المرجع السابق نفسه .

(١٦٥) عبد الجواد صابر إسماعيل : ولاية خاير بك ... ، ص ٨٠ .

، محمد كرد على : المرجع السابق نفسه .

(١٦٦) نيقولاى ايفانوف : المرجع السابق ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

(١٦٧) اندرى كلو : المرجع السابق نفسه .

(١٦٨) محمد حرب : المرجع السابق ،ص ١٤٦ .

(١٦٩) ابن إياس : المصدر السابق ، ص٣٨٢ .

(١٧٠) محمد حرب : المرجع السابق ، ص ٤٧ .

الغزوات الاستعمارية الأسبانية والبرتغالية
فى الشمال الأفريقى
(٨١٨ هـ / ١٤١٥ - ٩١٧ هـ / ١٥١١ م)

د . نبيل عبد الحى رضوان(*)

أصبحت كلمة Reconquista ومعناها الإسترجاع ذات مدلول تاريخى خاص فى تاريخ الأندلس الإسلامية(١) ، فقد بذلت أسبانيا النصرانية جهداً كبيرا لإنتزاع القواعد الأندلسية ، وبدأ هذا الإسترداد منذ وقت مبكر ، منذ قامت المملكة النصرانية الشمالية عقب الفتح بقليل فى حمى الجبال الشمالية ، واشتد ساعدها بسرعة ، واستطاعت منذ منتصف القرن الثانى هجرى - الثامن الميلادى أن توسع حدودها جنوباً ، وكانت أولى القواعد الإسلامية التى سقطت هى «لُك» فى أقصى الشمال الغربى لشبه الجزيرة الإيبيرية ، (واسترقه) فى شمال نهر دويره(٢) ، (وسمورة وشلمنقة وشقوبية وابله) فى الناحية الأخرى من دويرة ، و لم تتأثر الأندلس المسلمة كثيراً بفقد هذه القواعد الأولى لقربها من المملكة النصرانية(٣) .

ولكن الأندلس شعرت بالخطر الحقيقى يداهمها بعد أن استطاع النصارى عبور نهر التاجه(٤) وخاضوا معارك قوية ، واستولوا على طليطلة(٥) ثالثة القواعد الأندلسية هذا وأن قيام المرابطين(٦) قد وضع حداً مؤقتاً لتقدم النصارى فى وسط شبه الجزيرة وشرقها . ومع ذلك قامت موجة جديدة من الغزو النصرانى اجتاحت شمال شرق الأندلس ، فسقطت سرقسطة(٧) ٥١٢ هـ / ١١١٨ م ثم تلتها بقية قواعد الثغر الأعلى (ردة وإفراغة ومكناسة وطرطوشة)(٨) ٥٤٣ - ٥٤٤ هـ / ١١٤٨ - ١١٤٩ م وفى نفس الوقت بدأ سقوط القواعد الإسلامية فى غرب شبه الجزيرة فسقطت أشبونة وشنتره وشنترين(٩) فى يد النصارى ٥٤٢هـ/ ١١٤٧ م ،

(*) أستاذ مساعد بقسم التاريخ الإسلامى-كلية الشريعة والدراسات الإسلامية-جامعة أم القرى.

وسقطت باجة(١٠) بعد ذلك بقليل ٥٥٦ هـ /١١٦١ م ثم تلتها يابرة(١١) فى ٥٦١ هـ / ١١٦٥ م(١٢) .

وكان أن توقفت حركة الإسترداد النصرانى ، إثر توطيد الموحدين سلطانهم فى الأندلس مدة من الزمن ، لكنها لم تلبث أن عادت وازدادت إستفحالاً بعد إضمحلال الموحدين فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى ، وذلك لعدم وجود دولة إسلامية قوية تستطيع إنقاذ الأندلس من خطر تساقط قواعدها . وفى ذلك الوقت العصيب على المسلمين اتحدت نوايا الممالك الأسبانية النصرانية على مهاجمة الإمارات الإسلامية(١٣) ، وبذلك اجتاحت الأندلس موجة عاتية من الغزو النصرانى وتساقطت قواعد الأندلس التالدة شرقاً وغرباً فى يد النصارى ، فسقطت جزيرة ميورقة(١٤) ومدينة بياسة وأبدة(١٥) ثم مدينة قرطبة(١٦) سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٦ م ، وإستجه والمدور وبلنسية(١٧) سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨ م ، ودانية ولقنت وأريولة وقرطاجنة ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م وشاطبه ومرسيه وجيان ثم إشبيلية ٦٤٦ هـ /١٢٤٨ م(١٨) ، كذلك اجتاحت غرب الأندلس ، نفس الموجة ، فسقطت بطليوس (١٩) وماردة وشلب وشنتمرية ولبله ولبه ثم سقطت جزيرة قادس وتلتها مدينة شريش . وهكذا لم يكد يحل منتصف القرن السابع الهجرى الثالث عشر ميلادى حتى كانت ولايات الأندلس الشرقية والوسطى كلها قد سقطت فى يد أسبانيا النصرانية بحيث لم يبق للدولة الإسلامية بالأندلس سوى بضع ولايات صغيرة فى طرف شبه الجزيرة الإيبيرية الجنوبى (٢٠) .

والواقع أن الكنيسة القشتالية قد لعبت دوراً بارزاً فى حشد طاقات الممالك النصرانية الشمالية ضد الأندلس ، ليستمر الصراع بين النصرانية والإسلام على مر القرون . وترتب على ذلك انتقال الحرب إلى العدوة المغربية(٢١) فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى ، وكانت امتداداً للفكرة الأساسية التى تطورت من تقدم قوات الممالك الشمالية فى شبه الجزيرة الإيبيرية نحو الجنوب

الأندلسى ، وتصورت تلك الممالك أن انتقال الحرب ضد المسلمين إلى المغرب يعنى متابعة للحملات الصليبية(٢٢) ونقل ميدان المعركة من أراضيهم وبالتالى إبعاد شبح الخطر عنهم .

وقد فكر الملك الأسبانى فرديناند قبل أن يتم إجلاء المسلمين عن الأندلس فى أن يعبر بأسطول إلى أفريقية ويغزو هنالك ويفتتح ، وقام أسطول قشتالة تحت قيادة أمير البحر ريموند بونفاشيوس بإحراز نصر على الأسطول المغربى سنة ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م بيد أنه لم يوفق إلى الإستفادة من هذا النصر نظراً لوفاة الملك الأسبانى(٢٣) .

كذلك وضع الفونسو العاشر فى السنوات التالية ٦٥٠ - ٦٥٢ هـ / ١٥٥٢- ١٥٥٤ م ترتيبات لغزو المغرب بموافقة كنيسة روما ، ولكن التخوف من هجوم أندلسى إسلامى معاكس أدى إلى تأجيل الحملة المذكورة للوقت المناسب(٢٤).

وعندما ازداد تردد تجار الحرب الأسبان على مدينة سلا (٢٥) ، وكثرت سفنهم أمام شاطئها ، وصارت أعدادهم كبيرة فيها عزموا على القيام بثورة سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م مستغلين إنشغال الناس بعيد الفطر ، واعملوا السيف فى أهلها وقتلوا رجالها وسبوا نسائها ونهبوا الأموال حتى تحكموا فى شئونها ، و لم يستطع السلطان يعقوب بن عبد الحق تخليصها من أيدى الأسبان إلا بصعوبة ، فأقام فيها داراً لبناء الأساطيل البحرية ومراكب الجهاد ، وجلب لها الأخشاب من غابات المعموره (٢٦) ، وكانت مدينة سلا ميناءً صغيراً ترسو فيه سفن تجارية أوربية ، وفيها تجهز سفن الجهاد الإسلامية للقيام بأعمال حربية على الشواطىء الاسبانية ، لكن هذه السفن كانت تعود لقضاء الشتاء فى الميناء واستطاعت سلا أن تنزل الضرر بالدول النصرانية وتسلطت عليها حتى قام الفونسو الحكيم سنة ٦٧٠ هـ / ١٢٦٣ م بالهجوم عليها واحتلالها . لكنه لم يقم بها طويلاً ، إذا فاجأها ملك الأسبان واستردها ففرت أعداد كبيرة منهم على السفن عائدين إلى قشتالة(٢٧) التى حملت على عاتقها استكمال إسقاط المدن الأندلسية .

أما هيبة الأساقفة ورجال الدين فقد عانت كثيراً من جراء الحروب المستمرة ضد المسلمين ، فكثيراً ماتولى الأساقفة القيادة ، ورضوا عن أعمال القسوة ، وترتب على ذلك أن تغلبت الوحشية على طباع الشعب ، ورجال الدين وأضفت على الأمة الأسبانية لوناً شديداً من الخشونة والقسوة حتى تحولت إلى نوع من الهمجية المطلقة تحت ستار شرف الفروسية والعاطفة الدينية(٢٨) .

وعلى صعيد آخر لم تستمر البرتغال خاضعة لأسبانيا ، فقد ثارت ضدها وانتصرت عليها فى معركة كبيرة فى تاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية ، تسمى معركة الجبروتية AL jabrrota سنة ٧٨٧ هـ / ١٣٨٥ م وهى المعركة التى ثبتت أسرة أفيس La casa de Avis فى عرش البرتغال وفصلتها نهائياً عن قشتالة وأفسدت كل هدف للوحدة الذى كان يحلم به ملوك قشتالة(٢٩) الذين رسموا تقليداً عسكرياً لخوض حرب صليبية حققت من خلالها إمبراطورية عبر البحار فى القرن العاشر الهجرى السادس عشر ميلادى ، وأحرزت عن طريقها الخبرة البحرية التى صارت هى الأساس للتحرك نحو إستيلاء أراضى عبر البحار ، ومن ثم أخذت بزمام المبادرة فى الحرب الصليبية فى العصور الحديثة .

وكانت كلمة غزو بالنسبة لأهل قشتالة تعنى تثبيت الوجود الأسبانى ، وضمان المراكز القوية وشراء الممتلكات من الشعوب المقهورة ، هذا الأسلوب الحربى عرف فى أسبانيا فى عصور سابقة وأعيدت تجربته فى شمال أفريقيا على الرغم من وجود موانع طبيعية حدت من إمكانيات نجاحه ، وذلك بسبب صعوبة تضاريس البلاد ، وقلة الغنائم ، إذ قدمت أفريقية القليل مما يجذب المحارب ، الذى كان هدفه فى ذلك الوقت الحصول على عائدات مادية بمجهوده بدلاً من الروحية، لذلك انخفض حماس الخدمة العسكرية لدى الأسبان فى أفريقية إنخفاضاً سريعاً(٣٠) .

* * *

وكان من الطبيعى أن تصبح البرتغال من أسبق ممالك الجزيرة الأيبيرية مقاومة للمسلمين بحكم الظروف التاريخية ، إذ تأخرت أسبانيا عنها بسبب إنشغالها فى تحقيق الوحدة الوطنية وفى حركة الإسترداد ضد المسلمين (٣١) .

وتؤلف البرتغال شريطاً ساحلياً طويلاً يمتد بمحازاة السواحل المغربية المطلة على المحيط الأطلسى من شبه جزيرة ايبيريا ، ويبلغ طول هذا الشريط نحو ثلاثمائة ميل وبه كثير من الموانىء العميقة المحمية ، وبذلك توفر لدى البرتغاليين الفرصة لبناء مجد بحرى(٣٢) ، خاصة وأنها تتمتع بموقع استراتيجى هام لوجودها على الطرق التجارية المؤدية إلى موانىء البحر المتوسط وشمال غرب أوربا ، مما جعلها أقرب إلى السواحل الإفريقية ، مما أعطاها أهمية تجارية واستراتيجية تجلت فى عاصمتها لشبونة التى غدت مركزاً لتجارة غرب إفريقية المستوردة إلى غرب أوربا. وهذا بدوره عاد على البرتغال بنتائج عظيمة إذ وفرت لها الأموال اللازمة التى ساعدت ملوك لشبونة على توحيد أجزاء البلاد الداخلية ودفعتهم فى الوقت نفسه إلى الإهتمام بالأساطيل البحرية وتشجيع التجارة مع الخارج والعمل على الوصول إلى التوابل لإحتكار تجارتها(٣٣) . وانشغل الملوك من أسرة أفيس فى ذلك ، فى خلال القرنين التاسع والعاشر الهجرى الخامس عشر والسادس عشر الميلادى(٣٤) . وهكذا أصبحت البرتغال نصيرة النصرانية وراعيتها ضد الإسلام ، كما استمرت الروح الصليبية مستمرة بل لقد أخذت تزدهر مكتسبة قوة على قوتها فى شبه الجزيرة الإيبيرية خلال الفترة المذكورة(٣٥) .

ولما كان المغرب بموقعه الجغرافى أقرب نقطة إلى غرب أوروبا ، وشبه جزيرة ايبيريا ، فضلا عن امتلاكه سواحل طويلة على المحيط الأطلسى ، فقد اتجهت إليه أنظار البرتغال والأسبان ، فأخذوا يخططون ويعملون على احتلال مناطق مختلفة من سواحله ، مستغلين فرصة أوضاع المغرب الداخلية السيئة بسبب ضعف السلطة المركزية فى فاس ، وظهور وحدات سياسية متعددة ، وما أعقب ذلك من انتشار للفوضى والإضطرابات وإختلاف الميول السياسية مما ترتبت عليه نتائج وخيمة على البلاد(٣٦) .

وترجع أصول حركة النزوح البرتغالى والأسبانى إلى ما حدث بين هاتين الدولتين من نزاع حول ملكية جزر كناريا التى اعتبرها الطرفان نقطة انطلاق وتوسع فى غرب أفريقية . ولأهمية هذه الجزر لم يشأ كل منهما التنازل عنها للآخر ، مما دفعهما إلى تحكيم البابا في روما ، الذى منح البرتغاليين بعد ذلك براءة تجعل الأماكن التى فتحت فى المناطق المجاورة وكذلك الشاطىء الأفريقى من نصيب التاج البرتغالى . وكان طبيعياً للسفن البرتغالية أثناء سيرها محاذية للسواحل المغربية فى إتجاه جزر كناريا وغربى أفريقيا أن تضطر إلى الوقوف ببعض المراكز المغربية للتزود منها أو للتبادل معها ، الأمر الذى جعل البرتغاليين والأسبانيين يطلعون على الكثير من شئون البلاد وأحوال الشعب المغربى وماكان عليه من انقسام داخلى لضعف السلطة فى فاس ، وعجزها إدارة الشئون العامة فى البلاد ، كذلك حدث وأن تعرضت بلاد المغرب فى أواخر القرن التاسع الهجرى الخامس عشر ميلادى لنكبات طبيعية تجلت فى الطاعون والمجاعة اللتين عمتا البلاد لا سيما المناطق الشمالية منها ، فوجد البرتغاليون فى ذلك فرصة سرعان ما استغلوها لاحتلال مركز هام فى شمال المغرب هو مدينة سبتة ٣٧) التى تتمتع بموقع استراتيجى لإشرافها على الطرق التجارية البحرية بين جنوب أوروبا وشمالها الغربى عبر مضيق جبل طارق . يضاف إلى ذلك مناجم الذهب التى طالما سمع البرتغال بوجودها بهذه المدينة المغربية(٣٨) .

وفى تلك المرحلة ظهر هنرى الملاح (٧٩٧ - ٨٦٥ هـ) / (١٣٩٤ - ١٤٦٠ م) الذى كان رجلاً مسيحياً متقشفاً نشطاً من شخصيات عصر النهضة البارزين ، جاء التزامه للكشف والإرتياد بغرض توسيع المعرفة الإنسانية لكنه كان يعبر عن تصميمه على حمل العلم المسيحى ونشره فى العالم الإسلامى ، وحاول بقدر الإمكان الإتصال بحاكم الحبشة النصرانى برسترجون Prster John والعمل معاً نحو تقويض مركز الإسلام(٣٩) .

وكان خوان دا أفيس الأول قد أنجب أربعة أبناء ذوى نجابة وهمة ، منهم الأمير هنرى الملاح . وإليهم يعود الفضل فى دخول البرتغال عهد الإستعمار والغزو ، ففى ١٣ جماد ثانى ٨١٨ هـ / الموافق ٢١ أغسطس سنة ١٤١٥ ، استولت البرتغال على مدينة سبتة Ceute على ساحل البحر المتوسط بقيادة هنرى وأخويه بدرو وإدوار فدخلوها وأنشأوا فيها سوقاً ثغرياً Frontera يحرسه ألفان وخمسمائة من المقاتلين وكان هذا العدوان البرتغالى على الأراضى الإسلامية فى المغرب نذيراً بتحول حاسم فى تاريخ المغرب(٤٠) ، وكانت دولة البرتغال فى ذلك الوقت تتمتع بالأستقرار السياسى والاقتصادى بحيث صارت منيعة الجانب ، وفى هذا العهد حظيت البرتغال بجيل من الرجال الأقوياء ، قوامه التجار والبحارة والمغامرون ، رفضوا الإكتفاء بالطرق التجارية المألوفة آنئذ ، وأخذوا يسيرون فى طريق الإستعمار الذى أمدهم بروح الحماس للغزو وجمع الغنائم والأسلاب وهدم القلاع والحصون(٤١) وذلك بعكس هنرى الذى كانت روحه صليبية بالمعنى الواضح المحدود . وامتداداً لما سبقها من حملات مشابهة ، فقد كان هذا الأمير صليبياً متعصباً يحمل بين جنبيه للإسلام والمسلمين حقداً دفيناً ، وكانت كل مجهوداته تهدف إلى تحقيق أغراض صليبية حتى نشاطه التجارى كان يرمى من ورائه إلى تقوية البرتغال ثم صرف هذه القوة فى حروب ضد المسلمين . ولذلك جمع الصيادة المهرة وجعل منهم بحارة وحول سفن الصيد إلى سفن للحرب والنقل ، واستقدم من إيطاليا وصقلية بعض الملاحين المهرة ، وأسس مدرسة علمية عين فيها الفلكيين ورسامى الخرائط والملاحين لتدريس استعمال الإسطرلاب والبوصلة . وبدأ فى بناء السفن الكبيرة(٤٢) وكان الدون هنرى الملاح يشغل منصب رئيس طائفة المسيح Las jesuitas EL Algovre وحاكماً لولاية الغرب البرتغالية(٤٣) ، التى شهدت سواحله وموانيه نشاطات بحرية عارمة خاصة ، على سواحل كنتبريا ، والتى تجلت فى أعمال الصيد والمبادلات التجارية التى كانت آخذه فى الإزدياد مع سكان أوروبا الشمالية الغربية . هذه النشاطات كانت بمثابة إعداد نفسانى فى سكان الموانى هيأهم للإشتراك فى رحلات بعيدة المدى(٤٤) .

وكان البرتغاليون يهدفون باستيلائهم على سبتة أن يحققوا الإمتداد خارج البحار ، بعد أن عجزوا عنه داخل شبه الجزيرة الأيبيرية . كما هدفوا به إلى نيل الحظوة عند البابا الذى كانت تتأرجح كفتا الميزان عنده بين أسبانيا والبرتغال فيميل مرة إلى ملوك أسبانيا وهم يقضون على البقية الباقية من أرض الإسلام بها ، ويميل مرة أخرى إلى البرتغال حينما يفتك أسطولهم بالأساطيل الإسلامية القادمة من المغرب ، تجاه السواحل التى تمتد من المضيق إلى مياه (بورتو) البرتغالية .

كانت سبتة تتحكم فى المضيق كمركز لإغاثة دول الإسلام بالأندلس ، كما كانت من الناحية التجارية المركز الأول فى هذا المضيق تؤمه سفن التجارة من أكثر الموانيء الإسلامية الشرقية والأندلسية وغيرها ، فكان الإستيلاء عليها هدفاً للبرتغاليين الطامعين فى الأسواق الخارجية(٤٥) .

وعندما توفى الدون جوان الأول مؤسس الأسرة الحاكمة وهى أسرة أفيس، خلفه على عرش البرتغال ابنه دورات ١٤٣٣ - ١٤٣٨ ، وألح عليه أخوه هنرى الملاح ، وكذلك أخوه الثانى فرناندو والملكة الأم دونيا ليونور Leonore فى الإستيلاء على طنجة(٤٦) ، وذلك حتى يدركوا فخراً باستيلائهم على ثغر من ثغور المغرب ، يضيفونه إلى سبتة ويوسعون به ماملكوه من أعمالها ، فركبوا قراصينهم(٤٧) فى ستة آلاف عسكرى ونزلوا بسبته . ثم زحفوا إلى طنجة سنة إحدى وأربعين وثمانمائة الموافق ١٤٣٧ وحاصروها وضيقوا على أهلها(٤٨).

وقد نهضت القوى المغربية لمواجهة الغزو البرتغالى ، يتقدمهم أبو زكريا يحى الوطاس فى الوف من الجند المتطوعة ، وهناك أحاطوا بالقوة المحاصرة للمدينة وشددوا الخناق عليها ، واضطروها إلى التسليم ، واشترط أبو زكريا يحى للإفراج عنهم وعن فرناندو بتسليم ثغر سبتة ، فجنح البرتغاليون إلى السلم فسالمهم المسلمون ، إلا أن فرناندو توفى فى أسره و لم يسلم سبتة (٤٩) التى كانت أول قاعدة برتغالية على الساحل المغربى ، ويبدو أن البرتغال أختارت هذه المدينة حتى تتمكن من شطر المغر ب الإسلامى إلى قسمين حتى تسهل عملية إجتياحه ، إذ

أنهم قاموا بعد ذلك بمحاولات أخرى على ساحل البحر المتوسط ، غير أن المقاومة المغربية إضافة إلى حركة الجهاد البحرى فى ممر جبل طارق والبحر المتوسط كانتا تسبب للبرتغاليين الكثير من المتاعب(٥٠) ، كما اجتاحت المغرب الأقصى موجة من الحماس الدينى حمل لواءها شيوخ الطرق الصوفية فى الوقت الذى ترددت فيه الحكومة فى الإقدام على إعلان الحرب الشاملة على الأعداء(٥١) بل نجد ملوك المغرب يعتذرون للمهاجرين من سبتة واللاجئين بفاس ، عن عدم القدرة على استرجاع المدينة وانقاذها ، ويمينهم بما تقضى به من أحكام التنجيم وخرافاته(٥٢).

استمرت مقاومة المجاهدين المغاربة قائمة على مجهوداتهم الذاتية ، لذلك لم يحققوا انتصارات حاسمة على القوى النصرانية التى أخذ نشاطها يتزايد فى المغرب الأقصى ، خاصة بعد أن وجدوا الحكومات المغربية بعيدة عن المقاومة ، بل أخذ رؤوسها يهتمون فى القضاء على بعضهم ، فهم بذلك أبعد ما يكونون عن تكوين وحدة إسلامية يواجهون بها الخطر على الأمة ، فشمال أفريقيا بوجه عام والمغرب الأقصى بوجه خاص كان يشهد عندئذ نوعاً من التفكك السياسى ، مما سهل مهمة الدول المسيحية فى الغزو والسيطرة على ذلك الجزء المهم من العالم الإسلامى ؛ وذلك عكس ما كانت عليه الأمم النصرانية التى كانت تشهد فى تلك الفترة تكوين الدول الحديثة ، وما يتبعها من تكون الحكم المركزى ، وبذلك استطاعت أن تفرض سيادتها على كثير من الأراضى فى قارات العالم .

وكان أن تشجع البرتغاليون وعادوا إلى غزو المغرب ، فقام الملك الفونسو الخامس بحملة كبيرة على شمال المغرب استولى فيها على القصر الصغير(٥٣) سنة ٨٦٢هـ/ ١٤٥٨م(٥٤) . وكان يهدف بهذا إلى منع المغاربة من تجهيز السفن الحربية بها وإعدادها لغزو الشواطىء المسيحية ، والاستفادة من الغابات المحيطة بها ووقف النشاط الكبير للسفن المسيحية المارة عبر مضيق جبل طارق(٥٥) وقد أنزل الفونسو بأهل القصر الصغير مذبحة رهيبة على عادة البرتغال فى حروبهم مع المسلمين فى تلك العصور ، وشجعه على العمل الهمجى قلة المقاومة من جانب

حكام فاس ، فتمادى فى عدوانه . ثم عاد إلى المغرب وهاجم طنجة ، فقاومه أهلها مقاومة باسلة اضطرته إلى العودة إلى بلاده(٥٨) .

وقد خشى سكان طنجة من إنتقام الملك البرتغالى ، بعد أن أوقعوا بجيشه خسائر فادحة فى القتلى والأسرى ، ولكن السكان علموا أن مولاى الشيخ عاد إلى حرب فاس ، فصاروا محرومين من أى سند ، لذلك عزموا على الجلاء عن المدينة ، وأخذوا ما يمكن حمله ، ثم انسحبوا دون إضرام النار فى المدينة حتى لاينكشف أمرهم ، ولما تأكد الملك البرتغالى من رحيل السكان أرسل أحد قواده للإستيلاء عليها فى ٢٨ أغسطس ١٤٧١ م ، ثم انتقل إليها قادماً من اصيلا (٥٧) التى استولى عليها قبل طنجة بأربعة أيام وتلقب ملوك البرتغال من ذلك الوقت بملوك مادون البحر وما وراءه ، وكتب الملك البرتغالى إلى البابا والملوك المسيحيين يخبرهم بنبأ النصر(٥٨) .

وعلى إثر تلك الانتصارات المتتالية للقوى البرتغالية فى بلاد المغرب الأقصى، وفى ظل غياب الحكومات والقوى السياسية الإسلامية عن المشاركة فى موجة الحماس الدينى وإعلان الحرب أو حتى التعبئة على البرتغاليين ، نجد بعض القوى المحلية المغربية تعبر عن رضاها بالنزول النصرانى على الأرض الإسلامية ، لتوضح بجلاء مدى الوهن والضعف الذى أصاب تلك القوى ، مما شجع الملك البرتغالى على التمادى فى حركة النزول بعد أن ضمن مساندة حكامها أو عدم مقاومتهم على الأقل . وقد بعث حاكم آزمور(٥٩) فى ١٦ أغسطس ١٤٨٦ م إلى الملك البرتغالى برسالة يطلب فيها الحماية ، قال بعد الحمد لله .

« السلطان الكبير المعظم الخطير الفاضل الشهير أحسن النصرانية دماً ، حايز الفضايل والوفاء جماً أكثر الناس عدلاً وأوفرهم فيه سهماً من حيات بحياته الأرض ومن شعنع عدله طاعته(٨٠) تما ، أوفى الخلايق عقلاً وأحسنهم خلقاً وفهماً ...... للمسكين مأوى للملهوف ركناً للغريب عماً ، بطل شديد ، فارس صنديد له معمعة الحرب فى سمورة يوماً ...خير النصارى فكلهم حاز الروم كلها

حلماً(٦١) .. مولانا دون جون ارشده سلطان برتقال والغربيين وكناية الذهبيين(٦٢) يقبلون يديكم مع رجليكم الكريمة خدماؤكم الموهوبون اليكم بالنفس والمال والأهل قبيلة بنى هنا وخاصتهم وعامتهم وكافتهم وجمهورهم أصحاب مدينة ازمور حفظهم الله ... ونحن نعرفكم يامولانا أننا نحن كنا ، صرفنا إليكم مع فارسكم مرطين رينال ثم بعد ذلك مع جون فرانسيس فارسكم الذى وصلنا كتابان أثنان واعلمناكم بكتبنا كيف نحن لكم خدم موهوبون وفى حبكم ورعيكم راغبون وذلك كله بقلوب صادقة ، ونفوس خالصة ، لتكون حرمتك علينا وعلى جمع قبيلتنا ومدينتنا وأن تكون لنا مأوى .. فاعلم أن وقع وفاقنا على صلحكم وعافيتكم واردنا له واخترنا أن تكون لنا حبيباً ومولاً والتزمنا ذلك وتحملناه عن طيبة نفس منا وصفاء خاطر من دون غش ولاتدليس ولاغدر ولافساد وألتزمنا أن تقضوا حوايجكم ومسايلكم إذا أمرتمونا بأى أمر كان وأن نبروكم ونخدموكم ويخدموكم كما يعملون أهل طاعتكم وبلادكم ، ولتأكيد هذه المعرفة وصحتها أيها السلطان الكريم نصلوكم فى كل سنة بعشرة ألف شابل(٦٣) ... وأن جميع مايأتينا من الأجفان من عندكم بأنواع تجارتكم وعروضكم - وكذلك فيما يبغون ويشترون عندنا ويطلعون لعندكم أن لا مغرم عليها ولا عادة ... والتزمنا أن ندخلوا راحلكم لبلدانا ومدينتنا وتجاركم ورجالكم وكتابكم وكل من يأتى من قبلكم لوجه البيع والشراء وإن نكرموهم غاية الإكرام ونعاملوهم بكل فضيلة رعياً لجانبكم ونعملوا جميع ما يأمروننا به عنكم وفى اسمكم من دون أن تخالفوهم فى قول ولا عمل ... وزدنا فى الالتزام والتزمنا إليه وذلك لجميع رجالكم وعمالكم أن تعينوا لهم داراً ومنزلاً أين يكونون مأمونين على رؤوسهم وأموالهم أين يرضون، وأن لم يرضون أن نتركوهم يبنون لأنفسهم موضعاً داخل المدينة وأن من اليوم لقدام نكونوا تحت رعايتكم وولايتكم وحفظكم وإنكم تكونون العين الباهرة على جميع حزبنا .. والذى نحن نطلب منكم أن تعرفوا بهذا أهل بلادكم وملككم ولقيادتكم وافنادكم وقباطنكم وجماهركم ... ونحن نطلب منكم أنكم تكتبون لبنى عمكم السلاطين الفيشين(٦٤) وغيرهم من السلاطين

النصارى وغيرهم ممن بينكم وبينهم العافية وكذلك لجميع أهل بلادكم أن لايصلونا بعيب ولاباداية لا فى البر ولا فى البحر وإن يكونوا كلهم على يقين من تمييزكم معنا ، وكيف نحن من جملتكم .. كتب هذا التقييد خديم مولانا بامره أخاكم حقاً الغريب محمد بن قاسم الرعينى خطيب اخوانكم الغرباء(٦٥) فى حينه تاب الله عليه وأصلح حاله مسلما عليكم(٦٦) » .

وهكذا استمرت الحماية البرتغالية على أزمور ، وأخذ الملك البرتغالى يبعث نواباً عنه فأساء بعضهم إلى سكان منطقة دكالة . ومن ذلك ماوضحه أحد حكام المنطقة فى رسالة بعثها إلى الملك البرتغالى فى ديسمبر ١٥٠٢ يقول فيها (بيد أمير قومه سلطان برتغال والغربيين .. الحمد لله وحده ولارب غيره ولامعبود سواه الكتاب إلى أمير قومه وسلطان بلاده دوا منول بفضل الله تعالى سلطان برتغال والغربيين ومولا كنأوة الدهبان(٦٧) وغيرهما .. نريد من كمال فضلك أن تعمل لنا غرضنا وغرضك فيما نطلبك فيه ونكون له مطيعين بأن الرجل الذى بعث لبلادنا ماجاء على عقولنا وخسر عليكم كثيراً مالا تقدر وتصلح ونعلمك بأنه هو بخير مع النصارى أو مع المسلمين ولا مع اليهود ولا يعمل إلا برأيه ولا يستمع لمن يدبر عليه ونحن أهل البلد نقول له اعمل ما يصلح على السلطان وعلى الناس وأبى أن يأخذ لنا كلاماً واشتغل أيضاً يشترى المسلمين(٦٨) ونحن نخاف عليه من المسلمين أن يقتلوه ويؤخذ لنا عارك أما هو ما علينا منه وأنت ياسلطان برتقال إذا حبت حوايجك تنقصنا من بلادنا ونكون خدامك تبعث لنا رجلاً آخر يكون بحال بن مرتن(٦٩) يكون عاقلاً عارفاً بالمسايل وهادا لايجبنا بعد هاده المره ، وهادا أوكد حوايجنا عندك .. وهادا ما عندنا والسلام عليكم وعلى من تعلق بكم والرحمة والبركة (من خديمك سالم بن عمر)(٧٠) .

وقد ظهرت مقاومة للوجود البرتغالى من جانب بعض المغاربة ، الذين شنوا غارتهم على الحامية البرتغالية ، فأرسل الملك البرتغالى قوة عسكرية لتأديب

الخارجين ولإظهار مدى قوة البرتغاليين ، فندم أهل مدينة أزمور وبعثوا برسائل عديدة للملك البرتغالى الذى لم يجبهم عليها على الرغم من إلحاح الحاكم . ولما توسلوا إليه بزوجته بعث إليهم برسالة فيها شروط العفو والتهديد والتأنيب ، وذلك فى ٢٢ إبريل ١٥٠٤ إلى « .. هاذا الاشياخ الفضلا والرؤساء الأمناء والخاصة والعامة .. أهل أزمور نحن ظون منوال بفضل الله ونعمته سلطان البرطقال والغربيين وصاحب كناوة .. مستفتح(٧١) أقاليم غربية وأمصار وجزر وبحار وأقاليم هندية وأوطان فرسية ثم بلاد الكو .. سلام يراجع سلامكم وبعد وصلنا كتابكم وفهمنا جميع ما تضمنه كتابكم وخطابكم ، وقد ذكرتم لنا ماوقع عندكم من الندامة على من صدر من فعلكم فى النازلة التى أحدثوها عندكم ... وطلبتم العفو منا .. والصفح عليه وإن تتموا على صلحنا وعهدنا ... وأشرتم فى كتابكم بجميع المحبة والنصيحة الينا ، ومهما أنكم ما حمدتم الله عز وجل مولانا ولا شكرتموه على ما منحكم وأعطاكم من صلحنا معكم الذى كنتم تحت رعينا وحفظنا ، وحملكم نظركم الفاسد على هتك العهد والميثاق الذى كان بيننا وبينكم ومددتم أيديكم فى أمر ليس بواجب عليكم بل كان من الأمر الواجب والعهد اللازب ، رعى مسايلنا عادة وخدمتنا والاستحفاظ عليها ، فنازلتكم واقعكم كانت أولاً للتأديب والتعزيز من العفو والصفح ، وإن كانت عادة الملوك أمثالنا الصفح والغفران كما قلتم ، وقد كنتم قد كتبتم قبل هذا ولم يصلكم عليه جواب، فسبب ذلك كان الحرج الذى لحقنا من جهتكم ومن فعلكم القبيح الذى أدركنا من نحوكم ، وكنا عاملين على أدبكم وتعزيزكم لاشك فيه وإن نكافيكم بفعلكم ونجازيكم عليه ونتركوكم مثلاً وموعظة لمن ينقضوا عهد ... فبهاذا كان مقصودنا وإننى حين كتبتم واعترفتم بذنبكم وتوسلتم بأقرب الينا واحبهم لدينا السلطانة زوجتنا التى عنكم قصدتنا . فنحن عنكم عفونا واسمحنا لكم(٧٢) فيما مضى ، وغفرنا لكم ماوقع منكم ، وذلك إن أوفيتم بما قلتم فى كتابكم برد جميع ماأخذتم الينا ولرجالنا(٧٣) » .

وأسفى إحدى مدن اقليم دكالة بالمغرب تقع على شاطىء المحيط الأطلسى لها أسوار متينة عليها سبعة وثمانون برجا ، ودائرتها ألف وثلاثمائة وسبعون مقياساً زراعيا(٧٤) والأراضى المحيطة بها غنية بالقمح والمواشى ، والتجارة فى أسفى لابأس بها ، وقد نشبت حروب أهلية بسببها ، الأمر الذى جعلها فريسة للبرتغاليين(٧٥) .

وقد حدث أن بعض التجار البرتغاليين نصحوا ملكهم بأن يأمر بتجهيز أسطول يمكنه من أن يستولى على المدينة ، وبعد أن تأكد الملك البرتغالى من أن سكان أسفى منقسمون إلى طوائف ، قدم الملك داراً حصيناً ينقل إلى أحد رؤساء هذه الطوائف – ويدعى يحيى بن تعفنت الهدايا – وبذلك تمكنت البرتغال من أن توثق أمتن الصلات مع يحيى بن تعفنت الذى اتفق على أن تأخذ البرتغال المدينة بدون صعوبة ، وأن يبنى الملك الأسلحة ويزوده بالمؤن . وبعد ذلك ظهر أسطول برتغالى فجأة أمام المدينة ، مزود بجميع أنواع الأسلحة وقطع المدفعية الثقيلة علاوة على كميات وافرة من المؤن ، وكان على ظهر الأسطول خمسة آلاف من الجنود والمشاه ومائتان من الفرسان . لذلك خاف المغاربة من تلك القوة وخرجوا من المدينة ، وبقى فيها رئيس المدينة الذى وافق على بناء الدار البرتغالية واستولى قائد الأسطول على أسفى فى شعبان ٩١٣ هـ / يناير ١٥٠٨ م(٧٦) .

وقد أشتط البرتغاليون فى معاملتهم لسكان المغاربة ، الذين تضايقوا منها ، وذلك بعد أن قام العامل البرتغالى بأعمال إستفزازية ضد السكان ، فضلاً على قيامه بأعمال تعسفية من قتل ونهب للمسلمين ، ورغبته فى التوسع خارج مدينة اسفى . وهذا ما تظهره الرسالة التى بعثها أعيان اسفى إلى الملك البرتغالى فى ٢ يوليو ١٥٠٩ يشكون إليه أعمال عامله « الحمد لله وحده وإليه يرجع الأمر ولابد من لقايه ولا ينجح هارب من قضايه وإذا ضاقت كان الفرج من عنده ، ضيفنا ومولانا السلطان ضون منوال حفظه الله . خدامك بل عبيدك الساكنون تحت اعلامك وطاعة الله وطاعتك فى بلدتك بلدة أسفى هم يسلمون عليك

ويقبلون يديك والأرض تحت قدميك ، ومما نعلمك به يامولانا بأن نحن جازت علينا شدايد وأهوال ونحن تحت طاعة الله وطاعتك من المخاوف والمجاعات والمحن الكثار والغباين من المسلمين والنصارى ، ونحن يامولانا أعلمناك بذلك كله وكتبنا لك يامولانا جملة من الكتب ... ونحن شكونا عليك فيهم لين مارأينا ، من يقبل شكوتنا إلا الله وأنت ترانا نجمع لك ذلك كله فى كتابنا هذا ونختصر لك فيه أول يامولانا ما نعلمك به بأن نحن ماكرهنا عبد الرحمن إلا فى حق الذى عصاك ، و لم يدخل تحت طاعتك ولارحنا حتى قتلناه ، وقلنا خرجنا من العذاب ودخلنا فى الجنة ، إنما دخلنا تحت طاعتك ، فاصرفنا يامولانا فى الوقت والحين لعاملك ديوغ الدلزنبوج وأدخلناه فى دارك وخرج للقايه كل من كان فى أسفى وتقبلناه بأحسن القبول ، كل ذلك يامولانا محبة فيك ، ونحن يامولانا قادرون ندخل سلطان مراكش ومولاى زيان بن أزمور ، وكان بأسفى رجال كانوا أهلا للشياخة ونحن يا مولانا اخترناك ورضيناك من دون هؤلاء ... ».

ثم تقدم الأسطول البرتغالى نحو مدينة أزمور وأنزل قواته فيها ، واصطدمت بقوة مغربية أرغمتهم على الرجوع إلى سفنهم إلا أن الملك البرتغالى عاد وأرسل أسطولاً آخر احتل آزمور فى جمادى الثانية ٩١٩ هـ / أغسطس ١٥١٣ م(٧٧) .

وعندما بلغ الملك البرتغالى أن ميناء المعمورة جيد ، وأرضها نافعة ، أرسل فى ٩٢١ هـ / ١٥١٥ م أسطولاً حربياً ليشيد حصناً على مصب نهر سبو ، حيث توجد أطلال مدينة المعمورة ، ولتساعده على غزو مملكة فاس ، إلا أنه ظهرت مقاومة عنيفة من قبل المغاربة والمسلمين الأندلسين ، أجبرت البرتغاليين على الإنسحاب دون تحقيق نصر حاسم(٧٨) .

* * *

يتبين لنا من خلال ذلك تركيز البرتغال علـى إحتلال الموانىء المطلة على المحيط الأطلسي ، وبذلهم المحاولات الكبيرة والمضنية فى سبيل السيطرة على تلك الموانىء ، فسيطروا على أسفى وأزمور ومدينة سبته ، كما احتلوا أصيلا والحمر فى ربيع الأول ٨٧٦ هـ / أغسطس ١٤٧١ ثم مدينة الجزيرة (٧٩) فى رمضان ٨٨٤ هـ / ٢٧ أغسطس ١٤٨٩ م (٨٠) إن ذلك التركيز على تلك الموانى سببه أهتمام البرتغالين بالتوصل إلى الهند والشرق بحراً ، للوصول إلى مواطن التوابل وانتزاع تجارتها من أيدى الإيطاليين والمماليك ، ويعد اكتشاف طريق رأس الرجاء بداية تطور هام بالنسبة لعمليات التوسع البرتغالى فى السواحل المغربية وبالأخص سواحل البلاد الجنوبية التى ازدادات أهميتها بحكم وقوعها واشرافها على طريق التجارة الجديد ، إذ كان على السفن التجارية البرتغالية العائدة من الشرق أن تقترب كثيراً من هذه السواحل لوجود جزر كناريا التى كانت فى قبضة الأسبانيين. وبهذا أثيرت قضية حدود مملكة فاس من جديد بين الأسبان والبرتغال وازداد نزاعهما لإدراك كل من الفريقين مدى أهمية هذه السواحل من بلاد المغرب الجنوبية فى مراقبة طرق الهند البحرية (٨١) .

والواقع إن التنافس البرتغالى الأسبانى أوقع معظم سواحل المغرب الشمالية والغربية تحت سيطرة الحكم الأجنبى ، مما زاد فى ضعف البلاد وقوى الفتن الداخلية ، مما مكن البرتغاليين من هتك أعراض الناس ، واغتصاب النساء المسلمات وإنتهاك حرمات بيوت الله ، وهى محن أظهرتها الرسائل السابقة.. وقد حدث كل ذلك فى ظل غياب الوحدة الإسلامية فى بلاد المغرب ، وعدم وجود سلطة دولة إسلامية تستطيع أن تقف أمام الأعمال العدوانية ضد المسلمين . هذه هى الأوضاع التى كان عليها المغرب فى مطلع العصر الحديث : وحدات سياسية متعددة نتجت عن ضعف السلطة المركزية فى فاس ، واضطراب اقتصادى ، وفوضى اجتماعية ، زادتها تأخراً أنماط الحياة المختلفة وسيادة المجتمع القبلى . وزاد

الأوضاع تعقيداً الأخطار الخارجية المتمثلة فى عمليات الإحتلال الأجنبى لمعظم السواحل المغربية ، مما أنذر بإكتساح كل البلاد إن لم تعبأ جميع الطاقات الموجودة بالبلاد للوقوف بها صفاً واحداً لمواجهة الخطر الداهم ،ولكن هل كان من الممكن توحيد كل الطاقات والوحدات السياسية لمواجهة الخطر الخارجى ؟؟ . هنا تبرز أهمية وجود الدولة العثمانية ، لتوحيد الجهود فى الزود عن حياض الإسلام ودفع الخطر عن المسلمين وصيانة حقوقهم ، ورعاية مصالحهم ، ولتضطلع الدولة العثمانية بمهمة جديدة ودور جديد يتمثل فى حماية الحدود الجنوبية للعالم الإسلامى ، وذلك بصد الخطر البرتغالى وإنهاء وجوده فى أول نقطة انطلاق من المغرب نحو طريق الهند .

* * *

ولم يكن المغرب الأوسط (الجزائر) أحسن حالاً من المغرب الأقصى فى النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية مما شجع الأسبان على التوسع والسيطرة على سواحله بإقامة جيوب صليبية لمطاردة المورسيكين ومعتنقى الاسلام إينما وجدوا للتنكيل بهم ، وذلك بعد أن شعر الأسبان بالقوة والسيادة عقب اكتشاف أمريكا ، ورغبوا فى احتلال قواعد فى الشمال الأفريقى لإمتلاك الموانى والأسواق التى يستطيعون منها أحتكار تجارة المعادن النفيسة والتوابل التى ترد إليهم عن طريق القوافل من وسط أفريقيا ولمزاحمة الجمهوريتين الايطاليتين جنوه والبندقية واللتين استقلتا واحتكرتا التجارة بين الشرق والغرب مدة طويلة (٨٢) .

وكان المغرب العربى بعد سقوط دولة الموحدين مقسماً إلى ثلاث دول ورثت أمجاداً عظيمة وتمتعت بنهضة علمية فى ميادين العلم والعمران ، وتلك الدول هى الدولة الحفصية بتونس وطرابلس والشرق الجزائرى ، ودولة بنى زيان بالمغرب الأوسط (الجزائر) ، ودولة بنى مرين بالمغرب الأقصى .

وقد أخذ أزدهار هذه الدول فى الإنحلال تدريجياً وسادتها الإنقسامات والحروب الداخلية بين الطامعين فى العرش ، فساق ذلك عليها المحن والفساد ، واستمرت حروب بين تلك الدول تقود الحفصيين تارة إلى فاس والمرينين إلى تونس، بينما وقعت دولة بنى زيان فريسة بينهما ، تنتمى مرة للأولى ، وأخرى للثانية ، وترى وجوب التخلص منهما معاً . وهكذا مضى القرن الخامس عشر فى مد وجزر فى بلاد الشمال الأفريقى .

ثم كان أن استقلت جهات عديدة فى أطراف ووسط المغرب العربى بنفسها، مكونة إمارات اقطاعية أو ما يشبه ملوك طوائف ، يظهرون كالفقاقيع فوق سطح الماء ثم يختفون بسرعة (٨٣) كبنى هنتانه فى مراكش وبنى راشد فى شفشاون (٨٤) وكاستقلال واحات فكيك وقبائل الوار مسنيس ، وخضوع بلاد القبائل لسلطان كوكو ، وسيطرة حاكم قسنطينه الحفصى على المنطقة الراقعة بين عنابه والقل بعد أن تخلص من السيطرة الحفصية ، وصيروره المزاب والحضنة اقطاعاً لعرب الدوادة وغيرها(٨٥) ، فلا تكاد تعرف حدود لدولة ولا تخوم مرسومة لإمارة . وذاق الشعب المغربى من جراء هذا أهوالاً وخطوباً ، مع أن المغرب كان عندئذ عامراً بالرجال ، مزداناً فى كل جهاته بالعلماء والأدباء ، الذين لم ينضب معينهم رغم تلك الأوضاع ، وكان جديراً به أن يؤلف وحدة سياسية واقتصادية واجتماعية تجعل منه دولة مرهوبة الجانب قوية السلطان كالدول الإسلامية السابقة، ولعل ذلك كان هدف الحفصيين والمرينيين من وراء الحروب والفتن المتواصلة ، لكن لم تكن لأى من الدولتين المقدرة ولا الإستعداد لتحقيق هذا الهدف النبيل(٨٦).

وقد حاول أبو فارس عزوز الحفصى تحقيق الوحدة بين المغرب ، وصار قاب قوسين أو أدنى فى تحقيقها ، وذلك حينما اجتاحت قواته سنة ٨٢٨ هـ / ١٤٢٤م مملكة الجزائر ، وانتصر على تلمسان وخرج سلطانها أبو مالك هارباً إلى

الجبال ، ثم توجه أبو فارس نحو فاس بعد أن نصب عل تلمسان الأمير محمد بن الحمرة، ثم حدثت تطورات اضطرت أبو فارس إلى العودة إلى تونس ، إذ جاءته بيعة مرين وصاحب الأندلس ، وبذلك صار المغرب الإسلامي بتمامه تحت رعاية السلطان أبى فارس الحفصى .

ولكن المغرب لم يستقر على تلك الوحدة مدة طويلة إذ قام أبو يحيى أحد أمراء البيت الزيانى بالاستيلاء على وهران سنة ٨٤٠ / ١٤٣٧ كما خرج أبو عبدالله محمد الرابع (ابن الحمرة) فى سنة ٨٣٣ هـ / ١٤٤٠ م وضم تلمسان ، ولكن ما كاد ينعم بالملك حتى فاجأه السلطان الحفصى فأسره ، ونصب مكانه عمه أبا العباس أحمد العاقل ، وهكذا مضت تلك الحقبة بين تناحر المتنافسين ، وتقاتل الدولتين المتجاورتين ، بل ظل التناحر بين الأسر المالكة نفسها ، فلم يستتب الوضع فى أنحاء الجزائر وأخذ الحفصيون كغيرهم من ملوك المغرب الأقصى يترقبون نشوب الخلاف بين أمراء البيت الزيانى ليتوسعوا ، ويحققوا هدفهم وهو الإستيلاء على هذه المملكة (بنو زيان) وضمها إلى حكمهم : ثم جاء الدور للحفصيين ، إذ خرج السلطان أبو عمر عثمان الحفصى من تونس سنة ٨٦٦ هـ / ١٤٦٣ م متجهاً نحو عاصمة المغرب الأوسط (تلمسان) فأخضع قلعة جليمة وأرض بنى راشد . وهنالك جاءته وفود عربية من سويد وبنى يعقوب وبنى عامر والدواودة وأعيان عبد الواد ، وكلهم ناقم على السلطان على الزيانى راغب فى الحفصيين ، فأحسن أبو عمرو استقبالهم وعين ولاته عليهم ، وعقد الصلح مع ملك تلمسان(٨٧) وهكذا ذهبت دولة بنى زيان التلمسانية ضحية محاولات الحفصيين والمدنيين وأطماعهم ، فكل من الجانبين كان يرى ضرورة إنهائها والإستيلاء على أرضها تحقيقاً لمصالحه فاستنزف ذلك قواها المادية وعجل باضمحلالها وسقوطها ، كما شجع الأمم النصرانية على التطاول فى نشاطها على سواحل الشمال الأفريقى ، وأخذت تطرق أبواب المغرب بشدة منذ بداية القرن

الخامس عشر ، وذلك حين هاجمت تدلس (٨٨) ، وعنابة (٨٩) أساطيل بلنسية وميورقة معاً كما تطاول صاحب قشتاله ، الذى كانت تراوده نزعة صليبية مفرطة على تطوان(٩٠) فخربها وقتل نصف سكانها وساق الباقين من رجالها ونسائها أسرى وسبايا ، فى حين كان ملك المغرب المرينى يحاصر مملكة تلمسان من أجل ارغامها على التبعية(٩١) مما شجع الدول النصرانية على النزول فى الشمال الأفريقى فى ظل غياب الدولة الإسلامية التى تستطيع حماية الشواطىء من الأعمال الوحشية النصرانية ، وعدم وجود الغيره من قبل الحكام المسلمين الذين كان لا يهمهم سوى تحقيق مصالحهم ورغباتهم على حساب المسلمين ، والا بماذا نفسر حصار ملك المغرب لتلمسان فى الوقت الذى تدك مدن تطوان وتدلس وعنابة وتنتهك أعراض المسلمين ولا يحرك ذلك ساكناً لحاكم المغرب ؟ ولعل هذا يفسر حالة المغرب فى مطلع العصر الحديث : تقهقر وفوضى وانحلال ، فى الوقت الذى يخرج العالم الأوربى من عصوره الوسطى المظلمة ، لينطلق نحو العصر الحديث ، فانطلقت الأفكار واتجهت العقول نحو التحرر وبزغ عصر النهضة فى أوروبا .

* * *

أما عن أسبانيا فقد كان لطغيان الأسبان بالأندلس واعتداءاتهم المتكررة على المسلمين تأثير عظيم على جمعهم ، فأخذوا يلجئون إلى الشمال الأفريقى ابتداء من سنة ٨٥٦ هـ / ١٤٥٢ م ، حيث نزل أكثرهم بالجزائر ، فلحقهم الأسبان بمراكبهم ، لتبدأ الحروب البحرية بين الجزائريين والنصارى وكان أن اتحد الأندلسيون مع أهل الجزائر على مناوأة العمارة النصرانية فى البحر المتوسط ، ولكن بونه (عنابة) سقطت بيد الأسبان سنة ٨٦٧ هـ / ١٤٦٢ م ، ثم تبعها غيرها من مدن السواحل المغربية(٩٢) .

وقد توقفت حركة الاسترداد فى قشتالة تقريباً خلال الاضطرابات الأهلية فى القرن الخامس عشر ، إلا أن سقوط القسطنطينية فى يد العثمانين سنة ١٤٥٣

أشعل حماس الدول النصرانية فاستجاب ملك قشتالة إلى نداء البابا نحو حرب صليبية جديدة باستئناف حركة الاسترداد فتوغلت ست حملات عسكرية ضخمة داخل مملكة غرناطة إلا أنها لم تحقق أهدافها .

وكانت الحرب الصليبية ذريعة لملك قشتالة فى جباية الأموال من رعاياه وتحت اشراف البابا ، على أن الحماس الحقيقى للحرب الصليبية أصبح غير متأجج لدى البلاط الملكى ، فى حين كان الشعب القشتالى متحمسا ، فسار بأعداد كبيرة للمشاركة فى حرب صليبية ضد الدولة العثمانية .

ومن ناحية أخرى فإن فكرة الحرب الصليبية ظلت قائمة لدى فرديناند وايزابيلا على اختلاف أشكالها الدينية والوطنية والعاطفية مما أدى إلى استئناف الهجمات القوية على غرناطة فلاقى هذا العمل تأييد شعبى ، وتجمع أهل البلد وساروا خلف حكامهم للقيام بانجاز بطولى برفع مكانة أسبانيا فى العالم النصرانى(٩٣) والتى كانت تنافسها عليها حكومة البرتغال .

وقد بدأ الهجوم الأسبانى على مملكة غرناطة عام ٨٨٧ هـ / ١٤٨٢ م ، فأخذت المدن تتساقط فى يد الأسبان ، ولم يبق منها سوى غرناطة وتميزت بأرضها الجبلية التى حدت من حركة الفرسان ، كما كانت حرب حصار ، سيطر فيها سلاح المشاة والمدفعية ، وكان سلاح المشاة يتكون من الجنود المرتزقة والمتطوعين الوافدين من أنحاء أوروبا ، كما أن مجموعة منهم كانت من الحرس الوطنى فى قشتالة المعروف عنهم قوة التحمل على المناخ وشدة مراسهم فى المعارك الأوربية والعالم الجديد ، وفى حرب غرناطة قاموا بحرب العصابات وذلك بالهجوم المفاجىء تارة وبالمناشات تارة أخرى(٩٤) .

وكان أن تغلبت العزيمة الأسبانية والقوة النصرانية على عوامل الانهيار والانقسام الذى ساد المسلمين فى شمال أفريقية وتوالت النكبات على المسلمين مدة

عشر سنوات بدون انقطاع ، فأخذت مدنهم الواحـدة بعـد الأخرى ، كمـا فنى رجالهم قتلاً وأسراً وقاتل المسلمون عن كل مدينة وبلدة وحصن وبرج بل عن كل صخرة ، كأنهم ينتظرون الفتح . و لم يجدوا مكانـاً تثبت فيه اقدامهـم ولاجداراً يمكنهم رمى السهام من ورائه إلا واعتصموا به ، ينازعون العـدو وطنهـم المحبوب حتى لم يبق لهم إلا عاصمتهم مقطوعاً عنها كل مدد ، غير طامعة فى أدنى غـوث تنزل على أسـوارها ، أمـة بقضهـا وقضيضهـا و لم يزالـوا يدافعـون عنهـا ، كـأنهم يترقبون معجزة يرسلها ا لله فى حقهم .

وضاق عليهم الحصار ، وبنى فرديناند وايزابيلا مدينة كاملة تجاه مدينتهـم ، إشعاراً لهم بأنهم لن يرجعوا عنها أبداً ، قرر الشبان والمجاهدون تحت زعامة موسى أبى الغسان الثبات والموت إلى آخر رجل ، تحت سنابك الخيل . إذ لم يبق هنـالك إلا أحد أمرين : الإستسلام أو الهلاك المحقق فى أنقاذ الشرف .

لكن أهل غرناطة خـافوا فضيحـة النسـاء وانتهـاك حرمـة البنـات وتشتيت الشمل وفقد المال ، فقرروا الإستسلام بعد مقاومة بطولية ، ورضوا أن يكونوا من رعايا الدولة الأسبانية مقابل اعترافها بحريـة دينهـم ، واحـترام عقـائدهم والمحافظـة على أموالهم وممتلكاتهم ، وحرية من أراد منهم الإنتقال بماله وأهله إلى بلاد المغرب العربى . وهكذا استسلمت آخر دويلة أندلسية وخرج ملكها أبـو عبـد ا لله يبكـى وينوح وأمه عائشة الحرة تقول لـه : أبـك مثـل النسـاء ملكـاً لم تدافـع عنـه دفـاع الرجال(٩٥) .

وفى اليوم الثانى من شهر يناير عام ١٤٩٢ صدر أمر الملكـان الكاثوليكيـان باحراق مليون وخمسمائة ألف كتاب تشـمل وثـائق ومخطوطـات تتعلـق بالإسـلام لكى يسهل على الأسبان إبعاد المسلمين عن مصـادر عقيدتهـم الإسـلامية ويسـهل القضاء عليهم(٩٦) .

وعهد الملكان الكاثوليكيان إلى حكومة جديدة بمعاملة المسلمين معاملة حسنة وإدخالهم فى النصرانية بالتدريج ، مع بذل قصارى جهدهم فى تحقيق ذلك، وترغيبهم بشتى الوسائل ، فأخذت الحكومة تبنى المنشآت الخيرية ، وتحث رجال الدين على تعلم اللغة العربية ليمكن نشر المسيحية بين المسلمين (٩٧) وكانت مهمة الحكومة أيضاً ضمان الأمن العام ، ودعم سيطرة الملكين على المملكة الإسلامية المنهارة .

وكانت هناك مهمة فى غاية الصعوبة تتعلق بمنطقة البوشرات الجبلية التى يقطنها بعض المسلمين الفارين . وليتغلبوا عليها تم تعيين قيادة ملكية فى عام ٨٩٩هـ / ١٤٩٣ م نظراً لاحتمال قيام حركة عصيان لمجاورتها للشمال الأفريقى وقد بذل الملكان سعيهم فى حث الشخصيات الأندلسية وقياداتها على مغادرة شبه الجزيرة الإيبيرية وتقديم المساعدات لمن يرغب فى الهجرة واستمر السلام يعم أنحاء غرناطة طالما ارتضى الأندلسيون الحكومة النصرانية الجديدة ، وطالما الحرية الدينية قائمة ، والأعمال الخيرية مستمرة(٩٨) ومع ذلك ظلت أسبانيا خاصة والنصرانية عامة تتخوفان الخطر الإسلامى على الرغم من تشييد أبراج المراقبة على إمتداد السواحل الأندلسية ، وترغيب العلماء والشخصيات الإسلامية فى الهجرة من الأراضى الأسبانية ، ولعل مصدر القلق كان الإسلام نظراً لسماحة تعاليمه وسمو أحكامه .

وقد خشى فردناند فى البداية عواقب التسرع فى تنفيذ سياسة إجبار المسلمين على التنصر ، لأن الأمن لم يكن قد توطد فى المناطق المستردة حديثاً ، ولأن المسلمين لم ينزع سلاحهم ، وقد يؤدى الضغط إلى الثورة ، فتعود الحرب كما كانت ، لخوف الملك الأسبانى من إقتحام الإسلام أراضيه ، استجاب لرأى الكنيسة ، واستدعى الكردنيال خمنيس إلى غرناطة ليعمل على تحقيق مهمة تنصير المسلمين ، فوفد عليها فى شهر ذو الحجة ١٢١٤ هـ / يوليه ١٤٩٩ م ، ودعا

أسقفها الدون فيرا ، إلى إتخاذ وسائل فعالة لتنصير المسلمين ، وأمر بجمع فقهاء المدينة ودعاهم إلى اعتناق النصرانية ، وأغدق عليهم الهدايا والمال(٩٩) ، كما دعاهم للمناظرة . وكانت المناظرات تستمر طوال اليوم ثم تستأنف ، وأخذ الفقهاء يقارعون الحجة بالحجة ، ويفندون رأيه جملة وتفصيلاً . وطال النقاش والمناظرات ، ومل الفقهاء تلك الجلسات ، وأيقنوا أن كبير أساقفة قشتالة يمكر بمسلمى غرناطة ولن يكل أو يمل حتى يحقق هدفه ، وأمام هذه المقاومة من الفقهاء وحثهم على محاربة دعوة خمنيس ، أمر خمنيس بإحضار ثلاثة آلاف أندلسى ، وجمعهم فى الكنيسة التى خصصها لشن حملته ، وراح يدعوهم إلى التنصر فيضر بهم تارة ويرهبهم أخرى فتصدى له فقهاء غرناطة وسفهوا آراءه . ووصل الأمر ذروته حين بدء خمنيس فى إحراق كل ما تقع عليه أيدى عماله من نسخ القرآن الكريم . وكان خمنيس يرسل بعض عماله إلى البيازين(١٠٠) للتعرف على أخبار أهلها ، حتى اشتبك ثلاثة منهم مع بعض أهل غرناطة ، قتل على إثرها أثنان من العمال ، وكانت هذه نقطة التحول . إذ أخذ زعماء غرناطة وعلماؤها بالبيازين يحثون الناس على حمل السلاح وإعلان الإنتفاضة دفاعاً عن وجودهم ودينهم والتصدى لممارسات خمنيس بعد استفحال خطره ومضيه فى مسلكه دون رادع(١٠١) .

ثم كان أن قرر مجلس الدولة الأسبانى أن المسلمين صاروا خطراً على الدين والدولة ، ولاسيما بعد ما تبين جنوحهم إلى الثورة ومحاولتهم الإتصال بإخوانهم فى المغرب ومصر والقسطنطينية ، وقضى بوجوب اعتناق المسلمين للنصرانية ونفى المخالفين منهم من الأراضى الأسبانية ووقع هذا القرار على المسلمين وقع الصاعقة، وسرعان ما دبت فيهم الحمية فأعلنوا الثورة فى معظم نواحى غرناطة وفى بعض البيازين وفى البشرات ، واشتد الهياج فى بلفيق وفى أندرش(١٠٢) حيث نسف حاكم البلدة مسجدها بالبارود ، وفى نيخار وجوبجار(١٠٣) وغيرها، وعزم المسلمون على الموت فى سبيل دينهم وحريتهم ، ولكنهم كانوا

عزلاً ، بينما جنود النصارى يحملون أسلحة ، مزقوا بها المسلمين بلا رأفة ، وأكثروا بينهم القتل وسبوا نساءهم ، وقضوا بالموت على مناطق بأسرها ، ماعدا الأطفال الذين دون الحادية عشرة فقد حولوا إلى نصارى ، ولجأت الحكومة بعد إخماد الإضطرابات فى غرناطة والبيازين إلى أساليب الرفق ، فبعثت بالعمال والقسس إلى مختلف الأنحاء ، ولم يدخر هؤلاء وسعاً فى إجتذاب المسلمين بالوعيد والوعود .

ونشط فرديناند فى إخماد الثورات فى الوقت الذى غدا التنصير أمراً لا مفر منه ، وأضحى فرديناند يعتبر نفسه فى حل من عهوده المقطوعة للمسلمين ، فتقدم المدعى العام با قتراح يرى فيه وجوب إنشاء ديوان للتحقيق فى غرناطة ، يساعد فى مطاردة الزيغ بوسائله الفعالة ، إلا أن فرديناند وأيزابيلا عارضا الفكرة .

وكانت الكلمة الفاصلة للكنيسة دائماً ، ففى ٢١ يوليه سنة ١٥٠١ م أصدر فرديناند وإيزابيلا أمراً ملكياً مفاده « أنه لما كان الرب قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة ، فإنه يحظر وجود المسلمين فيها ، فإذا كان بها بعضهم فإنه يحظر عليهم أن يتصلوا بغيرهم ، خوفاً من أن يتأخر تنصيرهم ، أو بأولئك الذين نصروا لئلا تفسد عقيدتهم ، ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال».

ولم تصمد ثورة المسلمين إلا فى المنطقة الجبلية (جبال الحمراء) الواقعة بين أكام فليا لونجا وسيرا فيرسليا بجوار مدينة رفدة حيث احتشدت بعض البطون المغربية ، وحيث استطاع الثوار أن يقتحموا مقر سكان الجبال الأصليين ويفتكوا بعمال الحكومة وجندها ، مما دعى فرديناند إلى تسيير حملة قوية إلى المنطقة الجبلية بقيادة الفونسو دى آجيلاد دوق قرطبة فى مارس ١٥٠١ م هزم فيها النصارى ، وقتل منهم أعداد كبيرة وفى مقدمتهم قائد الحملة ، وكان لهذه الهزيمة التى نزلت بالأسبان أعمق الأثر فى البلاط الأسبانى ، إذ هرع فرديناند إلى غرناطة ورأى بالرغم من سخطه أن يجنح إلى اللين والمسالمة ، فأعلن العفو عن الثوار ، شرط أن

يعتنقوا النصرانية خلال ثلاثة أشهر أو يغادروا أسبانيا تاركين أملاكهم للدولة ، فآثر معظمهم النفى والجواز إلى أفريقيا ، وهاجرت منهم جموع كبيرة إلى فاس ووهران وبجاية وتونس وطرابلس وغيرها ، وقدمت الحكومة الأسبانية السفن اللازمة لنقلهم مغتبطة إذ كانوا أشد العناصر مراسا وأكثرها نزوعاً إلى الثورة(١٠٤) .

والواقع إن خطر الثورة بلغ ذروته بعد أن تلقى الثوار الأندلسيين الدعم الكافى والتحريض على القتال من إخوانهم فى شمال أفريقيا ، فشعرت الحكومة الأسبانية على أثره بحافز جديد لمشروع طويل الأجل يهدف إلى استمرار الحرب الصليبية ، وذلك بنقل الحرب إلى أفريقية ، واعتبرت الحكومة الأسبانية الحرب هناك حلقة طبيعية للسيطرة على غرناطة ، خاصة وأن الوقت أصبح مناسباً لإنجاز المشروع لما تشهده بلدان المغرب من إنحلال أثر الخلافات بين الحكومات الجزائرية والمغرب وتونس ، وكذلك بين سكان الجبال وسكان السهول وبين السكان الأصليين والمهاجرين الأندلسيين ، وفى الواقع كانت أراضى شمال أفريقيا أرضاً غير مناسبة للأسبان لخوض تلك الحروب ، ولكن سكانها المسلمين كانوا غير ملمين بوسائل قشتالة الحربية ، فضلاً على إستغلال الأسبان الخلافات الداخلية والعديد من الإمكانيات .

وكان البابا الكسندر السادس قد بارك الحرب الصليبية الأفريقية منذ فترة طويلة فى عام ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م وسمح باستمرار جباية الضرائب لتغطية تكاليف هذه الحرب ، والتى تأجلت مدة عشر سنوات ، حاربت خلالها الجيوش الأسبانية فى إيطاليا ، فأهملت الجبهة الجديدة ضد الإسلام فى أفريقية ولم تشهد نشاطاً سوى على ميناء مليلة سنة ٩٠٣ هـ / ١٤٩٧م(١٠٥) ، بقيادة دوق مدينة شدونة Sidonia ، ومنها أخذ الأسبان يتتبعون فى قلق تفاقم الصراع بين بنى وطاس والأشراف(١٠٦) .

وتيقنت قشتالة الخطر الداهم عبر بوابة شمال أفريقيا ، مما أشعل حماس الشعب الأسبانى الدينى ، فأيقظ ذلك الشعور بضرورة شن حرب صليبية ضد الإسلام ، وساند ذلك الشعور خمنيس والملكة ، إلا أنه لم تتخذ إجراءات عملية حتى وفاة الملكة عام ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م ، إذ نفذ خمنيس وصية الملكة الأخيرة ، وهى أن يبذل الملك جهوده لفتح أفريقيا وحرب المسلمين ، فأجتاح حماس خمنيس كل العقبات ، وأعد حملة فى مالقة Malaga أبحرت إلى شمال أفريقيا فى خريف عام ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م (١٠٧) بقيادة دون رايمون دى قرطبة ، فوصل الأسطول بعد أن اعترضته رياح معاكسة ، وكان التأخير مفيداً للأسبان ، إذ انسحب المحاربون بعد أن ملوا الإنتظار وقلت المؤن فسهل ذلك مهمة المهاجمين ، الذين حاصروا المرسى الكبير ، عندئذ اجتمع أهل المدينة وأصحاب المشورة الذين رأوا عدم جدوى المقاومة ، لكثافة الجنود الأسبان وقروا عقد إتفاقية مع الأسبان تضمن لهم السلامة وحرية الإنسحاب من المدينة ، وبذلك تم الإستسلام(١٠٨).

وكان أن فتح الأسبان سوقاً تجارياً بجانب مدينة المرسى الكبير ، وذلك لتزويد الحامية بما يلزمها من المواد الغذائية ، مقابل ما لدى الأسبان من ذهب وفضة فنشأ تبادل تجارى مع المسلمين فى الشمال الأفريقى .

وأراد القائد الأسبانى على مدينة المرسى الكبير ، القيام بمناورة حربية حول قرية مسرغين المعروفة بثراء وغنى أهلها ، فغادر المدينة فى ٢١ شعبان ٩١٣ هـ / ٦ يناير ١٥٠٧ م ، ومعه كامل الحامية الأسبانية ، ثم هاجم السكان وقتل القادرين على حمل السلاح وساق البقية أسرى ، إلا أن رجال القرى الأخرى عندما علموا بذلك ، اندفعوا لإنقاذ إخوانهم ، كما بادرت مدينة وهران حيث قيادة المعقل الإسلامى بإرسال قوة ، فتجمعت تلك القوى وأنقذوا أهالى مسرغين من الأسر .

وتطايرت أنباء انتصار مسرغين على الأسبان إلى مختلف الجهات المغربية ، وفهم العامة أبعادها ، فاستعدوا للجهاد الأكبر ، إلا أنه وجدت هنالك فئة من

المنافقين رأت الإفادة من هذا الوضع الجديد والإستعانة بالأسبان ضد إخوتهم كما استغل الحاكم الأسبانى للمرسى الكبير الفرصة فبذل جهوداً بواسطة جماعة اصطفاهم من الأعراب المحيطين بالمرسى الكبير والملقبين بالمغطسين(١٠٩) ببث جذور الفتنة والشقاق بين المسلمين ، وترغيبهم ببذل الإعانات والمساعدات ، وذلك تمهيداً لاحتلال وهران . ونجحت مساعى الحاكم الأسبانى إذ أعلن يحيى الثابتى الثورة ، وتغلب على مدينة تنس بمساعدة الأسبان وحمايتهم ، وبذلك أنغمست الجزائر فى الفتن الداخلية التى كان يبثها الأسبان ، فجهز أبو حمو الثالث جيشه لقتال ابن أخيه بتنس واشتعلت نيران الحرب الأهلية وكانت المعارك الأولى نصراً للسلطان أبو حمو على ابن أخيه لولا رفض جيش تلمسان الاستمرا فى القتال، فثبت يحيى ابن عم السلطان فى تنس ، وعادت جموع أبى حمو إلى تلمسان(١١٠) ، وهكذا مضت القوات الأسبانية بقيادة حاكمها تمهد لاحتلال النقطة التالية وهى وهران .

وكانت وهران مهبط التجار الأوروبيين وبالذات القطلونيين ، والجنويين ، وكان سكان وهران أعداء لملك تلمسان ، فلم يقبلوا بولاته ، ماعدا أميناً للمال ، وقابضاً لدخل الميناء وكان التجار يجهزون سفناً شراعية وأخرى مسلحة ، يهاجمون بها سواحل قطلونية وجزر يابسة ومنورقة وميورقة ، حتى صارت المدينة تزخر بالأسرى المسيحيين(١١١) مما دفع الحكومة الأسبانية بالإسراع فى أحتلال المدينة ، إذ أرسل فردناند اسطولاً كبيراً عام ٩١٥ هـ / ١٥٠٩ إلى وهران لمحاربة أهلها وتخليص المسيحيين ، إلا أن الأسطول تلقى هزيمة بسبب سوء التنظيم ، فأعاد الملك المحاولة فجمع بمساعدة بعض الأساقفة والكردينال خمنيس أسطولاً أضخم من الأول تمكن من الإستيلاء على المدينة ؛ إذ خرج السكان يقاتلون بغير نظام وتركوا المدينة خالية ، فانتهز الأسبان الفرصة ودخلوا المدينة يوم الجمعة ٢٨ محرم سنة ٩١٥ هـ / مايو ١٥٠٩م(١١٢) .

كانت أسبانيا تسير فى معاركها الأفريقية حسب خطة مرسومة وبرنامج محكم ، فما كادت تثبت أقدامها فى الجناح المغربى من الجزائر حتى اتجهت إلى الجناح الشرقى وأخذت تستعد لإنزال الضربة القاصمة بمدينة بجاية ، التى كانت مركز أشعاع حضارى وعلمى ، رغم ما شهدته من الفتن والأطماع حول العرش ولم تغب هذه الأمور عن أسبانيا فارسلت أسطولاً بقيادة بدور نافارو فى ٣٠ نوفمبر ١٥٠٩ م ، مكوناً من عشرين سفينة على متنها عشرة آلاف رجل من صفوة الجيش فاستطاعوا أن يحتلوا المدينة على الرغم من دفاع المجاهدين الكبير ، وما كادت أنباء النصر فى بجاية تبلغ مسامع أسبانيا والبلاد النصرانية ، حتى أقيمت الإحتفالات والصلوات ، وأعلنت الأعياد ، أما فى البلاد الإسلامية فقد أحدثت هذه النكبة أسى عميقاً وساد القسم الشرقى من البلاد الهلع ، فبادر السلطان الحفصى بإسترضاء الملك الأسبانى أسوة بملك تلمسان بعد نكبة وهران ، كما قرر سكان الجزائر وعلى رأسهم الشيخ سالم التومى ، وجوب استرضاء الأسبان وعقد إتفاق معهم يصون حياتهم ، ويضمن بقاءهم . واتفق الطرفان الجزائرى والأسبانى على معاهدة تم بموجبها تعهد الجزائريين بإطلاق سراح الأسرى وأن لاتتعرض للسفن النصرانية ، وأن يدفع الجزائريون للأسبان مبلغاً مالياً اعترافاً بالتبعية(١١٣) .

وقد ازدادت الخلافات حدة بين فرديناند وخمنيس الذى كان يرى ضرورة التوغل فى أفريقية حتى مشارف الصحراء الكبرى بدافع من روح صليبية ، بينما لم يهتم الملك اهتماماً كافياً بأفريقية ، بل أخذ فى الأعتبار الأول حماية إيطاليا من هجوم ارجوان ، فاكتفى باحتلال محدود لسواحل أفريقية، يكفى لحماية السواحل الأسبانية من الهجمات الإسلامية . واكتفى الجيش الأسبانى فى عهد فرديناند بالاستيلاء على بعض المواقع الإستراتيجية ، وإقامة معسكرات عليها تاركاً البلاد الداخلية للسكان المسلمين ، فدفعت أسبانيا نتيجة ذلك الثمن غالياً ، إذ استطاعت القوى الإسلامية القيام بأعمال جهادية بحرية ، انطلاقاً من القواعد الإسلامية المقامة على إمتداد الساحل (١١٤) .

وكان أن أمعن الملك الأسبانى فى الإهتمام بالجناح الشرقى حيث كانت طرابلس أقوى مركز يمكن أن يتخذ لمواجهة الخطر العثمانى فى البحر المتوسط ، لأنها أكبر مدينة فى الجناح الأفريقى الشرقى ، وأقوى نقطة للدفاع عنه من الهجوم من الشرق ، وأقرب نقطة لتمويل ونجدة الجيوش التى تغزو الشرق فى حالة شن هجوم نصرانى على الأراضى المقدسة .

وكانت طرابلس تمتاز بنصيب وافر من الثروة والرفاهية علاوة على موقعها الجغرافى الهام وهو مادفع الطامعين للإستيلاء عليها وعلى بقية البلاد الإسلامية المجاورة لها والإستيلاء على ثرواتها فائدة أخرى وهى منع المسلمين من الإنتفاع بها فى تكوين الجيوش والأساطيل وتقوية القلاع التى قد تحول بينهم وبين احتلالها هى وسائر المدن الأخرى ، وبذلك يصبح مركز مالطة بل والشمال الأفريقى فى خطر(١١٥) .

وكان أن انتهز الأسبان فرصة إستنجاد أحمد الحفصى بهم ، وذلك على والده الناصر إثر خلاف بينهما . وصادف أن وفد تجار من الأسبان كانوا فى طرابلس ، فلما عرفوا الحال السياسى أخذوا يغرون حكومتهم باحتلال طرابلس ويقللون من شأنها فى الدفاع عن نفسها ، ويبالغون فى وصف ثروتها الهائلة ، فشجع ذلك الملك الأسبانى على التعجل بإحتلالها ، وقد جهز مائه وعشرين قطعة بحرية ، وانضم إليها سفن أخرى من مالطة حملت على متنها قرابة عشرين ألف جنديا من الأسبان والطليان . وعندما بلغت أخبار الغزو الأسبانى إلى الطرابلسيين فر كثير منهم إلى المناطق المجاورة(١١٦) وكان الملك الأسبانى قد بعث بخطاب إلى قائده الكونت بدورنافارو يوضح فيه خطة الحكومة الأسبانية تجاه أملاكها على ساحل أفريقية ويحثه على ضرورة الإستيلاء على طرابلس ، وقد جاء فى الرسالة مايلى : (مونزون فى مايو سنة ١٥١٠ م) .

« إلى الكونت دون بيتر دى نافارا ، القائد العام بجيشنا ومستشارنا :

لقد تلقيت رسائلكم الثلاثة المؤرخة فى ٣ مايو ، والتى وجهتموها إلى من بلنسيه ، وذلك الخطاب المؤرخ فى الخامس من نفس الشهر ، والذى حمله إلى حارس بلاطى (ميجويل كابريرا Miguel Calbrea) ولقد أصدرت أوامرى فى هذه الساعة بأن يطلب من (ألونزو سانشيز Alonzo Sanches) كتابياً بالعمل فوراً على طحن ألف كيس من القمح وفى نفس الوقت فطائر البشماط المصنعة من بعض هذا الدقيق ، وهى مؤنة تكفى ثمانية آلاف رجل لمدى خمسة عشر يوماً على الأقل ، ونظرًا لنقص الطعام فى بلنسيه حالياً ، فإننى قد كاتبت كذلك (فارقاس – Vargas) خازن مدينة مالقة وطلبت منه على الخصوص أن يبعث إليكم حال تسلمه لمكتوبى ، كل المؤن التى فى إمكانه الحصول عليها ، حتى تتزود بها فى أسرع وقت ولكى تتمكنوا من الرحيل إلى طرابلس . كما أننى قد أمرت نفس الخازن بأن يبعث إليكم عشرة آلاف (دوكات) وبمشيئة الرب سيتمكن الأسطول عند وصوله إلى صقلية من إستكمال تموينات ، ذلك أن نائب ملك هذه المملكة قد أخبرنى كتابياً بأن كل شيء جاهز وأعتقد - كما سبق لكم وأن ذكرتم لى فى خطاباتكم مراراً - أننا إذا ماأردنا أن نحافظ على وجودنا فى أفريقية فإنه يتحتم علينا أن نحتل مدن وهران وبجاية وطرابلس ، وفى حالة احتلالنا هذه الأخيرة يتوجب علينا أن نعمرها برمتها بالنصارى . وإلا فإن المغاربة الذين يسودون بقية مناطق البلاد(١١٧) .... » .

أقترب الأسطول الأسبانى من طرابلس ، ورسا فى مينائها ليلة الثامن عشر من ربيع الآخر سنة ٩١٦ هـ الخامس والعشرين من يوليو سنة ١٥١٠م ، وسهر بيدور نافارو على ترتيب جيشه واصدار التعليمات ، وفى اليوم التالى بدأ الهجوم إذ أطلقت المدفعية نيرانها واستسلمت المدينة فى ذلك اليوم(١١٨) حيث أبلغ القائد الأسبانى بيدور نافارو ملك صقلية بخطاب مرسل من طرابلس فى ٢٩ يوليه سنة ١٥١٠ ، بأن العمليات الحربية كانت عنيفة ، إلا أنه هنأ نفسه بالنصر الذى تم على يديه(١١٩) .

وقد ابتهجت أوروبا بسقوط طرابلس فى أيدى الأسبان ، وأقام نائب البابا احتفالات بسقوط هذه المدينة العربية الإسلامية فى أيدى النصارى ، كما استاء المسلمون لهذا الإحتلال ، وأرسل رئيس منظمة فرسان يوحنا إلى فرديناند ملك أسبانيا يهنئة بالنصر ويرجوه أن يتابع حملاته فى أفريقية(١٢٠) .

وكان أن طرد نافارو جميع الطرابلسيين حسب التعليمات الملكية السابقة من مدينتهم ، وهدمت المنازل والمبانى العامة ، ثم استعملت المواد المأخوذة من تلك الخرائب لبناء أسوار جديدة ، على نمط التحصينات الأوروبية ، وبعد أن فرغ نافارو من رفع راية الملك الكاثوليكى على طرابلس ، وتقبل يمين الولاء نيابة عن فرديناند ، عهد بقيادة المدينة إلى مساعده (دون خايمى بيدرو ريكيزنس (Don Jayme Pedro Reguesens) وترك له قوات ومدفعية كافية للإحتفاظ بسيطرته عليها(١٢١) .

وقد أراد الكونت بيدرونافارو أن يجعل من طرابلس نقطة انطلاق لغزو بقية الشمال الأفريقي وقد بدأ بمحاولة بسط نفوذ بلاده على جزيره جربة التى لا تبعد عن طرابلس إلا بخمسة وثلاثين فرسخاً ، وظن أن العملية سهلة ، فتوجه إلى مضيق القنطرة(١٢٢) بأسطول يتكون من ثلاث عشرة وحدة بحرية ، لكن فظائع الأسبان فى طرابلس جعلت الأهالى على جانب كبير من اليقظة والاستنفار ، ولما اقتربت السفن من الساحل أطلقوا عليها النار ، فمات أحد الموفدين إليهم ، وأيقن نافارو بعزم الأهالى على الدفاع ، فعدل عن الإشتباك فى حرب مع جزيرة جربه وعاد إلى طرابلس مرجئاً عملية الغزو إلى وقت آخر مناسب(١٢٣) وكان ذلك فى ٢٥ جمادى الأولى ٩١٦ هـ / ٣٠ أغسطس ١٥١٠ م فزحف مرة ثانية ومعه اثنا عشر ألف جاؤا من طرابلس وثلاثة آلاف من بجاية ، فهزم بيدرو نافارو، وبلغت خسائره ألفاً وخمسمائة قتيل ، فاضطر إلى التراجع (١٢٤).

والواقع أن القيادة الأسبانية أرادت أن تحتل موقعاً استراتيجياً على الساحل الشرقى التونسى مهما كلفها الأمر(١٢٥) كما رغب قائدها بيدرو نافارو فى أن يحقق ذلك الهدف قبل عودته إلى أسبانيا ، فضلاً عن أن يجوب بحار ساحل أفريقية الشمالية ، بحثاً عن فرصة للثأر من الهزيمة التى منيت بها الجيوش الأسبانية فى جربة وبعد أن ترك فى طرابلس القوات اللازمة للدفاع عنها ، اصطحب معه ستين سفينة وعلى متنها ثمانية آلاف محارب(١٢٦) ، واتجه نحو الشمال حيث جزائر قرقنة(١٢٧) ، فأنزل بها خمسمائه من جنودها المدربين ، لكن أهل قرقنة لم يكونوا دون أهل جربة استعداداً وتصميماً ، فما كاد يستقر المقام بالأسبان ، حتى كر عليهم أهل جزائر قرقنة ، فى هجوم قوى ، كان النصر فيها للمجاهدين ، إذ قضوا على كامل رجال الحملة الأسبانية وعاد بدرو نافارو إلى بجاية فى شهر فبراير سنة ١٥١١ م ، ثم عزله الأسبان(١٢٨) .

وبينما كان الملك الأسبانى غارقاً فى مشاكل السياسة الأوروبية ، مما أفقده جزءاً من إهتمامه بالشئوون الأفريقية كانت هنالك قوة جديدة قد أخذت تبرز فى شمالى أفريقية إذ ظهرت أعمال جهادية قام بها السكان ، والمهاجرون الأندلسيون ، ضد الأراضى الأسبانية والسفن النصرانية ، يتقدمهم الأخوان بربروسا - عروج وخير الدين - فبعد اشتغالهما بالجهاد البحرى فترة من الوقت ، أقام هذان المجاهدان ذائعا الصيت فى تونس بموافقة سلطانها الحفصى محمد ، ومن هناك أخذا ينشران الرعب والذعر على الشواطىء الأسبانية والإيطالية(١٢٩) مما أكسبهما ولاء وإخلاص غالبية المجاهدين المغاربة نتيجة لغاراتهم الناجحة ، كما استطاع الأخوان السيطرة على السواحل الجزائرية فترة زمنية(١٣٠) فاتجها بأنظارهما فى البداية إلى بجاية ، وهاجماها أولاً سنة ١٥١٢ ، لكن الأسبان أجلوهما عنها ، فاتجها إلى جزيرة جربة حيث ظلا فيها يستجمعان قواهما سنة ١٥١٣ ، وكان وجودهما بالجزيرة تهديداً للأسبان فى طرابلس ، غير أن العاصفة هبت من ناحية

أخرى ، وضمن عروج الأرخبيل الـذى كـان يحتله الجنويـون ، ثـم قـام الأخـوان بتوحيد جهودهم ، وعادوا إلى محاصرة بجاية حيث لم يكتب لهما النجاح(١٣١).

وقد رسا الأخوان عروج وخير الدين فى السواحل الجزائرية لقضـاء بعض المهمات ، فاتصل بهما الأهالى ملتمسين منهمـا طـرد الأجـانب وانقـاذ ثغورهـم ، ملبى الأخـوان نداءهـم ، وكـان أول مـن شرعوا فـى انقـاذه مدينـة جيجـل سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤ م(١٣٢) بمساعدة الأمير ابـن القـاضى ، وألـزم عـروج أهـالى جيجل دفع زكاة العشر على الحبوب والثمار مما هو معمول به(١٣٣) .

وعندما علم الجزائريون بوفاة الملك الأسبانى فردينـاند ، انتهـزوا الفرصـة ، واستمسكوا بخير الدين لحماية بلادهم ، وبايعوه أميراً على البـلاد ، إلا أنـه سخط عليهم لخيانة بعضهم واتصالهم بالأسبان فغادرهم سنة كاملة ، ثم ألحوا فى عودته، وأكدوا عليه قبول دعوتهم ، فأظهر امتناعاً ، ثـم لبى دعوتهـم علـى أن يشـاركه أخوه عروج ، فسار فى البداية على مدينة شرشـال فضمهـا إليه سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م ، وتقـدم بعدهـا إلى مدينـة الجزائـر ، فأنقذهـا مـن الأسبان . إلا أن الدسائس أخذت تعمل عملها ، إذا انقلب ضده حاكم الجزائر ، وبيت له العـداوة مع الأسبان الموجودين فى الحصن فكأنهم بذلك حسدوه ، فنشط عـروج للإنتقـام من مشيخة مدينة الجزائر ، فقضى على حاكمها سالم التومى ، ونصب نفسه أميراً على الجزائر ، وفى اثناء ذلك استنجد يحيى بن سـالم التومـى بالأسبان فـى مدينـة وهران فجهز له هؤلاء أسطولا ضخماً ، لقى مقاومة عنيفـة مـن الأهـالى وعـروج ومهاجرى الأندلس ، فانهزم الأسبان وتفرقت جموعهـم ، وعندئـذ توجـس أهـالى الجزائر خيفة من تسلط الأتراك عليهم وخروج الأمر منهم ، فاهتموا بحاكم مدينة تنس حميد بن العبيد مـن بنـى سـهل الـذى راسـل الأسبان بـدوره يحرضهـم علـى المساعدة في طرد الأتراك . وقد تعددت المراسلات حتى وصلت حملـة إلى الجزائر فى ٣٠ سبتمبر ١٥١٦ م فأسرع عروج وصد الحملة بمساعدة الجالية الأندلسـية ،

وقضى على حركة المتآمرين ، ثم أخذ عروج فى توسيع نطاق حكمه ، فضم متيجة ومليانة ثم بلاد القبائل(١٣٤) ونصب عليها أخاه خير الدين وأقامه بدلس . ثم هاجم تنس وفتحها فى جمادى الثانية ٩٢٣ هـ / يناير ١٥١٧ م ، وقتل حاكمها الموالى للأسبان. ثم قسم إدارة البلاد مع أخيه خير الدين فاضطلع هو بغربها وجعل مقره مدينة الجزائر ، بينما حكم الجزء الشرقى خير الدين ومقره تدلس .

وقد استعمل عروج أخاه أسحاق على قلعة هوارة ، وأكد عليه فى تشديد الضغط على الأسبان المقيمين بوهران وقطع الإمدادات عنهم . وعندما جاء أبو حمو الثالث ومعه الأسبان ، ودارت المعارك هناك ، استطاع الأتراك أن يصدوا أبو حمو والأسبان عن القلعة ، مما جعل أبا حمو يعيد محاولته ، فحاصر القلعة ، وضيق عليها الخناق مدة ستة أشهر ثم رفع الحصار عنها .

ثم انتقل الميدان بعد ذلك إلى تلمسان حيث طلب أهلها من عروج مساعدتهم ، بعد أن عاد إليها أبو حمو الثالث وحلفاؤه الأسبان ، فحاصروها ووقفوا فى وجه عروج وقاتلوه ، وقد استمر عروج يخوض غمار الحرب حتى استشهد هو وجماعته معه فى الميدان سنة ٩٢٤ هـ / ١٥١٨ ، وأعاد الأسبان أبا حمو إلى عرشه المهزوز على أن يكون حليفهم ضد الأتراك ، ويدفع لهم سنوياً مبلغاً مالياً كبيراً(١٣٥).

* * *

يتضح مما سبق مدى التفكك السياسى فى الشمال الأفريقى ، والذى بلغ مداه فى أوائل القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، على الرغم من التهديد الخارجى ، فنجد مثلاً طرابلس تستعين بفاس ضد الحفصيين ، وفى شرق الجزائر يستمر النزاع بين الأمراء الحفصيين من جهة ، وتتنازع فيما بينهما إمارات بربرية صغيرة فى بلاد القبائل من جهة أخرى ، كل ذلك سهل على الغزاة الأسبان

الإستيلاء على أهم الموانى الجزائرية الإستراتيجية ، علاوة على موانىء مراكش فيما بين ٩١٥ هـ / ٩٢١ هـ - ١٥٠٩/١٥١٥ م ، وذلك ضمن خطة مرسومة للسيطرة على المغرب العربى كله كخطوة أولى للوصول إلى الشرق حيث التجارة الشرقية والأماكن المقدسة .. وهيأ الله تعالى لشمال أفريقيا مجموعة من المجاهدين وعلى رأسهم عروج وخير الدين إثر اشتداد الصراع بين أتباع الإسلام وأتباع النصرانية ، والذى جذب عدداً كبيراً من البحارة المغامرين كانوا قد نشأوا فى خدمة أسطول الدولة العثمانية ، فاستطاعوا أن يحرروا مناطق عدة من الشمال الأفريقى ، لفترة قصيرة حتى أجلاهم الأسبان عنها بمساعدة بعض الحكام والأهالى، بعد أن رأوا فى المجاهدين الأتراك والأندلسيين أمماً دخيلة عليهم ، لذلك لم يتمكن عروج وخير الدين من تثبيت دعائم حكمهما وتوحيد المناطق لمواجهة العدو . وإن خاضا معارك جهادية مشرفة وأشعر أسبانيا أن فى الميدان رجالاً وأن وجودها فى الشمال الإفريقى سيكلفها الكثير من الدماء والأموال وأنه لن يطول مداه .

إن الإجراءات التى اتخذها عروج وخير الدين لمواجهة الخطر الأسبانى لم تكن ترقى إلى مستوى صد الهجمات الأسبانية ، ولا يمكن أن تصل لمستوى دولة حديثة قوية ، فالمجاهدون كانوا يواجهون امبراطورية لها خبرتها وإمكانياتها الحربية فضلاً عن مساعدة بعض الأهالى المسلمين لها لذلك جاءت مواجهة المجاهدين لأسبانيا غير متكافئة ، أمام ذلك الوضع المتدهور اتضحت أهمية وجود دولة إسلامية قوية تستطيع توحيد المغرب للوقوف أمام القوى النصرانية ، وهذا ما حاول تحقيقه خير الدين بربروسا .

الهوامش

(١) محمد العروسى المطوى ، الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب . بيروت ، دار الغرب الإسلامى ، ١٩٨٢ ، ص ٢٤١ .

(٢) نهر دويره يقع فى شمال غرب شبه الجزيرة الأيبيرية ويصب فى المحيط الأطلسى ، انظر محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس ، ص٢٩ .

(٣) محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، القاهرة لجنة التأليف والنشر ، ١٩٦٦ ، ص ١٩-٢٠ .

(٤) نهر التاجه يقع فى شبه الجزيرة الأيبيرية ويصب فى المحيط الأطلسى وتقع عليه مدن طليطلة وأشبونه .

(٥) طليطلة يسميها الأسبان توليدو Toledo وتقع إلى الجنوب من مدينة مدريد على نهر تاجو وكانت عاصمة ملوك قرطبة ، انظر محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٦٦ .

(٦) دولة المرابطين عاشت فى بلاد المغرب من سنة ٤٧٩-٥٤٠ هـ / ١٠٨٦- ١١٤٥ م ، واستطاع يوسف بن تاشفين أن يضم بلاد الأندلس بعد معارك عديدة استغرقت عشرين عاماً فيما بين سنتى ٤٨٣ ، ٥٠٢ هـ / ١٠٩٠ - ١١٠٩م ، وأبرز تلك المعارك موقعة الزلاقة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ، ودام حكم المرابطين بالأندلس زهاء خمسين عاماً ، واستطاعوا فيها أن يحافظوا على رقعة الأندلس .

انظر محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس ، القسم الأول ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٤ م ، ص ٢٥-٢٦ .

(٧) سرقسطة Saragosse مدينة فى أسبانيا وتسمى قديماً سيزاريا أو غسطا ، وكانت قاعدة بلاد أرغون تقع على نهر ابره ، انظر سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، جـ١، ص٢٥١ .

(٨) طرطوشة مدينة شرق بلنسيه وقرطبة قريبة من البحر . انظر اسمعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، ص ٢٥٧ .

(٩) أشبونه وشنتره وشنترين ببلاد البرتغال من مقاطعة استرامادوره تقع علـى الشـاطىء الأيمـن من نهر تاجه ، انظر محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس ، ص ٨٩ .

(١٠) باجه مدينة صغيرة فى جنوب بلاد البرتغال .

(١١) يابره مدينة تقع شمال باجه من بلاد البرتغال ، انظر محمدعبد الله عنان ، نهاية الأندلس ، ص ٨٩ .

(١٢) محمد عبد الله عنان ، المرجع السابق ، ص ٢٠ .

(١٣) محمد العروسى المطوى ، الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب ، ص ٢٤١ - ٢٤٣ .

(١٤) ميورقه جزيرة فى شرق الأندلس ، بالقرب منها جزيرة يقـال لهـا منورقـه ، انظـر الإمـام شهاب الدين أبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى ، معجم البلـدان ، دار صادر ، بيروت ، جـ٥، ص ٢٤٦ .

(١٥) بياسة مدينة كبيرة بالأندلس من أقليم جيان بينهـا وبـين أبـده فرسـخان ، انظـر يـاقوت الحموى ، معجم البلدان ، ص٥١٨ .

(١٦) قرطبة مدينة تقع ببلاد الأندلس على الشاطىء الأيمن من نهر الـوادى الكبـير قائمـة علـى سفح جبال سيرامور ، انظر اسمعيل سرهنك ، حقائق الأخبار ، جـ١، ص ٢٦٢ .

(١٧) استجه كوره بالأندلس على نهر سنجل وأعمالها متصلة بقرطبة ، والمدور حصن بالقرب من قرطبة ، بلنسيه مدينة شرق قرطبة وتدمير ، انظرلا ياقوت الحموى ، معجم البلـدان ، جـ١ ، ص ١٧٤ ، ٤٩٠ ، جـ٥ ، ص٧٧ .

(١٨) دانية مدينة من أعمال بلنسيه على ضفة البحر المتوسط شرقاً ، يـاقوت الحمـوى ، نفـس المرجع ، جـ٢ ، ص٤٣٤ . لقنت حصنان من أعمـال لارده ، يـاقوت الحمـوى ، معجـم البلدان ، جـ٥ ، ص٢١ .

اريولة فى الشرق من ناحية تدمير . ياقوت الحموى ، نفس المرجع ، جـ ٥، ص١٦٧ .

قرطاجنه مدينة قريبة من الشى من أعمال تدمير، ياقوت الحموى، نفس المرجع، جـ٤، ص٣٢٣.

شاطبة مدينة فى شرق قرطبة ، ياقوت الحموى ، نفس المرجع ، جـ٣ ، ص٣٠٩ .

مرسيه مدينة فى أسبانيا تقع جنوب شرق مدريد ، انظر اسمعيل سرهنك ، نفس المرجع ، جـ١ ص ٢٦٠ .

جيان مدينة لها كورة واسعة بالأندلس تتصل بكورة البيرة شرق قرطبة ، انظر ياقوت الحموى ، نفس المرجع ، جـ٢ ، ص ١٩٥ .

اشبلية مدينة بأسبانيا على شاطىء الوادى القديم وهى المدينة الرابعة ، انظر اسمعيل سرهنك ، نفس المرجع ، جـ١ ، ص ٢٦٠ .

(١٩) بطليوس مدينة حصينة من أعمال ماردة غرب قرطبة ، ياقوت الحموى ، نفس المرجع ، جـ١ ،ص ٤٤٧ .

ماردة مدينة بأسبانيا ببلاد استرا ماوردة من أقليم بطليوس على الشاطىء الأيمن من راوى يانه ، انظر اسمعيل سرهنك ، نفس المرجع ، جـ١ ، ص٢٥١ .

شلب مدينة فى غرب الأندلس قاعدة ولاية اشكونية ، ياقوت الحموى ، نفس المرجع ، جـ٣ ، ص ٣٥٧ . شنتر به حصن يقع فى شرق قرطبة ، ياقوت الحموى ، نفس المرجع، جـ٣ ، ص ٣٦٧ .

لبلة قصبة كورة بالأندلس شرق اشكونية وغرب قرطبة ، ياقوت الحموى ، نفس المرجع، جـ٥ ، ص١٠ .

لبة مدينة فى المغرب ناحية المحيط ، ياقوت الحموى ، نفس المرجع ، جـ٥ ، ص١٠.

قادس جزيرة فى غرب الأندلس بالقرب من شذونه ، ياقوت الحموى ، نفس المرجع ، جـ٤ ، ص٢٩٠ .

شريش : مدينة من كورة شذونة وهى قاعدتها ، انظر ياقوت الحموى ، نفس المرجع ، جـ٣ ، ص٣٤٠ .

(٢٠) محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس ، ص ٢٠ .

(٢١) يقصد بالعدوة المغربية ، بلدان الشمال الأفريقى .

(٢٢) عادل سعيد بشتاوى ، الأندلسيون المواركة ، دراسة فى تاريخ الأندلسيين بعد سقوط غرناطة ، القاهرة ، مطبعة انترناشيونال ، ١٩٨٣ م ، ص ١٧٨ .

(٢٣) يوسف أشباخ ، تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، مكتبة الخانجى ، ١٩٥٨ م ، ص ٤٤٥ .

(٢٤) عادل بشتاوى ، مرجع سابق ذكره ، ص ١٣١ .

(٢٥) كانت سلا عاصمة أقليم فاس عندما كان القوط يحكمون أفريقيا ، وهي محصنة على نهر أبي رقراق ، ويوجد بمصب النهر ميناء ترسو فيه سفن البضائع الأوربيـة ، انظر مـارمول كربخال ، أفريقيا ، الجمعية المغربية للتأليف والنشر ، الرباط ١٩٨٨م ، ترجمة محمد حجى وآخرون ، جـ٢ ، ص ١٣٥ .

(٢٦) أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى:الأستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصرى ومحمد الناصرى ، الدار البيضاء ، دار الكتاب ١٩٥٤ م ، جـ٣ ، ص٢١-٢٢. المعمورة مدينة صغيرة على نهر سبو ، على مقربة من سلا ، وقد أسست لتحمى المصب وتحول دون دخول سفن الأعداء إلى النهر ، وفي جوار المدينـة غابـة بهـا أشـجار البلـوط غليظة الحجم ، انظر الحسن بن محمد الوزان الفاسى ، وصف أفريقيا ترجمة محمد صبحـى ومحمد الأخضر ، الجمعية المغربية ، الرباط ، ١٩٨٠ م ، جـ١ ، ص ١٦٦ .

(٢٧) مارمول كربخال ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص ١٣٥ .

(٢٨) يوسف أشباخ ، مرجع سابق ذكره ، ص ٤٧١ - ٤٧٤ .

(٢٩) حسين مؤنس ، تاريخ المغرب وحضارته ، بـيروت ، العصـر الحديـث ١٩٩٢ م ، المجلد الثانى ، جـ ٣ ، ٣ص ٧٨ .

(30) J. H. Elliott: Imperial Spain 1369 , Edward , London , 1980,P.44.

(٣١) غسان على رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين فى البحـر الأحمـر ، بجـده ، دار العلم ١٩٨٥م ، ص١٤ .

(٣٢)محمد عبد اللطيف البحراوى ، فتح العثمانيين عدن ، القـاهرة ، دار الـتراث ، ١٩٧٩ م ، ص ٥٣ .

(٣٣)عبد الكريم كريم ، المغرب فى عهد الدولة السعدية ، الدار البيضاء ، شركة الطبع والنشر ١٩٧٧ م ، ص٥ .

(٣٤) محمد عبد اللطيف البحراوى ، مرجع سابق ذكره ، ص ١٢٥ .

(٣٥) ك . م. بانيكار : آسيا والسـيطرة الغربيـة ، ترجمـة عبـد العزيـز جـاويد ، القـاهرة ، دار المعارف ١٩٦٢ ، ص ٢٤ .

(٣٦) عبد الكريم كريم ، مرجع سابق ذكره ، ص٥ .

(٣٧) سبته تقع فى شرق القصر على مستوى الجزيرة الخضراء ، وهى مدينة لها ميناء جيد ، تبعد عن أسبانيا بعشرين ميلاً على مضيق جبل طارق ، انظر مارمول كربخال ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢، ص ٢١٦ .

(٣٨) عبد الكريم كريم ، مرجع سابق ذكره ، ص ٦ .

(39) Roger Lockye : Habsburg and Bourbon Europe 1470 - 1720 London 1982 .P.31 .

هنرى الملاح أميراً برتغالياً كاثوليكى المذهب .

(٤٠) حسين مؤنس ، مرجع سبق ذكره ،جـ٣ ،ص ٧٨ .

(٤١) جيمس دفى ، الأستعمار البرتغالى فى أفريقيه ، ترجمة الدسوقى المراكبى ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو ، ١٩٦٣ م ، ص ٣٢ .

(٤٢) محمد عبد اللطيف البحراوى ، فتح العثمانيين عدن ، ص ٥٦- ٥٧ .

(٤٣) حسين مؤنس ، مرجع سابق ذكره ، جـ٣ ، ص ٨٠ .

(٤٤) غسان على رمال ، صراع المسلمين مع البرتغال فى البحر الأحمر ، ص١٥ .

(٤٥) حسين مؤنس ، تاريخ المغرب وحضارته ، جـ٣ ، ص ٨٠ .

(٤٦) غسان على رمال ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٥ .

(٤٧) محمد بن تاويت ، تاريخ سبته ، الدار البيضاء ، دار الثقافة ، ١٩٨٢م ، ص ١٧٥ - ١٧٦ .

(٤٨) حسين مؤنس ، مرجع سبق ذكره ، جـ٣ ص ٨٠ .

(٤٩) حسين مؤنس ، مرجع سبق ذكره ، جـ٣ ، ص ٨٠ .

(٥٠) غسان على رمال ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧-١٨ .

(٥١)حسين مؤنس ، مرجع سبق ذكره ، جـ٣ ، ص٨٠ .

(٥٢) محمد بن تاويت ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧٩ .

(٥٣) القصر الصغير، مدينة تقع ما بين سبته وطنجه على الشاطىء ، انظر : أبو الحسن الوزان، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٥ .

(٥٤) حسين مؤنس ، مرجع سبق ذكره ، جـ٣ ، ص ٨٥ ، أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى ، الأستقصاء لأخبار المغرب الأقصى ، جـ ٤ ، ص ١١٤ .

(٥٥) مارمول كربخال ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص ٢١٠ .

(٥٦) حسين مؤنس ، مرجع سبق ذكره ، جـ٣ ، ص ٨٥ .

(٥٧) أصيلا : مدينة تقع على شاطىء المحيط الأطلسى ، انظر : الحسن بن محمد الوزان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ١، ص ٢٤١ .

(٥٨) مارمول كربخال ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص ٢١٠ .

(٥٩) أزمور مدينة فى دكالة على مصب نهر أم الربيع فى البحر المتوسط ، انظر الحسن بن محمد أبو الوزان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ١ ، ص ١٢٤ .

(٦٠) «من حييت بحياته الأرض» يعنى كأنه المطر يحيى الأرض « ومن شعاع عدله طاعته تما» يعنى أنه كان عادلاً فأطاعته الأرض كلها .

(٦١) الفاء زائده والجملة خير النصارى كلهم ، وحاز الروم كلها حلماً ، يعنى بحلمه طاعته الروم كلها .

(٦٢) كناية الدهين : أصلها الدهاقنه ، والدهقان مرتبة دينية عليا ، لكن اللغة العامية تقلب القاف همزة مضخمة ، وانقلبت هنا مع ياء الجمع إلى ياء مفخمة .

(٦٣) شابل اسم عمله برتغالية .

(٦٤) الفيشين ، اسم عائلة الملك البرتغالىAvis .

(٦٥) الغريب والغرباء = المساكين .

(66) Pierre De Geniral : Saures Inediles L` hisiare

Du Maroc Archives , Et Bibliotheques.
De Portugal - Paris , 1934, Tom l.P.P 9-14 .

(٦٧) دوا منول : يعنى الدوا منول . ودون فى اللغة البرتغالية أى السيد ، ومولى« كناوة الدهبان » يقصد بها رئيس طائفة الرهبان .

(٦٨) نريد من كمال فضلك أن تعمل لنا غرضنا وغرضك (يعنى أن هدفنا وهدفك فيما نطلبك فيه ، ونكون لك مطيعين : بأن الرجل الذى بعث إلى بلادنا ما جاء على عقولنا وخسر عليك (يعنى ضيع عليك) كثيراً ، مالا تقدر من المصالح (وتصلح) ، ونعلمك بأنه ما هو بخير لا مع النصارى ولا مع المسلمين ولا مع اليهود ، ولا يعمل إلا برأيه ، ولا

يستمع لمن يدبر عليه (يعني يقدم له المشورة) ، ونحن أهل البلد نقول له : اعمل ما يصلح على السلطان وعلى الناس (يعني ما يحقق مصلحة الدولة ومصلحة الناس) ، وأبى أن يأخذ لنا كلاماً (يعني رفض أن يسمع لمشورتهم) ، واشتغل أيضاً يشترى المسلمين (يعني يقرب بعض المسلمين منه) .

(٦٩) ونحن نخاف عليه من المسلمين أن يقتلوه ، ويؤخذ لنا عارك (يعني يقع علينا العار إذا أخذ لنا أمتك) أما هو ما علينا منه (يعني هو يكون قد جنى على نفسه) ، وأنت يا سلطان برتقال إذا رغبت أن تنقض حوائجك من بلادنا وأن نكون خدامك تبعث لنا رجلاً آخر يكون مثل (بن مارتن) فيكون عاقلاً وعارفاً بالمسائل ... وهذا لا يرجع إلينا بعد هذه المرة أبداً .

(70) Pierre De Geniral . Op. Cit. Tom I PP. 83- 84 .

(٧١) مستفتح : أى فاتح .

(٧٢) الصواب اللغوى : وسامحناكم .

(73)- Pierre De . Geniral : OP. cit. ; Tom I , P.P 95- 98.

(٧٤) أداة لمسح الأراضى فى القديم .

(٧٥) مارمول كربخال ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢، ص ٧١ .

(٧٦) الحسن بن محمد الوزان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ١ ص ١١٦ - ١١٨ .

(٧٧) الحسن بن محمد الوزان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ١ ، ص١١٦ - ١١٨.

(٧٨) أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٤ ، ص ١٤٣ - ١٤٤ .

(٧٩) الحمر : مدينة تقع جنوب مدينة أصيلا ، انظر الحسن بن محمد الوزان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ١ ، ص ٢٤١ .

(٨٠) الحسن محمد الوزان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ١، ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٨١) عبد الكريم كريم ، المغرب فى عهد الدولة السعدية ، ص ١١ .

(٨٢) حسن سليمان محمود ، ليبيا بين الماضى والحاضر ، القاهرة ، مؤسسة سجل العرب ، ١٩٦٢ ، ص ١٥٩ .

(٨٣) أحمد توفيق مدنى ، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا ١٤٩٢ - ١٧٩٢ م ، الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب ، ١٩٨٤ ، ص ٦٤- ٦٥ .

(٨٤) إبراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ ، الدار البيضاء ، دار الرشاد ، ١٩٧٨ م ، جـ ٢، ص ١٩٧ .

(٨٥) محمد خير فارس ، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثمانى إلى الإحتلال الفرنسى ، بيروت ، دار الشروق ، ١٩٧٩ م ص ١٥ .

(٨٦) أحمد توفيق مدنى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٥ .

(٨٧) عبد الرحمن بن محمد الجيلالى - تاريخ الجزائر العام ، بيروت ، دار الثقافة ، ، ١٩٨٠ ، جـ ٢ ، ص ١٩٥ - ١٩٨ .

(٨٨) تدلس : آخر مدينة فى أقليم الجزائر من جهة الشرق على ساحل البحر المتوسط ، انظر: مارمول كربخال ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢، ص ٣٧٢ .

(٨٩) عنابه : أو بونه مدينة عتيقة بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط ، انظر حسن محمد الوزان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص ٦١ .

(٩٠) تطوان : تقع على ضفة نهر قوس الذى ينحدر من الأطلس الكبير ويصب فى المحيط ، انظر مارمول كربخال ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢، ص ٢٢٢ .

(٩١) شارل أندرى جوليان : تاريخ أفريقيا الشمالية تعريب . محمد مزالى ، البشير بن سلامه ، تونس ، الدار التونسية ، ١٩٨٣ م ، جـ ٢ ، ص ١٨٧- ١٩٩ .

(٩٢) عبد الرحمن الجيلالى ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص ١٩٩ .

(93)- G. H Elliott : Emperial Spain. P. 35

(٩٤) عبد الرحمن الجيلالى ، مرجع سبق ذكره ، جـ٢ ، ص ١٩٩ .

(95) G .H Elliott : op. cit, .P . 35

(٩٦) أحمد توفيق مدنى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٣-٤٤ .

(٩٧) محمد عبده حتامله ، التنصير القصرى بمسلمى الأندلس فى عهد الملكين الكاثولكيين (١٤٧٤/ ١٥١٦) عمان ، الجامعة الأردنية . ١٩٨٠ م ، ص٦٠.

(٩٨) محمد قشتيليو : محنة الموريسكس فى أسبانيا ، تطوان ، مطبعة الشويخ ، ١٩٨٠ ، ص١٩.

(99) J. H. Elliot : Op. Cit. p. 39

(١٠٠) محمد عبدالله عنان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣١٥ .

(١٠١) البيازين حي في مدينة غرناطة ، انظر عادل سعيد بشتاوى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣١٥.

(١٠٢) عادل سعيد بشتاوى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١١- ١١٥ .

(١٠٣) بلفيق إحدى مدن مملكة غرناطة تقع شمال مدينة المريه ، انظر الخريطة ، محمد عبدالله عنان ، مرجع سبق ذكره .

اندرش : بلدة بالأندلس من كورة البيرة ، انظر ياقوت الحموى، مرجع سبق ذكره ، جـ ١ ، ص ٢٦٠ .

(١٠٤) نيخار وجونجار: مدن في مملكة غرناطة، انظر محمد عبد الله عنان ، مرجع سبق ذكره، ص٣٢٣.

(١٠٥) محمد عبد الله عنان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٢٣ - ٣٢٥ .

(106) J . H. Elliot : op. cit, p.41.

(١٠٧) شارل أندرى جوليان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص ٢٥٥ .

(١٠٨) مالقة مدينة بالأندلس عامرة من أعمال ريه سورها على شاطىء البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية .

انظر : ياقوت الحموى ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٥ ، ص ٤٣ .

(١٠٩) أحمد توفيق مدنى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٧ - ٩٨ .

(١١٠) المغطسين كلمة أسبانية .. Mogakezes

(١١١) أحمد توفيق مدنى ، المرجع السابق ، ص ١٠٣ - ١٠٩ .

(١١٢) الحسن بن محمد الوزان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص ٣٠ .

(١١٣) الحسن بن محمد الوزان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص ٣٠ - ٣١ .

(١١٤) أحمد توفيق مدنى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١٩ - ١٢٠ ، ١٢٦ - ١٢٧ .

(115) G. H Elliott , op. cit . p . 42.

(١١٦) أبى عبد الله محمد بن خليل غلبون الطرابلسى : التذكار فيمن ملك طرابلس وماكان بها من أخبار، تحقيق الطاهر أحمد الزاوى الطرابلسى ، طرابلس ، ليبيا ، مكتبة النور ، ١٩٦٧ م ، ص١٠٣.

(١١٧) ابن غلبون ، المرجع السابق ، ص ١٠٤ ، الطاهر أحمد الزاوى ، ولاة طرابلس من بداية الفتح العربى إلى نهاية العهد التركى ، طرابلس ، ١٩٧٠ م ، ص١٤٢ .

(١١٨) شارل فيرو ، الحوليات الليبية منذ الفتح العربى حتى الغزو الإيطالى ، ترجمة محمد عبد الكريم الوافى ، طرابلس ، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلام ، ١٩٣٧ م ، ص ٧٠ - ٧١ .

(١١٩) ابن غلبون ، المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

(١٢٠) شارل فيرو ، المرجع السابق ، ص ٧٤ - ٧٥ .

(١٢١) ابن غلبون ، المرجع السابق ، ص ١١١ .

(١٢٢) شارل فيرو ، المرجع السابق ، ص ٧٦ - ٧٧ .

(١٢٣) القنطرة مدينة تقع جنوب جربه على شاطئها .

(١٢٤) مارمول كربخال ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٣ ، ص ١٠٩ .

(١٢٥) الحسن بن محمد الوزان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص ٩٥ ، مارمول كربخال ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٣ ، ص ١٠٩ - ١١٢ .

(١٢٧) أحمد توفيق مدنى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٥ .

(١٢٨) شارل فيرو ، المرجع السابق ، ص ٨٥ .

(١٢٩) قرقنة : جزيرة تقع أمام صفاقس، انظر مارمول كربخال، مرجع سبق ذكره،جـ ٣،ص١٠١.

(١٣٠) أحمد توفيق مدنى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٥ .

(١٣١) شارل فيرو ، المرجع السابق ، ص ٨٧ .

(131) Stanford Shouu, A History of the Ottoman Empire and modern Turkey . Cambridge . London, 1976 . p . 96 .

(١٣٢) شارل فيرو ، المرجع السابق ، ص ٨٧ - ٨٨ .

(١٣٣) عبد الرحمن الجيلالى ، تاريخ الجزائر العام ، جـ ٣ ، ص ٣٧ .

(١٣٤) الحسن بن محمد الوزان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص ٥٢ .

(١٣٥) متيجة بلد فى أواخر أفريقيا (غرب الجزائر) من أعمال بنى حماد ، انظر ياقوت الحموى ، مرجع سبق ذكره ، ٣ .

مليانه: مدينة تقع غرب الجزائر، انظر مارمول كربخال، مرجع سبق ذكره، جـ ٢ ، ص ٣٩٩.

(١٣٦) عبد الرحمن الجيلالى ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٣ ، ص ٣٥ - ٤٤ ، أحمد توفيق مدنى ، مرجع سبق ذكره ، ص١٦٣ - ١٩١ .

ثبت المراجع

١ - إبراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ ، دار الرشاد ، الدار البيضاء ، ١٩٧٨م ، ج٢ .

٢ - أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق : جعفر الناصرى ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤م ، ج٣ .

٣ - أبى عبد الله محمد بن خليل غليون الطرابلسى ، التذكار فيمن ملك طرابلس وماكان بها من أخبار . تحقيق : الطاهر أحمد الزاوى الطرابلسى ، مكتبة النور ، طرابلس ، ليبيا ، ١٩٦٧.

٤ - أحمد توفيق مدنى ، الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا ١٤٩٢هـ /١٧٩٢م ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ١٩٨٤م .

٥ - إسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج١ ، ص١ ، المطبعة الأميرية ، مصر ، ١٨٩٤م .

٦ - جيمس دفى ، الاستعمار البرتغالى فى أفريقية . ترجمة : الدسوقى حسين المراكبى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٣م .

٧ - الحسن بن محمد الوزان الفاسى ، وصف أفريقيا ، ترجمة : عمر حجى ومحمد الأخضر ، الجمعية المغربية ، الرباط ، ١٩٨٠م ، ج١ .

٨ - حسن سليمان ، ليبيا بين الماضى والحاضر ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة، ١٩٦٢م .

٩ - حسين مؤنس ، تاريخ المغرب وحضارته ، العصر الحديث ، بيروت ، ١٩٩٢م ، مج٢ ، ج٣ .

١٠ - شارك أندرى جوليان ، تاريخ أفريقيا الشمالية . تعريب محمد مزالى والبشير ابن سلامة ، الدارة التونسية ، تونس ، ١٩٨٣م . ج٢ .

١١ - شارل فيرو ، الحوليات الليبية منذ الفتح العربى حتى الغزو الإيطالى ، ترجمة : محمد عبد الكريم الوافى ، المنشآت العامة للنشر والتوزيع والإعلام ، طرابلس ، ١٩٧٣م .

١٢ - شهاب الدين أبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ج٥ .

١٣ - الطاهر أحمد الزاوى ، ولاة طرابلس من بداية الفتح العربى إلى نهاية العهد التركى ، دار الفتح ، طرابلس ١٩٨٠م .

١٤ - عادل سعيد بشتاوى ، الأندلسيون المواركة ، دراسة فى تاريخ الأندلسيين بعد سقوط غرناطة ، مطبعة انترناشيونال ، القاهرة ١٩٨٣م .

١٥ - عبد الرحمن بن محمد الجيلالى ، تاريخ الجزائر العام ، دار الثقافة بيروت ، ١٩٨٠ م. ج٢ .

١٦ - عبد الكريم كريم ، المغرب فى عهد الدولة السعدية ، شركة الطبع والنشر، الدار البيضاء ، ١٩٧٧م .

١٧ - غسان على رمال ، صراع المسلمين مع البرتغاليين فى البحر الأحمر ، دار العلم ، جدة ، ١٩٨٥م .

١٨ - ك. م بانيكار ، آسيا والسيطرة الغربية ترجمة : عبد العزيز جاويد ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٢م .

١٩ - مارمول كربخال ، أفريقيا ، ترجمة : محمد حجى وآخرون ، الجمعية المغربية للتأليف والنشر ، الرباط ، ١٩٨٨م . ج٢ .

٢٠ - محمد بن تاويت ، تاريخ سبته ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ١٩٨٢م .

٢١ - محمد خير فارس ، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثمانى إلى الاحتلال الفرنسى ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٧٩م .

٢٢ - محمد عبد اللطيف البحراوى ، فتح العثمانيين عدن ، دار التراث ، القاهرة ، ١٩٧٩م .

٢٣ - محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس ، لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ، القسم الأول .

٢٤ - محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، لجنة التأليف والنشر ، ١٩٦٦م .

٢٥ - محمد عبده حتامله ، التنصير القصرى بمسلمى الأندلس فى عهد الملكين الكاثوليكين (١٤٧٤ - ١٥١٦م) ، الجامعة الأردنية ، عمان ، ١٩٨٠م .

٢٦ - محمد العمروسى المطوى ، الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب ، دار العز الإسلامى ، بيروت ، ١٩٨٢م .

٢٧ - محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق : إحسان حقى ، ط١ - دار النفائس ، بيروت ، ١٩٨١م .

٢٨ - محمد قشتيليو، محنة الموريسكس فى أسبانيا ، مطبعة الشويح ، تطوان، ١٩٨٠م.

٢٩ - نبيل عبد الحى رضوان ، مذكرات أوروبا فى التاريخ الحديث ، مذكرات لم تنشر .

٣٠ - يوسف أشباخ ، تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة : محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجى ، ١٩٥٨م .

1. J.H Ellio: Imperlspnin 1369, Edward, London. 1980.
2. Pierre De Geniral : Saures Inediles L'hisiare.
   Dumaroc Arhives, Etbibliothe yues
   De por 4 ugal - Paris, 1934, tom1.
3. Roger Lockye : Habsburg and bour bon Enrope 1470. 1720, London, 1982.
4. S anford shouu : History of the Ottoman Empire and Mobern Turkey. Campridge London, 1976.

اتحاد المؤرخين العرب

الجمعية العمومية الثالثة

١٧ رجب ١٤١٨هـ - ١٧ نوفمبر ١٩٩٧م

كلمة رئيس الاتحاد

حضرات الإخوة والأخوات ... الزملاء والزميلات

أعضاء اتحاد المؤرخين العرب

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد ،،،

فما أسرع ما تمر الأيام ، وما أسرع ما تتعاقب السنون والأعوام، ففى أوائل ديسمبر ١٩٩١ عقد اتحاد المؤرخين العرب اجتماعه الأول بالقاهرة . وكان على هذا الاتحاد - شأنه شأن كل وليد جديد - أن يواجه صعوبات الحياة ليشق طريقه فى عصر مضطرب بالأحداث . وأهم هذه الصعوبات كما أوضحنا فى كلمتنا فى اجتماع الجمعية العمومية فى السابع من ديسمبر ١٩٩١ - كانت كيفية جمع الشمل، أعنى شمل أعضاء أسرةالتاريخ فى العالم العربى - مشرقه ومغربه - بوصفهم يشكلون هيكل البناء وأداته وروحه وقلبه النابض ؛ وبعد ذلك كانت تأتى صعوبة توفير التمويل اللازم لدفع مسيرة الاتحاد ، وتمكينه من شق طريقه ومواصلة رحلته.

وكان أن عقدنا العزم على مواجهة هذه التحديات وغيرها فى ثبات وإصرار، حتى كان جمادى الآخرة سنة ١٤١٥هـ/نوفمبر١٩٩٤م وعندئذ عقد الاتحاد جمعيته العمومية الثانية بالقاهرة ، بعد أن استوى عوده واكتمل بنيانه واتضحت صورته ؛ وأخذ يحتل مكانه بين المؤسسات العلمية النظيفة التى يعتز بها الوطن العربى ، والتى تعمل فى إطار سليم متماسك ، أركانه سلامة الخلق ، وسمو الهدف، ونظافة اليد ، وجدية العمل ... بعيدًا عن الدخول فى مهاترات مع

منظمات أخرى مشبوهة انتحلت اسم المؤرخ العربى وتمسحت بالتاريخ ، والجميع برايا منها.

حضرات الأخوة والأخوات ... الزملاء والزميلات ...

واليوم نلتقى جميعًا فى رحاب اتحاد المؤرخين العرب ، كلنا أخوة متحابون، وزملاء متكافئون ، بعد أن وضحت الرؤية واستوى الطريق . لا رئيس ولا مرؤوس ، فالعلم لا كبير له ، وفوق كل ذى علم عليم . وإذا كان لاتحادنا رئيس، فهو رئيس إدارى ، يعمل لخدمة أعضاء الاتحاد ، وتوفير أسباب النجاح لهم لتحقيق رسالة سامية ترفع من شأن التاريخ العربى والمؤرخ العربى . وإذا كان اتحاد المؤرخين العرب يضم اليوم مجموعة من صفوة علماء التاريخ وشيوخه ، فإنه حرص فى عهده الجديد على ألا يغلق أبوابه فى أوجه الشباب الناشىء ممن يعملون فى حقل الدراسات التاريخية ، وذلك إيمانًا منا بأن شباب اليوم هم شيوخ الغد .

حضرات الأخوة والأخوات ... الزملاء والزميلات ...

لا أريد أن أطيل عليكم لأعدد لكم ما أنجزناه فى هذه السنوات الست من منجزات ، فأنتم أصحاب رؤية وأهل فكر ، ترون وتحسون وتحكمون . ومن يتصدى للحكم على عصور ولت وأيام أدبرت ، يستطيع أن يحكم على ما يراه بعينيه ويحسه بفؤاده ويسمعه بأذنيه ويلمسه بيديه ...

اليوم نستطيع أن نقول بكل ثقة وطمأنينة إن اتحاد المؤرخين العرب غدا صرحا شامخًا مكتمل البناء البشرى والفكرى ، يضم زهاء خمسمائه عضوًا من صفوة المشتغلين بالدراسات التاريخية فى وطننا العربى . له تقاليده الراسخه ، وندواته العلمية الناجحة ، ومجلته السنوية الجامعة ، ومقره الثابت بالقاهرة ، وميزانيته المستقرة الثابته ...

على أننا نقولها فى تواضع وأمانة : إذا كنا قد حققنا قدرًا من النجاح فإننا نأمل فى المزيد . إن اتحادنا ليس اتحاد ملائكة وإنما هو اتحاد بشر ، والبشر له

إمكاناته وقدراته التى يمكن تنميتها بمزيد من الإيمان . الإيمان بـا لله أولاً ثـم الإيمـان بسمو الرسالة وعظم الأمانة .

شكرًا لله عز وجل الذى هدانا لهذا وماكنا لنهتدى لـولا أن هدانـا ا لله ... وشكرًا لجميع أعضاء اتحاد المؤرخين العرب ، الذيـن على اكتـافهم يقـوم الصرح ويستوى البناء ... شكرًا لزملائى سعادة نائب الرئيس وحضرات الأخويـن الأمـين العام وأمين الصندوق ، ولأعضاء مجلس الإدارة الذيـن اعتمـدت عليهـم وحصلـت منهم على الفكر القويم والرأى السـديد ... شـكرًا للحكومـات العربيـة الناضجـة التى تقدر العلم وتدرك أن التاريخ لا يغفل ولا ينسى ، علـى مـا قدمتـه مـن عـون أدبى ومادى لاتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ، ونخص بالذكر حكومات الكويـت والمملكة العربية السعودية وإمارة الشارقة ، فضلاً عن الحكومة المصرية .

حضرات الأخوة والأخوات ... والزملاء والزميلات ...

اليوم استودعكم ا لله ؛ داعيا لكم بسلامة المسيرة ، حتـى يتحقيـق للمـؤرخ العربى ما نرجوه له من مكانة ورفعة ، وللتاريخ العربى ما ننشده له جميعًا من نقـاء وصفاء وازدهار .

والسلام عليم ورحمة ا لله وبركاته

سعيد عبد الفتاح عاشور

وبعد الفراغ من إلقاء كلمته ، ناقش الأعضاء - وكان عدد الحضـور يزيـد عن الثلثمائة عضوا - موضوع رئاسة الاتحاد للسنوات الثـلاث المقبلـة . وقـد قـرر الحضور بالإجماع التمسـك بالاستاذ الدكتـور سعيد عبـد الفتـاح عاشـور رئيسًـا للاتحاد ، وشكره على ما قدمه ويقدمه للاتحـاد مـن جهـد وخدمـات ؛ وبذلـك تم تجديد رئاسته بالإجماع والتزكية .كذلك تم اختيار أعضـاء مجلس الأمنـاء ، الـذى عقد اجتماعه بعد ذلك مباشرة فى إطار اللائحة الأساسية لاتحاد المؤرخين العرب.

محضر اجتماع

مجلس أمناء جمعية اتحاد المؤرخين العرب

يوم الخميس الموافق ١٩٩٧/١١/٢٧م

فى يوم الخميس الموافق ١٩٩٧/١١/٢٧ اجتمع مجلس الأمناء عقب انعقاد الجمعية العمومية لاتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة فى تمام الساعة الثانية والنصف بعد الظهر وحضر الاجتماع كل من :

الأستاذ الدكتور / سعيد عبد الفتاح عاشور رئيس الاتحاد
الأستاذ الدكتور / عبد الله بن يوسف الشبل
الأستاذ الدكتور / حسنين محمد ربيع
الأستاذ الدكتور / عبد اللطيف عبد الله بن دهيش
الأستاذ الدكتور / سهيل محمد زكار
الأستاذ الدكتور / يونان لبيب رزق
الأستاذ الدكتور / أحمد عمر الزيلعى
الأستاذ الدكتور / مصطفى محمد رمضان
الأستاذ الدكتور / إبراهيم زعرور بن محمود
الأستاذ الدكتور / محمد محمد مرسى الشيخ

واعتذر عن عدم الحضور كل من أ. د. ميمونة الصباح ، أ. د. حياة ناصر الحجى ، أ. د. سليمان إبراهيم العسكرى .

بدأ الاجتماع السيد أ. د. سعيد عبد الفتاح عاشور رئيس اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة " بسم الله الرحمن الرحيم " وهنأ الأعضاء الجدد لعضويتهم بمجلس اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة متمنيًا التوفيق والسداد للجميع فى الدورة الجديدة .

ثم شرع المجلس فى مناقشة جدول الأعمال فى الموضوعات التالية :

الموضوع الأول : اقتراح عنوان الندوة القادمة للاتحاد :

ناقش أعضاء مجلس الأمناء الموضوع ، وكان من الموضوعات المقترحة للندوة :

١ - البحر الأحمر عبر عصور التاريخ .
٢ - العلاقة بين المشرق والمغرب فى العصور الحديثة .
٣ - تطوير الدراسات التاريخية فى الوطن العربى .
٤ - مصادر تاريخ العرب .
٥ - فلسطين عبر العصور .

القـــرار

بعد مناقشة وتبادل الرأى وافق أعضاء مجلس الأمناء على أن يكون موضوع الندوة القادمة :

(أضواء جديدة على مصادر تاريخ العرب)

واقترح أن تكون محاور الندوة :

- النقوش والعمائر .
- الوثائق والبرديات .
- الحوليات التاريخية .
- كتب الجغرافيا .
- كتب الرحلات .
- كتب التراجم والطبقات والأنساب .
- كتب الأدب ودواوين الشعر .

الموضوع الثانى : انتخاب نائب لرئيس اتحاد المؤرخين العرب وأمين عام الاتحاد وأمين الصندوق :

القـــرار

تم انتخاب النائب وأمين المجلس وأمين الصندوق على النحو التالى :

أ. د. عبد الله بن يوسف الشبل	نائب رئيس الاتحاد
أ. د. حسنين محمد ربيع	الأمين العام
أ. د. يونان لبيب رزق	أمين الصندوق

الموضوع الثالث : تشكيل هيئة تحرير مجلة المؤرخ العربى التى يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة .

القــــرار

الموافقة على تشكيل هيئة تحرير مجلة المؤرخ العربى على النحو التالى :

- أستاذ دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور رئيس التحرير

وعضوية كل من :

- أستاذ دكتور حسنين محمد ربيع
- أستاذ دكتور سليمان إبراهيم العسكرى
- أستاذ دكتور عبد اللطيف عبد الله بن دهيش
- أستاذ دكتور سهيل محمد زكار
- أستاذ دكتورمصطفى محمد رمضان

الموضوع الرابع : ما يستجد من أعمال :

وافق المجلس على اقتراح الأستاذ الدكتور / أحمد الزيلعى بمنح جميع الصلاحيات للأستاذ الدكتور / سعيد عبد الفتاح عاشور لتعيين من يختارهم من الفئات المعاونة لسيادته ، وتحديد رواتبهم .

وانتهى الاجتماع فى تمام الساعة الرابعة والنصف عصر يوم الخميس الموافق ٢٧ رجب ١٤١٨هـ / ٢٧ نوفمبر ١٩٩٧ .

١٩٩٧/١١/٢٧ الأمين العام رئيس اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

أ. د. حسنين محمد ربيع أ. د. سعيد عبد الفتاح عاشور